إنجيل شجرة السُّم

باربرا كينغسولڤر

مكتبة

ترجَمَة: خالد الجبيلي

رواية

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

إنجيل شجرة السم

إنجيل شجرة السم - رواية
تأليف: باربرا كينغسولفِر
ترجمها عن الإنكليزية: خالد الجبيلي

The Poisonwood Bible
Barbara Kingsolver

تصميم الغلاف: نجاح طاهر
ISBN: 978 - 9933 - 641 - 49 - 8
الطبعة الأولى: 2022

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص ب: 9838
هاتف-فاكس: 6133856 11 963+
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House
twitter.com /AdwanPH

دار سرد للنشر
جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com /Sard.Publishing
twitter.com /SardPublishing

© 1998 Barbara Kingsolver

باربرا كينغسولڤِر

مكتبة
t.me/soramnqraa

إنجيل شجرة السم

رواية

ترجمها عن الإنكليزية:
خالد الجبيلي

توضيح

مكتبة
t.me/soramnqraa

تعتمد الكاتبة في هذه الرواية على تقنية تعدّد الأصوات لرواية الأحداث، وتمنح لكل صوت ميزةً تخصّه، وقد سعت الترجمة العربية للحفاظ على ذلك، لكنْ ثمة تحدّيان اثنان واجها فريق التحرير أثناء مراجعة الترجمة:

الأول: يتعلّق بالفصول التي ترويها «راشيل»، فهي لا تبدي اكتراثاً كبيراً بشيء حتى باللغة نفسها، ولذلك فإنها في كثير من المرات تكتب كلمات معيّنة بصورة خاطئة، وتسيء استخدام الألفاظ أو التراكيب، وهذا يغيّر من المعنى الذي تقصده أحياناً.

والثاني: الفصول التي ترويها «إدا»، المصابة بتلف في نصف دماغها، إذ تكتب كثيراً من الجمل التي يمكن قراءتها من اليمين إلى اليسار وبالعكس، كما أنها تحاول أحياناً اختراع سلسلة من الكلمات التي لها القافية نفسها.

إن قارئ اللغة الأصل سيتمكّن بقليل من الجهد فهم كلمات «راشيل» الخاطئة ومعرفة المقصود، وسيستطيع مجاراة «إدا» في ألعابها الكتابية واللغوية، ولكن، هل هناك طريقة مثلى لنقل ذلك في الترجمة؟ قد يكون الحل هو محاولة إيجاد كلمات عربية يمكن لتغيير بسيط فيها أن يعطي كلمة أخرى تثير ما يثيره الخطأ في اللغة الإنكليزية من انطباع، إضافةً إلى إيجاد جمل يمكن قراءتها مقلوبة، وإيجاد كلمات لها القافية نفسها في العربية.

غير أن هذا الخيار الطموح في المحافظة على روح النص، سيصطدم

بسؤال محيّر ومحقّ: ألّا ينبغي الحفاظ على عبارات الشخصيات ومفرداتها نفسها، من دون أي تغيير؟ فالمفردات التي تختارها الشخصيات تعبّر عن طريقتها في فهم العالم، وليست مجرّد كلمات يمكن لغيرها أن يحلّ محلها، حتى لو كان الهدف نقل روح النص.

هذا ما دفعنا في النهاية إلى محاولة الالتزام بالألعاب اللغوية حين يكون ذلك ممكناً من دون اللجوء إلى استبدال معنى الكلمات بكلمات أخرى، وحين لم يكن ذلك ممكناً لجأنا إلى الحواشي للتوضيح.

ثمّة صعوبة ثانية واجهناها، تتعلّق بأن الأحداث تجري ضمن ثقافتين مختلفتين هما الثقافة الأميركية، والثقافة الكونغولية، إضافة إلى أن الرواية تمتلئ بإشارات دينية، وفي حين أن قارئ الإنكليزية الذي يأتي غالباً من خلفية ثقافية مشابهة للشخصيات، سيتمكّن من التقاط هذه الإشارات مباشرة، فإن قارئ اللغة العربية ربما لن يستطيع فعل ذلك بالسهولة نفسها، وهنا لجأنا مرة أخرى إلى الحواشي إما لتوضيح الإشارات الدينية، وإما لوضع بعض التوضيحات التي ستفيد القارئ في الإلمام بعالم الرواية وبتفاصيلها.

أخيراً،

لا يرسل كاتبٌ أو مترجم أو محرّر أو ناشر كتاباً إلى الطباعة، وهو متأكّد تماماً من أنه فعل ما هو صواب فعلاً، فما تزال بذرة من شكٍّ هنا وهناك تنخر في رأسه إن كان فعل بحقّ ما هو صواب أم أنه أخطأ في تقديراته. لكن ما يدركه تماماً أنه حاول بذل كل جهدٍ ممكن، ولم يبخل بوقتٍ أو ببحثٍ أو بتحرّي دقّة، ثم قدّم ما رآه الأفضل. لذلك، فإن كل ما نرجوه الآن ونحن ندفع بهذه الرواية إلى القراء أن يغفروا لنا إن أخطأنا، وحسبُنا أن نكرّر ما قالته «إدا» حين أشارت إلى أن الأخطاء كانت جزءاً من حكايتهم، فكذلك أيضاً إن الأخطاء هي جزء من أي عملٍ بشري، وبضمن ذلك عملنا هذا.

فريق التحرير

إلى فرانسيس

كلمة المؤلّفة

هذا عملٌ من خلق الخيال، والشخصيات الرئيسة الواردة فيه من محض الخيال، لا وجود لها على سطح هذه الأرض، على حدّ علمي. أما الكونغو التي وضعت فيها هذه الشخصيات، فهي حقيقية. إن الشخصيات والأحداث التاريخية المذكورة في هذه الرواية حقيقية بقدر ما استطعت أن أستمدّها من التاريخ المدوّن في جميع تبايناته الآسرة.

وبما أنني لم أتمكّن من دخول زائير، عندما كنت أكتب هذه الرواية وأجري أبحاثي عليها، فقد اعتمدت على الذاكرة وعلى السفر إلى أصقاع أخرى في إفريقيا، كما اعتمدت على روايات عدد كبير من الأصدقاء عن الجوانب الطبيعية والثقافية والتاريخ الاجتماعي للكونغو/ زائير. بالنسبة لي ولأيّ قارئ قد يرغب في معرفة المزيد من الحقائق التي تستند إليها الرواية فإن هذه المصادر متنوّعة جداً وقيّمة - أوردت عدداً منها في مسردٍ بيبلوغرافي في نهاية الكتاب. وكان أكثر هذه المصادر إفادة وصف جوناثان كويتني لتاريخ زائير في فترة ما بعد الاستعمار، في كتابه الممتاز: «أعداء أبديّون»، الذي حفّزني على كتابة رواية تتناول الموضوع نفسه. وأعود دائماً إلى هذا الكتاب لأتعرّف على الصورة الكبيرة وعلى الأفكار الصغيرة التي لا تُعدّ ولا تُحصى. وقد استلهمت الكثير من الأفكار من نصّ جانهينز

جان الكلاسيكي: «مونتو»؛ ومن رواية تشينوا أتشيبي: «الأشياء تتداعى»؛ ومن كتاب ألن ب. ميريام: «الكونغو: خلفية الصراع»؛ و«لومومبا: الأيام الخمسون الأخيرة»، بقلم ج. هاينز وَ هـ. دوناي. ولم يكن بإمكاني أن أكتب هذا العمل من دون الاعتماد على مصدرين رائعين من الإلهام الأدبي، يكادان يتساويان في الحجم وهما: قاموس ك. ي. لامان *Dictionnaire Kikongo-Français*، والكتاب المقدّس للملك جيمس.

واعتمدتُ أيضاً على المساعدة التي قدّمَتها لي دائرة أصدقائي الرائعين الذين كان يخشى بعضهم أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة قبل أن أضع أمامهم نسخاً جديدة من مخطوطة ضخمة. فقد قرأ كلٌّ من ستيڤن هوب، وإيما هارديستي، وفرانسيس غولدين، وتيري كارتين، وسيديل كرامير، وليليان لينت عدّة مسوّدات، وقدّموا لي تعليقات قيّمة بخصوصها. وحقّقت إيما هارديستي معجزات هائلة في العمل الجماعي والصداقة والكفاءة التي مكّنتني كلّها من التفرّغ للكتابة. وساعدت آن ميرس وإيريك بيترسون في فكّ مغالق قواعد اللغة الكيكونغوية وتفاصيل الحياة الكونغولية. وزوّدني جيم مالوسا، وسونيا نورمان، بأفكار هامة في المسوّدة النهائية. وقدّم كيت توركينغتون من جنوب إفريقيا مساعدة قيّمة، وقرأ موميا أبو جمال المخطوطة وعلّق عليها وهو في السجن، وأدين له بكلّ الامتنان على ذكائه وشجاعته.

وأتقدّم بشكر خاص لكلٍّ من ڤرجينيا وويندل كينغسولڤر، لأنهما كانا مختلفين في كلّ شيء عن الأبوين اللذين خلقتهما على لسان رواة هذه القصّة. فقد كنت الطفلة المحظوظة لأبوين يعملان في مجال الطب والصحة العامة، قادهما شغفهما وفضولهما إلى الكونغو، وجاءا بي إلى مكان مليء بالعجائب، وعلّماني أن أركّز اهتمامي على كلّ شيء، ووضعاني في وقت مبكّر على طريق استكشاف التضاريس الهائلة والمتغيّرة بين ما هو صواب وما هو إنصاف.

لقد أمضيت زهاء ثلاثين عاماً بانتظار أن أصل إلى الحكمة والنضج اللذين يؤهّلانني لكتابة هذا العمل. وبعد أن كتبته الآن، فإنه ليس دليلاً على تحقُّق هذين الأمرين، وإنما برهانٌ على التشجيع اللا نهائي، والإيمان غير المشروط، والأحاديث الهادئة، وأكداس المراجع الهامة التي كان يجلبها لي زوجي الاستثنائي دائماً في اللحظات الحاسمة. شكراً لك يا ستيڤن لأنك علّمتني أن لا فائدة تُرجى من انتظار الأشياء التي لا تظهر إلّا من بعيد، وللإيمان بأن روح المغامرة تكفي عادةً.

الكتاب الأول

التكوين

وبَاركَهم الله وقال لهم:

أثمِروا واكثروا، واملؤوا الأرض وأخضِعوها،

وتسلّطوا على سمك البحر، وعلى طيور السماء،

وعلى كلّ حيوانٍ يدبّ على الأرض.

سِفْر التكوين 28:1

أورليانا برايس

جزيرة ساندرلينغ، جورجيا

تخيَّلْ دماراً غريباً جدّاً لدرجة أنه يجب ألّا يحدث أبداً!

في البداية، تَصوّر الغابة! أريدك أن تكون ضميرها، العيون في الأشجار. الأشجار أعمدةٌ مكسوّة بلحاءٍ ناعم أملسَ، ذاتُ خطوطٍ رماديّة مثل حيواناتٍ تكسوها عضلات، ضخمة إلى حدٍّ يفوق التصوّر. كلّ بقعةٍ في الغابة تضجّ بالحياة: ضفادع رهيفة، سامّة، مرقّطة بألوان الحرب مثل هياكل عظمية، تتسافد، تخبِّئ بيوضها الثمينة على أوراق الأشجار؛ والنباتات المعرّشة تخنق النباتات الأخرى القريبة منها، في صراعٍ أبديّ للحصول على ضوء الشمس؛ وصوت القرود وهي تتنفّس؛ وانزلاق بطن أفعى وهي تزحف فوق غصن شجرة. وجيشٌ من النمل يسير في رتلٍ واحد يقضم شجرةً ضخمة، ويحوّلها إلى حبّاتٍ صغيرة متجانسة، ويسحبها إلى الظلام، من أجل ملكته المفترسة النهمة. وردّاً على كلّ ذلك، هناك جوقةٌ من النباتات التي تقوّس أعناقها خارجةً من جذوع الأشجار المتعفّنة، وتمتصّ الحياة من الموت. هذه الغابة تأكل نفسها وتعيش إلى الأبد.

ومن مسافةٍ بعيدة، تأتي الآن، في رتلٍ واحد على الدرب، امرأةٌ ترافقها أربع فتيات تسير كلّ اثنتين معاً، الواحدة بجانب الأخرى، يرتدين كلّهن

فساتين تشبه قمصاناً تصل إلى الخصر. ومن أعلى الدرب، نرى أنهن أزهارٌ شاحبة محكومٌ عليهن بالفناء، لا بدّ أن يستحوذن على تعاطفك معهن. انتبه، في ما بعد يجب أن تقرّر ما نوع التعاطف الذي يستحققنه. لا سيما الأمّ - انظر كيف تسير أمامهن، شاحبة العينين، تمشي بخُطا وئيدة ثابتة. شعرها الأسود معقودٌ بمنديلٍ خشن مطرّز، تضيء عظم فكّها المقوّس أقراطٌ كبيرة من اللؤلؤ الزائف، كأنّ هذه المصابيح القادمة من عالمٍ آخر ترشدها على الطريق. وتسير الفتيات وراءها، أربع فتيات ضُغطت أجسادهن في قمصانٍ ضيّقة مثل أوتار، كلّ واحدة منهنّ مستعدّة لأن تطلق قلب امرأة على دربٍ مختلف يفضي إلى المجد أو إلى الهلاك. حتّى إنهن يحرصن على ألّا تقترب إحداهن من الأخرى مثل قطط وُضعت في كيس: فتاتان شقراوان -واحدة قصيرة وعنيفة، والأخرى طويلة القامة متعجرفة- تحيط بهما فتاتان سمراوان تتشابهان مثل دفّتَي كتاب. الفتاة التي تسير في المقدمة تتوق لأخذ زمام المبادرة، بينما الفتاة التي في الخلف تجرّ قدميها بعرجٍ إيقاعي. لكنهنّ يصعدن بشجاعة كافية معاً فوق جذوع الأشجار العفنة التي سقطت عبر الدرب. تلوّح الأمّ بيديها برشاقة أمامها وهي تشقّ الطريق، تزيح ستارةً بعد ستارة من شبكات العناكب، كما لو كانت تقود سمفونية. ثم تُغلَق الستارة خلفهن، وتعود العناكب إلى أساليبها القاتلة.

عند ضفة الجدول يضعن طعامهن الكئيب الذي يتألف من خبزٍ يابس سميك مدهون بالفول السوداني المهروس وشرائح من موز البلانتين المرّ. بعد أشهر من الجوع المتواضع، نسيت الفتيات الصغيرات الآن أن يتذمّرن من قلّة الطعام. يزدردن بصمت، ينفضن الفتات، ثم ينجرفن مع التيار ليسبحن في المياه المتدفّقة بسرعة. تبقى الأمّ وحدها في تجويف صغير من الأشجار الضخمة عند حافّة بركة. أصبح هذا المكان مألوفاً لها الآن مثل غرفة جلوس في بيت في حياة لم تكن تسعى إليها. تستقر مضطربةً

في هذا الصمت، تراقب النمل وهو يتسلّق الفتات الذي يبدو أصلاً طعاماً شحيحاً. يوجد دائماً كائنات جائعة أكثر من بناتها. تدسّ فستانها تحت ساقيها وتتفحّص قدميها النحيلتين، الخاليتين من الريش في عشّهما العشبي عند حافّة الماء - طائران صغيران لا يستطيعان أن يطيرا من هناك، بعيداً عن الكارثة التي تعرف أنها آتية. يمكنها أن تخسر كلّ شيء: ذاتها، لا بل الأسوأ، بناتها. والأسوأ من كلّ ذلك: أنتِ، سرّها الوحيد. المفضّلة. كيف يمكن لأمٍّ لا تلوم إلا نفسها أن تحتمل؟

إنها وحيدة على نحوٍ غير إنساني. ثمّ، فجأة، لم تعد وحيدة. حيوان جميل كان يقف على الطرف الآخر من الجدول. يخرج كلّ منهما من حياته، امرأة وحيوان، يُفاجَأان لأنهما يجدان نفسيهما في المكان نفسه. يتسمّر في مكانه، يتفحّصها بأذنيه اللتين تعلوهما بقعٌ سود. ظهره بنّي أرجوانيّ في الضوء الخافت، ينحدر إلى الأسفل من الحدبة عند كتفيه. وتسقط ظلال الغابة في خطوط على خاصرتيه المخطّطتين بخطوط بيضاء. ساقاه الأماميتان الصلبتان مفلطحتان إلى الجانبين مثل ركيزتين، لأنها رأته وهو يحاول الوصول إلى الماء. ومن دون أن يرفع عينيه عنها، يرتعش قليلاً عند الركبة، ثمّ عند الكتف الذي تحطّ عليه ذبابة. وأخيراً يستسلم لمفاجأته، يشيح بعينيه عنها، ويبدأ يشرب. يمكنها أن تشعر بملمس لسانه المجعّد الطويل وهو يلامس جلد الماء، كما لو كان يلعق الماء من يدها المكوّرة. يتمايل رأسه قليلاً برقّة، يهزّ قرنيه المخمليين الصغيرين المضاءين باللون الأبيض من الخلف مثل أوراق أشجار نضرة.

أيّاً يكن ذلك، فإنه لم يدُم إلّا لحظة واحدة. هل حبس أحدٌ منهما أنفاسه؟ فترة بعد الظهر للنمل؟ استمرّ ذلك لوهلة. يمكنني أن أؤكّد ذلك، لأنه رغم مرور عدة سنوات منذ أن بدأت بناتي يتحكّمن في حياتي، فإن الأمّ تتذكّر مقدار الصمت. لم أحصل طوال حياتي على أكثر من خمس دقائق متواصلة

من الهدوء والسلام. أنا هي تلك المرأة الجالسة على ضفة الجدول، طبعاً. أورليانا برايس، أصبحت معمدانية من جنوبي أميركا بالزواج، أمّ أطفال أحياء وأموات. هذه هي المرة الوحيدة التي أتى بها الأكاب(*) إلى الجدول، وأنا الشخص الوحيد الذي رآه.

لم أعرف اسم ما رأيته إلّا بعد عدة سنوات في أتلانتا، عندما حاولت أن أمضي وقتاً قصيراً في المكتبة العامة، بأمل أن أملأ كلّ صدعٍ تشقَّق في روحي بكتاب. وقرأت أن ذَكَر حيوان الأكاب أصغر حجماً من الأنثى، وأكثر حياء، ويكاد لا يُعرف عنه أيّ شيء آخر. ومنذ مئات السنين، يتحدّث الناس في وادي الكونغو عن هذا الحيوان الغريب الجميل. وعندما سمع به المستكشفون الأوروبيون، قالوا إنه حيوان أسطوري: أحادي القرن(**). قصّة رائعة أخرى من الدنيا المظلمة للسهام التي تُطلى رؤوسها بالسمّ، والشفاه المثقوبة بالعظام. وفي عشرينيات القرن الماضي، عندما أخذ الرجال، في مكان آخر في العالم، استراحة بين الحروب ليطوّروا صناعة الطائرة والسيارة، وقعت عينا رجل أبيض أخيراً على حيوان الأكاب. أستطيع أن أتخيّله وهو يراقبه بالمنظار، ثم يصوّب فوهة بندقيته ويطلق عليه. عائلة كاملة منه تستقرّ الآن في متحف نيويورك للتاريخ الطبيعي، ميّتة ومحشوّة، لها عيون زجاجية باهتة. ومن وجهة نظر علمية فإن الأكاب الآن حيوان حقيقي. حقيقي فقط، وليس أسطورة. حيوان متوحّش نوعاً ما، غزال في شكل حصان ينتمي إلى فصيلة الزرافة.

لكنّي أعرف أكثر من ذلك، وأنتِ أيضاً. تلك النظرات الزجاجية

(*) حيوان ثديي من فصيلة الزراف، موطنه الأصلي إفريقيا الوسطى، وخاصة الكونغو. شكله مزيجٌ من الزرافات والحمير الوحشية. [المحرّر].

(**) unicorn في الأصل، وهو حيوان أسطوري له جسم حصان وفي جبهته قرنٌ مستقيم. [م].

المحدّقة في المتحف ليست أفضل منك في شيء، طفلتي الأثيرة التي لا تزال طليقة، جامحة مثل نهار طويل. عيناك اللامعتان ترمقانني من دون توقّف، نيابة عن الأحياء والموتى. خذي مكانك، إذاً! انظري إلى ما حدث من جميع الزوايا، آخذةً في عين الاعتبار جميع الدروب الأخرى التي قد ضاعت. اعتبري، حتى، أن أحداً لم يغزُ إفريقيا كلّها. تخيّلي هؤلاء المغامرين البرتغاليين الأوائل يقتربون من الشاطئ، يتجسّسون عند طرف الغابة بعدسات مناظيرهم النحاسية. تخيّلي أنه بمعجزة ما، بسبب الخوف أو الرهبة، أنزلوا مناظيرهم، ونشروا أشرعتهم، وأبحروا عائدين من حيث أتوا. تخيّلي أن كلّ من جاؤوا بعدهم، فعلوا الشيء نفسه، فكيف سيكون شكل إفريقيا الآن؟ كلّ ما أستطيع أن أفكّر به هو حيوان الأكاب الآخر الذي كانوا يؤمنون به. أحادي القرن الذي يستطيع أن يحدّق مباشرة في عينيك.

في سنة الربّ 1960 أُطلق قردٌ إلى الفضاء على متن صاروخ أميركي. انتزع الفتى كينيدي الرئاسة من جنرال له سمات الأبوّة يُدعى آيك(*)، ودار العالم كلّه على محور يدعى الكونغو. وبينما كان القرد ينطلق إلى الأعلى، كان هناك رجال على الأرض يعقدون اجتماعات في غرف مغلقة ويتفاوضون على كنز الكونغو. لكنني كنت هناك، تماماً على رأس ذلك الدبّوس.

أُرهقت هناك، في تيّار ثقة زوجي المتدفّق وفي تيار احتياجات بناتي المعاكس. كان ذلك عذري، لكن أحداً منهم لم يكن بحاجة كبيرة إليّ. حاولت ابنتي البكر وابنتي الصغرى أن تقتلعاني منذ البداية مثل قشرة، وكان لدى الابنتين التوءم حدسٌ داخليّ جيّد مكّنهما من أن تتجاوزاني كلّما كان هناك شيء أكثر إثارة للاهتمام. وزوجي، لا يوجد غضب في الجحيم يشبه

(*) آيك هو لقب رئيس أميركا الرابع والثلاثين دوايت ديڤيد آيزنهاور Dwight D. Eisenhower. [م].

غضب واعظ معمداني. لقد تزوّجت رجلاً لا يمكن أن يحبّني، ربما، لأنه خصّص ولاءه للبشرية كلّها. لقد بقيت زوجته لأنه كان شيئاً باستطاعتي أن أفعله كلّ يوم. وكانت بناتي يقلن: «أترين يا ماما، لا توجد لديك حياة خاصة بك!».

لا يعرفن البتّة، فليس للمرء إلا حياةٌ خاصة به وحسب.

لقد رأيت أشياء لن يعرفن عنها شيئاً أبداً. فقد رأيت طيوراً من فصيلة الطير الحائك(*) تعمل معاً لأشهر لتبني عشّاً، أصبح أخيراً كتلةً ضخمة من الغُصينات والذريّة والأشياء التافهة، مما تسبب في النهاية في سقوط الشجرة كلها. لم أخبر زوجي ولا بناتي عن ذلك مطلقاً. وهكذا ترون. لديّ قصّتي، وكلّما تقدّم بي العمر أثقلَت عليّ. وكلّما تغيّر الطقس، ازداد الألم في عظامي، فأتقلّب في السرير وتنبعث مني الذكريات مثل سرب ذباب يطنّ ويطير خارجاً من جيفة. أتوق لأن أتخلص منها، لكني أجد نفسي حذرة أيضاً في اختيار أيّ شيء منها يجب أن أتركه يخرج ليرى النور. أريدك أن تجدي أنني بريئة. وبقدر ما أشتهي جسدك الصغير التائه، فإني أريدك أن تتوقّفي الآن عن لمس باطن ذراعيّ في الليل بأطراف أصابعك. أن تكفّي عن الهمس. سأعيش أو أموت وفقاً لقوة حكمك عليّ، لكن دعيني أقُل لك أولاً من أنا. دعيني أزعم بأنني كنت أنا وإفريقيا رفيقين، ثمّ ذهب كلٌّ منا في طريقه، كما لو كنا صديقين باءت علاقتهما بالفشل، أو لنقل إنني ابتُليت بإفريقيا كما يُبتلى المرء بمرضٍ نادر، ولم أتمكّن من الشفاء من هذا المرض على نحوٍ كامل. ربما سأعترف بالحقيقة، بأنني رافقت الفرسان ورأيتُ نهاية العالم(**)، لكني ما أزال أصرّ على أنني لست سوى شاهدة أسيرة. فمن هي

(*) الطير الحائك أو الحبّاك، ويسمى بهذا الاسم بسبب أعشاشه المتقنة الصنع. [م].

(**) إشارة إلى سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي 6: 1–8. ويرمز الفرسان الأربعة الذين يرد ذكرهم في هذه الآيات إلى الاحتلال والحرب والمجاعة والموت على التوالي. [م].

زوجة المحتل، إن لم تكن مُحتلّةً هي نفسها؟ وما يكون هو؟ عندما ينطلق ليحتل القبائل الآمنة، ألا تعتقد أنها تنهار برغبة أمام تلك العيون الزرقاء بلون السماء؟ وتحدوهم الرغبة في أن يأخذوا دوراً على تلك الخيول، واستعمال تلك الأسلحة؟ هذا ما نقوله للتاريخ، دائماً، وأبداً. لست أنا وحدي. فهناك جرائم تناثرت بكلّ الطرق الممكنة، وأما أنا فعندي أفواه يجب أن أطعمها. لم أكن أعرف في ذلك الوقت. لم يكن لدي حياة خاصة بي.

لكنك ستقول إنني فعلت ذلك. ستقول إنني سرت في دروب إفريقيا ومعصميّ غير مكبّلين، وأنا الآن روحٌ أخرى تسير بحرية في بشرة بيضاء، مرتديةً بعض الأشياء المنهوبة: قطن أو ماس، حرّية على أقل تقدير، ازدهار. يعرف بعضٌ منا كيف حصلنا على ثروتنا، ولا يعرف بعضنا الآخر، لكننا نرتديها كلّنا دون استثناء. ثمة سؤال واحد يجب أن يُطرح الآن: كيف ننوي التعايش معها؟

أعرف كيف هم الناس، وكيف يفكّرون. سيُبحر معظمهم من المهد إلى اللحد بضميرٍ نقيّ كالثلج. من السهل إلقاء اللوم على آخرين، أصبحوا أمواتاً، بدءاً من أولئك الذين جرفوا الطين من ضفاف الأنهار ليتشمّموا رائحة مصدرٍ ما. لماذا لم يكن الدكتور ليڤينغستون(*)، على سبيل المثال، هو الوغد؟! هو وجميع الانتهازيين الذين غادروا إفريقيا مثل زوج يهجر زوجته، يتركها وجسدها العاري متكوّر حول منجم رحمها الذي أُفرغ. أعرف الناس. لا توجد لدى معظمهم فكرة دنيويّة عن ثمن الضمير الأبيض بياض الثلج.

لن أكون مختلفة عن الآخرين إن لم أدفع نصيبي الصغير من الدم.

(*) David Livingstone داڤيد ليڤينغستون (1813-1873): مستكشف اسكوتلندي لوسط إفريقيا، ومبشّر مسيحي. له كتب عن رحلاته وحياته في إفريقيا. وكان هو من أطلق على شلالات ڤكتوريا هذا الاسم (نسبة إلى الملكة ڤكتوريا). [م].

لقد وطئت قدماي أرض إفريقيا من دون أن أعرف عنها شيئاً، منذ البداية الموحى بها إلهياً لعائلتنا حتى نهايتنا الفظيعة، وبينهما، في خضمّ لهيب كلّ تلك الليالي والأيام التي تغمرها الألوان الداكنة، وتفوح منها رائحة الأرض، كنت أعتقد أنه يقبع هناك قدرٌ من التعاليم الصادقة. يمكنني أحياناً أن أقول ماذا كانت. لو استطعت، فسألقي بها في وجوه الآخرين، وأخشى أن أقلق راحتهم. سأُلقي هذه القصّة الفظيعة عن كاهلي، أسطّحها، وأرسم جرائمنا مثل مخطط معركة فاشلة، وأهزّها أمام وجوه جيراني المحترسين مني مسبقاً. لكن إفريقيا تتحرّك تحت يديّ، ترفض أن تكون طرفاً في علاقة فاشلة. ترفض أن تكون في أيّ مكان على الإطلاق، أو أيّ شيء إلا نفسها: مملكة الحيوانات تغتنم الفرصة في مملكة المجد. ها هي ذي إذاً، خذي مكانك! لا تتركي لخفّاشة عجوز مسكونة بالأشباح شيئاً تستخدمه، فتعكّر صفو السلام. لا شيء، سوى حياتها هذه!

لم نكن نهدف إلى أكثر من الهيمنة على جميع المخلوقات التي تتحرّك على وجه الأرض. وهكذا ذهبنا إلى مكان ظنّنا أن لا شكل له، لا يتحرّك فيه على وجه الماء إلّا الظلام. الآن أنت تضحكين، ليل نهار، وأنت تنهشين عظامي. لكن ما الذي كان يمكن أن نفكّر به؟ كنا نظنّ أن كل شيء يبدأ بنا وينتهي بنا. ما الذي نعرفه، حتّى الآن؟ اسألي الفتيات! انظري كيف كبرن وكيف أصبحن! لا يمكننا أن نتحدّث إلّا عن الأشياء التي حملناها معنا، والأشياء التي تركناها.

الأشياء التي حملناها

كيلانغا، 1959

مكتبة
t.me/soramnqraa

ليا برايس

جئنا من بلدة بيت لحم، بجورجيا، ونحن نحمل علب خليط بيتي كروكر كيك إلى الغابة. كنا ننوي أنا وأخواتي أن نقيم احتفالاً بعيد الميلاد لكل واحدة منّا خلال فترة البعثة التبشيرية التي ستدوم اثني عشر شهراً. قالت أمّنا: «ويعلم الله أنه لا توجد علب خليط بيتي كروكر كيك في الكونغو».

«لا يوجد مشترون وباعة في المكان الذي سنذهب إليه!» قال أبي مصحّحاً. كانت لهجته تلمّح ضمناً إلى أنّ أمّنا أخفقت في فهم الهدف من البعثة التي نذهب فيها، وأنّ حرصها على جلب علب بيتي كروكر كيك يضعها في فئة الصرّافين الآثمين الذين أغضبوا المسيح فطردهم من الهيكل(*). وليوضّح الأمر أكثر قال: «لا يوجد في المكان الذي سنذهب إليه محلّات بيغلي ويغلي». لا بدّ أن أبي رأى أن هذا الأمر في صالح الكونغو، فسرت قشعريرة في جسدي، لمجرّد محاولة تخيّل ذلك.

(*) إشارة إلى حادثة طرد المسيح للباعة والمشترين والصرّافين من ساحة الهيكل، (إنجيل متى 21: 12-13). [م].

بطبيعة الحال، أمي لن تعارضه. لكنها عندما أدركت أن الأمر قد حُسم، وضعت في غرفة النوم الاحتياطية كلّ الأشياء الدنيوية التي تظن أننا سنحتاج إليها في الكونغو لنتدبّر أمورنا. «الحدّ الأدنى لبناتي»، كانت تردّد بصوت منخفض طوال اليوم. وإضافةً إلى علب الكيك، وضعت أمي دزينة من علب لحم الخنزير المتبّل ماركة «أندروود»، ومرآة راشيل العاجية ذات المقبض البلاستيكي، التي على ظهرها صور لسيّدات بشعر مستعار، وكشتباناً من الفولاذ المقاوم للصدأ، ومقصّاً جيّداً، ودزينتين من أقلام الرصاص، والكثير من ضمادات الجروح، وأقراص أناسين، وأبسوربين، وميزان حرارة للحمّى.

ها نحن ذا الآن هنا، مع كلّ هذه الكنوز الملوّنة التي نُقلت بأمان وخُزّنت لاستخدامها عند الضرورة. لا تزال تلك الأشياء على حالها، ما عدا أقراص أناسين التي تناولتها أمّنا، والكشتبان الذي أضاعته روث ماي في فتحة المرحاض. وأصبحت الأشياء التي جلبناها تبدو اليوم كأنها شيء من عهد غابر: فهي تبدو مثل أدوات زينة في حفلة مبهرجة في بيتنا هنا في الكونغو، في مكان يكاد يكون لونه كلّه بلون الطين. عندما أحدّق إليها وضوء موسم الأمطار يلمع في عينيَّ ورمل الكونغو في أسناني، فإنني بصعوبة أتذكّر المكان الذي كانت تبدو فيه هذه الأشياء في مكانها الطبيعي، مجرّد قلم رصاص أصفر، وزجاجة أسبيرين خضراء من بين العديد من الزجاجات الخضراء الأخرى المصفوفة على رفٍّ مرتفع.

حاولت أمي أن تفكّر بجميع الحوادث الطارئة، وبضمنها الجوع والمرض (عموماً يوافق أبي على حالات الطوارئ. لأن الله منح الإنسان وحده القدرة على التبصّر). أحضرت أمي مؤونة جيّدة من المضادات الحيوية التي أعطاها لها جدّنا الدكتور وارتون المصاب بخرف الشيخوخة، والذي يحبّ أن يتسكّع خارج بيته عارياً، لكنه لا يزال بإمكانه أن يفعل شيئين

على نحوٍ مثالي، وهما: الفوز في لعبة الداما، وكتابة وصفات طبية. وأحضرنا كذلك مقلاة من الحديد المصبوب، وعشر علب من خميرة الخبز، ومقصّ تخريم، ورأس فأس صغير، ومجرفة قابلة للطيّ، وأشياء كثيرة أخرى. هذه هي مجموعة شرور الحضارة التي شعرنا بأننا يجب أن نحضرها معنا.

كان القدوم إلى هذا المكان مع الحدّ الأدنى من الأشياء محنة حقيقية. فما إن أصبحنا على أهبة الاستعداد للسفر، حتى علمنا فجأة بأنّ شركة طيران بان أمير كان لا تسمح بحمل أكثر من أربعة وأربعين باونداً لكل مسافر عبر المحيط. أربعة وأربعون باونداً من الأمتعة لكلّ شخص، ولا ذرة واحدة أكثر. لقد أزعجنا هذا الخبر السيّئ! فمن كان يتخيّل أنه توجد حدود تفرضها وسائل النقل النفّاثة الحديثة؟ وعندما جمعنا الوزن المخصص لكلّ واحدٍ منّا، وبضمن ذلك الوزن المخصص لروث ماي -من حسن الحظ أنهم اعتبروها شخصاً كاملاً مع أنها صغيرة- كان لا يزال لدينا واحدٌ وستّون باونداً زيادة في الوزن.

استطلع الأب يأسنا، كما لو كان يتوقّع ذلك طوال الوقت، وترك لزوجته وبناته أن يدركوا وحدهم، مقترحاً فقط أن ننظر إلى الزنابق في الحقل(*) التي لا تحتاج إلى مرآة يدوية أو أقراص أسبيرين.

«أظن أن الزنابق بحاجة إلى أناجيل وإلى مجرفته القديمة»، تمتمت راشيل، فيما كانت أدوات الزينة المفضّلة لديها تُخرَج من الحقيبة، الواحدة تلو الأخرى. لن تفهم راشيل الكتاب المقدّس أبداً.

أما إذا نظرنا إلى الزنابق كما ينبغي لنا أن نفعل، فإن محاولة التقليل من الأغراض لم تقترب كثيراً من الهدف المنشود، حتى من دون أدوات زينة راشيل. احترنا في أمرنا. ثمّ، هللويا! أُنقذنا في اللحظة الأخيرة. فبسبب

(*) إشارة إلى الآية: «ولماذا تهتمون باللباس؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو! لا تتعب ولا تغزل» (إنجيل متى 28:6). [م].

سهوٍ (أو ربما أيضاً، إذا فكّرتَ في الأمر، بسبب الكياسة فحسب) فإن شركة الطيران لا تزن الركّاب. ألمحت رابطة الفرق التبشيرية المعمدانية الجنوبية لنا بهذا -من دون أن تقوله صراحة، وتخبرنا أن ننتهك قانون الأربعة والأربعين باونداً-. وهكذا وضعنا خطّتنا، فانطلقنا إلى إفريقيا ونحن نحمل كلّ الوزن الزائد على أجسادنا، تحت ثيابنا. أيضاً، ارتدينا ثياباً تحت ثيابنا. وغادرنا أنا وأخواتي البيت، ترتدي كلّ واحدة منّا ستّة سراويل داخلية، ونصف دزينة من التنانير الداخلية والقمصان النسائية، وعدّة فساتين، الواحد فوق الآخر، تحتها سراويل تصل إلى أسفل الركبة، وفوق كلّ ذلك معطفٌ يصلح لكل أنواع الطقس (نصحتنا الموسوعة بأن نضع مسألة الأمطار بعين الاعتبار). كانت كل الحاجات الأخرى والأدوات وعلب خليط الكيك وغيرها، مخفية عن الأنظار في جيوبنا وتحت أحزمتنا تحيطنا بدرعٍ يصدر قعقعة.

من الخارج ارتدينا أفضل فساتين لدينا لنعطي انطباعاً جيّداً عنّا. فارتدت راشيل فستان عيد الفصح من الكتّان الأخضر الذي كانت مزهوّة به كثيراً، وأبعدت شعرها الطويل الضارب إلى البياض عن جبينها برباط شعر عريض وردي اللون. تبلغ راشيل الخامسة عشرة من عمرها -أو كما تقول فإنها ستبلغ السادسة عشرة قريباً- وهي لا تهتمّ بشيء إلا بالمظاهر. اسمها الكامل بالعماد راشيل ريبيكا، وهذا يجعلها تشعر بالحرية لأن تفعل كما فعلت ريبيكا (رِفْقة)، الفتاة العذراء التي كانت تقف عند البئر، والتي وصفها سِفر التكوين بأنها «فتاة جميلة جداً» وقُدّمت لها خِزامة ذهب هديةَ زواجٍ عندما تجسّس عليها خادم إبراهيم وهي تجلب الماء. (بما أنها تكبرني بسنة واحدة، فإنها تقول إنه لا علاقة لها براشيل المسكينة المذكورة في التوراة، أخت ليا الكبرى، التي انتظرت كلّ تلك السنوات لتتزوّج)(*). جلست

(*) في العهد القديم من الإنجيل فإن ليئة (أو ليا Leah كما يُكتب في النص الإنكليزي) هي الأخت الصغرى لراحيل (أو راشيل Rachel كما يُكتب في النص الإنكليزي) =

بجانبي في الطائرة، وظلّت ترمش برموشها البيضاء بياض الأرنب وتعدّل رباط شعرها الوردي اللامع، في محاولة منها لأن تجعلني ألاحظ أنها طلت أظفارها سرّاً بلونٍ ورديّ زاهٍ لتتلاءم مع ربطة شعرها. ألقيت نظرة إلى أبي الجالس في المقعد بجانب النافذة، في الطرف الآخر من صفّ المقاعد الذي نجلس عليه نحن أفراد أسرة برايس، كان قرص الشمس شديد الحمرة يلوح خارج نافذته، يلهب عينيه اللتين تترقبان بلهفة ظهور إفريقيا في الأفق. من حسن حظ راشيل أن أشياء كثيرة تشغل بال أبي الذي ضربها ذات يوم بالحزام لأنها طلت أظفارها، حتى وهي في هذا العمر. هذه هي راشيل تماماً. حاولت أن ترتكب آخر خطيئة قبل أن تغادر الحضارة. راشيل فتاة دنيوية ومضجرة برأيي، لذا رحت أحدّق من النافذة حيث المشهد أفضل. يعتبر أبي المكياج وطلاء الأظافر إشاراتٍ على الدعارة، وكذلك الآذان المثقوبة أيضاً.

كان محقّاً بشأن زنابق الحقل أيضاً. ففوق المحيط الأطلسي، أضحت الملابس الداخلية الستة وعلب خليط الكيك صليباً كبيراً يصعب حمله. وعندما كانت راشيل تنحني قليلاً لتبحث عن شيء في محفظتها، كان يصدر منها صوت خشخشة مع أنها تضع يدها فوق صدر سترتها الكتّانية. نسيت الآن ما هي الأشياء المنزلية التي تخبئها تحت ثيابها. وبما أنني تجاهلتها، راحت تكلّم إدا، التي كانت تتجاهلها أيضاً، لكن بما أن إدا لا تكلّم أحداً، فقد كان تجاهلها أقل وضوحاً.

= وهما زوجتا النبي يعقوب. وهنا تفضّل راشيل اسمها في العماد «ريبيكا» على اسم «راشيل» بسبب اختلاف حكايتي الشخصيتين صاحبتي الاسمين. والاسم بالعماد هو الاسم الذي يُعطى للشخص عند معموديته وفقاً للطقوس المسيحية.
الجدير بالذكر أن أسماء الأخوات الأربع في الرواية مأخوذة من الكتاب المقدس، فإدا Adah على اسم عادة، زوجة لامك الأولى، وروث ماي Ruth-May على اسم راعوث، صاحبة سفر راعوث، وهو أول سفر في التوراة مسمّى باسم امرأة. [م].

تعشق راشيل أن تسخر من كلّ شيء مخلوق، خاصة أسرتنا. «هيه، إدا!» -همستْ في أذن إدا- «ماذا لو كنّا الآن في آرت لينكليتير هاوس بارتي؟»(*).

ضحكتُ رغماً عني، لأن السيّد لينكليتير يحبّ أن يفاجئ السيّدات بأن يأخذ محافظهن ويُخرج كلّ محتوياتها أمام مشاهدي التلفزيون. وعندما يُخرج فتّاحة علب أو صورة لهيربيرت هوڤر(**) من إحدى الحقائب، كان يثير الكثير من الضحك. تخيّل لو هزّنا، وسقط منّا مقصّ التخريم والفأس الصغيرة. مجرّد التفكير في ذلك جعلني أشعر بالتوتّر، وأحسست أيضاً برهاب الأماكن المغلقة وبالحرارة.

وأخيراً، أخيراً، غادرنا الطائرة ببطء مثل الماشية، وهبطنا سلّم الطائرة في ليوبولدڤيل اللاهبة، وفي هذه اللحظة رأينا الشعر المجعّد الأشقر لأختنا الصغيرة روث ماي يتأرجح إلى الأمام، ثم يغمى عليها فوق صدر أمّي.

لكنها سرعان ما أفاقت في المطار الذي تعبق فيه رائحة البول. أردت أن أذهب إلى الحمّام، لكني لم أخمّن أين يمكن للفتاة أن تبحث عن حمّام في مكان كهذا. كانت أوراق شجرة نخيل كبيرة تتماوج في الضوء المتلألئ في الخارج. جموع من الناس يندفعون في طريق واحد، ثم في واحدٍ آخر، وكان أفراد شرطة المطار يرتدون قمصان خاكية اللون عليها أزرار معدنية وأسلحة أيضاً -صدّقوني-.

أينما نظرت، كان هناك سيّدات مسنّات ضئيلات الجسم ذوات بشرة داكنة يسحبن سلالاً فيها أشياء تشبه الخضراوات الذاوية. ودجاج أيضاً. تتخفّى أفواج صغيرة من الأطفال عند المداخل، بهدف الاقتراب من المبشّرين الأجانب. وما إن رأوا بشرتنا البيضاء حتى هرعوا إلينا، وراحوا

(*) Art Linkletter's House Party برنامج تلفزيوني، كان يُعرض في الخمسينيات والستينيات. [م].

(**) Herbert Hoover: رئيس الولايات المتحدة الأميركية في أعوام 1929-1933. [م].

يتوسّلون باللغة الفرنسية: «*Cadeau, cadeau*»، فرفعت يديّ لأظهر لهم أننا لم نجلب هدايا للأطفال الأفارقة. «ربما كان هناك أشخاص يجلسون القرفصاء مختبئين وراء إحدى الأشجار» -فكّرت- «ربما لهذا السبب تفوح هذه الرائحة».

في هذه اللحظة خرج من بين الحشد رجل وامرأة معمدانيان يضعان نظّارات شمسية مصنوعة من قواقع السلاحف وصافحانا. كان اسماهما غريبين: أندرداون(*) - القسّ، والسيّدة أندرداون، وقد أتيا ليخرجانا من الجمارك، وكانا يتحدّثان بالفرنسية مع الرجال الذين يرتدون بدلات رسمية. قال لهما أبي إننا نريد أن نعتمد على أنفسنا، ومع ذلك فإننا نقدّر لطفهما. كان في غاية التهذيب إلى درجة أن السيّد والسيّدة أندرداون لم يلاحظا أن أبي كان منزعجاً. لم يتوقّفا عن التحدّث معنا كما لو أننا أصدقاء قدامى، وقدّما لنا ناموسية كبيرة، حمولة أذرع منها، سحباها محرجين إحراجَ مراهقٍ يقدّم باقة ورد لصديقته التي يحبها كثيراً.

بينما كنا واقفين نحمل الناموسية والعرق يتصبّب منّا تحت طبقات ثيابنا العديدة، أخذا يشرحان لنا عن المكان الذي سيصبح موطننا، كيلانغا. يا إلهي، عندهما أشياء كثيرة يريدان أن يقولاها لنا، لأنهما عاشا هنا مع أولادهما وأنشأا المدرسة والكنيسة وكلّ شيء. ففي إحدى الفترات كانت توجد في كيلانغا فرقة تبشيرية منتظمة تضم أربع عائلات أميركية، وطبيب يزورها مرّة في الأسبوع. لكن الأمر لم يعد كذلك الآن، كما قالا. فذهب الطبيب، واضطرت أسرة أندرداون نفسها إلى الانتقال إلى ليوبولدڤيل لإعطاء أولادهما نفحة من التعليم الملائم - «إذا كان بإمكانك أن تسمّيه هكذا»، قالت السيّدة أندرداون. وأنهى المبشّرون الآخرون بعثتهم إلى كيلانغا منذ زمن، ولا توجد الآن سوى أسرة برايس، وأنهما مستعدّان

(*) underdown وتعني: تحت أسفل. [م].

لتقديم أي مساعدة لنا. لكنهما حذّرانا بألّا نتوقّع الكثير. فبدأ قلبي يخفق بقوة، لأنني كنت أتوقّع كلّ شيء: أزهار الغابة، وحوشاً مفترسة تزأر، مملكة الله في مجدها النقي، ولمّا تستنر بعد.

وبينما كان أبي في منتصف شرح أمرٍ ما للسيّد والسيّدة أندرداون، دفعانا فجأة لنصعد إلى طائرة صغيرة وغادرا، فلم يبقَ إلّا أسرتنا والطيّار الذي كان منهمكاً في ضبط سمّاعات الأذن تحت قبّعته، والذي تجاهل وجودنا تماماً، كما لو أننا لسنا أكثر من حُمولة شحن عادية. جلسنا، ومع هذه الياردات من القماش الأبيض التي معنا بدونا وصيفات عروس منهكات. وقد خدّرنا هدير الطائرة المروّع التي حلّقت فوق الأشجار. كنّا مرهقات. «مرهقات تماماً» -كما قالت أمّي- «حبيبتي، لا تقلقي لهذا الآن، فمن الواضح أنك مرهقة». وأطرت السيّدة أندرداون على ما أسمته لكنتنا الجنوبية الساحرة، وضحكت. حتى إنها حاولت أن تقلّد الطريقة التي قلنا فيها «الآن right now» و«إلى اللقاء bye-bye». (فقالت: *«Rot nail. Whah yay-es, the ayer-plane is leavin rot nail!»* و*«Bah-bah»* – مثل خروف!) فشعرت بالحرج من تعبيراتنا البسيطة وأحرفنا الصوتية الممطوطة، على الرغم من أنني لم أفكّر من قبل أن في كلامنا لكنة معيّنة، لكنني كنت أدرك أن لكنتنا تختلف كثيراً عن لكنات اليانكي(*) التي نسمعها في الإذاعة والتلفزيون. كان لدي كثير من الأمور لأفكّر فيها عندما جلست في تلك الطائرة، وبالمناسبة، كنت ما أزال أحس بأنني بحاجة إلى التبوّل، لكنّنا كنّا نشعر كلّنا بالدوار ونلوذ بالصمت في ذلك الوقت، بعد أن اعتدنا على ألّا نشغل مساحةً في المقعد أكثر مما نحتاج حقيقةً.

بعد طول انتظار حطّت بنا الطائرة في حقل من العشب الأصفر الطويل.

(*) يطلق هذا اللقب على السكّان الأصليين، أو سكّان نيو إنجلاند خصوصاً ذوي الأصول الإنجليزية، وعموماً على سكّان الولايات الشمالية. [م].

فقفزنا من مقاعدنا، إلّا أبي، الذي اضطر إلى الانحناء داخل الطائرة بدلاً من الوقوف باستقامة بسبب قامته المهيبة. ثم تمتم دعاءً سريعاً: «أبانا الذي في السماوات، أرجو أن تجعلني أداة قويّة لإرادتك الكاملة هنا في الكونغو البلجيكية. آمين!».

«آمين!» ردّدنا، ثمّ قادنا عبر الباب البيضوي إلى النور.

رمشنا بعيوننا لوهلة، ورحنا نحدّق إلى الخارج من خلال الغبار في مئة قرويّ أسود، نحيفين وصامتين، يتمايلون قليلاً كالأشجار. لقد غادرنا جورجيا في ذروة صيف إزهار شجر الخوخ، وها نحن أولاء نقف الآن في ضباب أحمر جافٍّ محيّر، لا يمكنك فيه أن تعرف في أيّ موسم أنت! ومع جميع طبقات ملابسنا لا بدّ أننا كنّا نبدو مثل أسرة من الإسكيمو سقطت فجأة في وسط غابة.

لكن كان ذلك عِبأنا نحن، لأنه كانت هناك أشياء كثيرة علينا أن نجلبها معنا. وقد وصل كل واحدٍ منا مع بعض المسؤولية الإضافية التي تخِزنا تحت ثيابنا: مطرقة ذات كماشة، كتاب تراتيل معمدانية، كلّ شيء ذي قيمة حلَّ محل الوزن الذي وفّره تخلّينا عن بعض الأشياء التافهة التي امتلكنا القوّة لتركها هناك. لا بدّ أن رحلتنا كانت عملية توازن عظيمة. طبعاً، فقد كان أبي يجلب معه كلمة الربّ التي، لحسن الحظ، ليس لها وزن مادي إطلاقاً.

روث ماي برايس

يقول الربّ إن الأفارقة هم قبائل من نسل حام. وحام هو أسوأ أبناء نوح الثلاثة: سام، وحام، ويافث. كلّ شخص ينحدر في شجرة نسبه من هؤلاء الأبناء الثلاثة فقط، لأن الربّ أحدث طوفاناً كبيراً وأغرق جميع الآثمين. وبما أن سام وحام ويافث صعدوا إلى الفُلك فقد كانوا سالمين.

كان حام أصغر إخوته، مثلي، وكان سيئاً. أحياناً أكون أنا سيئة أيضاً. فبعد أن غادروا الفُلك وهبطوا إلى اليابسة وأطلقوا سبيل الحيوانات، شرب نوح خمرةً، فسكِر ورقد عرياناً في خيمته، فدخل حام إلى الخيمة ورأى عريَ أبيه، فظنّ أن ذلك شيءٌ مضحك، فخرج وأخبر شقيقيه اللذين دخلا وسترا عريَ أبيهما برداء، لكن حام ضحك عندما رأى نوح عارياً. وعندما أفاق نوح من سكره وحكى له ابناه ما جرى، غضب نوح ولعن جميع أبناء حام وذرّيّته، وطلب من الربّ أن يجعلهم عبيداً إلى الأبد. لذلك، أصبحوا داكني البشرة.

وفي مدينتنا جورجيا، توجد لهم مدارسهم الخاصّة حتّى لا يتبختروا في المدرسة التي تذهب إليها أخواتي. ليا وإدا كانتا طفلتين موهوبتين، ولكن كان عليهما الذهاب إلى المدرسة نفسها التي يذهب إليها الآخرون، لكن ليس إلى المدرسة التي يذهب إليها الأطفال الملوّنون. فقد كان القسّ في الكنيسة يقول إنهم يختلفون عنّا ويجب أن يبقوا وحدهم. قال ذلك جيمي كرو(*) الذي سنّ القوانين. وهم لا يأتون أيضاً إلى مطعم «القلعة البيضاء» الذي تأخذنا أمي إليه لنشرب الكوكا كولا، أو إلى حديقة الحيوانات. واليوم المخصص لهم لزيارة حديقة الحيوانات هو يوم الخميس. لقد ورد ذلك في الكتاب المقدّس.

سيكون في قريتنا هذا العدد من الأشخاص البيض: أنا وراشيل وليا وإدا، إضافةً إلى أمي وأبي. هذا يعني أنه يوجد ستة أشخاص. راشيل هي أكبرنا سنّاً، وأنا أصغرهن، وتأتي ليا وإدا في الوسط، وهما توءم، لذلك

(*) قوانين جيم كرو Jim Crow laws، هي القوانين التي أقرّت سياسة الفصل ضد السود في الأماكن العامة والوظائف. يُعزى أصل الاسم إلى «Jump Jim Crow»، وهو عرض غنائي راقص للسود أدّاه الممثّل الأبيض توماس دي رايس بوجه أسود، ثم أصبح «جيم كرو» بحلول عام 1838 تعبيراً ازدرائياً يعني «الزنجي». [م].

يمكن اعتبارهما شخصاً واحداً، لكن أظن أنهما شخصان، لأن ليا تجري في كل مكان وتتسلّق الأشجار، أما إدا فإنها لا تستطيع أن تفعل ذلك. وهي سيّئة بالكامل من جانب واحد، ولا تتكلّم لأنها مصابة بتلف في الدماغ، وهي تكرهنا كلّنا أيضاً. إضافة إلى كلّ ذلك، فهي تقرأ الكتب بالعكس. من المفترض أن يكره الإنسانُ الشيطانَ فقط، وأن يحبّ الآخرين جميعاً.

اسمي روث ماي وأنا أكره الشيطان، وكنت أعتقد منذ زمن طويل بأن اسمي «سُكّرة»، لأن أمي تناديني دائماً بهذا الاسم. «سكّرتي، تعالي دقيقة! سكّرتي، لا تفعلي ذلك!».

في مدرسة يوم الأحد، قال ركس مينتون إننا يجب ألّا نذهب إلى الكونغو، لأن سكّان ذلك البلد يأكلون لحوم البشر، وأنهم سيغلون أجسامنا في قِدر وسيأكلوننا، وقال أستطيع أن أتكلّم مثلهم، اسمعي: «أوغا بوغا بوغا لوغا». وقال إنّ هذا يعني أنهم سيطهون ساق تلك الفتاة الصغيرة ذات الشعر الأصفر المجعّد. نهرته معلّمة مدرسة يوم الأحد الآنسة بانيه، وطلبت إليه أن يصمت، لكنّها لم تقل شيئاً عما إذا كانوا سيطهون أجسامنا في قِدر وسيأكلوننا. لذا لا أعرف.

الأشخاص البيض الآخرون الذين يوجدون في إفريقيا الآن هم: السيّد أكسلروت، قائد الطائرة الذي يضع أوسخ قبعة رأيتها في حياتي. وهو يعيش وحيداً في كوخ بجانب مدرّج الطائرة عندما يأتي إلى هنا، وتقول أمي إن المسكن قريب بما يكفي له. والسيّد القسّ والسيّدة أندرداون اللذان جعلا الأطفال الأفارقة يذهبون إلى الكنيسة منذ بضع سنوات، ويتكلّمان في ما بينهما بالفرنسية مع أنهما من البيض. لا أعرف لماذا. وعندهما صبيّان كبيران ويذهبان إلى المدرسة في ليوبولدڤيل. أشفقا علينا وأرسلا لنا كتباً مصوّرة لنأخذها معنا بالطائرة. أخذتها كلّها لنفسي عندما نامت ليا والآخرون في الطائرة. دونالد داك. لون رينجر، وتلك القصص الخيالية، سندريلا والجميلة

النائمة. خبأتها. ثمّ اعترتني دوخة فتقيأت في الطائرة، ملأ القيء حقيبة الظهر وكتاب دونالد داك، فوضعته تحت المسند ولم يعد معنا الآن.

إذاً، هؤلاء هم الذين سيكونون معنا في قريتنا: عائلة برايس، ولون رينجر، وسندريلا، والجميلة النائمة، وقبائل حام.

راشيل برايس

يا إلهي! ما الذي ينتظرنا الآن؟! هذا ما فكّرت فيه منذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها قدمي أرض الكونغو. يفترض أن نكون نحن المسؤولين عن كلّ شيء هنا، لكنْ، يبدو لي أننا لسنا مسؤولين عن أي شيء، ولا حتى عن أنفسنا. فقد أراد أبي أن يعقد اجتماعاً كبيراً لإقامة صلاة لتكون احتفال ترحيب، ولإثبات أنّ الله أرسلنا إلى هذا المكان ويريد أن نستقر فيه. لكن ما إن خرجنا من الطائرة وسرنا مترنّحين في الحقل نجرّ حقائبنا وراءنا، حتى أحاطنا الكونغوليون -يا إلهي!- بحمى أناشيدهم. أنا متيقّنة من أن هذا سحر. قاموا بتبخيرنا برائحة الأجساد المتعرقة. كان يجب أن أضع في محفظتي حشوات من مزيل الرائحة التي يستمر مفعولها خمسة أيام.

نظرت حولي أبحث عن أُختَيّ لأقول لهما: «إد، ليا، ألستما سعيدتين لأنكما تستعملان مزيل الرائحة ديال؟ ألا تتمنّيان أن يستخدمه الجميع؟»، فلم أجد أيّاً منهما، لكني رأيت روث ماي وهي على وشك أن يغمى عليها للمرة الثانية هذا اليوم(*). فقد زاغت عيناها وانسحبتا إلى الوراء ولم يظهر

(*) تستخدم «راشيل» في هذه الجملة executrate بدلاً من execute. و«راشيل» تسيء استخدام الألفاظ على امتداد النص، فتغيّر حروفاً في الكلمة، أو تزيد حروفاً أو تنقصها، أو تركّب الصفة بإضافة لاحقة خاطئة للفعل أو للاسم، وهذا يغيّر من المعنى الذي تقصده في كثير من الأحيان. [م].

منهما سوى البياض تقريباً. مهما كان الشيء الذي يشدّها إلى الأسفل، فقد كنت أعرف أنها كانت تقاومه بكلّ قوّتها. إن روث ماي عنيدة جداً بالنسبة لطفلة في الخامسة من العمر، وهي لا تريد أن تفوّت أيّ فرصة للمرح مهما كانت.

أمسكتْ أمي بيدها وبيدي أيضاً - وهو شيء لم أكن أتساهل معه إطلاقاً عندما كنّا في بلدتنا، بيت لحم. أما هنا، في وسط هذا الهرج والمرج فإن أحدنا سيفقد أثر الآخر، إذا انجرفنا في هذا النهر الكبير المظلم من البشر. أما التراب: قانون! فقد كان التراب يملأ كل مكان مثل غبار طباشير أحمر، وكنت أبدو -بثوبي الجميل من الكتان الأخضر- من خارج هذا المكان. يمكنني أن أشعر بحبيبات الرمل الخشنة تتخلّل شعري الذي كان أنيقاً جداً ولكنه الآن تلطّخ. يا إلهي، يا له من مكان! كنت مسبقاً أشعر بالكآبة لأننا سنفتقد هنا المراحيض بأنظمة تدفّق المياه فيها، والثياب المغسولة آلياً، والأشياء الحياتية البسيطة الأخرى التي كنت أعتبرها من المسلّمات.

بدأ الناس يدفعوننا نحو شيء يشبه باحة ترابية مفتوحة مسقوفة عرفنا أنها ستصبح كنيسة والدنا. يا له من حظّ، كنيسة مشيّدة من التراب! لكن دعوني أخبركم أن الصلاة لم تكن من ضمن مخططات تلك الليلة. انتهى بنا المطاف هناك بين جموع الناس، تحت ذلك السقف المغطّى بالقشّ، كدت أصرخ عندما أدركت أن اليد التي أمسكها لم تكن يد أمي وإنما مخلب بنّي سميك، يد شخص غريب! لقد ولّى الشيء الذي كنت أثق به. فتركتها بسرعة، ومادت الأرض من تحتي. رحت أنظر بفزع حولي مثل بلاك بيوتي(*) عندما علق في وسط ألسنة النيران. ولمحت أخيراً قميص أمي الأبيض -مثل راية «الاستسلام»- يلوح بجانب أبي. وواحدةً تلو الأخرى، بدأت أرى الهيئات

(*) Black Beauty (جمال أسود): شخصية الحصان في رواية تحمل الاسم ذاته من تأليف الكاتبة البريطانية «آنا سويل Anna Sewell».

الرقيقة لأخواتي اللواتي بَدَوْنَ مثل بالونات في حفلة، لكنّها ليست الحفلة الملائمة، يا إلهي! عندئذٍ عرفت أنني في مركب اليأس(*). أما أبي، من ناحية أخرى، فربما كان راضياً تماماً، راضياً من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه. وعندما بدأ يمتدح المسيح نهضنا جميعاً واقفين.

كنا بحاجة ماسّة إلى تغيير ثيابنا، فقد كانت الملابس الداخلية والفساتين الإضافية تشدّنا إلى الأسفل، لكن لم تكن هناك فرصة لعمل ذلك. فقد دُفعنا على الفور إلى وسط هذا الهرج والمرج الوثني. لا أعرف إلى أين ذهبت حقائبنا والأكياس القماشية التي كنّا نحملها. كانت طارات التطريز وزوج من مقصّات التخريم المخبّأة في غمدٍ من القماش المشمّع المعلّق على رقبتي، تهدّد حياتي وحياة الآخرين في وسط هذا التدافع. أخيراً سُمح لنا بأن نجلس إلى طاولة مثل البشر، مقتربين واحدنا من الآخر إلى أقصى درجة ممكنة، فوق مقعد دهني مصنوع من جذوع أشجار قاسية. اليوم الأول لوصولنا إلى الكونغو، وثوبي الكتّان الأخضر الزاهي الجديد ذو أزرار عرق اللؤلؤ المربّعة سيتخلّى(**)! اضطررنا إلى أن نحشر أنفسنا بجانب أشخاصٍ آخرين، فلم يكن هناك مجال للتنفّس، حتى لو أردنا ذلك، لأننا في وضع يمكن أن نصاب فيه بالعدوى من جميع أنواع الجراثيم المنتشرة هنا. كان يتعيّن علينا أن نجلب شيئاً آخر: حبات الليسترين. خمس وأربعون بالمئة نزلاتُ بردٍ أقل.

هدير من الأصوات وأصوات طيور غريبة اقتحمت أذني وملأت رأسي حتى الحافة. لديّ حساسية لأي نوع من أنواع الضوضاء، فالضجّة وضوء

(*) تستخدم «راشيل» هنا كلمة خاطئة فتقول «sloop of despond» (مركب اليأس)، بدلاً من المصطلح الشائع «slough of despond» (مستنقع اليأس). [م].

(**) تستخدم «راشيل» هنا كلمة خاطئة فتقول «give up the goat» (التخلي عن الماعز)، بدلاً من المصطلح الشائع «give up the ghost» (يتلف). [م].

الشمس الساطع يسبّبان لي صداعاً شديداً، لكن على الأقل، بدأت الشمس تميل إلى الغروب، وإلا لكان من الممكن أن أفعل مثل روث ماي، فأغيب عن الوعي أو أتقيّأ: إنجازاها الكبيران لهذا اليوم. أحسست بضغطةٍ خلف رقبتي، فبدأ قلبي يضرب مثل طبل. أشعلوا ناراً هادرة في طرف الكنيسة. وخيّمت فوقنا سحابة من دخان زيتي مثل شبكة، أخذت تتدلّى تحت السقف المكسو بالقش. كانت الرائحة شديدة تكفي لخنق أيّ حيوان قد يخطر ببالك. وفي وسط حافة النار البرتقالية المشتعلة رأيت ملامح شيء داكن مثقوب من الوسط ويُقلب في النار، يركل بقوائمه الأربع المتصلّبة طلباً للمساعدة. حدسي النسويّ يقول لي إنني سأموت هنا والآن، حتى قبل أن تحسّ راحة يد أمي بالعرق الذي يتصبّب من جبهتي. تذكّرت المرات القليلة عندما حاولت -أعترف بهذا- أن أتظاهر بأنني مصابة بالحمّى لكي أتهرّب من الذهاب إلى المدرسة أو إلى الكنيسة. أما الآن، فالنار حقيقية تلهب صدغيَّ، وقد أصابتني الحمّى التي كنت أحاول أن أستدعيها في الماضي.

فجأةً عرفت أن الضغطة وراء رقبتي سببها أمي التي أجلستنا نحن الأربعة في نطاق ذراعيها الطويلتين: روث ماي، وأنا، وأختيَّ ليا وإدا. وطبعاً روث ماي صغيرة الحجم، أما ليا وإدا التوءم فكان حجمهما كبيراً، مع أنّ إدا هي الأقصر بسبب إعاقتها. كيف تمكّنت أمي من إبقاء قبضتها علينا كلّنا هكذا يظلّ لغزاً يفوق قدرتي على حلّه. ولم تكن الضربات تنبعث من قلبي -عرفت أخيراً- وإنما من الطبول. فقد كان الرجال يقرعون طبولاً ثقيلة كبيرة، وتغني النسوة بصوت عالٍ ألحاناً مرتعشة مثل طيور أصابها الجنون في ليلة يعلوها البدر التام. كنّ يعدن كلمات الأغنية بلغتهنّ المحلّيّة مراراً وتكراراً، إذ كانت تنتقل بين من تقود الغناء والجوقة التي تردّد وراءها. كانت أغاني غريبة، وقد استغرقتُ وقتاً لأدرك أنهن ينشدن ألحان تراتيل مسيحية، «إلى الأمام

أيها الجنود المسيحيون»، و«يسوع المسيح هو أفضل صديق لي»، ما جعل جسدي يقشعر. أظن أن لديهن الحق في إنشادها، لكن هذا هو الشيء: فقد وقفت بعض النسوة أمام أعيننا في الضوء المنبعث من النار وصدورهن عارية بالكامل. كان بعضهن يرقص، وبعضهن الآخر يطبخ، كأن العريَ لم يكن شيئاً مهماً. وكنّ يتناقلن القدور والأباريق في ما بينهن، صدورهن كلّهن عارية من دون أي خجل. كنّ منهمكات بالحيوان الذي يقلّبنه في النار، ثم بدأن يقطعنه إلى قطع صغيرة ويمزجنه بشيء يصعد منه البخار في قِدر. وعندما كنّ ينحنين، كانت أثداؤهن الثقيلة تتأرجح إلى الأسفل مثل بالونات ملأى بالماء. أشحت بنظري عنهن وعن الأطفال العراة الذين كانوا يتعلّقون بتنانير أمهاتهن الطويلة الملتفّة حولهن. لم أرفع عينيّ عن أبي وأنا أتساءل: هل أنا الوحيدة التي صُدمت من رؤية كلّ ذلك هنا؟ كان ينظر تلك النظرة، حين تضيق عيناه ويُغلق فكّه، كما لو أنه بدأ يغضب، لكن لا أحد يعرف إلى أين سيؤدي ذلك بالضبط. غالباً إلى مكان تشعر فيه أنك تتمنى أن تكون في أي مكان غير هذا.

بعد غناء شعبي طويل مراراً وتكراراً لما يسمّى بالترانيم، أُخرج من النار ما كان يُشوى ووضع في المقلاة -إذا جاز التعبير- وغُمر كلّه في مرق ساخن رمادي اللون، ثم بدأت النسوة يصببن المرق في صحون أو طاسات من الصفيح وُضعت أمامنا. كانت الملاعق التي أعطونا إياها مغارف حساء معدنية قديمة كبيرة، كنت أعرف أنها لا تناسب فمي الصغير، وقد بدأت تنبت في فمي أسنان العقل ملتوية. نظرتُ حولي أبحث عن أحد أبادله بملعقتي، لكن لدهشتي، لم يكن مع أي أحد أيّ نوع من الملاعق إلا نحن! ما الذي سيفعله الآخرون بطعامهم؟ لن أجازف بالتخمين. فقد كان معظمهم ينتظرون أن يُقدَّم لهم الطعام، مثل الطيور في البريّة. لقد رفعوا طاساتهم المعدنية الفارغة أو أي شيء كانوا يحملونه وراحوا يقرعون عليها ببهجة

كما تُقرع الطبول. بدا ذلك أشبه بأوركسترا الخردة، لأن صحن كلّ واحد منهم يختلف عن صحن الآخر. كانت روث ماي تحمل كوباً صغيراً، كنت أعرف أنها ستستاء منه لأنه جعلها تبدو أكثر من طفلة صغيرة.

في خضم كلّ هذه الفوضى، كان أحدهم يتكلّم باللغة الإنكليزية. تنبّهت إلى ذلك فجأة. كان من شبه المستحيل تحديد ما الذي يجري، لأن جميع الأشخاص من حولنا كانوا يغنّون ويرقصون، ويقرعون صحونهم، ويلوّحون بأذرعهم إلى الأمام وإلى الخلف مثل أشجار تتمايل في إعصار. وبجانب النار حيث كانت النسوة يطبخن، وقف رجل أسود كالفحم يرتدي قميصاً أصفر وقد شمّر عن ساعديه وراح يشير نحونا ويصيح بأعلى صوته: «أهلاً وسهلاً! نرحّب بكم!». وكان هناك رجل آخر يقف وراءه، أكبر منه سنّاً بكثير، يرتدي ثياباً تبدو أنها من خارج هذا العالم، يعتمر قبعة طويلة ويضع نظّارات ويلفّ حوله رداءً ويلوّح بذيل حيوان إلى الأمام والوراء. ثم صاح شيئاً بلغتهم، وسرعان ما صمت الجميع.

صاح الرجل الأصغر سناً الذي يرتدي القميص الأصفر: «القسّ برايس والسيّدة برايس وأطفالهما، نرحب بكم أجمل ترحيب إلى وليمتنا. فقد ذبحنا اليوم عنزة احتفالاً بقدومكم، ستمتلئ بطونكم قريباً بفوفو بيلي - بيلي».

عندما قال ذلك، بدأت النسوة شبه العاريات الواقفات وراءه يصفّقن ويهتفن، كما لو أنه لم يعد بوسعهن أن يتمالكن حماستهن تجاه العنزة الميّتة.

«القسّ برايس» -قال الرجل- «نرجو أن تلقي علينا كلمة شكر بهذه المناسبة». وأشار لأبي أن يتقدّم، لكن يبدو أن أبي لم يكن بحاجة إلى دعوة، إذ كان واقفاً للتوّ على قدميه فوق كرسيّه، فبدا طوله عشرة أقدام. كان يرتدي قميصاً من دون سترة، وهو مشهد مألوف خاصة أنه من بين أولئك الرجال الذين يشعرون براحة كبيرة مع أجسادهم، فيخلع سترته غالباً عندما تأخذه الحماسة في أثناء إلقاء موعظته. كان بنطاله الأسود ضيقاً مربوطاً بشدة

بالحزام، أما صدره وكتفاه فبدَوَا ضخمين. كدت أنسى أنه كان لا يزال يحمل أسلحة فتّاكة عديدة تحت ذلك القميص الأبيض النظيف.

رفع إحدى ذراعيه ببطء فوق رأسه مثل واحدٍ من آلهة العصور الرومانية يستعد ليرسل الصواعق والبرق. نظر إليه الجميع، يبتسمون، يصفّقون، يلوّحون بأذرعهم فوق رؤوسهم، صدورهم عارية، وكلّ شيء. ثمّ بدأ يتكلّم. لم يكن خطاباً بل عاصفة متصاعدة.

«هُوَذا الرَّبُّ» -قال بصوت منخفض مهدِّد- «رَاكِبٌ على سحابة سريعة وقادم إلى مصر».

«هوراي!» هتفوا جميعاً، لكنّي أحسست بتشنّج في معدتي. فقد ظهرت على وجهه تلك النظرة التي ترتسم على وجهه عادة، يا إلهي، فها هو ذا مثل موسى يهبط من جبل سيناد(*) يحمل عشرة سُبل جديدة ليحطّم بها حياتك.

«إلى مصر»، صاح في موعظته الحماسية بصوته الذي أخذ يعلو ويهبط، ثمّ ازداد علواً وانخفاضاً، ذهاباً وإياباً مثل منشار يقطع جذع شجرة، «كلّ بقعة في الأرض حيث نوره...»، صمت أبي قليلاً، وراح يحدّق في ما حوله ثم أضاف: «حيث نوره لم يسقط بعد!».

صمت لحظة ليلتقط أنفاسه ثم على نحو خافت كما لو كان يتحدّث قال: «يأتي الربّ في هيئة أحد ملائكة الرحمة لديه، رسله المقدسين إلى المدن على الأرض حيث يقيم لوط بين الآثمين!».

بدأت الصيحات تخفت. لقد جذب انتباه الجميع الآن.

«وقال لوط للآثمين الذين احتشدوا أمام بابه، لا يا إخوتي، لا ترتكبوا هذا الشر لأن الآثمين في سدوم دفعوا بشرّهم إلى مدخل بيته».

بدأت أرتجف. بالطبع أعرف الإصحاح 19 من سِفْر التكوين الذي كان

(*) تُخطئ «راشيل» هنا في اسم الجبل، فتكتبه «Syanide»، بدلاً من «Sinai» سيناء. [م].

قد جعلنا ننسخه مرات كثيرة، وأنا أكره الجزء الذي عرض فيه لوط ابنتيه العذراوين على الرعاع الآثمين، ليفعلوا بهما ما يشاؤون، حتى يتركوا ملاكَيْ الربّ اللذين جاءا لزيارته وشأنهما. ما نوع هذه المقايضة؟ وبالطبع فقد تحوّلت زوجته المسكينة إلى عمود ملح.

لكن أبي تجاوز كلّ ذلك واتّجه مباشرة إلى العواقب المريعة: «وضرب رسلُ الربّ الآثمينَ الذين جاؤوا ساهين عن رؤية الربّ، غافلين في عريهم».

ثمّ صمت، تجمّد تماماً، ومدَّ إحدى يديه الضخمتين إلى الحاضرين، ليجذبهم إليه. وأشار بيده الأخرى إلى امرأة تقف بجانب النار، وقد كان ثدياها الطويلان الكبيران مسطّحان على صدرها كما لو أنهما مُسِّدا بمكواة، لكنّها بدت غير مكترثة بذلك. كانت تحمل طفلاً ذا ساقين طويلتين تسنده إلى وركها، وتحكّ شعرها القصير بيدها الأخرى. نظرت حولها بتوتّر لأن جميع العيون في المكان تبعت نظرة أبي الاتّهامية مباشرة إلى عريها. حرّكت ركبتيها، ونقلت الطفل الكبير إلى أعلى وركها. تدلّى رأسه. كان شعره يبرز في خصلات محمرّة وكان يبدو في حالة ذهول. وخلال دهر من الصمت، وقفت الأمّ هناك في بقعة الضوء، تسحب رأسها إلى الوراء فوق رقبتها في خوف وحيرة. ثم استدارت والتقطت ملعقة خشبية طويلة وغمرتها في قِدر الطعام.

«العري» -كرّر أبي- «وظلام الروح! لأننا سنُهلِك هذا المكان حيث يعلو صخب الآثمين بصفاقة في وجه الربّ».

توقّف الجميع عن الغناء أو الهتاف. فسواء فهموا معنى «يعلو صخب» أم لا، فإنهم لم يجرؤوا على إصدار أي صخب الآن. حتى إنهم لم يعودوا يتنفّسون، أو هكذا بدا. كان باستطاعة أبي أن يفعل الكثير بنبرة صوته فحسب، صدِّقوني! وظلّت المرأة التي تحمل الطفل على وركها موليةً ظهرها له، تحرّك الطعام.

«وخرج لوط وقال لهم» -بدأ أبي الآن يخفّف من حدّة نبرته ويلطّفها- «وقال لهم: هيا! اخرجوا من مكان الظلام هذا! انهضوا واذهبوا إلى أرض أكثر إشراقاً!».

«إلهي! لنصلِّ!» -اختتم أبي كلامه، ونزل فجأة إلى الأرض- «إلهي، امنح الذين يستحقون بيننا هنا أن يرتقوا فوق الشرّ ويخرجوا من الظلام إلى النور المدهش للأب الأقدس. آمين!».

كانت جميع الوجوه ما تزال متجهة نحو أبي، كما لو كانوا كلّهم نباتات داكنة لامعة ورأسه الأحمر هو الشمس. لكن تعابير وجوههم تحوّلت في حركة بطيئة من البهجة إلى الحيرة ثم إلى الفزع. وبعد أن أُبطل السحر الآن، بدؤوا يتمتمون ويتحرّكون. رفعت عدة نسوة أثوابهن الملفوفة وعقدنها من الأمام لتغطية صدورهن، وجمعت نساء أخريات أطفالهن ذوي المؤخرات العارية وانتقلن إلى حيث الظلام. أظن أنهن ذهبن إلى البيت ونمن من دون عشاء.

سكن الهواء فوق رؤوسنا. ولم نعد نسمع إلا صوت الجنادب المنبعث في الليل الأسود العميق.

لم يعد هناك شيء الآن سوى أن نبدأ تناول الطعام. ومع جميع العيون مركّزةً علينا، التقطتُ أنا وأخواتي ملاعقنا المعدنية الكبيرة. كان الطعام أمامنا حساءً لا طعم له، مجرّد كتل رطبة حشوتها في فمي وكان عليّ أن أمضغها كالصمغ. ما إن وضعت اللقمة الأولى في فمي، حتى تحوّلت شيئاً فشيئاً إلى حرقٍ يلسع لساني، واحترقت طبلة أذني من الداخل، وسالت الدموع من عيني، ولم أستطع ابتلاعها. كانت هذه بداية نوبة بكاء حقيقة -هذا ما شعرت به- لفتاة كانت كل آمالها هو أن تُقام لها حفلة جميلة بمناسبة عيد ميلادها السادس عشر وأن تحصل على ملابس موهير وردية.

غصّت روث ماي بصوت مسموع، وصار وجهها فظيعاً. مالت أمي

نحوها لتربّت على ظهرها، كما ظننت، لكنها بدلاً من ذلك همست لنا بأسوأ هسهسة: «يا بنات، كنّ مهذّبات! هل تسمعنني؟ أنا آسفة، لكن إذا بصقتن ذلك فإني سأضربكنّ بعنف».

هذه هي أمي التي لم تمدّ يدها علينا طوال حياتنا! أوه، فهمت الموقف بوضوح، هناك تماماً، ليلتنا الأولى في إفريقيا. جلست وأنا أتنفّس من أنفي، أحبس في فمي الطعم المروّع لشيء يحترق، وشعيرات من الشعر الخشن لجلدٍ محترق لعنزة ميّتة. أغمضت عينيَّ بإحكام، لكن على الرغم من ذلك، سالت دموعي. بكيت من أجل خطايا كلّ الذين جلبوا عائلتي إلى هذه الضفّة المظلمة المخيفة.

إدا برايس

شروق الشمس يلوِّب(*)، والعيون الشرّيرة تفتن: هذا هو الصباح، ورديّ في الكونغو. أيّ صباح، كلّ صباح. الهواء الوردي المتفتّح والممتلئ بزقزقة العصافير مبقّع بدخّان لاذع لنيران طهي الفطور. لوح ترابي أحمر عريض، يُدعى طريقاً، ينبسط أمامنا، ممتدٌّ نظرياً، من هنا إلى مكانٍ ما بعيد. لكن بالطريقة التي أراه فيها، من خلال عينَيْ إدا، فهو عبارة عن لوح خشبي مسطّح قُسِّم بظلال خيوط سوداء رفيعة لجذوع أشجار نخيل باسقة إلى قطع مستطيلة وشبه منحرفة. ومن خلال عينَيْ إدا، فإن العالم مكانٌ مفاجئ له أشكال وألوان تتنافس لتحظى بانتباه نصف دماغ. العرض لا يتوقّف أبداً. في قطعِ الطريق المتشابكة، تخطو ديوك الغابة الصغيرة، مقرقرة، وترفع أرجلها بعجرفة مغرورة كأنها لم تسمع عن الوحوش ذات الساقين التي ستجعل زوجاتهم مستعبدات.

(*) يُعذّب بإدناء شيء مرغوب فيه، ثم إبعاده على نحو موصول. [م].

تمتد الكونغو في منتصف العالم. تشرق الشمس، تغرب الشمس في الساعة السادسة تماماً. كلّ ما يأتي في الصباح يتلاشى قبل حلول الظلام: يعود الديك إلى الغابة، وتخمد النيران، تهدل الطيور، وتغيب الشمس، وتنزف السماء، تفقد وعيها، تُظلم، لا يعود شيء موجوداً. من الرماد إلى الرماد.

تمتد قرية كيلانغا على طول نهر كويلو، مثل صفٍّ طويل من البيوت الطينية الصغيرة واحداً تلو الآخر، بجانب طريق ترابي يبدو كأفعى حمراء طويلة. وتنتصب من حولنا، في جميع الاتجاهات، الأشجار والخيزران. حينما كنا أنا وليا صغيرتين كان لدينا سلسلة طويلة من الخرز غير المتناسق لنتزيّن بها، وكانت تنفرط عندما نتشاجر عليها، فتنتثر الخرزات في خطّ متعرّج ثم تنتهي إلى التراب. هكذا كانت كيلانغا تبدو لنا من الطائرة. كلّ بيت طيني أحمر يقبع وسط فناء التراب الأحمر المحيط به، لأن أرض القرية كانت عارية مثل الآجُرّ. قيل لنا إن الأفضل للاستطلاع وقتل أصدقائنا الأفاعي هو عندما يأتون إلينا، ولذا فإن كيلانغا مثل أفعى طويلة في وسط غابةٍ مقطوعة الأشجار، وعلى امتداد صفّ طويل، تجثو الأكواخ الترابية في مواجهة الشرق، كما لو كانت تصلّي لتبعد الانهيار - لا باتجاه مكة بالتحديد، وإنما شرقاً باتجاه طريق القرية الوحيد والنهر، وخلف كل ذلك مفاجأة شروق الشمس الوردية.

يقع مبنى الكنيسة، المكان الذي شهد وليمتنا الأخيرة، في أحد أطراف القرية، ويقع بيتنا في الطرف الآخر. فعندما نذهب، نحن أسرة برايس إلى الكنيسة، نستطيع أن ننظر في طريقنا إلى داخل كلّ بيت من بيوت القرية. وفي كلّ بيت توجد غرفة مربّعة واحدة مسقوفة بالقش يمكن أن تقبع تحتها شخصيات تشبه الشخصيات في قصة روبنسون كروزو. لكن لا يمكث أحد هنا تحت سقف بيته، وإنما يجلسون في الباحات أمام بيوتهم -العالم

مسرح كبير(*) من التراب الأحمر القاسي تحت الأقدام الحافية- حيث ترى نسوة ضامرات منهكات يرتدين أثواباً مهترئة متنوّعة من كل نوع قد يخطر ببالك، يحرّكن النيران المشتعلة الصغيرة بعصيّ، منهمكات في الطهي. وترى مجموعات من الأطفال يهاجمون العنزات الصغيرة المرعوبة ويرمونها بالحجارة، ويشتتونها ويبعثرونها على الطريق، ثم تعود العنزات وتنضم بعضها إلى بعض، فيطاردونها مرة أخرى. ويجلس الرجال فوق دلاء ويحدّقون في أي شيء يخطر أمامهم. وعادة ما يكون المارّ امرأة تسير ببطء على الدرب تضع على رأسها بتوازن عجيب حزماً فوق حزم. تلك النسوة هنّ أعمدة مدهشة، يتحدّين الجاذبية، وتظهر على وجوههن علائم الملل والضجر. ويستطعن أن يجلسن، ويقفن، ويتحدّثن، ويلوّحن بالعصا في وجه رجل مخمور، ويمددن أيديهن وراء ظهورهن ليجلبن الطفل الرضيع لإرضاعه. يجري كلّ ذلك من دون أن تسقط حزمهن العالية المكوّمة بعضها فوق بعض على رؤوسهن. إنهن يشبهن راقصات الباليه من دون أن يدركن تماماً أنهن على خشبة مسرح. لا أستطيع أن أُشيح عينيَّ عنهن.

عندما تغادر امرأةٌ باحة بيتها الواسعة المفتوحة على العالم لتعمل في حقلها، أو تتهادى في مشيتها لأداء عمل ما، يجب أن تكون محتشمة أولاً. ولكي تكون كذلك، على الرغم من أنها ترتدي تنورة ملتفّة حول جسمها، فإنها تدخل إلى البيت وتجلب قطعة كبيرة مربعة أخرى من القماش وتلفّها حول تنّورتها الأولى -تغطّي ساقيها حتى مشط قدميها- على شكل سارونغ ضيّق طويل تعقده تحت ثدييها المكشوفين. ويكون القماش عادةً موشّى بألوان زاهية، ويرتدينه في خليط مجلجل من الألوان يطنّ في أذني: قماش قطني وردي اللون مع نقوش برتقالية، مثلاً. ألوان طليقة غير منسجمة واحدها مع الآخر، وسواء وجدتها جميلة أم بشعة، فإنها تجعل النسوة

(*) عبارة شكسبير الشهيرة، التي وردت في مسرحية «كما تحب». [م].

يبدون أكثر بهجة، وأقل إرهاقاً. أما خلفية كل هذه المشاهد في كيلانغا، فيرتفع وراء البيوت جدارٌ طويل من عشبة الفيل يحجب رؤيتنا عن كلّ شيء سوى المسافة. وتصبح الشمس المعلّقة فوقها في فترة ما بعد الظهر نقطةً مستديرة وردية اللون في السديم الأبيض البعيد، فيمكنك التحديق فيها دون أن تصاب بالعمى. ويبدو أن الأرض الحقيقية التي تشرق فيها الشمس الحقيقية موجودة في مكان آخر بعيداً عن هنا. وإلى الشرق منّا، وراء النهر، تمتد تلال خضراء كثيفة مطوية بعضها فوق البعض الآخر مثل مفرش مائدة قديم كبير، تنحسر تدريجياً إلى لون أزرق ضبابيّ شاحب. «تلوح مثل يوم القيامة»، تقول أمّنا، التي تتوقّف لتمسح جبينها الرطب بظهر يدها.

«إنه مكان يشبه الأماكن في قصص الأطفال»، تحبّ أختي التوءم، ليا، أن تقول رداً على ذلك، وتفتح عينيها على وسعهما وتثبّت شعرها القصير وراء أذنيها كما لو أنها تريد أن تسمع وترى كلّ شيء مهما كان صغيراً على نحوٍ أفضل. «ومع ذلك، ها هي ذي أسرتنا، أسرة برايس، تعيش هنا».

ثم تأتي ملاحظة أختي روث ماي: «لا يوجد لدى أحد هنا أسنان كثيرة». وأخيراً، تقول راشيل: «يا إلهي، أيقظوني عندما ينتهي كلّ ذلك». هكذا إذاً، بدأت أسرة برايس تصدر أحكامها. الجميع ما عدا إدا. فإدا لا تصدر أحكاماً. إدا التي لا تتكلّم.

يتكلّم أبونا نيابةً عنا جميعاً، كما أرى. وهو لا يقول الكثير في الوقت الحالي. وتبيّن أنه لا فائدة من مطرقته التي تزن باوندين أو ثلاثة باوندات، لأنه لا توجد مسامير في بلدة كيلانغا المشيّدة من القشّ والطين. أما المبنى الواسع المفتوح الذي يُستخدم كنيسةً ومدرسةً فقد بُني من أعمدة خرسانية يعلوها سقفٌ من سعف النخيل وغيوم واسعة متموّجة من نبات الجهنمية القرمزي. يبدو الآن كلّ شيء ملتحماً إلى حدٍّ ما بسبب اضمحلاله. وبيتنا مشيّد أيضاً من الطين والقشّ والأسمنت، والنباتات المزهرة. ساعدت ليا

أبي بحماس في البحث عن مشروع، لكنه للأسف، لم يجد شيئاً هاماً في أيّ مكان. وقد أحبط ذلك والدنا الذي يحبّ أن يُصلح الأشياء بين أيام الآحاد.

على الرغم من كلّ ذلك، فإننا سنبقى هنا، لأن الطائرة التي هبطت في الحقل وتركتنا هنا غادرت ثانية، ولن نتمكّن من السفر حتى تعود الطائرة نفسها. عندما سألنا إلى أين يفضي الطريق الترابي الذي يجتاز القرية، قالوا إنه يصل إلى ليوبولدڤيل. أشكّ في ذلك. لأنه على بعد مسافة قصيرة على جانب قريتنا، يسقط الطريق في جنون من الأخاديد الترابية الصلبة تبدو مثل أمواج محيط تجمّدت وتصلّبت في وسط عاصفة. يقول أبونا إنه في المنطقة الكبيرة المجاورة هناك على الأرجح مستنقعات يمكنها أن تُغرق سفينة حربية، فما بالك بمجرّد سيارة! نرى في قريتنا بقايا أثرية للسيارات، لكنّها تشبه علامات الحياة التي ستحفرها في مقبرة إذا كنت تحب هذا النوع من التسلية. أي: أجزاء ميّتة وصدئة، مبعثرة، يمكن أن تستخدم لأيّ شيء سوى النقل. وعندما كنّا في جولة ذات يوم مع أبي، أشار -لتثقيف بناته- إلى غطاء مرشّح هواء يُستخدم الآن للطهي فوق نار مشتعلة، وخافض صوت سيارة جيب يستخدمه نحو ستّة صبية معاً، كطبل.

نهر كويلو هو الطريق السريع هنا: كويلو، كلمةٌ لا أجد كلمةً أخرى لها القافية نفسها. تقريباً: مقدّمة(*)، لكنها ليست كذلك تماماً. كويلو. إنه يزعجني، مسرب النجاة المريب هذا. يقبع من دون إجابة مثل نصف عبارة موسيقية في أذني.

يقول أبونا إنّ نهر كويلو يصلح للملاحة مع التيار وصولاً إلى حيث يلتقي بنهر الكونغو، وفي الاتجاه المعاكس قد يصل حتى الشلّالات الرائعة الهادرة جنوباً. بعبارة أخرى، نحن في نهاية الأرض تقريباً. وكنا نرى أحياناً مركباً غريباً يمرّ عبر النهر يحمل أناساً من قرى قريبة مثل قريتنا تماماً.

(*) في الأصل: prelude، وكانت قافيتها ستشبه Kwilu، لولا «de» في نهايتها. [م].

وللحصول على الأخبار أو على الرسائل، أو على دليل على وجود ما كانت راشيل تسميه الأشخاص البيض الشاحبين الذين يعيشون بعيداً، فإننا ننتظر عودة قائد الطائرة الفظّ، السيّد إيبين أكسلروت، الذي يمكن الوثوق به على النحو التالي فقط: إذا قال إنه سيصل يوم الاثنين، فإنه يأتي يوم الخميس أو الجمعة، أو لا يأتي مطلقاً.

ومثل طريق القرية والنهر، لا شيء هنا يستمرّ حتى نهايته. الكونغو ليست إلا درباً طويلاً يقودك من مخبأ إلى آخر، تحفّه على جانبيه أشجار نخيل تنظر إليك في الأسفل مصدومة، مثل نسوة فارعات القامة، خائفات وشعرهن منتصب. ومع ذلك، فقد صمّمت على السير في هذا الدرب، على الرغم من أنني لا أمشي بسرعة أو بشكل جيّد، لأن جانبي الأيمن مصاب بإعاقة. فقد ولدتُ ونصف دماغي جاف مثل خوخة يابسة، لا يصله الدم بسبب حادثة جنينية مؤسفة. فأنا وأختي التوءم، ليا، متطابقتان من الناحية النظرية، تماماً كما خُلقنا جميعاً، نظرياً، على صورة الله. لقد بدأنا، ليا وإدا، حياتينا مثل الصورة التي تعكسها المرآة. فلدينا العينان الداكنتان ذاتهما، والشعر الكستنائي نفسه. لكنني الآن عرجاء بينما لا تزال هي مثالية.

أستطيع أن أتخيّل بسهولة الحادثة الجنينية المؤسفة: فقد كنّا داخل الرحم معاً، عندما التفتت ليا وقالت لي فجأة: «إدا أنت بطيئة جداً، سآخذ كلّ الغذاء الموجود هنا»، فأصبحت هي قوية، وأصبحتُ أنا ضعيفة (نعم! يسوع يحبّني!). هذا ما حدث، ففي جنة رحم أمّنا أُكلتُ من قبل أختي.

تُسمى هذه الحالة رسمياً hemiplegia (الشلل النصفي): Hemi تعني نصف، hemisphere (نصف الكرة الأرضية)، hemmed-in (مطوّقة)، hemlock (نبتة الشكران السامة)، hem and haw (متردد)... و Plegia تعني توقّف الحركة. بعد ولادتنا المعقّدة، أعلن الأطباء في أتلانتا عدة تشخيصات بخصوص دماغي غير المتماثل، وكان من بين ما قالوه «حبسة

ويرنيك» و«جبسة بروكا»، وعاد والداي إلى البيت على الطرق الجليدية عشية عيد الميلاد ومعهما نصف توءم في خلقة تامة، وتنبّؤ بأنني قد أتعلّم القراءة ذات يوم، لكنّي لن أنطق كلمة واحدة. يبدو أن والديّ تعاملا مع هذا دون أن يبذلا جهداً. أنا على يقين بأن القسّ قال لزوجته المنهكة إنّ هذه هي إرادة الله الذي رأى بوضوح –مع هاتين الفتاتين الأخريين اللتين جاءتا بعد الابنة الأولى بفترة قصيرة– أنه أصبح في بيتنا إناث يكفين لملئه بالثرثرة. ربما لم يكونا قد أنجبا روث ماي بعد، لكن كان عندهما كلبة تعوي. لا يزال أبونا يحبّ أن يقول: «تعوي مثل عدد كبير من السوبرانو في الكنيسة». ويقول عنها أيضاً: «الكلب الذي قصم ظهر البعير». ربما فسّر أبونا جبسة بروكا بأنها هدية أرسلها الله لأحد عباده الصالحين في عيد الميلاد.

أنحو إلى أن أترك نبوءة الأطباء ترتاح وأن أُبقي أفكاري لنفسي. للصمت مزايا كثيرة. فعندما لا تتكلّم، يظن الناس أنك أصمّ أو ضعيف العقل، وتظهر محدوديتهم على الفور. في بعض الأحيان، أرى أنني يجب أن أكسر هدوئي: أن أصيح كي لا أضيع وسط الضجيج. لكني غالباً أضيع. أكتب وأرسم في دفتر ملاحظاتي وأقرأ كلّ ما أريد.

صحيحٌ أن قدرتي على الكلام ليست بجودة قدرتي على التفكير. لكن هذا ينطبق على معظم الناس، بحسب علمي.

ليا

في البداية ظلّت أخواتي في البيت يساعدن أمي بحماسة لم يظهرنها قطّ منذ أن ولدن، وذلك لسبب واحد: وهو أنهن كنّ يخفن الخروج من البيت. فقد كانت تنتاب روث ماي فكرة غريبة، وهي أنّ جيراننا يريدون أن يأكلوها. أما راشيل فقد شاهدت الأفاعي الوهمية في كل فرصة. «يا إلهي!»

قالت وزاغت عيناها، وأعلنت أنها لن تبارح السرير طوال الاثني عشر شهراً القادمة. وإذا قُدِّمت جائزة لأكثر الأشخاص تمارضاً، فلا بدّ أن راشيل ستحصل على المرتبة الأولى. لكنها سرعان ما أحست بالملل وجرّت نفسها من السرير لترى كلّ ما يجري حولها. وكانت قد ساعدت أمي مع إدا وروث ماي في تفريغ الحقائب وفي أعمال البيت. وكانت المهمة الأولى إعادة خياطة الناموسية لصنع خيام تغطي أسرّتنا الأربعة المتماثلة وسرير والديَّ الأكبر حجماً. كانت الملاريا عدوّنا الرئيسي. ففي كلّ يوم أحد، كنّا نبتلع أقراص الكينين الشديدة المرارة التي تجعل لسانك ينقلب من الداخل إلى الخارج مثل بزّاق مملّح. وكانت السيّدة أندرداون قد حذّرتنا أنه سواء تناولنا الحبوب أم لم نتناولها، فإن لسعات البعوض الكثيرة قد تقضي على مفعول الكينين في دمنا، وهذا يعني نهايتنا المحتومة.

أنا شخصياً نأيت بنفسي عن الحرب مع طفيليات الدم، وفضّلت أن أساعد أبي في عمله في الحديقة. كنت دائماً الفتاة التي تفضّل أن تعمل خارج البيت، أحرق القمامة وأزيل الأعشاب الضارة، أما أخواتي فكنّ يتناحرن من أجل غسل الصحون والقيام بأعمال كهذه. في بلدنا كانت توجد عندنا حديقة جميلة نعتني بها طوال الصيف، فكان من الطبيعي أن يفكّر أبي بأن يجلب بذوراً في جيوبه: بذور فاصولياء من نوع كنتاكي وندر، وبذور قرع، وبذور بندورة من نوع بيغ بوي. كان يريد أن يزرع حديقة نموذجية، نأكل من منتجاتها ونقدّم منها الطعام والبذور إلى القرويّين أيضاً. كان يفترض أن تكون معجزتنا الإفريقية الأولى: سلسلة لا تنتهي من أعمال الخير تنبثق من أكياس البذور الصغيرة تلك التي تصدر خشخشة، وتمتد من حديقتنا إلى دائرة من الحدائق الأخرى، ثم تمتد إلى الخارج لتشمل الكونغو كلها مثل المويجات التي تُحدثها حجَرة صغيرة تلقيها في بركة ماء. إن بركة نوايانا الحسنة جعلتني أشعر بالحكمة، والبركة، والأمان من الأفاعي.

لكن لم يكن هناك وقت لإضاعته. فما إن جثونا على عتبة بيتنا المتواضعة لأداء صلاة الشكر، حتّى بدأنا بتجريد أنفسنا من أدوات المطبخ وكلّ شيء كنا نلبسه تحت ثيابنا، وأبقينا على الحد الأدنى المطلوب من الملابس فحسب، ثم خرج أبي وبدأ يزيل الأعشاب من قطعة الأرض عند حافّة الغابة بجانب بيتنا، وحفر خطوطاً متباعدة قليلاً. ثم خطا خطوات إوزّة كبيرة - خطوات ضخمة، كما كنّا نسمّيها حين نلعب، إذا سأل أولاً: «ماما، هل يمكنني أن...؟»، لكن أبي ليس بحاجة لأن يأخذ إذناً من أحد إلّا من المخلّص الذي من الواضح أنه يؤيّد أبي في إخضاع البريّة الجامحة وتحويلها إلى حديقة.

أزال أبي الأعشاب الطويلة والزهور الوردية البرية من قطعة مربّعة من الأرض. وقد فعل كلّ ذلك ولم ينظر إليّ مرّة واحدة. ثمّ انحنى وراح يزيل حفنات طويلة من الأعشاب بحركات سريعة مليئة بالحيوية كما لو كان يجتث شعر العالم. كان يرتدي بنطال عمله الخاكي الواسع وقميصاً أبيض ذا كمّين قصيرين، كان يبدو وهو يعمل بدأب وسط سحابة متصاعدة من التراب الأحمر مثل جنيّ ذي شعر قصير ظهر هناك للتوّ. وكانت طبقة من التراب الأحمر قد علقت على شعر ساعديه المجعّد، وسالت جداول من العرق على صدغيه. وكان وتر فكّه يتحرّك، فعرفت أنّ ثمة وحياً يتجلّى أمامه ليقوله لنا، فالتربية الروحية لأفراد أسرته تظلّ طوال الوقت ماثلةً في ذهنه، وطالما كان يردد بأنه يعتبر نفسه قبطاناً ينقذ فوضى العقول الأنثوية من الغرق. أعرف أنه يراني مزعجة، لكن على الرغم من ذلك فإني أحبّ قضاء الوقت معه أكثر بكثير مما أحب فعل أيّ شيء آخر.

سألني أخيراً: «ليا، لماذا تظنّين أن الربّ منحنا بذوراً لنزرعها، ولم يجعل طعام العشاء ينبثق فجأة أمامنا من تحت الأرض مثل الصخور في الحقل؟».

كانت تلك صورة آسرة. فبينما كنت أفكّر في الأمر، رفع نصل المعزقة التي عبرت معنا الأطلسي في محفظة أمي، وثبّتها في الفتحة المخصصة لها

في عمود طويل. لماذا منحنا الربّ بذوراً؟ حسناً، لأن وضعها في جيوبنا أسهل بكثير من وضع خضراوات كاملة، لكنّي أشكّ فيما إن كان الله يبدي أي اهتمام حقيقي بصعوبات السفر. كنت في الرابعة عشرة ونصف من عمري في ذلك الشهر، وما زلت أحاول الاعتياد على الزيارات الشهرية المحرجة. أنا أؤمن بالله بكلّ قوّتي، لكنني بدأت مؤخراً أفكّر بأنّ معظم التفاصيل لا تتناسب مع جلالته.

اعترفتُ بأنني لا أعرف الجواب.

اختبر أبي وزن مقبض معزقته وقوّتها وراح يحدّق بي. إنه رجل مهيب جداً، أبي، بكتفيه العريضين ويديه الكبيرتين جداً. إنه وسيم بشعره الرملي، وقد يفترض الناس أنه اسكوتلندي نشيط، مع أنه من المحتمل أن يكون شديد الغضب.

«لأن الربّ، يا ليا، يساعد الذين يساعدون أنفسهم».

«أوه!» صحتُ، وقلبي يكاد يقفز إلى حنجرتي، لأنني طبعاً أعرف ذلك. كم أتمنى أن أتذكّر كلّ ما أعرفه بسرعة كي أجيب عن أسئلة أبي.

«لقد خلق الله عالم العمل والثواب» -قال شارحاً- «على نطاق متوازن كبير»، ثم أخرج منديله من جيبه ليجفّف قطرة العرق، بعناية، من محجر إحدى عينيه، ثم من محجر العين الأخرى. توجد على صدغه ندبة وضعف في الرؤية بعينه اليسرى، بسبب إصابة حرب لم يتحدّث عنها قطّ، لأنها شيء لا يتفاخر به. طوى مرة أخرى المنديل وأعاده إلى جيبه. ثمّ أعطاني المعزقة ورفع يديه من جانبيه، وكفّاه إلى الأعلى ليصوّر التوازن السماوي. «أعمال خير صغيرة هنا»، وأنزل يده اليسرى قليلاً، «وثواب صغير هنا»، وأنزل يده اليمنى قليلاً جداً بوزن ثوابٍ يكاد ألّا يزن شيئاً. «تضحيات عظيمة، ثوابٌ كبير»، وأنزل يديه بعنف من عند كتفيه، واشتهيت بكلّ جوارحي أن أحصل على وزن الأعمال الصالحة الرائع الذي كان يحمله في راحتي يديه.

ثمّ فرك يديه معاً، وانتهى من الدرس ومني. «إن الله يتوقّع منّا أن نؤدي نصيبنا من العمل لكسب رزق الحياة يا ليا».

ثم أخذ مني المعزقة وواصل عمله في تنظيف بقعة الأرض بجانب الغابة، مُقدماً على عمله بهمّة عضلية قوية، لا بدّ أن البندورة والفاصولياء ستكون كثيرة بعد فترة قصيرة لدرجة أنها ستخرج من آذاننا. فقد كنت أعرف أن ميزان الله واسع ودقيق للغاية: تخيّلته أكبر بكثير من الميزان الذي يستخدمه الجزّار في محلّات بيغلي ويغلي في بلدتنا في بيت لحم. نذرتُ بأن أعمل بجدّ في خدمة الله، وأن أتفوّق على الآخرين جميعاً في تفانيّ لأحوّل هذه الأرض لخدمة مجد الله العظيم. قد يأتي يوم أرى فيه إفريقيا كلّها تعرف كيف تزرع المحاصيل. ومن دون تأفُّف أحضرت دلو ماء بعد الآخر من الحوض المجلفن(*) على الشرفة، لكي يبلّل الأرض قبل أن يعزقها حتى لا يتطاير التراب من الأرض. لقد جفَّ الطين الأحمر على بنطال أبي الخاكي فبدا مثل دم حيوان مذبوح. مشيت وراءه ووجدت رؤوساً مقطوعة من أزهار الأوركيد البرتقالية الصغيرة البرّاقة. رفعت واحدة منها وقرّبتها من عيني. كانت رقيقة وغير عادية، لها لسان أصفر منتفخ وبتلات منقّطة باللون الكستنائي. كنت متيقّنة من أن أحداً لم يزرع هذه الزهور قط، ولم يقطفها أحد أيضاً لأن الله صنعها وأنهاها بنفسه. لا بدّ أنه قد شكَّ في قدرة البشرية على المثابرة في اليوم الذي خلق فيه الأزهار.

وقفت ماما بيكوا تاتابا تراقبنا، وهي امرأة صغيرة فاحمة السواد. برز مرفقاها مثل جناحين، وعلى رأسها وعاءٌ أبيض ضخم مطلي بالمينا، كان مثبّتاً بشكل عجيب مع أنها كانت تحرّك رأسها بسرعة يميناً ويساراً. وفوجئنا عندما عرفنا أن ماما تاتابا ستعيش معنا في البيت لقاء مبلغ صغير، لتؤدّي العمل نفسه الذي كانت تؤدّيه لسَلَفِنا في البعثة التبشيرية في كيلانغا، الأخ

(*) جلفن الحديدَ: طلَى سطحه بطبقة من الزنك لوقايته من الصدأ. [م].

فاولز الذي خلّف لنا شيئين يعيشان معنا في البيت، هما: ماما تاتابا، وببغاء اسمه ميثوسالا، وكان قد درّبهما على التكلّم باللغة الإنكليزية، ومن الواضح أنه علّمهما أشياء كثيرة أخرى، لأن الأخ فاولز خلق تأثيراً طويل المدى هنا. وسمعت من والديَّ بأنّ الأخ فاولز أقام تحالفات غير تقليدية مع أهالي القرية، وأنه يانكي أيضاً. وسمعتهما يقولان إنه إيرلندي من نيويورك، وهذا يعني أشياء كثيرة، أهمها أنه من طائفة الكاثوليك البابويين. وقال أبي إنه فقد رشده وإنه كان منسجماً مع سكّان هذه الأرض.

لهذا السبب سمحت لنا رابطة البعثات التبشيرية أخيراً أن نأتي إلى هنا. في البداية، أهانوا والدي برفضهم لطلبنا، حتى بعد قيام أبناء الرعية في بلدة بيت لحم بجمع تبرعات العُشر طوال سنة، لكي نأتي وننشر كلمة يسوع. لكن لم يتطوّع أحد غيرنا للمجيء إلى كيلانغا، وكان السيّد والسيّدة أندرداون قد طلبا أن يكون الشخص الذي سيأتي إلى هنا ثابتاً، ومعه أسرة. وبطبيعة الحال، فإننا أسرة، وأبي ثابت مثل جذع شجرة. وأصرّ السيّد والسيّدة أندرداون أيضاً على أنه يجب ألّا تزيد فترة بعثتنا على سنة - لأن هذا ليس وقتاً كافياً يمكن أن يفقد فيه المرء صوابه بالكامل، كما أظن، حتى لو سارت الأمور على نحوٍ سيئ.

أمضى الأخ فاولز في كيلانغا ستّ سنوات، وهي حقاً، عندما تفكّر في الأمر، فترة طويلة تكفي لانحدار أيّ عقل وتدهوره. ولا يعرف أحد كيف أثّر على ماما تاتابا، لكنّنا كنّا بحاجة إلى مساعدتها. فهي تجلب لنا الماء الذي نحتاج إليه من النهر، وتنظّف مصابيح الكيروسين وتشعلها، وتقطع الحطب، وتوقد النار في الموقد، وترمي دلاء الرماد في حفرة المرحاض الخارجي، وتقتل الأفاعي كنوع من التسلية بين أعمالها الأكثر صعوبة. شعرت أنا وأخواتي بالرهبة من ماما تاتابا التي لم نكن قد اعتدنا عليها بعد. كانت لا ترى بإحدى عينيها التي تبدو مثل بيضة كُسر صفارها وخُفقت مرة

واحدة فقط. وعندما وقفت بجانب حديقتنا، رحت أحدّق في عينها التي لا ترى بها، بينما راحت عينها السليمة تحدّق بأبي.

«لماذا تحفر هذه الحفرة؟ هل تبحث عن الدود؟»، سألته.

وإدارت رأسها قليلاً من جهة إلى أخرى، متفحّصة عمل أبي بـ«شعاع أحاديّ حادّ» -كما يسمّيه هو-. وظلَّ الدلو المجلفَن ثابتاً فوق رأسها لا يتحرّك، مثل تاج عظيم مرتفع.

«إننا نزرع الأرض، يا أختاه!»، قال.

«هذا يا أخي، يعضّ»، قالت، وأشارت بيدها إلى شجرة صغيرة كان يحاول أبي أن يقتلعها من حديقته. كان نسغ أبيض ينزّ من اللحاء الممزّق. مسح أبي يديه بسرواله.

«هذه الشجرة سامّة»، أضافت بحدّة، مؤكّدة على مقاطع الحروف كما لو أنها سئمت من قولها.

جفّف أبي العرق من جبينه مرة أخرى، وبدأ يحكي مَثَل سقوط حبة خردل في أرض قاحلة، وسقوط حبة أخرى في تربة صالحة(*). تذكّرت قوارير الخردل المدبّبة اللامعة التي كنا نستخدمها كثيراً في حفلات العشاء التي تقام في الكنيسة - عالم مختلف تماماً عن أيّ شيء رأته وعرفته ماما تاتابا طوال حياتها. لقد خُلق أبي لهذا العمل، ليجلب الكلمة إلى مكان كهذا. أردتُ أن ألقي بذراعي حول رقبته المرهقة وأداعب شعره المجعّد.

بدا أن ماما تاتابا لم تكن تستمع إليه. فأشارت إلى التراب الأحمر مرة أخرى، وقالت: «يجب أن تصنع تلالاً». لكن أبي أصرّ على موقفه. أبي الطويل القامة مثل جالوت، ونقي القلب مثل داوود. خطٌّ من التراب الأحمر على شعره وحاجبيه ورأس ذقنه القوية جعله يبدو شخصاً شريراً

(*) من أمثال الإنجيل. [م].

بما لا يتلاءم مع طبيعته. مرّر يده الكبيرة المكسوّة بالنمش على جانب رأسه في المكان الذي كان شعره محلوقاً فيه بنعومة شديدة، ثمّ مررها فوق شعره الأشعث الأطول فوق قمة رأسه. فعل كلّ ذلك وهو يتفحّص ماما تاتابا بتسامحٍ مسيحيّ، آخذاً وقته ليفكّر بالرسالة التي سيقولها لها.

وقال أخيراً: «ماما تاتابا، أنا أزرع التربة منذ أن استطعت المشي وراء والدي».

عندما يقول أبي شيئاً، حتى لو كان شيئاً بسيطاً عن سيارة أو عن تصليح أنابيب المياه، فهو ينحو إلى أن يفعل ذلك على هذا النحو: بعبارات يمكن أن تُفسَّر بأنها مقدّسة.

ركلت ماما تاتابا التراب بباطن قدمها الحافية المسطّحة، ونظرت إليه باستخفاف، وقالت: «إنها لن تنمو. يجب أن تصنع تلالاً»، واستدارت على عقبيها، ودخلت إلى البيت لتساعد أمي في صبّ ماء الكلوروكس على أرضيّة البيت للقضاء على ديدان الأنكلستوما.

صُدمت. فقد رأيت أناساً في جورجيا يشعرون بالغضب من والدي، أو الرهبة، لكن ليس الازدراء. مطلقاً.

«ما الذي تعنيه بأن تصنع تلالاً؟» -تساءلت- «ولماذا تظن أن نبتة يمكن أن تعضّك؟».

لم يُعرها أبي أي اهتمام، مع أنّ شعره كان يتوهّج كما لو أن النار اشتعلت فيه في ضوء الأصيل.

«ليا، عالمنا مليء بالغموض»، كان ردّه الواثق.

من بين كلّ الأشياء الغامضة في إفريقيا، كانت قلة هي التي كشفت عن نفسها في وقت قصير. فقد استيقظ أبي في صباح اليوم التالي وقد امتلأت يداه وذراعاه بطفحٍ فظيع، إذ يبدو أن النبتة التي تعضّ قد عضّته. حتى عينه

اليمنى السليمة كانت متورّمة ومغمضة في المكان الذي جفّف فيه حاجبه من العرق. وسال قيحٌ أصفر مثل نسغ من بطانة لحمه. وعندما حاولت أمي أن تدهنه بالمرهم صرخ. «أسألك كيف جاء هذا؟» سمعناه يزأر في غرفة نومهما، من وراء الباب المغلق. «آخ! يا ربي القدير العظيم. أورليانا، كيف جاءتني هذه اللعنة، بينما تكون إرادة الله أن أزرع الأرض؟!». ثم فُتح الباب بقوّة واندفع أبي إلى خارج الغرفة. لحقت به أمي وبيدها ضمادات، لكنّه أبعدها عنه بفظاظة وخرج إلى الشرفة. ومع ذلك، بعد وقت كان عليه أن يعود ويسمح لها بأن تعتني به. كان عليها أن تلفّ يديه بخرق نظيفة قبل أن يستطيع حتى التقاط شوكة، أو الكتاب المقدّس.

بعد الصلاة مباشرةً خرجتُ لأرى التقدّم الحاصل في حديقتنا، لكني صُعقت عندما رأيت ما كانت ماما تاتابا تقصده بالتلال: فقد بدت لي مثل قبور، واسعة وطويلة تتسع لشخص ميّت. فقد أعادت تشكيل حديقتنا في الليل وصنعت ثمانية تلال مرتّبة بشكل جيّد.

هرعت إلى البيت وناديت أبي الذي جاء مسرعاً وكأنني رأيت أفعى وجاء هو ليقطع رأسها. انتابت أبي آنذاك نوبة غضب شديدة. فحدّق بعينه المصابة طويلاً ليتبيّن الشكل الذي أصبحت عليه حديقتنا. ثمّ قمنا كلانا، من دون أن ننبس بكلمة، بتسويتها ثانية وجعلناها مسطّحة مثل منطقة السهول الكبرى(*). فسوّيت الأرض كلها وحدي، لأن أبي لا يستطيع عمل ذلك بيديه المصابتين. وحفرت بسبّابتي شقوقاً مستقيمة طويلة ووضعنا في داخلها كمية أكبر من بذورنا الثمينة. وألصقنا أكياس البذور اللامعة على عصي في نهايات الخطوط -قرع، فاصولياء، يقطين عيد الهالووين- لنتذكّر ما الذي نتوقّع أن ينبت.

(*) Great Plains: مساحة واسعة من الأراضي المسطّحة في الولايات المتحدة الأميركية وكندا، معظمها مغطّى بالمروج والسهوب والأراضي العشبية. [م].

وبعد عدّة أيام، عندما استعاد أبي عافيته وشفيت عيناه، أكّد لي أنّ ماما تاتابا لم تكن تنوي أن تتلف حديقتنا المثالية. وقال إنه توجد عادات محلّيّة، وإننا يجب أن نتحلى بصبر أيوب، وقال: «إنها تحاول أن تساعدنا، لكن بطريقتها».

هذا أكثر ما يعجبني بأبي: فمهما ساءت الأمور، فإنه يجد في النهاية النعمة ليتمالك نفسه. بعض الناس يرونه شخصاً صارماً ومخيفاً، لكن ذلك فقط لأنه وُهب هذه البصيرة الحادة ونقاء القلب. فقد اختير ليعيش حياة مليئة بالتجارب، كما عاش المسيح. وبما أنه أول شخص يكتشف العيوب والتجاوزات، فإنه تقع على عاتق أبي مهمة تقديم التكفير عن الذنب. ومع ذلك فهو على استعداد دائم للإقرار بأن هناك طريقة محتملة للخلاص قابعة في قلب الآثم.

أعرف أنني، ذات يوم، عندما أكبر بما يكفي في الروح القدس، سأحظى بموافقته القلبية الصادقة.

لا يدرك الجميع ذلك، لكن قلب أبي كبير مثل يديه. وحكمته عظيمة. ولم يكن قط واحداً من أولئك القساوسة في المناطق النائية الذين يدافعون عن حمل الأفاعي السامة، أو رمي الأطفال، أو الصياح بكلام لا معنى له(*). أبي يؤمن بالتنوير، فعندما كان صبياً علّم نفسه قراءة فصول من الكتاب المقدّس باللغة العبرية، وقبل أن نأتي إلى إفريقيا جعلنا نجلس كلنا وندرس

(*) حمل الأفاعي هو طقس ديني كان منتشراً خصوصاً في جبال الأبالاش، في جنوب شرق الولايات المتحدة، بين بعض أتباع الطائفة الخمسينيّة، إذ يفهم أتباع هذا الطقس الآية التالية حرفياً: «باسمي يُخرجون الشياطين ويتكلّمون بألسنة جديدة ويحملون الثعابين» (مرقس: 16:17-18).
وأما رمي الأطفال فهو من الطقوس الدينية المنتشرة في الهند، إذ يهزّ الكاهن الطفل الرضيع ثم يُسقطه من سطح ضريح أو مسجد، وإذا كان مقدّراً له أن يعيش فسيُنقذ. [م].

اللغة الفرنسية، لندعم بعثتنا. وقد زار أماكن كثيرة، وبضمنها غابة أخرى في ما وراء البحار، في جزر الفيليبين، حيث كان بطلاً أصيب بجروح في الحرب العالمية الثانية. لذلك، فقد رأى كلّ شيء.

راشيل

في يوم أحد عيد الفصح في الكونغو، لم تكن لدى بنات أسرة برايس ثيابٌ جديدة. هذا شيء مؤكّد. فقد ذهبنا إلى الكنيسة بالأحذية والفساتين القديمة نفسها التي كنا نرتديها أيام الأحد الأخرى منذ أن جئنا إلى إفريقيا. وغنيٌّ عن القول أنه لا قفّازات بيض. ولا تزيُّن أيضاً، لأن المرآة الوحيدة الموجودة في البيت هي مرآتي ذات اليد المصنوعة من العاج الاصطناعي التي أحضرناها معنا من البيت في بلدنا، والتي نستعملها كلّنا. وضعتها أمّنا على طاولة المكتب في غرفة الجلوس، وأسندتها إلى الحائط، وكلّما مرّت ماما تاتابا من جانبها صرخت كما لو أن أفعى لسعتها. هكذا إذاً سنحتفل بعيد الفصح بحذاء مسطّح مبقّع. من دواعي سروري مقابلتك! أما بالنسبة لأخواتي فإني أقول إنهن لم يأبهن بكلّ ذلك. روث ماي مستعدة لأن ترتدي جينزاً أزرق حتى إلى جنازتها، ولا تُبدي أيٌّ من التوءم أيضاً، أيّ اهتمام بمظهرها، لأنهما أمضتا وقتاً طويلاً وهما تحدّقان إحداهما في وجه الأخرى عندما كانتا في رحم أمهما، وقد تمضيان حياتهما وهما تمرّان أمام مرآة ولا تنظران إليها. وبمناسبة الحديث عن هذا الموضوع، يجب أن ترى ما الذي يرتديه الكونغوليون. إذ يرتدي الأطفال أكياساً من الخرق التي تتبرّع بها المنظّمة الخيرية المعمدانية، أو أنهم لا يرتدون شيئاً على الإطلاق. ولا يعتبر تناسق الألوان أمراً ذا شأن، لأن الرجال والنساء يرون أنّ قطعة قماش حمراء موشّاة بأزهار وردية اللون هو شيء متناسق وجميل. وترتدي

النساء سارونغ(*) من القماش تُلفّ فوقه قطعة قماش مربّعة كبيرة أخرى بلون مختلف. وهنّ لا يرتدين الجينز أو البنطال أبداً - مستحيل. وقد تتماوج الأثداء مع هبّات النسيم، لكن الساقين يجب أن تظلّا مخفيتين تماماً. سريّتان للغاية. وعندما كانت أمي تخرج من البيت ببنطالها الكابري(**) الأسود، كانوا كلّهم يحدّقون فيها. وقد اصطدم رجل بشجرة أمام بيتنا وسقط سنّ من فمه بينما كان ينظر إلى بنطال أمّي الضيّق. فالجميع هنا يتوقّعون أن ترتدي النساء نمطاً واحداً من الثياب، لا شيء سواه. أما الرجال فلديهم مسار مختلف من الألوان، فهم يرتدون بطريقة مختلفة عن العالم كلّه: إذ يرتدي بعضهم قمصاناً طويلة مصنوعة من القماش الإفريقي نفسه الموشّى بالأزهار الذي ترتديه النسوة، أو يلقون قطعة منها على أحد الكتفين بأسلوب هرقل. ويرتدي آخرون قمصاناً لها أزرار على الطريقة الأميركية وبناطيل قصيرة ذات ألوان باهتة، مبقّعة. ويتسكّع عدد من الشبان بقمصان داخلية صغيرة عليها طبعات طفولية، ويبدو أن أحداً لا يلاحظ أنه من المضحك التجوّل بها. فالرجل الذي سقط سنّه من فمه كان يرتدي بدلة أرجوانية لها أزرار فولاذية تشبه بدلة بوّاب رسمية. أما الإكسسوارات، فأكاد لا أعرف من أين أبدأ. فالصنادل المصنوعة من إطارات السيارات تحظى بشعبية كبيرة، لها أطراف مجنّحة عتيقة تلتفّ إلى الأعلى عند أصابع القدمين، وكالوشات مطّاطيّة سوداء محلولة الإبزيم مفتوحة على الجانبين، أو سيور بلاستيكية وردية لماعة، أو بأقدام حافية - أيّ شيء من هذه الأشياء التي يمكن أن تجاري الألبسة المذكورة. نظّارات شمسية، نظّارات عادية، قبّعات، من دون قبّعات، لا فرق. بل حتى قبّعة صوفية منسوجة في أعلاها كرة، أو بيريه نسائية

(*) ثوب يتكوّن من قطعة قماش طويلة تُلفّ حول الجسم، وتطوى عند الخصر أو تحت الإبطين. [م].

(**) Capri: وتعرف أيضاً ببناطيل ثلاثة أرباع الساق. [م].

صفراء برّاقة - لقد رأيت كلّ هذه الأعاجيب بل أكثر منها. ويبدو أن الموقف تجاه الملابس هو على النحو التالي: إذا كان لديك أي شيء، فلمَ لا تلبسه؟ ويذهب بعض الرجال إلى أعمالهم اليومية كأنهم يتأهبون لمواجهة عاصفة ثلجية استوائية مفاجئة، كما يبدو، بينما يرتدي آخرون ثيابهم على نحو صادم بعض الشيء: شورت قصير فقط. وعندما تنظر حولك، يُخيَّل إليك أنّ كلّ رجل هنا ذاهب إلى حفلة مختلفة، ثم فجأة التقوا كلّهم هنا.

هكذا بدا يوم عيد الفصح في كنيستنا. في جميع الأحوال، فهي ليست الكنيسة التي تُرتدى فيها التنانير المنتفخة أو الأحذية الجلدية. ولا توجد للكنيسة جدران، كما أن الطيور قد تنقضّ عليك وتستعمل شعرك لصنع أعشاشها. وقد أقام أبي في المقدّمة هيكلاً من سعف النخيل بدا مقبولاً، لكن لا يزال بإمكانك أن ترى بقعاً وفحماً أسود على الأرض التي خلّفتها النار التي أشعلوها للترحيب بنا في ليلة وصولنا. وهذا شيء غير سارّ يذكّرني بسدوم وعمورة وما إلى هنالك. ولا أزال أغصّ عندما أتذكّر لقمة لحم الماعز تلك التي لم أبتلعها وإنما أبقيتها في فمي طوال المساء، ثم بصقتها وراء المرحاض الخارجي عندما ذهبنا إلى البيت.

هكذا إذاً، لا توجد فساتين جديدة. لكن لم يكن يُسمح لي بأن أتذمّر من ذلك. حتى إنه لم يكن عيد فصحٍ حقيقياً. فقد وصلنا في منتصف الصيف، وكانت جميع الأعياد الدينية لا تزال بعيدة جداً. كان أبي منزعجاً من هذا التوقيت حتى توصّل إلى اكتشاف العصر النفّاث المريع، وهو أن الأيام والأشهر ليست هامة بشكل أو بآخر لأهالي هذه القرية. حتى إنهم لا يميّزون يوم الأحد عن يوم الثلاثاء أو يوم الجمعة أو اليوم الذي لن يأتي أبداً! وهم يعرفون العدّ حتى الرقم خمسة فقط، فيقيمون يوم السوق، ثم يبدؤون العدّ من جديد. وأخبر أحد الرجال في الجماعة أبي أن إقامة الصلاة بين حين وآخر في يوم السوق نفسه يشوّش الجميع هنا بخصوص المسيحيين. وهذا

ما أثار اهتمامنا بالطبع. لذلك، لم يكن لدى أبي شيء يخسره عندما أعلن تقويمه الخاص ووضع عليه إشارة عيد الفصح في الرابع من تموز. لمَ لا؟ وقال إنه بحاجة إلى نقطة مركزية ينطلق منها لإحياء عمل الكنيسة.

كان الاحتفال بعيد الفصح المزيّف عبارة عن عرض نظّمه أبي وكلّ من كان متحمّساً للقيام بذلك. ففي الأسابيع القليلة الأولى من وجودنا في كيلانغا، كان الحضور في الكنيسة يكاد يكون معدوماً، فاعتبر أبي هذا العرض شيئاً من شأنه أن يجعل الأمور أفضل. وقام أربعة رجال وبضمنهم الرجل الذي يرتدي بدلة البوّاب، ورجل آخر له ساق واحدة، بأداء دور الجنود وحملوا رماحاً حقيقية. (لم تحضر الصلاة أيّ امرأة تذكر، لذا لم تؤدِّ أيٌّ منهن دوراً في المسرحية). في البداية، بحث الرجال عن رجل يؤدي دور المسيح ويقوم من بين الأموات، لكن أبي عارض ذلك من حيث المبدأ. فلبسوا زيّ حرّاس رومان، ووقفوا حول القبر وهم يضحكون برضا وثنيّ، لأنهم استطاعوا أن يقتلوا الله. وفي الفصل الثاني، أخذوا يقفزون، مظهرين خوفهم الشديد عندما رأوا الصخرة وهي تنزاح عن القبر.

لم أُبدِ اهتماماً كبيراً لأنظر إلى أولئك الرجال في العرض، لأننا، بدايةً، لسنا معتادين كلّنا على العِرق الإفريقي، وذلك لأنهم في بلدنا يمكثون في أحياء خاصة بهم. أما هنا، بطبيعة الحال، فإن الأماكن كلها في القرية لهم، فضلاً عن أن الرجال الذين في العرض عززوا ذلك إلى أقصى درجة. أما أنا فلم أرَ أيّ داعٍ للقيام بذلك بطريقة إفريقية، كانوا يضعون أساور فولاذية في أذرعهم السوداء، وكانت ثيابهم مرخاة، ملتفّة كيفما اتفق حول خصورهم (حتى الرجل ذو الساق الخشبية). دخلوا إلى الكنيسة وهم يركضون أو يقفزون، يحملون الرماح الثقيلة التي سيستخدمونها في وقت لاحق من الأسبوع لقتل الحيوانات. كنّا نعرف أنهم فعلوا ذلك قبل الآن. فقد كانت زوجاتهم يأتين إلى باب بيتنا كل يوم، يحملن سيقان شيء يقطر دماً ذُبح

منذ أقل من عشر دقائق. وقبل أن تنتهي هذه المغامرة العظيمة، أظن أن أبي كان يتوقّع أن نأكل، نحن بناته، لحم كركدن. كاد لحم الظبي أن يصبح خبزنا اليومي. فقد بدؤوا يحضرونه لنا منذ الأسبوع الأول. حتى إنهم أحضروا لنا ذات يوم، لحم قرد. وقفت ماما تاتابا تساوم النسوة عند الباب، ثم استدارت أخيراً وهي ترفع ذراعيها الهزيلتين مثل بطل ملاكمة، حاملةً طعام عشائنا. يا للقرف! أخبروني عندما ينتهي ذلك! ثم خرجَتْ إلى كوخ المطبخ وأشعلت ناراً هائلة في الموقد الحديدي حتى يُخيَّل إليك أنك في كايب كارنيڤيرال(*) بانتظار أن تنطلق سفينة فضائية بعد قليل. يمكنها أن تطبخ أيّ شيء، سواء أكان حيّاً أم ميّتاً، لكن الحمد لله، رفضت أمي القرد، بتكشيرته الميّتة الصغيرة. وقالت لماما تاتابا إنّنا نستطيع أكل أشياء تكون أقل شبهاً بالعائلة من هذا.

عندما وصل موكب الرجال مجلجلين برماحهم الملطّخة بالدم إلى مدخل كنيستنا في يوم عيد الفصح ذاك، اعتُبر ذلك تقدّماً كبيراً، أنا متأكّدة من ذلك، لكنّه لم يكن الشيء الذي كان أبي يطمح إليه. فقد كان يطمح لأن يُجري معمودية كاملة. كان يهدف من إقامة عيد الفصح في شهر تموز أن يكون دعوة للمجيء إلى الهيكل، يليه موكب بهيج إلى النهر مع أطفال يتشحون بالبياض ليخلّصهم، وأن يقف أبي في النهر حتى خصره كما فعل القدّيس يوحنا المعمداني ويرفع إحدى يديه، وباسم الأب والابن والروح القدس يغطس رؤوسهم في الماء، الواحد تلو الآخر. عندئذٍ سيمتلئ النهر بالأرواح المطهّرة.

يجري جدول صغير عبر القرية، فيه برك صغيرة يغسل فيها الأهالي ملابسهم ويشربون منها، لكنّها ليست عميقة أو واسعة بما يكفي لإحداث

(*) تستخدم تهجئة خاطئة فتقول «cape carniveral»، بدلاً من «cape canaveral»، التي تعتبر المركز الرئيس للأنشطة الفضائية للولايات المتحدة. [م].

أيّ تأثير قريب من عملية عماد حقيقية. كان أبي يرى نهر كويلو نهراً عريضاً. يمكنني أن أرى بوضوح كيف يريد أن تجري هذه المراسم. قد يكون حقاً مشهداً جميلاً. لكن الرجال قالوا لا، لن يحدث ذلك. وعارضت النسوة بقوة أن يُغطَّسن في ماء النهر، حتى إنهن أبقين أطفالهن في أماكن بعيدة عن الكنيسة في ذلك اليوم. هكذا ضاعت النقاط المؤثّرة التي كان يهدف أبي إلى تحقيقها من هذا الموكب في كيلانغا. وكنت أنا وأخواتي، وأمّنا، وماما تاتابا الإناث الوحيدات الموجودات في الكنيسة، والرجال لأنهم يشاركون في أداء هذه المسرحيّة، وكانت نسبة كبيرة من الموجودين، إما مستغرقين في أحلام اليقظة، وإما يتفحّصون محتويات مناخيرهم.

وبدلاً من المعمودية، استمال أبي الناس إلى أقرب مكان استطاع أن يستميلهم إليه عند النهر، بواسطة الأسلوب المتّبع منذ القدم وهو إقامة العشاء في الكنيسة. فقمنا بنزهة على ضفة نهر كويلو الذي تفوح منه الرائحة المبهجة للطين والسمك الميّت. وانضمّت إلينا الأسر التي لم تقترب من باب الكنيسة، التي، بالمناسبة، لا يوجد لها باب. وهذا أمر طبيعي لأننا جلبنا معظم الطعام. أعتقد أنهم يظنون أننا سانتا كلوز، لأن الأطفال يأتون إلينا كل يوم يستجدون قليلاً من الطعام وأشياء أخرى - ونحن فقراء مثل فئران الكنيسة! وفي إحدى المرات جاءت امرأة إلى باب بيتنا لتبيعنا سلالاً يدوية الصنع ونظرت من الباب ورأت مقصّنا، فسألت على الفور ما إن كانت تستطيع أن تأخذه! تصوّروا هذه الجرأة في أن تطلب ذلك.

هكذا جاؤوا كلّهم بأبهة إلى هذه النزهة: النسوة وقد لففن رؤوسهن بأقمشة موشّاة شبيهة بعلب هدايا عيد الميلاد. أما الأطفال فكانوا يرتدون الملابس القليلة المتوفّرة لديهم - حتى إن هذا الأمر كان لصالحنا، أعرف ذلك، بعد خطبة أبي عن العري واللباس المكشوف. ومهما كان الأمر، فما زالوا يبدون عراة. وكانت بعض النسوة يحملن أطفالاً حديثي الولادة

أيضاً، أشياء متجهّمة بلون ظباء صغيرة، تلفّهم أمهاتهم في صرر كبيرة من أقمشة وبطانيات، حتى إنهن يضعن على رؤوسهم قبّعات صوفية صغيرة في هذه الحرارة لإظهار كم أنهم ثمينون، كما أظن. ففي وسط كلّ هذا الغبار والأوساخ التي تملأ المكان ومع عدم ظهور أي شيء جديد أو لامع، يجب اعتبار مجيء طفل جديد حدثاً كبيراً.

بطبيعة الحال، ظلَّ الجميع يحدّقون بي، كما يفعلون دائماً هنا. فأنا أكثر شقرةً من أي شخص يمكنهم تخيّله. عيناي بلون الياقوت الأزرق، ورموشي بيضاء، وشعري أشقر بلاتيني ينسدل حتى خصري، وهو شديد النعومة، لأني أستخدم شامبو *Breck Special Formulated* ولا أعرف ما الذي سأفعله بعد أن تنتهي العبوة التي سمح لي أبي بجلبها: أأضرب شعري على الصخر كما تفعل ماما تاتابا بثيابنا؟ ساحر! بجهودهم الذاتية يبدو أن الكونغوليين لا يستطيعون إنتاج أشياء كثيرة في مجال الشعر. فنصفهم صلعان مثل البقّ، حتى الفتيات. يا له من مشهد مزعج أن ترى فتاة صغيرة، ذات قوام جيّد، ترتدي فستاناً مكشكشاً، ولا توجد شعرة واحدة في رأسها. لهذا السبب فهنّ يحسدنني على شعري، وغالباً ما يقتربن مني بوقاحة ويشدُدن شعري بقوّة. والغريب أنّ والديَّ لا يعترضان على ذلك. فهما صارمان جداً إلى درجة أنك تظن أنهما والدان شيوعيان، لكن عندما يتعلّق الأمر بشيء تريده، فإنهما لا يلاحظان ذلك، ويصبح التهاون الأبويّ هو القاعدة اليومية.

كانت نزهة عيد الفصح في الرابع من تموز طويلة، بدت دهراً في عصر ذلك اليوم الكونغولي. فمع أن ضفّة النهر بدت جذّابة من بعيد، فإنها ليست بذلك القدر من الجمال عندما تقترب منها: ضفة طينية لزجة كريهة الرائحة تحيط بها شجيرات متشابكة تنمو عليها أزهار برتقالية كبيرة مبهرجة، إذا حاولتِ أن تضعي زهرة منها خلف أذنك مثل دوروثي لامور(*) يبدو كأنك

(*) Dorothy Lamour: ممثّلة أميركية شهيرة، توفيت عام 1996. [م].

تضعين وعاء حساء ميلماك. ولا يشبه نهر كويلو نهر الأردن البارد والعريض، فهو نهر كسول تجري فيه مياه دافئة مثل ماء حمّام، ويقال إن التماسيح تطفو على سطحه مثل جذوع الأشجار. ولا يوجد حليب وعسل في الجانب الآخر أيضاً، وإنما تقبع غابة نتنة في مكان منخفض في الضباب، بعيدة، بعيدة جداً مثل ذكرى النزهات في جورجيا. أغمضت عيني وحلمت بالمياه الغازية الحقيقية وهي تبقبق في العلب التي نرميها بعد الشرب. أكلنا جميعاً الدجاج المقلي الذي أعدّته لنا أمّي، على الطريقة الجنوبية، بدءاً من ذبحها وتقطيع رؤوسها.

كانت هذه هي الدجاجات نفسها التي كانت روث ماي تجري وراءها في أرجاء البيت في صباح ذلك اليوم قبل أن نذهب إلى الكنيسة. كانت أخواتي مكتئبات قليلاً، أما أنا فرحت أقضم ساق الدجاجة بسعادة ولم أرد أن يزعجني طيف الموت في نزهتنا. كنت ممتنّة فقط لطعم شيء مقرمش يربط هذه الحرارة الشديدة المخيفة بصيف حقيقي.

كان الدجاج مفاجأة أخرى لنا، كما كان بالنسبة لماما تاتابا. فقد كان أكبر قطيع من الدجاج المخطط بالأبيض والأسود بانتظارنا عندما وصلنا من الولايات المتحدة. كانت تخرج من قنّ الدجاج وتجثم تحت الأشجار، أو في أي مكان تجد بقعة فيه، لأنه بعد ذهاب الأب فاولز، بدأت الدجاجات يخبّئن بيوضهن ويربين صغارهن في الفترات التي كانت تنتقل فيها المهام بين البعثات التبشيرية. وحاول أهالي القرية تقديم المساعدة لنا من خلال تناول بعضها قبل أن نصل إلى هنا، لكن أظن أن ماما تاتابا أبعدتهم عنها بالعصا. كانت أمي هي التي قرّرت بأن تتبرّع بمعظم الدجاجات لإطعام القرية، عربوناً للسلام. وفي صباح يوم النزهة بدأت عملها منذ بزوغ الفجر، فذبحت كلّ الدجاجات وقلتها.

وفي أثناء النزهة وزّعت أفخاذ الدجاج على الأطفال الصغار الذين

كانوا في غاية السعادة ويلعقون أصابعهم وينشدون التراتيل. ومع ذلك، وعلى الرغم من الجهد الذي بذلته على الموقد الحار، كاد أبي ألّا يلاحظ كيف أنها كسبت تعاطف الناس، لأن عقله كان بعيداً على مسافة مليونَيْ ميل. كان يحدّق غالباً في النهر الذي لم يقبل أحد من أهالي القرية، كائناً من كان، أن يغطس فيه، في ذلك اليوم. كانت تعوم حُصرٌ من النباتات على سطح النهر تقف عليها طيور لها سيقان رفيعة، لا ريب أن كلّ طير من تلك الطيور يظن نفسه ملك العالم.

نعم، كنت منزعجة من أبي بالدرجة الأولى لأنه أحضرنا إلى هنا. لكن كان واضحاً أنه منزعج على نحوٍ ضارٍ. فعندما يركّز عقله على شيءٍ ما، عليك أن تستعد لرؤيته قد تحقّق. كانت النزهة بهيجة، لكن ليس كما كان قد خطّط لها، إذ لم يتمكّن حتى الآن من تخليص الأهالي من الخطيئة.

روث ماي

إذا كان أحدهم جائعاً، فلماذا تكون بطنه سمينة كبيرة؟

لا أعرف.

أسماء الأطفال: تونيبا، وبانغوا، ومازوزي، ونسيمبا، وأشياء من هذا القبيل. كان أحد هؤلاء الأطفال يتردّد كثيراً على باحة بيتنا، لكني لم أكن أعرف اسمه. كان كبيراً تقريباً، مثل أخواتي، لكنه لا يرتدي شيئاً فوق أرض الله الخضراء سوى قميصٍ قديم رمادي اللون من دون أزرار، وسروالٍ داخلي رمادي فضفاض. كانت بطنه مكوّرة كبيرة وسرّته ناتئة مثل رخام أسود. وكان بوسعي أن أميّزه من القميص والسروال الداخلي، لا من سرّته، لأن لدى جميع الأطفال السرّة نفسها. كنت أظنّ أنهم بدينون، لكن أبي قال لا، فهم جائعون بأسوأ ما يمكن للمرء أن يكون جائعاً، ولا يحصلون على

الڤيتامينات اللازمة، وعلى الرغم من ذلك، فقد جعلهم الله يبدون بدينين. أظن أن هذا ما يحصلون عليه لكونهم من قبائل حام.

أحد هؤلاء الأطفال فتاة. عرفت ذلك من ثوبها الأرجواني المزركش. وبما أنه كان ممزّقاً عند الصدر فقد كانت تظهر منه إحدى حلمتيها، ومع ذلك، فقد كانت تجري وتلعب كأن ذلك لا يعنيها ولا يعني أحداً أيضاً. وكانت تنتعل حذاء كان لونه أبيض، لكنه استحال الآن إلى لون التراب. أيّ شيء يكون أبيض هنا لا يعود أبيض. وكما ترون فإن هذا ليس لوناً يمكن رؤيته. حتى الزهرة البيضاء التي تتفتّح فوق الأجمة يكون مصيرها الذبول والهلاك في هذا العالم.

أحضرت معي لعبتين فقط: Pipe cleaner(*)، وقرداً محشوّاً بالجوارب. لكن القرد المحشو بالجوارب ضاع. كنت قد تركته على الشرفة، وعندما عدت صباح اليوم التالي لم أجده. سرقه أحد أولئك الأطفال الصغار، وهي خطيئة كبيرة. يقول أبي إنني يجب أن أغفر لهم لأنهم لا يعرفون ما الذي يفعلونه، وتقول أمي إنه لا يمكنني حتى أن أسميها خطيئة عندما يشعرون بأنهم بحاجة ماسة إلى شيء صغير كهذا. لذلك، فأنا في حيرة من أمري، لا أعرف ما إن كانت هذه خطيئة أم لا. لكنّي غضبت كثيراً، وبكيت وتبوّلت من دون قصد في سروالي. كان اسم القرد المحشو بالجوارب القدّيس ماثيو.

جميع الرجال البالغين في الكونغو يحملون اسم «تاتا كذا». وكان اسم ذاك الرجل تاتا أندو. إنه الزعيم. يرتدي بدلة كاملة من جلود القطط ويضع على رأسه قبّعة. كان على أبي أن يذهب لزيارة تاتا أندو ليعطي الرجل حقّه، حتى لو كان لا يحبه. وأسماء جميع النساء «ماما كذا»، حتى لو لم يكن

(*) حرفياً: منظّف الغليون، وهو قطعة من الأسلاك المغطّاة بالألياف المعنقدة، تستخدم لتنظيف أنبوب التبغ، كما يمكن اللعب بها وصنع أشكال مختلفة ومشغولات، خاصةً أنها تتوفّر بألوان متنوّعة. [م].

لديهن أطفال، مثل ماما تاتابا، السيّدة التي تطبخ لنا. تسمّيها راشيل: ماما تاتر توتس(*). لكنّها لن تطبخ ذلك. أتمنى أن تفعل ذات يوم.

تدعى السيّدة التي تقيم في البيت الصغير القريب من بيتنا ماما موانزا. ذات يوم احترق سقف بيتها وسقط فوقها فاحترقت ساقاها، لكن الأجزاء الأخرى من جسدها بقيت سليمة. حدث ذلك منذ سنوات. حكت ماما تاتابا لأمي هذه القصة عندما كانتا في بيت المطبخ واستمعت إليهما. إنهما لا تتحدّثان عن الأشياء السيئة أمام أخواتي، أما أنا فأستطيع أن أستمع إليهما طوال اليوم عندما أذهب إلى المطبخ لأحضر موزة وأقشّرها. كانت ماما تاتابا تعلّق عناقيد الموز الكبيرة معاً في الزاوية، لذا فإن عناكب الرتيلاء التي تتخذ ذلك المكان بيتاً لها، يمكنها أن تغادر متى شاءت. جلست على الأرض لا آتي بأي حركة، وقشّرت الموزة كما كان سيفعل القدّيس ماثيو لو كان قرداً حقيقياً ولم يذهب، وسمعتهما تتحدّثان عن المرأة التي احترقت. الأسقف تحترق لأنها مصنوعة من العصي والقشّ كما هي في قصة الخنازير الصغيرة الثلاثة. قد يغضب الذئب وينفخ على بيتك فيدمّره. حتى بيتنا. إنه بيت أنيق أفضل من البيوت الأخرى، لكنّه ليس مبنيّاً من الآجر. لم تحترق ساقا ماما موانزا بالكامل، لكنهما تشبهان وسادة أو شيئاً من هذا القبيل تجلس عليهما بعد أن تلفّهما بكيس قماش. كانت تزحف على يديها. الجزء السفلي من يديها يشبه الجزء السفلي من قدميها، لكن الفرق الوحيد هو أنه توجد فيهما أصابع يدين. ذهبت إليها وألقيت نظرة فاحصة عليها وعلى بناتها الصغيرات اللاتي لا يلبسن ثياباً. كانت لطيفة جداً وأعطتني قطعة برتقال لأمصّ سائلها. أمي لا تعرف ذلك.

كادت ماما موانزا تحترق حتى الموت عندما احترق السقف، لكنها

(*) Tater Tots: طبقٌ مكوّن من قطع صغيرة من البطاطا المبشورة والمقلية، إذ تشير Tater إلى الاسم العامي للبطاطا، بينما تشير Tot إلى حجمها الصغير. [م].

تحسّنت بعد ذلك. تقول أمي كان ذلك من سوء حظّ المرأة المسكينة، لأنها الآن مضطرة أن تعتني بزوجها وبأطفالها السبعة أو الثمانية الذين لا يبالون البتّة بأنها فقدت ساقيها. بالنسبة لهم هي أمّهم فقط، وأين هو العشاء؟ وهي كذلك بالنسبة لجميع الناس الآخرين في الكونغو. فهم لا يتساهلون معها ويعاملونها كما لو كانت شخصاً عادياً. لا أحد يرفّ له جفنٌ عندما تزحف على يديها وتذهب إلى حقلها أو إلى النهر لتغسل الملابس مع النسوة الأخريات اللاتي يغسلن الثياب هناك كلّ يوم. تحمل كلّ واحدة منهن أغراضها على رأسها في سلّة. والسلة كبيرة كالسلة البيضاء الكبيرة التي كانت أمي تضع فيها الغسيل عندما كنّا في بلدنا، ويبدو أنها دائماً تكدّس على رأسها قرابة مئة شيء بعضها فوق بعض. وعندما تزحف في الطريق، لا يسقط شيءٌ منها. جميع النسوة الأخريات يحملن على رؤوسهن سلالاً كبيرة أيضاً، لذلك لا يحدّق أحد في ماما موانزا مطلقاً.

ما يفعلونه هو أنهم جميعاً يحدّقون بنا. ينظرون إلى راشيل أكثر. ظنّت أمي وأبي في البداية أنّ هذا قد يكون جيّداً لراشيل، إذ سيخفف من غطرستها درجة أو اثنتين. قال أبي لأمّي: «يجب ألّا تفكّر الطفلة بأنها أفضل من الآخرين لأنها شقراء مثل أرنب أبيض». قال ذلك. عندما أخبرت ليا بذلك ضحكت بصوت مرتفع. أنا شقراء أيضاً لكني لست مثل أرنب أبيض. شعري أشقر بلون فاكهة الفريز(*)، تقول أمّي. لذلك آمل أنني لن أضطر للنزول درجة أو اثنتين مثل راشيل. فأنا أحبّ الفريز أكثر من أيّ شيء آخر. يمكنك أن تربّي أرنباً كحيوان أليف أو يمكنك أن تأكله. مسكينة راشيل! كلّما خرجت من البيت، جرى وراءها سربٌ من أطفال القرية الصغار الذين يحاولون أن يلمسوا أو يشدّوا شعرها الأبيض الطويل، ليروا ما إن كان سينفصل عن رأسها أم لا. حتى الأشخاص الكبار يفعلون لها ذلك أحياناً

(*) أشقر الفراولة (الفريز): أشقر به حمرةٌ خفيفة. [م].

أيضاً. أظن أنهم يعتقدون بأنّ هذه لعبة مسلّية. قالت لي ليا إنهم يفعلون ذلك لأنهم لا يصدّقون أنه شعرها الحقيقي، ويظنون أنها تضع شيئاً غريباً على رأسها.

وتصاب راشيل أيضاً بأسوأ الحروق بسبب تعرّضها للشمس. تحترق بشرتي أنا أيضاً لكن ليس مثلها. تحبّ راشيل اللون الوردي، وهذا شيء جيّد لأنها صارت بهذا اللون الآن. يقول أبي إن قدر كلّ فتاة شابة أن تتعلّم التواضع، وإن الله يختار لكل واحدة طريقةً لذلك.

قالت أمي: «لكن هل يجب أن ينظروا إلينا كأننا مخلوقات غريبة عن الطبيعة؟».

كانت راشيل ملكة جمال عائلة برايس، وها قد أصبحت الآن واحدة من تلك المخلوقات الغريبة عن الطبيعة. إدا الوحيدة في أسرتنا التي يوجد فيها شيء على غير ما يرام. ولكن لا أحد يحدّق بها إلا قليلاً لأن بشرتها بيضاء. ولا يكترث أحد بأن جانباً كاملاً منها على غير ما يرام، لأن عندهم كلّهم أطفالاً معاقين أو من دون أقدام، أو توجد لأحدهم عين عوراء. عندما تلقي نظرة إلى خارج الباب، فإنك ترى أحداً يسير وشيء من جسده مبتور، وعلى الرغم من ذلك، فإنه لا يشعر بأدنى حرج. سيلوّحون لك بجدعة(*) إذا كانت لديهم واحدة، بطريقة ودّية.

في البداية، كانت أمي توبّخنا لأننا نحدّق في الناس ونشير باتجاههم. كانت تهمس طوال الوقت: «يا بنات، هل عليّ أن أذكّركنّ في كلّ دقيقة بألّا تحدّقن في أحد!». لكن ماما أصبحت الآن تنظر هي أيضاً. ففي بعض الأحيان، كانت تقول لنا أو لنفسها، تاتا زينسانا هو الذي فقد كلّ أصابعه، أليس كذلك؟ أو تقول: إن تلك الكتلة الكبيرة تحت ذقنها تشبه بيضة إوزّة، بهذه الطريقة أتذكّر ماما نغوزا.

(*) الجدع: القطع البائن في الأنف والأذن والشفة واليد ونحوها. [م].

قال أبي: «إنهم يعيشون في الظلام. محطّمين جسداً وروحاً، وحتى إنهم لا يعرفون كيف يمكن أن يبرؤوا».

فقالت أمّي: «لعلّهم ينظرون إلى أجسادهم بطريقة مختلفة».

يقول أبي إن الجسد هو المعبد. لكن أمي كان لديها هذا الصوت المحدّد في بعض الأحيان، لا بطريقة فظّة وإنما بشيء قريب من ذلك.

كانت تخيط لنا ستائر للنافذة من قماش الثياب كي لا يختلس الناس النظر إلى داخل بيتنا طوال الوقت، وكانت تضع دبابيس في فمها. أخرجت الدبابيس من فمها وقالت لأبي: «في إفريقيا هنا، يجب على المعبد أن يقوم بالكثير من العمل في يوم واحد»، ثم أضافت: «ناثان، لماذا عليهم أن يستخدموا أجسادهم كما نستخدم نحن الأشياء في البيت - مثل ثيابك أو أدوات حديقتك أو أي شيء آخر؟ في الوقت الذي تهترئ فيه ركب بنطالك، فإنه ليس لديهم سوى ركبهم لتهترئ يا سيّدي!».

نظر أبي إلى أمي بحدّة لأنها ردّت عليه.

«حسناً يا سيّدي» -قالت- «هكذا تبدو لي الأشياء. هذه هي ملاحظتي. يبدو لي أن أجسامهم تهترئ، تماماً كما تهترئ أغراضنا الدنيوية».

لم تكن أمي تردّ عليه بوقاحة، وإنما كانت تخاطبه بكلمة «يا سيّدي» بالطريقة نفسها التي كانت تقول لنا فيها «يا سكّرتي، يا حبيبتي». إنها تحاول أن تكون لطيفة. لكن مع ذلك، لو رددت على أبي بهذه الطريقة، لقال: «هذا خطّ رفيع تسيرين عليه يا آنسة!».

كان يبدو أنه على وشك أن يقول شيئاً كهذا لأمّي. كان يفكّر في الأمر. وقف عند مدخل الباب الأمامي والشمس تحيط به من كلّ جانب. كان ضخماً حتى كاد أن يسدّ المدخل كلّه. يكاد رأسه يلامس أعلى الباب. كانت أمي قصيرة تجلس إلى الطاولة، وقد عادت إلى خياطتها.

قال: «أورليانا، إن جسم الإنسان أثمن من أيّ بنطال خاكيّ يمكن أن تشتريه من محلّات سيرس وروبيك. أتوقّع منك أن تعرفي الفرق!».

ثمّ نظر إليها بعينه التي انقلبت عدوانية وقال: «أنتِ من بين كلّ الناس!».

احمرّ وجهها وزفرت كما تفعل عادة وقالت: «حتى الأشياء الثمينة تصبح رثّة في النهاية. وبالنظر إلى ما يواجهونه هنا، فقد لا يكون هذا موقفاً سيئاً يتخذونه».

بعد ذلك عادت أمي ووضعت الدبابيس في فمها، وتوقّف الحديث هنا. لم يقل شيئاً، لا نعم ولا لا، وإنما أدار ظهره وخرج. إنه لا يقبل أن يردّ عليه أحد. لو كنت أنا، أوه، يا إلهي! تلك المجلخة(*) تحرق بقوة، فبعد أن تأوي إلى الفراش تظلّ الخطوط مرتسمة على ساقيك مثل حمار وحشي.

سأخبركم عن شيء استخدمه أبي كثيراً حتى اهترأ: كرسيّه الهزّاز الدوّار الأخضر القديم في غرفة الجلوس في بيتنا، عندما كنّا في بيت لحم بجورجيا. يمكنك أن ترى عليه خيوطاً بيضاء في شكل مؤخرة. لا يبدو ذلك شيئاً مؤدّباً. لكن لم يفعل ذلك أحدٌ إلّا هو، أيضاً. يجلس هناك طوال المساء ويقرأ ويقرأ. وبين الحين والآخر، كان يقرأ لنا بصوتٍ عالٍ قصصاً من الكتاب المقدّس. أبدأ أحياناً بإزالة قشور جلدي وأفكّر بأفلام الرسوم المتحرّكة بدلاً من أن أفكّر بيسوع المسيح، وهو يراني أفعل ذلك. لكن المسيح يحبّني وأنا أعرف ذلك. لا أحد يستطيع أن يجلس في الكرسي الهزاز الدوّار الأخضر ذاك إلّا أبي. تقول أمي إن رجلاً آخر وسيّدة مع فتاتين صغيرتين وطفل رضيع يعيشون الآن في منزلنا في بيت لحم بجورجيا. الرجل هو القسّ الذي حلَّ محل أبي عندما ذهبنا. آمل أنهم أصبحوا يعرفون عن كرسي أبي لأنهم إذا جلسوا عليه... أوه، يا إلهي!

(*) مشحذة جلدية للموسى أو للسكاكين. [م].

إدا

لم يكن شيطانياً ولا إلهياً، لكنه زعزع أبواب السجن الذي حُبست فيه طبيعتي. ومثل أسرى فيليبي الذين هربوا من سجنهم.

كان ينتابني هذا الشعور. العيش في الكونغو، يزعزع باب سجن طبيعتي ويدع كل الـ«إدا» الأشرار يهربون.

لتسلية نفس إدا المنحرفة في أثناء الأعمال المنزلية، كتبت هذا الاقتباس من الذاكرة على قصاصة ورقة مثلّثة صغيرة ومرّرتها إلى ليا، مع السؤال: من أيّ سِفْر من التوراة هذه؟ لأن ليا تحبّ أن تعتبر نفسها تلميذة والدنا النجيبة في المسائل المتعلّقة بالكتاب المقدس. التلميذة النجمة: جرذان ليبوب(*). الآنسة الجرذة - قرأت الاقتباس، وأومأت بجديّة، وكتبت تحتها: إنجيل لوقا. لكني لست متأكّدة أي آية.

هاه! يمكنني أن أضحك بقوة حتى من دون أن أبتسم من الخارج.

الاقتباس هو من قصة «الحالة الغريبة للدكتور جيكل والسيّد هايد» التي قرأتها عدة مرات. أشعر بتعاطف شديد مع رغبات الدكتور جيكل المظلمة، ومع جسد السيّد هايد المحدودب.

قبل أن نُهجَّر من مكتبات بيت لحم الموحشة، كنت قد قرأت مؤخراً أيضاً «رحلة الحاج» و«الفردوس المفقود»، اللتين أرى أن حبكتيهما أضعف من حبكة قصة الدكتور جيكل، ومن قصص عديدة أخرى. لا يعرفها أبونا، ومنها قصائد الآنسة إيميلي ديكنسون وحكايا الغروتسك والأرابسك لإدغار آلان بو. أحبّ كثيراً السيّد بو وقصيدته الحكائية «الغراب: إروم ريڤين!(**)».

(*) في الأصل: star Pupil: lipup rats، وكما هو ملاحظ فإن lipup rats إذا قُرئت حروفها من اليمين إلى اليسار تصبح star pupil. [م].

(**) «Erom Reven» هي قلبٌ لـ: Nevermore، التي يكررها الغراب كثيراً في القصيدة المذكورة. [م].

أمي هي التي تلاحظ، لكنها لا تخبر أحداً. فهي التي بدأت كلّ شيء. فقد قرأت المزامير والأعمال الكلاسيكية العائلية المختلفة بصوت عالٍ لي ولليا. وتقدّر أمي كثيراً الكتاب المقدّس، وتتمسّك بعبارات مثل «طهّرني يا إلهي بالزوفا فأطهر»، و«أعداء كثيرون وأشداء مثل ثيران باشان أحاطوا بي وحاصروني»، و«خلعت عني خيش الحداد وألبستني ثوب الفرح». من المحتمل أنها كانت تجري عبر الحقول مرتدية ثوباً من الخيش، تبحث عن نباتات الزوفا بين الثيران البرية، لو لم تكن ملتزمة جداً بالأمومة. فهي محاصرة بحالتي أنا وليا باعتبارنا طفلتين استثنائيتين. عندما دخلنا إلى الصفّ الأول، اختبرتنا مديرة مدرسة بيت لحم الابتدائية العانس، الآنسة ليب، وقالت إنّنا فتاتان موهوبتان: ليا، بسبب العلامة التامة التي حصلت عليها في اختبارات القراءة والفهم، وأنا لأنني أختها، لأنه يُفترض أن يكون لديّ دماغ مثل دماغها، مع أن الأجزاء السليمة منه ذهبت. كانت تلك صدمةً لأمي التي، حتى في تلك اللحظة، لم تعلّمنا شيئاً أكثر من أسماء الأزهار البرية التي تنمو في الخنادق على جانب الطريق حيث كنا نمشي حفاة (عندما لا تكون عينا والدنا الحارقتين فوقنا: أيتها الشمس لا تأتي فوقنا!)(*) من بيت القسّ إلى السوق عند ناصية الشارع. أولى ذكرياتي عن أمّي: كانت تضحك، مستلقية فوق العشب، بعينيها الزرقاوين، وهي طفلة، تتدحرج من جانب إلى جانب بعد أن زيّنتها راشيل وليا بمجوهرات أرجوانيّة من أزهار البرسيم. لكن عندما اعتُبرتُ أنا وليا فتاتين موهوبتين، تغيّر كلّ شيء. فبدا أن أمي قد أفاقت من هذا الخبر الذي قالته معلّمتنا، كما لو أن الله أنزل بها عقاباً خاصاً، فأصبحت امرأة كتومة وفعّالة وقيّدت جولاتنا في الطبيعة، وحصلت على بطاقة مكتبة.

لم يكن عليها أن تبذل جهداً كبيراً لكتمان الأمر، لأن أبي سمع كلّ شيء.

(*) في الأصل: sun o put o not upon us، وهي تُقرأ طرداً وعكساً. [م].

فعندما سمع ما قالته الآنسة ليب زاغت عيناه، كما لو أنه رأى كلبين في باحة بيتنا يصفّران «ديكسي»(*). وقال لأمي محذّراً بأنها يجب ألّا تنتهك إرادة الله وتتوقّع لنا الكثير. «إن إرسال فتاة إلى الجامعة أشبه بصبّ ماء في حذائك». لا يزال يحبّ أن يقول هذه العبارة، كلّما أتيحت له الفرصة: «يصعب قول أيهما الأسوأ، أن تري الماء يجري ويذهب هباء، أم أن تريه يبقى في الحذاء ويتلفه؟!».

هكذا إذاً، لن تتاح لي الفرصة لأن تُتلف الجامعة حذائي الجلدي، لكنّي أدين بالكثير للآنسة ليب لأنها أنقذتني من التجاهل في المدرسة الابتدائية. فلو كانت مديرة مدرسة أخرى أقل انتباهاً لوضعت ليا في صفّ الفتيات الموهوبات، وإدا في صفّ التعليم الخاصّ مع الأطفال المنغوليين والأطفال الستة من عائلة كرولي، الذين يمصّون إبهامهم ويشدّون آذانهم، وسأبقى معهم حتى أتعلّم كيف أشدّ أذني. مبتهج، باطل ولاغٍ، منغوليّ(**). لا يزال لدي تعاطف مع تلك الكلمة التي تشبه طعم اللوز.

لكنّ رؤية هذا الشيء المسكين الواقف في الصف يتخطّى أطفالهم في المدرسة أربك عقول الأمهات في مدرسة بيت لحم، عندما شاهدن أن بإمكاني أن أحلّ مسائل الرياضيات بسرعة. وعندما أصبحت في الصفّ الثالث، بدأت أحسب فاتورة مشتريات مواد البقالة في رأسي، أكتبها بصمت في عقلي وأعطي الجواب أسرع مما تستطيع ديلما رويس أن تجمعها في صندوق النقود. لقد أصبح ذلك مناسبة مشهورة تجلب دائماً جمهرة من الناس. لا أعرف لماذا. كنت أشعر فقط بأنني منجذبة إلى تلك الأعداد الكبيرة الصاخبة المفككة ويجب أن أنظّمها. يبدو أن أحداً لا يدرك أن

(*) ديكسي: اسم يطلق غالباً على الجزء الجنوبي من الولايات المتحدة. [م].

(**) في الأصل هذه الكلمات جميعها لها قافية واحدة: Overjoyed, Null and void, Mongoloid. وفي النص الأساسي تنتهي هذه الفقرة بكلمة word التي لها القافية نفسها أيضاً. [م].

حساب المبالغ لا يحتاج إلّا إلى آلية أساسية وتركيز جيّد. الشعر أصعب بكثير. والألفاظ المتناظرة(*)، بمذاقها المُرضي، المثالي: احصل على جائزة!(**) ومع ذلك فمبالغ البقالة الرمادية الهزيلة هي دائماً التي تترك انطباعاً لدى الآخرين.

هوايتي تجاهل الجوائز والتفوّق حين أختار. أستطيع أن أقرأ وأكتب بالفرنسية التي يتحدّث بها جميع من درس في مدرسة القس أندرداون في كيلانغا. يبدو أن أخواتي تباطأنَ بما فيه الكفاية في تعلّم اللغة الفرنسية. فالكلام، كما قلت، إضافةً إلى كلّ الألعاب البهلوانية في الحياة، يمكن رؤيته في ضوء معيّن على أنه لهوٌ.

عندما أُنهي قراءة كتاب من المقدّمة إلى المؤخّرة، أعيد قراءته من المؤخّرة إلى المقدّمة. يصبح كتاباً مختلفاً إذا قرأته من الخلف إلى الأمام، ويمكنك أن تتعلّم منه أشياء جديدة. جديدة أشياء منه تتعلّم أن ويمكنك، الأمام إلى الخلف من قرأته إذا مختلفاً كتاباً يصبح.

بإمكانك أن توافق على ذلك أو لا توافق، كما تشاء.

هذه طريقة أخرى في قراءته، مع أنني سمعت أنّ الدماغ الطبيعي لن يستطيع فهمه: «هـ ن م ة د ي د ج ء ا ي ش أ م ل ع ت ك ن ك م ي م ا م أ ل ا ى ل إ ف ل خ ل ا ن م ف ل ت خ م ب ا ت ك ه ن إ».

الإنسان الطبيعي، كما أعرف، لا يمكنه أن يرى الكلمات بطريقتي إلا إذا كانت شاعرية بما يكفي: داڤ المسكين متدلٍّ(***).

(*) هي الألفاظ التي تُقرأ طرداً وعكساً، وتظلّ نفسها إذا قرأتها من النهاية حتى البداية، مثل «باب» في اللغة العربية مثلاً. [م].

(**) في الأصل: draw a level award، وهو مثال على العبارات المتناظرة، التي تُقرأ طرداً وعكساً، إذ تبقى العبارة نفسها إذا قُرئت حروفها من اليمين إلى اليسار. [م].

(***) في الأصل: Poor Dan is in a droop. (جملة أخرى تُقرأ طرداً وعكساً). [م].

اسمي، كما تعوّدت على التفكير به هو «Ecirp hada». في بعض الأحيان أكتبه هكذا من دون تفكير، ويبدو الناس مدهوشين. بالنسبة لهم فأنا إدا Adah فقط، أو بالنسبة لأخواتي أحياناً، فأنا إد Ade الأحادية المقطع الكئيبة، شراب ليمون، إسعافات أولية، حصار منهك، مدية، مرتدّ، سمّي الأشياء بمسمّياتها(*).

أفضّل اسم أدا ada لأنه يصلح بالطريقتين، مثلي. أنا تناظرٌ مثالي. اسمي يُقرأ من الأمام إلى الوراء وبالعكس. Damn mad (مجنونة لعينة!). على غلاف دفتر ملاحظاتي كتبتُ تحذيراً للآخرين: «منقضٍ أو مقدّر، كل من تلتقيه إد يبلى شاحباً».

ELAPSED OR ESTEEMED, ALL ADE MEETS ERODES PALE!

بالنسبة لاسم أختي التوءم فأنا أفضّل اسم: لي Lee، لأن ذلك يجعلها -من الموقع الخلفي الذي أراقبها منه عادة- عضلةً ممتدة زلقة(**).

الكونغو مكان جيّد لتعلُّم كيفية قراءة الكتاب نفسه عدة مرات. فعندما ينهمر المطر، تتاح لنا ساعات سجن طويلة، فتشعر أخواتي بالملل. لكن هل توجد هناك كتب، توجد كتب! الكلمات المجلجلة في الصفحة تدعو عيني إلى الرقص معها، وسينتهي أي شخص آخر بقراءتها بصعوبة مرة واحدة، أما إدا فلا تزال لديها اكتشافاتها في الأمام والخلف.

عندما حلَّ موسم الأمطار علينا في كيلانغا، هبط علينا كالطاعون. لقد حذّرونا بأن نتوقّع هطول الأمطار في شهر تشرين الأول، لكن في نهاية تموز

(*) في الأصل الكلمات التي تصف «إدا» بها نفسها في هذا المقطع، وبضمنها العبارة الأخيرة جميعها تنتهي بـ«ade» وهي: Lemonade, Band-aid, frayes, blockade, switchblade, renegade, call a spade a spade. [م].

(**) إذا قُرِئَت Lee عكساً فإنها تصبح eel التي تعني الأنقليس، وهو سمكٌ يشبه الثعبان له جسم عضليّ ممدود نحيل زَلِق. [م].

-لم يُفاجأ أحد في كيلانغا إلّا نحن- بدأت السماء الهادئة في الأعلى تصبّ فوقنا دلاءً من الماء. ءا١م ءا١ل د!

المطر ينهمر بغزارة كما تقول أمّي. لقد أمطرت قططاً وكلاباً(*) وضفادع ومستنقعات، ثم أمطرت أفاعي وسحالي. سيول من الأمطار لم نرَ مثلها ولم نحلم برؤيتها في جورجيا قطّ.

تحت إفريز شرفة بيتنا صاح ميثوسالا كما يصيح رجل يغرق في قفصه. وميثوسالا ببغاء إفريقي رمادي اللون يعلو رأسه ريشٌ ناعم يشبه الحراشف، وله عين ثاقبة مرتابة مثل عينَيْ الآنسة ليب، وله ذيل قرمزي، يقبع في قفص جميل من الخيزران يبلغ طوله طول قامة روث ماي، مَجْثَمُ(**) الببغاء عصا قياس متينة من الطراز القديم، مثلثة في مقطعها العرضي، لا بدّ أن أحداً ما، منذ زمن بعيد، قد قطع البوصات من 19 حتى 36 وقدّمها لميثوسالا ليدير بها شؤونه.

من المعروف أن البببغاوات تعمّر طويلاً(***)، ومن بين جميع طيور العالم، تعتبر الببغاوات الإفريقية الرمادية أفضل الببغاوات في تقليد كلام البشر. قد يكون ميثوسالا سمع بذلك أو لم يسمع، لأنه يغمغم بشكل سيّئ. يدمدم لنفسه طوال النهار مثل الجدّ وارتون. في معظم الأحيان يقول أشياء غير مفهومة بلغة كيكونغو، لكنه يتكلّم أيضاً مثل غراب الشاعر آلان بو، بلغة إنكليزية متقطّعة أيضاً. في أول يوم هطلت فيه الأمطار، رفع ميثوسالا رأسه وصرخ عبر هدير العاصفة أفضل عبارتين له في لغتنا وهما: أولاً، بصوت

(*) إن التركيب Raining cats and dogs يعني «أمطرت بغزارة»، وترجمناه هنا حرفياً لأن «إدا» تضيف بعد ذلك كلمات لها قافية dogs نفسها، مثل bogs وfrogs... [م].

(**) مجثم: مكان جثوم الحيوان أو الطائر. [م].

(***) اسم الببغاء في الرواية على اسم جد نوح «متوشالح»، وهو -بحسب العهد القديم- قد عاش أكثر من كل البشر، إذ توفي عن عمر يناهز 969، قبل سبعة أيام من بداية الطوفان العظيم. فضّلنا كتابة الاسم كما تنطقه الشخصيات. [م].

ماما تاتابا المائل: «هيا استيقظ، يا أخ فاولز، أخ فاولز»، ثمّ في هدير منخفض النبرة: «انقلع يا ميثوسالا». فنظر القسّ برايس من مكتبه بجانب النافذة، ودوّن كلمة «انقلع». كان شبح الأخ فاولز المشكوك فيه أخلاقيّاً، ثقيلاً علينا.

وأعلن القسّ: «هذا طائر كاثوليكي». فرفعت أمي عينيها من وراء ماكينة الخياطة، وتململنا أنا وأخواتي في كراسينا، متوقّعات أن أبي سيحدد لميثوسالا «الآية». الآية المخيفة التي هي عقابنا البيتي. فقد يُضرب الأطفال المحظوظون الآخرون من أجل الخطايا التي يرتكبونها، أما نحن بنات القسّ برايس، فإننا نوبّخ بآيات من الكتاب المقدّس. سيعدّل القسّ نظرته، ويقول: «لديكِ الآية»، وببطء، ونحن نتلوّى فوق خطّافه، يكتب على قصاصة ورق، مثلاً: إرميا 48: 18، ثمّ ودّع الشمس المشرقة أو «صبية هاردي»(*) لفترة ما بعد ظهيرة اليوم، لأن عليك، أيها الآثم المسكين، أن تقضي تلك الفترة وأنت تكافح بقلم في يدك اليسرى السليمة لنسخ الآية 48: 18 من إرميا. «يا سكّان ديبون اهبطوا من الجلال واجلسوا على الأرض اليابسة»، والآيات التسع والتسعين التي تليها. مئة آية كاملة تُنسخ بخط اليد العادي لأن الآية الأخيرة هي التي تكشف جريمتك. وفي حالة إرميا 48: 18، فإن النهاية هي الآية 31:50 «هأنذا عليك أيتها المتعجرفة، سيقول السيّد ربّ الجنود، لأنه قد أتى يومك ووقت عقابك». وعند الوصول إلى الآية المئة هل فهمت أخيراً بأنك عوقبت لأنك ارتكبت خطيئة العجرفة؟ مع أنك ربما كنت تتوقّعين ذلك.

وكان يطلب منّا أحياناً أن ننسخ مقاطع من إنجيل الملك جيمس القديم(**)، لكنه كان يفضّل أن يستخدم الترجمة الأميركية التي تتضمّن

(*) الأخوان هاردي: شخصيتان ظهرتا في العديد من سلاسل الأطفال والمراهقين، وهما صبيَّان هاويان لحل القضايا الغامضة التي يعجز البالغون عن حلّها. [م].

(**) ترجمة إنكليزية للإنجيل، وقد عُرف بهذا الاسم لأنه نُشر تحت رعاية الملك جيمس السادس والأول. [م].

الأبوكريفا(*) التي يحبّها حباً جمّاً. هذا أحد المشاريع التي يحبّها القسّ كثيراً: أن يجعل معمدانيين آخرين يتقبّلون الأبوكريفا.

تساءلت، بالمصادفة: هل يحفظ والدنا كلّ أناجيله ليتمكّن من اختيار آية تعليمية ويحسب حتى مئة آية إلى الأمام؟ أم أنه يسهر الليالي في البحث عن آية لكلّ خطأ يُحتمل أن نرتكبه، ويخزّن كلّ هذه الذخيرة حتى تكون جاهزة ليعاقب بها بناته؟ في كلتا الحالتين، فإن هذا شيء رائع مثل جمع حساب البقالة في محلّات بيغلي ويغلي. نعيش كلّنا، لا سيما راشيل، في خوف من الآية اللعينة. أما الببغاء ميثوسالا الذي بدأ يلعن في ذلك اليوم الماطر الطويل، فلا يمكن الطلب منه أن ينسخ آيات من الإنجيل. لذلك فإن ميثوسالا مستثنى من قواعد القسّ، بالطريقة نفسها التي وجد بها والدنا الشعب الكونغوليّ خارج نطاق سلطته. إن ميثوسالا ممثّل إفريقيا الصغير الماكر، يعيش معنا في بيتنا. قد يقول قائل إن الببغاء كان موجوداً في هذا البيت حتى قبل أن نأتي نحن.

استمعنا إلى ثرثرة الببغاء وجلسنا محبوسات، قريبات بشكل غير مريح من والدنا لمدة خمس ساعات متواصلة لم تتوقّف فيها الأمطار. شاهدنا ضفادع حمراء صغيرة ذات أصابع ضخمة -مثل أفلام الرسوم المتحرّكة- تضغطها على النوافذ ثم تقفز بثبات على الجدران. كانت معاطفنا التي تصلح لكل الأحوال الجوية معلّقة على أوتادها الستّة. ربما تصلح لجميع أحوال الطقس، إلّا هذا الطقس.

كان بيتنا مشيّداً من جدران مطلية بالطين ومسقوفاً بسعف النخيل، لكنه كان مختلفاً عن جميع البيوت الأخرى في كيلانغا. فهو أولاً أكبر حجماً،

(*) أبوكريفا كلمة يونانية قديمة تعني «أشياء أُخفيت»، وتترجم إلى الكتب المنحولة أيضاً، وفي المسيحية فإن أبوكريفا Apocrypha تشير إلى أسفار من الكتاب المقدّس نُبذت لأنه لم يُوافق عليها من قبل مجامع كنسية مختلفة. [م].

فيه غرفة أمامية واسعة وغرفتا نوم في الخلف، تشبه إحداهما مشهداً في مستشفى في زمن فلورنس نايتنغيل(*)، لأنها مليئة بالأسرّة تحت ناموسية مثلثة الشكل تضم فائض الأسرة من الفتيات. أما المطبخ فهو كوخ منفصل يقع خلف البيت الرئيسي. وفي بقعة وراءه، يوجد مرحاضنا، بلا حياء، على الرغم من اللعنات الشنيعة التي تكيلها له راشيل كلّ يوم. ويوجد هناك قنّ الدجاج أيضاً. وبخلاف بيوت القرويّين الآخرين، فإن نوافذ البيت عبارة عن ألواح مربّعة من الزجاج، وأرضيّة البيت والأساس من الأسمنت، أما أرضيّة البيوت الأخرى كلها فهي من التراب. جافة، خربة، متهالكة. وكنّا نرى نساء القرية يكنسن أكواخهن والفناء القاحل أمام بيوتهن بمكانس مصنوعة من سعف النخيل، وكانت راشيل تقول بدهائها المعتاد إنهن يمكن أن يقضين حياتهن في كنس تلك الأرضيّة من دون أن يستطعن جعلها نظيفة. بفضل الله والأسمنت، فقد نجت عائلتنا من هذا الإحباط.

في الغرفة الأمامية تبدو مائدة الطعام من مخلّفات سفينة محطّمة، وتوجد طاولة ضخمة لها سطح متحرّك (ربما من السفينة نفسها) يستخدمها والدنا لكتابة مواعظه. ولطاولة المكتب سيقان خشبية وأقدام بثلاث أصابع -مثل أقدام الدجاج- مصبوبة من الحديد، تحمل كلّ واحدة منها كرة زجاجية ضخمة، مع أنّ ثلاث كرات منها متشقّقة واختفت الرابعة ووُضع مكانها قشرة جوز هند سميكة لموازنة سطح الطاولة وجعله مستوياً من أجل الكتابة. وفي غرفة والدينا، توجد قطع أثاث أخرى: مكتب خشبي وصندوق فونوغراف قديم فارغ من الداخل. جلبها كلّها معمدانيون شجعان آخرون جاؤوا قبلنا، مع أنه تصعب رؤية كيف كانوا يفعلون ذلك، إلّا إذا تخيّل المرء زمناً كانت وسائل سفر أخرى تسمح بحمل وزن يزيد على أربعة وأربعين

(*) Florence Nightingale فلورنس نايتنغيل (1820-1910): مصلحة اجتماعية إنكليزية، يعود لها الفضل في وضع أسس التمريض الحديث. [م].

باونداً. وتوجد أيضاً مائدة طعام وخزانة خشنة يدوية الصنع فيها تشكيلة من الصحون والأكواب الزجاجية والبلاستيكية، أشياء قليلة من كلّ شيء، لذلك كنّا نضطر، نحن الأخوات، إلى أن نتبادل السكاكين والشوك عندما نأكل. وفي الخزانة أيضاً صحن متصدّع قديم عليه شعار المعرض العالمي في سانت لويس، في ميزوري، وكوب بلاستيكي له أنف فأر وأذناه. وفي وسط كلّ هذه الأشياء المختلطة، وبهدوء أمّنا العذراء، في حظيرة فيها رعاة ومواشٍ جرباء، يوجد شيء جميل، مدهش: صحن كبير بيضوي من الخزف الأبيض مزخرف بأزهار زرقاء ناعمة، رقيق جداً إلى درجة أن نور الشمس قد يعبر من خلاله. لا يمكن معرفة أصله. إذا نسينا أنفسنا فقد نعبده.

خارج البيت توجد شرفة طويلة مظلّلة تطلق عليها أمّنا بطريقتها المتعارف عليها في الميسيسبي «ڤرنده». أنا وأخواتي نحبّ أن نمضي وقتاً فيها على الأرجوحة الشبكية، وكنّا نتوق إلى أن نلجأ إليها حتى في أول يوم هطلت فيه الأمطار بغزارة. لكن العاصفة كانت قوية وهبّت من جميع الاتجاهات، وراحت تضرب الجدران وميثوسالا المسكين. وعندما أصبح صراخه مثيراً للشفقة بشكلٍ لا يحتمل، أدخلت أمي المتجهّمة قفصه وركنته على الأرض بجانب النافذة، لكن ميثوسالا واصل هذره العشوائي بصوت مرتفع. إضافة إلى البابوية، ربما كان القسّ يشك في أنه تكمن لدى هذا المخلوق الصاخب صفات أنثوية كامنة.

توقّف الطوفان أخيراً قبل غروب الشمس بقليل. بدا العالم مسحوقاً ومغموراً بالماء، لكن أخواتي ركضن إلى الخارج ورحن يصرخن كما فعلت الخنازير عندما هربت من سفينة نوح، ليشاهدن ما الذي خلّفه لنا الفيضان. وبدت سحابة منخفضة في الجو مثل مخلوقات صغيرة تشبه النمل الطائر بالملايين، تحوم فوق الأرض تنبعث منها همهمة خفيفة طويلة امتدّت حتى نهاية العالم. ثم انبعث من أجسامها صوت طقطقة ونحن

نهشّها ونبعدها عنّا. تردّدنا عند حافّة الباحة حيث تتدرّج الأرض الموحلة إلى منحدر عشبي طويل، ثمّ اتجهنا نحو الأعشاب حتى سدَّت طريقنا آلاف الأغصان المتشابكة عند حافّة الغابة: أشجار الأفوكادو والنخيل وأعواد قصب السكر البرّية الطويلة. تحجب هذه الغابة رؤيتنا للنهر، وأيّ مسافة أخرى. كان الدرب الترابي الوحيد في القرية يلتفّ حول باحتنا ويمضي إلى داخل القرية جنوباً، ويختفي شمالاً في الغابة. ومع أننا كنا نرى ماما تاتابا تختفي في ذلك الدرب ثم تعود منه، سليمة، وقد ملأت دلاء الماء، لم تكن أمّنا تسمح لنا بالسير في هذا الدرب لأنها تخشى أن يبتلع بناتها. فاستدرنا واندفعنا إلى أعلى التلّ نحو أجمتين مزهرتين من نبات الكركديه المحيطة بالدرجات المؤدية إلى شرفتنا.

يا له من مشهد هبوط استكشافي قمنا به في أثناء تجوّلنا، نرتدي ملابس متطابقة: أحذية مسطّحة، وقمصاناً طويلة الذيل، وبناطيل قطنية رقيقة، ومع ذلك فقد كنا مختلفات كثيراً. تهبط ليا أولاً كالعادة، إلهة الصيد، قصّة شعرها الجنيّة بلون ابن عرس تتقافز مع حركتها، عضلاتها تعمل معاً مثل أجزاء ساعة. ثمّ نأتي نحن الأخريات: روث ماي بضفائرها التي تتطاير وراءها، تسرع بقوّة لأنها الأصغر وتعتقد أن الأخيرة يجب أن تكون الأولى(*). ثمّ راشيل، ملكة سبأ أسرتنا، ترمش برموشها البيض، تحرّك شعرها الطويل المائل إلى الأبيض كما لو كانت حصان بالومينو(**) الذي تتوق لامتلاكه ذات يوم. وهبطت الملكة راشيل بانسياب عدة درجات وراءنا وهي تنظر إلى مكان آخر. كانت في السادسة عشرة من عمرها تقريباً، لكنها مع ذلك لم تكن تريد أن نعثر على شيء جيّد من دونها. وفي الأخير، تأتي إدا الوحش،

(*) إشارة إلى متى 16:20 «هكذا يكون الآخِرُون أوّلين والأوّلون آخِرين». [م].

(**) تتميّز خيول بالومينو (palomino) بغطاء الجسم الذي يتراوح لونه بين الكريمي والذهبي، ويكون لون العرف والذيل أبيض. [م].

كوازيمودو(*)، وهي تسحب جانبها الأيمن خلف جانبها الأيسر في حركة جسدها المتأرجحة الدائمة: يسار... خلف، يسار... خلف(**).

هذا هو ترتيبنا دائماً: ليا، روث ماي، راشيل، إدا. ليس بحسب الترتيب الزمني أو وفق ترتيب الحروف الأبجدية، لكنّه نادراً ما يتغيّر، إلّا عندما يتشتت انتباه روث ماي وتخرج عن الصفّ.

عند أسفل أجمة نبات الكركديه اكتشفنا عشّاً ساقطاً فيه طيور صغيرة، غرقت كلّها بالماء. تأثّرت أخواتي لرؤية تلك الأجساد المجنّحة العارية الصغيرة مثل الغِرفن(***) في كتب قصص الأطفال، كما تأثّرن بالحقيقة المرعبة أن الطيور كانت ميّتة.

ثمّ وجدنا الحديقة. فصرخت راشيل بانتصار إنّها أُتلفت بالكامل. وجثت ليا على ركبتيها لتُظهر حزنها بالنيابة عن والدنا. فقد غمر السيلُ المسكبةَ المسطّحة واندفعت البذور للخارج مثل القوارب الهاربة. ووجدناها منتشرة في كل مكان تحت الأعشاب الطويلة عند حافّة رقعة الأرض. كان معظمها قد تبرعم في الأسابيع السابقة، لكن جذورها الصغيرة لم تعلق في المساكب التي صنعها القسّ المزارع كالمساكب التي كان يصنعها في كنساس، ولم تصمد أمام هذا السيل الجارف. زحفت ليا على ركبتيها، وراحت تجمع البراعم وتضعها في ذيل قميصها، لأنها ربما تخيّلت أن ساكا-جاويا(****) كانت ستفعل ذلك في مثل هذه الحالة.

(*) اسم شخصية «أحدب نوتردام» للروائي الفرنسي فيكتور هوغو. [م].

(**) تستعمل إدا هنا «left behind» التي يمكن أن تُقرأ أيضاً: ترك وراء... [م].

(***) يُعرف أيضاً باسم «الفتخاء»، وهو حيوان أسطوري له جسمُ أسد وساقاه الخلفيّتان، ورأس نسر وجناحاه ومخلباه الأماميان. [م].

(****) Saca-gawea: فتاة من قبيلة ليمهي شوشون (Lemhi Shoshone)، قدّمت مساعدة كبيرة لبعثة لويس وكلارك (Lewis and Clark expedition) التي كانت تستكشف إقليم لويزيانا. [م].

في وقت لاحق خرج أبونا ليشاهد الضرر الذي لحق بالحديقة، وساعدته ليا في فرز البذور، كلٌّ حسب نوعها. قال إنه سيجعلها تنمو، باسم الله، أو أنه سيعيد زراعتها (لقد خبأ القسّ، مثل أيّ نبيٍّ جيّد، بعض البذور احتياطاً) إذا أشرقت الشمس وجفّفت هذا الطين اللعين.

وحتى عندما غربت الشمس، لم يأتِ الاثنان لتناول العشاء. انحنت ماما تاتابا على الطاولة مرتديةً مئزر أمّنا الفضفاض الأبيض الذي جعلها تبدو مزيّفة ومضحكة، كما لو كانت تمثّل دور خادمة في مسرحيّة، وراحت تراقبه بثبات من النافذة، بابتسامتها الملتوية الغريبة تلك، ثم نقرت بلسانها على أسنانها نقرات راضية. وضعنا على عاتقنا مهمة تناول طعامها، موز الجنة(*) المقلي ورفاهية بعض اللحم المعلّب.

أرسل أبي أخيراً ليا إلى البيت. وبعد العشاء بفترة طويلة، كنّا لا نزال نسمع القسّ وهو يضرب الأرض بمعزقته، ويقلّب التراب. لا يستطيع أحد أن يقول إنه لم يتعلّم درسه، على الرغم من أن ذلك تطلّب طوفاناً، وعلى الرغم من أنه قد لا يعترف في هذه الحياة بأنها لم تكن فكرته هو أساساً. مع ذلك فإنّ والدنا تأثّر بإفريقيا، كان هناك يدفع إلى أعلى مقيماً سدوداً مستطيلة مقاومة لماء الفيضانات، بطول مدافن وعرضها بالضبط.

ليا

في هذا الطقس الحار تستغرق بذور الفاصولياء من نوع «كنتاكي وندر» خمسة أيام حتى تستجمع طاقتها النباتية وتبرعم. كان ذلك كلّ ما اعتقدنا أننا بحاجة إليه. فما إن هدأت حدّة هطول الأمطار، حتى ازدهرت حديقة

(*) موز الجنة (plantain) هو الاسم الشائع لثمرة من جنس الموز، تؤكل مطهوة، على عكس الموز الليّن الحلو. [م].

أبي في الحرارة مثل مزاج أُطلق له العنان. قال إنه يحبّ الوقوف هناك ومراقبة النباتات تنمو. تستطيع أن تصدّقه لأن سيقان الفاصولياء التفّت حول الأعمدة المخروطية التي أقامها لها، ثمّ تمدّدت إلى الأعلى والأعلى كما تعلو أصوات السيّدات في جوقة موسيقية، كلّ واحدة تنافس الأخرى على بلوغ القمّة، حتى وصلت إلى أغصان الأشجار القريبة، والتفّت فوقها لتشكّل مظلّة.

أما نباتات اليقطين المعرّشة فقد اتخذت شخصية نباتات الغابة أيضاً، فنمت أوراقها وأصبحت ضخمة بشكلٍ غريب، لدرجة أنه صار بإمكان روث ماي أن تختبئ تحتها وتفوز في «لعبة الغمّيضة»، بعد أن نكون قد توقّفنا عن اللعب بوقتٍ طويل. وعندما نجلس القرفصاء، كان يمكننا أن نرى، إلى جانب عينَي روث ماي الواسعتين الزرقاوين، الأزهار الصفراء للخيار والقرع تنظر من وراء العتمة التي أحدثتها أوراق الأشجار.

كان أبي يراقب تقدّم كلّ ورقة جديدة ونموّ كلّ برعم زهرة. كنت أسير وراءه بحذر كي لا أطأ النباتات المعرّشة. وساعدته في إقامة حاجز قوي من العصي حولها كي لا تتمكّن حيوانات الغابة وعنزات القرية من الدخول إليها وإتلاف نباتاتنا الطريّة. تقول أمي إنني أتصرّف مثل حيوان برّي، وإنني أتشبّه بالصِّبْية، لكنّي أحترم كثيراً حديقة أبي، كان تفانيه من أجل تحسين الحديقة يشبه تفانيه للكنيسة، وكان ذلك يشكّل القوة الراسخة في حياتي طوال الصيف الماضي. أعرف أن أبي يستطيع أن يتذوّق طعم فاصولياء كنتاكي وندر تلك كما تستطيع أيّ روح نقية أن تتذوّق طعم الجنّة.

حلَّ عيد ميلاد راشيل في أواخر شهر آب، لكن مزيج كيك «بيتي كروكر» خيّب أملنا جميعاً، لأننا اكتشفنا أن تحضير قالب كيك طبيعي أمرٌ غير ممكن.

بادئ ذي بدء، إن الموقد الموجود في مطبخنا هو أداة حديدية غريبة الشكل، مع صندوق نيران ضخم جداً بحيث يستطيع أي شخص أن يدخل

إليه إذا أراد. وفي إحدى المرات، سحبت أمي روث ماي من ذراعها بقوة من داخله عندما كانت تختبئ هناك، إذ خافت أنّ تشعل ماما تاتابا الموقد في إحدى نوباتها النشطة، والطفلة في داخله. وقد كان هذا فعلاً مصدراً معقولاً للقلق، لأن روث ماي مصرّة إصراراً شديداً على أن تفوز في لعبة الغمّيضة، أو في أيّ لعبة نلعبها، وكان من الممكن أن تمضي قدماً وتحترق قبل أن تصرخ وتكشف نفسها.

تعلّمت أمي كيف تصنع الخبز «بأي وسيلة ممكنة»، كما كان يحلو لها أن تقول، لكن لا يوجد في الموقد فرن مناسب. في الواقع، لم يكن يبدو موقداً أكثر من كونه آلة جُمّعت معاً من عدة آلات أخرى. تقول راشيل إنها كانت جزءاً من قاطرة قطار، لكن يُعرف عن راشيل أنها تختلق أشياء من بنات أفكارها وتبدأ بالكلام عنها بنبرة شخص عارف.

لم يكن الموقد أسوأ مشكلة في صنع قالب الكيك. ففي هذه الرطوبة الشديدة، تحوّل المزيج المطحون وأصبح مثل تمثال زوجة لوط المسكينة التي نظرت إلى الوراء في عمورة وتحوّلت إلى عمود ملح. في صباح عيد ميلاد راشيل وجدتُ أمي جالسة في المطبخ ورأسها بين يديها، تبكي. ثم رفعت علبة المزيج وضربته بقوة فوق الموقد الحديدي، مرّة واحدة فقط، كي تريني. كان يرنّ مثل مطرقة على جرس. كان أسلوبها في إخبار المَثَل يختلف عن أسلوب أبي.

«لو كنت أملك أدنى فكرة» -قالت بثبات شديد، مركِّزة عينيها الشاحبتين الباكيتين عليّ- «أدنى فكرة فحسب. لقد جلبنا كلّ الأشياء الخاطئة».

***

أول مرة سمع فيها أبي الببغاء ميثوسالا يقول: «اللعنة»، تحرّكَ جسمه بشكلٍ غريب، كما لو أنه تلقّى الروح أو أصيب بحرقة شديدة في معدته. فوجدت أمي عذراً ودخلت إلى البيت.

بقيت أنا وراشيل وإدا على الشرفة، ونظر إلى كلّ واحدة منا، الواحدة تلو الأخرى. كنا نعرف أنه تمالك نفسه بتجهّم صامت عندما قال ميثوسالا «انقلع»، لكن بالطبع كان ذلك من فعل الأخ فاولز. القشة في عين أخيه، لا خطيئة من صنع بيته(*). لكن لم يقل ميثوسالا «اللعنة» من قبلُ قطّ. إذاً فهي شيء جديد، وقد قالها بنبرة صوت أنثوية عالية.

«من منكنّ علّمت ميثوسالا أن يقول هذه الكلمة؟»، سألنا.

شعرت بالغثيان. لم تقل أيٌّ منّا شيئاً. بالنسبة لإدا فهذا شيء عادي، طبعاً، لذلك فإن الاتهام يوجّه إليها غالباً عندما نلوذ بالصمت. وبصدق، إذا كان بإمكان واحدة منّا أن تقول «اللعنة»، فإن إدا هي التي لا تكترث كثيراً بالخطيئة والخلاص. ولهذا السبب بشكلٍ أساسي، طلبت من أمي أن تقصّ شعري قصيراً، بينما حافظت إدا على شعرها طويلاً: حتى لا يخلط أحد بين مواقفنا. إضافةً إلى ذلك فأنا لا يمكن أن ألعن، سواء على مسمع ميثوسالا أم في غيابه، أو حتى في أحلامي لأنني أريد أن أذهب إلى الجنة، وأن أكون الفتاة الأثيرة لدى أبي. وراشيل لن تفعل ذلك أيضاً، فهي تقول كلمات سيئة مثل «Jeez» أو «Gol»(**) عندما تستطيع، لكنها، في الأساس، سيّدة مثالية عندما يكون أي شخص حولها، ومن الواضح أن روث ماي صغيرة جداً على التفوّه بهذه الكلمة.

«لم أفهم» -قال أبي الذي يفهم كلّ شيء- «لماذا تجعلن مخلوقاً غبياً مسكيناً يلعننا كلّنا لكي يصيبنا العذاب الأبدي؟».

لكني سأحدّثكم عن شيء، وهو أن ميثوسالا ليس غبياً. فهو لا يقلّد الكلمات فحسب، وإنما أصوات الناس الذين يقولونها أيضاً. وقد تعلّمنا من

(*) إشارة إلى الآية: «ولماذا ترى القشة في عين أخيك، وأما الخشبة في عينك فلا تفطن لها؟». [م].

(**) تعبيران معتدلان يستخدمان لإظهار المفاجأة أو الانزعاج. [م].

ميثوسالا صوت الأخ فاولز الأيرلندي - اليانكي، الذي نتخيّله على أنه يشبه الأب فلاناغان المسؤول عن بويز تاون(*). يمكننا أن نتعرّف على صوت ماما تاتابا أيضاً، وعلى أصواتنا.

علاوة على ذلك، فإن ميثوسالا لا يقلّد الكلمات فحسب، وإنما يعرفها. فهو يقول ببساطة: «يا أختاه، إن الله عظيم! أغلقي الباب!» عندما تحرّكه الروح، لكنّه يصيح أيضاً «موز» و«فول سوداني» بوضوح شديد، عندما يرى هذه الأشياء في أيدينا ويريد أن يأخذ حصّته منها. وفي أحيان كثيرة، يدرسنا، يقلّد حركاتنا، ويبدو أنه يعرف الكلمات التي تثيرنا حتى نضحك أو نردّ عليه، أو نُصدم بما قاله. فهمنا الآن ما الذي يدور في رأس أبي: قد يبوح ميثوسالا بأسرارنا. بالطبع لم أوضح هذه النقطة. فمهما حدث، لم أعارض أبي قطّ، ولن أفعل أبداً.

ثم قالت راشيل أخيراً: «بابا، نحن آسفات!».

تظاهرتُ أنا وإدا بأننا معجبتين بكتبنا. فقد أحضرنا كتبنا الدراسية معنا وكنا نقرؤها عندما تقول لنا أمّنا بنبرة تهديد إننا سنتخلّف عن الدراسة، وسنلبس قبّعة الغبي عندما نعود إلى بلدنا، وهو ما لا توجد فرصة حقيقية له، إلّا عند راشيل الأكثر ضحالة عقلية في أسرتنا. أظن أن أمي تخشى حقاً أن ننسى أموراً عادية مثل جورج واشنطن وهو يعبر ديلاور، وألوان أوراق الأشجار في الخريف، والقطار الذي ينطلق غرباً نحو سانت لويس بسرعة خمسة وستّين ميلاً في الساعة.

اختلست النظر من فوق كتابي. أوه، يا إلهي! كان يحدّق بي مباشرة. بدأ قلبي يخفق بقوة.

(*) إدوارد جوزيف فلاناغان Edward Joseph Flanagan (1886-1948): كاهن إيرلندي خدم في الولايات المتحدة، بعد أن خدم كاهناً للرعية، أسس دار الأيتام والمجمّع التعليمي المعروف باسم بويز تاون Boys town. [م].

«سيغفر لكنّ الله إذا طلبتنّ منه المغفرة!» -قال باشمئزاز وبهدوء. نبرة ذلك الصوت تجعلني أشعر بالسوء أكثر من أي شيء آخر- «ربنا كريم. لكن لا يمكن لذنب هذا الطير الإفريقي المسكين أن يزول مما علّمتموه إياه. فهو مخلوق بريء لا يمكنه إلّا أن يكرّر ما يسمعه. لقد وقع الضرر». وبدأ يسير مبتعداً. حبسنا أنفاسنا عندما توقّف عند الدرج والتفت إلينا، ونظر في عيني مباشرة. احترقت من شدة الخجل.

«إذا كان هناك شيء يمكن تعلّمه من كلّ هذا» -قال- «فهو نتانة الخطيئة الأصلية وعارها. أتوقّع أنه من الأفضل أن تفكّرن بذلك في أثناء قيامكن بنسخ الآية».

سقطت قلوبنا. أضاف: «أنتن الثلاثة، سِفْر العدد، تسع وعشرون: أربع وثلاثون».

وغادر فجأة وتركنا مثل فتيات يتيمات على الشرفة.

أرعبتني فكرة إمضاء ما تبقّى من اليوم في نسخ سِفْر العدد المضجر وأنا أراقب أبي يغادر، ويوجّه خطواته الواسعة نحو النهر. كان يذهب إلى هناك كلّ يوم تقريباً، يزيح بعصاه أوراق نبات أذن الفيل التي تغطي ضفة النهر، مستكشفاً أماكن للتعميد.

كنت أعرف سفر العدد 29: 34، لأني نسخته من قبل. الآية المئة هي بالضبط عند 32:32، التي تقول كيف أنك عندما ترتكب خطيئة فإن الربّ سيكشفك، وأنك يجب أن تنتبه مما يخرج من فمك.

لم أفكّر حتى في الإفساد غير القابل للإصلاح لبراءة ميثوسالا، مما بيّن لي أنه ما يزال هناك الكثير مما يجب عليّ تعلّمه. لكنّي أعترف بأنني صلّيت بعد ظهر ذلك اليوم لأن يأخذ أبي اعتذار راشيل بأنه اعتراف، حتى لا يظن أنني أنا التي ارتكبت هذه الخطيئة. يصعب أن أقبل اتّهاماته وأن أظلّ صامتة.

كلّنا نعرف من هي التي تصرخ بهذه الكلمة، اللعنة! كررتها مراراً عندما بكت لأن مزيج الكيك لم يعد صالحاً. لكن لا تستطيع أيٌّ منّا أن تبوح له بهذا السرّ الفظيع، ولا حتى أنا - وأعلم أنني أكثر واحدة تتجاهل أمي.

كان علينا أن نحميها مرةً كل مدة من الزمن. حتى عندما كنّا صغاراً جداً، أتذكّر أنني كنت أجري لألقي ذراعي حول ركبتي أمي عندما يوبّخها بكلمات سيّئة وبما هو أكثر، بسبب ستائر غير مغلقة أو قميص داخلي ظاهر - آثام نسائية. كان بإمكاننا أن نرى في وقت مبكّر أن جميع البالغين ليسوا محصّنين من الضرر على نحوٍ متساوٍ. إذ يرتدي أبي إيمانه مثل درع الصدر البرونزيّ الذي يرتديه جنود الربّ، بينما يبدو إيمان أمي مثل معطف مصنوع من قماش جيّد لكنه مستعمل. عندما كان أبي يستجوبنا على الشرفة، كنت أراها بمخيّلتي طوال الوقت منحنية في بيت المطبخ، تخبط بإحباط قاتل على ذلك الموقد الذي كان قاطرةً، في يدها: «مزيج كيك الحلم الملائكي» الصلب مثل صخرة؛ وفي قلبها: الكمال السماوي الوردي المتجمّد، وشموعه مشتعلة، يُجلب بافتخار إلى الطاولة في ذلك الطبق الخزفي الثمين الموشّى بزهور زرقاء. كانت تكتم ذلك باعتباره سرّاً، لكن أمي كانت عازمةً أن تقيم حفلة حقيقية في عيد ميلاد راشيل السادس عشر.

لكن «الحلم الملائكي» لم يكن الشيء الصحيح الذي جلبناه من مسافة أميال. وبما أنني حملته في حزامي، فقد خطر لي أن جزءاً من المسؤولية يقع على عاتقي.

إدا

«بارِكنا أيّها الأب المقدس وأبقِنا تحت ناظريك!» -قال القسّ- «وليتبارك اسمك يا إلهي!». وشممنا كلّنا وعيوننا مغمضة رائحة أزهار الفرانجيباني

التي تملأ المستطيلات الكبيرة في الجدار المفتوح، أزهار جميلة يمكنها أن تستحضر الخطيئة أو السماء، وذلك يتوقّف على الطريق الذي تسلكه. انحنى القسّ فوق المذبح المتهالك، قصة شعره القصيرة النارية تنتصب مثل عرف طائر نقّار الخشب. عندما عبرته الروح أطلق أنّة وألقى بجسده وروحه في عملية التطهير الأسبوعية هذه. «Amen enema» حقنة آمين، كما أدعوها. كلمتي المتناظرة للقسّ.

في هذه الأثناء كان جسد ماما تاتابا الجالس بجانبي في المقعد، شيئاً ميّتاً. ذكّرني تصلّب جسدها بتلك السمكات المحنيّة والمتصلّبة المرمية على ضفتي النهر، تتقشّر في الشمس مثل ألواح صابون بيضاء قديمة. لقد نجم كلّ ذلك عن أساليب صيد السمك الحديثة التي كان والدنا يحلم بها. عرضٌ متغطرسٌ للقوة من قبل القسّ. طلب من الرجال أن يخرجوا بزوارقهم وأن يلقوا في النهر بالديناميت الذي جعل كلّ من يسمعه مذهولاً. من أين حصل على الديناميت؟ لا بدّ أن أحداً منّا لم يجلبه في سراويله الداخلية. لا بدّ أن إيبين أكسلروت هو الذي جلبه لقاء مبلغ كبير. فبما أننا مبشّرون فإن أسرتنا تتقاضى 50 دولاراً في الشهر. وهذا ليس الراتب الذي يتقاضاه قسّ معمداني عادي. لكن والدنا رجل متمرّد وجاء إلى هنا من دون موافقة هيئة البعثات التبشيرية، وبالإكراه أو الإغراء شقّ طريقه إلى هذا المبلغ الأقل. وعلى الرغم من ذلك، لا يزال هذا مبلغاً كبيراً بالمقارنة مع الفرنكات الكونغولية ويعتبر ثروة في الكونغو، إذا كان الأمر يقاس هكذا، لكنّه ليس كذلك. يصل المبلغ في مغلّف بالطائرة التي يقودها إيبين أكسلروت، ويعود معظم المبلغ إلى إيبين أكسلروت. من التراب إلى التراب.

كان والدنا قد وعد أهالي كيلانغا الجياع بأن هبة الربّ ستصل في نهاية الصيف، كميات من السمك أكبر بكثير مما رأوه طول حياتهم. «كلمة المسيح عزيزة!» صاح ونهض واقفاً وهو يهتز في قاربه. «تاتا المسيح هو بانغالا».

كان عازماً على استمالتهم أو إجبارهم أو جرّهم إلى درب الصليب. «غذِّ البطن أولاً»، قال عند العشاء ذات ليلة، متحمّساً لخطّته الذكية. «غذِّ البطن وستأتي الروح». (لم يلاحظ، لأن الزوجة دون الملاحظة، أنّ هذا بالضبط ما فعلته أمّنا عندما ذبحت جميع الدجاجات). لكن بعد الرعد الذي هدر تحت الماء، لم تأتِ الأرواح وإنما جاء السمك. جاء يتدحرج إلى سطح الماء مفتوح الفم عريضاً بسبب ذلك الانفجار الهائل. فقاعات مستديرة مصدومة تشكّل العيون. احتفل جميع أهالي القرية طوال النهار، وأكلوا، وأكلنا حتى جحظت عيوننا وارتفعت بطوننا نحن أيضاً. وأدى أبي نسخةً معاكسة من قصة الأرغفة والسمك التي قام بها المسيح، محاولاً حشو عشرة آلاف سمكة في خمسين فماً(*). هذا ما فعله القسّ برايس الذي راح يسير على ضفّة النهر ببنطاله الذي تبلّلَ حتى الركبتين، يحمل الإنجيل بيد ويمسك عصا مليئة بأسماك سوّدتها النار باليد الأخرى، يلوّح بالهبة السخية بطريقة مُهدِّدة. آلاف الأسماك الأخرى كانت ترتعش تحت الشمس وفسدت على امتداد ضفة النهر. لقد بوركت قريتنا برائحة العفن لعدة أسابيع. وبدلاً من الوفرة، كان يوم هدر. لا يوجد هنا ثلج. نسي أبونا أن صيد السمك بالطرق الحديثة في جورجيا يحتاج إلى ثلج لحفظه.

في موعظة اليوم لم يذكر لا أرغفة ولا سمكاً، وكان هذا جيّداً. اكتفى بأن أعطى المناولة مع الاستعارات المزعجة المعتادة حول تناول اللحم وشرب الدم. ربّما كان هذا سيثير اهتمام المصلّين، أما نحن، بنات برايس، فقد كنّا نستمع كلّنا بنصف أذن في ما بيننا. وإدا بنصف دماغها. هاه. وتضاعفت الآن مدة الصلاة في الكنيسة لأنه كان على القسّ أن يقولها مرّة بالإنكليزية، ثمّ يكرّر معلّم المدرسة تاتا أناتول كلّ ما يقوله بلغة الكيكونغو.

(*) إشارة إلى معجزة تكثير الخبز والسمك، إذ يرد في الإنجيل أن المسيح أطعم خمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأطفال، بتكثير خمسة أرغفة وسمكتين. [م].

ثم أدرك أبونا أخيراً، أن أحداً لم يكن يفهم نطقه المروّع لا بالفرنسية ولا بالكيكونغو.

«كانت الفوضى التي اندلعت في بابل! الـ - فو - ضى!» قال القسّ، ملوّحاً بذراعه بشكلٍ مؤثّر باتجاه بابل كما لو كان ذلك الموقع المضطرب يقبع وراء مرحاض المدرسة.

من خلال السقف المتهالك تسلَّل شعاعٌ من الشمس على كتفه الأيمن مثل ضوء كشّاف أرسله الربّ. سار، توقّف، تكلّم، ثم مشى وراء الهيكل المصنوع من سعف النخيل، معطياً الانطباع بأنه يخترع الأمثال التوراتية مباشرةً. هذا الصباح كان يحبك قصّة سوزانا، الزوجة الجميلة والتقية للرجل الغني يواكيم. انازوس، هوا!(*) بينما كانت تستحمّ في الحديقة، رآها اثنان من مستشاري يواكيم عارية، ولفّقا خطّتهما الدنيئة. فقفزا من بين الشجيرات وطلبا منها أن تنام معهما. سوزانا المسكينة. إذا رفضت فإنهما سيشهدان ضدّها زوراً، فيدّعيان أنهما شاهداها في الحديقة مع رجل. بطبيعة الحال رفضتهما سوزانا المؤمنة، مع أنّ هذا يعني أنها ستُرجم إذا أُدينت بجريمة الزنا. الرجم بالحجارة، الأنين، الاعتراف، نزع العظام. لم يكن علينا أن نتساءل أيّ نوع من الأزواج يواكيم هذا المستعدّ لقتل زوجته الجميلة بدلاً من أن يسمع روايتها. لا ريب أن البابليين كانوا قد خرجوا وراحوا يبحثون عن أحجارهم المفضّلة آنذاك.

صمت القسّ، مرخياً إحدى يديه منبسطة فوق الهيكل. وكان باقي جسمه يختلج بشكل يكاد لا يكون ملحوظاً داخل قميصه الأبيض، يراوح مكانه، يواصل إيقاعه. تفحّص بدقّة وجوه أبناء رعيته الخالية من أي تعابير بحثاً عن أي علامات تشير إلى تحفّزهم وتشوّقهم. كان هناك أحد عشر أو اثنا عشر وجهاً جديداً الآن، تدافعٌ منتظم نحو المجد. أغمض صبيٌّ فاغرَ الفم يجلس

(*) عكسٌ لحروف «أوه سوزانا!». [م].

بجانبي إحدى عينيه، ثمّ أغمض الأخرى، الواحدة بعد الأخرى. انتظرنا كلّنا تاتا أناتول المترجم ومعلّم المدرسة لينقل ما يقوله.

«لكن الله لن يدع ذلك يحدث» -جأر القسّ، مثل كلبٍ أيقظه عابر سبيل. ثمّ ارتفع صوته أوكتافاً واحداً بطبقة نشيد «العلم ذو النجوم المتلألئة»(*)- «نبّه الله روحاً مقدّسة لشابٍّ اسمه دانيال!».

أوه! هبَّ دانيال لإنقاذها. أبونا يحبّ دانيال، فهو أول محقق خاص. تاتا دانيال (دعاه، لكي يبدو مثل صبيٍّ محلّيّ) تقدّم وطلب أن يستجوب المستشارين الاثنين، كل واحد على حدة. سألهما تاتا دانيال ما نوع الشجرة التي كانت سوزانا تقف تحتها عندما التقت بهذا الرجل في الحديقة. «ممم، شجرة صمغ المستكة»، قال أحدهما، وقال الآخر: «حسناً، أظن أنها شجرة سنديان حيّ». يا لغبائهما! حتى إنهما لم يتفقا على توحيد قصّتهما. جميع الأشرار في الكتاب المقدّس يبدون أغبياء على نحوٍ غير معقول.

رحت أراقب تاتا أناتول، متوقّعة أن يتعثّر أو يتأتئ على الأقل في عبارة «صمغ المستكة» و«شجرة السنديان الحيّ»، إذ لا يمكن أن تكون هناك كلمات لهذه الأشجار بلغة كيكونغو، لكنه لم يتوقّف. «كوفيما، كوزيكيسا، كوغام-بولا»، انطلقت منه الكلمات بسهولة ويسر، وأدركت أنّ هذا المعلّم الناعم المخادع ربما كان يقول أيّ شيء يخطر على باله. لن يكون والدنا الأكثر حكمةً أبداً. ربما قال: «فرجموا السيّدة وتزوّج كل منهما امرأتين وعاشا بسعادة بعد ذلك». تثاءبتُ، لأن سوزانا الورعة والجميلة تضجرني. من غير المحتمل أن أتعرّض للمشكلات نفسها التي تعرّضت لها.

في ذهني اخترعت بعض snmyhymns(**)، كما أسمّيها، تراتيلي المنحرفة

(*) The star spangled Banner: النشيد الوطني الأميركي. [م].

(**) my hymns تعني «تراتيلي»، وإذا تضيف لها sn في البداية. لاحظ أن تسمية إذا تُقرأ طرداً وعكساً. [م].

الخاصة التي يمكن أن تُنشد من الأمام أو من الخلف: الشرّ، جميع آثامه لا تزال حيّة!(*) واستغللت أيضاً هذه الفرصة النادرة لأتفحّص ماما تاتابا عن قرب. فهي تتحرّك عادة بسرعة كبيرة. اعتبرتها حليفتي لأنها، مثلي، لم تكن كاملة. كان من الصعب معرفة رأيها حول بركات والدنا، سواء في الكنيسة أم في خارجها، فرحت أتأمل الألغاز الأكثر إثارة للاهتمام، مثل عينها. كيف فَقَدَتها؟ فهي لم تتزوّج بسببها، كما أظن أن هذا هو السبب الذي سيجعلني لا أتزوّج أيضاً؟ لم يكن لدي أدنى فكرة عن عمرها أو عن آمالها. أعرف أنّ لدى الكثير من النساء في كيلانغا تشوّهات أكثر منها، وعلى الرغم من ذلك فإنهنّ متزوّجات. الاتحاد مع لا شيء. أزواج. هنا يشكّل الضرر البدني جزءاً من الحياة، ولا ينظر إليه بأنه وصمة عار. وفي شكل الجسد وحكم الآخرين فأنا أحظى بقبول جيّد في كيلانغا لم أعرفه عندما كنا في بيت لحم، بجورجيا.

أنهينا قصة سوزانا بغناء أنشودة «نعمة رائعة» في لحن حزين. انسجم المصلّون مع كلّ كلمة ولحن. أوه، كنّا برج بابل هنا في أول كنيسة معمدانية في كيلانغا، فلم يلاحظ أحد أنني قلت كلماتي أنا وفق اللحن الصحيح:

الشرّ، جميع... آثامه... ما تزال... حيّة!

اذهب... يا تاتا... إلى الربّ!

حبيبتي لا... لا، جرّينا... اسحبينا إلى الأمام،

آه، انهض... أيها القبيح، ها!(**)

عندما انتهت الصلاة في الكنيسة أعادتنا ماما تاتابا إلى البيت، بينما بقي القسّ الذكي وزوجته ليبتسما ويصافحا المصلّين ويستمتعا بالأجواء

(*) في الأصل: Evil, all its sin is still alive!. [م].

(**) في الأصل: / Evil, all... its sin... is still... alive! / Do go... Tata... to God! Sugar don't... No, drag us... drawn onward, / A, he rose... ye eyesore, ha!

القدسية. سارت ماما تاتابا في الدرب أمامي وأمام أخواتي. بينما كنت أسير في الخلف، كنت أركّز على تجاوز راشيل التي تسير وقد أبعدت يديها قليلاً عن فخذيها كما لو كانت قد تُوِّجت، مرة أخرى، كالعادة، ملكة جمال أميركا. «ارفعن أيديكن كما لو وقعت منكن قطعة رخام»، هذا ما علّمتنا إياه عندما كانت تتجوّل في البيت مثل عارضة أزياء. وعلى الرغم من كلّ تلك المهابة، لم أستطع اللحاق بها. فرحت أراقب فراشة برتقالية وبيضاء اللون ترفرف فوقنا، ثم حطّت أخيراً فوق رأسها الأبيض. دفعت الفراشة خرطومها الصغير في شعرها، تبحث عن غذاء، ثمّ طارت مبتعدة عندما لم تجد شيئاً.

لم ترَ ماما تاتابا شيئاً من كلّ هذا. كانت معكرة المزاج وصاحت فينا: «من الأفضل أن يتوقّف القسّ برايس عن ذلك!». هل تقصد أكل اللحم وشرب الدم؟ كانت الخطبة قد انتقلت من سوزانا الورعة إلى راحاب، عاهرة أريحا. أسماء توراتية كثيرة تبدو كما لو أنها تُقال عكسياً، مثل راحاب، أتساءل أحياناً ما إن كان من كتب كلّ هذه القصص متخلفاً عقلياً مثلي. لكن في النهاية، أكّد أبي على المعمودية، كما هو دأبه. لعلّ هذا هو الذي أزعج ماما تاتابا. يبدو أن والدنا لم يستطع تقبّل ما كان يبدو واضحاً حتى بالنسبة إلى طفل: عندما أمطر فكرة المعمودية –باتيز\– على الناس هنا، جعلهم يخافون كما تخاف الساحرة من الماء(*).

في وقت لاحق في المساء، كان أبي لا يزال مفعماً بالحيوية عندما جلسنا إلى مائدة العشاء. وهذا هو حاله دائماً أيام الأحد. فبمجرّد وصوله إلى المنبر فإنه يبدو غير راغب في التخلّي عن مركز الصدارة.

(*) في بعض المعتقدات الخرافية أن الساحرات يخفن من الماء، وفي بعض المعتقدات المسيحية تخاف الأرواح الشريرة، وكل من يمارس السحر والشعوذة من الماء المقدّس. [م].

«أتعرفن؟...» -سألنا. كان طويلاً، في كرسيّه، ورأسه يلمع مثل شمعة- «في السنة الماضية قطع بعض الرجال الطريق من ليوبولدڤيل إلى هنا في شاحنة، وكان حزام المروحة فيها لا يعمل؟ شاحنة مرسيدس».

يا إلهي! أحد أمزجته السقراطية. لم يكن ذلك خطراً، لأنه نادراً ما ضربنا على المائدة، لكنه كان عازماً على أن يعلّمنا لأننا إناث بليدات، غبيّات، وكان ينهي هذه الأسئلة دائماً بمناجاة خاصّة بصوت مرتفع مع الله، لأنه لا يوجد أمل يرجى منّا.

لا بدّ أن ميثوسالا كان يقبع في معسكر للفتيات، لأنه اعتاد على الثرثرة بأعلى صوته خلال وجبات العشاء يوم الأحد في بيتنا. ومثل الكثير من البشر، كان يتلقّف أدنى إشارة من الحديث ليُحدث جلبةً حولها. كانت أمّنا تلقي مفرش المائدة فوق قفصه أحياناً بسبب استيائها منه. «مبوته! مبوته!» صرخ الآن، التي تعني بلغة كيكونغو مرحباً وإلى اللقاء، معاً. يعجبني هذا التناظر. الكثير من الكلمات بلغة كيكونغو تشبه الكلمات الإنكليزية للخلف، وتحمل معانيَ معاكسة: «سييبو» تعني مطر جارف مدمّر، وهو بالضبط ما لا تعنيه إذا قرأتها بالإنكليزية من الوراء إلى الأمام(*).

استمعنا من دون اهتمام كبير إلى قصّة أبينا عن شاحنة المرسيدس المزعومة. فقد كانت الأشياء المادية الوحيدة الموجودة بحوزتنا مؤخراً من العالم الخارجي هي القصص ذات الرسوم، التي كانت عزيزة على أخواتي كما هي عزيزة توابل ماركو بولو من الصين، والبيض والحليب المجفّفين، التي لم نعد نهتم بها. كان إيبين أكسلروت يجلبها لنا. أما هذه الشاحنة وقصّة حزام المروحة، فقد كان القسّ يحبّ أن يحكي لنا بطريقة الأمثال، وكنّا على يقين بأنه سيُسمعنا واحداً منها.

«ذلك الطريق» -قالت أمّنا، مشوّشة، وأشارت بمعصم كسول محنيّ

(*) إذا عكسنا حروف كلمة syebo تصبح obeys وهي تعني بالإنكليزية «ينصاع». [م].

إلى خارج النافذة- «لماذا لا أستطيع أن أتخيّل؟». هزّت رأسها، ربما أنها لم تصدّق. هل يمكن أن تسمح لنفسها بألّا تصدّقه؟ لا أعرف أن ذلك قد حدث قطّ.

«كان ذلك في نهاية الموسم الجاف، يا أورليانا» -قاطعها- «عندما تزداد الحرارة وتجفّ البرك».

لم يكن بحاجة لأن يضيف: أيتها الحمقاء الغبية.

«لكن كيف كان بإمكانهم أن يشغّلوها من دون حزام مروحة؟» - سألت أمّنا، وقد فهمت من غضب القسّ أنه يتوقّع منها أن تعود إلى الموضوع. مالت إلى الأمام لتقدّم له قطع بسكويت من طبق الخزف الكبير الذي كانت تحتضنه أحياناً، سرّاً، مثل طفل رضيع بعد أن تغسله وتجفّفه. أما اليوم، فقد نقرت حافته بلطف قبل أن تشبك يديها استسلاماً لإرادة أبي. كانت ترتدي قميصاً أنيقاً، أبيض موشّى بأعلام إشارات سيمافور صغيرة حمراء وزرقاء. كانت ترتدي هذا الفستان في اليوم الذي وصلنا فيه إلى الكونغو، لكن يبدو أن أعلامه الصغيرة المحمومة قد مُحيت الآن، من كثرة ما غسلته ماما تاتابا في النهر.

انحنى قليلاً إلى الأمام ليعطينا التأثير الكامل لحاجبيه الحمراوين وفكّه البارز.

«عشبة الفيل!»، قال بانتصار.

جلسنا متسمّرات في أماكننا، وتوقّفنا عن مضغ الطعام للحظات.

أضاف: «اثنا عشر صبياً صغيراً كانوا يركبون في مؤخرة الشاحنة، يحوكون أحزمة للمروحة من الأعشاب».

قالت ليا بسرعة: «إذاً يمكن أن يكون العشب العادي البسيط الذي خلقه الله قوياً بقوة المطاط أو ما شابه!». جلست باستقامة شديدة كما لو كانت على شاشة التلفزيون، تتهيأ لتجيب عن سؤال الأربعة وستّين دولاراً.

«لا» -قال- «فكلّ واحدة منها لن تعمل إلّا لمسافة ميلين أو ثلاثة أميال على الأكثر».

«أوه!» - حزنت ليا.

لم تغامر الحمقاوات الأخريات في إبداء أي تخمينات أخرى.

«لكن عندما كان أحدها يتوقّف عن العمل» -أوضح أبي- «يكون حزامٌ آخر جاهزاً».

«جميل»، قالت راشيل على نحوٍ غير مقنع. إنها أكثر أفراد الأسرة دراماتيكية، وأسوأ ممثّلة، والتمثيل يُعتبر في أسرتنا مهارة حاسمة. كنّا كلّنا نولي انتباهاً شديداً لمسحوق البطاطا. كان من المفترض أن نتوصل إلى فهم أن حزام المروحة المصنوع من عشبة الفيل يُظهر قوة الله التي لا حدود لها. لكن لا أحد يريد أن يُسأل، ويُقدّم هذا الردّ.

«شاحنة مرسيدس!» -قال أخيراً- «ذروة الاختراع الألماني، جعلها اثنا عشر صبياً إفريقياً وكمية قليلة من عشب الفيل تعمل».

«أختاه، أغلقي الباب! ويندا مبوته» صاح ميثوسالا، ثمّ صرخ: «كو كو كو»، وهي العبارة التي يقولها سكّان كيلانغا عند مدخل باب أحدهم عندما يأتون لزيارته، لأنه لا يوجد باب يقرعونه. كان ذلك يحدث كثيراً في بيتنا، لكنّنا كنّا نعرف دائماً أنه ميثوسالا، لأنه يوجد لبيتنا باب، وعموماً، فإن أحداً لا يأتي لزيارتنا. وإذا جاء أحد، فإنه يأتي بأمل أن يبيعنا طعاماً، وهو لا يقرع الباب، بل يتسكّع حول الباحة حتى نلاحظ وجوده.

«حسناً، أتوقّع أنك تستطيع إبقاء أيّ شيء يسير بمساعدة عدد من الصبية الصغار وكمية كافية من الأعشاب»، قالت أمّنا. لم يكن يبدو أنها مسرورة من هذه القصة.

«هذا صحيح. يتطلّب الأمر القدرة على التكيّف فحسب».

«اللعنة، اللعنة، اللعنة!» صاح ميثوسالا.

ألقت أمي نظرة مليئة بالتوجّس على الطير، وقالت: «إذا استمر هذا المخلوق يعيش مع بعثات تبشيرية معمدانية لمدة تسعمئة سنة، فسيصبح عنده مخزون كبير من العبارات».

ثم نهضت وبدأت تكدّس الصحون. كانت قد فقدت بالفعل حيويتها منذ مدة طويلة، ويبدو أن أمي قد تأقلمت مع كل جزء من حياتها. استأذنت لتذهب وتغلي ماءً لغسل الصحون.

غير قادر على وضع نهاية مناسبة لقصته بسبب ماء الغسل أو ذاكرة ميثوسالا الطويلة، نظر أبونا إلينا جميعاً وأطلق تنهيدة قوية لرجلٍ مستنزف بالكامل. يا إلهي، يا لها من تنهيدة! كانت عميقة جداً لدرجة أنه يمكنها أن تسحب ماءً من بئر، مباشرةً من تحت أرضيّة بيت المغفّلات. كان يحاول، كما أوحت تلك التنهيدة، أن يجرّنا كلّنا نحو التنوير من نخاع عظامنا الأنثوية المسكينة.

تدلّت رؤوسنا، ودفعنا كراسينا إلى الوراء، وخرجنا للمساعدة في إشعال النار في موقد المطبخ. إن طهي وجبات الطعام هنا يحتاج إلى نصف يوم، وتحتاج عملية التنظيف إلى النصف الآخر. إذ يجب أن نغلي الماء أولاً لأنه يأتي مباشرة من الجدول الذي تتضاعف فيه الطفيليات بأعداد هائلة. توجد في إفريقيا طفيليات خاصة ومتنوّعة تحتلّ كلّ جزء من الجسم: الأمعاء الدقيقة والأمعاء الغليظة، والجلد، والمثانة، والمناطق التناسلية الذكورية والأنثوية، والسوائل بين الأنسجة، وحتى القرنية. ففي كتاب عن الصحة العامة في إفريقيا كنت قد رأيته في المكتبة العمومية، قبل أن نغادر بلدنا، وجدت لوحة مرسومة لدودة رفيعة مثل شعرة تتلوى أمام مقلة عين رجل ينظر بذهول. تأثّرت بطريقتي المتمرّدة الخاصة بالتبجيل: الحمد لله على جميع الأوبئة والمآسي السرّية! لو كان الله قد تمتّع بخلق زنابق الحقل، فإنه بالتأكيد نال إعجاب نفسه بالطفيليات الإفريقية.

خارج البيت رأيت ماما تاتابا ذاهبة إلى بيت المطبخ، تغمس يدها وتشرب مباشرة من الدلو. قاطعتُ أصابعي خوفاً على عينها السليمة. ارتعش جسدي عندما فكّرت بأن تلك الجرعة من خلق الله التي ابتلعتها، سوف تستنزفها من الداخل حتى تجفّ.

ليا

صار أبي يخرج إلى الحديقة وحده، كلّ يوم، ليجلس ويفكّر. كان منزعجاً لأن النباتات كبرت وملأت الرقعة المسيّجة بالأزهار مثل صالة جنازة، لكنها لم تنتج أيّ ثمار. كنت أعرف أنه كان يصلّي من أجلها. كنت أخرج أحياناً وأجلس معه، مع أنّ أمي لم تكن توافق على ذلك، وتقول إنه بحاجة إلى أن يختلي بنفسه.

تكهّن أبي أن السبب هو وجود الأشجار التي تُحدث الكثير من الظلّ. فكّرت ملياً بهذا التفسير، لأنني حريصة دائماً على توسيع مداركي ومعرفتي في أمور البستنة. هذا صحيح، فقد تمددت الأشجار وملأت بقعة أرضنا الصغيرة. كان علينا باستمرار أن نقطع الأغصان حتى نستعيد أرضنا. فقد التفّت عرائش الفاصولياء فوق الأشجار مكافحةً للحصول على ضوء.

في إحدى المرات سألني فجأة عندما جلسنا نفكّر في أمر اليقطين: «ليا، هل تعرفين عن أي شيء كانوا يتجادلون في المؤتمر الأخير حول الكتاب المقدّس في أتلانتا؟».

لم أتوقّع حقاً أن أعرف، فانتظرت. شعرت بسعادة غامرة لأنه كان يكلّمني بهذه الطريقة اللطيفة، والشخصية إلى حدٍّ ما. لم ينظر إليّ، بالطبع، لأن أشياء كثيرة تشغل باله، كدأبه. لقد بذلنا جهداً كبيراً لنحظى بمرضاة الله، لكن يبدو أن الله لا يزال ينتظر أن نبذل جهداً إضافياً، وكان على أبي أن

يعرف ما هو. بعينه الأقوى راح يحدّق بعمق في زهرة يقطين بحثاً عن مصدر المرض الذي أصاب حديقته. فقد كانت الأزهار تتفتح ثم تغلق، ثمّ تنكمش الثمار الخضراء وراءها وتصبح بنيّة اللون. لم يكن ثمة استثناء واحد. ولقاء العرق الشريف الذي سال منّا لم نحصل إلّا على أزهار وأوراق، لكننا لم نحصل على شيء يمكننا أن نتناوله على العشاء.

«حجم السماء»، قال أخيراً.

«آسفة!». خفق قلبي بسرعة. لقد كنت أحاول تخمين ما سيقوله أبي، وإيجاد حل لمشكلة الحديقة. لكنه كان يسبقني دائماً بخطوتين.

«ناقشوا مسألة حجم السماء في مؤتمر الكتاب المقدّس. كم فيرلونغاً مربّعاً(*) تبلغ مساحتها. كم طولها، وكم عرضها، وخصصوا رجالاً مع آلات جمع لتقدير ذلك. يقول الإصحاح الحادي والعشرون من سِفْر الرؤيا إنها بالقصبة، وتذكر أسفار أخرى أنها بالذراع، ولا تتطابق أيٌّ منها».

لسبب غير مفهوم، بدا منزعجاً من الرجال الذين جلبوا إلى مؤتمر الكتاب المقدّس آلات لحساب مساحة السماء، وربما كان منزعجاً من الكتاب المقدّس نفسه.

اعتراني اضطراب شديد.

«حسناً، آمل بالتأكيد أن يكون هناك مكانٌ كافٍ يتسع للجميع»، قلت.

كان هذا مصدر قلق جديد بالنسبة لي. فجأة بدأت أفكّر بجميع الناس الموجودين أصلاً في الأعلى هناك، معظمهم كبار في السن، وليسوا في حالة جيّدة أيضاً. تخيّلتهم يتدافعون بالمناكب كما يحدث في أثناء البازار الذي يقام في الكنيسة.

«سيكون هناك دائماً متسع للأتقياء»، قال.

(*) مقياس للمسافة ويساوي الفيرلونغ ثُمن الميل، أي تقريباً 201 مترٍ. [م].

«آمين»، تنفّست على أرضية أكثر أماناً.

«مصائب الشخص التقي كثيرة، والربّ يخلّصه منها كلّها. لكنّك تعرفين، يا ليا، أنه لا يخلّصنا أحياناً ولا يخرجنا من المشاق والمحن التي تصيبنا، وإنما من خلالها».

«أبانا الذي في السماوات خلِّصنا!»، قلت، على الرغم من أني لم أحب هذا المنظور الجديد. فقد لوى أبي إرادته لإفريقيا بإعادة ترتيب حديقته وجعلها في تلال، كما يفعلون هنا. وكانت هذه إشارة أكيدة لله على تواضع أبي وخضوعه، ومن المنصف أن نتوقّع مكافأتنا. إذاً، ماذا يعني الخلاص من خلال المشاقّ والمحن؟ هل كان أبي يريد أن يوحي بأنّ الله ليس مضطراً لأن ينزل علينا فاصولياء أو يقطيناً، مهما بذلنا من جهود لإعلاء اسمه ونشره؟ أن يوحي بأنه يجلس هناك ويرسل لنا المحنة تلو الأخرى؟ بالطبع أنا لست مؤهّلة لفحص خطّة الله العظيمة، لكن ماذا عن توازن ميزان العدل؟

لم يقل أبي شيئاً ليخفِّف من حدة قلقي. اقتلع زهرة فاصولياء أخرى ورفعها إلى السماء، وراح يتفحّصها في الضوء الإفريقي مثل طبيب يفحص صورة بالأشعّة السينية، باحثاً عن ذلك الشيء الخفيّ الذي حاد عن الطريق القويم.

***

كانت أولُ موعظةٍ ألقاها أبي في شهر آب، رائعة ومسهبة، وقد تناول فيها موضوعَ المعمودية. بعد ذلك، في المنزل، عندما طلبت أمي من ماما تاتابا أن تذهب وتضع قدر الحساء على الموقد، التفتت ماما تاتابا وسارت وخرجت من الباب الأمامي بين كلمتَيْ «حساء» و«موقد»، وراحت تكلّمه لمدة طويلة، تهزّ إصبعها في وجهه عبر صفّ نباتات البندورة التي لا تحمل أيّ ثمرة. مهما كان الأمر، فقد أخطأ في رأيها. كانت القشّة الأخيرة حقاً. كان بإمكاننا أن نسمع صوتها يعلو أكثر فأكثر.

من الطبيعي أن نُصدم حتى الموت حين نسمع شخصاً يصرخ هكذا في وجه أبينا. وصُدمنا أكثر عندما رأيناه واقفاً هناك أحمر الوجه، يحاول أن يضع كلمة ملائمة من دون جدوى. ومع وقوفنا نحن الفتيات الأربع أمام النافذة فاغرات أفواهنا، لا بدّ أننا كنا نبدو مثل فرقة الأخوات لينون في برنامج لورانس ويلك. أبعدتنا أمي عن النافذة، وطلبت إلينا أن نذهب ونُخرج كتبنا المدرسية ونقرأها. لم يكن وقت الدراسة، أو حتى لم يكن يوماً دراسياً، لكنّنا نفّذنا ما قالته لنا. كنا قد رأيناها مؤخراً ترمي صندوق براعم البطاطا في الغرفة.

بعد هدوء دام دهراً من حرب طروادة، اندفعت ماما تاتابا وألقت بمئزرها على الكرسي. أغلقنا كلّنا كتبنا.

«لن أبقى هنا!» -قالت- «أرسِل إحدى البنات إلى بانغا إذا كنتم بحاجة إلى مساعدة. سأريكِ كيف تطهين سمك الأنقليس. كانت هناك سمكة أنقليس كبيرة في النهر البارحة. هذا السمك جيّد للأطفال».

كانت تلك هي نصيحتها الأخيرة من أجل خلاصنا.

لحقتها حتى الخارج ورحت أراقبها وهي تسير في الطريق، وباطن قدميها الشاحبين يومضان لي.

ثمّ ذهبت أبحث عن أبي الذي ابتعد قليلاً عن الحديقة المسيّجة، وجلس مسنداً ظهره إلى جذع شجرة. كان في أصابعه شيء يمدِّده بعناية، شيء يشبه الدبور، لا يزال حيّاً. كان عريضاً مثل يدي وهناك علامة 8 صفراء في كلّ جناح من جناحيه، واضحة جداً كما لو كانت مرسومة بعناية من قبل طالب مدرسة أو أن إلهاً هو من رسمها هناك.

بدا أبي كأنه قد عاد لتوّه من نزهة في الشارع الرئيسي للسماء. وقال لي: «لا توجد أيّ ملقّحات».

«ماذا؟».

«لا توجد حشرات مناسبة هنا لتلقّح نباتات الحديقة».

«لماذا، لكن هناك عالم من الحشرات هنا». أظن أنه لم يكن تعليقاً ضرورياً، إذ شاهدنا كلانا الحشرة الغريبة التي تكافح بين أصابعه.

«الحشرات الإفريقية، يا ليا، مخلوقات صمّمها الله لخدمة النباتات الإفريقية. انظري إلى هذا الشيء! كيف سيعرف ما الذي يجب أن يفعله بالفاصولياء من نوع كنتاكي وندر؟».

لم أستطع أن أعرف ما إن كان مصيباً أم مخطئاً. لا أفهم كثيراً في أمور التلقيح. كلّ ما أعرفه هو أنّ النحل الدؤوب يفعل أكثر من ذلك. قلت: «أظن أنه كان علينا أن نجلب بعض النحل في جيوبنا أيضاً».

نظر إليّ أبي بوجهٍ جديد، غريب ومرعب بالنسبة لي، لأنه كان يفتقر إلى الثقة. كان كما لو أنّ غريباً مرتبكاً صغيراً ينظر من خلال القناع المهيب لقسمات أبي. نظر إليّ وكأنني طفلته الرضيعة الرائعة التي وُلدت للتوّ، وهو يحبها كثيراً، لكنه يخشى ألّا يكون العالم كما يأمل أيّ منّا أن يكون.

قال: «ليا، لا يمكنك أن تجلبي النحل. بإمكانك أن تجلبي العالم كله معك إلى هنا، لكن لا يوجد مكان هنا له».

بلعت ريقي. «أعرف».

جلسنا معاً ننظر عبر السياج المصنوع من العصيّ المحنيّة إلى تشكيلة النباتات الكبيرة التي ترفض أن تزهر في حديقة أبي. اعترتني مشاعر كثيرة متباينة آنذاك: الغبطة من تعبير أبي الغريب عن الحنان، واليأس لأنه هُزم. لقد بذلنا جهداً كبيراً، لأي هدف؟ شعرت بالارتباك والخوف. أحسست بأنّ الشمس تغرب على أشياء كثيرة كنت أؤمن بها.

من قفصه الكبير على الشرفة، صرخ ميثوسالا بنا بلغة الكيكونغو. «مبو ته!». وتساءلت: هل هي مرحباً أم إلى اللقاء؟ ما الشيء الذي جعل ماما تاتابا تفقد صوابها الآن؟

تجرّأت وقلت بهدوء شديد: «رأيناها تصرخ».

«فتاة صغيرة».

«هل عندها واحدة؟».

«لا. فتاة من القرية هنا قُتلت السنة الماضية».

أحسست بقلبي يخفق بسرعة. «ما الذي حدث لها؟».

لم ينظر إليّ الآن، لكنه حدّق بعيداً. «لقد قتلها تمساح وأكلها. إنهم لا يسمحون لأطفالهم أن تطأ أقدامهم مياه النهر، أبداً. ولا حتى من أجل الغسل في دم الحمل(*)».

«أوه»، قلت.

لقد عُمّدتُ وعُمِّد جميع من رأيتهم حتى الآن في شيء يشبه حوض حمّام كبير أو بركة سباحة صغيرة في الكنيسة المعمدانية. وكان أسوأ ضرر يمكن أن يحدث لك هو أن تنزلق قدمك فوق الدرج. أملت أن يكون هناك مكان في الجنة لتلك الفتاة الصغيرة المسكينة، مهما كانت الحالة التي ستصل فيها إلى هناك.

«لم أفهم» -قال- «لماذا يستغرق الأمر ستة أشهر حتى يخبرني أحد بهذه الحقيقة البسيطة؟».

كانت النار القديمة تتسلل مرة أخرى إلى هذه القشرة الحزينة الغريبة لأبي. شعرت بالرضا.

«كو كو كو» صاح ميثوسالا.

«ادخل!»، ردّ أبي، ونبرة تبرّم ترتفع في صوته.

«استيقظ، يا أخ فاولز!».

«انقلِع!»، صاح أبي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(*) كناية عن المسيح. [م].

حبستُ أنفاسي.

نهض على قدميه بسرعة، سار إلى الشرفة، وفتح باب قفص ميثوسالا بعنف. قوّس ميثوسالا كتفه وابتعد عن باب القفص. تحرّكت عيناه في تجويفيهما المنتفخين إلى الأعلى والأسفل، محاولاً أن يفهم ما يريده خيال هذا الرجل الأبيض الضخم منه.

«أنت حرّ في الذهاب!»، قال أبي، منتظراً. لكن الطير لم يخرج. فمدّ أبي يده وأمسك به.

بدا ميثوسالا في يدَي والدي كأنه لا شيء سوى لعبة مكسوّة بالريش. عندما ألقى بالطير إلى الأعلى فوق رؤوس الأشجار لم يطِر في البداية وإنما أبحر فوق الحديقة مثل كرة ريش ذات ذيل أحمر. خطر لي أنه لا بدّ أن قبضة أبي القاسية عليه قد آذت ذلك المخلوق المحلّيّ المسكين، وأنه سيقع على الأرض.

لكن، لا. بلمح البصر فردَ ميثوسالا جناحيه ورفرف مثل الحرّية نفسها، وارتفع فوق عريشة كنتاكي وندر، ثم فوق أغصان الغابة التي لا بدّ أنها ستستعيد كلّ شيء بمجرّد رحيلنا.

الكتاب الثاني

الرؤيا

ووقفت على رمل البحر،

ورأيت وحشاً طالعاً منه....

اسمعوني يا من لكم آذان.

سِفْر الرؤيا 13: 9,1

أورليانا برايس

جزيرة ساندرلينغ، جورجيا

مرّة كلّ بضع سنوات، حتّى الآن، أشمّ رائحة إفريقيا. تجعلني أرغب في النحيب، الغناء، الهدير كالرعد، والاستلقاء تحت جذع شجرة، سامحةً للديدان أن تأخذ مني كلّ ما قد يكون مفيداً لها.

من المستحيل أن أتحمّل ذلك.

فاكهة ناضجة، عرق لاذع الرائحة، بول، أزهار، توابل داكنة، وأشياء أخرى لم أرَها من قبل – لا أعرف ما الذي يدخل في ذلك التكوين، أو لماذا يرتفع لمواجهتي بينما ألتفّ حول زاويةٍ ما على عجل، دون أدنى شكّ. وجدَتني هنا في هذه الجزيرة، في بلدتنا الصغيرة، في زقاق خلفي حيث يدخّن فتيان أنيقون في بيت الدرج وسط قمامة لم تُجمع بعد في ذلك اليوم. منذ بضع سنوات، وجدَتني على ساحل خليج المسيسيبي عندما عدت لحضور جنازة عائلية: انبثقت إفريقيا أمامي واستحوذت على تفكيري، بينما كنت أسير على رصيف يصطفّ فوقه صيّادو أسماك مسنّون رؤوسهم كالسلحفاة، وحولهم دلاء فيها طُعوم للسمك. كانوا كما لو أنهم يقيمون مأدبة. ذات يوم، ما إن خرجت من المكتبة في أتلانتا شممتها، تلك الرائحة التي تطيح بي، لسبب لا أفهمه. يتصاعد الإحساس في داخلي وأعرف أنك لا تزالين قابعة هنا،

تسيطرين على كل شيء. لقد احتلتِ عليّ لتشطري خلاياي حتى لا يتحرّر جسدي أبداً من تلك الأجزاء الصغيرة التي استهلكتها إفريقيا. إفريقيا التي ما تزال إحدى بناتي تحت ترابها الأحمر الندي. إنها رائحة الاتّهام. يبدو أنني لم أعد أعرف نفسي بعد الآن إلا بحضورك داخل روحي.

كان من الممكن أن أكون أمّاً مختلفة، ستقولين. كان من الممكن أن أقف وأرى ما الذي سيأتي، لأنه كان كثيفاً في الهواء المحيط بنا. الرائحة نفسها التي تنبعث في يوم السوق في كيلانغا، الذي يقام كلّ خامس يوم - لا في اليوم السابع أو في اليوم الثالث عشر. لا يوجد شيء يمكنك أن تطلق عليه اسماً مثل «يوم السبت»، أو «أول يوم في الشهر»، بل كلّ إبهام إذا استخدمت أصابعك لحسابها. يبدو ذلك شيئاً غير ذي معنى على الإطلاق، لكنه يصبح في نهاية الأمر كلّ المعنى في العالم، عندما تدرك أنّ حساب الأشياء على يدك هو ما يجري تماماً في الكونغو.

يأتي من كل مكانٍ يمكن المجيء منه سيراً على الأقدام، كلّ خامس يوم، أناسٌ أيديهم مليئة أو فارغة، إلى قريتنا، يتهادون في مشيتهم، ذهاباً وإياباً، على امتداد صفوف طويلة تعرض فيها النسوة خضراوات على الأرض فوق الحصر. تقرفص البائعات، عابسات، يسندن ذقونهن على أذرعهن المتشابكة، وراء قلاعٍ من فستق كولا، وحزمٍ من العصي المعطّرة، وأكوام من الفحم، وقوارير وعلب مجمّعة، أو أعضاء حيوانية مجفّفة. يتذمّرن دائماً عندما يبنين، بأيديهن الجلدية، ويُعِدن بناء أهرامهنّ من البرتقال المبرقش المائل إلى اللون الأخضر، والمانغا، وجسوراً محنية من الموز الأخضر القاسي. أخذتُ نفَساً عميقاً وقلت لنفسي إنّ أيّ امرأة في كل مكان على وجه الأرض تستطيع أن تفهم امرأة أخرى في يوم السوق ذاك. وعلى الرغم من ذلك، لم تستطع عيناي أن تفكّا أسرار تلك البائعات اللاتي يلفُفن رؤوسهن بأقمشة ذات ألوان برّاقة مبهرجة كأنهن في حفلة، لكنهن يواجهن

العالم بتجهُّمٍ دائم. ويُلقين رؤوسهن إلى الخلف بضجرٍ واضحٍ، بينما تقوم كلّ واحدة منهن بلفّ شعر الأخرى في انفجار نجمي من مسامير مذهلة. ومهما ادّعيت بأنني جارتهن، فقد كنّ يعرفن أفضل. فأنا امرأة بيضاء وعيناي واسعتان مثل عينَي سمكة. سمكة في غبار السوق، تحاول السباحة، بينما تتنفّس جميع النساء الأخريات بهدوء في ذلك الجوّ الذي يعبق برائحة الفاكهة الناضجة، واللحم المجفّف، والعرق، والتوابل. رائحة تملأ حياتهن بقوى تثير خوفي.

يوم محدّد لا يفارق ذاكرتي. كنت أحاول تتبّع فتياتي لكنني لم أرَ إلا ليا. أذكر أنها كانت ترتدي ذلك الثوب الأزرق الفاتح الذي له نطاق تعقده وراء ظهرها. جميع البنات ما عدا راشيل يعملن حتى الإرهاق ويلبسن ملابس خشنة خلال أيام الأسبوع العادية، لذلك لا بدّ أن يكون هذا –بالنسبة لأسرتنا– يوم الأحد، يومنا الكبير الذي تصادف مع يوم القرويّين.

كانت ليا تحمل سلّةً بين ذراعيها، تحمل لي حملاً منعها من أن تكون في موقعها المفضّل على رأس مجموعة أخواتها اللاتي اختفين عن الأنظار. كنت أعرف أن ناثان ينتظر عودتنا بنافد الصبر، فأومأت إلى ليا بأن تأتي إليّ. ولكي تصل إليّ، كان عليها أن تجتاز صفّاً من المنتوجات. ومن دون تفكير، باعتبارها التوءم التي لم تخذلها ساقاها قطّ، نقلت السلة إلى وركها الأيسر، وخطت خطوة واسعة فوق هرم البرتقال. مددت لها يدي، لكن بينما كانت تحاول الوصول إليها، علقت بطريقةٍ ما وسط تلة البرتقال، ولم تعد تستطيع أن تخطو بقدمها الأخرى بففففففف!

فقفزت المرأة الجالسة القرفصاء بجانب البرتقال وراحت تهسهس، وتؤشّر بيديها لكلينا بحركة كأنها تقصّ شيئاً بمقصّ، تحرقني بعينين متوقدتين، حتى بدا أن قزحتَيْ عينيها الغاضبتين بلون الشوكولاتة تذوبان في البياض المحيط بهما. ورفع الرجال الجالسون على مقعدٍ عيونهم من

طاسات البيرة الجديدة التي كانوا يحتسونها، وراحوا يحدّقون بنا بالعيون الغائمة نفسها، كلّهم يؤشّرون إليّ بأن أحرّك ابنتي: شبح غبي! ليس شخصاً! يفرشخ فوق ثروة امرأة في يوم السوق. لا أستطيع أن أتوقّف عن الشعور بالحرج من هذه الذكرى، أنا وليا هناك، وعورتها -مكشوفة، كلهم يعرفون ذلك- عالقة فوق كومة برتقال إحدى البائعات. أمّ وطفلة أجنبيتان تعتبران نفسيهما في موقع السلطة، تصبحان فجأة لا شيء، لأن الجميع رأوا ما يكونونه.

حتى تلك اللحظة كان يُخيَّل إليّ أنني أستطيع أن أكون الاثنين: أن أكون واحدةً منهنّ، وأن أكون أيضاً زوجة زوجي. يا له من غرور! فأنا كنت أداته، حيوانه. لا شيء أكثر. كيف نهلك نحن الزوجات والأمهات من ورعنا واستقامتنا! لم أكن سوى واحدة أخرى من تلك النسوة اللاتي يغلقن أفواههن ويلوّحن بالعلم عندما يحتلّ بلدُهن بلداً آخر، في الحرب. سواء أكنّ مذنبات أم بريئات، فلديهن كلّ ما يخسرنه. أنفسهن هو ما يمكن أن يخسرنه. الزوجة هي الأرض ذاتها، تتغيّر الأيدي، وتحمل الندوب.

سيتعيّن علينا كلّنا الهروب من إفريقيا بطرق مختلفة. بعضنا موجود في الأرض الآن وبعضنا الآخر فوقها، لكننا كلّنا نساء، خُلقنا من الأرض نفسها المليئة بالندوب.

أبحث في بناتي اللاتي كبرن الآن عن إشارات أنهن يعشن في نوع من السلام. كيف تمكّنّ من ذلك، بينما بقي الحكم يطاردني أنا؟ العيون في الأشجار مفتوحة على أحلامي. يراقبون في ضوء الشمس يديَّ المقوّستين أحفر بهما التراب في حديقتي الرطبة الصغيرة. ماذا تريدين منّي؟ عندما أرفع عينيَّ الكليلتين المجنونتين وأكلّم نفسي، ماذا تريدين أن أخبركِ؟

أوه، أيتها الوحشة الصغيرة، الأثيرة الصغيرة، ألا ترين أنني متُّ أيضاً؟!

في بعض الأحيان أصلّي لأتذكّر، وفي أحيان أخرى أصلّي لأنسى. لا

يوجد ثمة فرق. كيف يمكنني أن أسير بحرّيّة في العالم، بعد تصفيق تلك الأيادي في السوق وهي تحاول إبعادي؟ لقد تلقّيت تحذيرات. فكيف يمكنني أن أحتمل الرائحة التي تطاردني؟!

***

لم يكن هناك الكثير من الوقت للتفكير بالصواب والخطأ، عندما كنت أكاد لا أعرف أين أنا. في تلك الأشهر الأولى، كنت أستيقظ في معظم الليالي مجفلة، ويُخيَّل إليّ أنني عدت إلى بيرل في المسيسبي. قبل الزواج، قبل الدين، قبل كلّ شيء.

كانت الصباحات في الكونغو مشبعة بالبخار، لدرجة أنك لا تستطيع رؤية شيء سوى غيمة على مستوى الأرض، لذلك قد تكون في أيّ مكان. تتراءى لي ماما تاتابا وهي واقفة عند مدخل غرفة النوم، بكنزتها الخضراء الزيتونية نصف المزرّرة في الأعلى، التي لها ثقوب واسعة عند المرفقين، معتمرة قبّعة صوف مغزول تهبط حتى حاجبيها، ويداها سميكتان مثل جلد الحيوان. قد تكون أيّ امرأة واقفة عند مدخل مخزن «لوتون جنرال» في سنة الله وسنة طفولتي، 1939. ثمّ تقول: «ماما برايز، لقد تسلَّل نِمس إلى داخل الطحين الأبيض»، فأتشبّث بإطار السرير بينما تدور المشاهد أمامي مثل دوّامة ماء يجري إلى البالوعة، ويسحبني ويعيدني إلى المركز. هنا. الآن. كيف يمكن لشخص أن يكون في المكان الذي كنت فيه؟

لقد انقلب كلّ شيء في ذلك اليوم الذي فقدنا فيه ماما تاتابا والببغاء اللعين. كلاهما أطلقه ناثان. يا له من يوم! بالنسبة لأسرتنا إنه يوم الاستقلال. فقد راح الطير يحوم فوقنا، يلقي علينا عينيه الغاضبتين من فوق الأشجار، لأنه كان ما زال بحاجة إلى طعام. أما الأخرى التي اعتمدت عليها حياتنا، فقد اختفت من القرية. هطلت أمطار غزيرة وتساءلت: هل ضعنا من دون أن ندري؟ لقد حدث ذلك مراراً في حياتي (تذكّرت يوم زفافي) وتخيّلت أنني

خارج الغابة، غير مدركة أنني كنت أقف عند حافّة منحدر ضيّق آخر وسط سقوط طويل، طويل.

ما زال بوسعي أن أردّد سلسلة الجهود التي بذلتها للحفاظ على زوجي وأطفالي أحياء، وإطعامهم كلّ يوم في الكونغو. كانت الرحلة الأطول تبدأ دائماً بالانتصاب في السرير عندما يصيح الديك، أُبعد الناموسية، وأنتعل حذائي، لأن ديدان الأنكلستوما تنتظر على الأرض، متلهّفة للحفر في أقدامنا العارية. الحذاء، إذاً، ينزلق بي عبر الأرضيّة لكي أستقبل النهار.

أحلم بالقهوة. أخشى أنني لم أكن أفتقد إلى وجود زوجي جسدياً في أثناء غيابه المتكرّر، بقدر ما كنت أفتقد إلى القهوة. أخرج من الباب الخلفي فتصدمني الحرارة الرطبة، وأبذل جهداً كي أنظر إلى النهر: مقاومةً الرغبة في الركض إليه.

نهر الرغبات، التمساح الزلق يحلم به، كيف يمكن أن يحمل جسدي ويجتاز الضفاف الرملية المتلألئة حتى البحر؟ كان أصعب شيء أفعله كلّ يوم هو أن أقرّر، مرة أخرى، أن أبقى مع أسرتي. لم يعرفوا ذلك قطّ. وعندما كنت أفتح القفل لأبعد الحيوانات والأطفال الفضوليين عن كوخ مطبخنا، كان عليّ أن أقفله ورائي بسرعة لأمكث فيه وحدي. الكآبة، الرطوبة، الرائحة الحامضة للموسم الماطر تثقل عليّ دائماً مثل عاشق مزعج. الرائحة النتنة الطازجة للتربة الليلية تحت الشجيرات، ولمرحاضنا الذي لم يكن يبعد عني سوى خطوة واحدة.

عندما أقف عند طاولة العمل، أهجر أفكاري وأراقب نفسي وأنا أقتل البرتقالات بسكّينتنا الوحيدة المثلّمة، أحزّ بطونها وأعصر منها الدم الأحمر. لكن لا، يجب أن أغسل الفاكهة أولاً. لقد جُمع ما يسمى بالبرتقال الأحمر الدموي الغريب هذا من الغابة. وعندما اشتريته من ماما موكالا أدركت أنه مرَّ عبر أيدي أولادها الذين تكسو عيونهم وقضبانهم قشور بيضاء. أغسلها

إذاً، بقطرة من مُبيّض الكلوروكس الثمين، محسوبٌ مثل دم الحمل. يا له من أمر هزلي! أعرف، لكن طوال تلك الأيام لم تبارح مخيّلتي صورة حملة إعلانات شعبية من بلدنا تصوّر أطفالاً متسخين، وكُتب تعليق تحتها بخط عريض: الكلوروكس مطلوب هنا!

حسنٌ جداً، فقد استخرجت العصير من القشرة المعقّمة، ثمّ كان عليّ أن أخفّف بالماء السائلَ المليء باللُّبّ، إن كنت آمل أن يدوم هذا البرتقال الثمين لفترة طويلة. من الصعب تحديد أيّهم يكلّفني أكثر: المُبَيّض أم البرتقال أم الماء. أبذل جهداً لأحصل على المُبَيّض والبرتقال، أو أستجدي للحصول عليهما، إذا أُرسلت لنا بعض المؤن بالطائرة التي يقودها ذلك الرجل الكريه المدعو إيبين أكسلروت، الذي يظهر فجأة كل بضعة أسابيع بحذائه الطويل المتعفّن وقبّعته الفيدورا المبقّعة بالعرق، وهو يدخّن سيجار تيباريلوس الرفيع عند مدخل البيت، ويطلب نقوداً لقاء الأشياء التي هي أصلاً لنا، والتي يتبرّع بها اتحاد البعثات التبشيرية. حتى إنه كان يبيعنا الرسائل المرسلة إلينا! لم يكن يجلب لنا شيئاً من دون مقابل، حتى الماء الذي يجب نقله من مسافة ميل ونصف الميل وغليه. «غليه» كلمة صغيرة تعني أن يوضع لمدة عشرين دقيقة فوق نار هادرة على موقد يشبه جيفة صدئة لهيكل سيارة أولدزموبيل. و«النار» تعني تجميع كومة من العصي في قرية كانت تجمع الحطب على مدى سنوات منذ أن كان الله طفلاً، قرية نُظِّفت أرضها من أيّ شيء يمكن إشعاله، بكفاءة حيوان ينظّف نفسه من القمل. لذلك فإن «النار» تعني التغلغل لمسافات أطول وأطول داخل الغابة، وانتشال الأغصان الساقطة على الأرض من تحت عيون الأفاعي المحدّقة، لغلي دلو واحد لا غير من الماء الصالح للشرب. إن كلّ جهد من أجل النظافة مهما كان صغيراً تضخّمه ساعاتٌ من العمل المضني بغية الحصول على أبسط العناصر: الماء، الحرارة، أيّ شيء قد يستعمل مطهّراً.

أما الطعام، فهو أغنية ورقصة أخرى. قصة العثور عليه، ومعرفة اسمه، أو تقطيعه أو هرسه، أو سحق دماغه لجعله شيئاً يمكن أن يستسيغه أفراد أسرتي. ولوقتٍ طويل، لم أكن أعرف كيف كانت جميع العائلات الأخرى تتدبّر أمورها. فقد كان يبدو أنه لا يوجد طعام يمكن التحدّث عنه، حتى في يوم السوق عندما يأتي جميع أهل القرية ويكدّسون أمامهم أطول كومة ممكنة مما يوجد لديهم. لم يكن يبدو ذلك أنه يكفي لسدّ رمق الأربع وعشرين أسرة في قريتنا. نعم، كان يمكنني رؤية أنه يوجد فحم لطبخه، والفلفل الأحمر بيلي -بيلي الذاوي لتتبيله، وطاسات الكالاباش لسكبه فيها، لكن أين هو الشيء الذي سيُسكَب فيها، أيّاً كان؟ ما الذي يأكلونه على أرض الله هذه؟!

بعد عناء عرفت الجواب: عجينة لزجة تدعى فوفو، تُستخرج من درنة نباتية ضخمة، تزرعها النسوة ويقتلعنها من الأرض، ثم ينقعنها في ماء النهر، وتُجفّف تحت الشمس، ثم تُطحن حتى تصبح مسحوقاً أبيض في جذوع الأشجار المجوّفة، ثم يُغلى. ويطلقون عليه اسم مانيوك(*)، كما قالت لي جانا أندرداون، وقالت إن قيمته الغذائية تعادل القيمة الغذائية الموجودة في كيس ورق بنّي، علاوة على ذلك، فهو يحتوي مقداراً ضئيلاً من السيانيد(**). ومع ذلك فهو يملأ المعدة، ويُطبخ حتى يصبح قوامه كتلة لا طعم لها، يمكنك أن تجعل أي طفل أميركي يحاول أن يذوقه لمرة واحدة بعد جولة طويلة من الأنوف المسدودة ومحاولات الإقناع الدؤوبة. أما بالنسبة لسكّان كيلانغا

(*) المانيوك أو الكاسافا أو المنيهوت: شجيرة خشبية موطنها أميركا الجنوبية، وتُزرع على نطاق واسع في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية، وهي مصدر رئيس للكربوهيدرات بسبب جذرها الدرني النشوي الصالح للأكل. [م].

(**) السيانيد: هو ملح حمض سيانيد الهيدروجين، وهو سامّ. يوجد بكميات ضئيلة جداً في بذور بعض النباتات مثل التفاح والدراق... لكن بسبب ضآلة كميته فيها لا يسبب أي تداعيات على الجسم، ومع ذلك ينصح بعدم أكل بذور هذه الفواكه. [م].

فإن فوفو هو الشيء الوحيد الذي يبدو أنه مضمون في أي وقت. سيكون هناك دائماً مانيوك. إنه مركز الحياة. وعندما تعود القرويات الضامرات الفارعات القامة بمآزرهن السارونغ بهدوء من الحقول، يحملنه في حزم ضخمة بتوازن يبدو مستحيلاً فوق رؤوسهن: حزم من جذور المانيوك يبلغ حجمها حجم خيول متغضّنة. وبعد نقعها وتقشيرها، يضعن الجذور البيضاء الطويلة في أحواض مطلية بالمينا، وتمرّر في صفّ واحد عبر القرية مثل زنابق ضخمة فوق قصبات متحرّكة رفيعة. وتمضي تلك القرويات معظم أيامهن في ذلك الجهد المستمر من زراعة المانيوك والحفر والهرس. والطريقة الحالمة التي يتحرّكن بها في أثناء عملهن هذا، تجعل الأمر يبدو منفصلاً تماماً عن المنتج النهائي. وقد ذكّرنني بالرجال السود الذين يُطلق عليهم «راقصو غندي» في الجنوب الأميركي القديم، عندما كانوا يمشون فوق مسار سكة الحديد وينشدون ويهزّون رؤوسهم، يمشون خطوة إلى الأمام ثم خطوة إلى الوراء بانسجام كبير، مخرجين إيقاعاً معيّناً بالقضبان الفولاذية، يخلبون عقول الأطفال، ويواصلون ذلك حتى قبل أن تدرك أنهم أصلحوا أيضاً، بالمصادفة، مسار سكّة الحديد. هكذا تصنع تلك النسوة المانيوك، وهكذا يتناوله أطفالهن: من دون أي فكرة ظاهرة لتحسين طريقة صنعه وتناوله. وفوفو هي ببساطة كلمة أخرى لكلمة طعام. وأيّ شيء آخر يستطيع المرء أن يتناوله -موزة، بيضة، الفاصولياء التي تُدعى مانغوانسي، قطعة لحم ظبي تُشوى على النار حتى تسودّ- هو على العكس تماماً، ويبدو تناوله حدثاً غير عادي، مناسبة، وربما في غير محلّه.

كان أفراد أسرتي يتطلّبون مثل هذه المناسبات الرائعة ثلاث مرات في اليوم. ولم يدركوا أنّ وجبات الطعام التي كانوا يعتبرونها شيئاً بدهياً، ويستغرق تحضيرها ثلاثين دقيقة في أرض جنرال إلكتريك، تصبح هنا عمراً كاملاً من العناء والمشقّة. أسرة تجلس بانتظار أن تأتي أمّهم وخادمتها من

المطبخ تحملان ثلاث وجبات عشاء في اليوم مثل وجبات عيد الشكر. وقد استطاعت ماما تاتابا أن تفعل ذلك، مع أنها كانت تتذمّر طوال الوقت. فقد كانت تتمتم وهي تعمل، لا ترتاح أبداً، تتوقّف بين الحين والآخر لترفع خصر الباني(*) الملفوف تحت كنزتها الصوفية. وكانت تزوغ بعينيها عندما تضطرّ لتصحيح أخطائي: علب القصدير التي نسيت أن أغسلها وأضعها في أماكنها، وعناقيد الموز التي لم أتفحّصها بحثاً عن الرتيلاء التي قد تعشّش فيها، أو الموقد الذي حشوته كله ذات مرّة بعصي بانغالا - شجرة الخشب السام. فانتشلت عود الثقاب من يدي عندما انحنيت لأشعله، وراحت تسحب العصي الخضراء الواحدة تلو الأخرى بقطعة قماش، موضحةً باقتضاب أنّ الدخان وحده كفيل بأن يقتلنا جميعاً.

في البداية لم أكن أعرف شيئاً من لغة الكيكونغو إلّا الكلمات العملية التي علّمتني إياها، فوفّرت عليّ معرفة كيف كانت تلعن أرواحنا الهالكة كما كانت تغذّي أجسادنا. كانت تدلّل بناتي العاقّات، وتنزعج منّا كثيراً. كان باستطاعتها أن تُدخل أصابعها في عمق كيس متعفّن، وتُخرج منه بأعجوبة أونصة من الطحين الأبيض، وتصنع منه بعض البسكويت. وكانت تحوّل دهن الماعز إلى شيء يشبه الزبدة، ولحم ظبي مفروم إلى أقراص هامبرغر بواسطة أداة أظن أنها أُخذت من مروحة محرّك زورق آلي. وكانت تستخدم قطعة حجر مسطّحة وقوة إرادتها لتجرش الفول السوداني وتحوّله إلى زبدة فول معقولة. وفي نهاية هذا العمل الطويل والشاق كانت راشيل تجلس عند الطاولة: تتنهّد، وتلقي بشعرها الأبيض فوق كتفيها، وتقول إن كلّ ما تتمناه في هذا العالم هو «شيء طري لا شيء مليء بالحبيبات».

فوفو نسالا، كانت ماما تاتابا تطلق علينا. ظننت أن الأمر له علاقة بكلمة

(*) الباني (Pagne): زيّ محليّ يُلبس في إفريقيا، يتكوّن عادةً من قطعة قماش مستطيلة طويلة، تُلفّ بإحكام حول الجذع، وغالباً ما تكون ملوّنة وزاهية. [م].

فوفو، الطعام، ولم أكن أعرف بعد أنّ لغة الكيكونغو ليست منطوقة تماماً وإنما لغة تُغنى. فإذا ارتفعت الكلمة نفسها أو هبطت قليلاً في المقياس عن المعتاد فقد يختلف معناها. وعندما كانت ماما تاتابا تردد هذه الترنيمة عنّا تحت أنفاسها، فلم تكن تقصد أننا طعام فوفو، أو أننا نتحاشى فوفو أو أيّ شيء يمكن أن يخطر ببالي. فقد عرفت أن «فوفو نسالا» هو جرذ له رأس أحمر يعيش في الغابات ويتفادى ضوء الشمس.

أظن أنني كنت شجاعة. فعندما دخلت إلى بيت المطبخ لأول مرة، رأيت أفعى تنسلّ من عتبة الباب، وحدّقت بي رتيلاء من الحائط، تنزل إلى الأسفل بسيقانها المحنية مثل لاعب كرة قدم عند خط الهجوم، فبدأت أحمل عصا غليظة. قلت لماما تاتابا إنني امرأة نشأت لتجيد الطبخ، لا لتصبح مدرّبة في سيرك.

الله وحده يعلم كم أن ماما تاتابا ازدرت تلك المرأة الشاحبة الخانعة، فهي لا تستطيع تصوّر عالم مليء بالأشياء التي تعمل على الكهرباء، أو أرضاً تشغل فيها النسوة أنفسهن بالتراكم الشمعي الأصفر على أرضية المطبخ. وبقدر احتقارها لي، ربما لم تكن تقدّر عجزي الحقيقي. وكنت أودّ أن أعتقد أنها ما كانت لتغادرنا لو عرفت ذلك. وعندما فعلتْ، تركت وراءها درباً من الجهد الذي شعرت أنني سأغرق فيه.

من الغريب القول إن ثقة ناثان الشديدة بنفسه هي التي دفعتها للرحيل. فقد كان يعتقد، مثلما اعتقدت، بأنه كان من المفترض أننا على أتم الاستعداد، لكن كيف يمكن أن نكون مستعدين لرؤية الأفاعي عند عتبة الباب، وسماع قرع طبول في الغابة تدعو إلى إنهاء قرن من البلاء.

وبحلول الوقت الذي أفسح فيه الصيف الطريق لموسم الأمطار التي لا تنتهي، كان من الواضح أننا سنواجه مشكلات كثيرة. فلم أستطع التوقّف عن تخيُّل أن بناتي سيمُتن. وكانت تنتابني أحلام بأنهن غرقن، أو ضعن، أو

أُكلن وهنّ أحياء. كنت أحلم بذلك، وأستيقظ خائفة حتى الموت. وعندما كان النوم يجافيني، أشعل مصباح الكيروسين وأجلس وحدي حتى الفجر إلى طاولة الطعام الكبيرة، أحدّق في كلمات المزامير حتى أخدّر عقلي: «يا ربّ أحببت محل بيتك، وموضع مسكن مجدك. لا تجمع مع الخطاة نفسي، ولا مع رجال الدماء حياتي. خلّصني».

وعند شروق الشمس كنت أغادر البيت أحياناً لأتمشّى. ولكي أتفادي السير بجانب النهر، أسلك طريق الغابة. وفي أكثر من مرة، جعلت مجموعات الفيلة التي ترعى تجفل. إن فيلة الغابة تختلف عن أقاربها الفيلة التي تطأ فوق الأراضي المعشوشبة: فهي أصغر حجماً وأكثر حساسية، تنقّب في التربة المورقة بأنيابها الوردية. وكنت أرى أحياناً أخرى عند بزوغ الفجر مجموعات من الأقزام وهم يتنقّلون بين الظلال، لا يرتدون شيئاً سوى قلائد من الريش وأسنان حيوانات، وفي الأيام الممطرة يعتمرون قبّعات من أوراق الشجر. كان حجمهم صغيراً جداً -أقل من نصف حجمي- ومزيّنين بطريقة مبهرجة، واعتقدت لفترة طويلة أنهم أطفال. كنت أستغرب وجود تلك المجموعات الكاملة من الصبية والبنات في الغابة بمفردهم، يحملون سكاكين ورماحاً، وقد ربطوا على ظهورهم أطفالاً رضّعاً.

لعلّ قراءة الكتاب المقدّس هي التي جعلت عقلي في هذا الإطار المفتوح، وجعلته مستعداً ليؤمن بأيّ احتمالية غريبة. إضافةً إلى عدم النوم. كنت بحاجة إلى شيء لأتمسّك به، لكن لم يكن هناك أحد أستطيع التحدّث إليه إطلاقاً.

حاولت أن أقرأ بإمعان مجلّات الأخبار الأميركية التي يرسلها لنا السيّد والسيّدة أندرداون، لكنّي كنت أرى أنها مزعجة فحسب. إذ يقول الرئيس آيزنهاور إن كلّ شيء تحت السيطرة؛ وقال الصبي كينيدي إنّ العمّ آيك انتهى تماماً، وإن علينا فحسب أن نرى ما يحدث في الكونغو -الكونغو!- لنجد

دليلاً على سوء القيادة الأميركية، وفجوة الصواريخ(*)، وتأكيداً على التهديد الشيوعي. وقد أعلن أشخاص مثل إليانور روزفلت أننا يجب أن نقدّم لهم المساعدة، وأن نجلب هؤلاء الأطفال الفقراء إلى القرن العشرين. لكن السيّد جورج فروست كينان، الدبلوماسي المتقاعد، قال إنه لا يشعر «بأدنى مسؤولية أخلاقيّة تجاه إفريقيا»، لأنها ليست المشكلة التي يجب أن نشغل أنفسنا بها، وليذهبوا إلى الشيوعيين إذا أرادوا.

كان تقييم هذه الأمور يفوق قدرتي، عندما تقبع تحت عتبة باب بيتي أفاعٍ قد تقتل طفلةً بالبصق في عينيها.

لكن ناثان لا يريد أن يستمع إلى مخاوفي. فقد كانت حياتنا بالنسبة له بسيطة كما لو أنك تشتري شيئاً نقداً ثم تضع الإيصال في جيب سترتك، وكان يردد إن الربّ يحمينا لأننا جئنا إلى إفريقيا لخدمته. وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا ينشدون في الكنيسة «تاتا نزولو» وهي تعني «أبانا الذي في السماوات» أو «أبو طُعم السمك»، هذا يعتمد على الكيفية التي ينشدونها بها، وقد كان هذا تلخيصاً جيّداً للمعضلة التي أشعر بها. ولم أستطع أن أعرف قطّ ما إن كان علينا أن نعتبر الدين وثيقة تأمين على الحياة أم حكماً بالسجن المؤبد. أستطيع أن أفهم ربّاً غاضباً سيعلّقنا قريباً كلّنا بخطّاف، وأستطيع أن أفهم يسوع المسيح، الرقيق، غير المتحيّز، لكنّي لم أستطع أن أتخيّل كيف يمكن أن يعيشا معاً في البيت نفسه. وينتهي بك الأمر بأنه يتعيّن عليك أن تتصرّف بحذر شديد وكأنك تمشي على البيض ولا تريد كسره، ولا تعرف أيّ تاتا نزولو موجود في البيت الآن، تحت ذلك السقف الغامض، الذي

(*) يشير هذا المصطلح إلى التفوّق الملحوظ لعدد صواريخ الاتحاد السوفييتي، مقارنةً بصواريخ الولايات المتحدة خلال فترة الحرب الباردة. يُنسب إلى جون كينيدي اختراع المصطلح في عام 1958 كجزء من الحملة الانتخابية المستمرة، فقد كانت إحدى الركائز الأساسية لخطابه أن إدارة آيزنهاور كانت ضعيفة في الدفاع. [م].

يأوي بناتي؟ لا عجب أنهن لم يكنّ يحببني طوال الوقت - فلم أستطع أن أقف أمام زوجي لأحميهن من نوره المحرق. كاذ من المتوقّع أن ينظرن إليه مباشرة ويصبن بالعمى.

في غضون ذلك، دثّر ناثان نفسه في ثوب خلاص كيلانغا. في يفاعته كان يلعب كرة القدم في فريق المدرسة الثانوية في كيلدير، بالمسيسيبي، بنجاح كبير على ما يبدو، وقد توقّع أن يستمر موسم فوزه إلى الأبد، ولم يكن يحتمل أن يخسر أو أن يتراجع. أظن أنه كان ينحو كثيراً إلى العناد، ويزدري الفشل، قبل فترة طويلة من التحاقه بالجيش وذهابه إلى الحرب، والظروف الغريبة التي اكتنفت خروجه منها. بعد أن طارده ما حدث في غابة فيليبينية وأشباح ألف رجل لم يفلتوا منها، تحوّل ازدراؤه الراسخ للجبن إلى هوس. ويصعب تخيّل رجل بشريّ لا يريد أن يغيّر مسار حياته أكثر من ناثان برايس. حتى ذلك الحين لم يبدأ في إدراك إلى أي مدى كان بعيداً عن المسار، بسبب تركيزه على المعمودية. فقد كان زعيم القرية، تاتا ندو، يحذّر سكّان القرية علناً ويأمرهم بالابتعاد عن الكنيسة مدّعياً بأنّ ناثان يريد أن يرسل أطفالهم إلى النهر ويجعلهم طعاماً للتماسيح. حتى ناثان ربما كان يدرك أن هذا كان ظرفاً يدعو إلى التسوية.

لكن التسوية مع تاتا ندو كانت أشبه بصليب ضخم ثقيل. وعندما سمح باستقبالنا، كان يجلس على كرسي في باحة بيته الأمامية، وعندما دخلنا أشاح بنظره عنّا، ثم عدّل قبّعته الطويلة المصنوعة من ألياف نبات السيزال، وخلع إطار نظّارته الكبير الأسود (الذي لم تكن فيه عدسات) وتفحّصه، وبذل كلّ ما بوسعه كي يبدو غير مكترث عندما كان ناثان يكلّمه. وكان يهشّ الذباب بعصاه الرسمية - نوع من ذيل حيوان متصلّب ينتهي بشرّابة بيضاء حريرية. وفي اللقاء الثاني، تراجع ناثان عن عملية التعميد كاملة، واقترح أن يستعيض عنها برشّ الماء فحسب.

تلقينا أخيراً جواباً رسمياً، عن طريق ابن ندو الأكبر الذي قال إنه لا يمانع برشّ الماء للتعميد، لكن القسّ السابق فاولز كان قد أزعج الزعيم بأفكار غريبة بأن عليه اتخاذ زوجة واحدة فقط. تخيّل العار الذي سيلحق بالزعيم الذي لا يستطيع أن يتحمّل إلا تكاليف زوجة واحدة فقط. كان الزعيم يتوقّع أن نتخلّى عن كلّ هذه الحماقات كي يؤيّد كنيستنا.

عندما عاد زوجي الصامد إلى البيت راح يشدّ شعره على انفراد، لأنه من دون مباركة الزعيم لا يستطيع أن يجذب أحداً إلى الكنيسة. احترق ناثان. لا توجد عبارة أفضل من هذه لوصفه.

«متاعب الرجل التقي كثيرة، لكن الله ينجّيه منها كلّها»، قال مخاطباً السماء، ناظراً إلى الربّ في الأعلى طالباً العدل. ضممته إليّ في الليل ورأيت أجزاء من روحه تستحيل رماداً. ثمّ رأيته يولد من جديد، وتحلّ صخرة مكان قلبه. لن يقبل ناثان أي تنازلات أخرى. وقال إن الله يختبره كما اختبر أيوب، كان يقصد من هذا المَثَل بالذات الإشارة إلى أن أيوب لم يرتكب أي خطأ في البداية. شعر ناثان أن من الخطأ أن تلوي إفريقيا إرادته، بأي شكل من الأشكال. أن يعيد تشكيل حديقته ويجعلها في تلال، أن يذعن لتاتا ندو في مسألة التعميد في النهر، أو أن ينصت لتاتا ندو أصلاً، أو حتى إلى صخب ماما تاتابا. ما هذا إلّا اختبار لقوّة ناثان، والله غير راضٍ عن النتيجة. لن يفشل مرة أخرى.

بدأت ملاحظته للبنات تتناقص. لم يعد أباً إلّا بالمعنى المهني للكلمة، مثل علاقة خزّاف مع الطين الذي يجبله. لم يعد يميّز ضحكة كلّ واحدة منهن، ولم يعد يلاحظ وجعهنّ وكربهنّ. ولم يلاحظ كيف أن إدا اختارت منفاها الخاص، وكيف أن راشيل تتوق إلى حفلات السهر في الحياة الطبيعية، وإلى ألبومات الموسيقا التي تفتقدها. وكيف أن ليا المسكينة كانت تتبعه حيثما ذهب مثل نادلة تتقاضى أجراً بخساً وتأمل في أن تحصل على

إكرامية جيّدة. لقد فطر ذلك قلبي. كنت أحاول أن أبعدها عنه بكلّ ذريعة أعرفها، لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً.

وبينما كانت نوايا زوجي تتبلور مثل ملح صخري، وبينما كنت أشغل نفسي بأن أظلّ على قيد الحياة، كانت الكونغو تتنفّس وراء ستارة الغابة، تستعدّ لأن تفيض علينا مثل نهر. لقد جُمعت روحي مع خطاةٍ، وحياتي مع رجال الدماء، وكان كلّ ما أفكّر به هو كيف أستطيع أن أقنع ماما تاتابا بأن تعود، أو ما الذي كان علينا أن نحضره من جورجيا. لقد أعماني النظر إلى الوراء باستمرار: مثل زوجة لوط. لم أكن أرى سوى الغيوم المحتشدة في السماء.

الأشياء التي تعلّمناها

كيلانغا، 30 حزيران 1960

ليا برايس

في البداية، كنا مثل آدم وحواء تقريباً. فقد كان علينا أن نتعلّم أسماء كلّ شيء. نكوكو، مونغو، زولو: نهر، جبل، سماء. يجب استدعاء كلّ شيء من الفراغ باستخدام الكلمة الصحيحة. توجد لجميع مخلوقات الله أسماء، سواء تلك التي نراها في دربنا أم المعروضة للبيع أمام بيتنا: ظبي الشجيرات، النمس، الرتيلاء، الكوبرا، القرد الأحمر والأسود الذي يسمّونه نغوندو، أبو بريص الذي يتسلّق الجدران. سمك البرمون النيلي ونكيندي، والأنقليس الرعّاد المسحوب من النهر. أكالا، نكينتو، آ-آنا: رجل، امرأة، وطفل. وكلّ شيء ينمو: فرانجيباني، جاكاراندا، فاصولياء مانغوانسي، قصب السكر، فاكهة الخبز(*)، طائر الجنة. نجوبا تعني فستق سوداني (قريبة مما نسمّيه في البيت: Goober peas)؛ ومالالا هي البرتقال ذو العصير الأحمر القاني؛ ومانكوندو هو الموز، ونناسي الأناناس، ونناسي مبوتو تعني «أناناس

(*) نوع من الأشجار المزهرة من عائلة التوتيات، وقد اكتسبت الثمرة اسمها من لبّها النشوي الصالح للأكل، إذ وجد فيه بعض الناس طعم الخبز. [م].

الرجل الفقير»: بابايا. كلّ هذه الأشياء بريّة! حديقة بيتنا الخلفية تشبه جنّة عدن. أدوّن كلّ كلمة جديدة في دفتري المدرسي، لأتذكّرها عندما أكبر وأصبح سيّدة أميركية أمتلك حديقة خلفية في بيتي. سأحدّث العالم كلّه عن الدروس التي تعلّمتها في إفريقيا.

لقد تعلّمنا من الكتب التي تركها القسّ فاولز، أدلّة ميدانية عن الثدييات والطيور وقشريات الأجنحة التي هي الفراشات. وتعلّمنا من الأشخاص (في معظم الأحيان من الأطفال) الذين كانوا يتحدّثون معنا ويشيرون بأيديهم في الوقت نفسه. حتّى إن أمّنا فاجأتنا مرة أو مرتين وهي التي نشأت في ديكسي(*) بطريقة أعمق مما نشأنا، فعندما كانت البراعم تتحوّل إلى أزهار على الأشجار، كانت ترفع حاجبيها الأسودين بدهشة فوق عينيها الزرقاوين الواسعتين وتقول: الجهنميّة، الكركديه، شجرة السماء! من كان يخطر بباله أن أمّنا تعرف أسماء هذه الأشجار؟ والفاكهة -المانغا، الجوافة، الأفوكادو- التي كنا لا نراها إلا لماماً من قبل، في مخزن كروجير الكبير في أتلانتا، أما الآن فإن الأشجار تنحني وترسل هذه الجوائز الغريبة إلى أيدينا مباشرة! هذا شيء آخر يجب أن نتذكّره، عندما نكبر ونحكي عن الكونغو: كيف تتدلى ثمار المانغا على سوقٍ طويلة، طويلة كأنها حبال ممدودة. أظن أن الله حزن على الأفارقة لأنه جعل جوز الهند بعيداً عن متناولهم، فجعل المانغا أسهل منالاً.

أمعن النظر في كلّ شيء، وأرمش بعينيَّ، كما لو كانت عيناي آلة تصوير براوني تلتقط صوراً كي أحملها إلى البيت. وأحدّق أيضاً في الناس الذين لهم أسماء يجب أن نتعلّمها. ورويداً رويداً، بدأنا نتعرّف على جيراننا الذين كانت أقربهن إلى بيتنا ماما موانزا، المسكينة العرجاء التي تسير على يديها في الطريق، ثم ماما نغوزا التي تسير ورأسها مرفوع عالياً على نحو غريب

(*) هو الاسم الذي يطلق على الولايات الأميركية الجنوبية. [م].

بسبب تضخّم الغدة الدرقية التي تقبع مثل بيضة إوزّة تحت ذقنها. ثم يأتي تاتا بواندا، صيّاد السمك المسنّ، الذي يخرج في قاربه صباح كلّ يوم مرتدياً أكثر سروال أحمر لمعاناً يمكنك أن تراه في حياتك. عموماً يرتدي الناس هنا الثياب نفسها في كلّ يوم، ولهذا السبب فإننا نتعرّف عليهم بسهولة. (تقول أمي إنهم إذا أرادوا ذات يوم خداعنا، فسيتعيّن عليهم فقط أن يتبادلوا ثيابهم). وفي ساعات الصباح الباردة، يرتدي تاتا بواندا أيضاً سترة خضراء فاتحة اللون يوجد عند فتحتها خط أبيض عريض - يا له من مشهد، بصدره الرجولي المكسو بالعضلات البارزة من ياقة بلوزة نسائية في شكل V! لكنك إذا فكّرت في الأمر، فكيف يمكنه أن يعرف، هو أو أي شخص آخر هنا، أنها بلوزة نسائية؟ حتى أنا كيف أعرف؟ من تصميمها، مع أنه لا يوجد شيء يمكنك أن تصفه بوضوح. لذلك، أتساءل، هل هي حقاً بلوزة نسائية، هنا في الكونغو؟

وهناك شيء آخر يجب أن أعترف به بخصوص تاتا بواندا: إنه رجل آثم. فعلى مرأى الله ومسمعه توجد لديه زوجتان، واحدة شابة والأخرى مسنّة. يأتون كلّهم إلى الكنيسة! يقول أبي يجب أن نصلّي من أجلهم هم الثلاثة، لكن عندما تفكّر بالتفاصيل يصبح من الصعب أن تعرف بالضبط النتيجة التي يجب أن نصلي من أجلها. إذ يجب أن يهجر إحدى الزوجتين، كما أظن، ومن المؤكّد أنه سيترك الزوجة الأكبر سناً، والتي يبدو أنها حزينة بما فيه الكفاية. وقد أنجبت الزوجة الأصغر جميع الأطفال، فلا يمكنك أن تصلّي كي يتخلّى أب عن أطفاله، أليس كذلك؟ كنت أؤمن دائماً بأنه يمكن تصحيح أي خطيئة بسهولة إذا جعلت يسوع المسيح يدخل إلى قلبك، لكن الأمر معقدٌ في هذه الحالة.

يبدو أن ماما بواندا، الزوجة الثانية، ليست مزعوجة من وضعها هذا، وإنما يبدو، في الواقع، أنها تنفجر رضاً. وهي تضفر شعرها وشعر بناتها

الصغيرات في ضفائر قصيرة مدبّبة، حتى يبدو رأس كلٍّ منهن أشبه بوسادة مليئة بالدبابيس (تسميها راشيل «تسريحة شعر مجنونة») وتلّف ماما بواندا باستمرار الباني المزدان بنجوم وردية ضخمة لامعة فوق ردفها العريض. وتنانير النساء الطويلة هنا مزركشة بألوان مبهجة وبأغرب الأشياء: فلا تعرف متى يمكن أن ترى المظلّات الصفراء العديدة، أو القطّة ذات الألوان العديدة وكلب القماش القطني، أو صورة البابا الكاثوليكي مقلوبة رأساً على عقب، تمشي الهوينى عبر فناء منزلنا.

في أواخر الخريف، كشفت الشجيرات الحليبية الخضراء التي تحيط بكلّ بيت ودرب عن نفسها فجأةً، واتضح أنها أزهار البوينسيتيا(*)، أزهرت رؤوسها وقرع عيد الميلاد أجراسه في تلك الحرارة اللزجة، وكان ذلك مفاجئاً كما لو أن ترنيمة «اسمعي يا ملائكة هيرالد» ستنبعث من المذياع في شهر تموز. يا لها من جنة سماوية في الكونغو! ويتملّكني شعور أحياناً بأنني أريد أن أعيش هنا حتى نهاية حياتي، حيث يمكنني إلى الأبد أن أتسلّق الأشجار مثل الصبية الآخرين لأقطف الجوافة وآكلها حتى تسيل عصارتها ويتبقّع قميصي. أنا في الخامسة عشرة من عمري الآن، وقد فاجأني عيد ميلادنا في كانون الأول على حين غرة: أنا وإدا اللتين تأخّرنا قليلاً في الأشياء السيئة، مثل أن تنهض صدورنا وتأتينا العادة الشهرية. عندما بدأت زميلاتي يأتين إلى المدرسة في جورجيا وهنّ يرتدين حمّالات صدر خفيفة، الواحدة تلو الأخرى، كما لو كان ذلك مرضاً معدياً، حلقت شعري قصيراً جداً وأقسمت أن أبقى مثل الصبيان. وبينما كنّا، أنا وإدا، ندرس الجبر الذي يُدرَّس في الجامعة ونقرأ أسمك الكتب التي تقع أيدينا عليها، كان التلاميذ

(*) تدعى أيضاً «بنت القنصل»، وهي شجيرة دائمة الخضرة، أفرعها كثيرة وساقها قصيرة. تظهر أزهارها الحمراء في الشتاء. يُطلق عليها في بعض الأماكن اسم «وردة عيد الميلاد». [م].

الآخرون يجتازون بصعوبة كل مهمّة في وقتها، أظن أن ذلك كان يعتمد على العمر الذي نريد أن نكون فيه. لكن ليس أكثر. أنا الآن في الخامسة عشرة، ويجب أن أفكّر كيف سأصبح سيّدة مسيحية ناضجة.

لقول الحقيقة، فإن هذا المكان ليس الجنة بكل معنى الكلمة أيضاً. فلعلّنا أكلنا الثمار التي لم يكن علينا أن نأكلها في الحديقة، لأن أسرتنا تعرف أشياء كثيرة دائماً، لكنها، في الوقت نفسه، لا تعرف ما يكفي. فعندما يحدث شيء هام يتركنا في حيرة من أمرنا مذهولين، لا أحد غيرنا يبدو متفاجئاً على الأقل، لا من مجيء موسم الأمطار وذهابه، عندما لا يتوقّع ذلك أحد، ولا من الشجيرات الخضراء الناصعة التي تتحوّل فجأة إلى البوينسيتيا، ولا من الفراشات ذات الأجنحة الشفّافة التي تشبه النظّارات الصغيرة ذات شكل عين القط؛ ولا من أطول أفعى أو أقصرها أو أكثرها اخضراراً يمكن أن تصادفها في الطريق. حتى الأطفال الصغار هنا يبدو أنهم يعرفون أكثر منّا، بالسهولة نفسها التي يتكلّمون فيها لغتهم.

يجب أن أعترف بأن هذا الأمر أحبطني في البداية: أن أسمع الأطفال الصغار يتكلّمون بلغة الكيكونغو. كيف يستطيع أطفال أصغر من روث ماي التحدّث بهذه اللغة الأخرى بطلاقة؟ ذلك يشبه عندما تعرف إذا شيئاً صعباً تماماً مثل اللغة الفرنسية أو الجذر التربيعي للثابت الرياضياتي، بينما أظن أن شيئاً مسلّماً به أن أعرف كلّ ما تعرفه. في بداية وصولنا، كان الأطفال يتجمّعون خارج بيتنا صباح كلّ يوم، وقد أربكنا ذلك. كنّا نظن أنه يوجد شيء غريب، مثل أن يكون هناك قرد بابون فوق سطح بيتنا. ثمّ أدركنا أنّ الشيء الغريب هو نحن أنفسنا. فقد كانوا ينجذبون إلينا للسبب نفسه الذي ينجذب فيه الناس لمشاهدة بيت يحترق أو سيارة محطّمة. لم يكن علينا أن نفعل أي شيء في هذا العالم لنكون جذّابين سوى أن نتحرّك في بيتنا، نتكلّم، نرتدي بناطيلنا، نغلي ماءنا...

كانت حياتنا أقل جاذبية بكثير، من وجهة نظري. فقد منحتنا أمّنا عطلة من دراسة كتبنا المدرسية لبضعة أسابيع، في وسط كل هذا التشويش الذي شاب استقرارنا. لكنها في أيلول صفّقت بيديها وأعلنت: «الكونغو أم غيرها، فقد حان وقت العودة إلى الدراسة يا بنات!». كانت عازمة على أن ندرس ونحصل على شهادات، لا الموهوبات بيننا فحسب. كنّا مقيّدات كلّنا معاً في خطّتها. ففي صباح كلّ يوم بعد انتهاء الفطور والصلاة، كانت تُجلسنا إلى الطاولة وتدفع بسبابتها وراء رؤوسنا ونحن ننحني فوق كتبنا المدرسية (وروث ماي فوق دفتر تلوينها)، تحضّرنا للمطْهَر(*)، كما كان يُخيَّل إليّ. ومع ذلك فإن كلّ ما كان بوسعي أن أركّز عليه هو صوت الأطفال في الخارج، المقاطع البرّاقة الغريبة لكلماتهم. بدا ذلك أشبه بكلامٍ لا معنى له، لكنّه يحمل الكثير من الغايات السرّية. يمكن لعبارة غامضة واحدة يقولها فتى أكبر سنّاً أن تجعل المجموعة كلها تنفجر في الصراخ والضحك.

بعد الغداء كانت أمي تمنحنا بضع ساعات ثمينة نكون فيها أحراراً. وكان الأطفال يصرخون ويهرعون إلى بيوتهم مرعوبين عندما نخرج من باب البيت، كما لو كنّا سامّين. ثم يخرجون ثانيةً بعد دقيقة أو دقيقتين، عراة، مذهولين بسلوكاتنا العادية. وسرعان ما يتجمّعون ثانية في شكل نصف دائرة عند حافة الفناء، يمضغون قصب السكر الوردي، ويحدّقون فينا. ثم يخطو أكثر واحد فيهم شجاعة بضع خطوات إلى الأمام، ويمدّ يده ويصيح: «كادو!» (هدية)، قبل أن يعود ويهرب وسط ضحكات مذعورة. كانت تلك أعلى درجة من الصحبة حصلنا عليها: طلبُ هدية بشكل صريح. وماذا يمكننا أن نعطيهم؟ لم يخطر ببالنا أنهم يريدون أشياء دنيويّة في تخطيطنا للمستقبل. فلم نجلب أشياء إلّا لنا نحن. لذلك، كنت أحاول تجاهل كلّ

(*) في عقيدة بعض الطوائف المسيحية فإن المطهر هو المكان أو الحالة التي تكون بها الأرواح الخاطئة للتكفير عن خطاياها قبل الذهاب إلى الجنة. [م].

ذلك وأنا أجلس في الأرجوحة الشبكية وأنفي ملتصق بالكتاب الذي قرأته ثلاث مرات حتى الآن. وكنت أتظاهر بأنني لا أكترث وهم يراقبونني كأنني واحدة من تلك المخلوقات الموجودة في حديقة حيوانات، أو ربما أكون غنيمة محتملة. وكانوا يشيرون إليّ ويتكلّمون في ما بينهم، ويتباهون عليّ بأنّ عالمهم كلّه استبعدني.

قالت أمّي: «لكن، يا سكّرتي، قد ينطبق ذلك على الطرفين. فأنت تتكلّمين الإنكليزية وهم لا يعرفونها».

كنت أعرف أنها على حقّ، لكن لم يكن في ذلك عزاء لي. فأنا لا أعتبر التحدّث بالإنكليزية شيئاً هاماً، لأنها ليست مهارة مثل أن تكون قادراً على تسمية جميع العواصم والمنتجات الرئيسية في أميركا الجنوبية، أو قراءة الإنجيل أو المشي فوق السياج. فلا أذكر أنني بذلت جهداً كي أتعلّم لغتي الأمّ. إلا أني بذلت جهداً كبيراً لفترة من الوقت لأتعلّم اللغة الفرنسية، لكن عندما استطاعت إدا التقدّم بذلك وتجاوزي، لم أعد أبذل أي مجهود. هي تعرف الفرنسية بالنيابة عنا كلتينا. مع أنني يجب أن أقول إنها موهبة غريبة بالنسبة لشخص يرفض أن يتكلّم من حيث المبدأ. وعندما كنا في بلدنا، كانت فكرة تعلّم الفرنسية تبدو مثل لعبة الكلمات التي تُلعب داخل البيت، على أي حال. وبعد أن جئنا إلى هنا، ظلَّ الأمر كذلك. هؤلاء الأطفال ليس لهم علاقة بـ *je suis, vous êtes*. إنهم يتحدّثون لغة تهدر وتتدفّق من أفواههم مثل ماء يجري في أنبوب. ومنذ اليوم الأول، اشتهيتُ ذلك بمرارة. أردت أن أنهض من أرجوحتي وأصيح شيئاً يشتّتهم مثل سرب بطّاتٍ خائفات. حاولت أن أخترع أو أتخيّل عبارة نزقة، ولاذعة. «بو كابو كا» تخيّلت نفسي أصيح، أو «نحبّ آيك We like Ike»، أو عبارة من فيلم عن سفينة فضائية كنت قد شاهدته ذات يوم: «كلاتو بارادا نيكتو».

كنت أريدهم أن يلعبوا معي.

أظن أن كل فرد في عائلتي أراد الشيء نفسه، بطريقة أو بأخرى. أن نلعب، أن نتكلّم ويفهم أحدنا الآخر، لننشر الكلمة، ونمدّ يداً عبر المساحة الفارغة من حولنا. وكانت روث ماي أول من شقّ طريقه لذلك بيننا. ويجب ألّا يكون هذا مفاجئاً، لأن روث ماي تبدو أنها تستطيع القفز فوق العمارات العالية بقوة إرادتها. لكن من يخطر له أن فتاة لا تتجاوز الخامسة من عمرها يمكنها أن تتواصل مع الكونغوليين؟ حتى إنه لم يكن يُسمح لها بأن تخرج من باحة بيتنا! فقد كانت مهمتي أن أراقبها دائماً، بعين واحدة، كي لا تقع من فوق شجرة وتشجّ رأسها، لأن هذه هي الأشياء التي يمكن أن تفعلها روث ماي، لتجذب الانتباه فحسب. كانت مقيّدة وعازمة على الهرب، وكنت أضطر أحياناً إلى إخافتها بأن كارثة قد تحدث، وذلك كي أكبح نشاطها فحسب. أوه، قلت لها أشياء فظيعة: إن أفعى يمكن أن تعضّها، أو إن واحداً من الذين يمرّون أمام بيتنا ويلوّح بساطوره قد يقطّع أحشاءها. لكني كنت أشعر بالذنب دائماً عندما أفعل ذلك، وأقرأ مزمور التوبة: «ارحمني يا الله حسب رحمتك، وحسب كثرة رأفتك امحِ معاصيَّ». لكن على الرغم من رحمته كلها، يجب أن يفهم أنك بحاجة أحياناً لتخيف شخصاً ما قليلاً من أجل مصلحته. ومع روث ماي، إما أن تبذل قصارى جهدك، وإما أنك لن تحصل على شيء.

وفور شعورها بالرعب والتزامها كنت أتسلل، وأذهب لأتعقّب الأقزام الذين يفترض أنهم يقيمون في مكان قريب منا في الغابة، أو القرود (التي كان اكتشافها أسهل)، أو أقطف بعض الثمار من أجل الببغاء ميثوسالا الذي ما زال يستجدي الطعام منا، وأصطاد جنادب من أجل ليون، الحرباء التي نحتفظ بها في صندوق خشبي. وتسمح لنا أمّنا بأن نحتفظ بها شريطة ألّا نُدخلها إلى البيت. وهذا أمر يدعو للضحك لأنني وجدتها أصلاً داخل البيت. يدور محجرا عينيها الجاحظتين في جميع الاتجاهات، وكنّا نحبّ أن

نجعل إحدى عينيها تنظر إلى الأعلى والأخرى إلى الأسفل، وهي تصطاد الجنادب التي نرميها لها في صندوقها فتمدّ لسانها لالتقاطها مثل مقلاع.

أستطيع أيضاً أن أناقش أبي ليسمح لي بمرافقته. هذه الإمكانية موجودة دائماً. إذ يقوم أبي بجولات في القرية طوال الأسبوع، يحاول أن يفتح أحاديث مع الرجال المسنّين، أو يجازف ويذهب إلى القرى المجاورة ليستطلع أحوالها. توجد قرى صغيرة على مسافة مسيرة يوم، لكن للأسف فإنها تقع كلّها ضمن مسؤولية زعيم قريتنا الكافر، تاتا ندو.

أبي لا يسمح لي بالذهاب إلى هذا الحد، لكنني أتوسل إليه، على أي حال. أحاول أن أتهرّب من أعمال المنزل الشاقة، وأرى هذا النوع من الأعمال يناسب راشيل أكثر من الجميع، إذا كانت على استعداد لتكون مفيدة يوماً ما. وجهة نظري بخصوص المنزل: من الأفضل دائماً أن تكون خارجه، لذلك فإني أخرج وأتسكّع عند حدود القرية، منتظرةً عودة أبي. هناك حيث يشكّل الدرب الترابي الأحمر قطعاً أحمر عميقاً بين جدران الأعشاب الصفراء العالية، هناك لا تعرف أبداً ما الذي يمكن أن يكون آتياً إليك على أقدام مكسوّة بالتراب. عادةً، نسوة يحملن العالم فوق رؤوسهن: دمجانة زجاجية ضخمة مليئة بنبيذ النخيل، يجثم فوقها وعاء كالاباش مثل قبّعة مقلوبة، أو حزمة حطب مربوطة بأعشاب الفيل، يعلوها وعاء كبير مطلي بالمينا مليء بالخضراوات. إن الإحساس الكونغولي بالتوازن مذهل!

لدى معظم الفتيات اللاتي في عمري، أو حتى الأصغر مني، أطفال رضّع. يبدو أنهن صغيرات جداً على الزواج، حتى تنظر إلى عيونهن، عندئذٍ ستدرك. عيونهن تبدو سعيدة وحزينة في الوقت نفسه، غير متحمّسة لأيّ شيء، تشيح عنك بسهولة كما لو أنها رأت بالفعل معظم ما هو موجود. عيون نساء متزوّجات. أما الفتيات الأصغر سناً -إذا كنّ صغيرات جداً على الزواج وكبيرات جداً على أن يُحملن على الظهر (لا يوجد هامش

كبير بينهما)- فهنّ يمشين وحقائبهن المحوكة تتأرجح على أكتافهن يميناً وشمالاً، ويرمقنك بعيون عابسة، كأنهن يردن أن يقلن لك ابتعدي عن طريقي، ألا ترين أنني مشغولة! وقد يكنّ مجرّد فتيات صغيرات يمشين وراء أمهاتهن، لكن صدّقوني فإن كلّ شيء هو عمل بالنسبة لهن. وعادة ما تكون الفتيات صلعاوات، مثل الصبية (تقول أمّي: لأنهن لا يحصلن على البروتين). لكنك تستطيع أن تميّز الفتيات من فساتينهن المكشكشة المبقّعة المهترئة من بعيد. دُهشت طوال أشهر لأنهن يبدون صبيةً صغاراً في فساتين مكشكشة. والفتاة أو المرأة هنا لا ترتدي بنطالاً أبداً. نحن فحسب ذوات الملابس الغريبة في هذا المكان. يبدو أنهم يظنون أننا صبية، ما عدا راشيل، ربما، ولم يكن باستطاعتهم تمييز إحدانا عن الأخرى. وكانوا يطلقون علينا كلّنا «بيليزي»، أي بلجيكي. أقصد أنهم ينادوننا بذلك في وجوهنا. وهم يحيّوننا بعبارة «مبوته، بيليزي».

تبتسم النسوة، لكنهن يغطّين أفواههن بعد ذلك مباشرة، محرجات، وما إن يرانا الأطفال الرضّع حتى ينفجروا في البكاء. هذا يكفي لأن يجعلكِ تتعقّدين. لكنّي لا أبالي بكلّ ذلك لأنني أظلّ دائماً مختبئة داخل بيتنا أو أمكث في باحة المنزل. أعرف أن الفضول قتل القطّة، لكنّي أحاول أن أحافظ على سلامتي.

تنتصب في وسط القرية تماماً شجرة كابوك ضخمة، يجتمع سكّان القرية حولها ويقيمون سوقهم كلّ خامس يوم. أوه، إنه شيء جدير بالمشاهدة. ففي هذا اليوم تأتي جميع النسوة ليبعن منتجاتهن ويتجاذبن أطراف الحديث. قد يكون عندهن موز أخضر، وموز وردي، وتلال من الرزّ وأشياء أخرى لونها أبيض تُكدّس فوق أوراق، أو بصل أو جزر أو حتى فستق سوداني إذا كنا محظوظين، أو أوعيّة فيها بندورة حمراء صغيرة، أشياء ممسوخة لكنها ذات قيمة كبيرة. وقد ترى قوارير مياه غازية برتقالية زاهية جلبها أحدهم

سيراً على الأقدام من ليوبولدڤيل، كما أظن، وسيمشي مسافة أطول قبل أن تُباع كلها. وترى سيّدة تبيع مكعّبات من الصابون بلون الكاراميل تبدو شهية للأكل (انتشلت روث ماي واحدة منها ذات مرة وقضمتها، ثمّ بكت بحرقة، لا لأن طعمها سيّئ، كما أظن، وإنما لأنها شعرت بالإحباط. الحلويات وما شابهها نادرة للغاية هنا).

وفي بعض الأحيان، ترى الطبيب المشعوذ يعرض حبوب أسبيرين وحبوباً وردية وأخرى صفراء، وأعضاء حيوان مرتّبة في صفوف أنيقة فوق قماش مخملي أسود، يستمع إلى أعراض مرضك، ثمّ يخبرك ما إن كان عليك أن تشتري حبّة أو تعويذة من أجل الحظّ السعيد، أو تعود إلى البيت فحسب وتنسى الأمر. هذا هو يوم السوق. حتى الآن، اشترينا أشياء من حواف السوق فحسب، لأننا لا نملك الشجاعة للتعمّق إلى الداخل والتسوّق هناك. لكنّ رؤية تلك الصفوف وتلك النسوة ذوات السيقان الطويلة في مآزرهن الملوّنة وهنّ ينحنين بكامل أجسادهن ليدققن في الأشياء المعروضة على الأرض، مشهدٌ رائع. وترفع النسوة شفاههن نحو أنوفهن عندما يمددن أيديهن ليأخذن النقود منك. وعندما ترى كلّ هذه الجلبة وعمليات البيع والشراء، ثمّ تنظر وراءهن إلى التلال الخضراء الممتدة من بعيد، والظباء التي ترعى تحت الأشجار ذوات القمم المسطّحة، فإن المشهد يبدو متنافراً، كأنهما فيلمان غريبان يُعرضان في الوقت ذاته.

وفي الأيام الأخرى التي لا يقام فيها سوق، يتجمّع الناس في الساحة الرئيسية من أجل شيء أو آخر: حلاقة، تصليح حذاء، أو مجرّد النميمة في الظلّ. ويوجد خيّاط يضع ماكينة خياطة لها دوّاسة تحت الشجرة ويأخذ طلبات الزبائن. بهذه البساطة. أما الحلاقة فهي موضوع آخر، معقّد إلى حد يثير الدهشة. نظراً إلى أنه لا يوجد لدى النسوة شعر حقيقي يمكن التكلّم عنه، فإنهن يقسمنه إلى صفوف في أجزاء طويلة بأشكال متشابكة، فتبدو

رؤوسهن مثل كرات من الصوف الداكن فيها مئة قطعة، تُعقد كلها معاً بشكل خيالي، وإذا تبقّى في رأسهن بوصة أو بوصتين، فإن الحلّاقة تلفّ خصلات من الشعر في خيط أسود حتى ينتصب واقفاً في شكل مسامير صغيرة، مثل شعر ماما بواندا، الزوجة الثانية. وتجذب أعمال تصفيف الشعر دائماً حشداً من الناس الذين يبدو أن شعارهم: إذا لم تتمكّن من جعل شعرك ينمو، فراقب شعر شخصٍ آخر. فيقف الرجال والنسوة المسنّون يتفرّجون وهم يحرّكون لثّاتهم، مرتدين ثياباً حال لونها بسبب غسلها وارتدائها لسنوات طويلة، فصار لونها بلون بشرتهم. ومن مسافة بعيدة لا تستطيع أن تعرف ما إن كانوا يرتدون شيئاً، وإنما ترى طيف شعر أبيض ثلجي كأن جاك فروست(*) قد لمس رؤوسهم برفق. ويبدو أنهم قديمون بقدم العالم. وأيّ شيء ملوّن يحملونه بأيديهم، مثل دلو بلاستيكي، فإنه يبرز على نحوٍ غريب. إن مظهرهم لا يتوافق تماماً مع العالم الحديث.

ماما لو هي مصفّفة الشعر الرئيسية هنا، وهي تبيع أيضاً زيت النخيل الذي يستخلصه صبية صغار من جوز النخيل الزيتي الأحمر الصغير في معصرة صغيرة في بيتها، وتبيع القليل منه للقرويّين الآخرين كلّ يوم لطهي الخضار والأشياء الأخرى. وماما لو غير متزوّجة، ومع ذلك فهي لا تتوقّف عن العمل طوال النهار. وبالطريقة التي يفعلونها هنا، يبدو أن أحدهم سيختطفها باعتبارها إضافة ثمينة إلى أسرته، مع أنها ليست شيئاً جميلاً يمكن النظر إليه -أؤكّد لكم ذلك- بعينيها الصغيرتين الحزينتين وفمها المتغضّن الذي لا تفتحه أبداً من الصباح حتى المساء، وهي تصفّف شعر الآخرين. أما شعرها فهو لغز من الألغاز، لأنها تلفّ رأسها دائماً بقطعة قماش جميلة مطبوع عليها ريش طاووس. وهذا الريش النابض بالحياة لا يتناسب مع شخصيتها. ومثل تاتا بواندا بكنزته النسائية، يبدو أنها لا تدرك أنّ ثوبها يثير التهكّم.

(*) شخصية خيالية، هي تجسيدٌ للصقيع والثلج والجليد والشتاء. [م].

اكتشفتُ أنني إذا بقيت جالسة على جذع شجرة عند طرف ساحة القرية، فإنهم سينسونني عاجلاً أم آجلاً. أحبّ أن أجلس هناك وأراقب المرأة ذات الحقيبة البيضاء الضخمة كالتي يمكن أن تأخذها زوجة الرئيس مامي آيزنهاور إلى السوق. تضع المرأة حقيبتها بفخر على رأسها وتسير بها في أرجاء القرية.

وأحبّ أيضاً أن أراقب الصبية وهم يتسلّقون أشجار النخيل ليقطفوا جوز الزيت. ويبدو الصبية جميلين وهم في أعلى الشجرة ونور الشمس البني المائل إلى الأحمر يسقط فوق جذوع أشجار النخيل وعلى أطرافهم النحيفة. يبدو أن نعمة الربّ لمستهم، وعلى أي حال فإنهم لا يسقطون أبداً. وتلوح أوراق النخيل حول رؤوسهم مثل ريش نعامة.

رأيت مرّتين الرجل الذي يبيع العسل وهو يخرج من الغابة حاملاً خلية النحل وهي تقطر عسلاً -أحياناً فيها نحل وكل شيء- بيديه العاريتين، وتبرز من فمه لفّة من أوراق التدخين كأنها سيجار عملاق، ويغنّي للنحل برقّة وهو يجتاز القرية، ويجري الأطفال وراءه، مسحورين بالعسل، متلهّفين للحلوى التي تجعلهم يترنّحون ويدندنون كالنحل.

وفي الأيام النادرة، عندما يكون إيبين أكسلروت في كوخه عند نهاية حقل الطائرة، كنت أذهب إلى هناك وأتجسّس عليه أيضاً. كانت إدا ترافقني أحياناً، مع أنها تفضّل عادة أن تبقى وحدها على أن تكون مع أي شخص آخر. لكن السيّد أكسلروت يقدّم لنا إغراءً خطيراً، إذ إنه مثل فضولٍ بغيض. فكنا نختبئ بين أشجار الموز حول مرحاضه، مع أن الدم يتجمّد في عروقنا عندما نتذكّر أن هذا العشب مسمّد من الفضلات الليلية لرجل يثير الاشمئزاز. وتنمو أوراق شجرة الموز الكبيرة أمام نافذة كوخه الخلفية الوسخة التي تترك لنا فجوات ضيّقة ممتازة كي نتجسّس من خلالها. إن مراقبة السيّد أكسلروت نفسه مملّة. فهو -في يومٍ عادي- ينام حتى الظهر،

ثمّ يعود ويأخذ قيلولة. ويمكنك أن تعرف أنه رجل لم يخلّصه المسيح، لكن الفوضى في كوخه تسحرني: أسلحة، أدوات، ثياب عسكرية، حتى جهاز لاسلكي من نوعٍ ما، يضعه في صندوق عسكري. نستطيع أن نسمع صوت خشخشة خفيفةً تنبعث من الصندوق تتحدّث بأصوات بعيدة مخيفة بالفرنسية والإنكليزية. كان أبي قد أخبرنا أنه لا يوجد جهاز لاسلكي هنا على مدى مئة ميل (كان والداي يريدان أن يحصلا على واحد من أجل سلامتنا، لكن لا رابطة البعثات التبشيرية ولا الله وافقا على تزويدنا به حتى الآن). وهما لا يعرفان أنه يوجد لدى السيّد أكسلروت جهاز لاسلكي، وبما أنني عرفت ذلك من تجسّسي عليه، فلا يمكنني إخبارهما عنه.

كان والداي يتجنّبانه. وكانت أمي متأكّدة من أن أحداً منّا لا يريد الاقتراب من بيته، لذلك فإنه لم يخطر لها منعنا من فعل ذلك. هذا من حسن حظي، فإذا لم يقل أحد إن التجسّس على السيّد أكسلروت خطيئة، فعملياً، لا يمكن لله أن يعتبرني خاطئة. فقد تجسس الأخَوان هاردي(*) من أجل الخير، وشعرت دائماً أن تجسسي كان من المنطلق نفسه.

***

كان ذلك في منتصف شهر أيلول عندما أخذت روث ماي خطوةً مهمة. فعندما عدت من إحدى جولاتي التجسّسية بعد ظهر أحد الأيام، رأيتها تلعب لعبة «ماما هل يمكنني أن؟» مع نصف أطفال القرية. أصابني الدهول. فقد كانت أختي الصغيرة تقف في منتصف باحة بيتنا، وقد امتد قوسٌ أسود لامع من الأطفال من هنا إلى هناك، وهم يمضغون أعواد قصب السكر بصمت، لا يجرؤ أحد منهم على أن يرمش بجفنيه حتى، وجوههم مركّزة على روث ماي كما تركّز العدسة لتكثّف ضوء الشمس. توقّعت أن يتصاعد منها اللهب قريباً.

(*) بطلا مسلسلٍ للأطفال والمراهقين، يهويان حلّ القضايا الغامضة. [م].

«هيه، أنت» -أشارت روث ماي ورفعت أربع أصابع- «أربع خطوات مقصّ».

فغر الطفل الذي اختارته فمه وراح يغنّي أغنية من أربع نغمات صاعدة: «ما - دا - ميه - يي ؟».

«نعم، يمكنك»، أجابت روث ماي بلطف. ثنى الصبي الصغير ساقيه عند ركبتيه، وانحنى إلى الخلف، وتقدّم خطوتين إلى الأمام ثم خطوتين أخريين، مثل سرطان بحري يستطيع العدّ.

راقبتُهم لفترة طويلة، مندهشة من رؤية ما أنجزته روث ماي من وراء ظهري. يستطيع كلّ طفل من هؤلاء الأطفال أن يخطو خطوات كبيرة، خطوات صغيرة، خطوات مقصّ، ويؤدّي حركات سخيفة أخرى اخترعتها روث ماي التي سمحت لي مكرهة أن أشاركهم في اللعب، وشاركتهم على مضض. ولعبنا مرات عدة بعد الظهر تحت الغيوم المتجمّعة -وانضمّت إلينا راشيل التي تعتبر نفسها عادة فوق هذه الألعاب- لعبة «ماما هل يمكنني أن؟»، وحاولت أن أتخيّل نفسي وأنا أقوم بدور تبشيري، أجمع الأطفال الصغار حولي، مع أنني كنت محرجة من لعب هذه اللعبة الطفولية مع أطفال يكاد طولهم لا يصل إلى خصري. إلا أننا كنّا كلّنا قد مللنا من أنفسنا وواحدتنا من الأخرى، فكان اللعب مع آخرين في ذلك الوقت شيئاً لا يقاوَم.

لكننا سرعان ما فقدنا الاهتمام باللعب، لأنه لم تكن هناك أي إثارة في هذه اللعبة: فقد كان الأطفال الكونغوليون ينتصرون علينا دائماً. ولكي نؤدّي أطول خطوة مقصّ، كنا ننسى، أنا وأخواتي، أحياناً أن نسأل (أو أن تحرّك إدا شفتيها): «ماما هل يمكنني أن؟»، أما الأطفال الآخرون فكانوا يتذكّرون دائماً، كانت صيحة «ما - دا - ميه - يي؟» بالنسبة لهم خطوة مكررة في سلسلة خطوات يحفظونها عن ظهر قلب، لا مجرّد جملة مهذبة، يمكن أن يستخدمها المرء أو يتخطاها، مثلما كانت بالنسبة لنا: «نعم يا سيّدتي»،

و«شكراً». فهمُ الأطفال الكونغوليين للّعبة لم يأخذ في الاعتبار أي لباقة أو وقاحة، وإذا فكّرت بالأمر فإن هذا يشبه ما كان يفعله الببغاء ميثوسالا عندما ينهال علينا بالسباب واللعنة.

كانت رؤية أولئك الذين يعرفون قواعد اللعبة لكنهم لا يفهمون العبرة منها يفوزون، خذلاناً غريباً لنا.

لعبة «ماما هل يمكنني أن؟» كسرت الجليد. لكن عندما أدرك الأطفال طريقة روث ماي التسلّطية انسحبوا، ولم يبقَ إلّا صبيٌّ واحد اسمه باسكال، أو شيءٌ قريب من ذلك، وأُعجبنا بلغة الإشارات المحمومة التي يكلّمنا بها. باسكال كان «نكوندي» خاصتي: أي أول صديق حقيقي لي في الكونغو. لم يكن حجمه يزيد على ثلثي حجمي، لكنه كان أقوى مني بكثير، ومن حسن حظّنا أنه كان يرتدي بنطالاً قصيراً باللون الخاكي، وقد أتاحت لنا فتحتان مهترئتان عند مؤخرته رؤية مشهد كافٍ لردفيه، لكننا لم نكترث بذلك. فقلّما كنت أقف وراءه مباشرة إلّا عندما نتسلّق الأشجار، وكان ذلك أقلّ إحراجاً بكثير بالنسبة لي من العري التام. أظنّ أني لن أتمكّن من أن أصادق صبياً عارياً تماماً.

«بيتو نكي توتاسالا؟» كان يسألني على سبيل التحية. «ماذا نفعل؟» كان هذا سؤالاً جيّداً. وكان باسكال يعلّمني أسماء كلّ ما نراه والأشياء التي لم يكن يخطر لي أن أبحث عنها. بانغالا، مثلاً، شجرة بويسنوود (شجرة الخشب السام) التي كادت تقتلنا، وقد عرفتها أخيراً وتعلّمت كيف أتجنّب أوراقها اللامعة الملساء. وحكى لي عن نغوندي، أنواع الطقس: موالالا، المطر الذي يكون بعيداً ولا يأتي أبداً. وعندما يهدر الرعد ويصيب العشب فهو «نوني ندولو»، والنوع الأخفّ «نكازي ندولو». وكان يسميهما «المطر الفتى» و«المطر الفتاة»، ويشير مباشرة إلى عضوه وعضوي الجنسيين من دون أن يخطر له أن ثمة خطأً في ذلك. وهناك كلمات أخرى للفتى والفتاة،

مثل يمين ويسار: يد الرجل ويد المرأة. هذه المحادثات جاءت بعد عدّة أسابيع من صداقتنا، بعد أن عرف باسكال أنني لست -في الحقيقة- فتى، وإنما شيء لم يسمع عنه من قبل: فتاة ترتدي بنطالاً. وقد فوجئ كثيراً عندما عرف ذلك، ولا أحب الخوض في كيفية معرفته بهذا. كان لذلك علاقة بالتبوّل بين الأحراش، لكنه سرعان ما غفر لي، وهذا شيء جيّد، لأنه لا يوجد أصدقاء من عمري ومن جنسي هنا، إذ إن جميع الفتيات في كيلانغا مشغولات بجلب الحطب أو الماء، أو برعاية الأطفال الصغار. وتساءلت: لماذا يتمتّع باسكال بالحرّية ليلعب ويتسكّع بينما لا تتمتّع أخواته بتلك الحرية؟ وفي حين يركض الصبية الصغار ويلعبون ويتظاهرون بأن أحدهم قتل الآخر فيسقطون قتلى على الطريق، فإنّ الفتيات كرّسن أنفسهن لإدارة كل الشؤون؟!

كان باسكال رفيقاً لطيفاً. فعندما كنا نجلس القرفصاء متقابلين، كنت أتفحّص عينيه الواسعتين وأنا أحاول أن أعلّمه بعض الكلمات الإنكليزية: شجرة نخيل، بيت، يركض، يمشي، سحلية، أفعى. كان باسكال يردّد هذه الكلمات بصورة صحيحة، لكنّه لم يكن يولي أي اهتمام لتذكّرها. وكان يركّز فقط على الأشياء التي لم يرها قطّ من قبل، مثل ساعة راشيل «تيمكس» التي يجري فيها عقرب الثواني بسرعة، وأراد كذلك أن يعرف اسم شعر راشيل. hair هن، هير، هن، هر، كان يكرّر مرات ومرات، كما لو كان اسم طعام يريد أن يكون أكيداً من أنه لن يخطئ بلفظه. وخطر لي لاحقاً، أنه كان عليّ أن أقول له: «أشقر».

عندما أصبحنا صديقين، استعار باسكال منجلاً قطع لي به أعواد قصب السكر لأمضغها. بضربات قوية، مخيفة، كان يقطع أعواد قصب السكر بطول مصاصة قبل أن يعيد المنجل ويضعه بجانب أرجوحة أبيه. لا بدّ أن لعادة مضغ قصب السكر في كيلانغا علاقة بجذوع الأسنان السوداء التي يكشف

عنها الجميع عندما يبتسمون لنا، ولم تُضع أمّنا الفرصة لتشرح لنا عن هذه العلاقة، أما أسنان باسكال فكانت بيضاء قوية، لذلك قرّرت المجازفة.

دعوت باسكال إلى بيت مطبخنا عندما لم تكن أمي هناك. تسلّلنا إليه في العتمة. كانت رائحة الموز تعبق فيه، ورحنا ننظر إلى الحائط الذي وضعت عليه أمي لوحاً خشبياً ألصقت عليه بعض الصور التي تقصّها من المجلّات. أظن أنهم رفاقها، ربّات البيوت والأطفال والرجال الوسيمون من إعلانات السجائر التي سيشجبها أبي إذا قاده مسارُ الربّ إلى المطبخ ذات يوم، وهو أمر غير محتمل. حتى إنه توجد بينها صورة الرئيس آيزنهاور الذي يلمع رأسه الشاحب المنتفخ في الضوء الخافت كأنه مصباح. بديلنا عن الكهرباء!

لكن باسكال كان يريد دائماً أن يُدخل إصبعه في أكياس الطحين، ويأخذ أحياناً حفنات صغيرة من الحليب المجفف كارنيشن. أجد هذا الحليب مقرفاً، لكن باسكال كان يأكله بنهم، كما لو كان قطعة حلوى.

مقابل تذوّقه الحليب المجفّف لأول مرة، أراني باسكال شجرة نستطيع أن نتسلّقها بحثاً عن عشّ طير. وبعد أن تفحّصنا الطيور الصغيرة الوردية اللون، وضع أحدها في فمه وتناولها كأنها فاكهة عناب. وبدا سعيداً جداً. ثم أعطاني طيراً صغيراً، وقال بلغة الإشارة إنني يجب أن أتناوله. فهمت ما الذي يقصده، لكنّي رفضت، فتناول الطيور الصغار كلّها وحدَه.

وفي عصر يوم آخر، أراني باسكال كيفية بناء منزل بارتفاع ست بوصات. جثم تحت ظلّ شجرة الجوافة في حديقتنا، وثبّت أغصاناً عمودية في التراب، ثمّ ضفر حول الفروع شرائطَ رقيقة من اللحاء، كما لو كان يصنع سلة. وبصق في التراب ليجعل منه طيناً أحمر، ثمّ كساه على الجدران حتى غطّاها كلها. واستخدم أسنانه أخيراً لقطع أطراف ورق النخيل بطريقة محترفة ليصنع السقف. وفي النهاية، قرفص على كعبيه وراح يتفحّص ما فعله، وقد تغضّن

جبينه. وأدركت أن هذا البيت الصغير الذي صنعه باسكال، يشبه -بالمواد والتصميم- البيت الذي يعيش فيه، ولم يكن يختلف عنه إلّا بالحجم.

أذهلني الفرق الشاسع في عالم الألعاب بيننا، فألعابنا كانت: «ماما هل يمكنني أن؟» و«الغمّيضة»، أما ألعابهم فكانت: «ابحث عن الطعام»، «تعرّف على شجرة الخشب السام»، «بناء منزل». وها هنا صبي لا يتجاوز الثامنة أو التاسعة من العمر، عنده أخت أصغر منه تحمل طفل العائلة حيثما ذهبت، وتقطع الأعشاب مع أمّها في حقل المانيوك. أدركت أنّ فكرة الطفولة ليست فكرة عالمية، وبدت لي أنها شيء اخترعه الرجل الأبيض وألصقه في السنوات الأولى من حياة البالغين كما يُلصَق الكشكش في مقدّمة ثوب. ولأول مرة في حياتي شعرت بالغضب من أبي لأنه جعلني طفلة واعظ أبيض قادم من جورجيا. هذا ليس ذنبي. عضضت على شفتي وبدأت أعمل في بناء بيتي الصغير تحت شجرة الجوافة، لكنْ، مقارنةً بمواهب باسكال الرائعة، فإنّ يديّ كانتا خرقاوين مثل زعانف بيضاء للفظّ(*) خارج بيئته. وأصبح إحساسي بالحرج قرمزياً وعميقاً، يختبئ تحت ثيابي.

روث ماي برايس

كانت أمي تقول لي كلّ يوم: «ستشجّين رأسك»، لكن لا يا سيّدي، فقد كسرت ذراعي بدلاً من ذلك. حدث هذا عندما كنت أتجسّس على فرقة الكشّافة الشيوعيين الأفارقة. كنت أجلس في أعلى الشجرة وكان بإمكاني أن أراهم من دون أن يروني. كانت في الشجرة حبات أفوكادو خضراء عديمة الطعم، لم يكن أحد منّا يتناولها إلّا أمي لأنها تتذكّر طعمها مع الملح ومايونيز هيلمان، عندما كانت تشتريها في مدينتنا من محلّات بيغلي ويغلي.

(*) حيوان ثديي بحريّ شبيه بالفقمة. [م].

سألتها: «مايونيز، ما هو لون المرطبان؟»، لكنها لم تبكِ هذه المرة لأنها تبكي أحياناً عندما لا أتذكّر بعض الأشياء في جورجيا.

كانوا يبدون لي مثل فرقة كشّافة الكونغو العاديين، يسيرون في نظام، ما عدا أنهم لا ينتعلون أحذية. بينما ينتعل جنود الجيش البلجيكي أحذية ويحملون أسلحة ويمرّون من هنا أحياناً في طريقهم إلى مكانٍ ما. قال أبي إنهم يريدون أن يثبتوا لجميع الكونغوليين، مثل تاتا أندو، أن بلجيكا لا تزال البلد المسيطر هنا. أما الجيش الآخر فهو عبارة عن صبية يعيشون في المناطق المجاورة. يمكنك أن تعرف الفرق بينهما بسرعة، فلا يوجد شخص أبيض واحد بينهم، ولا يرتدون جميعاً بدلات موحّدة، وإنما يرتدون بناطيل قصيرة، ويسيرون حفاة أو ينتعلون أي شيء لديهم، ويضع أحدهم قبّعة فرنسية حمراء. أحبّ تلك القبّعة. ويعقد الآخرون مناديل حمراء حول أعناقهم. قالت أمي إنهم ليسوا كشّافة، بل *Jeune Mou-Pro*(*)، وكانت تقول: «روث ماي، يا سكّرتي، لا علاقة لك بهؤلاء، فعندما ترينهم، اركضي إلى البيت بسرعة!». أمي تسمح لنا أن نلعب مع الأطفال والصبية الصغار، حتى لو كانوا شبه عراة، لكن ليس مع هؤلاء الذين يضعون مناديل حمراء. مبو ته فه! هذا يعني أنه شيء غير جيّد. لذلك، تسلّقت شجرة الأفوكادو عندما رأيتهم. كنت أظن منذ فترة طويلة أنّ أمي تقول إنهم «جيمي كرو»، وهو اسم أعرفه منذ أن كنا في بلدنا.

لا يمكننا أن نتجسّس عليهم في الصباح، لأنه يتعيّن على أخواتي أن يجلسن ويدرسن، وأنا ألوّن الحروف وأتعلّمها. لا أحبّ المدرسة. يقول أبي إنه ليس بإمكان الفتاة أن تذهب إلى الجامعة لأنهم يدلقون الماء في حذائك. يمكنني أحياناً أن ألعب بحيواناتي الأليفة بدل التلوين، إذا كنت هادئة. حيواناتي الأليفة هي: ليون والنمس والببغاء أيضاً. لقد أطلق أبي

(*) مجموعة شيوعية كونغولية من الشباب المتمرّدين والمطالبين بالاستقلال. [م].

الببغاء من قفصه لأنه تعلّم منّا، من غير قصد، كلمات سيّئة، لكنه لم يبتعد كثيراً. إنه يذهب ثمّ يعود لأن جناحيه ضعيفان. فقد رُوّض لفترة طويلة ونسي كيف يطير وكيف يأكل بنفسه. أُطعمه شرائح ليمون حامض أقطفه من شجرة الديما حتى يعطس ويمسح منقاره، من طرف ثم من الطرف الآخر. مبوته فه! ديما، ديمبا، ديمباما. أحبّ أن أقول كلّ هذه الكلمات لأنها تخرج من فمك وتضحك. تشعر أخواتي بالأسف على الببغاء، أما أنا فلم أحزن عليه. إذا استطعت، فإني سأجلب أفعى أيضاً لأنني لا أخاف منها.

لم يعطني أحد النمس. لقد جاء إلى باحة البيت ونظر إليّ. وفي كلّ يوم كان يقترب أكثر فأكثر. وفي أحد الأيام، دخل النمس إلى البيت، ثمّ بدأ يأتي كلّ يوم. إنه يحبّني أكثر من الجميع. إنه لن يتحمّل أي شخص آخر. قالت ليا يجب أن نسميه ريكي تيكي تابي، لكن لا يا سيّدي، إنه لي وأنا أدعوه «ستيوارت ليتل». إنه اسم فأر في إحدى القصص المصوّرة. لا توجد عندي أفعى لأن النمس يريد أن يقتل الأفعى. فقد قتل ستيوارت ليتل الأفعى بجانب بيت المطبخ، وكان ذلك شيئاً جيّداً، فأصبحت أمي تدعه يدخل الآن إلى البيت. ديمبا تعني اسمع! اسمع هنا، أيها الأبله! الأفعى التي كانت تزحف بجانب بيت المطبخ من نوع الكوبرا التي تبصق في عينيك، فتصبح أعمى، ثمّ ترجع إلى الوراء قليلاً وتلدغك.

ذهبنا ووجدنا الحرباء. أظن أن ليا رأتها على سريرها. إن لون معظم الحيوانات هو اللون الذي خلقها به الله، ويجب أن تبقى هكذا، أما ليون فإنها تتغيّر إلى اللون الذي تريده. نُدخلها إلى البيت عندما يكون أبي وأمي في الكنيسة، وفي إحدى المرات وضعناها فوق ثوب أمي لنختبرها، فتحوّل لونها إلى لون مزهر. إذا خرجت وركضت في البيت، أوه، يا إلهي! عندئذٍ لا نستطيع أن نجدها. ويندا مبوته - إلى اللقاء، أستودعك الله، وآمين! لذلك نبقيها خارج البيت في الصندوق الذي أتت فيه القصص المصوّرة. إذا

نخزتها بعصا يتحوّل لونها إلى الأسود وتطلق بريقاً وتُحدث ضوضاء. نفعل لها ذلك لنريها من هو الزعيم هنا.

***

كُسرت ذراعي في اليوم الذي كان من المفروض أن يأتي فيه السيّد أكسلروت. قال أبي إن هذا التوقيت جيّد بفضل نعمة من الله. لكن عندما عرف السيّد أكسلروت أننا سنذهب إلى ستانليڤيل استدار وحلّق مباشرة فوق النهر أو شيئاً من هذا القبيل، لا أحد يعرف، وقال إنه سيعود غداً. تقول أمّي: «يا لهذا الرجل!». وقال أبي: «بادئ ذي بدء، ما الذي كنتِ تفعلينه فوق تلك الشجرة يا روث ماي؟»، فقلت إنه كان على ليا أن تراقبني وتعتني بي، فهذا ليس خطئي. ثم قلت إنني كنت مختبئة من فتيان جيمي كرو.

«أوه، بحقّ السماء!» -قالت أمّي- «ماذا كنت تفعلين هناك وقد قلت لك أن تعودي إلى البيت بسرعة عندما ترينهم قادمين؟!». كانت تخشى أن تخبر أبي بذلك كي لا يجلدني ويكسر ذراعي الأخرى. وقالت له إنني حمل الربّ وكان ذلك مجرّد حادث، فلم يجلدني. ليس بعد. لعلّه سيفعل عندما أُشفى.

ذراعي تؤلمني كثيراً. لكني لم أبكِ، وأسندتها إلى صدري. صنعت لي أمي حمّالة كتف من القماش الذي أحضرته لتصنع منه شراشف للسرير وفساتين العمادة للفتيات الإفريقيات، لكننا لم نعمّد أحداً حتى الآن. إنهم يرفضون أن يغطسوا في النهر، لا يا سيّدي، لا يمكن عمل ذلك. التماسيح!

عاد السيّد أكسلروت ظهيرة اليوم التالي، وكانت تفوح منه رائحة تشبه رائحة فاكهة متعفّنة. قالت أمي يمكننا أن ننتظر يوماً آخر إذا أردنا أن نصل إلى هناك سالمين. وقالت: «من حسن حظك أنها كسر وليست لدغة أفعى».

بينما كنّا ننتظر السيّد أكسلروت ليجلس ويشعر بالتحسّن كي نصعد إلى طائرته، جاءت نساء كونغوليات إلى مهبط الطائرة يحملن فوق رؤوسهن حقائب قديمة ضخمة مليئة بالمانيوك، وقد أعطاهن نقوداً. لكن النساء

رحن يصرخن عندما أعطاهن إياها. قال أبي إنهن يصرخن لأنه يدفع لهن سنتين اثنين فقط لقاء كل دولار، لكنْ، لا يوجد عندهم حتى دولارات عادية هنا، فهم يستخدمون تلك النقود الوردية. وصرخت بعض النساء بحدّة في وجه السيّد أكسلروت وذهبن من دون أن يعطينه الأشياء التي أتين بها. ثمّ صعدنا إلى الطائرة وطرنا إلى ستانليڤيل: السيّد أكسلروت وأبي وذراعي المكسورة. كنت أوّل واحدة بين أخواتي يُكسر لها أيّ عظم، إذا لم نحسب أصابع القدم. كانت ماما تريد أن تذهب بدلاً من أبي لأنني أضيّع وقته. وإذا جاءت فإنه يمكنني الجلوس في حضنها، فقلت له أيضاً بأنني سأضيّع وقته. لكن لا، فقد قال إنه يريد أن يذهب ليسير في شوارع مدينة ستانليڤيل، فذهب وظلّت أمي في البيت.

كانت مؤخّرة الطائرة مليئة بالحقائب والأكياس، وكان عليّ أن أجلس عليها. أكياس بنيّة خشنة ضخمة مليئة بالمانيوك والموز وحقائب صغيرة من القماش فيها أشياء صلبة. نظرت إلى داخل بعضها: صخور. أشياء برّاقة وصخور وسخة. قال السيّد أكسلروت لأبي إنّ الطعام يباع بسعر الذهب في ستانليڤيل، لكنْ، لم يكن هناك ذهب في حقائب القماش الصغيرة تلك. لا يا سيّدي، كان ألماساً. لقد اكتشفتُ ذلك لكن لا أعرف كيف. حتى أبي لم يكن يعرف أننا نجلس في طائرة فيها ألماس. قال السيّد أكسلروت إنني إذا أخبرت أحداً بذلك، فإن الله سيجعل أمي مريضة وستموت. ولذا لم أستطع إخبار أحد.

بعد أن نمتُ في الطائرة واستيقظت، حدّثنا السيّد أكسلروت عن كلّ ما يمكننا أن نراه من فوق إذا نظرنا إلى الأسفل: أفراس النهر في الماء، فيلة تتجوّل في الغابة، مجموعة كاملة من الفيلة، أسد يقف بجانب الماء، يأكل، رأسه يعلو ويهبط كما كانت قطتنا الصغيرة تفعل عندما كنّا في أتلانتا. وقال لنا إنه يوجد أقزام أيضاً لكنّنا لم نرَ أحداً منهم. ربما لأن حجمهم صغيرٌ جداً.

سألته: «أين هي أفاعي مامبا الخضراء؟».

أعرف أنها تعيش على الأشجار حتى تتمكّن من الانقضاض عليك وقتلك. كنت أريد أن أرى بعضها. ثم قال السيّد أكسلروت: «لا يوجد شيء في هذا العالم يمكنه أن يختبئ كما تفعل أفعى مامبا الخضراء اللون، لأن لها اللون نفسه للّون الذي تستلقي عليه»، ثم أضاف: «ولا تحرّك عضلة، فمن الممكن أن تكوني واقفة بجانبها وأنت لا تعرفين ذلك».

هبطنا بلطف على العشب. كانت المطبّات التي في السماء أكثر مما هي على العشب. كان البيت الضخم هناك هو المستشفى الذي يوجد فيه الكثير من البيض، وآخرون في أثواب بيضاء. كان هناك عدد كبير من البيض فنسيت أن أحصي عددهم. لم أرَ أحداً أبيض إلّا نحن منذ زمن بعيد.

قال الطبيب: «ما الذي كانت تفعله ابنة واعظ لطيفة فوق شجرة؟».

كانت ذراعا الطبيب مكسوّتين بشعر أصفر، وله وجه كبير، ويبدو من لكنته أنه أجنبي. وقد أحببته كثيراً لأنه لم يعطني حقنة.

قال أبي: «هذا ما نريد أن نعرفه أنا وأمّها».

فقلت إنني لم أكن أريد أن يلقي بي أحد في قِدر ضخم ويأكلني فاختبأت في الشجرة. ابتسم الطبيب. ثمّ قلت له الحقيقة وهي أنني اختبأت من «جيمي كرو». لم يبتسم الطبيب ونظر إلى أبي، ثمّ قال لي: «إن الصِّبية والقرود فقط هم الذين يتسلّقون الأشجار».

أجبته: «لا يوجد صِبية في أسرتنا»، فضحك وقال: «ولا قرود أيضاً، لا أظن ذلك».

تحدّث مع أبي عن الأمور التي يتحدّث عنها الرجال عادة. وفوجئ الطبيب من وجود فتيان جيمي كرو في قريتنا. لم يكن يتكلّم بلغة إنكليزية بسيطة مثلنا. فقد كان يقول «can not» بدلاً من «can't»، و«They are» و«did not»، وأشياء أخرى من هذا القبيل.

«لقد سمعوا» -هذا ما سأله لأبي- «لقد سمعوا عن باتريس لومومبا في كيلانغا؟».

فقال أبي له: «إننا لا نرى عدداً كبيراً منهم. نسمع أحياناً تدريبات على البنادق».

«ليساعدنا الربّ!»، قال الطبيب.

فقال له أبي: «نعم، سيساعدنا الربّ! سيحيطنا برحمته الإلهية لأننا عبيده الذين نجلب العون».

فعبس الطبيب، قال لأبي أن يعذره فهو مختلف معه. كان يخاطبه بكلمة القسّ. وقال: «أيها القسّ، إن التبشير صفقة عظيمة بالنسبة لبلجيكا، لكنه كالجحيم بالنسبة لطريقة تقديم الخدمات الاجتماعية للسكّان».

عندما قال تلك الكلمة «الجحيم»، حبست أنفاسي ورحت أستمع بأذنيّ الاثنتين.

قال أبي: «حسناً يا دكتور، أنا لست موظّفاً حكومياً. توجد لدى بعضنا مهن وبعضنا الآخر يناديهم الربّ ليقوموا بهذا العمل. إن عملي يتمثّل في جلب الخلاص إلى الظلام».

«لا أهتم للخلاص!» هذا ما قاله الطبيب. أظن أنّ هذا الرجل آثم، بالطريقة التي يردّ فيها على أبي. رحنا ننظر إليه وهو يمزج الجبيرة البيضاء ويضع الأشرطة. أملتُ بألّا يتشاجر مع أبي، أو إذا تشاجرا، كنت آمل أن أستطيع رؤيتهما. فقد رأيت أبي مرة يضرب رجلاً لم يمتدح الربّ.

من دون أن يرفع عينيه عن ذراعي، قال الطبيب: «لقد جعلناهم -نحن البلجيكيين- عبيداً، وقطعنا أيديهم في مزارع المطّاط، والآن أنتم الأميركان تستعبدونهم ليعملوا بأجر زهيد جداً في المناجم، وتتركونهم يقطعون أيديهم بأنفسهم. وأنت يا صديقي، تكرّس نفسك لتعلّمهم أن يقولوا آمين».

كان قد بدأ يلفّ ذراعي وهو يقول تلك الأشياء عن قطع الأيدي. ظلَّ

يلفّ الشاش الأبيض البارد حتى انتهى، وأصبحت ذراعي في داخلها مثل قطعة مقانق داخل قطعة خبز. كنت سعيدة لأن أحداً لم يشأ أن يقطع يدي. وبما أن يسوع خلقني بيضاء، فلا أظن أنهم سيفعلون ذلك.

قال لي: «إنه سيضايقك، وسننزعه بعد ستّة أسابيع».

«حسناً» قلت لِكُمّ معطفه الأبيض. كان عليه بقع دم. دمُ شخصٍ آخر.

لكن أبي لم يكن قد أنهى حديثه مع الطبيب بعد. كان يقفز من قدم إلى أخرى، ويصيح: «أعلّمهم قول آمين؟ لا حاجة لقول آمين! لقد جلب البلجيكيون والأميركيون الحضارة إلى الكونغو! إن المساعدة الأميركية ستكون الخلاص بالنسبة للكونغو. سترى!».

أمسك الطبيب ذراعي البيضاء المكسورة مثل عظمة كبيرة بيديه الاثنتين، وراح يتحسّس كيف أثني أصابعي. رفع حاجبيه الصفراوين من دون أن ينظر إلى أبي، وقال: «والآن أيها القسّ، ما هي هذه الحضارة التي جلبها البلجيكيون والأميركيون؟».

قال أبي: «حسناً، الطرق! سكك الحديد...».

فقال الطبيب: «أوه. فهمت!»، ثمّ انحنى في معطفه الأبيض الكبير ونظر إلى وجهي، وسألني: «هل جاء بك والدك إلى هنا بالسيارة؟ أم جئتِ بالقطار على سكة الحديد؟».

كان يحاول الظهور بمظهر الشخص العارف، فلم نردّ عليه، أنا وأبي، لأنه لا توجد سيارات في الكونغو وهو يعرف ذلك. ثمّ نهض ونفض المادة البيضاء من يديه، مبيّناً أنه انتهى من العمل على ذراعي، حتى لو أراد أبي أن يجادله حتى يزرقّ وجهه. أمسك الطبيب الباب وفتحه لنا.

«أيها القسّ» قال.

«نعم يا سيّدي؟» سأله أبي.

«لا أحبّ أن أعارضك، لكن خلال خمسة وسبعين سنة، فإن الطرق

الوحيدة التي شقّها البلجيكيون هي الطرق التي يستخدمونها لنقل الألماس والمطّاط فقط. وبيني وبينك، أيها القسّ، فأنا لا أظن أن الناس هنا يبحثون عن نوع الخلاص الذي تقدّمه لهم. أظن أنهم يبحثون عن باتريس لومومبا، روح إفريقيا الجديدة».

«إفريقيا لديها مليون روح»، هذا ما قاله له أبي، ولا بدّ أن أبي يعرف لأنه جاء لينقذهم جميعاً.

«نعم، بالفعل»، قال الطبيب. نظر إلى الممر ثمّ أغلق الباب ونحن لا نزال في الداخل. قال بصوت أكثر انخفاضاً: «وكان نصفهم تقريباً هنا في ستانليڤيل الأسبوع الماضي ليهتفوا لقائدهم تاتا لومومبا».

فقال أبي: «تاتا لومومبا، ما سمعته أنه عامل في مكتب بريد، حافي القدمين، لم يذهب إلى الجامعة قطّ».

«هذا صحيح، أيها القسّ، لكن الرجل يمتلك طريقة في إثارة أناس يبدو أنهم ليسوا بحاجة إلى أحذية. لقد تكلّم لمدة ساعة كاملة الأسبوع الماضي عن الطريق السلمي المفضي إلى الاستقلال، وقد أحبّه الناس كثيراً إلى درجة أنهم قاموا بأعمال شغب وقتلوا اثني عشر شخصاً».

ثم أدار الطبيب ظهره لنا، وغسل يديه في وعاء وجفّفهما بمنشفة، كما تفعل أمي بعد أن تغسل الصحون. ثمّ عاد ودقّق النظر في ذراعي لدقيقة، ثمّ نظر إلى أبي، وقال: «لم يذهب إلى الجامعة إلّا ثمانية رجال كونغوليين في طول هذه البلاد وعرضها. ولا يوجد طبيب أو ضابط كونغولي واحد في الجيش، لا شيء، لأن البلجيكيين لا يسمحون لهم بأن يتعلّموا»، ثم أضاف: «أيها القسّ، إذا أردت أن تبحث عن زعماء الكونغو الجدد، فلا تبحث عنهم في قاعات الدراسة. ربما من الأفضل أن تبحث عنهم في السجن – لقد زُجّ السيّد لومومبا في السجن بعد أعمال الشغب التي جرت الأسبوع الماضي، وعندما سيخرج، أتوقّع أن يكون له أتباع أكثر من المسيح».

يا إلهي! أبي لن يحبّ الطبيب أبداً بعد هذا، فقوله عن شيء ما أنه «أفضل من المسيح» خطيئة كبيرة. رفع أبي عينيه إلى السقف ثم نظر من النافذة وحاول ألّا يضرب أيّ شيء، حتى فتح لنا الطبيب الباب والوقت لنذهب. كان الضوء المعلّق في السقف وعاءً زجاجياً شفافاً نصفه مليء بأشياء داكنة، مثل فنجان قهوة، كانت حشراتٍ ميّتة فحسب. أعرف السبب، إنها تحبّ أن تأتي إلى الضوء لأنه جميل جداً، تريده ثم تعلق فيه.

أعرف كيف ستشعر إذا لمستها. مثل رموش شخصٍ تلمسها بأصابعك.

***

عندما عدنا إلى البيت، كان على أخواتي أن يساعدنني في تناول الطعام كلّ يوم وفي ارتداء ثيابي. كان ذلك أفضل شيء يمكن أن يحدث. وأريتُ ليا من أين يمكنها أن تدخل إلى شجرة الأفوكادو ورفعتني إليها. كنت لا أزال أستطيع أن أتسلّق الشجرة بذراعي الأخرى. كنت ألعب مع ليا أكثر من أخواتي الأخريات، إما لأن فيهن شيئاً على غير ما يرام، وإما لأنهن كبرن على اللعب كثيراً.

كان علينا أن ننتظر في أعلى الشجرة. قلت لها: «السيّد أكسلروت يشرب ويسكي أحمر. يضع القنينة تحت مقعده في الطائرة. لقد دحرجتها بقدمي ثمّ أعدتها».

كنتُ الأصغر سناً، لكن كان لديّ ما أقوله.

لا يتعيّن عليك انتظار الجنود البلجيكيين لأنهم يأتون دائماً في الوقت نفسه. بعد الغداء مباشرة، عندما لا يهطل المطر وعندما تكون جميع النسوة قد ذهبن إلى النهر والحقول يحملن دلاءهنّ وأشياءهن الأخرى، وعندما يكون الرجال نائمين في بيوتهم، ويكون الجوّ هادئاً. عندئذٍ يأتي الجنود وهم يسيرون على الطريق في رتل منتظم يرددون أغنية باللغة الفرنسية. الرجل الأبيض يعرف من هو الرئيس، وعلى الآخرين أن يرددوا بصوت

مرتفع لأنهم ينتمون إلى قبائل حام. لكن، يا إلهي، يا إلهي، دعوني أقُل لكم إنهم ينتعلون كلّهم أحذية، يسيرون بقوة معاً ثمّ يقفون بسرعة كبيرة فيثيرون الغبار الذي ينزل ويغطي أحذيتهم.

تصعب رؤية فتيان جيمي كرو الذين يختبئون عندما يرون جنود الجيش البلجيكي. وهم يأتون من حين إلى آخر فقط، ويجتمعون وراء قنّ الدجاج لدينا. يجلسون القرفصاء وينصتون إلى حديث الرئيس. سيقانهم وأذرعهم نحيفة جداً حتى تستطيع أن تعرف ما هو شكل العظام في أجسادهم. ولا ينتعلون أحذية أيضاً. فقط غبار أجرب أبيض يعلو أقدامهم، ويمكنك أن ترى تلك التقرّحات والندوب السوداء الداكنة عليهم كلهم والتي تبدو بوضوح شديد. تقول أمي إن جلدهم يحمل ندوباً تختلف عن الندوب التي على أجسادنا، لأن جلدهم خريطة تصوّر جميع الأحزان التي رأوها في حياتهم.

كنّا ننتظر أن نتجسّس عليهم من وراء قنّ الدجاج عندما جاؤوا. أخبرتني ليا إن أمّنا تقول إن السيّدة أندرداون قد قالت إننا يجب حتى ألّا ننظر إليهم إذا جاؤوا، لأنهم يريدون الاستيلاء على البلد كلّها وطرد الرجل الأبيض.

قلت: «أريد قبّعة حمراء كتلك».

«ششش، اخرسي!»، قالت ليا. لكنها أضافت بعد ذلك: «حسناً، وأنا أيضاً. تلك القبّعة الحمراء جميلة». قالت ذلك لأن قولها لي «اخرسي» جرح مشاعري.

صاح الفتيان: «باتريس لومومبا».

أخبرت ليا أن هذا يعني روح إفريقيا الجديدة، وأنه دخل السجن وأن المسيح منزعج كثيراً منه. قلت لها كلّ ذلك! كنت أصغر واحدة، لكنّي كنت أعرف ذلك.

استلقيت ساكنة فوق الغصن كما لو كنت مثل أي شيء في الشجرة.

كنت مثل أفعى مامبا الخضراء. السمّ. يمكنني أن أكون بجانبك دون أن تدرك ذلك أبداً.

راشيل

حسناً، هللويا ومرّروا الذخيرة(*). يوجد أحدٌ مدعوّ على العشاء! شاب عازب لا توجد لديه ثلاث زوجات، ولا حتى زوجة واحدة على حد علمي. إنه أناتول، معلّم المدرسة الذي يبلغ من العمر أربعاً وعشرين سنة، والذي لا تزال أصابعه كلها وعيناه وقدماه سليمة، وهذه هي الفكرة المحليّة المثالية عن فتى الأحلام. بالطبع فلونه ليس اللون الذي أحبه، لكن حتى لو كنتُ فتاة كونغولية فإني أخشى أنه يجب عليّ قول شكراً، لكن لا شكر على أناتول! وجهه مليء بالندوب. ليست ندوباً ناجمة عن حادث، وإنما خطوط صغيرة دقيقة، من النوع التي يضعها بعضهم هنا عمداً، مثل الوشم. حاولت ألّا أحدّق فيها، لكنّي بدأت أفكّر، كيف يمكن عمل كلّ هذه الخطوط بهذه الدقة؟ ما هي الأدوات التي استخدموها، السكّينة التي نقطع بها البيتزا أم ماذا؟ كانت رفيعة جداً مثل شعرة وفي خط مستقيم تماماً، مليون خط أزرق تقريباً، تجري من وسط أنفه إلى جانبَيْ وجهه، مثل حافات على تنورة مخملية سوداء مخاطة بدرزات، والدرزات متجهة مباشرة نحو الوسط. وهو ليس من النوع الذي تراه كثيراً هنا في قريتنا، لكن أناتول ليس من هذه القرية. صحيح أنه كونغولي، إلا أن عينيه تختلفان عن العيون الأخرى، وتميلان قليلاً مثل قطٍّ سياميّ، مع فرق أنه أكثر فكراً. كان علينا كلّنا أن نبذل قصارى جهدنا كي لا نحدّق فيه. كان يجلس إلى مائدة طعامنا بقصّة شعره الناعمة

(*) تشبه هذه العبارة مطلع أغنية وطنية أميركية: «امتدحوا الربّ ومرّروا الذخيرة»، التي ظهرت بعد حادثة بيرل هاربر في 7 كانون الأول 1941. تتحدّث الأغنية عن قسٍّ ألقى إنجيله، ومشى إلى برج السفينة، ثم أطلق النار على طائرة العدو. [م].

وقميصه العادي الأصفر ذي الأزرار، وعينيه البنيّتين الذكيّتين اللتين ترمشان بشكل طبيعي عندما يستمع إليك. وبعد ذلك كلّ تلك الندوب التي توتّر أعصابي وتضفي عليه مسحة من الغموض، مثل وهمٍ(*) من القانون. ظللت أختلس النظرات إليه من وراء طبق لحم الظبي وبراعم البطاطا البائتة، وهذا يؤكّد لك، كما أظن، كيف أنني لم أعد معتادة على جنس الذكور.

يتحدّث أناتول باللغتين الفرنسية والإنكليزية، ويدير المدرسة وحده. ستة صباحات في الأسبوع، يكافح لتعليم حفنة من الصبية الصاخبين المتسخين من قريتنا ومن القرية المجاورة. الصبية فحسب، وليس كل الصبية أيضاً، لأن معظم الآباء يرفضون أن يتعلّم أبناؤهم اللغة الفرنسية أو أي شيء يتعلّق بالأجنبي. وعندما تأتي هذه القلّة القليلة المحظوظة صباح كلّ يوم إلى المدرسة، يصفّهم أناتول في رتل بالترتيب من الأصغر إلى الأكبر. وإذا صادف أن جئتَ إلى قريتنا عند الفجر -وأنا أحاول عدم الخروج في هذا الوقت- يمكنك مشاهدتهم يفعلون ذلك، حيث يقف كلّ صبي ويده ممدودة على كتف الصبي الأطول قامة أمامه، فترى منحدراً طويلاً من الأذرع. لقد رسمت ليا ذلك، ويجب الاعتراف بأنها مختلّة عقلياً، عنوَنت رسمتها: «طائرة الذكور المائلة».

بعد أن يصطفّوا في الرتل، يقودهم أناتول إلى الكنيسة ويحثّهم، كما أظن، على مصارعة الأرقام وتصريف الأفعال الفرنسية وما إلى ذلك، لأن ذلك هو كل ما يأخذونه في المدرسة. وحتى لو لم يكونوا قد فقدوا الاهتمام بالتعلّم عند بلوغهم الثانية عشرة أو نحو ذلك، فإن تعليمهم يكون قد انتهى. يكاد أن يكون هذا قانوناً. تصوّر أنه لا يُسمح بدخول المدرسة بعد الثانية عشرة من العمر (أنا لا أمانع ذلك). قالت لنا السيّدة أندرداون إن سياسة

(*) تُخطئ راشيل في التهجئة هنا، فتستخدم putative، بدلاً من fugitive، فهي تريد القول إنه يبدو مثل فارٍّ من القانون. [م].

البلجيكيين تهدف إلى حرمان الصبية الكونغوليين من التعلّم أكثر من ذلك. والفتيات أيضاً، أظن أن هذا الأمر مفروغ منه، لأن كلّ ما على الفتيات أن يفعلنه هنا هو أن ينجبن أطفالاً عندما يبلغن العاشرة، ويواصلن ذلك حتى تفرغ أثداؤهن وتصبح مسطّحة كالفطائر. دعوني أقُلْ لكم إنه لا يطمح أحدٌ هنا ليحصل على شهادة هامة. لكن على الرغم من ذلك، فإن أناتول يتحدّث الفرنسية والإنكليزية والكيكونغو وكلّ شيء أمامه، فضلاً عن أنه يعرف ما يكفي كي يكون معلّماً لجميع المواد. لا بدّ أنه كان مشغولاً جداً مثل قندس في أثناء أيام دراسته العابرة.

ولد أناتول بالقرب من مدينة ستانليڤيل، وبعد أن ماتت أمّه أُرسل، وهو في مقتبل العمر، للعمل في مزارع المطاط القريبة من كوكويلهاتڤيل حيث تتاح فرصٌ أكبر، جيّدة وسيئة على حدٍّ سواء - هكذا وصفها عندما كان يحدّثنا عن حياته الشخصية على العشاء. وعمل كذلك لفترة من الزمن في مناجم الماس جنوباً في كاتانغا التي يأتي منها -كما قال- ربع الماس في العالم. وعندما بدأ يتحدّث عن الماس، تذكّرت فوراً «مارلين مونرو» بقفّازاتها الطويلة، وشفتيها المزمومتين، وهي تهمس: «الماس أفضل صديق للفتاة». كنت قد ذهبت مع صديقتي دي دي بايكر سراً إلى السينما لنشاهد فيلم «إم. إم وبريجيت باردو» في العرض الصباحي (سيقتلني أبي لو عرف ذلك)، لهذا السبب فأنا أعرف شيئاً عن الماس. وعندما نظرت إلى مفاصل أصابع أناتول البنيّة المتغضّنة وراحتَيْ يديه الورديتين، تخيّلت أيديَ كهذه وهي تستخرج الماس من تراب الكونغو، وخطرت ببالي هذه الفكرة، يا إلهي! هل تعرف مارلين مونرو من أين يأتي الماس؟ لكن عندما تخيّلتها في ثوبها الحريري وفكّرت بأنها تعيش في الكون نفسه الذي يعيش فيه حفّار ماس كونغولي، اقشعرّ جسمي، فلم أعد أفكّر في الأمر، ورحت أتفحّص تلك الندوب الغريبة التي تملأ وجه أناتول. لا بدّ أن ذلك يُعتبر شيئاً تجميلياً

في تلك المنطقة، أو في الأماكن التي عاش فيها، لأنه يبدو أن الناس في هذه القرية قانعون بالندوب التي تمنحها لهم الحياة، فيعتبرونها نوعاً من الزينة. هذا إضافةً إلى تسريحات النساء المذهلة. أوه، لا تحدّثني عن ذلك!

لكن أناتول ليس من هذه القرية، وهذا ما يفسّر لماذا لا يعيش معه أبوه وأمّه وألف وأربعمئة من أبناء أعمامه كالآخرين. سمعنا بالفعل جزءاً من القصّة، إنه يتيم، وقد اتخذه السيّد والسيّدة أندرداون تحت حمايتهما لأن جميع أفراد أسرته قُتلوا بطريقة وحشية، وكانا يحبّان أن يلمّحا إلى هذه القصة، لكنهما لم يحكياها بالتفصيل قطّ. وعندما كانا يعيشان هنا، سمعا عن أناتول من مبشّرين آخرين، فأنقذاه من مناجم الماس المشهورة وعلّماه محبّة المسيح، إضافةً إلى القراءة والكتابة. ثمّ نصّباه معلّماً للمدرسة. ويقول أبي إن أناتول: «حليفنا الوحيد في كلّ هذا»، وقد كان هذا صعب الفهم بالنسبة لي، لكن يبدو أن هذا سببٌ كافٍ لدعوته إلى العشاء. وقد منحنا ذلك على الأقل شيئاً نتطلّع إليه غير هذه الحيوانات الميّتة الرائعة التي نتناولها. ومنح أمي شيئاً تقلق بشأنه، فقد قالت إنها لا تعرف ماذا ستعدّ للعشاء، ثم طهت لحم ظبيٍ وقلَت موز الجنة الذي أصبح شيئاً يشبه صمغ حافر حصان أسود في المقلاة. وللتعويض عن الطعام الرديء، وضعت مفرش المائدة الأبيض، ووضعت موز الجنة الذي أصبح أسود في طبق الخزف العظمي الكبير الذي تتباهى به كثيراً - الشيء الجميل الوحيد وسط هذه الفوضى القديمة التي يتعيّن علينا أن نعيش فيها. ويمكنني أن أقول إنها بذلت كلّ ما بوسعها كي تكون مضيفة لطيفة. وفي جميع الأحوال، فقد أثنى أناتول على كل ما قدّمته على المائدة، وهذا يدلّ على أنه شاب مهذّب للغاية، أو أنه مختلّ عقلياً.

استمرت الأحاديث الصغيرة والمجاملات لوقتٍ طويل حتى بدأت أشعر بالملل. كانت أخواتي ما زلن يحدّقن في الشاب الغريب الجذّاب،

ويستمعن إلى كلّ كلمة ينطقها بالإنكليزية، أما أنا، فقد شعرت أنه يشبه حفلات العشاء التي كان أبي يدعو إليها مجموعات دراسة الكتاب المقدّس المتحفّظة في جورجيا، بفارق أن الطعام هذه المرة كان مقرفاً أكثر.

ثمّ فجأة ضربت النارُ المقلاة واحتدم الحديث.

مال أناتول إلى الأمام وقال: «زعيمنا، تاتا ندو، قلق من التدهور الأخلاقي في قريته»، فأجابه أبي: «بالفعل، يجب أن يقلق، لأن عدداً قليلاً من القرويّين يذهبون إلى الكنيسة».

«لا، أيها القسّ، إنه قلق لأن كثيراً من القرويين يذهبون إلى الكنيسة».

صعقنا عندما سمعنا ذلك للحظة من الزمن. لكن أبي مال إلى الأمام، وقد استعدّ للارتقاء إلى مستوى التحدّي. فعندما يرى جدالاً قادماً، يا إلهي، فإنه يزداد حيوية.

«أخ أناتول، إنني أخفق في فهم كيف يمكن للكنيسة أن تعني شيئاً غير البهجة، بالنسبة للقلّة هنا الذين يختارون المسيحية على الجهل والظلام».

تنهّد أناتول وقال: «إني أتفهّم الصعوبة التي تواجهها أيها القسّ. فقد طلب مني تاتا ندو أن أوضح لك هذا الأمر. فهو قلق بشأن الآلهة والأسلاف المرموقين في هذه القرية الذين يُكرَّمون دائماً من خلال ممارسة بعض الشعائر المقدّسة. إن تاتا ندو قلق لأن الذين يذهبون إلى كنيستك يهملون واجباتهم الدينية».

«تقصد أن تقول إنهم يهملون واجباتهم تجاه عبادة أصنام زائفة».

تنهّد أناتول مرة أخرى، وقال: «قد يكون من الصعب عليك أن تفهم ذلك. فالأشخاص الذين يذهبون إلى الكنيسة نسمّيهم في معظم الأحيان بلغة الكيكونغو: لينزوكا، أي الأشخاص الذين جلبوا العار على أنفسهم أو نالهم حظّ عاثر أو شيء من هذا القبيل. وتاتا بواندا مثال على ذلك، فهو لديه حظّ سيّئ جداً مع زوجتيه. إذ لا تنجب زوجته الأولى أطفالاً سليمين،

ويموت أطفال زوجته الثانية وهم لا يزالون في رحمها. ولم يعد باستطاعة أحد أن يساعد هذه الأسرة التي كانت تحرص دائماً على عبادة آلهتها في البيت، وتقديم الأضاحي المناسبة من الطعام، وكانت تدأب على عمل كلّ ما هو مطلوب منها تجاه تلك الآلهة. ومع ذلك، فقد تخلّت تلك الآلهة عنهم لسببٍ لا يعرفه أحد. هكذا يشعرون. لا يمكن أن يصل حظّ أحد إلى أسوأ من ذلك، أترى؟! ولذلك أصبح يذهب إلى الكنيسة ليقدّم تلك الأضاحي إلى مسيحك».

بدا الأب وكأنه يختنق بعظمةٍ في حلقه. فتساءلت ما إن كان يوجد طبيب في البيت! لكن أناتول تابع كلامه بمرح غير مدرك -على ما يبدو- أنه سيقتل أبي بالسكتة القلبية: «وتاتا ندو سعيد لأنك تبعد عنه الأشخاص ذوي الحظّ العاثر، ولن تلاحظ الآلهة التي تحمي روح القرية ذلك كثيراً. لكنّه يشعر بالقلق لأنك تحاول استمالة آخرين ليتبعوا طُرقاً فاسدة. إنه يخشى أن تقع كارثة إذا أغضبنا الآلهة».

«فاسدة، قلت!» - قال أبي، بدلاً من أن يسأل، بعد أن عرف أين وضعت القطّة لسانه(*).

«نعم، أيها القسّ برايس».

«طرق فاسدة. يشعر تاتا ندو أنّ جلبَ الكلمة المسيحية إلى هؤلاء الناس يقودهم إلى طرق فاسدة».

«هذه أفضل طريقة أستطيع أن أفكّر بها لترجمة الرسالة. في الحقيقة قال إنك تقود أهل قريتنا إلى حفرة لا يعود بإمكانهم أن يروا منها الشمس الحقيقية، ويصبحون كالحشرات التي تحوم فوق جيفة متعفّنة».

يا إلهي! كاد أبي أن يغمى عليه. اتّصلوا بالإسعاف! لكن على الرغم من

(*) إشارة إلى القول المعروف لمن لا يحير جواباً: «أخذت القطة لسانه». [م].

ذلك، ها هو ذا أناتول ينظر إلى أبي وقد رفع حاجبيه كثيراً، كأنه يقول: «هل تفهم لغة إنكليزية واضحة؟»، فضلاً عن أخواتي الأصغر اللاتي كنّ يحدّقن في أناتول كما لو كنّ يقرأن في مجلة «ريبلي، صدّق أو لا تصدّق: قصة العجل برأسين».

«هل طلب منك تاتا ندو أن تنقل لي كلّ هذا؟».

«نعم، طلب مني ذلك».

«وهل توافق على أنني أقود أهل قريتك لتقاسم لحم جيفة متعفّنة؟!».

صمت أناتول. يمكنك أن ترى أنه كان يحاول التفكير بكلمات أخرى، ثم قال أخيراً: «أيها القسّ برايس، ألا تجدني أقف بجانبك في كنيستك كلّ يوم أحد، أترجم كلمات الكتاب المقدّس وجميع مواعظك؟».

لم يجب أبي عن هذا السؤال بنعم أو بلا، مع أن ذلك صحيح بالطبع. لكن هذا هو طبع أبي الذي لا يردّ عادة مباشرة، وإنما يتصرّف دائماً كما لو أن هناك فخّاً منصوباً له ولا يريد أن يقع فيه. فسأله بدلاً من ذلك: «أناتول، ألست جالساً الآن إلى مائدتي، تترجم كلمات إنجيل تاتا ندو عن عبادة الأصنام الزائفة وموعظته التي تستهدفني بشكل خاص؟».

«نعم يا سيّدي، هذا ما أفعله».

وضع أبي سكينه وشوكته بشكل متصالب في صحنه وأخذ نَفَساً عميقاً، شاعراً بالرضا بأنه صاحب اليد العليا -كان متخصّصاً في أن يكون صاحب اليد العليا- وقال: «أخ أناتول، أنا أصلّي كلّ يوم بكلّ فهم وصبر لأجعل الأخ ندو يأتي إلى كنيستنا، وربّما يتعيّن عليّ أن أصلّي من أجلك أنت أيضاً».

كان ندو الذي يتحدّثان عنه، أو «مستر أندو» -كما تسميه روث ماي- هو زعيم القرية، ولا يهمّني أن أقول إنه شخص ثقيل الظل، يصعب التعامل معه. فأنا أجد صعوبة في احترام زعيم يضع نظّارات لا توجد فيها عدسات (يبدو أنه يظن أن ذلك يرفع من حاصل ذكائه)، ويلفّ حول رقبته فراء حيوان

صغير، وهي موضة مسجّلة يشارك فيها السيّدات المسنّات المتديّنات في جورجيا. أوه، أعتقد أن ذلك ساحر!

«إن كنت تحصي أعداءك، فيجب ألّا تحسبني بينهم يا سيّدي» -قال أناتول- «وإذا كنت تخشى من منافسين لكنيستك، فيجب أن تعرف أن هناك نغانجا آخر هنا، قسّ آخر، يثق به الناس كثيراً أيضاً».

حلَّ أبي ربطة عنقه وياقة القميص ذي الكمّين القصيرين الذي يرتديه يوم الأحد، وقال: «قبل كل شيء، أيها الشاب، فأنا لا أخشى أيّ رجل في كيلانغا. أنا رسول أنقل أخبار الله السارّة العظيمة للبشرية كلها، وقد منحني قوّة أعظم من قوة الثور العنيف، أو حتى قوة أقوى شخص بين الوثنيين».

رمش أناتول بعينيه بهدوء عندما سمع ذلك. أظن أنه كان يتساءل إلى أي فئة كان يصنّفه أبي: ثور عنيف أم وثني قويّ؟

«ثانياً» -واصل أبي كلامه- «سأشير بوضوح إلى ما يجب أن تعرفه، وهو أن أخ ندو ليس قسّاً من أيّ نوع. بل ينحصر عمله في إدارة العلاقات بين الناس، ولا علاقة له بالأشياء الروحية. لكنّك محقّ تماماً، فهناك واعظ آخر إضافةً إليّ يوجّه يدي اليمنى. إنه الربّ راعينا».

بالطبع كان على أبي أن يعطي الانطباع بأنه يعرف من، أو عمن يتحدّث أناتول، حتى لو لم يكن يعرف، لأن أبي يعرف أكثر من الجميع ودائماً.

«نعم، نعم، طبعاً، الربّ راعينا» -قال أناتول بسرعة، كما لو أنه لم يكن يصدّق ذلك ويريد أن يبعدها عن الحديث فحسب- «لكني أتكلّم عن نغانجا تاتا كوفودُندو».

حدّقنا كلنا في منتصف المائدة كما لو أن شيئاً ميّتاً له أقدام قد ظهر فجأة هناك. كنّا نعرف تاتا كوفودُندو. كنّا نراه يثرثر ويمشي محنيّ الظهر في الطريق، ينحني كثيراً حتى يُخيَّل إليك أنه سيقع على الأرض، وله ستّ أصابع في إحدى قدميه. حتى هذا لا يكفي، ففي بعض الأيام يبيع حبات الأسبيرين

في السوق بكلّ وقار مثل الدكتور كيلدير(*)، ويظهر في أيام أخرى، وقد طلى جسمه من الأعلى إلى الأسفل (وأنا أعني الأسفل) بنوع من الكلس. ورأيناه ذات مرة مقرفصاً في باحة بيته الأمامية يتحلّق حوله رجال مسنّون آخرون، يترنّحون من نبيذ النخيل الذي يشربونه.

قال لنا أبي إن تاتا كوفودُندو يرتكب خطيئة لأنه يعلن عن نبوءة زائفة. وسمعنا أنه هو وأبناؤه البالغون يقرؤون الطالع برمي عظام دجاج في طاسة كالاباش(**).

«أناتول، ما الذي تقصده عندما قلت إنه واعظ؟» -سألته أمّي- «فنحن نعتبر تاتا كوفودُندو سكّير البلدة».

«لا، ماما برايس، إنه ليس كذلك. إنه نغانجا محترم، يمكنكِ أن تقولي إنه كاهن التقاليد. وهو مستشار جيّد لتاتا ندو».

«مستشار، لا شيء»، قال أبي، ونهض قليلاً عن كرسيه وبدأ يستعيد صوته المعمداني. اشتعل حاجباه الأحمران فوق عينيه العابستين، وبدأت عينه غير السليمة تضيق قليلاً بسبب التوتّر. «إنه نوع من الجوزة النادرة(***). هكذا هو. جوز من النوع الذي لا يسقط بعيداً عن الشجرة التي ينمو فيها أبداً. في المكان الذي جئتُ منه، يا سيّدي، هكذا نسمّي الطبيب المشعوذ».

تناول أناتول أحد مناديل أمي القماشية ومسح به وجهه. كانت حبات العرق تصطدم بالنتوءات الصغيرة على طول أنفه. فيما أخواتي ما زلن يحدّقن به بكلّ ما أوتين من قوة، ولا عجب في ذلك، لأنه لم يعد يأتي إلى بيتنا أحدٌ منذ أن أبعدت أمّنا السيّد أكسلروت عن مائدتنا الصيف الماضي،

(*) بطل سلسلة تلفزيونية طبية أميركية شهيرة عُرضت في الستينيات. [م].

(**) نوع نبات من الفصيلة القرعية. [م].

(***) لكلمة nut التي تعني «جوزة» استخدام غير رسمي في اللغة الإنكليزية للدلالة على شخص مجنون، أو صعب المراس. وهنا لعبٌ على المعنيين. [م].

لأنه بصق ولعن. لم نكن نعرف بعد بأنه مجرم يريد أن يسرق ثمن أغراضنا. ومنذ ذلك الحين، لم نسمع كلمة إنكليزية واحدة تخرج من أيّ فم على مائدتنا إذا استثنينا أفواه أسرة برايس. إن ستة أشهر فترة طويلة بالنسبة لأسرة يتحمّل أفرادها بعضهم بعضاً من دون وجود أيّ وسيلة خارجية للتسلية.

بدا أناتول كما لو أن النمل يملأ بنطاله، لكنه كان ما يزال مصمّماً وعازماً على مناقشة أبي. وعلى الرغم من إشارات التحذير السبع مثل «ستتأسف على»، المكتوبة على وجه أبي، قال أناتول: «إن تاتا كوفودُندو يعتني بأمور عملية عديدة هنا. ويذهب إليه الرجال خاصة عندما لا تنجب زوجاتهم أطفالاً، أو إذا كانوا زانين».

عندما قال ذلك، نظر إليّ من بين الجميع، كما لو كنت أصغر من أن أعرف ما الذي يعنيه ذلك حقاً! فصرخت أمي فجأة وقالت: «ساعدنني يا بنات، فالماء يغلي على الموقد، لقد نسيته. نظِّفنَ الطاولة كلّكنّ وابدأن في غسيل الصحون. احذرن ولا تحرقن أنفسكن!».

لدهشتي، ابتعدت أخواتي بسرعة عن الطاولة. كنت متأكّدة من أنهن فضوليات، لكن الاعتبار الرئيسي لديهن هو للأب الذي كان منزعجاً، وبدا في الهيئة نفسها التي يكون فيها عندما يتجهّز لفرض عقوبة. أما أنا، فلم أغادر المائدة. فبعد أن ساعدت في رفع الصحون عدتُ وجلستُ. وإذا ظنّ أحد أنني صغيرة على سماع حديث عن الزنا واللاتي لا ينجبن أطفالاً، فيجب أن يعيد التفكير كثيراً. إضافةً إلى أن هذه المناسبة هي أكثر المناسبات إثارة حدثت لنا منذ سقوط روث ماي من فوق الشجرة، وهذا يظهر لكم كم أن حياتنا مثيرة وجذّابة! وإذا كان أبي سيصبّ جام غضبه على ساحر مشعوذ، فهذا شيء يجب ألّا يفوتني.

قال أناتول لأبي إنه لا ينبغي له أن يفكّر بأن تاتا كوفودُندو منافس له. وقال إن العقم والزنا مسألتان جدّيتان يجب أن تبقيا بعيدتين عن تاتا

المسيح، لكنّه طمأننا بأنّ عدداً كبيراً من الأشخاص في كيلانغا يتذكّرون الأوقات التبشيرية، عندما جعل الأخ فاولز جميع أهالي القرية يصلّون ليسوع المسيح، ويتذكّرون أن الآلهة لم تغضب كثيراً من ذلك، لأنه لم تحدث في كيلانغا أشياء سيئة أكثر من المعتاد.

هكذا إذاً. تذكّروا الأوقات التبشيرية؟ كان ذلك صدمةً مزعجة حتى بالنسبة لي، سماع أنّ القرويّين يظنّون أنّ المسيحية شيء أشبه بعرض فيلم قديم، انتهت صلاحيته. ماذا يجعل هذا الكلام أبي، إذاً؟ تشارلي شابلن، وهو يسير مترنحاً بقدمَيْ بطّة، ويلوّح بعصاه ويتكلّم من دون أن ينبعث منه أيّ صوت؟

رحنا نراقبه، أنا وأمّي، متوقّعتين أن يقع الانفجار الذرّيّ المريع. لكن أبي فتح فمه ثم أغلقه مثل نسخة من فيلم صامت «ماذا» أو «ووواا»، واحمرّت رقبته، ثمّ جلس ساكناً تماماً. كان بإمكانك أن تسمع صوت نمس روث ماي الأليف وهو يزحف تحت الطاولة يبحث عن شيء أسقطه أحدنا. ثمّ تغيّر وجه أبي تماماً، وعرفتُ أنه سيتّبع طريقته الخاصة في الكلام التي يمارسها معنا دائماً، الكلاب التي بالت في البيت والمغفّلين، بكلماته التي يقولها بلطف لكن نبرة صوته تشي بشيء آخر ليس كذلك، ثم قال لأناتول إنه يحترم مساعدته له ويثمّنها (بمعنى: سئمت من كلامك، أيها الأبله!) لكنه كان مستاء من تفسيرات القرويّين الطفولية بخصوص خطّة الله (بمعنى: أنت سخيف مثلك مثل الآخرين). وقال له إنه سيعدّ موعظة يوضّح فيها هذا اللبس، ثمّ قال له إن الحديث انتهى، وإنه يستطيع أن ينصرف من المائدة ومن هذا البيت.

وهذا ما فعله أناتول على الفور.

«حسناً، هذا يضفي نظرة جديدة كاملة على الأمور، أليس كذلك؟» سألته أمي في أثناء السكوت المطبق الذي أعقب ذلك.

أطرقتُ برأسي وأزلتُ ما تبقى من على الطاولة، وتركت الطبق الكبير ذا الأزهار الزرقاء الذي يتوسّط الطاولة، والذي لا أستطيع أن أصل إليه من دون عبور منطقة أبي الذرّية الخطيرة.

«أتساءل ما هي النظرة التي تظنين أنها يمكن أن تكون؟»، قال لأمي بذلك الصوت الخاص الذي يخاطب به الكلاب والمغفّلين.

أبعدت أمي شعرها عن وجهها وابتسمت له وهي تمدّ يدها إلى الطبق الخزفي الكبير، وقالت: «حسناً، لشيء واحد يا سيّدي، وهو ألا تأمل أنت والله الطيّب أن يضرب البرق هنا في الأشهر الستّة القادمة».

«أورليانا، اخرسي!»، صاح أبي، وأمسك بذراعها بقوة وانتشل الصحن من يدها. ثم رفعه فوق رأسها وألقى به بقوة فوق الطاولة، فانشطر الصحن إلى قسمين. وعندما كُسر انقلب النصف الأصغر رأساً على عقب ورقد هناك، وبدأ عصير موز الجنة الأسود يقطر منه فوق مفرش المائدة كما تسيل قطرات الدم.

وقفت أمي عاجزة لا تعرف ماذا تفعل، تمدّ يديها للصحن كما لو كانت ترغب في أن تصلح مشاعره المجروحة.

«إنك مغرمةٌ بهذا الصحن كثيراً. أتظنين أنني لا أعرف؟».

لم تردّ عليه.

«كنت آمل أن تعرفي أشياء أفضل بكثير من أن تضيّعي تفانيك على أشياء دنيوية من هذا العالم، لكن يبدو أنني كنت مخطئاً. إنني أشعر بالعار منك!».

«أنت محقّ» -قالت بهدوء- «كنتُ مغرمة بهذا الصحن كثيراً».

نظر إليها مليّاً. أبي ليس من أولئك الأشخاص الذي يدعونك تذهب من دون محاسبة، باعتذار بسيط. ثم سألها بابتسامة خبيثة: «لمن كنتِ تتباهين هنا، بمفرش مائدتك وصحنك الفاخر؟». قال هذه الكلمات على نحوٍ فظّ، كأنها خطايا معروفة. وقفت أمي أمامه وجفّ البريق كلّه من وجهها.

«وطعامك الكريه الذي يرثى له يا أورليانا؟ إن الطريق إلى قلب زنجي شاب هو من خلال معدته – هل كنت تعوّلين على هذا؟!».

فرغت عيناها الزرقاوان السماويتان مثل أواني ماءٍ مسطّحة. صدقاً لا يمكنك أن تعرف بمَ كانت تفكّر. كنت أراقب يديه دائماً لأرى بأي اتجاه ستضربان. إلا أن عيني أمي الضحلتين بالماء ظلّتا ترمقان وجهه من دون أن تنظرا إليه فعلاً.

أشاح أخيراً بعينيه عنها وعني باشمئزازه المعتاد. ثم ذهب وجلس إلى طاولة مكتبه، وتركنا كلّنا في صمت أشدّ من ذي قبل. أظن أنه كان يعمل على الموعظة الشهيرة التي وعد بها، والتي ستزيل اللبس وسوء التفاهم. وبما أن أناتول هو الشخص الوحيد الذي يقف إلى جانب أبي ويترجم له مواعظه إلى لغتهم، فإني متأكّدة من أنه يفكّر بأن أناتول نفسه سيكون أول شخص من بين المصلّين الأغبياء الذين سيصيبهم نور الله النقي.

إدا برايس

المشي للتعلّم. أنا والدرب الطويل. دربٌ طويلٌ الكونغو.

الكونغو دربٌ طويلٌ، الدرب الطويل وأنا. للتعلّم المشي.

هذا هو اسم قصّتي، إلى الأمام وإلى الوراء. مانين هي الكلمة التي تعني الدرب: مانين نينام، آمين! على مانين الكونغو الطويل تتعلّم إدا المشي، آمين! ذات يوم كادت ألّا تعود. ومثل دانيال دخلت عرين الأسود، لكنها تفتقر إلى روح دانيال النقية التي لا تشوبها شائبة، إدا مُتَبّلة بنكهات الرذيلة التي تجعل وجبة الطعام لذيذة. لا بدّ أن الأرواح النقية التي لا تشوبها شائبة لها نكهةٌ خفيفة، وتخلّف أثراً مرّاً.

لقد نقل تاتا ندو خبر موتي. تاتا ندو هو زعيم قرية كيلانغا وجميع القرى

المجاورة من عدة اتّجاهات. ويوجد وراء نظّارته ولباسه اللافت جبين أصلع بارز، وجسدٌ ضخم بجزء علوي مثلّث الشكل، يشبه جسم البلطجي الذي تراه في القصص المصوّرة. كيف سيعرف حتى عن شخص مثلي، أنا الفتاة البيضاء العرجاء الصغيرة، كما كانوا يسمّونني؟ ومع ذلك فقد فعل! ففي اليوم الذي جاء فيه إلى بيتنا كنت أسير في درب الغابة من النهر عائدة إلى البيت. كان حدثاً مفاجئاً بالنسبة له أن يأتي إلى بيتنا. فلم يأتِ قطّ لزيارة أبي، بل كان يتجنّبه، وكان يرسل إلينا أحياناً رسائل عن طريق أناتول، أو أحد أبنائه، أو من خلال سفراء صغار آخرين، أما اليوم فكان الأمر مختلفاً. لقد جاء لزيارة أبي لأنه علم أن أسداً التهمني.

كانت أمي قد أرسلتنا، أنا وليا، في عصر ذلك اليوم، لنجلب ماء. أُرسلنا معاً، نحن الأختان التوءم، المقيّدتان معاً دائماً في الحياة كما كنّا قبل الحياة. لم يكن أمامنا خيار آخر، لأن صاحبة السمو راشيل فوق العمل اليدوي، وروث ماي تحته، إذا جاز التعبير، لذلك كانت أمّنا ترى أننا، أنا وليا، الصالحتين لأداء هذه الأعمال. فكانت ترسلنا للتبضّع في يوم السوق، ونسير بين جميع تلك النسوة المخيفات لنجلب فواكه أو قِدراً أو أي شيء تحتاج إليه. حتى إنها ترسلنا أحياناً لنجلب اللحم من محل الجزّار، المكان الذي لا تضع فيه راشيل قدميها لأن الأمعاء والرؤوس مكدّسة فيه. يمكننا أن ننظر من الباب ونعرف متى يفتح الجزّار محلّه، عندما تمتلئ شجرة الكابوك الضخمة بالصقور السوداء. هذه هي الحقيقة. نسمّيها لوحة الإعلانات الكونغولية.

لكن قبل كل شيء كانت ترسلنا كلّ يوم لنجلب الماء. كان يصعب عليّ أن أحمل الدلو الثقيل بيدي السليمة، وكنت أسير ببطء شديد. شديد ببطء. كان من عادتي وأنا أسير في ذلك الدرب أن أردّد الجُمل إلى الأمام ثم أعكسها، لأن التركيز يحسّن من قدرتي على المشي، ويساعدني على نسيان

الملل الذي يعتريني من السير بطريقة واحدة فقط عبر العالم، طريقة سير الجسم البطيء، البطيء. فحملت ليا الماء كلّه ومضت قدماً، كعادتها دائماً.

كان درب الغابة يبدو كأنه شيء حيّ تحت قدميَّ يتقدّم قليلاً كل يوم. بالنسبة لي، على أي حال، هكذا كان يبدو. فقد كان يتجه أولاً من جانب واحد من باحة بيتنا إلى الجانب الآخر: الجانب الذي تستطيع أمّنا أن تراه وتعتبره آمناً إذا وقفت في المنتصف. في البداية، لم نكن نسمع إلّا القصص عن الجانب الشمالي من المسار، عندما تُطبق الغابة يوجد: جدول ماء، شلّال، بركٌ صغيرة فيها مياه صافية للسباحة. طريق يؤدي إلى جسر خشبي. طريق إلى قرية أخرى. طريق إلى ليوبولدفيل. طريق إلى القاهرة. كانت بعض هذه القصص حقيقية، وبعضها الآخر متخيّل. لأكتشف الخطّ الفاصل بينهما قررت أن أمشي. عزمت على معرفة بضع خطوات أكثر من هذا الدرب كلّ يوم. وخُيِّل إليّ أنني إذا سرت مسافة أبعد، فإني سأصل إلى جوهانسبرغ ثم إلى مصر. كانت جميع أخواتي يردن السفر بالطائرة، ما عدا راشيل التي تريد أن تصعد إلى السماء مباشرة بواسطة قدرة عقلية فائقة، أما طريقي أنا فهو بطيء جداً، ومن المؤكّد أنه السير على القدمين. فأنا لا أمتلك كاكاكاكا التي تعني بلغة الكيكونغو السرعة، لكنّي أستطيع أن أمشي مسافة طويلة من دون كاكاكاكا. فقد مشيت للتو حتى وصلت إلى البرك وإلى الجسر الخشبي في الشمال. أما في الجنوب، فإلى أماكن رأيت فيها نسوة يحملن أطفالاً صغاراً على حمّالات فوق ظهورهن، ينحنين ويحفرن بأوتاد وينشدن أغانيَ (لا تراتيل) ويزرعن المانيوك. الجميع يعرفون تلك الأماكن. لكن من دون كاكاكاكا فإني أكتشف مناظر جديدة بنفسي: كيف تنهض النسوة اللاتي يعملن في حقولهن، الواحدة تلو الأخرى، ثم يفتحن أثواب الباني المصنوعة من قماشٍ زاهٍ، والمعقودة تحت صدورهن، يمطّطنها واسعاً ثم يعقدنها من جديد. إنهن يشبهن أسراب الفراشات التي تبسط أجنحتها ثم تغلقها.

رأيت فيلة الغابة الصغيرة وهي تتحرّك في مجموعات هادئة، تدفع الأشجار بأنيابها الوردية الصغيرة. ورأيت مجموعات من الأقزام أيضاً، الذين يكشفون، عندما يبتسمون، عن أسنان مسنّنة ذات حواف مدبّبة حادّة. مع ذلك فإنهم أناس لطيفون، وصغار القامة إلى درجة لا تصدّق. ويمكنك أن تميّز الرجال عن النساء من اللحى والأثداء، ومن الطريقة التي يتحرّكون بها لحماية أطفالهم. وهم يرونك دائماً أولاً، فيقفون ساكنين مثل جذوع الأشجار.

اكتشفتُ بيديلا ديابفومو، مقبرة الأطباء المشعوذين.

اكتشفتُ طيراً له رأس أسود وذيل بنّي ضارب إلى الحمرة، طوله بطول ذراعي، منحنٍ كالقوس. وفي «الدليل الميداني للطيور الإفريقية» الذي تركه لنا الأخ فاولز المهتم بالطيور، فإن طيري هذا يُدعى صائد ذباب الجنة. وفي دفتر الملاحظات الذي أحتفظ به داخل غطاء وسادتي، والذي أرسم فيه كل الأشياء التي أعرفها، رسمت ابتسامة على وجه صائد ذباب الجنة وكتبت تحتها، بشِفرتي المقلوبة من أجل السرية:

NEVAEH NI SEILF FO FOORP WEN REHCTACYLF ESIDARAP(*).

اعتدتُ على اللحاق بالببغاء ميثوسالا أيضاً عندما يحلّق ويدور حول بيتنا في طيران حلزوني غير واثق. ويجثم داخل مرحاضنا، بالقرب من المكان الذي ألقى فيه القس قفصه الفارغ بين الأعشاب حيث بدأ هيكله يتعفّن مثل سفينة محطّمة. وميثوسالا، مثلي، كسيح: حطام إفريقيا البرّيّة. فمنذ زمن المسيح، كان يعيش فوق عصا طولها سبع عشرة بوصة، أما الآن فأصبح له عالم. لكن ما الذي يستطيع أن يفعل به؟ فلا توجد قوة عضلية في جناحيه اللذين ضمرا، وقد لا تكون هناك إمكانية لاستعادتهما. وفي المكان

(*) تُقرأ الجملة من النهاية إلى البداية، وحروف كل كلمة منها مكتوبة من اليمين إلى اليسار. وترجمتها: «صائد ذباب الجنة دليلٌ جديد على وجود الذباب في الجنة». [م].

الذي كان ينبغي أن تبرز فيه عضلات صدره، لديه صدر مثقل بكلمات البشر: كلمات دفينة، حرّة مثل طائر سخيف، غير مسموع. يرفرف أحياناً بجناحيه كما لو كان يريد أن يتذكّر الطيران، كما فعل في أول ذعرٍ مبتهج لإطلاقه. لكن استقلاله تجمّد في تلك اللحظة. أما الآن، وبعد أن يفرد جناحيه، يعود ويسحبهما، ويمدّ رأسه ويتهادى في مشيته، ويصعد بصعوبة إلى غصن ثم إلى غصن آخر. يزحف ميثوسالا كل صباح للخروج من الفتحة الصغيرة تحت العوارض الخشبية لمرحاضنا، يرفع رأسه، ينظر إلى الأعلى بعين عصبيّة كأنه يصلي: يا إله الريش، خلّصني اليوم من الحيوانات المفترسة التي يمكن أن تمزّقني من صدري حتى عظم الترقوة! ومن هناك، أتعقّب دربه. أقدّم له حبات الجوافة والأفوكادو التي أقطفها وأفتحها وأعطيها له ليأكلها. لا أعتقد أنه يستطيع التعرّف بمفرده على هذه الثمار وهي مخفية بالكامل داخل قشرتها، وعندما يتعلّم ذلك، يجب أن يتعلّم خطوة أخرى ليفهم أنّ هذه الفاكهة يجب ألّا يتوقّعها من البشر، وإنما تنمو على الأشجار. تزدهر الخيانة من دون أشخاص طيّبين(*).

في أثناء متابعة ميثوسالا في غزواته البطيئة داخل الغابة، اكتشفتُ الصبية والرجال الذين يتدرّبون. لم يكونوا جنوداً في الجيش البلجيكي، المكلّفين بحماية «البيض»، وإنما مجموعة من الشبان الذين يلتقون في الغابة سراً وراء بيتنا. وعلمت أنّ أناتول لم يكن مجرّد معلّم تلاميذ في المدرسة ومترجم مواعظ فحسب. آه أناتول، الكثير من آها! (Ah Anatole, the lot an aha!) لم يكن يحمل بندقية في المكان الذي أتجسس فيه عليه، لكنه كان يكلّم الرجال المسلّحين الذين ينصتون إليه باهتمام. وبمجرّد أن قرأ عليهم

(*) في اللغة الإنكليزية هذه العبارة هي العبارة نفسها التي تسبقها مباشرة، ولكن بقراءتها بشكل معكوس (من اليمين إلى اليسار) مع وجود اختلاف صغير. [م].
mankind for, but grows on trees. Treason grows but for kind man.

بصوتٍ عالٍ رسالة مفادها أن البلجيكيين وضعوا جدولاً زمنياً للاستقلال -ذكر أناتول سنة 1964. قال ذلك بالفرنسية: «*Mil neuf cent soixante quatre!*»- أرجع الرجال رؤوسهم إلى الوراء وراحوا يضحكون بضراوة. كانوا يصرخون كأنّ جلدهم قد تمزّق.

لم أكن خائفة، لأنني تعوّدت على السير بمفردي. كانت أمي تمنعني من السير وحدي، خصوصاً عندما يقترب الظلام. كان ذلك شيئاً سرّياً، ولم تكن أمي تعرف عندما كانت ترسلني مع ليا إلى أيّ مكان، كما حدث في ذلك اليوم عندما أرسلتنا إلى النهر لنجلب الماء، أن ذلك يعني أنني سأعود وحدي.

كان ذلك في بداية المساء، عندما مررت عبر ضوء مرقّط، ثم منطقة أكثر إضاءة، تنتصب فيها أعشاب طويلة جداً تنحني من كلا الجانبين لتشكّل نفقاً، ثمّ تحت الأشجار مرة أخرى. كانت ليا قد سبقتني مسافة طويلة وهي تحمل الماء. لكني أحسست بأن أحداً يتعقّبني، أحداً أو شيئاً. أدركت أنني ملاحقة. لا يمكنني أن أقول إنني سمعت شيئاً، لكنّي كنت أعرف! ظننت أنّ ميثوسالا يلاعبني، أو الأقزام. لكنّي كنت أعرف أكثر. انتبهت إلى الشعيرات التي انتصبت خلف رقبتي. لم أخف لأن ذلك لا يفيد في حالتي، فأنا لا يمكنني أن أهرب بسبب التأثيرات العضلية التي يحدثها الأدرينالين، لكنّي أستطيع أن أتذوّق طعم الخوف أسفل حنجرتي، وأحسّ بثقله البائس في أطرافي المترهلة. بالنسبة للبعض، سمعت أن هذا العجز الثقيل يأتي في الأحلام. أما أنا، فقد جاء في حياتي. في حياتي، أنا إدا، يجب عليّ أن أتعامل بطريقتي مع المفترس.

توقّفت، استدرت ببطء، نظرت إلى الوراء. توقّفت الحركة ورائي أيضاً: تناهى إليّ صوت حفيف أخير في العشب الطويل على جانب الدرب، مثل صوت تأرجح ستارة مخملية وهي تنزل. كلّما كنت أقف، كان ذلك يحدث.

ثمّ قبعت في الظلام الذي يخيّم عليه السكون، حتى لم يعد باستطاعتي أن أنتظر أكثر، فواصلت سيري.

هذا ما أعني به بأنني بطيئة جداً: فقد انتهت القصّة التي تريد أن تحكيها قبل أن تتمكّن حتى من أن تفتح فمك. وعندما وصلتُ إلى بيتنا، كان الوقت ليلاً في حياة أخرى.

الغروب في الساعة السادسة يعني أنّ الحياة تستمر بعد حلول الظلام: القراءة على ضوء المصباح في الشرفة، موعد لقاء أسرتنا المسائي. عادت ليا إلى البيت حاملةً دلاء الماء الذي غلته أمي ووضعته في الخارج حتى يبرد وراحت تحضّر العشاء. وغمرت راشيل قطعة قماش في الماء لتضعها على جبينها وهي لا تزال مستلقية على الأرجوحة تتفحّص مسامات بشرتها في مرآة اليد. وحاولت روث ماي أن تقنع الأسرة كلها، الواحد تلو الآخر، بأنها تستطيع أن ترفع دلو ماء كاملاً وحدها بذراعها غير المكسورة. لم أكن بحاجة أن أكون هنا لأعرف أن كل ذلك قد حدث. وفي مكان ما في وسط هذه الجلبة الأسرية الخافتة، كان من المفترض أن أكون مشغولةً في شؤوني الخاصة لعدّة ساعات. وعندما عدت أخيراً إلى البيت، كان يبدو كما لو أنني، كالمعتاد، جئت متأخرة. انسللت إلى الأرجوحة في الجانب الآخر من الشرفة، واسترخيت تحت نبتة الجهنمية الداكنة.

بعد حين ظهر تاتا ندو من جنح الظلام. صعد الدرج إلى الشرفة ليشرح بلغته الفرنسية الرسمية أنهم اكتشفوا آثار أقدام أسدٍ ضخم، ذكرٌ صائدٌ وحيد، رُصد على الدرب القادم من النهر. وأن ابن تاتا ندو البكر كان قد مرَّ من هناك منذ قليل ونقل هذا الخبر. فقد رأى آثار الفتاة الصغيرة التي تجرّ قدمها اليمنى، ولا تزال آثار قوائم الأسد طازجة تغطّي آثار قدميها. ورأى آثار مطاردة، وآثار انقضاض، وبقعة دم طازجة تمتد حتى الأجمة. وهكذا عرفوا أن الطفلة البيضاء الصغيرة العرجاء، الفتاة الصغيرة التي لا تمتلك

كاكاكاكا، قد التُهمت. *La petite blanche tordue a été mangée*. كان هذا هو الخبر الحزين الذي نقله تاتا ندو. مع ذلك، فقد كان يبدو سعيداً، وأنه من أجل والدَيّ، أرسل عدداً من الشبان، ومنهم أبناؤه، إلى الغابة ليبحثوا عن الجثة، أو ما تبقى منها.

اكتشفتُ أنني لم أعد أقوى على التنفّس عندما رأيت وجهه وهو يحكي هذه القصّة، ووجوه الآخرين وهم يتلقّون الخبر. لم تفهم أخواتي كلمات تاتا ندو المختلطة بين الفرنسية والكيكونغو، لكنهن كنّ مفتونات لأن شخصية بارزة تقف في شرفة بيتنا. كنت آخر شيء يخطر في بالهن، حتى في بال ليا التي تركتني أمام عرين الأسد المقصود بكلامه. أما أمّي: نعم. لا! فهمت. فقد اندفعت إلى الشرفة من كوخ المطبخ وهي تحمل ملعقة خشبية كبيرة يقطر منها ماء يتصاعد منه البخار، وقد سقطت خصلات من شعرها على وجهها، وبدت بقية جسدها بلا حياة، وأصبحت مثل تمثال شاحب من الشمع: هذه المرأة التي لا تستطيع أن تحارب النار بالنار حتى كي تنقذ طفلاتها. رأيت هذا العذاب على وجهها وصدّقت لوهلة بأنني متّ. تخيّلت عيني الأسد منصبّة عليّ مثل عيني رجل شرير، وأحسست بلحمي يؤكل. أصبحت لا شيء.

نهض أبونا وقال بصوتٍ آمر: «فلنصلِّ إلى الربّ من أجل الرحمة والتفاهم!».

لم يحنِ تاتا ندو رأسه، وإنما رفعه، لا بسعادة، وإنما بفخر. ثمّ فهمت أنه انتصر، وأن أبي خسر. فقد جاء تاتا ندو إلى بيتنا بنفسه ليقول لنا إنّ آلهة قريته لم يرُق لها الفساد الذي جلبه القسّ، ولإثبات استيائها منه، التهمت ابنته وهي على قيد الحياة.

كان من المستحيل تقريباً أن أقف وأتقدّم إلى الأمام، لكنّي فعلت ذلك. هذه المرة، توقّف أبونا عن الصلاة. رجع تاتا ندو إلى الوراء، وضيّق عينيه.

ربما لم يكن يريد أن أُتهم، لكنه لم يكن يريد أن يكون مخطئاً أيضاً. لم يقل شيئاً أكثر من مبوته - إلى اللقاء، ودار على عقبيه بوقار وتركنا وحدنا. ولم يعد إلى بيتنا ثانية، إلّا بعد فترة طويلة، بعد أن تغيّرت أشياء كثيرة.

في صباح اليوم التالي، سمعنا أنّ فريق الشبان الذين كانوا يبحثون عني وجدوا الشيء الذي افترسه الأسد: ظبي الشجيرات. أتساءل: كم كان حجمه؟ كم كان ضعيفاً؟ هل خاب أمل الأسد به؟ وهل كان الظبي يحبّ حياته؟ أتساءل ما إن كان الدين يمكن أن يعيش أو يموت بتأثير قوة نسيم خافتة باهتة، يتغيّر مسار الرائحة مما يتسبب في أن يضيّع المفترس فريسته. إلهٌ يسحب نَفَس الحياة وينهض، وإلهٌ آخر ينتهي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ليا

يرسل البعض رسالة شكر بعد أن تدعوهم إلى العشاء، أما أناتول فقد أرسل لنا فتىً. جاء إلى باب بيتنا يحمل رسالة خطية قصيرة وقال إنّ اسمه ليكويو، لكنه طلب منا أن نسمّيه نِلسون. كان علينا أن نقدّم له وجبات الطعام، وأن ينام في قنّ الدجاج وراء بيتنا (الذي عادت إليه عدة دجاجات حذرة، بعد أن اختبأت في أثناء الحملة التي شنّتها أمّنا لقتلها من أجل النزهة)، كما يجب أن نقدّم له سلّة بيض كلّ أسبوع فيبيعها ويوفّر نقوداً تمكّنه من أن يتزوّج. وفي مقابل ذلك، سيجمع لنا نِلسون الحطب، ويغلي القدور المليئة بعجينة مانيوك، ويجلب لنا الفواكه والخضراوات واللحاء من الغابة. وقد أعدَّ علاجاً للصداع أصبحت أمي تعتمد عليه. وكان يعرف أنواع الأفاعي وقدرة كل أفعى على قتلنا، وكان يشرح لنا ذلك بإيماءات درامية في الشرفة الأمامية. وكان يؤدي أيضاً مهامّ مفاجئة أخرى في بيتنا، بمبادرة شخصية منه. ففي أحد الأيام، مثلاً، صنع إطاراً من الخيزران لمرآة راشيل، وأصبح

بإمكاننا أن نعلّقها على جدار غرفة الجلوس وننظر إلى أنفسنا بشكل أفضل. ثم بدأ نِلسون يقف كلّ يوم ووجهه لا يبعد أكثر من ثلاث بوصات من المرآة المؤطّرة، ويمشّط شعره الخفيف بجهد كبير في غرفة الجلوس، وكان يبتسم في أثناء ذلك ابتسامة عريضة لدرجة أننا كنّا نخشى أن تخرج أضراسه من فمه. وبدأ أشخاص آخرون يدخلون إلى بيتنا أيضاً لاستخدام مرآتنا بالطريقة نفسها. كان من الواضح أن ذلك الشيء المعلّق على جدار غرفتنا هو المرآة الوحيدة في كيلانغا كلّها.

عندما كان نِلسون ينظر إلى صورته المنعكسة في المرآة، كنت أجد نفسي أنظر إليه بإمعان: مرفقاه اللذان اسودّا من كثرة استخدامهما، بشرته المتعددة الدرجات من اللون البني، مثل قطع أثاث الماهوغني القديمة. ولأنه اعتاد على مضغ قصب السكر، فإنّ أسنانه الأمامية الضيّقة ذهبت كلّها تقريباً إلى الآخرة الحلوة. وعندما يبتسم ابتسامة عريضة كانت أنيابه تلمع بطريقة بشعة مثل أنياب قرد فاغر الفم. مع ذلك، فإنه عندما يبتسم، كنت تعرف أنه يعني تلك الابتسامة حقاً. وهو فتى مرح ونظيف، ولم يكن عنده أي ممتلكات إلّا بنطاله الشورت البني الكبير ذا المقعد السليم، وقميص قطني أحمر يرتديه كلّ يوم طوال حياته، وحزام جلدي، ومشط بلاستيكي وردي، وكتاب قواعد اللغة الفرنسية، ومنجل. وهكذا أينما رحل نلسون فإنه يرحل بخفّة لأنه لا يملك أشياء عديدة. ويحافظ على شعره قصيراً جداً، وتوجد في مؤخرة رقبته ندبة وردية مستديرة. كان أناتول قد اختار نِلسون لمساعدتنا لأنه -مثل أناتول- يتيم. فقبل بضع سنوات، غرق جميع أفراد أسرة نِلسون: أمه وأبوه وإخوته الأكبر سناً، وأخته المولودة حديثاً، عندما انقلب القارب بهم في النهر. إن القوارب الكونغولية مصنوعة من خشب سميك يغطس في الماء في أول فرصة له كما يغطس الحديد الثقيل. وبما أن معظم الكونغوليين لا يجيدون السباحة، فقد يُخيَّل إليك أنهم سيرون ذلك عقبةً أمام السفر في

النهر، لكن الأمر ليس كذلك. فهم يتنقّلون إلى أعلى النهر وأسفله مبتهجين، من دون أن يخطر ببالهم أبداً أن القارب قد ينقلب ويغرقون. وقال نِلسون إنه بالمصادفة، بقي وحده في ذلك اليوم المشؤوم. وقال إن أمّه كانت متحمّسة لأخذ طفلتها الرضيعة في زيارة لأقاربها الذين يعيشون في قرية في أعلى النهر، لكي يروها، لذا شعر بالغيرة، واختبأ، فنسيته أمّه ولم تأخذه معها.

بسبب هذا فإن نِلسون يؤمن كثيراً بالإشارات والخرافات، ويجد نفسه الآن في وضع لا يعرف ماذا يفعل فيه، لأنه لم تعد له أسرة تعتني به، وقد أنهى المدرسة بعد أن تجاوز الثانية عشرة من عمره.

كتب أناتول في الرسالة التي أرسلها معه إنه من أفضل تلامذته، وإننا سنرى ذلك قريباً. وقد رأينا بالفعل. ففي اليوم الذي طرق فيه نِلسون باب بيتنا لم يكن يعرف قول شيء بالإنكليزية سوى «كيف حالك، وشكراً، ومن فضلك»، لكن بعد بضعة أسابيع، أصبح بإمكانه أن يقول جميع الأشياء الهامة، من دون أن يقلب الكلمات رأساً على عقب كما تفعل ماما تاتابا. أقول إن نِلسون فتىً موهوب. لكنّي أقول أيضاً إن الشخص الموهوب لا يساوي كومة من الفاصولياء في الكونغو التي لا يُسمح فيها حتى لشخص ذكي مثل نِلسون أن يذهب إلى الجامعة، مثلنا، نحن فتيات برايس. وكما قال السيّد والسيّدة أندرداون، فإن البلجيكيين يبذلون كل ما بوسعهم للحيلولة دون ظهور أي فكرٍ مستقل في أرض الكونغو. إذا كان الأمر كذلك، فإني أتساءل كيف جعل السيّد والسيّدة أندرداون أناتول معلّم المدرسة، مثلاً. تتوارد إلى ذهني أحياناً مشاهد بأنني أسأله ذلك. عندما نستلقي أنا وأخواتي بعد الغداء ولا يكون عقلي مشغولاً بشيء، تتوارد هذه المشاهد إلى ذهني: نمشي أنا وأناتول في الدرب نحو النهر، وهناك سبب وجيه لفعل ذلك، إمّا ليساعدني في حمل شيء إلى البيت، وإما لأنه طلب مني أن أشرح له نقطة غامضة لم يفهمها في الكتاب المقدّس. وفي ذلك المشهد المتخيّل، فقد سامح أبي

أناتول وأصبح يشجّع على صداقته مع أسرتنا. ولدى أناتول ابتسامة متفهّمة، وتوجد بين أسنانه الأمامية الجميلة فجوة طفيفة، وأتخيّل أن تلك الابتسامة تشجعني لسؤاله عن وجهه المدهش: كيف حُفرت كلّ تلك الندوب بخطٍّ مستقيم تماماً؟ وهل آلمته كثيراً؟ ثم يحدّثني عن مزارع المطاط، عن شكلها، فقد قرأت في أحد الكتب أنهم يقطعون أيدي العمّال إذا لم يجمعوا كمية كافية من المطاط في آخر النهار. وأن المشرفين البلجيكيين يجلبون سلالاً مليئة بالأيدي السمراء إلى رئيسهم، مكوّمة مثل أكداس من الأسماك. هل يمكن للمسيحيين البيض المتحضّرين أن يفعلوا مثل هذا الشيء؟

في مخيّلتي أتحدّث مع أناتول بالإنكليزية مع أنه يتحدّث بلغة الكيكونغو في الحياة الفعلية مع تلامذته، وتختلف لهجته عندما يتحدّث بالكيكونغولية عن لهجة الآخرين - حتى أنني أستطيع أن أميّز ذلك. فهو يسحب فمه ليكوّن أشكالاً دقيقة واسعة حول أسنانه كما لو أنه يخشى أن يُساء فهمه. أظن أن أناتول يساعد أسرتنا لأنه غريب هنا أيضاً، مثلنا، ولعلّه يتعاطف مع محنتنا. ويبدو أن أبي يشعر بالامتنان له لأنه ما زال يريد أن يترجم مواعظه، حتى بعد الجدال الذي دار بينهما. لو كان أناتول يفقه أكثر في الكتاب المقدّس لكان من الممكن أن يصبح صديقاً لأبي.

لقد شعرنا بالحيرة من السبب الذي دفعه ليكون لطيفاً لدرجة أن يرسل نِلسون لنا، على الرغم مما حصل. وعندما جلب نِلسون الماء لأول مرة وغلاه وحده، شعرت أمي بالامتنان وجلست على الكرسي وأجهشت في البكاء. هذا التلميذ هدية كبيرة. نظريتي تقول إن أناتول رأى شيئين في بيتنا: الأول، كتب كثيرة يمكن لصبي ذكي أن يقرأها، حتى لو لم يعد باستطاعته أن يذهب إلى المدرسة بعد الآن، والثاني، أننا بحاجة إلى مساعدة بقدر ما كان أبناء موسى بحاجة إلى موسى. وعند اقتراب عيد الشكر، بدأت أمي تدعو الله بصوتٍ عالٍ أمام أبي بأن يخلّصنا ويخرجنا من هذا المكان، لكن

أبي لم يعجبه أن تُظهر أمي مثل هذا الافتقار إلى الإيمان، وقال لها ذلك. صحيح أن روث ماي أفزعتنا كثيراً، لكنّه ذكّر أمّنا، بعقلانية، بأن ذراع طفل قد تُكسر في جورجيا أو في مدينة كانساس أو في أي مكان آخر. في الواقع، إذا حدث شيءٌ من هذا القبيل لأحدٍ منا، فلا يمكن أن تكون إلا روث ماي التي تبدو كما لو أنها تخطط أن تعيش الحياة كلّها قبل أن تبلغ العشرين من عمرها. أكره أن أقول ذلك، لكن إذا عنيدة وعازمة على أن تدمّر نفسها بطريقتها البطيئة جداً. فلم يطلب منها أحد أن تمشي في الغابة وحدها. كان بإمكانها أن تبقى معي. إن الربّ هو راعينا وكلّ ما يمكننا أن نفعله، نحن خرافه، هو أن نبقى في القطيع، بأساليبنا الخاصة، كما أظن. خاصة أننا كبرنا الآن ولم يعد على الكبار أن يطلبوا منا ذلك. لا بدّ أنكم ترون دائماً فتاتين توءماً تمشيان معاً مثل طفلتين، لكنّكم لا ترون أبداً امرأتين ناضجتين تسيران في ثياب متماثلة، إحداهما تمسك بيد الأخرى. هل يجب -فقط لأننا توءم- أن يستمر ذلك إلى الأبد؟

مع ذلك، كان يتعيّن علينا أن نكتب كلتانا الآية 4 من سِفْر التكوين، عن قابيل وهابيل، بعد ادعائها بمناوشتها مع الأسد. ومع كل هذا، ومع الذراع المكسورة، بدأت أمّنا تخاف على حياتنا كثيراً.

كان الفصل الماطر ثقيلاً جداً وأغرق القرية كلها بـ كاكاكاكا. ظننّا أن هذا يعني «السرعة» فقط. وعندما قالت ماما موانزا إن جميع أطفالها بدؤوا يصابون بها، خُيِّل إلينا أنهم أصبحوا أكثر هياجاً وبدؤوا يوبّخونهم للقيام بأعمالهم الروتينية. لكن نِلسون قال لنا: «لا، لا، ماما برايس، إن كاكاكاكا هو مرض يجعلك تذهبين إلى الحمّام ألف مرة في اليوم» (ومثّل ذلك لنا بحركات إيمائية صامتة جعلت روث ماي تنفجر ضحكاً)، وقال إنّك تضطرين إلى الذهاب إلى الحمّام مرات كثيرة حتى لا يبقى شيء في داخلك، وقد يموت الأطفال في بعض الأحيان.

حسناً، يقول نِلسون أشياء كثيرة، منها على سبيل المثال: إذا صادفت غصنين متصالبين في شكل X في الطريق عليك أن تقفز فوقهما إلى الخلف بقدمك اليسرى. لذلك لم نعرف ما إن كان علينا أن نصدّق ما قاله عن المرض. لكن الشيء التالي الذي عرفناه، هو أن أفراد الأسرة الذين يعيشون في البيت الصغير أسفل الطريق قد وضعوا قوساً جنائزياً من سعف النخيل المضفور والأزهار والوجوه الحزينة في الباحة. لكن لم يكن الميّت طفلاً رضيعاً، وإنما أمّهم جميعاً التي بغيابها بدا الجميع أكثر نحافةً وبؤساً، كما لو أن الأسرة كلّها فقدت أسباب العيش حين رحلت الأم. عليك أن تتساءل عن سبب الوفاة، وإن كان ينتقل بالعدوى!

لقد وضع كلّ ذلك أمي في حالة عقلية جديدة تماماً. العدوى التي هي أسوأ من الأفاعي لأنك لا تستطيع أن تراها قادمة إليك! وتذرّعت بمئة عذر وعذر كي تبقينا في البيت حتى عندما لا تهطل الأمطار. واخترعت لنا «وقت الراحة»، فترة من الخمول اللانهائي بعد الدراسة وتناول الغداء، فأصبح يتعيّن علينا أن نبقى في أسرّتنا تحت ناموسياتنا. وسمّت أمّنا ذلك «وقت القيلولة» التي أسأت فهمها في البداية فظننت أنها «وقت العيد»(*)، وقد أربكني ذلك لأنها لم تكن احتفاليةً على الإطلاق. كانت روث ماي تغطّ في النوم عادة، فمها فاغر في هذه الحرارة الشديدة، شعرها ملتصق بوجهها المتعرّق مثل صورة الطفل المصاب بالحمّى في الملصق. وكنا نتعرّق كالخنازير عندما نتمدّد واحدتنا بجانب الأخرى في سريرنا ذي الإطار المعدني، لا يفصل بيننا شيء سوى جدران ناموسيتنا الشبحية، نتبادل الشتائم بسبب الغضب الذي يعترينا وتمنّينا أن نغادر السرير. لم يكن عندي شيء أقرؤه سوى «التوءم بوبسي في أرض الأسكيمو» وهو كتاب طفولي لا يوجد فيه شيء يشدّ اهتمامي. كنت أحسد هذين البوبسيَّين الأحمقين لأنه توجد لديهما مغامرة

(*) لاحظ التشابه بين Siesta time وfiesta time. [م].

رائعة مقارنة بنا، في ذلك المكان البارد الذي تغطيه الثلوج، والذي لا تُفرض فيه على أحد القيلولة قسراً.

لقد افتقدتُ حريتي. كانت هناك أشياء كثيرة يجب أن أتابعها في القرية، أولها إيبين أكسلروت. كان ثمة شيء يجري هناك. فعندما تجسّسنا عليه، أنا وإدا، آخر مرة، سمعنا جهاز اللاسلكي يقول شيئاً بصوتٍ عالٍ عن جريمة قتل دامية، ولأول مرة رأيناه يجيب عليه، فتدحرج فوق سريره الضيّق وهمس كلمات أعرف أنني سأذهب إلى جهنم لمجرّد سماعها. فقد جثا أمام الخزانة التي تزأر ووضع شيئاً فيه سلك على رأسه، وقال: «فهمت»، وكرّر هذه الكلمة مراراً، و«سيكون في عداد الموتى إذا فعل ذلك، يا سيّدي». يا إلهي، الرحمة! يجب أن أغادر هذا المكان بسرعة.

قد لا أعرف أبداً من هو أو ما هو الشيء الذي سيكون في عداد الموتى، فقد بدا الأمر كما لو أننا سنضطر إلى الاستلقاء في سريرنا إلى الأبد ما دامت الأمطار تهطل. على الأقل كانت راشيل مفيدة، لمرة واحدة في حياتها. فعندما كنا نشعر بالضيق كانت راشيل تُضحكنا بموهبتها في تقليد الإعلانات التجارية التي كانت تُبثّ في المذياع بصوت عارضة أزياء جميل: «لقد اختُبر طبياً أودو-رو-نو، إنه يزيل رائحة الإبط والعرق من المنبع»، كانت تلقي برأسها إلى الوراء ثمّ ترمي ذراعيها في الهواء، وتكشف عن إبطيها الداكنين. وكانت أيضاً تعرض منتجات شعر مختلفة، فتلفّ لبدتها البيضاء الأمامية وترفعها في شكل كعكة فوق رأسها، وتقول: «من أجل مظهر فاخر جديد اليوم». وكانت تحبّ أن تذكّرنا بحليب البودرة الجاف كارنيشن الخالي من الدسم («بلورات سحرية جديدة تذوب على الفور!») الذي أصبح غذاءنا الأساسي، ولم يكن يذوب على الفور بل كان يتخثّر مثل دم أبيض في كؤوسنا. لقد سئمنا تلك الكتل المتبلورة التي كانت تخنقنا في أحلامنا.

لكن عاجلاً أم آجلاً، كان معين الإعلانات التجارية ينضب، مثل لعبة

توشك على الانتهاء، فنلوذ كلّنا بالصمت، ونعود بكآبة إلى كتبنا. كانت المواد التي نقرؤها عشوائية وغير مناسبة تُرسل إلينا من ليوبولدڤيل في صناديق كرتون لا يوجد عليها عنوان. كنا نشكّ بأن السيّد أكسلروت يأخذ الصناديق الأفضل إلى الأطفال الأوفر حظاً في أماكن أخرى. عندما كنّا في مدينتنا في بيت لحم، كنّا ننظّم حملات توزيع كتب على الأطفال الفقراء والمحرومين، أما الآن فإني أرثي لحال أولئك الأطفال الذين يحصلون على رواياتنا الرديئة المغبرّة وأدلّة أعمال عتيقة لتعليم النجارة في البيت، وكنّا نتوقّع أن يكونوا ممتنّين لنا لأننا نقدّمها لهم. وعندما نعود إلى بلدنا، فإني أقسم إنني سأعطي أفضل كتبي كلّها للأطفال الفقراء، ما إن أنهي قراءتها.

من المدرسة التي أحضرتُ منها سلسلة روايات الأطفال «بوبسي التوءم»، اخترتُ «نانسي درو»(*) بدافع الضجر المحض، وأشعر بالذنب والغضب لأنني انحدرتُ إلى هذا المستوى، على الرغم من أني فتاةٌ شابّة تحيض وتقرأ كتباً على مستوى الجامعة، مع ذلك يجب أن أعترف بأن بعض قصص «نانسي درو» كانت تلفت انتباهي. إحدى تلك القصص كانت تدور أحداثها في قبو سرّيّ غريب، وقد جعلتني أنحرف عن الطريق القويم، فعندما كنت أستلقي على السرير محاولةً النوم، كنت أغرق في تخيّلات طويلة تبدو آثمة. ربما كان صحيحاً القول المعروف بأن العقل الخامل يعمل فيه الشيطان. فقد بدأت تراودني آنذاك أفكار شيطانية. تخيّلت نانسي وهي تهبط درجات سلم حديدي طويل يفضي إلى العالم السفلي، ورجل يقف بانتظارها في الأسفل، يكون أحياناً مجرّد رجل مجهول غامض يعتمر قبّعة، وفي أحيان أخرى ترتسم على وجهه تلك الابتسامة التي تكشف عن أسنان بينها فجوة، وله وجه أنيق مليء بالندوب، وفي أحيان أخرى، يكون ذلك الشيطان الأحمر الذي يتربّص بعلب لحم الخنزير ماركة أوندروود،

(*) شخصية خيالية، بطلة سلسلة غموض أميركية. [م].

راضياً عن نفسه وفاسداً يضع ربطة عنق بشكل فراشة، وله شارب وذيل ذنبه يشبه رأس السهم. عندما حلمت بذلك لأول مرّة، لم أكن أعرف ما إن كنت صاحية أم أنني أغطّ في نوم محموم مليء بالألوان. لكن كلّ ما أعرفه هو أنني انتُشلت من الحلم فجأة، وقد غمرتني رائحة عرقي النفّاذة، وشعرت بوخزات ويقظة محسوسة أسفل خصري. كنت أعرف أن هذا الإحساس إثمٌ كبير. ومع ذلك، فقد كانت تراودني أحلام كثيرة كهذه، وكنت أحياناً -وأنا متأكّدة من ذلك- ما أزال نصف مستيقظة عندما كانت تبدأ.

بعد بضعة أسابيع ازدادت الحمّى التي كانت تصيبني وضوحاً، فخمّنت أمي أن جرعة الكينين التي كانت تعطيني إياها أقل مما يجب لأني ضخمة الجسم ونشيطة بالنسبة لعمري. ثم تبيّن بعد ذلك أن تلك الأحاسيس التي أشعر بها أسفل وسطي لم تكن سوى أثر جانبي لمرض الملاريا.

***

عند اقتراب عيد الميلاد، أعطتنا أمّنا جميع الأشياء المتعلّقة بشغل الإبرة والتطريز. كنا نعلم أننا لا نتوقّع الكثير، وكي لا ننسى، فإن موعظة أبي صبيحة عيد الميلاد كانت عن الشعور بوجود النعمة في قلبك، التي تحلّ محلّ شهوة الأشياء المادية. ومن أجل شجرة عيد الميلاد، جلبنا أوراق شجرة نخيل ووضعناها في دلو مليء بالحصى. وعندما تحلّقنا حولها بانتظار دورنا لنفتح هدايانا الزهيدة، حدّقت في السعف المثيرة للشفقة التي تحوّلت حوافها إلى اللون البني، وكانت مزيّنة بملائكة فرانجيباني بيضاء. ثم قرّرت أن أتجاهل الأمر برمته. فحتى لو بلغتِ مؤخراً الخامسة عشرة من عمرك، ولم يكن هناك كيك عيد ميلاد، فإنه من الصعب أن يكون المرء ناضجاً تماماً إذا ما تعلّق الأمر بـ«الكريسماس».

قالت أمي إن علينا، نحن البنات، أن نستغل وقت فراغنا في صنع «صناديق الأمل». كنت قد سمعت عن هذا الشيء من قبل، ولكني لم أفكّر

فيه ولو للحظةٍ واحدة. وكنت قد رأيت إعلانات مارك إيدن على الغلاف الخلفي في الكتب المصوّرة، وكانت تعد بأشياء تجعلني أشعر بالحرج عندما أنظر إليها، ولذا افترضت أن صنع «صندوق الأمل» هو لتدريب عضلات الصدر حتى ينهض الثدي(*)، لكن لا، فقد تبيّن لي أن الهدف ليس هذا. فقد كانت أمي تعني الصندوق الذي يفترض أن تضع فيه الفتاة كلّ ما تأمل أن تستخدمه يوماً ما بعد زواجها. لذلك، أحضرت معها خيوط التطريز ومقصّ التخريم وكلّ تلك الأشياء التي حملناها (سرّاً أو علناً) عبر المحيط الأطلسي.

كان من المفروض أن نكون متحمّسات لخطط الزواج البعيدة المدى، ونحن نستلقي على أسرّتنا نراقب العفن يتشكّل على أحذيتنا. وطلبت أمي من راشيل وإدا أن تنفّذا أي مشروع تريدانه من أجل «صندوق الأمل»، لكن الأشياء البيتية لم تكن طموحي أبداً، فركّزت على مشروع كبير واحد وهو: حياكة مفرش مائدة له أشكال متشابكة، وهو يحتاج إلى ألف حبكة صغيرة بخيوط متعددة الألوان. كان الرسم مطبوعاً على بطانة مفرش المائدة بحبر يمكن غسله، مثل صور التلوين بحسب الأرقام، حتى القرد يمكنه أن يفعل ذلك، إذا شعر بالملل بما فيه الكفاية! هذا النوع من العمل لا يحتاج إلى أيّ موهبة بالتأكيد. لكني أظن أن الجزء المتفائل من كلّ ذلك، هو أن تجدي أحداً يريد أن يتزوّجك بعد الانتهاء من صنع صندوق الأمل.

شخصياً، لا أرى أن هذا شيء ممكن. فأنا قبل كلّ شيء ممسوحة الصدر، نحيلة. وعندما رُفِّعنا، أنا وإدا صفين اثنين دفعة واحدة، ازداد الأمر سوءاً. فنحن بدايةً بنات واعظ، وأصبحنا الآن بصلتين في وسط باقة من زهر البتونيا، بين جميع فتيات الصفّ التاسع ذوات العيون الناعسة ومساحيق

(*) يسمّى الصندوق الذي تضع فيه الفتاة جهاز عرسها بصندوق الأمل Hope chest، ومن معاني كلمة chest إضافةً لـ«صندوق»: صدر. [م].

المكياج والصدور المندفعة التي تبرز من بلوزاتهن الموهير. أما أنا فلم يكن ينظر إليّ أي صبي إلّا لأساعده في أداء وظيفة بيتية. وصدقاً، أستطيع أن أقول إنني لم أكن أعبأ بكلّ ذلك. وإذا سألتني، فإني أرى أن التقبيل شيء يجب أن تكون فيه أسنان الشخص الآخر نظيفة. إذا كنت تريدين رؤية النجوم -وهو ما كانت راشيل تدّعي أن الأمر كله يدور حوله- فلماذا لا تذهبين وتتسلّقين شجرة في الظلام وحسب؟ وعندما أحاول أن أتخيّل المستقبل، لا أستطيع أن أرى نفسي إلّا مبشّرة أو معلّمة أو مزارعة، أعلّم الآخرين كيف أن الله يساعد الذين يساعدون أنفسهم. أن أعيش حياة مليئة بالتقوى، على أي حال (وهذا يضمن لي أن إدا لن تكون في أي مكان قريب على مسافة مئة ميل). وأحبّ أن أمضي أكبر قدر ممكن من الوقت خارج البيت، أبتهج بما خلقه الله، وأرتدي بنطالاً إذا كان ذلك ممكناً.

وفي بعض الأحيان، أتخيّل نفسي مع أطفال، وإلا فلماذا أحتفظ بدفتر الملاحظات الذي يحتوي على كلّ الدروس التي تعلّمتها في أثناء طفولتي في إفريقيا. ومع ذلك فإنك لا تستطيع أن تقول «بوو» لأطفالك من دون أن يكون عندك زوج أولاً. يبدو ذلك عقبة بغيضة.

يقول أبي إن الفتاة التي لا تتزوّج تنحرف عن خطة الله -لذلك فهو لا يوافق على أن ندرس أنا وإدا في الجامعة، إضافةً إلى المصاريف التي ستُهدر- وأنا على يقين من أن ما يقوله صحيح. لكن إذا لم أدرس في الجامعة، فكيف يمكنني أن أتعلّم أشياء لأعلّمها للآخرين؟ ولأي سبب سينظر فتى أميركي حقيقي مرّتين إلى فتاة تجيد الجغرافيا إلا أن ركبتيها تكسوهما قشور الجروح، وهو يستطيع أن يتعرّف على فتاة ناهدة الصدر؟ أظن أنني يجب أن أنتظر وأرى. لا بدّ أن لله حساباته، وأنه خطّط لأن تكون لكلّ زوج زوجة كتبها له، وإذا لم يشأ الربّ في أن يكون هناك شاب يريد أن يتزوّجني، فهذا هو ما ارتآه مناسباً لي.

من ناحية راشيل، فإنه لا توجد لديها أيّ شكوك في هذا الأمر. فعندما تجاوزت الصدمة الأولى لعدم حصولها على ألبوم جديد لفرقة بلاترز، أو طقم موهير، أو دعوة إلى أي مكان يمكنها فيه أن ترتدي الطقم أو ترقص، راقت لها فكرة «صندوق الأمل»، أو أنها تظاهرت بذلك، فكانت تلقي بنفسها على السرير، ركبتاها مثنيّتان، وقدماها مرفوعتان عن الأرض، ويداها المنهمكتان في العمل تبعدان خمس بوصات عن عينيها، تبحث عن أشياء لتعمل عليها بجدّ من أجل صندوقها. كان يبدو أنها تفكّر بأن عليها أن تنهي كلّ ذلك خلال الأسبوع القادم، فأخذت توقّع بالأحرف الأولى من اسمها على مناشف الضيوف وطرّزت أطواق الكروشيه، ولا أعرف ماذا أيضاً. كانت تلك المرة الوحيدة التي توقّفت فيها عن تحريك عينيها وفتل شعرها، لتبدأ عملاً حقيقياً.

نقلت أنا وإدا مشروع خياطتنا إلى الشرفة لنراقب الأحداث المثيرة التي تجري في هذا العالم. كانت الأمور بيني وبين إدا تسير إلى الأسوأ، منذ ذلك اليوم الذي يُفترض أن الأسد طاردها فيه، وهو الشيء الذي ما زال حديث القرية. فعندما كانوا يروننا نسير في الطريق، كانوا يشيرون إليها ويقلّدون صوت زئير أسد، وهذا ما لم يساعدنا في أن نضع الأمر وراء ظهرنا. أما الجانب المشرق من هذه القصة، فهو أنه ساعد في دعم كنيسة أبي كثيراً. فقد اعتقد أهالي القرية أنه إذا كان باستطاعة المسيح أن يمنع أسداً من التهام فتاة مسكينة عرجاء، فلا بدّ أنه يحمي المسيحيين - ها! بعد أن كانوا يظنون أن آلهتهم الإفريقية غاضبة منّا وتريد أن تلقّننا درساً. وبالطريقة التي يرون فيها الأمر فإن هذا يبدو مثل مباراة مصارعة بين الآلهة، انتصر فيها المسيح وإدا. وبالطبع، فقد قال أبي إن هذه خرافات وتبسيط مفرط للأمر. ومن قبيل المصادفة، كان أبي قد ألقى موعظة عن قصة دانيال وعرين الأسود قبل عدة أيام فحسب، فأصبحوا يتسابقون الآن للمجيء إلى الكنيسة يوم الأحد.

كانت إذا هي سبب ذلك، وأصبح أبي يقرّبها منه ويضع ذراعه حول كتفها أمام الجميع! هذا شيء غير منصف على الإطلاق.

لكن كان لا يزال يتعيّن علينا أن نبقى معاً، متيّدتَين في الشرفة بأوامر أمي مثل دبّين توءمين غاضبين مأسورَين، وكنا نراقب نِلسون بعينٍ من الحسد وهو منهمك في عمله، حرّ في أن يذهب إلى القرية ويعود منها ويتعاقد مع كاكاكاكافي أي وقت يريد. وعندما كان يسير مبتعداً كنا نرى الندبة المستديرة الوردية خلف رقبته تحدّق فينا عبر الأشجار مثل عين ضاحكة صغيرة.

وكنا أيضاً نراقب الببغاء ميثوسالا الذي ما زال يحوم فوق بيتنا مغمغماً بعد أربعة شهور من إطلاق سراحه. كان من الغريب أن نسمع أصوات أفراد أسرتنا آتية من بين أغصان الأشجار، كما لو أننا تحوّلنا إلى أرواح طائرة من ذلك النوع الذي يلتهم الفستق السوداني، والموز، وعبارات الترحيب الشائعة. وكان يفاجئنا أحياناً في الليل ويرعبنا، عندما ننسى أنه أمضى لياليه الوحيدة في المرحاض. صدّقيني، إن ذلك يمنحكِ شعوراً غريباً، عندما تجلسين في الظلام لتفرغي مثانتك وتسمعين صوتاً وراءك تماماً يقول: «أختاه، الله كبير». لكننا كنا نحزن عليه ونترك له بعض الفاكهة. وكنّا نبقي باب المرحاض مغلقاً ونوصده بقفل في الليل، حتى لا يتسلل نمس أو قطّ الزباد(*) ويلتهمه.

في البداية، أردته أن يعود ويعيش في قفصه، لكن أبي قال لي إن هذا خطأ. فقد أطلقنا سراح ميثوسالا لأن أسره أمرٌ محرج بالنسبة لنا، إذ إنّ حبسه داخل القفص يجعل الببغاء مخلوقاً أقل نبلاً مما رسمه الله، لذلك كان عليّ تشجيع ميثوسالا لتعلّم العيش حرّاً. لا أعرف ما الذي كان يدور في رأس إدا

(*) قطّ الزباد حيوانٌ ثديي ليلي، صغير الجسم ورشيق. يوجد عشرات الفصائل المختلفة منه، وأشهرها قطّ الزباد الإفريقي الذي يُحصل منه على المسك المستخدم في العطور. [م].

عندما كنا نستلقي هناك ونعمل في شغل الإبرة، نراقبه يدور ويعلو ويهبط، ثم يحطّ على الأغصان. يجب أن أقول إنها، ربما، لم تكن تبالي بأي شكل من الأشكال، وكانت مفتونة برؤية ما سيحدث بعد ذلك. هكذا هي إدا التي لا تشعر بأي التزام بأن يكون لها أفكار جيّدة من أجل روحها الفانية في العالم الآخر، أو حتى من أجل هذه الحياة، وإنما كان كل ما تفعله هو أنها تراقب ما يجري في الحياة من دون أدنى اهتمام.

ومن المؤكّد أنها لم تبذل أيّ جهد لإعداد مستقبلها كامرأة. فقد عملت أشياء غريبة، ومريبة من أجل «صندوق الأمل»، فرسمت خطوطاً سوداء على حواف مناديل القماش وما شابهها، مما أضنى أمنا. وأُعفيت روث ماي من «صندوق الأمل»، لكن كان يسمح لها بأن تستلقي في الأرجوحة معنا وتصنع من الخيوط بيوتاً للقطّة إذا وعدت بألّا تهرب من البيت أو ألّا تكسر شيئاً.

استلقيتُ على ظهري ورحت أعمل على مفرش المائدة من دون إيلاء اهتمام كبير، كي تظلّ أمي تتخيّل بأنني سأتزوّج ذات يوم، وبدأ العمل يشدّني بعد وقت. كانت عملية الحياكة نفسها مضجرة وشاقة، لكن آفاقها جميلة. كان لدى أمي البصيرة لتوحي لي بفكرةٍ تتعلّق بالنباتات، لأنها تعرف أنني أحبّ الأشياء الخضراء التي تنمو. فكان عليّ أن أرسم باقات من زهر الثالوث والورد لتزهر في الزوايا الأربع، وتتصل كلّها بحافةٍ من العناقيد الخضراء المجدولة. وبالطريقة نفسها التي تجلّت فيها الروح منذ زمن بعيد في جسد المسيح، بدأت وردة الملفوف الأولى تظهر على المفرش الذي أصنعه. ومن هناك كان بإمكاني أن أتصوّر الحديقة بأكملها.

مع ذلك، بدا المشروع ضخماً بشكلٍ لا يمكن تصوّره. فقد أنهت راشيل مجموعة كاملة من مناديل العشاء في الوقت الذي استغرقته أنا في ملء وردة واحدة. كانت الرطوبة شديدة جداً لدرجة أن العرق كان يقطر من رموشنا.

وفي هذا الجوّ الرطب، أخذت الباقة الأولى وقتاً طويلاً جداً إلى حد أن أطواق التطريز المعدنية صدئت في مكانها.

لم يدم برنامج صندوق الأمل طويلاً كانشغالٍ رئيسي. وكانت راشيل تأمل أن تفعل أشياء كثيرة، لكن المواد نفدت منها، أما نحن فكان أملنا صغيراً جداً واستُنفدت طاقتنا. من حينٍ إلى آخر كنت أسحب المفرش الذي صنعته، وأحاول استعادة الإلهام والعمل من جديد، وكنت أصلّي لله أن يجعلني أكثر لياقة لأكون زوجة. لكن أطواق التطريز الصدئة خلّفت حلقة برتقالية بشعة فوق الكتّان، وربما أضرّ ذلك كثيراً، وإلى الأبد، بفرصي في الزواج.

روث ماي

حاولتُ أن أرى نِلسون عارياً. لا أعرف لماذا أردت ذلك. فعندما ينهض في الصباح، يغسل وجهه بطاسة مهترئة في قنّ الدجاج ويرتدي بنطاله وقميصه، ويغسل مؤخرة رقبته التي توجد فيها فتحة وردية، حتى تلمع بشرته وتسيل منها قطرات الماء، ثمّ ينظر إلى ملابسه مليّاً ويتلو تعويذة قبل أن يرتديها. بنطال بني، وقميص أحمر. هذه هي كلّ الملابس التي يملكها. يمتلك كلّ شخص هنا ثوباً واحداً فقط. وأصدقائي هم: الذي يرتدي قميص بيجاما أزرق، وذاك الذي يرتدي بنطالاً ذا مربّعات وقد رُفعت ساقاه إلى الأعلى، وذاك الذي يرتدي شورتاً قصيراً له جيوب بيضاء كبيرة تتدلّى إلى الأسفل، وذاك الذي يرتدي قميصاً وردي اللون يصل إلى أسفل ركبتيه من دون بنطال. أما الفتيات فلا يرتدين بناطيل أبداً أبداً. ولا يضع الأطفال الصغار أي قطعة ثياب على أجسادهم، فتراهم يقرفصون ويبولون حيثما أرادوا ومتى أرادوا.

قنّ الدجاج لدينا مصنوع من العصي، وفي جداره توجد فتحات صغيرة

مربّعة. كنت أريد أن أرى نِلسون. كنتُ فتاةً سيئة. كنت أصلّي أحياناً للطفل يسوع ليجعلني فتاة صالحة، لكن الطفل يسوع لم يستجب.

كانت الدجاجات ترقد على البيض. كنّا نقول إن الأمهات الصغيرات الطيّبات يصنعن لنا المزيد من الدجاجات. القنّ عبارة عن كوخ. وكانت الدجاجات تخبئ أعشاشها في الغابة، لكننا عثرنا عليها أنا ونِلسون. قال إنها دجاجات سيئة لأنها تسرق صيصانها منّا. حاولت أن أوبّخها لكنّه قال إن الدجاجات لا تفهم اللغة الإنكليزية. علّمني كيف أغني لهن: كويبا دياكي، كويبا دياكي، مبوته فِي، مبوته فِي! ثمّ استعدنا البيض كله. كنت أساعد نِلسون في الصباح عندما تدرس راشيل والأخريات، إذ وعدتُ أمي بألّا أقترب من الأطفال الآخرين، فقد كانوا جميعهم مرضى وعليهم أن يتغوّطوا في الغابة، وقد نُصاب بالعدوى منهم.

أحضرنا البيض إلى البيت ووضعته أمي كلّه في دلو، فغاص بعضه إلى الأسفل وطاف بعضه الآخر كما يحدث للتفاح. البيض الذي غطس يكون صالحاً للأكل، أما البيض الذي يطفو فهو فاسد. عندما تقول: آخر من يصل هو بيضة متعفّنة!(*) أظن أن هذا يعني أنك ستطفو على سطح الماء. أراد نِلسون أن يأخذها، لكن أمي خشيت أن يمرض إذا تناولها، ومع ذلك قالت له: «حسناً، خذها!»، فأخذها، لكنّه لم يأكلها. خبّأها في مكان ما. قال إن العرّاف تاتا كوفودُندو يريد هذه البيضات لأن الموتى يحتاجون إلى الراحة.

نغانجا تعني العرّاف أو الطبيب الساحر، وتاتا كوفودُندو واحد منهم لأنه توجد ستّ أصابع في إحدى قدميه. قال نِلسون إن نغانجا كوفودُندو يستطيع أن يُميت الناس الأحياء، ويحيي الأموات من جديد. ويقول نِلسون إن تاتا كوفودُندو رجل هام جداً يمكنه أن يقود جيشاً، لكنّه طاعن في السن. وقد

(*) نوع من ألعاب الأطفال. إذا صرخ أحدهم بهذه العبارة فيجب على الجميع أن يركضوا، ومن يصل آخر واحد فيهم يكون هو الخاسر. [م].

يفعل ذلك أحد أبنائه. ومثلي، يعرف نِلسون أيضاً من هو باتريس لومومبا. وقال لي إن بعض الأشخاص يريدون أن يدفنوا أحجاراً في حديقة بيتكم، ثم يخرجونها بعد أن يموت البيض كلّهم، فتتحوّل الحجارة إلى ذهب. قال نِلسون إنه لا يصدّق هذا، وقال: «لا يصدّق ذلك إلّا الذين يريدون أن يصدّقوه». سألته: «لماذا سيموت جميع الناس البيض؟»، لكن نِلسون لم يكن يعرف.

أصبح هناك أشخاص إضافيون يذهبون إلى الكنيسة الآن. قال نِلسون إن سبب ذهابهم إلى الكنيسة هو الأسد الذي حاول أن يفترس إدا، لكن المسيح حوّلها إلى ظبي صغير في آخر دقيقة، كما جاء في الإنجيل. فما إن قضم فم الأسد قطعة من إدا حتى استحالت ظبياً صغيراً، واختفت إدا الحقيقية من هناك، ثم ظهرت سليمة في شرفة بيتنا.

قال نِلسون إنه يوجد إله صغير لكلّ شخص هنا يحميه، وإن آلهةً إفريقية خاصّة تعيش في ذلك الشيء الصغير الذي يضعونه حول أعناقهم يسمّونه غري-غري، يشبه قارورة صغيرة، لكنها مصنوعة من أعواد وقواقع وأشياء أخرى. أتخيّل أحياناً جميع تلك الآلهة الصغيرة القابعة حول أعناقهم تصرخ: «ساعدوني! دعوني أخرج من هنا!»، كما يفعل الجنّي في مصباح علاء الدين، وما عليك إلّا أن تفركه وتقول: «هيه، أيها الإله الصغير، من الأفضل أن تحرسني وإلّا سيلتهمك الأسد معي!».

كلّ الآلهة الصغيرة غاضبة الآن من يسوع المسيح، وتريد أن تؤذي أحدنا إذا استطاعت ذلك، إذا لم ينتبه المسيح. فقلت لنِلسون إنّ المسيح كبير جداً ولا يمكن أن يوضع داخل غري-غري صغيرة. فهو كبير مثل رجل، له شعر بني طويل وينتعل صنادل كبيرة جداً. فوافق نِلسون وقال نعم، إن الجميع يقدّرون أنه شخص كبير الحجم، وإن الكثيرين بدؤوا يسمعون أبي يتحدّث عن المسيح ويتخيّلون شكله، لكنهم، كما قال نِلسون، يضعون

قدماً في الكنيسة والقدم الأخرى خارجها، وأنه إذا حدث مكروه لأحدنا، فإنهم سيغادرونها على الفور.

بعد أن وجدنا كلّ البيض في الغابة وأخذناه، جعل الطفل يسوع كلّ الدجاجات جيّدة، ووضع جميع بيضاتها في العشّ الكبير الذي صنعناه عند زاوية قنّ الدجاج. أخذت أمي قلم رصاص ووضعت على ثلاث عشرة بيضة إشارة X، أبقينا هذه في العشّ، وعندما كانت الدجاجات تبيض بيضات جديدة، كنّا نأخذها ونأكلها، أحياناً مخفوقة، وأحياناً أخرى مسلوقة. لكننا لم نأكل قط البيضات التي عليها إشارة X، لأنها ستصبح دجاجات صغيرة. وعندما تكبر ستصبح دجاجات تفقس بيضات جديدة، بعضها لا كلّها، وستكبر الأخريات ليصبحن دجاجاً مقلياً. وهي الدجاجات غير المحظوظة، لأن أعناقها ستُقطع وستقفز حول المكان وسيتدفق الدم منها، ها ها ها، المسكينة! أظن أنه من الأفضل أن تضع الدجاجات غري-غري حول أعناقها.

صباح كلّ يوم كنت أنظر لأرى ما إن كان الأطفال قد فقسوا، وكنت أول من يجدها. هذا اليوم فقّست كلّها إلّا بيضة واحدة، هُرست. كانت منبسطة على الجدار الطيني وراء العشّ مثل صورة معلّقة. كان نِلسون يعيش في القنّ مع صورة دجاجة صغيرة ميّتة معلّقة على الحائط. حزنت ولم أعد أحاول أن أنظر إلى شيئه الصغير.

إذا حلَّ الظلام ورأيتَ أفعى خارج البيت، أو حتى إذا أردت أن تتحدّث عن إحداها، فلا يمكنك أن تلفظ كلمة أفعى، وإنما يجب أن تقول خيط. أذكر أننا رأينا في ذلك اليوم خيطاً أسود صغيراً يزحف عائداً إلى البيت من رحلته! يجب أن تقولي هكذا إذا كان الوقت ليلاً.

لقد غضب نِلسون مني لأنني قلت أفعى عندما حلَّ الظلام: «لأن الأفعى تستطيع أن تسمعك وأنت تنادينها باسمها بعد غروب الشمس، فتجري

نحوك، وكذلك الحيوانات الأخرى التي تستطيع أن تسمعك جيّداً في الظلام. يجب أن تحذري!».

وغضب نِلسون من ليا أيضاً لأنها تربي بومة. كانت صغيرة جداً لم تكن تستطيع أن تطير جيّداً عندما وجدناها، فصنعت لها ليا قفصاً، وبدأنا نطعمها بعض الحشرات واللحم. كان فروها أبيض ومنتصباً في كل مكان من جسمها. سمّتها ليا بكلمة بلغتهم: مڤوفو التي تعني بومة. لكن باسكال صديق ليا كان يكرهها، وكذلك نِلسون. وكانت ماما موانزا تكرهها، كانت تأتي على يديها لتقايضنا البرتقال بالبيض، وكذلك ماما بواندا التي ترتدي التنورة السوداء المرسوم عليها تلك النجمة الوردية الضخمة عند ردفيها، وتشبه تصفيفة شعرها نجوماً تنتصب في رأسها كيفما اتفق. أما مصفّفة الشعر، ماما لو العجوز، التي لا يوجد في فمها إلّا سنّان اثنتان، واحدة في الأعلى والثانية في الأسفل، وهي تمضغ الطعام بهما، فقد كانت تمقت بومتنا أكثر من الجميع، وتوبّخنا لأننا نحتفظ بها، لأن أختها ماتت هنا منذ فترة قصيرة. كان كلّ من يرى بومتنا يقول إنه يكرهها كثيراً. وقال نِلسون إننا إذا لم نخرجها من البيت فلن يدخل إليه ثانية، وهكذا كان. فقد أخرجتها أمي من البيت، مع أن ليا غضبت كثيراً لأن البومة لا تزال صغيرة. هذا صحيح، فقد كانت صغيرة جداً، وكان الريش قد بدأ يظهر عليها مثل زغب شعر أبيض، وكانت وديعة.

ذهب نِلسون وأحضر أناتول، ساحباً إياه من يده. قال أناتول إن الناس في الكونغو لا يحبّون البومة لأنها تطير في الليل وتلتهم أرواح الموتى. وقال إن أعدادها ازدادت مؤخراً. وقال إنه يوجد أطفال مرضى كثيرون ولا يتحمّل الناس أن يروا بومة تحوم فوقهم وترمقهم بعيون لا تزال جائعة، حتى لو كانت البومة صغيرة جداً، فإنها قد ترغب بصحبة الأطفال الصغار أيضاً.

عندما قال أبي إن هذه كلّها خرافات، ذهبت ليا وأعادت البومة، وبدأت

تتنقّل في البيت والبومة جاثمة على كتفها، وهي تقول إن والدنا يقف إلى جانبها. أوه - أوه. لقد صفعها بقوة لأنها ارتكبت خطيئة الغطرسة، وأمرها أن تكتب الآية. فجلست تكتبها وهي تضع يدها على طرف رقبتها. وعندما كانت تنزل يدها، كان بإمكانك أن ترى آثار الصفعة بوضوح شديد. كانت كما لو كان أبي يضع يده أمام ضوء الكيروسين ويحدث ظلّاً عليها، لكنّه لم يكن يفعل ذلك، لأنه كان يقرأ في إنجيله في الغرفة الأخرى.

عندما أنهت ليا كتابة الآية، عادت إلى الغابة وأطلقت سراح تلك البومة الصغيرة، وظنّنا أن ليا لن تعود أبداً. خفنا كلّنا حتى كدنا نموت، وسهرنا ننتظرها، ما عدا أبي. كان الصمت مخيّماً إلى درجة أنك كنت تستطيع أن تسمع تكّات عقرب الثواني في ساعة راشيل تيميكس. وكانت ألسنة اللهب تعلو وتنخفض من الفانوس وترتعش الظلال كلّما رمشت عيناك. كان قد حلَّ الظلام منذ فترة طويلة. ومهما كان يخطر لك بأن مكروهاً يمكن أن يكون قد حصل لليا في الغابة، أفعى أو نمر، فلا تستطيع أن تقول ذلك بصوت مسموع، حسبك أن تقول كلمة خيط أو قماش مرقّط. فقلت: «أرجو ألّا يكون خيطٌ قد لدغها».

كان أبي قد دخل إلى غرفة نومه في وقت مبكر جداً. ثم صاح بأمي أن تضعنا في سريرنا وتأتي هي أيضاً إلى الغرفة، وقال إن شقيقتنا ستعود، وإننا يجب أن نستمر في حياتنا كالمعتاد لأنها تريد أن تلفت الانتباه فحسب، وقال يجب ألّا نعيرها أيّ انتباه وإلّا فإنه سيعطينا الدواء نفسه. ثمّ قال: «إذا كان بإمكان بومة أن تأكل روحاً، فإنها تتقدّم بخطوة عن الشيطان، لأن على الشيطان أن يشتريها أولاً، وأرى أنه اشترى بعض الأشياء هنا في بيتي».

كان أبي غاضباً وكان يريد أن ينسى موضوع ليا لأنه هو الذي جعلها تهرب من البيت. لم نقل له شيئاً، ولم نذهب لننام أيضاً، وإنما جلسنا كلّنا هناك. كانت أمي تحدّق من الباب المفتوح على مصراعيه، تنتظر عودة ليا

إلى البيت. فدخل البعوض والعثّ الأبيض الكبير من الباب وخرج من النافذة، لكن بعضه قرّر أن يخلع معاطفه ويمكث لبعض الوقت، ثم طار إلى مصباح الكيروسين فاحترق. هذا ما يجري لك إذا كنت شخصاً سيّئاً: لن تذهب إلى الجنّة، بل ستذهب وتحترق في المكان السيّئ. لذلك كان بيتنا في تلك الليلة المكان السيّئ للحشرات الكونغولية. ها ها!

يحاول أبي أن يعلّم الجميع محبّة المسيح، لكن بسبب شيء أو آخر هنا وهناك، فالأمر لا ينجح، بعضهم يخشى المسيح، وبعضهم الآخر لا يخشونه، لكني لا أظن أنهم يحبّونه. حتى الذين يذهبون إلى الكنيسة، فإنهم ما زالوا يعبدون دمى زائفة ويتزوّج أحدهم الآخر مراراً وتكراراً. أبي منزعجٌ جداً من ذلك.

أنا أخاف من المسيح أيضاً.

عندما عادت ليا من الغابة، أخذنا نثب ونصرخ وركضنا إلى الشرفة وقفزنا إلى الأعلى والأسفل وشددناها من ذيل قميصها إلى داخل البيت. لكن آه - أوه، كان أبي واقفاً عند باب غرفة نومه المظلمة، ينظر إلى الخارج. كانت عيناه كلّ ما يمكنك أن تراه. لم نشأ أن نتجرّع الدواء نفسه، فرحنا ننظر إلى ليا بعيون تقول نحن آسفات على ما جرى لك، وحاولنا أن ننقل لها رسالة لطيفة. بعد أن أوينا إلى الفراش، مددت يدي من تحت الناموسية وأمسكت بيدها.

لم تنم ماما في غرفتها في تلك الليلة.

تقول أمي إن الطيور ستكون سبب موتها، أما أنا فسأقول قريباً إنها الأفاعي بالأحرى. لكن أظن أنه إذا كان الطير سيأكل أرواح الأطفال الموتى، فهذا شيء يثير القلق. هذا صوت آخر نسمعه في الليل. شيء آخر لا يمكنك أن تذكر اسمه بصوت مسموع بعد أن يخيّم الظلام.

راشيل

في كانون الثاني فوجئنا بزيارة السيّد والسيّدة أندرداون القادمين من ليوبولدفيل. جاءا على متن طائرة السيّد أكسلروت، حينما كان أقصى ما نتوقّعه هو براعم البطاطا واللحم المعلّب. لم يكن السيّد والسيّدة أندرداون يحبّان أن يأتيا إلى هنا من دون سبب، لذا صدّقوني هناك حدثٌ جلل. بدوا كأنهما يعانيان من صداع التوتّر العصبي. كانت أمي منزعجة منهما لأنهما يشرفان علينا من قبل اتحاد البعثات التبشيرية، وقد أمسكا أمي بالجرم المشهود وهي تؤدي أعمالها المنزلية ببنطالها الكابري الأسود القديم المهترئ عند الركبتين.

كان مشهداً رهيباً وهي جاثية هناك تفرك الأرضية، بشعرها المنفوش المتطاير، وتحت عينيها حلقاتٌ بلون الكدمات من شدّة قلقها من أن نصاب بنوع من المرض الانتحاري. وماذا عن النموس والسحالي التي تدخل إلى بيتنا وتخرج منه كما يحلو لها؟ كانت هناك أشياء يمكن أن تشعر بالحرج منها أكثر بكثير من مجرّد رؤية ثيابها العتيقة، المهترئة، كما أظن. لكن على الأقل كانت تلك البومة الفظيعة قد ذهبت. أشكر الله على ذلك، حتى لو عنّف أبي ليا بسببها. كان هذا مشهداً مخيفاً ورهيباً، وبعده أصبحنا كلنا حذرين أكثر من المعتاد كما لو كنا نمشي على قشور البيض. لكن كانت تفوح رائحة لحم نتن من تلك البومة، لذلك يجب أن أقول إن التخلّص منها كان أمراً جيّداً.

لكن لحظة، لماذا يتعيّن علينا أن نستقبل السيّد والسيّدة أندرداون باحتفاء وفخامة؟ إنهما ليسا معمدانيّين حتى، كما سمعت من أبي، وهما يشرفان على الأمور المالية لاتحاد الهيئات التبشيرية فحسب، بعد أن انسحب عدة أشخاص من هذه المهمة. إنهم من الطائفة الأساقفة(*)، واسمهم

(*) تستخدم راشيل Episcopotamians خطأً عوضاً عن Episcopalians (الأسقفية) [م].

الحقيقي اسم أجنبي يشبه أون-تراي-دون، ونحن نقول أندرداون لأنه أسهل فحسب. ولأقول الصدق، فهما أكثر شخصين غير جذّابين يمكن أن تراهما على الإطلاق، بحلاقة شعرهما الاقتصادية المنزلية والبناطيل الكاكي التي يرتديانها. والشيء المضحك في فرانك وجانا أندرداون هو أنهما يشبهان أحدهما الآخر كثيراً باستثناء بعض الأشياء البسيطة: فهو له شارب، وهي تضع قرطين صغيرين من الذهب على شكل صليب ونظّارة مربوطة بسلسال. السيّد والسيّدة رأس البطاطا(*).

جلسا إلى طاولتنا والعرق يتفصّد منهما، بينما هرعت أمي وأعدّت لهما عصير البرتقال وقدّمته لهما. حتى نظّاراتهما راحت تقطر عرقاً. كانت السماء في الخارج تهيّئ عاصفتها المعتادة بعد الظهر: ريح تجعل أوراق النخيل تصفق معاً، وأشباح التراب الأحمر تتطاير من على الطريق، وأطفال صغار يركضون مثل المجانين للاتقاء منه. كانت أمي في غاية التوتّر، فلم تستطع أن تجلس وإنما وقفت وراء كرسي أبي، متكئة على حافة النافذة، تنتظر أن ينتهي من قراءة الصحيفة التي أحضراها معهما، بعد أن مرّراها الواحد للآخر، ما عدا السيّد أكسلروت، الطيّار، الذي ربما لا يعرف ما الذي يمكن أن يفعله بصحيفة سوى أن يمسح بها... تعرفون ماذا. نعم، كان موجوداً بيننا أيضاً. كان واقفاً يتكئ إلى مدخل الباب الخلفي ويبصق، حتى خُيِّل إليّ أنني سأنعق في وجهه كالغراب. كان يحدّق بي مباشرة، ينزع عني ملابسي في مخيّلته. كنت قد قلت لكم إن والديَّ يعيشان في جهلٍ مُطبق تماماً بالنسبة إلى بعض الأمور. قلبت وجهي به حتى غادر أخيراً.

بينما كان أبي يقرأ آخر الأخبار، حاولت السيّدة أندرداون أن تفتح حديثاً مع أمي متذمّرة من خادمهم في ليوبولدڤيل.

(*) نموذج بلاستيكي على شكل رأس بطاطا. كما يُستخدم هذا المصطلح أيضاً للتقليل من قيمة أي شخص يُعتبر قبيحاً أو غريب المظهر أو غبياً. [م].

«صدقاً يا أورليانا، يمكنه أن يسرق كل شيء إلّا الأطفال. ويمكن أن يسرق هؤلاء أيضاً، إذا ظنّ أن بإمكانه أن يبيعهم. فإذا وضعت الأشياء في خزانة وأقفلت عليها بالمفتاح، يضرب بيديه على صدره كما لو أنني اتهمته بأنه ارتكب جريمة قتل، مع أنني أمسكته في الليلة الماضية وقد دسّ أربعة من مناديل فرانك وكيلو من السكّر في قميصه. وهو يدّعي دائماً أنه لا يعرف كيف وصلت هذه الأشياء إلى هناك».

«أوه، نجومي!» – قالت أمّي، من دون أن تبدي أنها مهتمة.

حدّقت السيّدة أندرداون بأمّي، مرتبكة: «مخازنك؟!»(*).

إنها توحي دائماً بأنه توجد لكنة في طريقة كلامنا، ولذا تكرر الكلمات التي نقولها كما لو كانت دعابات صغيرة. وبما أنها أجنبية هي نفسها، يمكنني أن أقول: «عيّر القِدرُ المقلاةَ بسوادها»، إذا سألَتني.

لمرة واحدة، أُعفيت أنا وأخواتي من إمضاء فترة الصباح في لعب لعبة دينغ دونغ المدرسة المنزلية مع أمّنا. لأننا كنّا متلهّفات لمعرفة سبب زيارة السيّد والسيّدة أندرداون، فلم نشأ أن نغادر الغرفة، فقد كنّا محرومين من أي صحبة، بصدق.

تلكّأتُ في الغرفة، أدقّق في تصفيفة شعري مرّة أو مرّتين في المرآة، وأرتّب الطاولة، ثم خرجت أخيراً إلى الشرفة مع أخواتي، لنكون في مكان قريب جداً من الباب كي نتابع ما يجري. كنّا نحدّق في كؤوس عصير البرتقال، متأملات أن تكون أمّنا قد أعدّت كمية من العصير تكفينا جميعاً، ورحنا ننصت لنعرف السبب الذي حثّهما على المجيء إلى هنا، على الرغم من أنني كنت أعرف أنني سأموت من الملل قبل أن ينتهي الحديث.

عندما انتهوا من تمرير الصحيفة، توقّفوا عن الحديث عن العمل

(*) تستخدم My stars «نجومي» للتعبير عن الدهشة، وهي تتشابه مع كلمة «مخازن» في الإنكليزية Stores. [م].

الإجرامي الذي ارتكبه الخادم، وراحوا يتحدّثون عن جميع المواضيع المملّة الموجودة تحت السماء الزرقاء: شراشف جديدة، حبوب مضادة للملاريا، أناجيل جديدة للمدرسة. وهذا النوع من الأحاديث.

تسللتُ والتقطتُ الصحيفة بعد أن رماها أبي على الأرض. لماذا لا أفعل ذلك؟ فهي مكتوبة بلغة إنكليزية واضحة، من نيويورك، الولايات المتحدة الأميركية. قرأت الصفحة التي كانوا قد طووها: «الخطة السوڤييتية تتقدّم في الكونغو». وهي تقول إن خروتشوف(*) يريد أن يستولي على الكونغو البلجيكية ويحرم المتوحّشين الأبرياء من أن يصبحوا مجتمعاً حراً، وذلك جزء من خطته للهيمنة على العالم. يا إلهي، إذا أراد خروتشوف الكونغو فإنه يستطيع أن يأخذها، إذا سألتموني. كانت الصحيفة صادرة في كانون الأول الماضي. وإذا كانت خطته الكبيرة تسير على ما يرام، فإننا سنرى الآن، كما يبدو، جلود الروس أو ذيولهم. وتقول المقالة إن البلجيكيين هم الأبطال المجهولون، وإنهم عندما يأتون إلى إحدى القرى فإنهم عادةً يشاهدون السكّان الأصليين آكلي لحوم البشر في خضم التضحية البشرية. يا إلهي! لو جاؤوا إلى قريتنا في ذلك اليوم لشاهدوا أمي في خضم انهماكها في فرك أرضية البيت، وقرابة اثني عشر صبياً صغيراً عارياً يتبارون في مسابقة للتبوّل على الطريق.

أعطيت الصحيفة لإدا، وقرأتها ليا من فوق كتفها. قلبت بعض الصفحات وأرتني رسم كاريكاتير: نيكيتا خروتشوف الضخم الجثة، البدين، الأصلع، في بدلته الرسمية الشيوعية يمسك بيد آكل لحوم البشر من السكّان الأصليين، نحيلاً بشفتين ضخمتين وعظمة في شعره، وهما يرقصان. كان خروتشوف يغنّي: «بينغو بانغو بونغو، لا أريد مغادرة الكونغو!».

(*) Nikita Khrushchev نيكيتا خروتشوف (1894-1971): زعيم شيوعي ورجل دولة سوڤييتي، حكم الاتحاد السوڤييتي من 1953 إلى 1964. [م].

نظرت من النافذة، وتساءلت: من هو الأحمق الذي لا يريد أن يغادر أرض الكونغو قبل أن يتمكّن حتى من إكمال نطق اسمٍ ما إذا أتيحت له نصف فرصة للمغادرة؟!

كان السيّد والسيّدة أندرداون وأمي على وشك إنهاء الموضوع الرائع عن حبوب الكينين، ثم ساد صمت، صمت غير مريح، كما يقولون. وظلَّ السيّد والسيّدة أندرداون يصدران صوت «إحم، إحم»، ولفّا ساقاً على ساق استعداداً للإعلان عن خبرهما الرئيسي: ستجري في الكونغو انتخابات في شهر أيار وستعلن استقلالها في حزيران. بالنسبة لي يمكنك أن تعتبر هذا، إضافةً إلى حبوب الملاريا ونسخ الأناجيل، موضوعاً مضجراً، لكن يبدو أن أمي وأبي اعتبراه صدمة قوية. إذ خرجت عينا أمي من محجريهما، وأصبحت تشبه كلير بلووم في مسلسل «الحسناء والوحش» عندما ألقت نظرة على من ستتزوّجه.

انتظرتُ حتى تعود أمي إلى سابق عهدها «كلّ شيء على ما يرام»، لكن وجهها ظلَّ شاحباً كأنها لم تعد تتنفّس. ووضعت يدها على حنجرتها كأنها ابتلعت جرعة من مسحوق منظف «السيّد كلين». لقد أرعبتني تلك النظرة. وبدأت أركّز انتباهي.

«حزيران هذا؟»، قالت أمّي.

«على الأرجح ألّا تقبل بلجيكا نتيجة الانتخابات»، قال أبي. حسناً، لا بدّ أنه يعرف كلّ شيء عن ذلك. فمهما حدث شيء فوق أرض الله الخضراء، فإن أبي يتصرّف كأنه فيلم شاهده من قبل، ونحن حمقى فحسب لأننا لا نعرف كيف ستكون نهايته.

بالطبع، كادت ليا توشك على السقوط من الأرجوحة، وهي تستمع محاولةً ألا تفوّت أيّ كلمة. فمنذ أن صفعها أبي من أجل البومة تبذل جهداً مضاعفاً لمصالحته.

«من المؤكّد أن بلجيكا ستفعل ذلك يا ناثان. هذه هي الخطة الرسمية الجديدة. وقد دعا الملك بودوان(*) ثمانين زعيماً كونغولياً إلى بروكسل لرسم مسار الاستقلال» - هذا ما قاله السيّد رأس البطاطا الذي لا يوجد في صوته أيّ فنّ للإلقاء. أنا واثقة أنه أجنبي، أو أنه كان كذلك.

«متى؟» سألت أمّي.

«قبل أسبوعين».

«وهل يمكننا أن نسأل ما الذي حدث للخطة الرسمية القديمة؟» - قال أبي. كان يقول دائماً: «وهل يمكننا أن نسأل؟» بدلاً من أن يطرح السؤال مباشرة.

«أُغلقت ليوبولدڤيل وستانليڤيل بسبب أعمال الشغب والإضرابات، إذا لم تسمع بذلك. لم تجرِ الخطة الرسمية القديمة كما كان مخططاً لها».

«وماذا عن تهديد الهيمنة السوڤييتية؟»، أرادت أمي أن تعرف.

«بصراحة، أظن أن بلجيكا معنية أكثر بتهديد الهيمنة \الإفريقية» -قال القسّ أندرداون الذي يدعى فرانك، ويردد عبارة «بصراحة» كثيراً، من دون أن يرى في ذلك شيئاً مضحكاً(**)- «الروس تهديد نظري، أما الكونغوليون فهم موجودون وواقعيون ويبدو أنهم جادّون. نقول بالفرنسية: إذا أراد أخوك أن يسرق دجاجتك، فاحفظ شرفك وبادر بإعطائها له».

«إذاً، هل سيمنحون الكونغوليين الاستقلال؟» -انحنت أمي إلى الأمام واقتربت من رأس أبي لتتكلّم. بدا كأنها ملاك أبي الحارس مصابة بفقر دمٍّ يعوزه الحديد- «فرانك، من هم الزعماء الذين تتحدّث عنهم الذين دُعوا إلى بروكسل؟ من على هذه الأرض هنا مؤهّل ليفعل شيئاً كهذا؟».

(*) Baudouin بودوان الأول (1930-1993): خامس ملوك بلجيكا، مَلَك بين عامي 1951-1993. [م].

(**) يردد Frankly «بصراحة» واسمه Frank. [م].

«زعماء قبائل، رؤساء اتحادات، وما إلى ذلك. يقولون إنها مجموعة مركّبة متنوّعة. جوزيف كاسا-ڤوبو(*) تردّد بين مقاطعة هذا العرض ومحاولة إدارته، وقد أُخرج لومومبا من السجن لهذه المناسبة فقط. وقد قرَّ قرارهم على إنشاء حكومة ذات نظام برلماني. وستُعقد الانتخابات في منتصف أيار، وسيُعلن يوم الاستقلال في الثلاثين من حزيران».

جثم ميثوسالا فوق شجيرة الجهنمية وراءنا تماماً، وراح يتمتم: «أحمق-أحمق-أحمق». أقسم إنه كان يحاول أن ينصت إلى الحديث معنا أيضاً.

«لم تكن بلجيكا مستعدة لبحث موضوع الاستقلال قبل الآن»، قال أبي.

«هذا صحيح يا فرانك» -أضافت أمّي التي كانت تضع كلتا يديها على شعرها، وترفعه عن وجهها مثل أرنب مسلوخ لتبرّد رقبتها من الخلف. وهو منظرٌ لم يكن مناسباً البتّة- «لقد ناقشنا ذلك مع المسؤولين عن البعثة التبشيرية في أتلانتا قبل أن نقرّر المجيء إلى هنا. قالوا إن المستشارين السياسيين في بلجيكا كانوا قد وضعوا خطة السنة الماضية لمنح الاستقلال، ماذا كانت يا ناثان، ثلاثون سنة؟ خلال ثلاثين سنة!».

رفعت أمي صوتها قليلاً، وبدا السيّد رأس البطاطا محرجاً، وقال أخيراً: «يؤسفني أنني مضطرٌّ إلى تذكيركم بأنكم قد نُصحتم بعدم المجيء».

«هذا ليس صحيحاً تماماً»، قالت أمّي، ونظرت إلى أبي، ونظرت السيّدة رأس البطاطا إليه أيضاً.

حدّق أبي في السيّد رأس البطاطا الذي لم يكن يجرؤ على أن ينظر في عينيه مباشرة. كان هذا مشهداً لا يمكن وصفه!

أخيراً تجرأ السيّد رأس البطاطا على التكلّم، وقال: «لا أقصد أيّ إساءة،

(*) جوزيف كاسا-ڤوبو Joseph Kasa-Vubu (1917-1969): سياسيٌّ كونغوليّ شغل منصب أول رئيس لجمهورية الكونغو الديمقراطية (ثم جمهورية الكونغو) من عام 1960 حتى عام 1965. [م].

لكن من المؤكّد أن عملكم هنا يحظى بمباركة اتحاد البعثات التبشيرية يا أورليانا».

ربما لم يكن يقصد أي إساءة لكنّه لفظ اسم أمي كأنه كلمة سيّئة، وأضاف: «وأقول أيضاً إنه يحظى بإعجاب الكثيرين الذين يفتقرون إلى الشجاعة التي تتحلى بها أسرتك».

ونظر إلى الزرّ في كمّ قميصه الذي كان مخيطاً، ربما، بالمقلوب أو شيئاً كهذا، من قبل خادمهم سارق المناديل. ثمّ بدأ يفتل كأسه الفارغة الرطبة على كعبها الرطب فوق الطاولة.

كان الجميع بانتظار ما الذي يمكن أن يقوله فرانك أندرداون أيضاً من دون أيّ إساءة مقصودة. وقال أخيراً: «لكنك تعرفين أن مهمّتكم هنا لم يُوافق عليها رسمياً»، ونظر إلى أمّي، ثمّ عاد يفتل كعب كأسه.

«حسناً، ماذا يعني ذلك؟!».

«أظن أنك تعرفين. لم تتعلّموا اللغة ولم تأخذوا أي دورات تحضيرية، وأخشى أن أقول إن اتحاد البعثات التبشيرية يقدّم المبلغ الذي تتقاضونه باعتباره نوعاً من اللطف من جانبهم. لن أُفاجأ كثيراً إذا توقّف ذلك الآن».

حسناً! خبطت أمي بيدها على المنضدة، بانغ! وقالت: «كيف تجرؤ على الاعتقاد أن أسرتي تعيش في هذه الزاوية العفنة من الجحيم لقاء الخمسين دولاراً في الشهر».

كانت في واقع الأمر تصرخ به. يا إلهي، لو تنفتح أرض الشرفة من تحتنا وتبتلعنا كلّنا.

«أورليانا!»، قال أبي (بصوت توبيخ الكلب الذي بال على السجادة).

«ناثان، بحقّ الجحيم، ألا ترى أنك تتعرّض للإهانة؟».

لا يتعيّن على أبي عادة أن ينظر مرّتين ليرى ما إذا كان يتعرّض للإهانة.

وهو يرى عادةً الإهانات كبيرة مثل بقعة عندما تكون مخفية تحت صخرة في البلدة المجاورة.

شبكنا كلّنا أصابعنا.

«فليهدأ الجميع الآن!» -قال السيّد رأس البطاطا، محاولاً أن يبدي ضحكة ودّية زائفة- «لا أحد يُهان هنا. لا توجد لدينا سيطرة على قرارات اتحاد البعثات التبشيرية، كما تعرفين. نحن مجرّد مشرفين متواضعين نعمل لصالح اتحاد البعثات التبشيرية وعدد من المنظّمات الأخرى، وجميعها تقدّم نصائح مماثلة الآن. لقد أتينا إلى هنا لنحدّثك شخصياً، لأننا مهتمّون جداً بتبشيركم بالمسيح وبأطفالكم الأعزاء».

أمّي، التي قالت للتو كلمة «الجحيم»، كانت تبعد قرابة مليون ميل عن التبشير بالمسيح في الوقت الحاضر. أقول في الوقت الحاضر لأنه يبدو أنها كانت مستعدّة لتضرب رأس أحدهم بمضرب بيسبول. أدارت ظهرها للسيّد والسيّدة أندرداون، وقالت: «لماذا بحقّ السماء تركونا نأتي إلى هنا، إذا كان الأمر خطيراً؟»، سألت بعض العصافير الصغيرة التي كانت تمر خارج النافذة.

لم يكن أبي قد قال شيئاً بعد. نظريتي هي أنه لم يكن يعرف على أيّ واحد منهم سينقضّ أولاً، على السيّد والسيّدة أندرداون المسيئين، أم على زوجته التي لعنت، لذا فقد وقف هناك يغلي كما يغلي إبريق القهوة. لكن بالنسبة لإبريق القهوة، فإنك تعرف جيّداً ما الذي سيخرج منه.

«الآن، أرجوك يا أورليانا» -همهم السيّد رأس البطاطا- «هذا ليس ذنب اتحاد البعثات التبشيرية. لم يكن بوسع أحد أن يتوقّع أن الاستقلال سيأتي هكذا فجأة».

استدارت وواجهته: «ألم يكن على أحد أن يتوقّع ذلك؟».

«كيف كان بإمكانهم أن يتوقّعوا؟» -سألها، وفتح يديه واسعاً- «ففي

السنة الماضية، عندما منح ديغول(*) الاستقلال لجميع المستعمرات الفرنسية، أصرّ البلجيكيون على أنه لا توجد لنا علاقة بهذا الأمر! حتى إن أحداً لم يستقلّ العبّارة إلى برازاڤيل لحضور المراسم، بل واصل البلجيكيون حديثهم بأنهم سيحكمون البلد بيد أبوية».

«يد أبوية، هل هذا ما تطلقونه عليها؟!» -وهزّت رأسها من جهة إلى أخرى- «إنهم يستخدمون هؤلاء الناس كالعبيد في مزارع المطاط التي تديرونها وفي مناجمكم وفي ما لا أعرف أيضاً! لقد سمعنا ما الذي يجري يا فرانك، هل تظن أننا سذّج؟ يروي بعض الرجال في هذه القرية حكايات تجعل شعرك ينتصب واقفاً. فقد قُطعت يد رجل عجوز في كوكويلهاتڤيل، وتمكّن من الهرب ودمه ما يزال ينزف».

رماها أبي بنظرة.

«حسناً، صدقاً يا ناثان. إني أتحدّث مع زوجاتهم» - ونظرت إلى السيّدة رأس البطاطا التي ظلّت صامتة في هذا الموضوع.

«لم يكن لدينا أي فكرة» -قالت أمي بهدوء بعد ذلك، كما لو أنها اكتشفت للتوّ الأمر برمّته- «يعيش ملككم بودوان من نهب خيرات هذه الأرض، نعم هذا ما يفعله، ويترك الأمر لأطباء البعثات التبشيرية المفلسين والرجال الغيريين غير الأنانيين مثل زوجي لتلبية احتياجاتهم البسيطة. أهكذا يحكم الأب؟ فلتقرع أجراس جهنم! ألم يتوقّع أن تحدث اضطرابات؟».

راحت تنقّل نظراتها بين السيّد أندرداون وأبي مثل طفلة متوتّرة، غير متأكّدة أيّ رجل منهما له الحق في توبيخها.

حدّق السيّد أندرداون بأمي كأنه عرف فجأة أنه لا يعرف من أين أتت هذه المرأة - مثل ذلك الخادم الذي لم يكن يعرف كيف وصل السكّر إلى تحت

(*) Charles de Gaulle شارل ديغول (1890-1970): جنرال ورجل سياسة فرنسي، وأول رئيس للجمهورية الفرنسية الخامسة. [م].

قميصه! يا إلهي، لقد جعلني ذلك أشعر بالتوتّر. فقد بدا جميع الأشخاص البالغين في هذه الغرفة -وبضمنهم أمّي، السيّدة اللاعنة، والسيّدة أندرداون التي لم تتوقّف عن حكّ رقبتها ورفع ذقنها إلى أحد الجانبين- مثل مرضى في مصحّة عقلية. ما عدا أبي، الذي هو في الحقيقة الشخص المجنون الحقيقي الوحيد بينهم.

رفع القسّ أندرداون قبضته، فأجفلت أمي. لكنّه لم يكن يقصدها، وتبيّن أنه يريد أن يُعجب الجميع بيده، وقال: «هذه هي علاقة بلجيكا بالكونغو خاصتها. انظروا هناك! يد قوية، مقبوضة بإحكام. لم يكن بإمكان أحد أن يتوقّع أن تحدث انتفاضة كهذه».

خرجت أمي من الغرفة، من الباب الخلفي باتجاه المطبخ. لم يلحظ أحد غيابها، لكنها عادت بعد دقيقة، بعد أن تذكّرت، بوضوح، أنها لا تستطيع أن تركب حافلة «غري هاوند» المتجهة إلى أتلانتا.

«ماذا يقول حقاً؟» -سألتْ أمي السيّدة أندرداون- «إنه لن تكون هناك مرحلة انتقال أبداً؟ ألا توجد فترة انتقال من أجل -لا أعرف- حكومة مؤقّتة تحت التدريب؟ هكذا فجأة، يذهب البلجيكيون ويتعيّن على الكونغوليين إدارة كلّ شيء بأنفسهم؟».

لم يُجب أحد، وخشيت أن تبدأ أمي في شتم الملك مرة أخرى، أو أن تبكي. يا له من أمر محرج!

لكنّها لم تفعل أيّاً من ذلك، وإنما أمسكت شعرها قليلاً وحاولت أن تتحدّث بصوت «دعونا نناقش الأمر»، فقالت: «فرانك، جانا، لا يوجد أحد بين هؤلاء ذهب إلى الجامعة أو حتى سافر إلى الخارج ليدرس أساليب الحكم. هذا ما يقوله لنا أناتول. والآن تقولان إنهم سيُتركون بين عشية وضحاها ليديروا كلّ مدرسة، كلّ دائرة، كلّ مكتب حكومي؟ والجيش؟ ماذا عن الجيش يا فرانك؟».

هزَّ القسّ أندرداون رأسه، وقال: «لا أستطيع أن أقول لك كيف يا أورليانا. أستطيع أن أخبرك ما أعرفه فحسب».

البيت، البيت، البيت، البيت، صلّيت. إذا كانت المشكلة كبيرة جداً، فإن علينا أن نعود إلى البيت في بلدنا. يمكننا أن نركب تلك الطائرة غداً ونخرج من هنا، إذا قال ذلك فحسب.

نهض أبي وجاء ليقف عند الباب، مواجهاً الشرفة. ارتجفتُ، راجيةً وخائفة في الوقت نفسه أن يقرأ أفكاري. لكنّه لم يكن ينظر إلينا نحن البنات. كان يحدّق وراءنا، ليُظهر للسيّد والسيّدة أندرداون وأمي أنه يولي ظهره للجميع. استرخيت في أرجوحتي الشبكية ورحت أفرك بشرتي، بينما أخذ أبي يكلّم المساحات الشاسعة في الخارج.

«لا يوجد جهاز تلفزيون واحد في هذا البلد المبارك كله» -قال مخاطباً أشجار النخيل- «لا مذياع، أو ربما يوجد جهاز واحد لكلّ مئة ألف من السكّان. لا هواتف. الصحف نادرة بندرة أسنان دجاجة، ومعدّل الأميّة كبير، وهم يتناقلون أخبارهم المسائية عن طريق الاستماع إلى قرع طبول جيرانهم».

كان هذا صحيحاً. ففي كلّ ليلة تقريباً نسمع أصوات تلك الطبول المنبعثة من القرية المجاورة التي قال نِلسون إنها طبول تتكلّم. لكن ما الذي يمكنك أن تخبر شخصاً آخر بواسطة طبل؟ سيكون ذلك أسوأ من «ديب - ديب - دوب» شِفرة مورس(*) التي يستخدمونها في الجيش.

قال أبي: «انتخاب! فرانك، أنا محرجٌ عنك! إنك ترتجف مثل رجل مسكون بحكاية خرافية. افتح عينيك يا رجل! إن هؤلاء الناس لا يستطيعون حتى قراءة شعار بسيط: "صوّت لصالحي! فليسقط شابوبي! انتخاب!". مَنْ هنا يعرف حتى أنّ هذا يحدث؟».

(*) تستخدم راشيل More scold خطأً عوضاً عن Morse code. [م].

لم يجبه أحد. نحن البنات لم نصدر صوتاً، طبعاً، أكثر مما تصدره أشجار النخيل، لأننا كنا نعرف أنه كان يكلّم أمي والسيّد والسيّدة أندرداون. كنت أعرف بالضبط كيف كانوا يشعرون وهم يخضعون لأحد استجوابات الأب المفاجئة، الذي تابع قائلاً: «مئتا لغة مختلفة يتحدّث بها الناس داخل حدود ما يسمّى بلداً اخترعه البلجيكيون في إحدى القاعات. يمكنك أيضاً أن تضع سياجاً حول خراف وذئاب ودجاج، ثم تقول لهم أن يتصرّفوا كإخوة».

ثم استدار، وبدأ يتكلّم فجأة بنبرة واعظ: «فرانك، هذه ليست أمة، إنها برج بابل ولا يمكنك أن تُجري فيها انتخابات. وإذا كان على هؤلاء الناس أن يتوحّدوا، فهذا يمكن أن يحدث بطريقة واحدة: بأن يكونوا حملان الربّ الذين يجمعهم حبّهم البسيط للمسيح. لا شيء آخر يمكن أن يجعلهم يتقدّمون إلى الأمام. لا السياسة، ولا الرغبة في الحرية - ليس لديهم المزاج أو الذكاء لهذه الأشياء. أعرف أنك تحاول أن تقول لنا ما سمعته، لكن صدّقني يا فرانك، أنا أعرف ما أراه».

تحدّثت السيّدة رأس البطاطا بصوت مرتفع، لأول مرة منذ أن أنهت حديثها عن حبوب الملاريا، وقالت: «أورليانا، إن سبب مجيئنا اليوم إلى هنا هو لنطلب منكم أن تضعوا خطتكم كي تغادروا. أعرف أنكم كنتم ستبقون حتى الخامس عشر من حزيران، لكن يجب أن نعيدكم إلى الوطن».

يا إلهي، بدأ قلبي يرقص تشا - تشا، عندما سمعت كلمة الوطن! ولكن، إذا كان هناك شيء واحد لا يحبّه أبي فهو أن يقول له أحدٌ ما الذي يجب أن يفعله.

«إن عقدي ينتهي في شهر حزيران» -قال لجميع المعنيين- «وسنبقى حتى شهر تموز لنستقبل القسّ مينور وزوجته عندما يصلان. أنا واثق من أن أعمال الخير المسيحية ستأتي من أميركا، مهما كانت المُشكلات التي قد تواجهها بلجيكا بيدها الأبوية».

«ناثان، إن السيّد والسيّدة مينور...» بدأ فرانك يقول، لكن أبي قاطعه وواصل كلامه: «لقد صنعتُ هنا بعض المعجزات، ولا أجد مانعاً في أن أقولها لك. لقد فعلت كلّ ذلك وحدي. المساعدة الخارجية لا تعنيني. لا يمكنني أن أجازف بأن أخسر أرضاً ثمينة بالهرب مثل جبان قبل أن نقوم بعملية انتقال صحيحة!».

متى يحدث الانتقال؟ هذا ما أردت أن أعرفه. أسبوع آخر؟ شهر؟ ما تزال هناك نصف سنة حتى شهر تموز.

«فرانك، جانا» -قالت أمّي، بصوت بدا خائفاً- «من ناحيتي» -ثم ارتبكت- «ومن ناحية البنات، أريد أن...».

«تريدين ماذا يا أورليانا؟!»، قال أبي الذي ما زال واقفاً عند الباب، لذا فإننا تمكّنا من رؤية وجهه. بدا مثل ولد شقي يتهيأ ليرمي بالحجارة على الجراء. «ما الذي تريدين أن تقوليه، من ناحيتك؟!» سألها.

كانت السيّدة أندرداون ترمق زوجها بنظرات قلقة كأنها تقول: «أوه، يا إلهي، ماذا بعد؟!».

«ناثان، قد لا تكون هناك فترة انتقالية»، قال السيّد أندرداون متوتّراً، وقال اسم أبي كما لو كنت تنادي كلباً ينبح باسمه كي يهدأ، وأضاف: «لقد ألغى السيّد والسيّدة مينور عقدهما، بناءً على نصيحتنا. قد لا تُستأنف البعثة التبشيرية قبل سنوات».

حدّق أبي في الأشجار، ولم يعطِ أي إشارة بأنه سمع زوجته المسكينة الخائفة، أو أيّاً من هذه الأخبار. إن أبي مستعد لأن يرانا نهلك الواحدة تلو الأخرى على أن ينصت لأحد إلا لنفسه.

«لن يرسلوا أحداً إلى هذه البعثة قبل سنوات»، قلت لنفسي. سنوات! أوه، أرجوك يا إلهي أن تجعل شجرة تسقط عليه وتهشّم جمجمته! دعنا نغادر الآن!

ثم قالت السيّدة أندرداون: «بالنسبة لنا فإننا نتخذ جميع الاستعدادات لنغادر».

«نعم» -قال زوجها- «بالتأكيد. إننا نحزم أمتعتنا كي نغادر. كان الكونغو وطننا لسنوات عدة، كما تعرفان، لكن الوضع خطير جداً. ناثان، لعلّك لم تفهم مدى خطورة الأمر. في جميع الاحتمالات ستنفّذ السفارة عمليات الإجلاء من ليوبولدڤيل».

«أعتقد أنني أفهم جيّداً» قال أبي، والتفت فجأة لمواجهتهما، في بنطاله الكاكي وكُمّي قميصه الأبيض المرفوعين، لكنّه رفع يداً فوق رأسه، كما يفعل في الكنيسة ليردّد الدعاء ويمنح البركات.

«لا يعلم إلّا الله متى يمكن أن يصل الفرج، الله وحده يعلم. ومن أجل خدمته سنبقى!».

إدا

أشياء كثيرة تعتمد على عربة يد حمراء تلمع من قطرات ماء المطر تنتصب بجانبها الدجاجات البيضاء. هذه قصيدة كاملة كتبها طبيب اسمه ويليام ك. ويليامز(*). بيضاءُ دجاجاتٍ بجانبٍ، ينتصب ماء المطر قطراتٍ تلمع، حمراءُ عربة اليد. تعتمد كثيراً الأشياء.

أحبّ كثيراً الاسم ويليامز ك. ويليام الذي كتب هذه القصيدة عندما كان ينتظر موت طفل. أريد أن أكون طبيبة شاعرة، كما أظن، إذا عشت حتى أبلغ سن الرشد. لا أتخيّل نفسي كثيراً أنني سأصبح امرأة بالغة على أي حال،

(*) William Carlos Williams ويليام كارلوس ويليامز (1883–1963): شاعر أميركي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحداثة والتصويرية (Imagism). كما أنه كان طبيباً للأطفال. [م].

ويبدو ذلك الآن هدراً للمخيّلة. لكن لو كنت طبيبة شاعرة، لأمضيت اليوم كله مع أشخاص لا يستطيعون أن يسبقوني في الجري، ثم أعود إلى البيت وأكتب ما يعجبني في دواخلهم.

ننتظر الآن كلّنا لنرى ما الذي سيحدث. إن انتظار موت طفل ليست مناسبة لكتابة قصيدة هنا في كيلانغا: لأنك لن تنتظر طويلاً، ففي كلّ يوم تقريباً توجد جنازة أخرى. ولم يعد باسكال يأتي لنلعب معاً لأن شقيقه الأكبر مات، وهم بحاجة إليه في البيت. وفقدت ماما موانزا ذات الساق الواحدة طفليها الصغيرين. كنا نُدهش عندما نرى أن لدى كلّ شخص هنا أطفال عدة: ستّة أو ثمانية أو تسعة. لكن الآن، أصبح يبدو فجأة أنه لم يعد لدى أحد عددٌ كافٍ من الأطفال. إنهم يلفّون تلك الأجساد الصغيرة بطبقات من القماش مثل قطعة جبن ماعز كبيرة، ويضعونها أمام البيت تحت قوس جنائزي يحاك من أوراق شجرة النخيل ومن أزهار الفرانجيباني ذات الرائحة الحلوة القوية، وتأتي جميع الأمهات زحفاً على ركبهن، وهنّ يصرخن ويولولن ويغنّين أغنية طويلة بأفواه مرتعشة مثل أطفال رضّع يموتون من الجوع. تسيل دموعهن ويمدُدن أيديهن نحو الطفل الميّت، لكنها لا تصل إليه أبداً. وعندما يتوقّفن عن محاولة ذلك، يحمل الرجال الجثمان في أرجوحة معلّقة بين عصي، تتبعهن النسوة وهنّ لا يزلن ينُحن ويبكين ويصرخن ويحاولن مدّ أيديهن إليه، يعبرون من أمام بيتنا باتجاه الغابة. كان أبي يمنعنا من رؤية ذلك، وكان يبدو أنه لم يكن يبالي بجثامين هؤلاء الأطفال كثيراً بقدر ما يبالي بأن هذه الأرواح لم تُنقذ. وفي يوم الحساب، سيشكّل كلّ واحد من هؤلاء نقطة ليست في صالحه.

كانت معلّمة مدرسة يوم الأحد المعمدانية قد قالت لنا إن الطفل لا يذهب إلى الجنة، فقط لأنه ولد في الكونغو، ولم يولد -لنقُل- في شمال جورجيا، حيث يمكنه أن يذهب إلى الكنيسة بانتظام. كانت هذه هي

النقطة الشائكة في مسيرتي العرجاء الصغيرة نحو الخلاص: الدخول إلى الجنة مسألة حظّ. عندما كنت في الخامسة من عمري رفعتُ يدي اليسرى السليمة في مدرسة يوم الأحد، واستخدمتُ حصة شهر كامل من الكلمات والعبارات لأوضح هذه المشكلة للآنسة بيتي ناغي. أن تولد بجانب واعظ، قلت لنفسي، أمر يحدث بالمصادفة المحضة. هل ربّنا هو ذلك النوع من المخلّص الارتجالي؟ هل سيُدين الأطفال ويسومهم العذاب الأبدي لمجرّد أنهم ولدوا لأبوين وثنيين، بينما يكافئ الأطفال الآخرين من أجل امتياز لم يفعلوا شيئاً لاكتسابه؟ انتظرتُ ليا والتلاميذ الآخرين أن ينتهزوا هذه النقطة الشديدة الوضوح ويدخلوا في النقاش بدعامةٍ فائضة من الكلمات. لكنهم، لخيبة أملي، لم يفعلوا ذلك، ولا حتى أختي التوءم التي يُفترض أنها تعرف عن هذا الامتياز غير المكتسب. كان ذلك قبل أن يقولوا إننا، أنا وليا، فتاتان موهوبتان. عندما كنت ما أزال إدا البلهاء، المعاقة، مصدر الفكاهة الساخرة الدائم، شجرة البلوط السلحفائية السامة، إدا التي تتعرّض لضربات متكررة على الرأس. أمرتني الآنسة بيتي أن أقف في الزاوية حتى انتهاء الدرس، وأن أصلّي وأطلب المغفرة والرحمة لروحي وأنا جاثية فوق حبات رزّ نيء. وعندما نهضتُ وعلامات حبوب الرزّ الحادّة في ركبتي وجدت، لدهشتي، أنني لم أعد أؤمن بالله. لكن يبدو أن الأطفال الآخرين ظلّوا يؤمنون به. عندما عدت إلى مكاني وأنا أعرج، أشاحوا بأعينهم عن ركبتيّ الآثمتين المثقّبتين. كيف لا يمكنهم حتى أن يشككوا في حالة النعمة التي هم بها؟ للأسف، كنت أفتقر إلى ثقتهم. فقد أمضيت وقتاً أطول من أي طفل عادي في التفكير في حوادث الولادة سيئة الحظ.

منذ ذلك اليوم توقّفت عن ترديد الكلمات كالببغاء: *Oh, God! God's love* (أوه، يا الله! حبّ الله) وبدأت أقلب الكلمات بطريقتي وأقول: *Evol's dog !Dog ho!* (كلب إيفول! كلب هُو!).

ثم وجدت هنا لغةً أكثر تهكّماً من لغتي الخاصة: ففي كيلانغا، تُستخدم الكلمة نزولو بثلاث طرق مختلفة على الأقل. وهي تعني «العزيز الغالي»، أو يرقة صفراء سميكة تحظى بتقدير عالٍ كطُعم للسمك، أو نوع من البطاطا الصغيرة التي تظهر في السوق بين الحين والآخر، وتباع دائماً في عناقيد تتجمّع على طول الجذور مثل عُقَدٍ في خيط. وهكذا نغنّي بأعلى صوتنا في الكنيسة: «تاتا نزولو». ندعو من؟ أعتقد أن المقصود يجب أن يكون إله البطاطا الصغيرة. ويبدو أن العزيز الغالي، ذاك الآخر الذي يقيم في شمال جورجيا لا يعير أدنى اهتمام للأطفال هنا في كيلانغا. فهم يحتضرون كلّهم، يموتون من الـ كاكاكاكا، ذلك المرض الذي يحوّل الجسم إلى إبريق أسود صغير، يثقبه، ويُخرج كلّ السوائل التي في داخله. لقد جعلت الأمطار الغزيرة المرض يجري في الجداول والأنهار. اكتشفنا مؤخّراً أن سكّان هذه القرية يعرفون عن النظافة أكثر مما نعرف نحن. فبينما كنّا نغتسل ونسبح في أيّ مكان قديم في الجدول، كانت لديهم قواعد محددة، كما تبيّن لي: اغسل الثياب باتجاه مجرى النهر، حيث يجري جدول الغابة ويصبّ في نهر التمساح. استحمّ في وسط الجدول. اسحب ماء الشرب من النهر في أعلى القرية. تعتبر هذه الأمور في كيلانغا شعائر دينية، إنها المعمودية وسرّ المناولة بالنسبة لهم. حتى للتغوّط هناك قواعد وضعتها الآلهة الإفريقية، إذ يأمرون بألّا تُستخدم إلا الشجيرات التي قدّسها تاتا كوفودُندو لهذا الغرض، وصدّقوني، فقد اختار الشجيرات البعيدة عن المياه الصالحة للشرب. ربما كان مرحاضنا يقع في أرض محايدة، أما في المسائل المتعلّقة بالاستحمام والغسيل، فقد ظللنا جاهلين لمدة طويلة. لقد أسأنا لجميع الآلهة القديمة، بكلّ طريقة قد تخطر على بال. نغنّي «تاتا نزولو»، وأتساءل ما هي الخطايا الجديدة المقرفة التي نرتكبها كلّ يوم، ونحن نرفع رؤوسنا عالياً في جهل مقدّس بينما يشهق جيراننا، ويضعون أيديهم على أفواههم.

يقول نِلسون إن الأخطاء التي ارتكبناها هي التي جلبت هذا الموسم الماطر. أوه، إنها تمطر، تمطر بغزارة، نوح نفسه سيتملّكه الفزع. لقد حطّم هذا الموسم الماطر كلّ القواعد. فعندما جاء الموسم في وقت مبكر واستمر فترة طويلة جداً وهطلت الأمطار بغزارة، ذابت تلال المانيوك وتلفت الدرنات بعيداً عن كرومها، وجلب لنا المطر الغزير أخيراً الـ كاكاكاكا. وبعد كل شيء حتّى عندما يتغوّط الجميع على النحو الصحيح، فهناك قرى منبعها من عندنا. مصبّ النهر دوماً هو منبعه في قرية أخرى، والمصبّ الأخير سيكون الأول.

توقّفت الآن العواصف الرعدية. وبدأت الجنائز تجفّ شيئاً فشيئاً مثل برك الماء. الببغاء ميثوسالا يقبع ساكناً لا يأتي بحركة فوق شجرة الأفوكادو وعيناه تزوغان من جانبٍ إلى آخر، غير مستعد لموسم جديد من الحرية الساحقة. بيتو نكي تو تاسالا؟ يتمتم أحياناً بصوت شبح ماما تاتابا: ماذا نفعل؟ إنه سؤال قد يطرحه أي شخص. في السكون الغريب عائلتنا لا تعرف ماذا تفعل.

بدا الجميع مشغولين بالخسارة ومرتبكين في الوقت نفسه، مثل الحشرات المذهولة التي خرجت من هول العاصفة.

تنفض النسوة حصرهن المصنوعة من نبات السيزال، ويبدأن بزراعة حقولهن من جديد على الرغم من حزنهن على أطفالهن الذين فقدوهن. ويذهب أناتول إلى بيوت جيراننا، الواحد تلو الآخر، ليقدّم تعازيه بتلامذة مدرسة قريتنا الذين ماتوا. وفي الوقت نفسه كان، كما رأيت، يهيّئهم للانتخابات والاستقلال. سيكون انتخاب مطبخ: فبما أنهم لا يجيدون القراءة، وضع لكلّ مرشّح رمزاً. وبحكمةٍ يختار هؤلاء الرجال تمثيل أنفسهم بأشياء مفيدة: سكين، قارورة، ثقاب، قِدر. وضع أناتول أمام باب المدرسة عدة أوانٍ فخارية كبيرة ووضع إلى جانب كلّ منها: السكين، القارورة، أو

الثقاب... وفي يوم الانتخابات، كان على كلّ رجل في كيلانغا أن يرمي حجرة في الطاسة التي يختارها. وكانت النسوة يقلن لأزواجهن دائماً: السكين! القارورة! لا تنسَ ما قلته لك! يبدو أن الرجال الذين يتمتعون بالحق في التصويت، هم الأقل اهتماماً. ويقول المتقدّمون في السنّ إن الاستقلال هو للشباب، وقد يكون هذا صحيحاً. ويبدو أن الأطفال هم الأكثر حماسة من بين الجميع: فهم يرمون الحجارة إلى داخل الطاسات عبر الساحة، وفي نهاية كلّ يوم، يُفرغها أناتول. يطلق تنهيدة عندما تسقط حجرة على التراب وتشكّل كوكبة نجومٍ جديدة. لعبة تصويت يلعبها الأطفال. وفي نهاية يوم الانتخابات، سيضع أبناء تاتا ندو الأحجار في أكياس مع رمز كلّ مرشّح: السكين، القارورة، الثقاب، وينقلونها بالزورق إلى بانينغفيل. في ذلك اليوم، ستسافر جميع الأحجار من كلّ أنحاء الكونغو في الأنهار. في الواقع، الأرض ستتحرّك. يبدو الزورق المصنوع من جذوع الأشجار أشبه بطائر هشّ ليحمل كلّ هذا الوزن.

تورلسكأ نيبيا، إيبين أكسلروت، يسافر أيضاً. إنه لا يضيّع وقته. في هذه الأيام يقوم بقدر ما يستطيع من رحلات فوق نهر كويلو إلى حيثما يستطيع أن يذهب جنوباً. كاتانغا وكاساي، يقول جهاز اللاسلكي الذي لديه. حيث توجد المناجم. يتوقّف هنا كلّ أسبوع لفترة تكفي ليدفع للنسوة مبلغاً زهيداً لقاء نبات المانيوك وموز الجنة الذي يبعنه له، ويتركهن يصرخن وينُحن مثل نادباتٍ في جنازة، ويطير بعيداً حاملاً أي شيء يستطيع أن يحشوه في كيسه. أظن أنّ البلجيكيين والأميركيين الذين يديرون مزارع المطاط ومناجم النحاس يستعملون أكياساً أكبر.

أعتقد أن الطبيب الشاعر في قريتنا هو نغانجاكوفودُندو. الجوزة النادرة، كما يسميه أبي، شيء، بذرة يجب كسرها. عيّر القِدرُ المقلاةَ بسوادها! نغانجا كوفودُندو يكتب لنا وحدنا قصائد فحسب، أشياء كثيرة تعتمد على عظام

الدجاج البيضاء يضعها في وعاء كالاباش ينتصب في بركة من المطر خارج بيتنا. رأيته يتركها هناك. كنت أنظر من النافذة، والتفتَ لمدة ثانية فحسب، وحدّق في عينيَّ مباشرة. رأيت شفقة في عينيه، وأظن أنه ينوي أن يحمينا من الآلهة الغاضبة، ومن غبائنا، بإبعادنا من هنا.

بونغو بانغو بينغو. هذه هي قصّة الكونغو التي يروونها الآن في أميركا: حكاية آكلي لحوم البشر. أعرف هذا النوع من القصص، أولئك الذين يعيشون في عزلة ينظرون بازدراء إلى الجياع؛ وأولئك الجياع ينظرون إلى الذين يتضوّرون جوعاً. المذنبون يلومون المتضرّرين، وذوو الورع المشكوك فيه يتحدّثون عن آكلي لحوم البشر، الوضيعين، الآثمين، الملعونين. وبهذه الطريقة سيشعر الجميع بأنهم أفضل. ولذا، يُقال إن خروتشوف كان يرقص مع آكلي لحوم البشر هنا، ويعلّمهم أن يكرهوا الأميركيين والبلجيكيين. لا بدّ أن هذا صحيح، وإلا فكيف سيعرف الكونغوليون المساكين كيف يكرهون الأميركيين والبلجيكيين؟ مع أننا نمتلك البشرة البيضاء نفسها، ونتناول طعامهم داخل بيتنا الكبير، ونرمي العظام خارج البيت. العظام المنتشرة هنا وهناك على العشب والتي من خلالها يتنبؤون بمصائرنا. لماذا يتعيّن على الكونغوليين أن يعلنوا قَدَرنا؟ مع أننا عرضنا عليهم أن يقدّموا أطفالهم طعاماً للتماسيح كي يعرفوا المملكة والقوّة والمجد.

جميع عيون أميركا تعرف كيف هم الكونغوليون: جلد وعظام ترقص، شفاه مزمومة مرفوعة إلى الأعلى مثل أصداف المحار، رجلٌ ضئيل في شعره عظمة فخذ.

كان نغانجا كوفودُندو يتشح بالبياض، لا توجد عظمةٌ في شعره، يقف عند طرف باحة بيتنا. يوجد في قدميه إحدى عشرة إصبعاً. يكرّر الجزء الأخير من اسمه: الكلمة دوندو. دوندو هو أحد أنواع الظباء، أو نبات صغير من جنس ڤيرونيا، أو تل، أو هو الثمن الذي يتعيّن عليك دفعه. كلّ ذلك

يتوقّف على نبرة الصوت. أحد هذه الأشياء هو ما ينتظر عائلتنا(*)، لكن آذاننا المعمدانية القادمة من جورجيا لن تفهم الفرق أبداً.

راشيل

سافر أبي بالطائرة مع إيبين أكسلروت إلى ستانليڤيل للسبب نفسه الذي صعد فيه الدبّ إلى الجبل(**)، كما أظن. وكان كلّ ما استطاع أن يراه هو الجانب الآخر من الكونغو، وكان السبب الرئيسي الآخر لرحلته هو أن يجلب حبوب الكينين التي بدأت تنفد من بيتنا، لسوء الحظ. إن طعم حبوب الكينين سيّئ بما يكفي لإحداث مشكلة في شعرك. عن طريق المصادفة، عرفت أن روث ماي لا تبتلع حبّاتها دائماً: رأيتها ذات مرة تخبئها وراء أسنانها الجانبية عندما فتحت فمها لتُري أمي أنها ابتلعتها، ثمّ بصقتها بيدها وألصقتها على الحائط وراء سريرها الصغير. أما أنا، فإني أبتلعها دائماً. كلّ ما أحتاج إليه هو أن أعود إلى بلدنا وأنا لست مصابة بمرض فظيع. فتاة جميلة في السادسة عشرة لم يقبّلها أحد، أمرٌ سيّئ بما فيه الكفاية، لكن أن أصاب بالغدّة الدرقية ماري(***) فوق كلّ هذا؟ أوه، يا إلهي!

أبي غاضب جداً من السيّد والسيّدة أندرداون. فهم يرسلون عادةً الضروريات الأساسية التي يظنون أننا نحتاج إليها كلّ شهر (وصدّقوني إنها

(*) price في الإنكليزية تعني الثمن، وهو اسم العائلة برايس. [م].

(**) إشارة إلى أغنية أطفال معروفة تقول كلماتها «صعد الدب إلى الجبل ليرى ما يستطيع رؤيته، وكل ما استطاع رؤيته كان الجانب الآخر من الجبل». [م].

(***) تُخطئ بين كلمتين، إذ تتشابه كلمتا Thyroid (الغدة الدرقية)، وTyphoid (تيفوئيد)، وهو ما تقصده «راشيل»، ويبدو ذلك واضحاً من إضافة كلمة «ماري»، إذ يسمى المرض «تيفوئيد ماري» نسبةً إلى Mary Mallon أول امرأة عُرف أنها ناقلة عديمة الأعراض، أي إنها تنقله من دون أن تظهر عليها أعراضه. [م].

ليست كثيرة)، أما الآن فقد أرسلوا رسالة فحسب، تقول: «استعدّوا للمغادرة. سنرسل طائرة خاصّة تابعة للبعثة في 28 حزيران لإجلائكم. سنغادر ليوبولدفيل الأسبوع القادم، وقد رتّبنا أن ترافقنا أسرتك حتى بلجيكا».

النهاية؟ ثم ستعيش أسرة برايس في سعادة دائمة؟ نجوم السماء أقرب. إن أبي مصمّم على البقاء هنا إلى الأبد، كما أظن. تحاول أمي أن تشرح له كلّ يوم وطوال النهار كيف أنه يعرّض حياة بناته للخطر، لكنّه لا ينصت حتى لزوجته، فما بالك لابنته الكبرى! رحت أصرخ وأرفس قطع الأثاث حتى انخلعت إحدى قوائم الطاولة، وأطلقتُ صيحةً ربما سُمعت حتى في مصر. فما الذي يمكن أن تفعله فتاةٌ إلّا أن تحاول. نبقى هنا؟ في حين يستعد الجميع للعودة إلى بلدانهم حيث سيرقصون رقصة قفزة الأرنب ويقفزون ويشربون الكوكا كولا؟ يا لها من صورة ملوّنة للعدالة!(*).

عاد أبي من ستانليفيل والدم يكاد يتجمّد في عروقه. كان مشحوناً بالأخبار اليومية. إنهم يُجرون انتخابات، كما أظن، والفائز رجل اسمه باتريس، إذا كان بإمكانك أن تصدّق ذلك. باتريس لومومبا. قال أبي إن حزب لومومبا فاز بخمسة وثلاثين مقعداً من بين المئة مقعد تقريباً في البرلمان الجديد، ويرجع ذلك إلى قوة الجاذبية الطبيعية التي يتمتّع بها، وبسبب عدد السكّان الكبير في بلدته. كان ذلك يبدو مثل انتخابات مجلس الطلّاب في مدرسة بيت لحم الثانوية التي يفوز فيها من لديه مجموعة أكبر من الأصدقاء. ولن تتاح لابنة قسّ الفرصة بالفوز أبداً. يا إلهي! فمهما غازلتِ أو بدوت مثل قطّة ناعمة ورفعتِ تنّورتك حتى خصرك في الحافلة، فإنهم سيظلون يعتبرونك L-7 «مربّع»، أي بعبارة أخرى: شخصاً من الطراز التقليدي المملّ. حاولي أن تحصلي على صديق وفق هذه الشروط: صدّقيني، إنّ فرَصك صفر!

(*) تخلط بين كلمتين Tapestry وTravesty، وتصبح العبارة بعد إصلاح هذا الخلط: a travesty of justice، وهو تركيب يمكن ترجمته: «هذا إجهاضٌ للعدالة». [م].

إذاً، السيّد باتريس سيصبح رئيس وزراء الكونغو الآن، ولن تعود هناك الكونغو البلجيكية، وإنما ستصبح جمهورية الكونغو. وهل تظن أن أحداً في هذه البلدة العصرية سيلاحظ ذلك حقاً؟ نعم، بالتأكيد. سيتعيّن عليهم كلّهم أن يغيّروا رخص القيادة. وذلك في عام مليونين، عندما يشقّون طريقاً إلى هذه القرية ويحصل أحدهم على سيارة.

سألت أمي: «هل هو الذي يقولون إنه شيوعي؟».

فقال أبي: «كما تلاحظين».

هذا هو التعبير الوحيد المستخدم في المسيسيبي والذي التقطه من أمّي. نسألها شيئاً مثل «هل كويتِ فستاني الكتّان كما طلبت منك؟» فتقول: «كما تلاحظين!». عندما كنا في بلدنا، كان يمكن أن تقول أجوبةً طريفة أحياناً، عندما لا يكون أبي موجوداً بالطبع.

قال أبي إنه سمع رئيس الوزراء المقبل لومومبا يتحدّث في المذياع، في دكّان حلاقة في ستانليفيل، عن السياسة الخارجية المحايدة والوحدة الإفريقية وكلّ هذا الكلام. وقال إن باتريس لومومبا والكونغوليين المنتخبين الآخرين سيفعلون أي شيء لإنشاء حكومة يوافق عليها جميع من في البرلمان. لكن المشكلة أنهم كلّهم لا يزالون يحبّون قبائلهم وزعماءهم أكثر من أي شيء آخر.

يمكنني أن أتخيّل قاعة البرلمان: قرابة مئة شخص يشبهون تاتا ندو في قبّعات مدبّبة ونظّارات من دون عدسات زجاجية، يهشّون كلّهم الذباب بعصي سحرية من ذيول الحيوانات في هذه الحرارة الشديدة، ويتظاهر كل واحدٍ منهم بتجاهل الآخر. قد يستغرقون مئة سنة حتى يقرّروا فقط من سيجلس أين. هذا يكفي بالفعل. كلّ ما أريده هو أن أعود إلى بلدنا، وأن أبدأ بتنظيف الشوائب العميقة التي علقت ببشرتي في الكونغو.

روث ماي

تحتاج أمي أن تستعيد طاقتها بسرعة. فما إن سافر أبي مع ليا بالطائرة، حتى ذهبت مباشرة إلى سريرها ولم تستيقظ.

لم تكن الطائرة هي طائرة السيّد أكسلروت الذي كان يذهب ويأتي حينما يشاء. وإنما كانت هذه طائرة أخرى صغيرة تشبهها، لكنها صفراء اللون هذه المرة. كان السائق يرتدي قميصاً أبيض، وتفوح منه رائحة نظافة، ويدهن شعره بزيت ڤيتاليس الذي يمكنك أن تشمّ رائحته بوضوح. كان يمضغ علكة نعناع وقدّم لي قطعة منها. كان رجلاً أبيض يتكلّم اللغة الفرنسية. يتحدّث بعض الناس بالفرنسية، لكني لا أعرف لماذا. انتعلنا كلّنا أحذيتنا وذهبنا لنرى الطائرة وهي تهبط. كان عليّ أن أنتعل حذاء أطفال صغار أبيض مع أنني لم أعد طفلة صغيرة. عندما أكبر ستظل أمي تُلبسني هذا الحذاء الذي تريد أن تحوّله إلى معدن بني برّاق، وتضعه على المنضدة عندما نعود إلى جورجيا بجانب صورتي وأنا طفلة صغيرة. لقد فعلت ذلك مع أخواتي جميعهن، حتى إدا وقدمها غير السليمة التي تكوّر الحذاء إلى الأعلى فتجعله يبدو مضحكاً. حتى ذلك الحذاء المهترئ من جانبيه حوّلته أمي إلى معدن واحتفظت به. لذلك فإنها ستحتفظ بحذائي أيضاً.

قالت أمي إن الطائرة طائرة مستأجرة خاصة أرسلتها لنا أسرة أندرداون لتسع كلّ أغراضنا ونسافر من هنا. لكن أبي لم يسمح بذلك. سافر هو وليا فقط ولم يأخذا أيّ شيء لأنهما سيعودان. كلّمته راشيل بوقاحة في وجهه، وحاولت أن تصعد إلى الطائرة مع أغراضها، لكنه دفعها بعيداً. فألقت أغراضها على الأرض وقالت: «حسناً، سأذهب وأُغرق نفسي في النهر»، لكنّنا كنّا نعرف أنها لن تفعل ذلك، لأنها لا تحب أن تتسخ بهذه الطريقة.

لم تكن إدا موجودة أيضاً، بل بقيت في البيت. وقفنا أنا وماما فقط في

الحقل لنشاهد الطائرة وهي تحلّق في السماء. لكن ماما لم تقفز وتلوّح مودّعة، بل وقفت هناك جامدة ووجهها يصغر أكثر فأكثر، وعندما لم تعد ترى الطائرة، دخلت إلى البيت واستلقت في سريرها. كان ذلك في الصباح، لا في الليل، وحتى لم يكن وقت القيلولة.

قلت لراشيل وإدا إننا بحاجة إلى قارورة «سڤن أب»، كي تشربها أمّنا. كانت راشيل تجيد تقليد الإعلانات الإذاعية عندما كنا في بلدنا، وهذا واحد منها: «مُتعَب؟ مُرهَق؟ هل أنت بحاجة إلى تنشيط؟ سڤن أب أعظم اكتشاف لتحصل على طاقة منعشة جديدة بسرعة. من دقيقتين إلى ستّ دقائق ستشعر بأنك أصبحت شخصاً جديداً».

لكن مضى النهار كلّه وحلَّ الظلام ولم تشعر ماما بأنها أمّ جديدة، ولم تكلّمني راشيل عن «سڤن أب»، بل ظلّت جالسة في الشرفة تنظر إلى الفجوة في السماء التي اختفت فيها الطائرة. وبطبيعة الحال فإن إدا لا تتكلّم بسبب حالتها. أحضر لنا نِلسون طعام عشائنا،وتسلّل من البيت مثل شخصٍ يريد أن يبقى بعيداً عن مشاجرة. فخيّم هدوء شديد على البيت. حاولت أن ألعب لكنّي لم أشعر بالرغبة في ذلك. دخلت إلى الغرفة وأمسكتُ بيد ماما، لكنها سقطت من يدي، فزحفت إلى السرير بجانبها، وأصبحنا الآن شخصين لا يشعران بالرغبة في النهوض مرة أخرى.

ليا

تصالحت مع أبي، وسمح لي أن أرافقه إلى ليوبولدڤيل، حيث تمكّنّا من رؤية التاريخ وهو يُصنع الآن. شاهدنا مراسم الاستقلال من فوق بارجة صدئة ضخمة مربوطة بضفة نهر الكونغو، يوجد عليها عدد كبير من الناس الذين يتدافعون، وقالت السيّدة أندرداون إنّنا قد نغرق جميعاً مثل سفينة التايتانيك.

كان ذلك حدثاً هاماً سيحضره الملك بودوان، ملك بلجيكا، نفسه. كان ذلك شيئاً طفولياً، أعرف، لكنّي شعرت بالحماس الشديد عندما قالت لي ذلك. أظن أنني كنت أتخيّل شخصاً يضع على رأسه تاجاً ويرتدي عباءة قرمزية مشذّبة مثل الملك كول العجوز(*). لكن الرجال البيض الجالسين على المنصة كانوا يرتدون جميعاً ثياباً متشابهة، بدلات رسمية بيضاء عليها أحزمة وسيوف، وكتافيات ذات شراشيب، وقبّعات عسكرية بيضاء مسطّحة. لم أرَ تاجاً واحداً. بينما كانوا ينتظرون دورهم ليلقوا كلماتهم، كانت تظهر بقع داكنة من العرق تحت آباط بدلاتهم. وعندما انتهى كلّ شيء، لم أستطع أن أعرف من هو الملك.

تحدّث معظم الرجال البيض عن الأيام المجيدة في عهد ملك بلجيكا السابق، الملك ليوبولد الذي جعل الكونغو ما هي عليه اليوم. قالت لي السيّدة أندرداون ذلك في عبارات مقتضبة سريعة ترجمتها لي وهي تضغط على يدي بقوة، لأن معظم الكلمات كانت باللغة الفرنسية. لم أكترث لإمساكها يدي لأنني طويلة مثلها ومظهري يدل على أنني بعيدةٌ عن أن أكون جبانة. لكن كان من الممكن أن تضيع واحدتنا عن الأخرى في وسط هذا الحشد أيضاً. لم يكن أبي يرضى أن يمسك يدي من أجل أي شيء في العالم، لا يحب فعل ذلك. سمّتني السيّدة أندرداون الحمل الضائع المسكين. لم تصدّق عينيها عندما رأتني أنا وأبي فقط من دون الآخرين.

سقط فكّها إلى صدرها. وفي وقت لاحق، عندما كنّا وحدنا، قالت لي إنها ترى أن أبي ليس في كامل عقله، وأنه يجب أن يفكّر بأطفاله المساكين. فقلت لها إن أبي يعرف الأفضل في نظر الربّ، وأنه من حسن حظنا أننا نخدمه، فأثار ذلك دهشتها. إنها امرأة خنوع لكني لا أستطيع أن أقول إنني أحترمها. سيغادرون غداً إلى بلجيكا، أما نحن فسنعود إلى كيلانغا لنحافظ

(*) شخصية في أغنية للأطفال تحمل الاسم نفسه «Old king Cole». [م].

على الحصن حتى تأتي أسرة أخرى لتحلّ محلّنا. هذه هي خطة أبي. القسّ أندرداون تظاهر بأنه ليس غاضباً منا.

بعد أن تحدّث الملك والرجال البيض الآخرون، نصّبوا باتريس لومومبا رئيساً جديداً للوزراء. يمكنني أن أعرف أيّ واحد منهم هو. كان رجلاً متميّزاً ونحيفاً يضع نظّارات حقيقية وله لحية مدبّبة صغيرة. عندما وقف ليلقي كلمته، أغلق الجميع أفواههم. في الهدوء الذي خيّم فجأة كان بإمكاننا أن نسمع صوت ارتطام مياه نهر الكونغو العظيم بضفتيه. حتى الطيور بدت مندهشة. رفع باتريس لومومبا يده اليسرى وبدا أن قامته ازدادت طولاً عشرة أقدام أخرى. وبرقت عيناه بلون أبيض ناصع يوجد في وسطه نقطة سوداء. كانت ابتسامته مثل مثلّث، مقوّسة من جانبيه حتى تصل إلى نقطة في الأسفل، مثل لحيته. استطعت أن أرى وجهه بوضوح شديد، مع أننا كنّا بعيدين عنه كثيراً.

«السيّدات والسادة في الكونغو» -قال- «يا من كافحتم لنيل الاستقلال الذي فزنا به اليوم، أحيّيكم!»، فانطلق الحشد الهادئ بالهتافات: «Je vous salue! Je vous salue encore! – نحيّيك، نحييك مرة أخرى!».

وطلب منا باتريس لومومبا أن نبقي هذا اليوم، 30 حزيران 1960، في قلوبنا إلى الأبد، وأن نشرح لأطفالنا معناه. كنت أعرف أن كلّ من يقف في الطوافة وعلى ضفتَيْ النهر المحتشدتين سيفعل ما قاله لهم. حتى أنا، إذا أنجبت أطفالاً. وعندما صمت ليأخذ نفساً، أخذ الناس يصيحون ويلوّحون بأذرعهم.

في البداية تحدّث عن شريكنا المتساوي، بلجيكا. ثمّ قال أشياء أخرى جعلت السيّدة أندرداون متوتّرة الأعصاب. «كان قدرنا ثمانين سنة من الحكم الاستعماري»، ترجمت لي، ثم توقّفت. تركت يدي، ومسحتها على بنطالها، ثم عادت وأمسكت يدي.

«ماذا يقول؟» سألتها. لم أكن أريد أن تفوتني كلمة واحدة مما يقوله باتريس لومومبا. عندما كان يتكلّم كانت عيناه تبدوان متقدتين كأنهما على نار. لقد رأيت واعظين في اجتماعات إحياء الروح الدينية يتكلّمون هكذا، بأصوات تعلو بطريقة تختلط فيها السماء والغضب معاً. ازداد هتاف الناس أكثر فأكثر.

«يقول إننا سلبنا أرضهم واستخدمنا الزنوج عبيداً، بقدر ما استطعنا، من دون أن نتحمّل أي عواقب»، قالت.

«هل فعلنا ذلك؟».

«حسناً. البلجيكيون عموماً. إنه غاضب من جميع الأشياء اللطيفة التي قالوها قبله عن الملك ليوبولد الذي يُعتبر بيضة فاسدة، أعترف بذلك».

«أوه!»، قلت. ضيّقت عيني لأركّز بقوة على باتريس لومومبا وأحاول أن أفهم كلماته. شعرت بالغيرة من إدا التي يمكنها أن تتعلّم اللغات بسهولة تفوق سهولة تمكُّنها من ربط شريط حذاءها. تمنّيت لو أنني درست بجدّية أكثر.

«لقد عرفنا القصور الفخمة التي يعيش فيها البيض في المدن، والبيوت المتهالكة التي يعيش فيها الزنوج».

فهمت ذلك جيّداً. كان محقّاً، فقد رأيت ذلك بنفسي عندما ذهبنا إلى منزل أندرداون. إن ليوبولدڤيل بلدة صغيرة جميلة فيها بيوت أنيقة لها شرفات وباحات منمّقة مليئة بالأزهار في شوارع معبّدة جميلة مخصصة للبيض، ويحيط بها، وعلى بعد أميال وأميال، لا شيء سوى أكواخ خربة متربة يعيش فيها الكونغوليون الذين يشيّدون بيوتهم من العصي أو الصفيح أو أيّ شيء يمكن أن يجدوه في العالم. قال أبي إن هذا ما فعله البلجيكيون بهم، وإن الأميركيين لا يوافقون على هذا النوع من المعاملة غير المنصفة. وقال إن الأميركيين سيرسلون معونات خارجية بعد الاستقلال لمساعدتهم

في بناء بيوت أفضل. وتوجد في بيت أندرداون سجاجيد فارسية حمراء ناعمة، وكراسيّ ومساند أقدام متطابقة، بل حتى يوجد مذياع. ويوجد عندهم أيضاً طقم شاي خزفي حقيقي مركون فوق خزانة جانبية داكنة اللون. وكنت قد رأيت السيّدة أندرداون الليلة الماضية وهي تحزم الكؤوس الهشّة في صناديق، وتتحسّر على الأشياء التي ستتركها وتتساءل من سيأخذها.

وعلى العشاء، جلب لنا الخادم شيئاً بعد آخر حتى ظننت أنني سأنفجر: لحم حقيقي، وأجبان برتقالية اللون ملفوفة في شمع أحمر، والهليون الأصفر المعلّب. وبعد مئة وجبة طعام بيضاء من فوفو والخبز وبراعم البطاطا وحليب كارنيشن في منزلنا، ها هي ذي أصناف كثيرة متعددة الطعم واللون بالنسبة لي. رحت أمضغ الطعام وأبتلعه ببطء، وأحسست بالغثيان. بعد العشاء، يا إلهي، بسكويت شوكولاتة من فرنسا. وكان ابنا أندرداون بشعرهما القصير جداً يتنقّلان بجسدَيْ رجلين بالغين، يملأان أيديهما الكبيرة بحفنات من البسكويت ثم يبتعدان عن الطاولة. أخذت واحدة فقط لكني لم أستطع أن آكلها، مع أنني كنت أريد ذلك. وكان خادم أندرداون النحيل يتفصّد عرقاً في مئزره الأبيض المكوي وهو يجري ليحضر لنا المزيد من الطعام. تذكّرت كيلو السكّر الذي حاول أن يخفيه تحت قميصه. وتساءلت بما أن لديهم كميات كبيرة من الطعام، فلماذا لا تعطيه السيّدة أندرداون له؟ هل كانت ستأخذ كلّ السكّر الموجود لديها إلى بلجيكا؟

«غداً سترحل، وسأبقى أنا هنا» قلت لنفسي عندما كنّا واقفين فوق المركب الكبير الراسي على ضفة نهر الكونغو، أشاهد التاريخ يحدث أمام عيني.

جرى جرذ تحت أقدام بعض الناس الحافية الذين يقفون بجانبنا، لكن أحداً لم يولِ ذلك انتباهاً، بل ظلّوا يهتفون.

صمت باتريس لومومبا لحظة ليخلع نظّارته ويجفّف جبينه بمنديل

أبيض. لم يتصبّب عرقاً ببدلته الداكنة، مثل الرجال البيض الذين لطّخ العرق بدلاتهم الرسمية البيضاء، لكن وجهه كان يلمع.

«أخبريني ماذا يقول!» -قلت متوسّلة للسيّدة أندرداون- «فأنا لم أتجاوز مرحلة صيغة الزمن الماضي التام في كتابي لتعلّم اللغة الفرنسية».

عندئذٍ لانت السيّدة أندرداون بعد وقت وترجمت لي بعض العبارات. فهمت الكثير مما تبقى من خطبته في دفقات فهم، كما لو كان باتريس لومومبا يتحدّث بألسنة متعددة وقد بوركت أذناي بالنعمة نفسها.

«Mes frère» -قال- «إخواني، لقد عانينا كثيراً من الظلم الاستعماري في الجسد والقلب، ونقول لكم الآن، لقد انتهى كلّ هذا. معاً سنقيم مكاناً يسود فيه العدل والسلام والازدهار والعظمة. سوف نظهر للعالم ما يمكن أن يفعله الإنسان الأسود عندما يعمل من أجل الحرية. سنجعل الكونغو قلب النور لكلّ إفريقيا».

خُيِّل إليّ أنني سأصاب بالصمم بسبب الهتاف الهادر.

إدا

ة د ح ا و   ء ا ر م ح   ة ش ي ر. أشياء كثيرة تعتمد على الريشة الحمراء الوحيدة التي رأيتها عندما خرجت من المرحاض.

نحن الآن في وقت مبكّر من الصباح، السماء وردية مثل عرف الديك وجوّ الصباح عابق بالدخان. ظلال طويلة تقطع الطريق من هنا إلى أي مكان آخر. يوم الاستقلال. الثلاثون من حزيران.

هل يعرف أحد هنا شيئاً عن الحرية الجديدة؟ تلك النسوة الجالسات القرفصاء، ركبهن متباعدة في تنانيرهن الطويلة الملفوفة، يرمين حفنات من الفلفل والبطاطا الصغيرة في القدور التي تغلي فوق نيران الموقد؟ وهؤلاء

الأطفال الذين يتغوّطون بجدّية أو بضعف، وذلك حسب أقدار كل منهم، في الأحراش؟ ريشة حمراء واحدة للاحتفال. لم يرها أحد بعد إلّا أنا.

عندما تقول الآنسة ديكنسون(*): «الأمل شيءٌ له ريش»، أفكّر دائماً بشيء مستدير -كرة في إحدى الألعاب التي لن ألعبها أبداً- تلتصق في كل مكان، مثل الكيس المعطّر(**) ببرتقال القرنفل والمزيّن بالريش الأحمر.

لقد تخيّلته مرات كثيرة -الأمل- متسائلةً كيف سأمسك شيئاً كهذا بيد واحدة، إذا جاء يعوم نحوي هابطاً من السماء. أجد الآن أنها قد سقطت للتو، وتوجد قطعة منها هنا بجانب مرحاضنا، ريشة حمراء واحدة. كاحتفالٍ انحنيت لالتقاطها.

في العشب الرطب رأيت العود الأحمر لريشة أخرى، فمددت يدي إليها، وعندما تتبّعت أثرها وجدت أولاً اللون الأحمر ثم الرمادي: مجموعات من ريش جناح طويل ما زالت ملتصقة بالغضروف والجلد، متباعدة كالأصابع. وريش صدر ناعم شاحب في تلال منعقدة. ميثوسالا!

أخيراً، إنه يوم الاستقلال، بالنسبة لميثوسالا والكونغو. يا إله الريش، نجِّني اليوم! فبعد عمرٍ من السجن في قفص بعيداً عن الطيران وعن الحقيقة، تأتي الحرية. بعد مواسم طويلة من التحضير البطيء لموت بريء، أصبح العالم لهم في نهاية الأمر. الحيوانات المفترسة التي ستمزّقني من صدري حتى عظم الترقوة.

بعد أن انقضّ عليه قطّ الزباد، الجاسوس، العين، الجائع من الطرف الأعلى للسلسلة الغذائية، تحرّر ميثوسالا أخيراً من أسره. وهذا ما يتركه

(*) Emily Dickinson إيميلي ديكنسون (1830–1886): شاعرة أميركية، تعتبر من أهم الشعراء الأميركيين في القرن التاسع عشر. [م].

(**) أكياس قماشية توضع مواد عطرية في داخلها، تُستخدم خصوصاً بين الملابس أو في الغرف لنشر الرائحة الطيّبة. [م].

للعالم: ريش رمادي وقرمزي متناثر فوق العشب الرطب. هذا فحسب ولا شيء آخر، القلب الواشي(*)، حكاية مُفترِس. لا شيء مما تعلّمه في بيت سيّده. ريش فحسب، من دون كرة الأمل في داخله. الريش أخيراً، أخيراً، ولا كلمات على الإطلاق.

(*) عنوان قصة قصيرة كتبها «إدغار آلان بو» ونُشرت لأول مرة في عام 1843. يحكيها راوٍ يسعى لإقناع القارئ بسلامة عقله، في حين يصف جريمة قتل ارتكبها، بعد أن خطط لها بعناية، وأخفى الجثة بتقطيع أوصالها ووضعها تحت ألواح الأرضية. لكن إحساس الراوي بالذنب يظهر على شكل هلوسة، إذ يبدأ بسماع صوت قلب القتيل يدقّ تحت ألواح الأرضية. [م].

الكتاب الثالث

القضاة

وأنتم من ناحيتكم، لا تعقدوا عهداً
مع سكّان هذه البلاد؛
بل اهدموا معابدهم...

لأنهم سيكونون أشواكاً في خاصرتكم،
وتكون آلهتهم شركاً لكم.

سِفر القضاة 2: 2-3

أورليانا برايس

جزيرةساندرلينغ، جورجيا

اسمعي، أيتها الوحشة الصغيرة! احكمي عليّ كما تشائين، لكن اسمعيني أولاً، فأنا أمّك! ما حدث لنا يمكن أن يحدث لأيّ أمّ، في أي مكان. فأنا لست أول امرأة على وجه الأرض ترى بناتها أصبحن مُمتلكات. فمنذ الأزل يوجد آباء مثل ناثان لا يرون غضاضة في أن يمتلكوا بناتهم كأنهن قطعة أرض، ويجعلونهن يعملن، ويحرثون عليهن، ويمطرونهن بوابلٍ من السمّ المريع. وبمعجزة، تشبّ تلك البنات، ويكبرن ويطُلن على سويقات توقهن الرهيفة الشاحبة، مثل نبات عبّاد الشمس ذي الرؤوس الثقيلة. يمكنك حمايتهن بجسدك وروحك، محاوِلةً أن تتشرّبي ذلك المطر الفظيع، لكنّهن يواصلن الحركة نحوه، ولن يتوقّفن عن الانحناء أمام نوره.

ربما تكيل زوجةٌ كلّ اللعنات الصامتة التي تعرفها على رجلٍ كهذا. لكنّها لا تستطيع أن ترميه بالحجر، لأن الحجرة ستخترقه وتصيب الطفلة التي صُنعت على صورته، تفقأ عيناً أو تقطع لساناً أو تبتر يداً ممدودة. لا فائدة ترجى من كل ذلك. فلا توجد أسلحة لهذه المعركة. وعلى الرغم من أنه توجد قوانين لا تعدّ ولا تحصى للإنسان والطبيعة، فلا يوجد قانون واحد يقف إلى جانبك. ذراعاك تضعفان، قلبك يصبح خاوياً. تفهمين أنّ

الشيء الذي تحبّينه أكثر شيء في هذا العالم قد نما من بذرة شيطان. أنت من تركه يزرعها.

أخيراً يأتي ذلك اليوم، عندما تصبح ابنة قادرة على أن تبتعد عن رجل كهذا - إذا كانت محظوظة. تنقلب شراسته في داخلها وتبتعد عنه بقسوة، ولا تعود تكلّمه كلّ حياتها، وتبدأ تكلّمك، أنتِ أمّها، وتسأل بعالم من السخط: كيف تركته يفعل ذلك؟ لماذا؟!

ثمة إجابات عديدة. كلّها صائبة، ومع ذلك لا يوجد جواب واحد مقنع بما فيه الكفاية.

ماذا كان لديّ؟ لم أكن أملك نقوداً، هذا أمر مؤكّد. ولم يكن عندي نفوذ، ولم يكن لديّ أصدقاء أستطيع أن أتواصل معهم في ذلك المكان. لم تكن لديّ وسيلة أستطيع أن أُبطل بها مفعول القوى التي كانت تتحكّم بحياتنا. هذه ليست قصّة جديدة: كنت امرأة. قوة أدنى.

وكان ثمة شيء آخر أيضاً، يصعب الاعتراف به. فقد كنت أعتقد أن الله يقف في صفّه. هل هذا يجعلني أبدو مجنونة؟ لكنّي كنت أصدّق ذلك. كان عليّ أن أؤمن بذلك. فقد كنت أخاف منه أكثر بكثير مما ينبغي لشخص أن يخاف من مجرّد رجل. خفته، أحببته، خدمته. كنت أضع يديَّ على أذنيّ لكيلا أسمع كلماته التي تظل تطنّ في رأسي حتّى عندما يكون بعيداً أو نائماً. وكنت أعود في أعماق لياليَّ المؤرقة إلى الكتاب المقدّس طلباً للراحة، كي أجد لنفسي شيئاً من العزاء مرّةً أخرى. «وقال الله للمرأة: تكثيراً أكثّر أتعاب حَبَلك، بالوجع تلدين أولادك، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسودُ عليك»(*). يا إلهي، رحماك! إذا قرأت هذه العبارة وأنت في حالة عقلية غير ملائمة، فقد تجعلك نسخة الملك جيمس من الكتاب المقدس ترغبين في أن تتجرّعي السمّ مهما كانت الظروف.

(*) سفر التكوين 16:3. [م].

لم يكن سقوطي متوقّعاً. لم أنشأ لأبحث عن الفتنة أو الخلاص. لا هذه ولا تلك. كانت طفولتي طفولة سعيدة بطريقتها الرثّة.

ماتت أمي وأنا في سنٍّ صغيرة جداً، ومن المؤكّد أن الفتاة اليتيمة الأمّ ستكبر وهي تشعر بأن أموراً كثيرة تنقصها، مع أنني أرى أنها تتمتع بحرية لا تعرفها الفتيات الأخريات. فمقابل كل حقيقة أنثوية في الحياة لا يخبرها بها أحد، ثمة نجمٌ من الاحتمالات في الأفق سيغمز لها.

لم تكن مدينة جاكسون في ولاية الميسيسيبي، في فترة الكساد العظيم، تختلف كثيراً عن الكونغو بعد ثلاثين سنة، سوى أننا كنّا نعرف في جاكسون أناساً يملكون الكثير، وكان ذلك يزعجنا، أما في كيلانغا، فلم يكن الناس يعرفون أنه توجد أشياء يمكنهم أن يحصلوا عليها: ثلّاجة، غسّالة، ومجفّفة. وإذا حدّثتهم عنها فقد يتخيّلون شجرة يمكن أن ترفع أقدامها وتسير لتخبز الخبز. ولا يخطر على بالهم أن يشعروا بالأسف على أنفسهم إلا عندما يموت أطفالهم فيبكون وينوحون. يستطيع أي شخص أن يرى الظلم الصارخ هناك، لكنني أظن أنهم قانعون بقدرهم.

هكذا كان الأمر بالنسبة لي أيضاً، عندما كنت طفلة في فترة الكساد، بتلك البراءة العملية نفسها. فما دمت محاطة بالأشياء التي أعرفها فحسب، كنت أعتبر أن هذه هي الأشياء التي تقدّمها لنا الحياة، وكنت أتقبّلها برحابة صدر. كان لديّ أسلوبي البسيط في العالم عندما كنت طفلة جميلة ثم فتاة جذّابة. كان أبي، بود وارتون، طبيب عيون. كنا نعيش في ضواحي مدينة جاكسون نفسها، في حيّ بسيط اسمه بيرل. وكان أبي يرى المرضى في غرفة البيت الخلفية التي توجد فيها خزانات معدنية يضع فيها عدساته المتداخلة التي تُصدر أصواتاً مثل رنين أجراس الهواء الزجاجية عندما تفتح دروج الخزانات وتغلقها. وكان يوجد عندنا متجر أمام البيت. كان علينا أن نفعل ذلك، لأن عيون جميع الناس تتحسّن في الأوقات العصيبة أو على الأقل

تصبح جيّدة بما يكفي. وكنّا نبيع في المتجر منتجات زراعية طازجة يجلبها أبناء عمي بالشاحنة من مزرعتهم، ومواد أخرى كالمعلّبات وبعض الذخيرة. كنّا نتدبّر أمورنا. وكنّا نسكن جميعاً في الطابق العلوي. وفي إحدى المرات سكن المنزل أحد عشر شخصاً في وقت واحد، أعمامي وأبناء أعمامي الذين كانوا يأتون من مقاطعة نوكسوبي، ويعودون في موسم القطاف، إضافةً إلى عمّتي تِس، العجوز التي كنت أعتبرها أمّاً لي إذا احتجت إلى أم. وكانت العمّة تِس تحبّ أن تقول: «يا سكّرتي، إنه ليس استعراضاً، لكنك ستنزلين إلى الشارع على أي حال، لذا من الأفضل أن ترفعي رأسك وتمشي بخفّة». وهذا كان إلى حدٍّ كبير ما كنّا نؤمن به كلّنا تقريباً.

لا أظن أن أبي سامحني البتّة على انضمامي إلى الكنيسة المعمدانية ذات الإرادة الحرّة. فلم يكن يدرك سبب حاجة أي شخص إلى المزيد من الشواهد وإثارة الضجيج حول خطط الله أكثر مما أوجده، مثلاً، داخل مقلة عين ملأى بالأوردة الدقيقة. هذا إضافةً إلى توفّر دجاجة جيّدة لعشاء أيام الأحد. وكان أبي يشرب ويلعن، ولكن ليس بطريقة ضارّة. وعلّمني الطبخ، وسمح لي بأن أنمو مع أبناء عمي على هواي. على مشارف بيرل مساحات شاسعة اكتشفنا مستنقعات يطفو فوقها نبات الإبريق(*)، فكنا نرفع أثوابنا، ونغوص حتى ركبنا في الوحل الأسود الكثيف، ونحدّق بنهمٍ في الشفاه، ونُطعم العناكب لتلك النباتات. هذا ما كنت أبجّله وأعشقه عندما كنت طفلة: معجزات تتسم بطبيعة عاطفية، ثم اكتشفنا لاحقاً تقبيل الصبية، ثمّ وجدنا مخيّمات المؤمنين لإحياء المسيحية.

مزيجٌ من كلّ هذه الأشياء جعلني أتعرّف على ناثان برايس. كنت في السابعة عشرة من عمري، تغمرني السعادة. وكنّا، نحن الفتيات، نسير يداً

(*) نوع من النباتات آكلة الحشرات، تنمو في الغابات الرطبة والمستنقعات، شجيراتها قائمة وأوراقها متبادلة ومتحوّرة على شكل إبريق أو جرة. [م].

بيد بأثوابنا القطنية الرقيقة وكانت جميع العيون تحدّق بنا، نهزّ شعرنا ونحن نسير في الممرّات بين صفوف الكراسي القابلة للطيّ المستأجرة من صالة الجنازات، ونتجه مباشرة إلى مقدّمة الخيمة التي تحتشد بمن ناداهم الله. لقد ألقينا بأنفسنا بين ذراعي المسيح وكانت صدورنا التي لم تُنقَذ بعد تخفق. كنا قد منحنا فرصة لجميع الشبان مثيري الشغب ذوي الرقبة الحمراء في بيرل آنذاك، فرُحنا نبحث عن شخص جدير بنا. حسناً، لمَ ليس المسيح؟ كان ذلك شيئاً عابراً على أي حال، وقد افترضنا أنه سيذهب في نهاية الأسبوع، مثل الآخرين جميعاً.

لكن ما إن طُويت الخيمة، حتى وجدت ناثان برايس قد أصبح في حياتي بدلاً من ذلك: واعظ شابّ، وسيم، أحمر الشعر، انقضّ بغتة على روحي كما ينقضّ كلبٌ على عظمة. كان شديد الثقة بنفسه أكثر مما كنت أتصوّر، لكنني قاومته، فقد أرعبتني جدّيته. كنت تراه مرحاً يمازح العجائز اللاتي يرتدين أثواباً من الحرير، ويربّت على ظهورهن المحدودبة، ولكن عندما نكون معاً، لم يكن يتوقّف عن الحديث عن الجنة إلا ليذكر أهوال نار جهنم.

تسلّل تودّده إليّ ببطء، بشكلٍ أساسي لأنني لم أدرك أن هذا تودّد، فقد كنت أعتقد أنه كان يريد إنقاذ روحي. كان يقف على بعد خطوات من شرفتنا الأمامية المتربة، يضع سترة بدلته المطوية بعناية على الدرابزين، ويرفع كُمَّي قميصه، ويقرأ عليّ مقاطع من المزامير وسِفْر التثنية وأنا منهمكة في تقشير الفاصولياء. «كيف تقولون لنفسي: اهربوا إلى جبالكم كعصفور؟»(*). كانت الكلمات غامضة وجميلة، لذلك سمحت له بالبقاء. فقد كانت تجربتي السابقة مع الشبّان سماعَهم يجدّفون حين يرون أي فستان فيه الكثير من الأزرار. وها هنا شابّ تنبعث من فمه كلمات الربّ: «كلام الربّ كلامٌ نقيّ، كفضّةٍ مصفّاة في بوطةٍ في الأرض، ممحوصة سبع مرات»؛ و«في

(*) سفر المزامير 11:1. [م].

مراعٍ خضر يربضني»(*). يا إلهي، كنت أريد تلك المراعي الخضراء، أن أتذوّق حلاوة أوراق القمح الأخضر الشاحبة، أقشّره وأمتصّه بين أسناني. كنت أريد أن أنام مع تلك الكلمات وأستيقظ وأنا أتكلّم لغة جديدة. لذلك سمحت له بالبقاء.

بما أنه واعظُ إحياء شابٌّ وطموح، كان من المفروض أن ترسله كنيسته إلى مقاطعات رانكين وسيمبسون وكوبيا بالتساوي، لكنّي سأقول لكم إن عدد الأرواح التي أُنقذت في بيرل في ذلك الصيف كان أكثر بكثير مما يستطيع الربّ أن يحصيه.

وكان ناثان لا يفوّت تقريباً عشاء الدجاج في بيتنا أيام الأحد، حتى قالت لي العمّة تِس أخيراً: «إنك تطعمينه على أي حال يا بنيّتي، فلماذا لا تتزوّجينه إذا كان هذا ما يسعى إليه؟!».

لا أظن أنني كنت أعرف ما إن كان هذا ما يسعى إليه. لكن عندما قلت له إن العمّة تِس تريد جواباً قبل أن تضع في مشروعها دجاجات أخرى، راقت له فكرة الزواج بما فيه الكفاية ليتبنّاها كما لو كانت فكرته. ولم يكد يمنحني وقتاً لأن أفكّر في إجابتي - لأنه اعتبر الأمر مسلَّماً به. وحتى لو كان هناك أحد ينتظر سماع رأيي، فلم أكن أعرف كيف يمكنني أن أشكّل رأياً، فلم أكن أعرف امرأة متزوّجة قريبة مني. ماذا كنت أعرف عن الزواج؟ من المكان الذي كنت فيه، كان الزواج يبدو لي عالماً مغوياً، وأكثر من ذلك كان فرصة لأجتاز حدود البلدة.

تزوّجنا في شهر أيلول، وأمضينا شهر العسل في قطاف القطن من أجل المجهود الحربي. وفي عامي 1939 و1940، بدأنا نسمع أحاديث عن نشوب حرب، وبدأ الفتيان يُستدعَون، لمجرّد إظهار أنهم مستعدّون لأي شيء، على ما أعتقد. لكن ناثان كان مُعفى من الخدمة دائماً، لأنه يُعتبر عاملاً لا يمكن

(*) على التوالي: سِفر المزامير 6:12، وسِفر المزامير 23:2. [م].

الاستغناء عنه - لا من الربّ فحسب، وإنما من ملك القطن أيضاً(*). فقد كان يعمل في المزرعة بين فترات مخيّمات الإحياء. وفي خريف 1941، كان مشروعنا الأول كعروسين أن نحني ظهرينا معاً في الحقول المتربة. وعندما كانت تمتلئ أكياس القطن الخشنة، وتُخدَش أيادينا، ويمتلئ شعرنا وأكتافنا بالبياض، كنّا نعتقد أننا أدّينا واجبنا، لكن لم يخطر ببالنا قطّ أن القنابل ستقع قريباً على خليجٍ ناءٍ بعيد، فتبثّ القشعريرة في بلدة «بيرل» الصغيرة غير الساحلية.

في نهاية ذلك الأسبوع المشؤوم، استُدعي نصف الرجال في هذا العالم للمشاركة في حرب واحدة، من بينهم ناثان، الذي جُنّد أيضاً. وعندما نُقل إلى فورت سيل، لاحظ قائده أن ناثان شديد الإيمان، فوعده بأن ينقله ليؤدي خدمته بصفة رجل دين أو قسيس في مستشفى، وهكذا سيُبعد عن خطوط القتال مع العدو، فتنفّست الصعداء، وأصبح بوسعي الآن أن أقول إنني أحبّ الله حقاً! لكن ومن دون أيّ تفسير، وجد ناثان نفسه بعد ذلك في تكساس يتدرّب في سلاح المشاة. وسُمح لي أن أمضي معه أسبوعين في ذلك السهل الذي تهبّ فيه رياح قوية، ممضيةً معظم الوقت في الفراغ الغريب لشقةٍ باردة، محاولةً اختراع أشياء ودية لأقولها لزوجات الجنود الأخريات. كم كنا مهملاتٍ ومحطّمات! نساء ننتمي إلى كلّ اللهجات والفئات حطّ بنا الرحال هناك، نغلي الجريش والباستا، ونفعل كل ما يمكن أن يريحنا، موحّدات جهودنا بعدم التفكير كثيراً بأن أيدي أزواجنا تتعلّم كيف تحضن البندقية. وفي الليل، كان يسند رأسه إلى حضني وأنا أقرأ له مقاطع من الكتاب المقدّس: «الربّ صخرتي وحصني ومنقذي. إلهي صخرتي به

(*) هو شعار لخّص الاستراتيجية التي استخدمها الانفصاليون في الولايات الجنوبية قبل الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865). وقد اعتبروا أن السيطرة على صادرات القطن من شأنها أن تجعل الكونفدرالية المستقلة المقترحة مزدهرة اقتصادياً. [م].

أحتمي. ترسي وقرن خلاصي وملجئي. أدعو الربّ الحميد، فأتخلّص من أعدائي»(*). وعندما غادر، عدت إلى بيتنا في بيرل.

لم يكد يمضي ثلاثة أشهر حتى نُقل بالشاحنة، ثم بباخرة تابعة للأسطول الآسيوي، وحطَّ أخيراً في معسكر تحت أشجار النخيل على شاطئ الفيليبين، تحت إمرة الجنرال ماك آرثر. ثم توجّهت فرقته إلى لوزون حيث لم يواجه شيئاً أسوأ من البعوض والغابة في البداية، لكن في الليلة الثانية استيقظ من النوم على قصف المدفعية.

عندما أصيب ناثان بشظية قذيفة في رأسه، أخذ يجري بحثاً عن ملاذ يلجأ إليه، كان مصاباً بالدوار، وأمضى تلك الليلة في حظيرة خنازير مصنوعة من الخيزران. كان قد أصيب بارتجاج في الدماغ، لكنه استعاد وعيه شيئاً فشيئاً حتى طلوع الفجر، فخرج وهو يترنّح في العراء يكاد لا يرى طريقه، فاقداً الإحساس بالاتجاهات مثل حشرة تندفع نحو اللهب. وبمحض المصادفة، شاهده قارب دورية على الشاطئ قبل حلول الظلام، فنقلوه إلى مستشفى عسكري في جزيرة كوريجيدور. وكتب لي من هناك رسالةً أخبرني فيها أنه أُنقِذ بفضل الله وبفضل حظيرة خنازير يابانية. لم يكن بإمكانه أن يخبرني عن مكانه بالطبع، لكنه أكّد لي أنه خرج سليماً بمعجزة، وأنه سيعود قريباً إلى البلد.

وهذا كان آخر شيء سمعته من الرجل الذي تزوّجته - الرجل الذي كان يستطيع أن يضحك (حتى على أنه نام في حظيرة)، والذي كان يقول لي تحبُّباً: «حَمَلي الصغير»، ويثق بمعجزة الحظّ السعيد. لا أزال أتصوّر ذلك الجندي الشاب الذي كتب تلك الرسالة وهو مستلقٍ على السرير، يبتسم من خلال عصابة العين والضمادات الأخرى، يُري الممرضات صورة عروسته الجميلة التي تملأ شعرها ندف قطن الدلتا. يستمتع -كما اتضح

(*) سفر المزامير 18:2-3. [م].

في ما بعد- بآخر ساعات حياته السعيدة. لم يكن قد سمع بعد ماذا جرى لباقي أفراد فرقته. وفي غضون أيام، بدأت الأخبار ترد إلى كوريجيدور. ومن أنفاق تلك الجزيرة المحصّنة هبّت رياح رعبٍ أكبر من أن تُستحضر بصوتٍ مسموع - ابتهالٌ مهموس استغرق سنوات حتى كُشف عنه بكامله للعالم، وخصوصاً لي. سوف تلتفّ دائماً على قلب جندي مثل قطعة جلد حذاءٍ قاسية.

عندما بدأ القصف في تلك الليلة، وأصيب ناثان وراح يجري مترنّحاً، ولم يره أحد في الظلام، فتسلل إلى حظيرة الخنازير، تلقّت الكتيبة أوامر بالتحرّك بسرعة إلى شبه جزيرة باتان حيث يمكنهم الاختباء في الغابة، وإعادة التجمّع فيها ثم العودة ثانيةً لاستعادة مانيلا. كان خطأ الثقة المفرطة للقائد، صغيراً في التاريخ، كبيراً في حياة أولئك الرجال الذين حوصروا في شبه الجزيرة، يتضوّرون جوعاً ويمتلئون رعباً، ثم جُمعوا أخيراً تحت أسنّة الحراب، واقتيدوا شمالاً عبر حقول الأرزّ الفاترة وتحت حرارة الشمس اللاهبة، وساروا وقد استنزفهم الإعياء والمرض، ثم انتقلوا من السير على أقدامهم إلى الزحف على أيديهم وركبهم، كانوا هزيلين، يهلوسون من شدة العطش ويعانون من الملاريا، يتّجهون نحو معسكر اعتقال لم تصل إليه سوى حفنة قليلة منهم، ولم تُكتب الحياة إلّا لقلّةٍ قليلة منهم. وهكذا قُضي على فرقة ناثان عن بكرة أبيها في مسيرة الموت تلك من باتان.

وأُجلي الجندي برايس من كوريجيدور قبل أن يتخلّى ماك آرثر عن منصبه ببضعة أسابيع، تاركاً وعده الشهير بأنه سيعود. لكنّه لن يعود، ولن يعود أولئك الجنود الذين كانوا في باتان، ولا الجندي الذي أصبحت أنا زوجته.

عاد ناثان إلى البيت وعلى صدغه ندبة في شكل هلال، وضعفٌ في الرؤية في عينه اليسرى، وشعورٌ يتملّكه بأنه رجل جبان، شعورٌ لن يفارقه

أبداً. وكانت أولى الكلمات التي قالها لي إن عين الله تراقبه من الأعلى، فتملّص من قبلاتي ولمساتي، وسأل: «ألا يمكنك أن تفهمي أن الله يراقبنا؟».

ما زلت أحاول أن أقول له إننا شخصان محظوظان. وخُيِّل إليّ أن الحرب لم تُحدِث إلا تأثيراً صغيراً في حياتنا. ناثان تغيّر، استطعت أن أرى ذلك، وبدا أن إيمانه بدأ يزداد صلابة، لكننا لا نستطيع أن نسمّي هذا خراباً. وأخيراً كان عليّ بصفتي زوجة قسّ أن أعبر حدود الولاية، وهذا ما حلمتُ به طوال حياتي.

ليرحمنا الربّ! لقد فعلتها وذهبت إلى المسيسيبي وألاباما وجورجيا. عبرنا حدوداً من الرمال المرسومة في تشابك أشجار نخيل البالميتو، وعبرنا حدوداً في منتصف الطرق السريعة، وحدود مطاعم الفقراء، وحدود القلق، وطوابير الأرواح التي تنتظر لسان الخلاص المشتعل. سعى ناثان إلى فتح مسارٍ عرضه بعرض الأرض المحروقة التي خلّفها شيرمان(*). ومن دون نقود ووقتٍ كافٍ للاستقرار، كنا ننتقل كلّ فصلٍ من كوخ متداعٍ إلى كوخ آخر أو من نُزُل إلى آخر، حتى حبلتُ براشيل. حينئذٍ صارت حالة الترحال التي نحن عليها تبدو مخزية. وذات ليلة، اخترنا مدينة بيت لحم في جورجيا من الخريطة. وبضربة حظّ أو بالعناية الإلهية، أوصلتنا عربة المحطة إلى هذه المدينة، وتبيّن أن مدينة بيت لحم سوقٌ واعدة للمعمدانيين الإنجيليين. حاولت أن أضحك من ذلك، لأننا أصبحنا هنا، زوجٌ وزوجة بطنها متكوّرة ولا يوجد مكان يتسع لهما في النُّزل(**).

(*) William Sherman (1820–1891): جنرال أميركي. شغل في عام 1864 منصب قائد الجيش في الجبهة الغربية، أثناء الحرب الأهلية الأميركية. وقد قاد 60 ألف شخص عبر جورجيا، وتبنّى استراتيجية التخريب المتعمّد للأرض التي مروا بها، وتدمير معنويات العدو وهزيمة الجيش الكونفدرالي. [م].

(**) هذا هو الوضع عندما ولدت العذراء مريم يسوع: لأن جميع النُّزل كانت ممتلئة، فقد ولدت مريم في إسطبل. [م].

لم يضحك ناثان على تلك المقارنة الواعدة. في الواقع، تلك كانت أول مرة يرفع فيها يده عليّ. أذكر أنني كنت جالسة على حافة الكرسي في مطبخنا ولم نكن قد أفرغنا أغراضنا بعد، أُمسك بطني الضخم بكلتا يديَّ ونحن نستمع إلى المذياع. فيما المذيع يتلو قصّة حرب طويلة، ماذا كانوا يفعلون في ذلك الوقت: وصف مباشر لمعسكر اعتقال، وسير مرعب على الأقدام يكافح خلاله الرجال المنهكون الذين تخلّفوا عن المجموعة يائسين، ثم انطلقت في الظلام رشقات سلاح برتقالية سريعة. لم أكن أصغي جيّداً، حتى لفت ناثان انتباهي.

«لن يرى أحد من هؤلاء الرجال ابناً يولد ليحمل اسمه، وتتجاسرين أمام المسيح على أن تبتهجي كالظافرين بهذه النعمة التي لا تستحقّينها».

حتى تلك الليلة لم أكن أعرف شيئاً عن المكان الذي كان فيه ناثان، ولا عن المقدار الكامل للشيء الذي ما يزال يهرب منه.

كان يشعر بحرج شديد من حملي. فوفقاً لطريقته في التفكير كان حملي نعمة لا أستحقها، فضلاً عن أن كلّ حمل يجلب انتباه الله من جديد إلى أنني أمتلك مهبلاً ويمتلك قضيباً، وأننا وضعناهما بجانب بعضهما بما يكفي لحدوث حمل، لكن اللّه يعلم أن ذلك لم يحدث عَرَضاً لأن ناثان كان رجلاً شبقاً، وعندما كان ينتهي، يرتجف ويصلّي بصوتٍ عالٍ ويلومني على عهري. وإذا كانت خطيئته هذه تجعله طاغيةً أمام الرجال، فقد كانت تجعله مثل طفل أمام ربّه. لا طفلاً عاجزاً أو متوسّلاً، وإنما طفل سيّئ الطبع، من النوع الخشن الذي لا يعرف إلا القليل من الحبّ، ويسرع لإلقاء اللوم على الآخرين لتبرير أخطائه. ذلك النوع الذي ينمو وهو مصمّم على إظهار كلّ ما يمكنه فعله. أظن أنه كان يريد أن ينقذ عدداً من الأرواح أكثر بكثير من الأرواح التي هلكت على الطريق من باتان، وعلى جميع الدروب الأخرى التي شكّلتها آفة البشرية.

لكن أين كنت أنا، تلك الفتاة أو المرأة التي تُدعى أورليانا، عندما قطعنا كلّ تلك الطرق وعبرنا الحدود مرات كثيرة؟ هل ابتلعتها مهمّة ناثان، جسداً وروحاً، كما لو كانت قد احتلتني قوة أجنبية؟ كنت ما أزال أبدو أنا نفسي من الخارج، كنت على يقين من ذلك، مثلما ظلَّ هو ذلك الصبي الذي ذهب إلى الحرب، لكن الآن أضحت كلّ خلية في جسدي مقترنةً بخطة ناثان، بإرادته العظيمة. هذه هي الطريقة التي يحدث فيها الاحتلال: خطة واحدة تكون دائماً أكبر من الخطة الأخرى. لقد بذلت كلّ ما بوسعي لأن أفعل كلّ ما كنت أعتقد بأن على الزوجة أن تفعله، أشياء مثل غسل القمصان البيض والجوارب السود، كلّاً على حدة، في مغاسل النُّزل، وإعداد وجبة طعام بعد أخرى من عصيدة الذرة المقلية. وكانت المدن والبلدات التي نعظ فيها خالية من الشبّان، لأننا كنّا ما نزال نعيش في فترة الحرب، وقد أجّج ذلك عذاب ناثان. فعندما كان ينظر إلى سكّان تلك البلدات الخالية من الجنود، لا بدّ أنه كان يرى أشباحاً تتجه إلى الشمال. أما أنا فكنت أرى صدور فتيات شابات يلهثن أمام زوجي الوسيم، جندي الربّ (كنت أريد أن أصيح بهن: تعالوا وجرّبوه يا بنات، فقد تعبت كثيراً!). أو كنت أنتظره في البيت، أشرب أربع كؤوس من الماء قبل أن يصل كي أستطيع مشاهدته وهو يأكل كل ما يوجد على الطاولة من دون أن تقرقر معدتي. وعندما كنت حاملاً بابنتَيّ التوءم، كانت تجتاحني رغبة شديدة في أن أخرج أحياناً في الليل وأنا أزحف على يدي وركبتي لأسفّ تراباً من أرض الحديقة من دون أن يراني. ثلاث بنات أنجبتهن في أقل من سنتين فقط. لا أصدّق أن أيّ امرأة على وجه الأرض أنجبت هذا العدد من الأطفال بفترات جماع أقلّ.

كان ثلاث بنات عدداً كبيراً، وقد استشعر جسدي ذلك بشكلٍ عميق. عندما ولدت الطفلة الثالثة لم تكن تستطيع أن تدير رأسها إلى أحد الجانبين، وحتى لم تكن تستطيع أن ترضع جيّداً. كانت هذه إدا. بكيتُ كثيراً عندما

علمت أنني حامل بتوءم، والآن أمضي لياليَ طويلة مستيقظة وأنا أتساءل عمّا إذا كان إحساسي باليأس هو الذي سمّمها. إذ إن هوس ناثان بالذنب وتأنيب الله له قد أصابني بالعدوى. إدا هي التي أرسلها لي الله، إمّا عقاباً أو ثواباً. للعالم رأيه في ذلك، ولي رأيي أيضاً. لم يمنحها الأطباء أملاً كبيراً، لكن إحدى الممرضات كانت لطيفة وأخبرتني عن حليبٍ بديلٍ ممتاز هو الأفضل، معجزةٌ حديثة، لكن لم يكن بإمكاننا أن نشتريه للفتاتين. فبدأت أُرضع ليا النهمة من صدري، وأُرضع إدا من تلك الزجاجات الغالية الثمن، كلاهما في وقت واحد. فعندما تنجبين توءماً تتعلّمين كيف تفعلين أشياء عديدة في وقتٍ واحد. لا يقتصر الأمر على التوءم فحسب، انتبهوا، وإنما طفلة بشعر أشقر أيضاً، بشرتها رقيقة جداً، تبكي وتصرخ لأدنى سبب. ففي كل مرة كانت راشيل تبلل حفّاظتها تبدأ في البكاء مثل جرس إنذار، مما يتسبب في بكاء الطفلتين الأخريين، وكانت تبكي أيضاً بحرقة عندما بدأت أسنانها تنمو. كانت إدا تصرخ من الإحباط، وليا تبكي من الكوابيس. طوال ستّ سنوات، منذ أن كنت في التاسعة عشرة حتى بلغت الخامسة والعشرين، لم أهنأ بنوم متواصل لليلة واحدة. هكذا كانت حياتي، وتتساءلون لماذا لم أقف في وجه ناثان؟ كنت أشعر بأنني محظوظة لأنني كنت ما أزال أستطيع انتعال حذائي في القدمين الصحيحتين. هذا هو السبب. كنت أتحرّك إلى الأمام فقط، معتقدةً في كلّ صباح من جديد بأننا تجاوزنا الأسوأ.

آمن ناثان بشيء واحد فوق كل شيء، وهو أن الله يرى التقوى في البشر ويجازيهم عليها. لم يكن زوجي يقبل أي احتمال آخر. فإذا كنّا قد عانينا في بيتنا الصغير في بيت لحم، فإن هذا دليل على أن أحدنا ارتكب خطيئة، ثم بدأت أدرك أنني أنا من يرتكب تلك الخطايا. فقد كان ناثان يشعر بالاستياء من جسدي كما لو أنني أنا التي اختارت هذين الوركين النحيفين والعينين الكبيرتين الزرقاوين حتى أجذب انتباه الآخرين. إن عيون الله تراقبنا، كان

يذكّرني دائماً. فإذا وقفت قليلاً في باحة بيتنا الخلفية وأنا أعلّق الشراشف على حبل الغسيل لأستشعر وخز الأعشاب الرطبة تحت قدمَيَّ الحافيتين، كانت عيناه تلاحظان تكاسلي. وكان الله يسمعني إذا زلَّ لساني ونطقت لعنةً كان يقولها أبي، وكان يراقبني عندما أستحمّ، وينزعج كثيراً لأنني أستمتع بالماء الدافئ. وأكاد لا أستطيع أن أتمخّط من دون أن أشعر بمراقبته. وكما لو كان يعوّض كل تلك اليقظة بدأ ناثان يهملني. وإذا اشتكيت من حياتنا، كان يتناول عشاءه بينما يشيح بوجهه عني بلباقة مثل شخص يتعمّد أن يتجاهل طفلة كسرت دميتها عمداً، ثم راحت تتذمّر لأنه لم يعد لديها شيء تلعب به. ولكي أحافظ على سلامة عقلي، تعلّمت أن أتجاهل كلّ هذه الصعوبات وأحاول أن أرى الأشياء الجيّدة فيها.

إن كان قد بقي في داخلي جزء من فتاة وثنية جميلة، فتاة تنجذب إلى الإعجاب بها كما تنجذب فراشة إلى نور القمر، وإذا كان قلبها ما زال يخفق في ليالي جورجيا عندما تسمع نقيق الضفادع من الخنادق على جانبي الطريق، فإنها ستُذهل من وضعها الحالي. ومرّة أو مرّتين، عندما كان ناثان مسافراً في جولات إحياء الدين، أقفلت الأبواب وقرّبت فمي من المرآة لأعيد له الحياة، ووضعت أحمر الشفاه قبل أن أبدأ أعمالي المنزلية، لكني نادراً ما واجهتُ روحي. وعندما ولدت روث ماي، كنّا قد انتقلنا إلى بيت القسّ في شارع هايل، وكان ناثان قد احتلّ آنذاك البلد الذي كان يُعرف باسم أورليانا وارتون، فقبلت أن يكون الربّ منقذي الشخصي، لأنه جلب لي أخيراً غسّالة «مايتاغ»، فارتحت في كنف هذا السلام وأطلقت عليه السعادة. لأن الحياة في تلك الأيام، كما ترون، كانت تسير هكذا.

استغرقت وقتاً طويلاً حتى فهمت الثمن الباهظ الذي دفعته، وأن حتى الله يجب عليه أن يعترف بقيمة الحرية. «كيف تقولون لنفسي: اهربوا إلى جبالكم كعصفور؟». في ذلك الحين، كنت أعيش في قلب الظلام، ممتثلةً

بشدة لشكل الزواج، ولم أستطع تخيُّل أيّ دربٍ آخر يمكن أن أسير عليه، ومثل الببغاء ميثوسالا انكمشت بجانب قفصي، على الرغم من أن روحي كانت تتوق إلى الجبل، وجدت نفسي، مثل ميثوسالا، بلا أجنحة.

هذا هو السبب، أيتها الوحشة الصغيرة. لقد فقدت أجنحتي. لا تسأليني كيف استعدتها - فالقصّة لا تطاق. لقد وثقت منذ زمن بعيد بالوعود الكاذبة، واعتقدت كما نريد أن نعتقد كلّنا عندما يتحدّث الرجال عن المصلحة الوطنية، بأنها مصلحتنا نحن أيضاً. وفي النهاية، كان قدري في الكونغو. الكونغو المسكينة، العروس الحافية التي سلبها الرجال كلّ حُليّها وجواهرها ووعدوها بمملكة السماء.

الأشياء التي لم نكن نعرفها

كيلانغا، أيلول 1960

ليا

للمرّة الثانية، طرنا من ليوبولدفيل وحلّقنا فوق الغابة، ثم هبطنا في تلك البقعة الصغيرة الخالية من الأشجار التي تدعى كيلانغا. هذه المرة، كنت أنا وأبي وحدنا في الطائرة، إضافةً إلى السيّد أكسلروت وعشرين باونداً من السلع الجافة ومعلّبات الخوخ المجفّف التي لم يستطع السيّد والسيّدة أندرداون أخذها معهما عندما فرّا من الكونغو. لكن لم يكن لهذا الهبوط الوعر الثاني التأثير ذاته الذي كان لوصولنا الأول. فبدلاً من الشعور بالإثارة، تملكّني فزع رهيب، ولم يكن هناك أحدٌ يقف عند حافة الحقل لاستقبالنا - لا أهالي القرية ولا حتى أمي وأخواتي. وبالتأكيد، لم يكن هناك أحد يقرع الطبول أو يطبخ لنا عنزة. عندما اجتزنا أنا وأبي الحقل الوحيد واتجهنا إلى البيت، رحت أفكّر بتلك الليلة والوليمة الترحيبية بكلّ مذاقاتها وأصواتها. كم بدت لي غريبة ولا قيمة لها آنذاك، أما الآن، عندما أتذكّر كميات البروتين الكبيرة التي ضُحّي بها على شرفنا -وفرةٌ مخزية حقاً- تقرقر معدتي. وتعهّدت بصمتٍ لله بأن أعبّر عن امتنانٍ حقيقي لهذه الوليمة، لو أقيمت

ثانية. ومهما كان رأي راشيل بلحم الماعز الذي قُدّم لنا آنذاك، فإننا بالتأكيد بحاجة إلى مثل هذه الوليمة، وإلا كيف يمكننا أن نتغذّى الآن؟ إذ لا تستطيع أن تعيش لفترة طويلة في هذه الحياة على تناول الخوخ المجفّف المعلّب فحسب.

بسبب الاستقلال، بدأت أفكّر بالنقود أكثر من أي وقت مضى في حياتي، إذا وضعنا جانباً مسائل الرياضيات في الصف السادس.

قد لا تبدو خمسون دولاراً في الشهر مبلغاً كبيراً بالفرنكات البلجيكية، لكن هذا المبلغ جعلنا في كيلانغا أغنى من الجميع. أما الآن فإننا سنحصل على صفر دولار في الشهر بالفرنكات البلجيكية، وكانت هذه مسألة حسابية سهلة الحل.

بعد مرور بضعة أسابيع على عودتنا أنا وأبي خاليي الوفاض، عرفت النسوة أننا لم نعد نملك نقوداً، فلم يعدن يأتين إلى باب بيتنا ليبعننا اللحم أو السمك الذي يصطاده أزواجهن. بطبيعة الحال، عرفن ذلك بالتدريج. ففي البداية، شعرن بالحيرة من تدهور أحوالنا. شرحنا لهن عن وضعنا الجديد بأفضل ما نستطيع: فياتا، لا مال! هذه هي الحقيقة. فقد ذهب كلّ فرنك ادخرناه إلى إيبين أكسلروت لأن والدي اضطر أن يرشوه بشكلٍ صريح كي يعيدنا من ليوبولدڤيل. يبدو أن جيراننا في كيلانغا بدؤوا يفكّرون: هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً، شخص أبيض فياتا؟ كانوا يقفون أمام باب منزلنا طويلاً ويحدّقون بنا من الأعلى إلى الأسفل، بينما تقبع سلالهن المليئة فوق رؤوسهن بصمت. أظن أنه كان يُخيَّل لهن أن ثروتنا لا تنضب. وكان نِلسون يوضح لهن مرةً بعد مرة، فيما أنا وراشيل وإدا ننظر من وراء كتفه، أن البلد نال استقلاله الآن، ولم يعد أحد يدفع لأسرتنا نقوداً لأننا مسيحيون بيض. وما إن سمعت النسوة ذلك، حتى أصدرن أصواتاً متعاطفة وهنّ ينقلن أطفالهن الصغار من وركٍ إلى آخر، وقلن: آبو، حسناً، ثمّ، أيي،

الاستقلال. لكنّهن ظللن غير مقتنعات تماماً. هل بحثنا في كل مكان؟ أردن أن يعرفن. ربما كان لا يزال هناك قليل من النقود مخبأة تحت تلك الأسرّة الطويلة الغريبة الشكل، أو في أدراج خزائننا؟ أما الصبية الصغار فلم يتوقّفوا عن مهاجمتنا مثل قطّاع طرق لطيفين كلّما خرجنا من البيت، ويقولون لنا: !cadeau! cadeau (هدية، هدية)، مطالبين بمسحوق الحليب المجفف أو ببنطال، مصرّين على أنه ما يزال لدينا كميات كبيرة من هذه الأشياء مخبأة في مكانٍ ما في البيت.

ماما موانزا التي تسكن في البيت المجاور هي الوحيدة التي رثت لحالنا. فقد جاءت إلينا تزحف على راحتَيْ يديها لتعطينا بعض حبات البرتقال. استقلال أم لا، لا يهمّها! وعندما قلنا لها إننا لا نملك شيئاً يمكننا أن نعطيه لها مقابل ذلك، لوّحت بعقبَيْ راحتي يديها، آبو، لا يهم! وقالت إن أبناءها الصغار بارعين في العثور على البرتقال، وإنه ما زال في بيتها باكالا مباندي - رجل قوي طيّب. وقالت إنه سينصب فخاخاً كبيرة للسمك آخر هذا الأسبوع، وإذا كان الصيد وفيراً، فإنه سيدعها تجلب لنا بعض الأسماك. فعندما تكون لديك كمية كبيرة من شيء، فعليك أن تتقاسمه مع فياتا. (وماما موانزا ليست مسيحية حتى!). تعرف أن الأمور سيئة حقاً عندما تشفق عليك امرأة مبتورة الساقين فقدت مؤخراً طفلين من أبنائها.

بدأت أمي ترى الحياة صعبة. وعندما سافرنا أنا وأبي بالطائرة إلى ليوبولدڤيل، كان آخر شيء عرفناه هو أنها كانت تبذل كل ما بوسعها للتعامل مع الوضع، لكن خلال فترة سفرنا القصيرة لم تنهض من السرير وبدأت حالتها الصحية تتدهور. وبدأت تسير في أرجاء البيت وهي مشوّشة ترتدي ثوب نومها، بحذائها المسطّح البني المهترئ من دون جوارب، وبلوزتها الوردية المحلولة الأزرار، تمضي الليل والنهار بنصف ثياب. وأصبحت تمضي معظم الوقت متكوّرة على نفسها في السرير مع روث ماي التي لم

تعد تريد أن تأكل شيئاً، وقالت إنها لم تعد تستطيع أن تقف بثبات على قدميها لأنها تتعرّق كثيراً. الحقيقة هي أن أيّاً منهما ليست بصحة جيّدة.

أخبرني نِلسون سراً بأنّ أمي وروث ماي مصابتان بـ كيبازو، أي أن أحداً أصابهما باللعنة، وادّعى أيضاً بأنه يعرف من هو ذلك الشخص، وأن الكيبازو سيصيب جميع الإناث في بيتنا إن آجلاً أم عاجلاً. تذكّرت عظام الدجاج في وعاء كالاباش التي وضعها تاتا كوفودُندو أمام عتبة بيتنا منذ بضعة أسابيع، فتجمّد الدم في عروقي، وقلت لنِلسون إن هذا السحر هراء، وإننا لا نؤمن بوجود إله شريّر يمكن إقناعه أن يصيب أحداً باللعنة. فسأل: «ألم يصب ربّك تاتا تشوبي باللعنة؟».

كان ذلك بعد ظهر يوم قائظ عندما كنت أنا ونِلسون نقطع الحطب لنأخذه إلى بيت المطبخ. كان عملاً لا نهاية له أن نلقّم موقدنا الحديدي بالحطب لغلي الماء، فضلاً عن الحطب للطبخ أيضاً.

«تاتا تشوبي؟».

كنت محترسة من خوض هذا الحديث، لكن الفضول دفعني لأن أعرف ما الذي يعرفه عن تعاليم الكتاب المقدّس. ومن خلال الفتحات الكبيرة في قميصه القطني الأحمر رأيت عضلةً مشدودة في ظهر نِلسون للحظة، عندما رفع منجله وهوى به على الجذع الأرجواني الصغير وقسمه إلى شطرين. كان نِلسون يستخدم منجله في كلّ شيء تحت الشمس، من قطع الحطب إلى الحلاقة (مع أنه لا يحتاج حقاً إلى ذلك وهو لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره) إلى تنظيف الموقد. كان يحافظ على منجله نظيفاً وحادّاً جداً دائماً.

وقف ليلتقط أنفاسه. وضع المنجل بعناية على الأرض وراح يحرّك ذراعيه في دوائر واسعة كي يرخيهما، وقال: «لقد ألقى ربُّك كيبازو على تاتا تشوبي وأصابه بالجدري وبالحكّة وقتل أطفاله السبعة كلّهم تحت سقف واحد».

«آه، أيوب!» -قلت- «لم تكن تلك لعنة يا نِلسون. وإنما كان الله يختبر إيمانه».

«آبو»، قال نِلسون، وهو يقصد تقريباً: «حسناً، جيّد». وبعد أن التقط سلاحه مرة أخرى وقطع ثلاث أو أربع أخشاب أرجوانية أخرى، قال: «هناك أحد يختبر إيمان أمّك وأختك الصغيرة أيضاً. وفي المرة القادمة سيختبر النمل الأبيض». مكتبة سُر مَن قرأ

مفولا -وهو نمل أبيض شاحب يظهر بعد هطول الأمطار- هذا ما يطلقونه على راشيل لأنها شديدة البياض. ويظنون أنها أصبحت هكذا لأنها تمكث في البيت فترات طويلة وتخاف أن تخرج إلى الحياة. لكن راشيل -ولا داعي لتوضيح ذلك- لم تكن تفكّر كثيراً في النمل الأبيض، وتصرّ على أن لهذه الكلمة معنى آخر أسمى. وكانوا يطلقون عليّ اسم ليبا، وهي كلمة ألطف بكثير تعني شجرة تين. في البداية، ظننا أنهم لا يستطيعون لفظ «ليا» لكن تبيّن بعد ذلك أنهم يستطيعون لفظها جيّداً، لكنهم يتحاشون ذلك بدافع التهذيب، لأن ليا تعني بلغة الكيكونغو: «ليس شيئاً كثيراً».

كرّرت لنِلسون أن أسرتنا، كيفما فسّر حكاية أيوب، لا تؤمن بالكهنة المشعوذين «نغانجا»، ولا بالأوثان ذات العين الشرّيرة «نكيسيس»، ولا بالـ«غري غري» التي يعلّقها الناس حول أعناقهم لدرء اللعنات والعين الشريرة وما إلى ذلك، وقلت له: «أنا آسفة يا نِلسون، لكننا لا نعبد تلك الآلهة»، ولكي أوضح له موقفنا بجلاء تام، أضفت: «باكا ڤيه» التي تعني «لا ندفع مقابل ذلك»، وهي الطريقة التي تقول بها إنك لا تؤمن بهذه الآلهة.

وضع الحطب برفق على ذراعيّ الممدودتين، وقال بأسى: «آبو». لم يكن لديّ خيار إلّا أن أنظر عن كثب في وجه نِلسون الذي كان يلمع من العرق وهو يضع قطع الخشب بين ذراعي الممدودتين كأننا في وضع عناق - لأن هذا العمل كان يجعلنا نقف قريبين أحدنا من الآخر كثيراً. واستطعت

أن أرى أنه حزينٌ جداً من أجلنا. نقر بلسانه كما كانت تفعل ماما تاتابا، وقال: «ليبا، إن الآلهة التي لا تؤمنون بها هي الآلهة التي تستطيع أن تضع أسوأ اللعنات عليكم».

إدا

وونك تون أو ديو(*). الأشياء التي لا نعرفها منفردين ومجتمعين كأسرة، تملأ سلّتين منفصلتين، لكلّ سلّة فتحة واسعة في قعرها.

مونتو تعني بالكونغولية إنسان، أو ناس، ولها معانٍ أخرى أيضاً. ويسرّني أن أعلن أنهم في الكونغو لا يميّزون بين: الأحياء، والأموات، والأطفال الذين لم يولدوا بعد، والآلهة - فهي كلّها مونتو. هكذا يقول نِلسون. أما جميع الأشياء الأخرى فهي كينتو: حيوانات، أحجار، قوارير. والمكان أو الوقت هما هانتو، وصفة الشيء كونتو: جميل، أو قبيح، أو أعرج، مثلاً. ويجمع بين كلّ هذه الكلمات الجذر «نتو».

«كلّ شيء هنا هو نتو» يقول نِلسون رافعاً كتفيه، كما لو لم يكن ذلك شيئاً يصعب فهمه. وكان من الممكن أن يكون ذلك بسيطاً لو لا أنّ «أن تكون هنا» ليس لها المعنى نفسه لـ«موجود». ويشرح الفرق بهذه الطريقة: الأشياء «نتو» تغطّ في النوم حتى يلمسهم «نومو»، ونومو هي القوة التي تجعل الأشياء حيّة كما هي: إنسان أو شجرة أو حيوان. ونومو تعني كلمة. فالأرنب له الحياة التي لديه -لا حياة جرذ أو حياة نمس- لأنه يُسمّى أرنب، «مفوندلا». والطفل ليس حيّاً -كما يقول نِلسون- حتى يُطلق عليه اسم. أخبرته أن هذا ساعدني على تفسير لغز. فأنا وأختي توءمان متماثلان، فكيف لدينا حياتان

(*) في الأصل «Wonk Ton O Dew»، وإذا قرأناها من الحرف الأخير حتى الحرف الأول تصبح «We do not know» أي: «لا نعرف». [م].

مختلفتان على الرغم من أننا من بذرة واحدة؟ الآن صرت أعرف: لأن اسمي إدا واسمها ليا.

نومو، كتبتُ في الدفتر الذي فتحته على طاولتنا الكبيرة. نومو أومون نومو (Nommo Ommon NoMmo)، كتبتُ، متمنّية أن أتعلّم كتابة هذه الكلمة من الأمام إلى الوراء وبالعكس. نظرياً، كنت في صدد أن أُري نِلسون، بناءً على طلبه، كيف يكتب رسالة (على الرغم من أنه لا توجد وسيلة لإرسالها بالبريد). إنه يجد متعة في إرشاداتي الصامتة ويطلبها في معظم الأحيان. لكن نِلسون تلميذٌ ميّالٌ لينقلب معلّماً عند أقل حدث، ويبدو أنه يعتقد أن كلامه معي يساعد على تحسين محادثتنا، لأنني أكتب الأشياء على الورق فحسب.

سألته: «نومو مفولا هي أختي راشيل؟»، فهزّ رأسه. إذاً روث ماي، هي نومو باندو، وليا هي نومو ليبا. ومن أين تأتي كلمة نومو؟

أشار إلى فمه. نومو تأتي من الفم، مثل بخار الماء، قال: أغنية، قصيدة، صيحة، صلاة، اسم، كلّ هذه هي نومو. الماء نفسه هو نومو، نومو من النوع الأكثر أهمية، كما اتضح. فالماء هو الكلمة التي يمنحنا إياها الأسلاف أو يحرموننا منها، ويتوقّف ذلك على طريقة معاملتنا لهم. وأوضح لي نِلسون إن كلمة الأسلاف تنطبق على الأشجار والرجال، وهذا ما يجعلهم يقفون منتصبين ويعيشون باعتبارهم مونتو.

«الشجرة هي أيضاً مونتو؟» كتبتُ. ورسمت بسرعة عود رجل وعود شجرة، كلٌّ منهما بجانب الآخر لأوضّح. كانت معظم أحاديثنا تتألف من صور وإيماءات. «الشجرة نوع من الأشخاص؟».

«طبعاً» -قال نِلسون- «انظري إليهما فحسب، لكليهما جذور ورأس». تحيّر نِلسون أمام إخفاقي في فهم شيء بسيط كهذا. ثمّ سألني: «أنت وأختك ليبا، ماذا تقصدين أنكما جئتما من البذرة نفسها؟».

توءم، كتبتُ. لم يتعرّف على الكلمة. رسمت فتاتين متماثلتين تقفان إحداهما بجانب الأخرى، وقد وجد ذلك أكثر إثارةً للحيرة، نظراً لأننا أنا وليا -الجميلة والوحش- التوءم الذي أعنيه. وبما أنه لم يكن هناك أحد يراقبنا، ونِلسون يبدو غير قابل للشعور بالحرج، أدّيت تمثيلية إيمائية فاحشة عن أمّ تلد طفلاً، ثم -أوه يا إلهي- طفلاً آخر: توءم.

فاتسعت عيناه وصاح: «بازا!».

هززت رأسي، وأنا أفكّر بأنه ليس أول شخص يُدهش لسماع هذا الخبر عني وعن ليا. لكنْ، لا بدّ أن الأمر كان أكثر من ذلك، لأنه قفز مبتعداً عني بسرعة، فأسقط كرسيّه.

«بازا!» كرّر، وهو يشير إليّ. لمس جبيني برقّة ثم تراجع، كما لو كان جلدي سيحرق يده. خربشت بشيء من الدفاع: «ألم ترَ توءماً في حياتك؟».

هزَّ رأسه بقوة، وقال: «المرأة التي تنجب بازا يجب أن تأخذهما إلى الغابة بعد أن تلدهما فوراً وتتركهما هناك. تأخذهما بسرعة، على الفور. هذا أمر ضروري جداً جداً جداً».

لماذا؟

فقال متلعثماً: «الأسلاف والآلهة. جميع الآلهة. أيُّ إلهٍ لن يغضب من أمّ تحتفظ بهذين الطفلين؟ أظن أن القرية كلها ستغمرها المياه، أو أن جميع سكّانها سيموتون، إذا أبقت الأمّ على بازا».

نظرت حولي في الغرفة ولم أرَ علامة على أن كارثة ستقع فوراً، فهززت كتفي بلا مبالاة. قلبت الصفحة على درس في المراسلات التجارية، وبدأت بقلم الرصاص أرسم بإتقان سفينة نوح. بعد قليل رفع نِلسون كرسيّه وجلس بعيداً عني على مسافة أربعة أقدام تقريباً، وانحنى كثيراً لينظر إلى الرسمة التي أرسمها.

«هذه ليست عن التوائم»، كتبتُ في أعلى الصفحة. أو من يعرف، ربما قد تكون، فكّرت وأنا أتخيّل كل أزواج الأرانب والفيلة تلك!

«ماذا حدث لقريتك عندما لم تأخذك أمّك إلى الغابة؟».

فكّرت بسنة ولادتي، وكتبتُ: «انتصرنا في الحرب». ثمّ شرعت في رسم معالم زرافة أنيقة على نحوٍ ممتاز. لكن نِلسون كان يحملق، ما زال ينتظر إثباتاً على أن ولادتي لم تسبب كارثة في بلدنا. «لا فيضانات لا أوبئة»، كتبتُ. «لم تحدث أي كارثة في الولايات المتحدة الأميركية حيث تحتفظ الأمهات بأطفالهن باز\كلّ يوم».

حدّق نِلسون فيّ بنظرات فيها شكوك صريحة ومزعجة، فبدأت أشكّ في الكلمة التي قلتها. ألم تحدث -على سبيل المثال- أعاصير في الشهور التي أعقبت ولادتنا أنا وليا؟ ألم يكن شتاء سيئاً وانتشرت الإنفلونزا في طول البلاد وعرضها؟ من يعرف! تجاهلت ذلك، ثم رسمت زرافة ثانية رقبتها منحنية جداً في شكل Z. زرافة بندوكا.

لم يدعني نِلسون وشأني. فبما أنني توءم فإني أشكّل خطراً على المجتمع: «تاتا المسيح، ماذا يقول في هذا الأمر؟».

«كثيرٌ جداً، من حيث المبدأ».

«ماذا يقول إنه يجب على المرأة فعله إذا أنجبت...» - تردّد حتى من لفظ الكلمة بالإنكليزية.

تجاهلت الأمر، لكن نِلسون ظلَّ يدفعني للحديث في هذا الأمر. فلم يصدّق أنّ إنجيل المسيح المليء بالكلمات، لا يعطي تعليمات محددة بخصوص الأمهات اللاتي ينجبن توائم. فكتبت أخيراً: «أظن أن المسيح يقول إننا يجب أن نحتفظ بهما».

ازداد نِلسون توتّراً، وقال: «إذاً، كما ترين فإن زوجتَيْ تاتا بواندا تذهبان إلى كنيسة المسيح! وماما لاكانغا! جميع هؤلاء النسوة وصديقاتهن وأزواجهن

يظنون أنهم سينجبون توائم مرة أخرى، ولن يدعهن تاتا المسيح يتركن أطفالهن في الغابة».

كان هذا خبراً رائعاً، فطلبت منه أن يفسّر لي أكثر. وفقاً لحسابات نِلسون، فإن نصف الذين يذهبون إلى كنيسة أبي هم أقارب توائم ماتوا. إنها نصيحة جيّدة لإنشاء كنيسة خاصة نطلق عليها اسم الكنسية المعمدانية الإنجيلية الأولى للتوائم. وفهمت من نِلسون أيضاً أن سبعة مصابين بالجذام يأتون إلى الكنيسة كلّ يوم أحد، إضافةً إلى رجلين ارتكبا ذلك الشيء الذي لا يمكن أن تغفره لهما الآلهة المحليّة، وهو أن تقتل -من دون قصد- إنساناً أو طفلاً من أفراد القبيلة. يبدو أننا كنيسة القضايا اليائسة، وقد لا يكون ذلك بعيداً جداً عمّا أراده المسيح نفسه في زمانه.

هذا لا ينبغي أن يكون مفاجأة كبيرة بالنسبة لي. فقد حاول أناتول سابقاً أن يوضح لنا الوظيفة المجتمعية لكنيستنا في أثناء العشاء المشؤوم ذاك الذي انتهى بطبقٍ محطّم. لكن القسّ يرى أنه يؤدي هذه المهمة الرائعة بشرح كلّ النقاط الدقيقة من الكتاب المقدّس لهؤلاء الوثنيين، ولم يستطع أن يتخيّل أن الشيء الوحيد الذي يفعله هو تنظيف الشوارع، إذا جاز التعبير. إزالة العناصر المزعجة في حياة الشعائر الدينية في كيلانغا. أخفق القسّ في ملاحظة أن جميع الذين يذهبون إلى الكنيسة هم الذين أُصيب أطفالهم بمرض كاكاكاكا، ثم عادوا بهدوء إلى عبادة آلهتهم، وجاء عدد من الوثنيين ممن لحق بهم ضررٌ شديد واختبروا المسيحية. وفي حين بدا ذلك لي منطقياً، فإن هذه النظرة النفعية للدين غابت تماماً عن ذهن القسّ. فكلّما دخل شخص جديد من باب الكنيسة صباح يوم الأحد، كان يتبجّح على العشاء قائلاً: «دعوناهم حقاً إلى السماء، وبدأنا أخيراً نجذب بعض الأشخاص الهامين في القرية».

وهكذا واصل أبي دعوة المجذومين والمنبوذين عن طريق الخطأ

البحت، وقد يكون ذلك، من دون أن يقصد، أكثر نقاءً من نواياه. ولكن في معظم الأحيان فإن العكس هو الصحيح. فغالباً ما يصيح: «الحمد لله!»، بينما يطرحك أرضاً بصفعة من قفا يده.

أتساءل كيف سارت الأمور مع نومو ناثان برايس؟ في البدء كانت الكلمة، الحرب، طريق الجسد برمّته. الأمّ، الأب، الابن الذي لم يكن، البنات اللاتي كنّ كثيرات. التوءم اللتان خسفتا البيت على رأسه، في الواقع. في البدء كانت الكلمة، القطيع، الضباب، الروث، الديون التي تكبّدها هذا المسرح العبثي(*). إن والدنا في خلاف مع هذا العالم، وهو يناقش ذلك مثل ابتلاء، يناقشه بالكلمة. عقابه الكلمة، وعيوبه الفشل في قول الكلمات المناسبة - فعندما يضيق ذرعاً بالترجمة، ينطلق وحده، يحكي قصصاً من الكتاب المقدس بلغته الكيكونغو الركيكة. وفهمت الآن أن ارتكاب أخطاء مع نومو في الكونغو شيء خطير، فإذا سمّيت الأشياء خطأً يمكنك جعل الدجاجة تتكلّم مثل الإنسان. وقد تجعل المنجل ينهض ويرقص!

ونحن بناته وزوجته لسنا بريئات أيضاً. الممثّلات في مسرحه. يظن الناس هنا أننا -أفراد أسرة برايس كلّنا- أصحاب نوايا حسنة لكنْ تافهين على نحوٍ غريب. أعرف ذلك.

أعرف أن نِلسون لن يخرج ويقول ذلك لأحد. لكنّه كان يخبرني دائماً، عندما أسأله، ما هي الكلمات التي نُخطئ فيها. ويمكنني أن أخمّن الباقي. إن أبي شخصٌ من نوع خاص، فهو يستطيع أن يجمع عدداً من الأشخاص، يقف أمامهم ويتحدّث إليهم بصوت واضح فخور، ويقول كلمات خاطئة، أسبوعاً بعد أسبوع. على سبيل المثال، كلمة بانديكا تعني أن تقتل أحداً ما، ولكن إذا قيلت بسرعة، كما يفعل القسّ، فيصبح معناها تقليم نبتة أو افتضاض بكارة عذراء. كم سيُفاجأ الكونغوليون عندما يسمعون أن داوود

(*) الكلمات كلها في هذه الجملة الطويلة لها القافية نفسها لكلمة Word: الكلمة. [م].

الشجاع الذي كان ينوي أن يسدّد ضربة قوية لجالوت الجبّار، كان يقفز هنا وهناك ليقلّم الأشجار، أو ما هو أسوأ من ذلك.

ثم هناك باتيز\، شغف أبينا الدائم. فإذا لفظت كلمة باتيز\ ولسانك مرفوع فإنها تعني «معمودية»، وإلّا فإنها تعني «بثّ الرعب». وكان نِلسون قد أمضى جزءاً من بعد الظهر وهو يشرح لي الفروق اللغوية الدقيقة ونحن نكشط روث الدجاج من فوق صناديق القنّ. لكن لم يفسّرها أحدٌ للقسّ بعد، لأنه غير مستعدّ ليسمع أشياء محددة. ربما يجب عليه أن ينظّف المزيد من أقنان الدجاج حتى يتعلّمها.

روث ماي

في بعض الأحيان تعتريك الرغبة في ألّا تفعل شيئاً سوى أن تستلقي وتنظر إلى العالم كله بطريقة جانبية. أنا وأمي نفعل ذلك. يبدو ذلك جيّداً. إذا أسندت رأسي عليها، فإن العالم الذي أراه من الجانب يصعد وينخفض. تقول: هِهه-هوه، هِهه-هوه. بطنها وحضنها طريّان.

عندما سافر أبي وليا بالطائرة شعرنا بالحاجة لأن نستلقي لمدة من الزمن. كنت أقول لها أحياناً: مامي، مامي. أقول ذلك فحسب. عندما لا يسمع أبي، أستطيع أن أقولها. اسمها الحقيقي أمي والسيّدة برايس، أما اسمها السرّي فهو مامي مامي. عندما استقلّ أبي الطائرة قلت لها: «ماما، آمل ألّا يعود أبداً!»، ثم بكينا.

لكنّي كنت حزينة، وأردت أن تعود ليا لأنها تحملني على ظهرها أحياناً، عندما لا تصرخ في وجهي وتنعتني بالمزعجة.

في بعض الأحيان، يكون الجميع لطيفين، ويقول لنا الطفل يسوع إنك يجب أن تحبّ الجميع مهما كان شعورك تجاههم. الطفل يسوع يعرف ما

الذي قلته حين تمنّيت ألّا يعود أبي. أبي واعظ، ولذلك فإن الله يحبّه أكثر من الجميع.

حلمتُ بأنني صعدت إلى أعلى شجرة الأفوكادو، ورحت أنظر إليهم كلّهم في الأسفل، الأطفال الصغار ذوي السيقان التي تشبه سيقان رعاة البقر المقوّسة والعيون الكبيرة التي تنظر إلى الأعلى، والأطفال الرضّع المدثّرين الذين ما تزال أيديهم ووجوههم الصغيرة فاتحة اللون وتصبح سوداء عندما يكبرون، لأني أظن أن الله لا يلاحظ أنهم ينتمون إلى قبائل حام إلا بعد حين، كما نظرت إلى البيوت الترابية التي بلون التراب الذي يجلسون عليه. ماما تقول إنه لا يوجد شيء في القرية بأكملها لن يذوب تحت الأمطار الغزيرة القاسية. أستطيع أن أرى مامي مامي، الجزء الأعلى من جسمها. أستطيع أن أرى كلّ ما تفكّر به، مثلما يفعل المسيح. كانت تفكّر بالحيوانات.

عندما تستيقظين، لا يمكن أحياناً معرفة ما إن كان ذلك حلماً أم حقيقة.

إدا

يعمل الله، كما هو معروف، بطرق غامضة. لا يوجد شيء يمكنك أن تسمّيه ولا يستطيع فعله، الآن أو في ما بعد. أوه، إنه سيرسل أمطاراً غزيرة وستشرب مخلوقاته الصغيرة أحدها من مجارير الآخر، وستموت من الكاكاكاكا، ثمّ سيبعث جفافاً يحرق حقول البطاطا الحلوة والمانيوك عن بكرة أبيها، فمَنْ لم يمت بالحمّى سيهلك من الجوع. وماذا بعد؟ قد تسأل. لماذا؟ لغز! هكذا هو.

بعد أن قطع الاستقلال إعانتنا المالية وجميع الاتصالات مع العالم الأكبر، يبدو أن خطة الله اقتضت أن تمرض أمي وروث ماي وتصبحا على شفا حفرة من الموت. فقد احمرّ وجهاهما وكستهما بقعٌ حمراء كثيرة، وثقل

لساناهما وأحسّتا بالتعب الشديد وتباطأت حركتهما كثيراً، إلى الحد الأدنى لما يُعتقد عموماً أنه يشكّل جسماً بشريّاً حيّاً.

بدا القسّ غير مكترثٍ بكلّ ذلك، ومضى قُدماً في عمله التبشيري، وترك مسؤولية البيت والموقد على بناته الثلاث الأكبر سناً لأيام طويلة، وكان يخرج من البيت ليزور الأشخاص الذين لم يخلّصهم بعد، أو ليلتقي أناتول ويناقشه بخصوص تدريس الكتاب المقدّس للصبية الصغار. أوه، ذلك الكتاب المقدّس، حيث كلّ حمار له عظم فكّ سيعيش ساعةَ مجد(*). (من الواضح أن أناتول لم يكن متحمّساً لهذا الأمر).

وفي أحيان كثيرة، كان القسّ يخرج ويتمشّى على ضفة النهر لساعات طويلة، وحده، يختبر مواعظه على زنابق الحقل التي تفهمه كما يفهمه أبناء الرعية، بل إن الزنابق تستمع إليه بشكلٍ أفضل. وبما أن أبي مبعوث الربّ الوحيد المتخلّى عنه في كيلانغا، فقد كان مشغولاً باستمرار. فإذا ذكّرناه بالقلق الذي يعترينا بخصوص أمّنا، كان يقول إنها ستستجيب لدعوة الله قريباً، وإنها ستنهض من تلقاء نفسها. وفي الليل، كانت تتناهى إلينا أصوات جدال غريبة ترافقها دموع، وكانت أمي تتكلّم بصوتٍ خفيض، متداخل، بحركةٍ بطيئة، مثل أسطوانة فونوغراف لا تسير بالسرعة الصحيحة، مستعرضةً إمكانيات زوال أسرتنا. وفي الفترات الصغيرة التي تتوقّف فيها لتصوغ جملتها، كان أبونا يقول لها محتدّاً إنّ للربّ طرقه الغامضة. كما لو أنها لا تعرف ذلك!

طرقٌ جديّة هذيانية استبدادية تُتعبنا وتملؤنا أذية(**).

لم يكن جيراننا مبالين بما آلت إليه حالتنا، لأنهم كانوا مشغولين بأحوالهم

(*) تسخر إدا بطريقتها، مشيرةً إلى سِفر القضاة، الإصحاح الخامس عشر، حين وجد شمشون فكّ حمارٍ على الأرض فأخذه وقتل به ألف رجل. [م].

(**) الكلمات كلها لها قافية واحدة في الأصل الإنكليزي. [م].

هم. وكان باسكال، صديق ليا، الوحيد الذي ظلَّ يزورنا بين حين وآخر، يريد أن ترافقه ليا في مغامرة إلى داخل الأحراش. وبينما نكون منهمكات في ترتيب الأسرّة أو غسل الصحون، كان باسكال ينتظر خارج البيت، محاولاً لفت انتباهنا، من خلال الصياح ببضع عبارات أميركية كانت ليا قد علّمته إياها: «يا رجل -أوه- يا رجل! مجنون!». كان ذلك يثير ضحكنا، لكننا ندمنا الآن لأننا علّمناه عباراتٍ وقحة.

بين عشية وضحاها، طفولتنا صارت من الماضي. ولم يلحظ أحد هذا الانتقال إلّا نحن.

أصبح واضحاً أن مسألة منحنا خبزنا اليومي كلّ يوم تقع على عاتقنا نحن البنات، وقد استنفد ذلك كلّ طاقتي. فقد كنت أرغب في أحيان كثيرة أن أستلقي في السرير. وأخواتي تأثّرن أيضاً: فقد غارت عينا راشيل وبدا أنها مضناة بالهموم، وأصبحت تمشّط شعرها أحياناً مرة واحدة في اليوم، وتباطأت حركة ليا من الجري إلى المشي. لم نكن ندرك كم كانت أمّنا تعاني حتى تملأ مائدتنا بالطعام في العام الماضي. وما زال أبي لا يدرك ذلك، عندما لم يكن يفكّر بشيء سوى أن يترك أمر البيت على فتاة معاقة، وملكة جمال، وأخرى تتشبّه بالفتيان تقترب من العمل المنزلي مثل قطّة تستحم. يا لها من أسرة!

كانت ليا تنتصب في سريرها أحياناً في منتصف الليل، راغبةً في التحدّث. أظن أنها كانت مذعورة، لكنها غالباً ما أعادت مصدر انزعاجها إلى ماما موانزا التي تحدّثت عن حقيقة الأمر، وقالت إن لديها زوجاً قوياً في البيت، وكان الشيء الذي يزعج ليا هو أن يظن الناس أن ثمة نقصاً في بيتنا، لا لأن أمّنا أصبحت تقف عند عتبة الموت، وإنما لأنه لا يوجد لدينا باكالا مباندي -رجل قويّ- يرعانا ويشرف علينا.

«أبي لا يصطاد حيوانات ولا يصطاد السمك لأن لديه مهمة أسمى»

-قالت ليا من سريرها الصغير، كما لو أنني لم أفكّر بذلك- «ألا يرون أنه يقوم بعمل شاق؟!».

لو أردت أن أناقش ماما موانزا في هذا الأمر لقلت لها إن مهنة أبي ربما تشبه لعبة «ماما هل يمكنني أن...؟» التي تتكوّن من سلاسل طويلة جداً من الكلمات التافهة المتتالية.

لم يمضِ شهر حتى سقطت أسرتنا في وسط الفوضى. فقد كان علينا أن نتحمّل غضب والدنا المتزايد عندما يعود إلى البيت، فيجد العشاء ما زال في طور مناقشة ما إذا كانت هناك ديدان في الطحين أم لا، أم هل يوجد أيّ طحين أصلاً. وبعد أن تبلغ درجة استيائه حدّاً معيّناً، نفرك نحن الفتيات الثلاث كدماتنا، وندعو أنفسنا إلى عقد اجتماع نسائي من نوعٍ ما. وعلى الطاولة الخشبية الكبيرة التي كنّا نمضي عليها ساعة مملّة في دراسة الجبر والإمبراطورية الرومانية المقدّسة، أصبحنا نجلس الآن لنجري تقييماً.

«أولاً وقبل كل شيء، علينا أن نستمرّ في غلي الماء، مهما كان الأمر» -قالت راشيل، أكبرنا سناً- «اكتبي هذا يا إدا. إذا لم نغلِ الماء لمدة ثلاثين دقيقة كاملة، فإننا سنحصل كلّنا على الاستفتاءات(*)».

لوحظ ذلك على النحو الواجب.

«ثانياً، يجب أن نفكّر بماذا سنأكل».

على رفوف المؤن في بيت المطبخ يوجد لدينا قليل من الطحين والسكّر ومسحوق حليب كارنيشن وشاي وخمس علب سردين، والخوخ المجفّف الذي أعطته لنا السيّدة أندرداون. سجّلت كلّ ذلك في عمود في دفتري. كتبت ذلك بالاتجاه الصحيح من أجل أخواتي. وأضافت ليا إلى القائمة: مانغا وجوافة وأناناس وأفوكادو، التي تأتي كلها وتذهب في

(*) تخطئ راشيل في تهجئة كلمة «parasites»، التي تعني «طفيليّات»، فتلفظها على الشكل «plebiscites»، مما يجعل الجملة تبدو غريبة. [م].

مواسم غامضة (لا تختلف عن طرق الربّ!)، لكنها على الأقل تنمو في باحة بيتنا، مجاناً. وكان الموز متوفّراً بكثرة في القرية، وكان القرويون يسرقونه من أشجار أحدهم الآخر في وضح النهار. وعندما كان أولاد ماما موانزا يقطفون عذقاً من الموز من حديقة بيت نغوزا الكبيرة، كانت ماما نغوزا تلتقط حبات الموز التي أسقطوها على الأرض وتجلبها لنا. وهكذا تشجّعنا أنا وليا ذات يوم وقطفنا عذقاً بحجم روث ماي من خلف مرحاض إيبين أكسلروت بينما كان في الداخل.

هكذا إذاً كانت الفاكهة شيئاً نستطيع أن نحصل عليه مجاناً، وادّعت ليا أنها تعرف مكان البرتقال الذي كنا نشتريه من السوق دائماً لأنه ينمو في عمق الغابة، وكان من الصعب العثور عليه. ونصّبت نفسها المسؤولة عن جمع الفاكهة، وهذا ليس مستغرباً لأن هذا النوع من العمل يناسبها، فهو من فئة الأعمال المنزلية التي يمكن القيام بها في أبعد مكان عن المنزل. وتعهّدت أيضاً بأن تقطف جوز النخيل مع أن طعمه يشبه طعم الشمع، لكن الأطفال الكونغوليين كانوا يقدّرونه كثيراً. ومع ذلك كتبتُ في دفتري «جوز النخيل» لأطيل القائمة. وكنا نهدف في عملنا هذا إلى إقناع أنفسنا بأن الذئب لا يقبع عند باب بيتنا الخلفي، وإنما يسيل لعابه عند حافة فناء البيت.

وخلال فترات الاستراحة بين الملاحظات الحاسمة، كانت راشيل تتفحّص أطراف شعرها بعناية شديدة بحثاً عن نهايات متقصّفة. كانت تشبه أرنباً أحول، وعندما ذُكر جوز النخيل، تذمّرت قائلة: «ولكن إذا اعتمدنا في طعامنا على الفاكهة فحسب يمكن أن نموت أو نصاب بالإسهال».

«حسناً، ما هي الأشياء الأخرى المجانية؟»، سألت ليا.

«الدجاج، طبعاً» -قالت راشيل- «يمكننا أن نذبحها».

فأوضحت ليا أنه لا يمكننا ذبحها كلّها، لأنه لن يتوفّر لدينا بعد ذلك

بيض لصنع العجّة - إحدى الأشياء القليلة التي كنا نعرف طهيها. وإذا تركنا بعض الدجاجات تحضن البيض حتى يفقس ليزداد عددها، فقد نستطيع أن نقلي ديكاً مرة في الشهر. فكلّفتني أخواتي بأن أصبح المسؤولة عن جميع القرارات المتعلّقة بالدجاج، معتبرين أنني الأقل احتمالاً للتصرّف بشكل طائش يسبب لنا الندم لاحقاً، وذلك لأن الجزء من دماغي الذي يدفعني إلى التصرّف بطيش كان تالفاً عندما ولدت. ولم نناقش مسألة من ستكون المسؤولة عن قتل الديكة المنكودة، لأن أمّنا هي التي كانت تفعل ذلك عندما كانت امرأة أكثر سعادة، وكانت تدّعي أنّ أبي تزوّجها لأنها تعرف كيف تلوي رقبة الديك. لطالما كان هناك غموض يقبع تحت جلد أمّنا، ولم نُعِر ذلك أدنى اهتمام قطّ.

بعد ذلك، أثارت ليا مسألة نِلسون الشائكة، فقد كنا نعطيه نصف البيض أجراً له. وتناقشنا هل نحتاج إلى نِلسون أكثر أم إلى البيض، إذ لم تعد لدينا أشياء كثيرة الآن ليطبخها، لكنّه كان يحضر لنا الماء ويقطع الحطب، ويفسّر لنا الكثير من ألغاز كيلانغا اليومية. وبما أنني لا أجيد جلب الماء أو قطع الخشب، فإنني لا أستطيع أن أعيش حياةً من دون نِلسون، وأظنّ أنه كانت لدى أخواتي مخاوفهن أيضاً. وفي اقتراع سري صوّتنا بالإجماع على أن يبقى.

«وأنا سأخبز الخبز. ستُريني ماما كيف أفعل ذلك» - قالت راشيل، كما لو أنّ ذلك حلَّ كلّ مشكلاتنا أخيراً.

دخلت أمّنا من دون أن يلاحظها أحدٌ منّا إلى اجتماعنا، ووقفت عند النافذة الأمامية وراحت تنظر إلى الخارج. عندما سعلت التفتنا نحن الثلاثة لننظر إليها: أورليانا برايس التي كانت تخبز خبزنا، لم تعد تبدو حقاً ذلك الشخص الذي يمكنه أن يعلّمك كيف تزرّر أزرار قميصك بشكل صحيح. كم هو مقلق أن تري أمك -التي علّمتك طوال عقد من الزمن كيف تدسّين

ذيل قميصك وتمشين مثل سيّدة- بهيئة شعثاء. وعندما أحسّت باستنكارنا الصامت، استدارت ونظرت إلينا. كانت في عينيها تلك النظرة الزرقاء لسماء صافية غير ماطرة. نظرة خواء.

«كل شيء يسير على ما يرام، ماما» -قالت ليا- «يمكنك أن تذهبي وتستلقي في السرير إذا أردت».

لم تنادها ليا «ماما» منذ أن ظهرت أضراسنا الأولى.

اقتربت ماما التي اسمها أورليانا وقبّلت رأس كلّ واحدة منّا، ثمّ عادت إلى فراش موتها.

التفتت ليا إلى راشيل وقالت هامسة: «أنت، أيتها الذكية، لا تستطيعين حتى أن تنخلي الطحين!».

«أوه، الفتاة العبقرية تتكلّم» -قالت راشيل- «وهل لي أن أسألك لمَ لا؟».

قضمت قلمي الرصاص مشاهدةً ما يجري.

«لا يوجد سبب خاص» -قالت ليا وهي تحكّ شعرها الأشعث وراء أذنها- «أنا واثقة أنك لن تمانعي إدخال يدك في كيس الطحين المليء بالدود والسوس».

«لا يوجد دود دائماً في الطحين».

«صحيح، فالرتيلاء تأكلها في بعض الأحيان».

ضحكتُ بصوت عالٍ. فنهضت راشيل وتركت الطاولة.

بعد أن خرجت عن صمتي لصالح ليا، شعرت بأنني يجب أن ألومها من أجل التوازن.

«إذا لم نُعلَّق كلّنا معاً...»، كتبتُ في دفتري.

«سنُشنق جميعنا بشكلٍ منفصل. أعرف! لكن يجب أن تنزل راشيل عن

حصانها العالي أيضاً، فهي لم تكن تفعل شيئاً هنا، وأصبحت الآن فجأة الدجاجة الحمراء الصغيرة(*)».

هذا صحيح تماماً. أن تصبح راشيل هي المسؤولة شيءٌ لا يحتمل كما لو أنّ السيّدة دونا ريد(**) ظهرت فجأة من التلفزيون وأصبحت أمّك. لا بدّ أنه مشهد تمثيلي. فسرعان ما ستخلع مئزرها وتتحوّل إلى شخص لا يبالي بشؤونك إطلاقاً.

ظلّت راشيل المسكينة المستبدة تحاول أن تؤدي دور الأخت الكبيرة، لأنها تكبرنا بستّة عشر شهراً، وتصرّ على أن نحترمها لأنها كذلك. أما أنا وليا فلم نفكّر بها بهذه الطريقة منذ أن كنّا في الصف الثاني، عندما تفوّقنا عليها في مسابقة تهجئة الكلمات في المدرسة. كان فشلها يبعث على السخرية، إذ لم تعرف تهجئة كلمة سهلة جداً، مثل: «مخطّط».

ليا

بعد ثلاثة أسابيع من الركود، جعلتُ روث ماي تغادر السرير. قلت لها: «روث ماي، حبيبتي، انهضي. هيا بنا نخرج من البيت ونلعب قليلاً!». لم يكن بإمكاني أن أفعل الكثير لأجعل أمي تنهض أيضاً. لكن بما أنني أمضيت وقتاً طويلاً في رعاية روث ماي أظن أنني أصبحت الآن أعرف ما هو الجيّد لها. كانت بحاجة إلى شيء يحمّسها. وعلى الرغم من أن معظم حيواناتنا الأليفة هربت أو افترُست كما حدث لميثوسالا، ظلّت الكونغو توفّر لنا ثروة

(*) الدجاجة الحمراء الصغيرة: حكاية خرافية أميركية نشرتها ماري مابس دودج (Mary Mapes Dodge) لأول مرة في عام 1874، وتحكي قصة دجاجة طلبت من الحيوانات الأخرى في المزرعة حيث تعيش مساعدتها في صنع الخبز، لكنهم رفضوا، فتولّت هي هذه المهمة، وحين انتهت منعتهم من مشاركتها الأكل. [م].

(**) دونا ريد (1921-1986) «Donna Reed»: ممثّلة أميركية شهيرة. [م].

من مخلوقات الله لتسليتنا. أخرجتُ روث ماي من البيت لتتشمّس قليلاً، لكنّها كانت تغفو حيثما تجلس من دون أن تشعر. كانت تتصرّف مثل دمية القرد المحشو بالجوارب التي تدور وتهمد في الغسّالة.

سألتها: «إلى أيّ مكان تظنّين أن ستيوارت الصغير قد ذهب؟»، ذكرت لها هذا الاسم لإرضائها فحسب، وأنا أعرف أن النمس كان لها، مع أنها لم تكن هي التي اصطادته أو اعتنت به، وقد سمّته خطأً على اسم الحيوان في كتاب القصص المصوّرة، وهو الفأر. لكني لا أنكر أنه كان يتبعها أينما ذهبت.

«لقد هرب. لا يهمّني ذلك أيضاً».

«انظري يا روث ماي، إنه أسد النمل(*)».

في الجفاف الغريب والطويل الذي كنا نواجهه بدلاً من موسم الأمطار الطويل في السنة الماضية، ملأ التراب الناعم باحة بيتنا في رقع بيضاء واسعة. وكانت الأرض مليئة بحفرٍ تشبه القمع يقبع في قعرها أسد النمل، في انتظار حشرة مسكينة لتتعثّر في الفخ وتُلتهَم. في الواقع فإننا لم نرَ أسد النمل، لكننّا رأينا عمله الشرّير. ولكي أسلّي روث ماي قلت لها إنه يشبه الأسد وله ستّ سيقان كبيرة بحجم يدها اليسرى. في الحقيقة، لا أعرف شكله، لكن بحسب الأشياء التي تنمو في الكونغو، فقد بدا لي أن هذا الحجم ممكن.

قبل أن تمرض، كانت روث ماي تستلقي على بطنها وتغنّي لكي تستدرجها إلى الخارج: «أيتها الحشرة الشرّيرة، أيتها الحشرة الشرّيرة، اخرجي من حفرتك!»، كانت تغني بصوت مرتفع بعد الظهر، لكن من دون فائدة. كان العناد أهم ميزة في شخصية روث ماي، لكن عندما اقترحت عليها ذلك الآن، أدارت رأسها جانباً وأنزلته على التراب.

(*) ويُدعى أيضاً «ليثُ عِفرِّين»: جنس حشرات مأواها التراب السهل، تحفر حفراً في التراب وتندسّ في جوفها لتتصيّد الحشرات من نملٍ وغيره. [م].

«أشعر بحرارة شديدة ولا أستطيع أن أغنّي، وهو لن يخرج على أي حال».

كنت عازمةً على إثارتها بأي طريقة، وإذا لم أتمكّن من إيجاد شرارة ما متبقية في روث ماي، فإن الذعر سيتملّكني أو سأبكي.

«انظري إلى هذه!»، قلت لها، عندما رأيت صفّاً من النمل يسير في رتل ويصعد فوق جذع شجرة. ثم أمسكت نملتين من ذلك الصفّ. كان هذا سوء حظٍّ لهاتين النملتين المسكينتين اللتين اختيرتا وهما منهمكتان في عملهما مع أخواتهما. حتى النملة توجد لها حياتها. فكّرت في ذلك بسرعة وأنا جاثية، ثم ألقيت بالنملة التي سُحقت قليلاً في حفرة أسد النمل. كانوا يقدّمون المسيحيين طعاماً للأسود، والآن تستخدم إدا هذه العبارة للسخرية في إشارة إلى أنني تركتها في الغابة ليفترسها الأسد، لكن إدا ليست مسيحية أكثر من النملة!

جلسنا القرفصاء فوق الحفرة وانتظرنا. ظلّت النملة تحاول أن تنجو بنفسها، وأن تهرب من الفتحة الرملية الناعمة حتى ارتفع كلّابان فجأة وأمسكا بها، مثيرين قليلاً من الغبار، ثم سحباها إلى الأسفل. اختفت، هكذا فحسب!

«لا تؤذي المزيد منها يا ليا!» -قالت روث ماي- «لم تكن النملة سيّئة».

شعرت بالحرج لأن أختي الصغيرة أعطتني درساً في أخلاق الحشرات. كانت القسوة تُلهم روث ماي عادةً كثيراً، وكنت أبذل كل ما بوسعي لأساعدها حتى تشفى. فقلت لها: «حتى الحشرات الشرّيرة يجب أن تأكل. كلّ شيء يجب أن يأكل شيئاً». حتى الأسد، كما أظن!

رفعتُ روث ماي عن الأرض ونفضت الغبار عن خدّها، وقلت لها: «اجلسي في الأرجوحة وسأمشّط ضفائرك». كنت أضع المشط في جيبي الخلفي منذ أيام لأمشّط شعر روث ماي.

«بعد أن أعقد ضفائرك سأدفعك قليلاً في الأرجوحة. اتفقنا؟!».

بدا لي أن روث ماي لم تكن متحمّسة لعمل أي شيء. وضعتها في الأرجوحة التي ساعدنا نِلسون على تعليقها بحبل شحميّ ضخم كان قد وجده على ضفّة النهر. كان المقعد عبارة عن علبة زيت نخيل قديمة مستطيلة الشكل. كان جميع أطفال القرية يستخدمون أرجوحتنا. نفضت الغبار عن المشط وبدأت أحلّ العقد الصفراء المتشابكة في شعرها. كان من الصعب أن أفعل ذلك من دون إيلامها، لكنها لم تتذمّر، وهذا ما اعتبرتُه علامةً سيئة.

بطرف عيني رأيت أناتول يحاول الاختباء وراء أعواد القصب عند حافة فناء بيتنا. وبما أنه لا يمضغ قصب السكر، فإنه لم يكن هناك ليقطعه. وأظن أنه كان يتباهى قليلاً بأسنانه البيض القوية التي تتوسّطها فجوة صغيرة. عندما رأيته واقفاً هناك يراقبنا، احمرّ وجهي خجلاً إذ ظننت أنه رآني أُطعم أسد النمل. بدا لي ذلك شيئاً طفولياً جداً. إن كلّ ما نفعله تقريباً في وضح النهار في كيلانغا يبدو طفولياً. حتى أبي الذي يتمشّى على ضفّة النهر مكلّماً نفسه، وأمّنا التي تتنقّل في أرجاء البيت وهي مرتدية نصف ثيابها. وبدا لي على الأقل أن تمشيط شعر روث ماي عملٌ أموميّ وعمليّ فركّزت عليه. ورغماً عني تصوّرت أباً له ذراعان أسودان يلمعان يسحبان السمك من النهر، وأمّاً لها ثديان أسودان ثقيلان تهرس المانيوك في حوض خشبي. وكعادتي رحت أقرأ آية من مزمور التوبة: «ارحمني يا الله بعظيم رحمتك». لكنّي لم أكن متأكّدة ما هي الوصية التي خالفتها في تفكيري: أكرم أباك وأمك، أم لا تشتهي شيئاً هو لقريبك، أم شيئاً أكثر غموضاً وهو أن تكون مخلصاً لعِرقك ونوعك.

بدأ أناتول يسير نحونا. لوّحت له وناديته: «مبوته، أناتول!».

فقال: «مبوته، بينيه – بينيه». كان يطلق أسماء خاصّة على كلّ أخت من أخواتي، وعليّ أيضاً، لا تلك الأسماء المسيئة التي يطلقها علينا الآخرون،

مثل النمل الأبيض ويندوكا على إدا التي تعني «الذي يسير منحنياً». ولم يخبرنا أناتول معنى الأسماء التي أطلقها علينا. وضع يده على رأس روث ماي وعبث بشعرها قليلاً، وصافحني على الطريقة الكونغولية، ويده اليسرى على ساعده الأيمن. قال أبي إن هذا التقليد يهدف إلى إظهار أنهم لا يخفون أيّ سلاح.

«ما هي الأخبار، يا سيّدي؟» سألتُ أناتول. هكذا كان أبي يقول له دائماً. فعلى الرغم من ذلك العشاء الأول الذي لم تكن نهايته جيّدة، ظلَّ أبي يعتمد على أناتول كثيراً، وكان ينتظر زياراته بصبرٍ متأجّج، وبشيء من التوتّر، كما أظن. وكان أناتول يفاجئنا دائماً بأنه يعرف أخباراً هامة من العالم الخارجي، أو على الأقل من خارج كيلانغا. لم نكن نعرف من أين يأتي بمعلوماته هذه، لكن تبيّن عموماً أنها صحيحة. قال: «أخبار كثيرة، لكن أولاً، أحضرتُ لكم سمكاً في ماء».

كنت أحبّ أن أستمع إلى أناتول عندما يتكلّم الإنكليزية، لأنه كان ينطقها بطريقة بريطانية أنيقة، فيلفظ مثلاً كلمة «فيرست»: «فيست»، لكنّه كان ينطقها بالطريقة الكونغولية، فيلفظ مقاطع الحروف كلها على وزن واحد –سمك في ماء– كما لو أنه لا يريد أن تستحوذ كلمة واحدة على الجملة كلها.

«تقول أمّي: لا تشترِ سمكاً في البحر، إذا لم تتفحّص الشيء جيّداً! أظن أن الماء هو البحر».

«حسن! على أي حال، إنها ليست سمكة، وليس عليك شراؤها. إذا حزرتِ ما هو، فقد تأخذينه لتتناولوه على العشاء».

ثم أعطاني كيساً بنّياً من القماش كان معلّقاً على كتفه بحبل.

أغمضت عينيَّ ورحت أرفعه وأُنزله لأقدّر وزنه. كان بحجم دجاجة لكنه ثقيل، فلا يمكن أن يكون طيراً. رفعت الكيس وتفحّصت النتوء المستدير في الأسفل. كانت هناك نقاط صغيرة، ربما تكون مرافق.

«أومڤوندلا» صرخت، ورحت أقفز مثل طفلة. إنه أرنب غابة. يستطيع نِلسون أن يطبخ حساء أرنب مع فاصولياء مانغوانسي والمانغا، وكان هذا طبقاً لا يمكن حتى لراشيل أن تقاوم أكله. إنه لذيذ إلى هذه الدرجة.

كان تخميني صحيحاً: ابتسم أناتول ابتسامته البيضاء المثيرة. لا أستطيع تذكّر كيف كان يبدو لنا في المرة الأولى التي رأيناه فيها عندما صُدمنا برؤية الندوب التي تملأ وجهه، أما الآن فقد أصبحت أرى أناتول رجلاً مربوع الكتفين، له أرداف ضيّقة، وهو في قميصه الأبيض وبنطاله الأسود. أناتول ذو الابتسامة الجاهزة وطريقة مشيه المفعمة بالحيوية، الذي يعاملنا بلطف شديد. رأيت في وجهه الآن سمات عديدة أخرى إضافةً إلى تلك الندوب، مثل عينيه اللوزيتين وذقنه المدبّبة الجميلة. لم أكن أدرك كم يعجبني!

«هل اصطدته بنفسك؟».

رفع كلتا يديه، وقال: «كان بودّي أن أقول نعم، لتقولي إن صديقك أناتول صيّاد ماهر. لكن للأسف، أحضره لي تلميذ جديد هذا الصباح مقابل أجر دراسته».

نظرتُ داخل الكيس. كان يقبع هناك برأسه الصغير المكسو بالفرو متكوّراً إلى الخلف لأن رقبته مكسورة. لقد جرى اصطياده بمصيدة، وليس بإطلاق النار. ضممت الكيس إلى صدري ونظرت إلى أناتول، وسألته: «هل كنت ستأخذه فعلاً إذا لم أحزر ماذا في داخله؟».

فابتسم وقال: «كنت سأمنحك فرصاً كثيرة حتى تحزري».

«هل تُبدي كلّ هذا التساهل للصِّبية عندما تعلّمهم الحساب واللغة الفرنسية؟ إذا كان الأمر كذلك فلن يتعلّموا شيئاً أبداً!».

«لا، يا آنسة! إني أكسّر رؤوسهم الوقحة بعصا، وأرسلهم إلى البيت وهم في حالة خزي».

ضحكنا كلانا. كنت أعرف أن ذلك غير صحيح.

«أرجو أن تأتي إلى العشاء هذه الليلة يا أناتول، فمع هذا الأرنب سيكون لدينا الكثير من الطعام!».

في الواقع سيصنع هذا الأرنب حساءً قليلاً، وسنظلّ نشعر بالجوع في أثناء غسل الصحون -وهو شعور كنّا نحاول أن نعتاد عليه- لكن هكذا يعبّر أهالي كيلانغا عن الامتنان. على الأقل، تعلّمت شيئاً من آداب السلوك هنا.

«قد آتي»، قال.

«سنصنع حساء»، وعدته.

أشار إلى أن: «ثمن فاصولياء مانغوانسي مرتفع في السوق الآن بسبب الجفاف. لقد جفّت جميع الحدائق».

«أعرف شخصاً عنده القليل منها: ماما نغوزا التي تطلب من أطفالها أن يسحبوا الماء من الجدول لتسقي حديقتها. ألم ترَ ذلك؟ إنه شيء مثير».

«لا، لم أرَ ذلك. عليّ أن أقوي صداقتي مع تاتا نغوزا أكثر».

«لا أعرف عنه شيئاً، لأنه لا يكلّمني أبداً. لا أحد يكلّمني هنا، يا أناتول».

«بينيه المسكينة».

«هذه حقيقة! لا يوجد لديّ صديق هنا إلّا نِلسون وباسكال، الصبيّان الصغيران وأنت. لأن جميع الفتيات في عمري لديهن أطفال وهنّ مشغولات كثيراً، ويتصرّف الرجال معي كما لو كنت أفعى ستعضّهم».

هزَّ رأسه ضاحكاً.

«إنهم يفعلون ذلك يا أناتول. فقد كنت جالسة البارحة بين الأعشاب أراقب فخاخ السمك التي وضعها تاتا موانزا، وعندما نهضت وطلبت منه أن يريني كيف يفعل ذلك، جرى مبتعداً وقفز في الماء! أقسم لك على ذلك».

«بينيه، أنتِ شقيّة. لا يريد تاتا موانزا أن يراه أحد وهو يكلّم فتاة شابة، وأنتِ تعرفين ذلك. ستكون فضيحة».

«همممم»، قلت. لماذا يُعتبر فضيحة التحدّث مع أيّ رجل في كيلانغا يبلغ من العمر ما يكفي ليرتدي بنطالاً، ما عدا أناتول؟ لكنّي لم أسأله لأنني لم أشأ أن أصيب صداقتنا بالنحس.

«ما عرفته بالمصادفة» -وربّما كنت خَفِرة قليلاً بينما أقول هذا- «أن قطّ الزباد التهم كلّ دجاجات بيت نغوزا يوم الأحد الماضي، لذا ستكون ماما نغوزا مستعدة لمقايضتنا فاصولياء مانغوانسي بالبيض، ألا تظن ذلك؟».

ابتسم أناتول ابتسامة عريضة وقال: «فتاةٌ ذكية».

ابتسمتُ أيضاً، لكني لم أعرف ماذا يجب أن أقول بعد ذلك. خجلت وعدت أمشّط شعر روث ماي.

«تبدو الفتاة الصغيرة كئيبةً اليوم»، قال أناتول.

«كانت طريحة الفراش منذ أسابيع، وماما أيضاً. ألم تلاحظ عندما جئتَ منذ بضعة أيام كيف كانت واقفة على الشرفة تحدّق في الفضاء؟ أبي يقول إن صحتهما ستتحسّن قريباً، لكن...»، صمتُّ، ثم أضفت: «لا أتوقّع أن يكون مرض النوم، ما رأيك؟».

«لا أظن ذلك، لأننا لسنا في موسم ذبابة التسِه تسِه(*) الآن، ومن النادر أن تجدي أحداً مصاباً بمرض النوم الآن في كيلانغا».

«حسناً، هذا جيّد لأنني سمعت أن الذي يصاب بمرض النوم يموت»، قلت وأنا ما زلت أمشّط شعر روث ماي. كنت أشعر كما لو أنني منوّمة مغناطيسياً وأقوم بهذه الحركة آلياً. إن نوم روث ماي لأيام وليالٍ رطبة طويلة بلّل ضفائرها بالعرق، وجعل شعرها الأشقر الداكن مجعّداً، وحوّله إلى أمواج لامعة كالماء. حدّق أناتول في شعرها وأنا أمشّطه حتى أسفل ظهرها. ضاعت ابتسامته في مكانٍ ما في تلك الدقيقة الهادئة.

(*) جنس من الحشرات يعيش في إفريقيا، تنقل داء المثقبيات الإفريقي «مرض النوم»، فإن لسعت الشخص تسبب له غيبوبة والنوم لفترات طويلة. [م].

«عندي خبر يا بينيه، ما دمت طلبتِ ذلك. لكن أخشى ألّا يكون خبراً جيّداً جداً. لقد جئت لأكلّم والدك».

«أبي غير موجود الآن. مع ذلك، يمكنني أن أنقل له الخبر مهما كان».

تساءلت ما إن كان أناتول سيعتبرني رسولاً جيّداً لنقل الخبر، إذ إنني لاحظت أن الرجال الكونغوليين لا يثقون بالنساء حتى بزوجاتهم وبناتهم، ويعتبرونهن غير عاقلات، مع أن الزوجات والفتيات هنّ اللاتي يقمن بجميع الأعمال. لكني شعرت بأن أناتول يثق بي، سأل: «هل تعرفين أين يقع إقليم كاتانغا؟».

قلت: «في الجنوب، حيث توجد جميع مناجم الماس».

كنت قد سمعت الحديث عن ذلك عندما كنت أنا وأبي عائدين بطائرة السيّد أكسلروت من ليوبولدڤيل. ومن الواضح أن السيّد أكسلروت يذهب إلى هناك كثيراً. كنت أخمّن، ولكني خمّنت بالثقة نفسها التي كانت تميّز والدي.

فقال أناتول: «الماس، نعم، والكوبالت والنحاس والزنك أيضاً. كلّ شيء في بلدي يريد بلدك أن يحصل عليه».

شعرت بالتوتّر، فسألته: «هل فعلنا شيئاً سيّئاً؟».

«لست أنتِ، يا بينيه».

ليس أنا، ليس أنا! ابتهج قلبي لسماع ذلك، إلا أني لم أستطع تحديد سبب ابتهاجي.

ثم أردف: «لكن، نعم، هناك أشياء سيّئة تجري. هل سمعتِ باسم مويز تشومبي(*)؟».

(*) Moïse Tshombe (1919–1969): رجل أعمال وسياسي كونغولي. شغل منصب رئيس دولة كاتانغا الانفصالية بين أعوام 1960–1963 ورئيساً للوزراء في جمهورية الكونغو الديمقراطية بين عامي 1964–1965. [م].

ربما كنت قد سمعت به، لكني لم أكن متأكّدة. بدأت أهزّ رأسي، ثمّ اعترفت: «لا». فقد قرّرت أن أتوقّف عن الادّعاء بأنني أعرف أكثر مما أعرف في الواقع. سأكون نفسي أنا، ليا برايس، المتلهّفة لتعلّم كلّ ما يمكن تعلّمه. عندما كنت أراقب أبي، أدركت كيف أنك لا تستطيع أن تتعلّم شيئاً إذا حاولت أن تبدو أذكى شخص موجود في الغرفة.

«مويز تشومبي زعيم قبيلة لوندا، وهو أيضاً زعيم إقليم كاتانغا. ومنذ بضعة أيام، أصبح زعيم كاتانغا وأعلن انفصالها عن جمهورية الكونغو».

«ماذا؟ لماذا؟».

«كما ترين فقد أصبح باستطاعته الآن أن يتعامل مع البلجيكيين والأميركيين مباشرة، بكلّ تلك المعادن التي بحوزته. وقد شجّعه عدد من أبناء بلدك على قراره هذا».

«لماذا لا يعقدون كل صفقاتهم مع لومومبا؟ فهو الرجل المنتخب. يجب أن يعرفوا ذلك».

«يعرفون، لكن لومومبا لا يريد أن يتخلّى عن ثروة البلاد لأنه مخلص لشعب بلده. وهو يؤمن بأن الكونغو بلد موحّد للكونغوليين، ويعرف أنّ ثمن ألماسة كاتانغانية في الجنوب يمكن أن يسدّد راتب معلّم في ليوبولدڤيل، أو يُطعم أطفال قرية واريجا في الشمال».

شعرت بالحرج وارتبكت، سألته: «لماذا يريد رجال الأعمال أن يأخذوا ماس الكونغو؟ وماذا يفعل الأميركيون هناك على أي حال؟ كنت أظن أن الكونغو تخصّ بلجيكا، أقصد قبل الآن».

فتجهّم وجهه، وقال: «الكونغو لشعب الكونغو وهي كذلك منذ الأزل».

«أعرف ذلك. لكن...».

«افتحي عينيك، يا بينيه، انظري إلى جيرانك! هل كانوا ينتمون إلى بلجيكا؟»، وأشار إلى وراء فناء بيتنا وعبر الأشجار باتجاه بيت ماما موانزا.

كنت قد قلت شيئاً غبياً، فشعرت بالسوء. نظرت إلى المكان الذي أشار إليه: ماما موانزا بساقيها المشوّهتين ورأسها الصغير النبيل الملفوف بقماش كاليكو أصفر ساطع، تجلس فوق التراب القاسي كما لو كانت مغروسة هناك، أمام النار الصغيرة المشتعلة التي تلعق الصفيحة المبعوجة التي تطهو فيها. كانت تتكئ إلى الخلف على يديها رافعةً وجهها إلى السماء، وهي تملي تعليماتها بصوتٍ عالٍ، فيردّ عليها أولادها بصوت فاتر من داخل البيت المبني من القشّ والطين. وكانت ابنتاها الأكبر سنّاً تقفان بجانب الباب المفتوح تطحنان المانيوك في الهاون الخشبي الطويل. وعندما كانت إحدى الابنتين ترفع عصا الهاون كانت الابنة الأخرى تهوي بالعصا الأخرى إلى داخل الفتحة الضيّقة، إلى الأعلى والأسفل، إيقاع تام، متناغم مثل مكبس مضخة. كنت أراقبهما مراراً، منجذبة إلى تلك الرقصة بظهريهما المشدودين وذراعيهما الأسودين المكسوّين بالعضلات. كنت أحسد هاتين الابنتين اللتين تعملان معاً بتناغم تام. كان من الممكن أن أشعر بهذا التناغم مع إدا، لو لم نكن قد علقنا في حبال الذنب والمزايا غير العادلة. والآن، كانت عائلتنا بأكملها في خلاف، على ما يبدو: أمي ضد أبي، وراشيل ضدهما كليهما، وإدا ضد العالم، وروث ماي تحاول من دون جدوى جذب أي أحد يقترب منها، وأنا أبذل كلّ ما بوسعي كي أبقى إلى جانب أبي. كنا متشابكين بعُقَدٍ من الضغينة لا نفهم كنهها.

«لقد مات اثنان من أبنائها في الوباء»، قلت.

«أعرف».

طبعاً يعرف، لأن قريتنا صغيرة، ويعرف أناتول كلّ طفل باسمه.

«يا له من عار»، قلت بطريقة غير مناسبة.

فقال موافقاً: «إي-إي».

«يجب ألّا يموت الأطفال أبداً».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«لا. لكن إذا لم يموتوا أبداً، فلن يكون الأطفال ثمينين جداً».

«أناتول! هل تقول هذا إذا مات أطفالك أنت؟».

«طبعاً لا. لكن هذا صحيح، في جميع الأحوال. وإذا عاش الجميع ليصبحوا عجائز، فلن تصبح الشيخوخة شيئاً ثميناً».

«لكن الجميع يريدون أن يعيشوا عمراً طويلاً، وهذا أمرٌ عادل فحسب».

«عادلٌ أن يريدوا ذلك. إي-إي، ولكن ليس عادلاً أن يحصلوا عليها. فكّري كيف سيكون الوضع لو ظلَّ جميع أجدادنا يتجوّلون بيننا. عندئذٍ ستعجّ القرية بالعجائز الذين يتجادلون حول من يوجد لديه أكثر الأبناء جحوداً، ويتحدّثون عن ألم العظام الذي ينتابهم، ويأكلون الطعام دائماً قبل أن يأتي الأطفال إلى المائدة».

قلت: «يبدو ذلك مثل التجمّعات الاجتماعية للكنيسة في جورجيا».

ضحك أناتول.

صاحت ماما موانزا ثانية وصفّقت بيديها، فخرج أحد أبنائها من البيت مكرهاً، يجرّ باطن قدميه المسطّحتين الورديتين. ثمّ ضحكتُ أيضاً لأن الناس، صغاراً وكباراً، يشبهون بعضهم بعضاً -كثيراً أو قليلاً- في كل مكان. أطلقت زفيراً، لأنني لم أعد أشعر بأنني مثل تلميذة في صفّ أناتول وهو يوبّخني.

«أترين يا بينيه؟ هذه هي الكونغو. إنها ليست مجرّد معادن وصخور تلمع من دون قلوب، هذه الأشياء التي يتاجرون بها من خلف ظهورنا. الكونغو هي نحن».

«أعرف».

«من يمتلكها؟ ماذا تعتقدين؟!».

لم أجازف في أن أخمّن.

«يؤسفني أن أقول إن الرجال الذين يعقدون اتفاقياتهم في كاتانغا قد اعتادوا أن يحصلوا على ما يريدون».

سحبتُ حافة المشط ببطء إلى منتصف رأس روث ماي، وفرَقتَه قليلاً. سمعت أبي يقول إن المساعدات الأميركية ستصلح أحوال الناس الذين يعيشون في أحياء الصفيح الفقيرة خارج ليوبولدڤيل بعد الاستقلال. ربما كنت غبية لأنني صدّقته. لأنه توجد أحياء فقيرة أيضاً في جورجيا، على أطراف أتلانتا، حيث ينقسم السود والبيض، وهذه صفعة على وجه أميركا.

«هل تستطيعون فعل ما فعلوه هناك؟ إعلان دولتكم المستقلة؟»، سألته.

«يقول رئيس الوزراء لومومبا لا، بالتأكيد لا. فقد طلب من الأمم المتّحدة أن ترسل جيشاً لاستعادة وحدة البلاد».

«هل ستنشب حرب؟».

«أظن أن حرباً من نوعٍ ما تجري الآن. فالبلجيكيون والجنود المرتزقة يعملون لصالح مويز تشومبي، ولا أظن أنهم سيغادرون البلاد من دون قتال. وكاتانغا ليست المكان الوحيد الذي يرمون فيه الحجارة. هناك حربٌ أخرى في كل من ماتادي وتايسڤيل وبويندي وليوبولدڤيل. والشعب غاضب جداً من الأوروبيين، حتى إنهم بدؤوا يهاجمون النساء والأطفال الصغار».

«لماذا هم غاضبون جداً من البيض؟».

تنهّد أناتول، وقال: «هذه مدن كبيرة. عندما يلتقي الثعبان والدجاجة معاً، فلن تجدي إلا المشكلات. لقد رأى الناس أشياء كثيرة من الأوروبيين، وظنّوا أن الحياة ستصبح عادلة بعد الاستقلال مباشرة».

«ألا يمكنهم أن يصبروا؟».

«هل يمكنك أن تصبري؟ إذا كانت بطنك فارغة ورأيت سلالاً مليئة بالخبز على الجانب الآخر من النافذة، هل ستنتظرين بصبر يا بينيه؟ أم ستلقين حجراً؟!».

فكّرت في أن أقول لأناتول إن بطني خاوية فعلاً.

«لا أعرف»، اعترفتُ.

تذكّرت بيت أندرداون في ليوبولدڤيل بسجاجيده الفارسية وطقم الشاي الفضّي وكعك الشوكولاتة، ذلك البيت الذي تحيط به أميال من أحياء الصفيح والجوع. قد يكون هناك أطفال يسيرون حفاة الآن في ذلك البيت، ينهبون خزانة المؤن شبه الفارغة ويضرمون النار في ستائر المطبخ الذي ما زالت تفوح منه رائحة الصابون المطهّر الذي كانت تستخدمه السيّدة أندرداون. لا أعرف من هو المصيب ومن هو المخطئ. فهمت قصد أناتول عن اقتراب الثعابين والدجاج كثيراً في مكان كهذا: يمكنك أن تقتفي آثار حراشف بطن الحقد ويتعالى صوت الصراخ. نظرت بشيء من التوتّر إلى بيتنا الذي لا توجد فيه سجاجيد أو طقم شاي، لكن ماذا يهم؟ هل سيحمينا المسيح؟ وعندما ينظر إلى داخل قلوبنا ليزن أفعالنا، هل سيجد حبّاً لجيراننا الكونغوليين، أم ازدراءً؟

«حسناً، الحفاظ على السلام يقع على عاتق الأمم المتّحدة» -قلت له- «لكن متى سيأتون؟».

«هذا ما يريد الجميع معرفته. فقد هدّد رئيس الوزراء بأنه إذا لم تأتِ الأمم المتحدة، فإنه سيطلب المساعدة من السيّد خروتشوف».

«خروتشوف!» -قلت محاولةً إخفاء صدمتي- «الشيوعيون سيساعدون الكونغو؟!».

«نعم، أظن أنهم سيفعلون ذلك». نظر إليّ أناتول نظرة غريبة، وأضاف: «بينيه، هل تعرفين من هم الشيوعيون؟».

«أعرف أنهم أناس لا يخافون الله، ويعتقدون أن جميع الناس يجب أن يمتلكوا نوع البيت...»، ولم أستطع أن أكمل جملتي.

«يمتلكوا نوع البيت نفسه، تقريباً» -أنهى أناتول الجملة لي- «صحيح».

«حسناً، أريد أن تأتي الأمم المتّحدة على الفور، كي تصلح الأمور ويصبح كلّ شيء على ما يرام، في هذه الدقيقة!».

فضحك أناتول، وقال: «أظن أنك فتاة غير صبورة، توّاقة لتكبر وتصبح امرأة نافدة الصبر».

احمرّ وجهي خجلاً.

«لا تقلقي بشأن السيّد خروتشوف. فعندما يقول لومومبا إنه قد يحصل على مساعدة من روسيا، إنها، ماذا تسمّين ذلك؟ *Il trompe son monde*، كالدجاجة التي تنفش ريشها كثيراً لتُري الأفعى أنها أكبر من أن تُلتهَم».

«خدعة» -قلت مبتهجة- «لومومبا يخدع».

«خدعة، تماماً. أظن أن لومومبا يريد أن يكون محايداً، أكثر من أيّ شيء آخر. أكثر مما يحبّ حياته. إنه لا يريد أن يبدّد ثروتنا، لكنّه -على وجه الخصوص- لا يريد أن تكون بلدكم عدواً لنا».

«أمامه مهمة صعبة»، قلت.

«لا أستطيع أن أفكّر بأي شخص في العالم كله يواجه حالياً مهمة أصعب من هذه».

«إن السيّد أكسلروت لا يقدّره كثيراً» -اعترفت- «وهو يقول إن باتريس لومومبا ما هو إلا مشكلة ترتدي بدلةً مستعارة».

انحنى أناتول واقترب من أذني وهمس: «هل تريدين أن تعرفي سرّاً؟ أظن أن السيّد أكسلروت ما هو إلا مشكلة ترتدي قبّعة نتنة».

أوه، ضحكت لسماع ذلك.

وقفنا قليلاً نراقب ماما موانزا وهي تجادل بلطف ابنها الكسول، ثم تضربه عدة ضربات بملعقة الطبخ الكبيرة، فقفز إلى الخلف، وراح يصرخ صرخات مبالغاً فيها، ثم راحت أختاه توبّخانه أيضاً وهما تضحكان. أدركت

أنه يوجد لدى ماما موانزا وجه جميل جداً، وعينان واسعتان، وفم مهيب، وجبهة مستديرة عالية تحت منديلها. وحتى بعد أن تعرّضت للحادث الفظيع وفقدت طفليها الصغيرين، لم يتزوّج زوجها امرأة أخرى. لقد شهدت أسرتهم مصاعب كثيرة، ومع ذلك فهم يضحكون، بسهولةٍ، أحدُهم مع الآخر. حسدتهم بقوّة قريبة من المحبة، قريبة من الغضب.

قلت لأناتول: «هل تعرف أنني رأيت باتريس لومومبا؟ تمكّنت أنا وأبي من مشاهدته في ليوبولدڤيل عندما كان يلقي خطابه الافتتاحي».

«حقاً؟!» -بدا أناتول منبهراً- «إذاً، يمكنك أن تقرّري بنفسك. ما رأيك برئيس وزرائنا؟».

استغرق الأمر فترة صمت لأكتشف حقيقة رأيي، ثم قلت أخيراً: «لم أفهم كلّ ما قاله، لكنّه جعلني أريد أن أؤمن بكلّ كلمة قالها، حتى الكلمات التي لم أكن متأكّدة منها».

«إذاً، فهمتِ بما فيه الكفاية!».

«أناتول، هل كاتانغا قريبة من هنا؟».

فوضع إصبعه على خدّي، وقال: «بينيه، لا تقلقي، لن يصيبك أحد بسوء. اذهبي الآن واطبخي أرنبك. سأعود عندما أشمّ رائحة حساء أومڤوندلا من مكتبي في المدرسة. سالا مبوته».

«ويندا مبوته»، أمسكت ساعدي وصافحت يده.

قلت له من وراء ظهره عندما بدأ يسير مبتعداً: «شكراً يا أناتول!». لم أكن أشكره على الأرنب فحسب، وإنما لأنه أخبرني أشياء أيضاً، وللطريقة التي قال بها: «لست أنت، يا بينيه» و«إذاً، فهمتِ بما فيه الكفاية».

استدار ورجع إلى الخلف بضع خطوات قافزة، وقال: «لا تنسي أن تخبري والدك: لقد انفصلت كاتانغا».

«من المستحيل أن أنسى!».

عدت إلى ضفائر روث ماي، لكني كنت أفكّر بكتفَي أناتول العريضين وخصره الضيّق، ومثلّث القميص الأبيض وهو يسير مبتعداً عنّا في الدرب المترب عائداً إلى القرية. كنت أتمنّى أن يرى أولئك -الذين يقرؤون في بلدي قصصاً في المجلّات عن آكلي لحوم البشر الذين يرقصون حول ضحيتهم- الأشياءَ العادية هنا، مثل قميص أناتول الأبيض النظيف وعينيه اللطيفتين، أو ماما موانزا وأطفالها. وإذا كانت كلمة «الكونغو» تجعل الناس يفكّرون بذلك الرجل آكل لحوم البشر ذي الشفتين الكبيرتين في أفلام الرسوم المتحرّكة، فهم مخطئون في كلّ شيء هنا، من الأعلى حتى الأسفل. لكن كيف يمكنك أن تصحّح آراءهم؟ فمنذ أن وصلنا إلى هنا، ظلّت أمي تلحّ علينا أن نكتب رسائل إلى زميلاتنا في المدرسة الثانوية في بيت لحم، لكن لم تكتب إحدانا أي رسالة حتى الآن. فما زلنا نتساءل من أين نبدأ؟ «استيقظتُ هذا الصباح...» بدأت أكتب، لكن لا، «هذا الصباح سحبت الناموسية المثبتة بإحكام حول أسرّتنا لأن البعوض هنا ينقل الملاريا، وهو مرض يجري في دمك ويكاد يكون جميع السكّان هنا مصابين به، لكنّهم لا يذهبون إلى الطبيب لأن هناك أشياء أسوأ منه مثل مرض النوم أو كاكاكاكا، أو أن يرميهم أحد بالسحر كيبازو. وفي جميع الأحوال، لا يوجد طبيب هنا ولا توجد نقود لدفعها، لذلك، يتمنّى الناس هنا أن يكونوا محظوظين وأن يتقدّموا في السن وهم في صحة جيّدة لأنهم سيُقدَّرون آنذاك. وفي هذه الأثناء سيواصلون أعمالهم لأنه يوجد عندهم أطفال يحبّونهم وأغانٍ يغنونها وهم يعملون، و...»، ولا تكاد تصل إلى طعام الفطور حتى يكون الورق قد نفد منك، لأنه يتعيّن عليك أن تشرح معاني الكلمات، ثم الكلمات التي تشرح تلك الكلمات.

ظلّت روث ماي ساكنة وأنا أستكشف أفكاري حتى أنهيت العمل بضفائرها. كنت أعرف أنه يجب أن أحمّمها وأغسل شعرها قبل أن أمشّطه

كله، لكن فكرة سحب الحوض الكبير من داخل البيت وتسخين عشرة أباريق ماء -لكيلا تبرد- كان أكثر من عمل يوم، ويجب أن أفكّر الآن بالحصول على فاصولياء مانغوانسي وسلخ الأرنب. لا بدّ أن هذه هي نهاية الطفولة، عندما تنظر إلى شيء مثل أرنب عليّ أن أذبحه وأسلخه وتقول: «لا أحد غيرك سيفعل ذلك». لهذا السبب، لن أحمّم روث ماي اليوم. ورحت أدفعها في الأرجوحة كما وعدتها، وركلَت هي بقدميها قليلاً. أرجو أن يكون ذلك قد أسعدها، لا أعرف. لقد أثارت كلمات أناتول أشياء في داخلي. صحيحٌ أن المرض والموت يجعلان الأطفال أغلى. وتذكّرت أنني اعتدت على تهديد حياة روث ماي بلا مبالاة لأجعلها تتصرّف جيّداً. واعتراني شعور الآن باحتمالية أن نفقدها فعلاً، فأحسست أن قلبي بقعة طرية تالفة في صدري، مثل كَدَمة في حبة خوخ.

طارت إلى الأمام وإلى الخلف، ورحت أراقب ظلّها في الغبار الأبيض تحت الأرجوحة. وكانت كلّما وصلت إلى قمة قوسها تحت الشمس، تحوّل ظلّ ساقيها إلى ساقين نحيفتين مقوّستين مثل سيقان ظبي، بحوافر مستديرة صغيرة في الأسفل بدلاً من القدمين. صُعقت وارتعبت من الصورة التي تخيّلتها بأن لأختي قوائم ظبي. كنت أعرف أنه مجرّد ظلّ وزاوية الشمس فحسب، لكن، ومع ذلك، يبقى الأمر مخيفاً عندما ترى الأشياء التي تحبّها وقد اختلفت فجأة عما عرفته دائماً.

روث ماي

كلّ تلك الوجوه السود في الليل الأسود تنظر إليّ. تريدني أن آتي لألعب معها. لكنّك لا تستطيع أن تنطق الكلمات بصوت مسموع في الليل. ماما، هل يمكنني أن؟ لا، لا يمكنك! ماما تقول لا. ماما تتنفّس هنا. عندما

كنّا كلتانا نائمتين، كنت أسمعها تتكلّم وهذا ما تقوله: لا، لا، لا، لا. لكن السحالي تجري وتهرب فوق الجدران مع بقيّة كلماتها، ولا أعود أستطيع أن أسمعها.

كنت أستيقظ أحياناً، و: لا أحد. عندما رأيت أشعة الشمس في الخارج عرفت أننا في وضح النهار، لكن الجميع ذهبوا وأنا أتفصّد عرقاً ولا أستطيع أن أتحدّث عن ذلك. في أوقات أخرى، يخيّم الظلام، وأسمع أمي وأبي يبوحان بأسرار. أمي تتوسّل لأبي. تقول له إنهم يطاردون الفتيات البيض في ستانليڤيل، ويقتحمون بيوتهن ويأخذون كلّ ما يريدون: الطعام وبطاريات المذياع وكلّ شيء. وقد جعلوا المبشّرين يصعدون إلى السطح ويقفون هناك عراة لا يسترهم شيء، ثم أطلقوا النار على اثنين منهم وقتلوهما. الجميع يتحدّثون عن ذلك، وقد سمعت أمي تقول إن ذلك يجري في ستانليڤيل حيث عالج الطبيب ذراعي. هل أُرغِم على الصعود إلى سطح المستشفى من دون ثياب؟ لا أستطيع أن أتوقّف عن التفكير بالطبيب وهو عارٍ. هربت السحالي فوق الحيطان وأخذت معها كلّ الكلمات التي أريد أن أقولها. لكن أبي يقول ما يقوله الإنجيل: «طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض». ووضع يده على أمي فدفعتها جانباً. «لتكون عيناك مفتوحتين على هذا البيت نهاراً وليلاً على الموضع الذي قلت إنك تضع اسمك فيه، لتسمع الصلاة التي يصليها عبدك في هذا الموضع»(*).

نهارٌ وليل ونهارٌ وليل. على أي حال، ينظر يسوع من النوافذ. يمكنه أن يرى من خلال السقف. يستطيع أن يرى داخل رؤوسنا عندما نفكّر بأشياء سيّئة. حاولت أن أتوقف عن التفكير بالطبيب وهو عارٍ وجميع الرجال على السطح، لكن لديه ذاك الشعر الأصفر الذي يكسو ذراعيه.

صرخت راشيل وألقت بشعرها الأبيض على كتفها، وردّت على أبي

(*) سِفر أخبار الأيام الثاني 6:20. [م].

بوقاحة: «من يبالي، من يبالي، من يبالي؟! من حتى سيعرف الفرق إن خرجنا من هنا وعدنا إلى بلدنا وبيتنا حيث سنجد الأمان؟!»، فصاح بها أبي: «الله سيعرف الفرق»، وسقطت راشيل بقوة على الأرض قبل حتى أن أسمع صوت يده وارتطامها بالحائط. «إن الله يحتقر الجبان الذي يهرب بينما يقف الآخرون ويعانون».

أين سنكون آمنين؟ عندما رفعت أمي عينيها كانتا باردتين جداً حتى إنه لم تكن هناك أمّ في البيت، وقالت: «ناثان برايس، الوداع سيرثون. انتظر وسترى بنفسك!».

أعرف أن الوداع سيرثون، وأن الذين يأتون في الأخير سيكونون في الأول، لكن قبائل حام كانت الأخيرة. الآن هل ستأتي أولاً؟ لا أعرف.

في أسرتنا، ماما تأتي أخيراً، وإدا قبل الأخير لأن جانبها بالكامل ليس سليماً. إن ماما آخر الجميع لأنها مصابة بشيء أسوأ حتى من إصابة إدا.

علّمني نِلسون كيف أجد مكاناً آمناً. ففي إحدى المرات استيقظت ورأيته هناك: نِلسون.

أوه، هل هو غاضب لأنني حاولت أن أراه عارياً؟ لا أعرف. لم يستطع فمي أن يفوه بأيّ كلمة. لكنّه ها هو ذا يقف بجانب السرير، ولم تكن أمي بجانبي. وضع يده على فمي، وانحنى فوقي ولم يكن هناك أحد آخر في الغرفة. لا أحد. «ششش»، قال ووضع يده على فمي. ظننت أنه سيؤذيني، لكنه كان صديقي. «ششش»، قال وأبعد يده عن فمي وأعطاني هدية. «آبو، باندو. خذي هذه!».

باندو هو اسمي. نومو باندو. وهي تعني أصغر واحدٍ من الأسفل. وهي تعني سبب كلّ شيء. نِلسون قال لي ذلك.

ما هذا؟ سألته، لكن لم تخرج من فمي أيّ كلمة. نظرت إلى داخل يدي حيث وضعها، ورأيت علبة صغيرة جداً كالتي يوضع فيها ثقاب. علبة ثقاب.

مرسوم عليها من الخارج صورة أسد فظننت أن فيها أسداً صغيراً جداً يمكن أن يكون حيواني الأليف، ألطف من تلك الأشياء الشريرة التي تأكل النمل. أسد ستيوارت. لكن لا. فتحها نِلسون وأخرج شيئاً، لم أعرف ما هو. كان يبدو أشبه بعظمة دجاجة مكسوّة بغضروف ولها خيط وشيء أسود دبق. ما هو؟ شيء ميّت؟ خفت وكنت على وشك أن أبكي.

فقال نِلسون لا تخافي، وقال إنها كانت في النار السحرية. يُدعى ذلك نكيسي، وطلب مني أن ألمسها. عندما لمستها لم تحرقني.

«انظري»، قال ورفعها أمام عيني. كان في طرفها فتحة صغيرة جداً عليها وتد صغير مربوط بخيط. قال: ضعي روحك في داخلها، هنا بسرعة، انفخي في هذه الفتحة. فتح الوتد ونفخت في الفتحة الصغيرة، ولفظ بسرعة اسمي نومو باندو نومو باندو نومو باندو! وسدَّ الفتحة بالوتد الصغير، ثم قال: «أنت الآن في أمان»، وقال إنه إذا حدث لي أيّ مكروه، أو كنت على وشك الموت أو أي شيء من هذا القبيل، امسكيها بقوة و بامبو لا! ستختفي روث ماي عن الأنظار.

كيف عرفت؟ لكن نِلسون يعرف كلّ شيء عن الأموات. أمّه وأبوه وإخوته وأخته الرضيعة غرقوا جميعاً في قعر النهر.

لا أريد أن أختفي، قلت.

لكنّه قال، فقط إذا كنتِ ستموتين. قال بهذه الطريقة لن أموت، وإنما سأختفي للحظة ثم سأخرج في مكان آخر، مكان آمن. وبدلاً من أن أموت سأكون في مأمن. لكن يجب أن أفكّر أولاً بذلك المكان كلّ يوم، حتى تعرف روحي إلى أين ستهرب، عندما يحين الوقت. يجب أن تفكّري بمكانك الآمن كلّ يوم. كان وجه نِلسون أكبر من الشمعة التي أمامي، وكان باستطاعتي أن أسمع الرائحة الطيّبة التي تفوح منه، رائحة الصابون الذي يستحمّ به ويغسل ثيابه به. كانت كلّ تلك الروائح صاخبة في أذني. نِلسون

صديقي الذي علّمني كيف أغنّي للدجاج. بيدوموكا هو الاسم السحري للدجاجة. لا أحد آخر يعرف هذا، ولا حتى ليا ولا أبي.

قال نِلسون: «لا تنسي!».

وضعت علبة الثقاب التي عليها صورة الأسد والتي توجد بداخلها العظام السحرية المحروقة، تحت وسادتي. نكيسي. أحياناً أستيقظ وهي لا تزال موجودة هناك. إذا جاؤوا وحاولوا إرغامي على الصعود إلى السطح وأنا عارية، فإني سأختفي وأخرج في مكان آخر. لكن عليّ أن أفكّر أولاً إلى أين سأذهب. يمكنني أن أحسّ بالعلبة في يدي. وسادتي مبللة والعلبة الصغيرة طرية لكنّي أعرف ما الذي يوجد بداخلها. السرّ. هناك النافذة، ونحن في النهار الآن والأشخاص في الغرفة الأخرى يتحدّثون وهم لا يعرفون! لديّ سرّ. لكن نِلسون ذهب إلى مكان ما وماتت أمّه. أتساءل أين ولا أستطيع أن أتذكّر الأغنية التي غنّيناها للدجاج.

ليا

قبع مرض روث ماي معها، لكن أمي بدأت تتمالك نفسها. أعادتني رؤيتهما وهما مكوّرتان على السرير نفسه -واحدة تتماثل للشفاء ببطء، والأخرى تتقهقر بسرعة- إلى أفكار معتادة، غير سارّة عني وعن إدا عندما كنا في رحم أمّي. وصلّيت ألف مرة لله ليخبرني ما إن كنت أنا من فعلت ذلك لإدا، وأنني إذا عاملتها بلطف أكثر الآن، فهل سيغفر لي لأنني جعلتها معاقة؟ لكن يبدو أن سداد دين بهذا الحجم أمرٌ مستحيل. إن مجرّد التفكير به أمرٌ مفزع.

لقد استنزفت أمي كلّ احتياطياتها ولم تسرق الحياة من روث ماي أو من أي شخص آخر. بدا أنها تستمد قوّتها من الهواء الرطب الحار. كنت أراها

أحياناً تجلس لفترة من الوقت على حافة السرير قبل أن تنهض، تأخذ نفساً عميقاً من بين شفتيها المزمومتين الرقيقتين. مرّت أمي بمراحل جيّدة وسيئة، لكنها توقّفت في النهاية عن السير في نومها مرةً واحدة وإلى الأبد. حدث ذلك فجأة ذات يوم، بعد أن أحرقت راشيل العجّة بالبيض. أحرقت اثنتين، على التوالي، على وجه الدقة - فقد كانت النار التي أشعلتها في الموقد عالية جداً. والطريقة الوحيدة للحصول على حرارة هادئة من أجل خَبْز الخبز أو طهي شيء طري كالعجة هي أن تشعلي ناراً كبيرة بخشب جاف متين، ثم الطهي عندما يبدأ الفحم يخفت ببطء. لكن راشيل لم تتعلّم ذلك قط، بل تشعل النار وتبدأ الطهي على الفور، ولن يؤدي ذلك إلى نتيجة جيّدة. فلا تستطيعين أن تُبقي ناراً أشعلتها من جديد واطئة، بل ستزداد اشتعالاً أو أنها ستنطفئ. نِلسون علّمني كلّ هذا.

لكن نِلسون ذهب ليجلب الماء قبل أن يخيّم الظلام، لذا كانت راشيل تحاول أن تطبخ وحدها. كان دورها في إعداد العشاء، ولم تحضّر شيئاً مسبقاً. يمكنني أن أسمعها الآن تصرخ وتقول أشياء دنيئة في بيت المطبخ. خرجت لأتحرّى الأمر وأقول لها إننا جعنا.

«سأجوّعكم!» -صرخت- «ألا تستطيعين أن تري أنه توجد لديّ يدان اثنتان فقط؟!».

أستطيع أن أرى ذلك. فقد كانت تستخدم كلتا يديها لتحرّك في المقلاة المحروقة بملعقة خشبية من صنع نِلسون. كان شعرها قد أفلت من عقدته الفرنسية والتصق بوجهها كلّه، وتلطّخت بلوزتها الجيّدة برماد أسود. كانت تبدو في صورة مناقضة لصورة سندريلا التي خرجت من الحفلة الراقصة في حياتها لتمضي يوماً تعيساً في الرماد.

«لقد أشعلتِ ناراً متوهجة الحرارة»، قلت لها.

«اذهبي إلى الجحيم، ليا، اذهبي مباشرة، إلى الجحيم مباشرة!».

«أحاول أن أساعدك فحسب. انظري كيف أصبح المعدن أحمر متوهّجاً وحاراً جداً في الأعلى! عندما تصبح النار هكذا، يجب أن تنتظري وتدعيه يبرد، ثمّ يمكنك المحاولة مرة أخرى».

أطلقت راشيل نفساً قوياً وقالت: «أوه، ما الذي يمكنني فعله من دون شقيقتي الطفلة المجزة التي تخبرني ما يجب أن أفعل!».

«الطفلة المعجزة»، صحّحت لها.

«اسكتي، اللعنة! أرجو أن تخرسي إلى الأبد مثل أختك التوءم الصماء البكماء العبقرية الملعونة».

ثم استدارت ورمتني بالملعقة الخشبية، لكنها مرّت من جانب رأسي، وارتطمت بالباب الخلفي للبيت وأصدرت صوتاً صاخباً. صُدمت، لا من اللغة التي كانت تستخدمها وإنما من قوّة تلك الضربة. كان من عادة راشيل أن ترمي أشياء لكنها لم تكن بهذا العنف.

«أوه، ملحوظة يا ليا، لا يوجد عندنا مزيد من البيض» -أضافت بارتياح- «لمعلوماتك!».

«حسناً، يجب أن نأكل شيئاً. أظن أننا سنأكل البيض المحروق».

«أنا متأكّدة من ذلك. لكني أفضّل أن أموت على أن أقدّم شيئاً كهذا لأبي» -وحدّقت في المقلاة وهزّتها بعنف- «مغامرة إعداد العشاء الجيّد هذه تشبه زيارة جهنّم والعودة منها».

رفعت راشيل عينيها إليّ ولطمت فمها بيدها اليسرى. التفتُّ. كانت أمي تقف ورائي عند مدخل الباب، وبيدها الملعقة الخشبية.

«راشيل» -قالت أمّي- «أظن أن هذه وقعت منك».

تسمّرنا في وقفتنا أمام هيكل الموقد المتوهّج. أخذت راشيل الملعقة الخشبية من يد أمي من دون أن تنبس بكلمة.

«راشيل، سكّرتي، دعيني أقُل لك شيئاً. أفهم أنك بائسة. لكني أخشى أن تكون هذه هي كفّارتك لستّ عشرة سنة من التأفّف من طبخي. أريد أن أراك تحضّرين كلّ هذه الفوضى وتقدّميها لأبيك ولنا جميعاً، وبضمنهم أنت. وأريد أن أراك تنظّفين صحنك من دون أن تنبسي بكلمة واحدة. سأبدأ غداً تعليمك كيف تطبخين».

لقد أوفت أمي بوعدها. فقد نهضت وغيّرت ثيابها بعد شهر من استلقائها في السرير. لسبب واحد، كانت تميل الآن إلى قول كلّ ما يدور في ذهنها أمام الله وأمام الجميع، بل حتى أمام أبي الذي لم تكن توجّه إليه كلامها مباشرة، وإنما كانت تكلّمه كأنها تكلّم الله مباشرة، أو الهواء أو السحالي الواقفة في منتصف الطريق إلى أعلى الجدران. وإن وجب على أبي سماعها مصادفة، فهذا كان كل ما يحصل عليه.

أعلنت أنها ستُخرجنا من هذا المكان بمجرّد أن تجد طريقةً لذلك. حتى إنها سألت إيبين أكسلروت سراً ما إن كان بوسعه أن يأخذنا بطائرته، فقال ليس الآن، لأنهم يطلقون النار على أي طائرة تحلق فوق ليوبولدڤيل وأنه لا يريد أن يُسقطوا طائرته وعلى متنها سيّدات بيض، وقال إنه لا يريد أن يظهر ذلك في عناوين الصحف الرئيسية. لكنه عاد في يوم آخر وقد ارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الماكرة، وقال لأمي إنّ لكلّ شخص سعراً. وفهمتُ من نظرات أمي أنها مستعدة لأن تدفع له.

صُدمت وذُعرت عندما رأيتها تضرب سلطة أبي بعرض الحائط، لكن صدقاً، اعتراني شعور مماثل في داخل قلبي. ولأول مرة في حياتي بدأت أشكّ في حكمة أبي الذي أبقانا هنا، بينما قال الجميع -بدءاً من نِلسون وحتى ملك بلجيكا- إنه يجب على المبشّرين البيض أن يعودوا إلى بلادهم. لذلك فإن قرار بقائنا هنا الآن، وكلّ يوم، هو قرار أبي وحده، على الرغم من أنه لم يعد يرعانا ويعيلنا، وإنما ازداد تهجّمه علينا وتوبيخه لنا. ولم يستطع

أن يحمي ماما وروث ماي من الإصابة بالمرض. إذا كان تقرير مصيرنا بيده، أليست حمايتنا يجب أن تكون من مسؤوليته أيضاً؟

كنت أريد أن أثق به. فما زالت أمامنا أعمال كثيرة لنشر كلمة الربّ هنا، هذا أمر واضح تماماً. «وأي وقتٍ لعمل ذلك» -قال لي أبي عندما كنّا عائدين بالطائرة من ليوبولدڤيل- «أفضل من أجواء الاستقلال البهيجة هذه، عندما يصبح جميع الكونغوليين أحراراً ليتعلّموا منّا ويختاروا بأنفسهم؟»، ويظن أبي أنهم سيختارون حبّ الله اللامتناهي، ونحن، بالطبع، بما أننا مبعوثو الربّ إلى كيلانغا، وقال: «إننا شجعان وورعون. الشجاعة والورع شيئان لا يمكن أن يذهبا سدى من دون مكافأة في نظر الله». لم يكن أبي يشكّ في ذلك، وأستطيع رؤية أن هذا صحيح بالنسبة له، فقد عاش أيامه كلّها ملتزماً بتعاليم المسيح، كان يقف شامخاً ويبدأ وعظه في معسكرات إحياء الدين المسيحي، عندما لم يكن أكبر مني بكثيرٍ وأنا في عمري هذا، وكان الناس يتدفّقون ويتوجّهون إليه باستمرار لسماع كلمته وحكمته. كان شجاعاً في الحرب، أنا متيقّنة من ذلك، لأنه نال وسام «القلب الأرجواني». ويرى أبي أن مملكة الربّ مكان غير معقّد، حيث يواصل فتيان وسيمون، طوال القامة، الكفاحَ وينتصرون دائماً. أظن أنها تشبه كيلدير في المسيسيبي حيث نشأ أبي، وقد كان يلعب في فريق المدرسة الثانوية في موقع لاعب هجوم وسط، هذا النوع من المواقع الذي من المناسب فيه أن يخبط أحدهم الآخر بقسوة، في بعض الأحيان، ولكن بروح رياضية، تاركين بعض الكدمات في الأجسام، وذلك في سبيل نتيجة المباراة النهائية.

لكن أين هو موقع الفتيات في هذه المملكة؟ فالقواعد لا تنطبق علينا تماماً، ولا تحمينا أيضاً. فما الفائدة من شجاعة فتاة وتديّنها، إن لم تكن جميلة أيضاً؟ حاولي فحسب أن تكوني أذكى فتاة والأكثر مسيحية في الصفّ السابع في مدرسة بيت لحم بجورجيا. عندئذٍ سيبتسم لك زملاؤك

في الصفّ تلك الابتسامة المتكلّفة ويسمّونك «المربّع»، لا بل سيطلقون عليك اسماً أسوأ من هذا، لو كنتِ إدا.

طوال حياتي حاولت أن أتتبّع خطاه، معتقدة أنني إذا بقيت قريبة جداً منه، فإن هذه القوانين البسيطة النظيفة ذاتها ستحكم حياتي أنا أيضاً، وأن الله سيرى طيبتي وسيغمرني بنوره، لكني بدأت أجد أنني، يوماً بعد يوم، أبتعد عنه أكثر. ثمة حرب مقدّسة عظيمة تدور في رأس أبي، وهو يقول إن علينا أن ننحني ونجري ونطيع الأوامر ونكافح لتحقيق كلّ الأشياء الصحيحة، لكنّي لا أستطيع أن أنفّذ هذه الأوامر والتعليمات بحذافيرها، أو حتى معرفة الجانب الذي أنا فيه بالضبط. بل إن العالم لا يسمَح لي بأن أحمل سلاحاً حتى، لمجرّد أني فتاة. لم يكن يدرك هذا على الإطلاق!

إذا كان قراره أن نبقى في الكونغو هنا غير صائب، فبأي شيء يمكن أن يكون مخطئاً أيضاً؟ لقد فتح في قلبي عالماً مريباً من الشكوك والاحتمالات، بينما لم يكن يوجد في قلبي سوى الإيمان بأبي وحبّي لله. من دون صخرة اليقين تلك لأقف عليها، تصبح الكونغو مكاناً مرعباً، حيث علينا أن نغرق أو نطفو.

راشيل

عندما كنت في بيت المطبخ أعمل على الموقد المتوهّج، هرع الجميع نحوي. الأطفال الصغار بثيابهم الرثة وأمهاتهم يقفن وراءهم، صائحين: «تاتا بيديبيدي! تاتا بيديبيدي»، وهي تعني السيّد بيرد(*)، كما قالت ليا التي جرت لتنضمّ إليهم. وإذا كان السيّد بيرد -كائناً من كان- سيظهر، فمن المؤكّد أن ليا لن تفوّت عليها هذا المشهد.

(*) Bird تعني طائر أو عصفور، وسيتضح سبب التسمية لاحقاً. [م].

وقالوا إنه أتى من النهر بقارب قديم من نوعٍ ما وهو يُنزل أسرته الآن.

وبما أنني طاهية أسرة برايس الجديدة، لم يكن عندي وقت للتسلية واللعب. وكانت الطريقة الوحيدة التي أستطيع من خلالها اكتشاف ما يجري في كيلانغا في هذه الأيام أن أراه يمرّ من أمام باب بيت مطبخنا.

حسناً، تبيّن أنني لن أنتظر طويلاً، لأنهم جاؤوا ووقفوا أمام عتبة بيتنا. ولم يكن ما ظهر أمام عيوننا المستغربة على الشرفة سوى رجل أبيض، متقدّم في السن، نحيف جداً، يرتدي قميصاً من نسيج الدينيم، قديم جداً لدرجة أنه يمكنك أن ترى جلده من خلاله، ويتدلّى صليبٌ خشبي صغير من رقبته معلّق بسلسلة جلدية، كان يعلّقه كما يعلّق الكونغوليون تعويذاتهم لدرء العين الشرّيرة. كانت له لحية بيضاء وعينان زرقاوان برّاقتان. عموماً كان يوحي لك بأن هذا ما سيبدو عليه «سانتا كلوز» لو اعتنق المسيحية، ولم يتناول وجبة طعام لائقة منذ عيد الميلاد الماضي. عندما خرجتُ إلى الشرفة، رأيته يصافح أمي ويعرّفها على زوجته، امرأة كونغولية فارعة الطول، وأطفالهما المتفاوتين في العمر وفي اللون، المختبئين وراء تنورة السيّدة بيرد الطويلة المتعددة الطبقات والألوان. كانت أمي مرتبكة، وبما أنها لبقة وتجيد استقبال الغرباء واستضافتهم، فقد طلبت منهم أن يدخلوا إلى بيتنا، وطلبت مني أن أجري وأعصر قليلاً من البرتقال. وهكذا عادت راشيل، الخادمة، إلى المطبخ.

عندما عدتُ وأنا أحمل جرّة كبيرة يقطر منها عصير البرتقال، ارتميت على الكرسي لأرتاح، كان مسبقاً قد فاتني كل شيء. فلم أعرف لماذا جاؤوا، ولا حتى من هم، وعلى الرغم من ذلك، كانت أمي تثرثر معهم كما لو كانت تعرفهم منذ زمن طويل. كانوا جالسين على الكراسي في غرفة الجلوس يسألون عن أهالي القرية كما لو كانوا يعرفونهم جيّداً. «ماما موانزا، أوتش، كيف حالها؟ وهل ما زالت ماما لو تصفِّف الشعر وتعصر

زيت النخيل؟ بارك الله قلبها، لا بدّ أنها تبلغ الآن مئة وعشر سنوات ولم تتزوّج! والآن أين هي ماما تاتابا؟ آه، لكن أناتول! يجب أن نذهب ونراه في الحال». وهذا النوع من الحديث. كان القسّ سانتا يبدو رجلاً عجوزاً رقيقاً، ومن طريقة كلامه، كان يبدو في جزء منه أميركياً، وفي جزء آخر أجنبياً، مثل رجال الشرطة الآيرلنديين الودودين في الأفلام القديمة: «أوتش، انتبهي!».

كانت روث ماي التي غادرت السرير منذ بضعة أيام وبدأت تتماثل إلى الشفاء، مفتونةً به جداً، وتجلس بجانبه وقد أسندت رأسها إلى بنطاله المهترئ، فأرخى الرجل العجوز يده على رأس روث وهو ينصت باهتمام شديد لكلّ كلمة تقولها أمّي، يهزّ رأسه بمجاملة وتهذيب شديدين. وكان يبدو أن زوجته تصغره بمئة سنة، جذّابة بطريقتها الخاصة، وكانت في الغالب هادئة. وهي تتكلّم الإنكليزية بشكلٍ مثالي.

سألا كيف تسير الأمور في الكنيسة. كان أبي خارج البيت يتسبب كالعادة في مشكلة في مكانٍ ما، وبصعوبة عرفنا كيف نجيبه عن هذا السؤال. فقالت أمّي: «الأمور صعبة جداً. وناثان محبط جداً. وهو واثق من أن كلمات المسيح ستجلب لحياتهم النعمة والبركة. لكن يبدو أن لدى الناس هنا أولويات تختلف عن أولوياتنا».

«إنهم أناس متديّنون جداً، كما تعرفين» -قال الرجل العجوز- «على الرغم من ذلك».

«ماذا تقصد؟» سألته أمّي.

«في كلّ شيء يفعلونه فإنهم يبقون عينهم على الروح. فعندما يزرعون البطاطا الحلوة والمانيوك، فهم يصلّون. وعندما يحصدون، يصلّون. حتّى عندما تحمل النسوة بأطفالهن، فإني أظن أنهن يصلّين».

ازداد اهتمام أمي كثيراً. لكن ليا شبكت ذراعيها، وسألته: «هل تقصد أنهم يصلّون لآلهتهم الوثنية؟».

فابتسم القسّ سانتا لليا، وقال: «كيف تتخيّلين أن ربنا يفكّر بهذه البقعة الصغيرة من خلقه: الأشجار المزهرة في الغابة، الطيور، الأمطار الغزيرة، حرارة الشمس - هل تعرفين عمَّ أتحدّث؟».

«نعم»، قالت ليا - تلميذة متفوّقة كالعادة.

«وهل تظنّين أن الله مسرور بهذه الأشياء؟».

فسارعت بالقول: «أظن أنه فخورٌ بهم. أظن أنه يجب أن يكون فخوراً بالكونغو أكثر من أي مكان خَلَقه».

«أظن ذلك أيضاً»، وأضاف: «أظن أنه يوجد في حياة شعب الكونغو عالمٌ من النعمة الربّانية، إضافةً إلى جرعة من المعاناة التي يمكنها أن تقتل شخصاً بالكامل. أظن أنهم يعرفون كيف يُحدِثون جلبة مبهجة للربّ منذ زمن بعيد».

أسندت ليا ظهرها إلى كرسيها، ربما تتساءل ما الذي يمكن أن يقوله أبي عندما يسمع هذا الحديث. كأننا لا نعرف. فهو سيقول إنه يُعرف عن الإيرلنديين بأنهم بابويّون كاثوليكيون يعبدون الأصنام الزائفة، وإن ما يقوله هذا الرجل عن الأزهار والطيور الآن يثبت ذلك.

ثم سألها: «هل سمعتِ الأغاني التي يغنّونها هنا في كيلانغا؟ إنها تَعبُّد. إنها طريقة عظيمة لبدء الصلاة في الكنيسة، غناء ترتيلة كونغولية للمطر الذي يهطل على بذور بطاطا اليام. ويسهُل الانتقال منها إلى قصة بذرة الخردل. أجزاء عديدة من الكتاب المقدس تقدّم تفسيراً جيّداً هنا، إذا غيّرتِ بضع كلمات فحسب». ضحك ثم أردف: «والكثير من الفصول الكاملة، طبعاً، عليك أن ترميها بعيداً».

«حسناً، كلّ جزء منها هو كلمة الله، أليس كذلك؟» قالت ليا.

«لقد جلب لنا رومانسيون مثاليون ينتمون إلى ثقافة صحراوية قاسية

كلمةَ الله منذ حقبٍ قديمة، أعقبتهم مجموعة من المترجمين على مدى ألفي سنة».

حدّقت ليا به.

«عزيزتي، هل تظنين أن الله كتب كل هذا بإنكليزية الملك جيمس نفسه؟».

«لا، لا أظن ذلك».

«فكّري بجميع الواجبات التي كانت شديدة الوضوح بالنسبة لبولس أو متّى في تلك الصحراء العربية القديمة التي أصبحت لا معنى لها بالنسبة لنا الآن. خذي مثلاً غسل القدمين. هل فعل ذلك حقاً من أجل مجد الله، أم لكيلا يدخل الرمل إلى البيت؟».

جلست ليا في كرسيها مضيّقة عينيها، غير قادرة لأول مرة في حياتها على إعطاء الإجابة الصحيحة.

«آه، ماذا عن الجمل؟ هل إن دخول جمل عبر ثقب إبرة أسهل من دخول غني إلى مملكة الله؟[*] أم أنها قطعة من الخيوط الخشنة؟ فالكلمات العبرية هي نفسها، لكن أيّاً منها تعني؟ فلو كانت تعني جملاً، فمن الأفضل على الرجل الغني ألّا يحاول. أما إذا كانت تعني خيطاً خشناً فربما ينجح إذا بذل جهداً كبيراً، أترين ذلك؟»، وانحنى إلى الأمام نحو ليا، يداه على ركبتيه، وقال: «أوتش، يجب ألّا أُدخِل الشك في قناعاتك، ووالدك خارج البيت، لكنني سأفضي لك بسرّ. عندما أريد أن أفهم كلمة الله بالضبط فإنني ألقي نظرة خاطفة من النافذة إلى خلقه. لأنه، يا عزيزتي، يقدّم لنا معنى كلماته بشكل طازج كلّ يوم، من دون الحاجة إلى هذا العدد الكبير من المفسّرين والوسطاء المريبين».

(*) إشارة إلى مرقس 10: 25 «مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله». [م].

فقالت ليا من دون أن تلزم نفسها بطريقة أو بأخرى: «تقصد أن تقول إن الزهور والطيور وكلّ هذه الأشياء هي إنجيلك».

«آه، لا بدّ أنك تظنين أنني عجوز وثني مجنون»، ضحك تاتا بيرد العجوز من كل قلبه، وهو يداعب الصليب المتدلّي من رقبته (إشارة تحذيرية أخرى للبابوية الكاثوليكية)، ولم يبدُ أنه نادم.

«لا، إنني أفهم»، قالت أمي التي بدا أنها فهمته جيّداً، وأرادت أن تتبنّاه وتطلب من أسرته المختلطة العرق أن تأتي لتعيش معنا في البيت.

«أرجو أن تسامحيني. فأنا أعيش هنا منذ مدة طويلة جداً، وقد جئت لأحبّ الناس هنا وطرق تفكيرهم».

هذا بدهي -قلت لنفسي- بالنظر إلى زوجتك.

«حسناً، لا بدّ أنكم جائعون» -قالت أمي فجأة، قافزةً من على كرسيها- «ابقوا لتناول العشاء على الأقل. سيعود ناثان قريباً. هل تعيشون حقاً في ذلك القارب الصغير؟».

«نعم. في الواقع إنه قاعدة منزلية جيّدة للقيام بعملنا: قليل من الجمع، وقليل من دراسة الطبيعة، وقليل من التبشير، وقليل من الصحة العامة وتوزيع الكينين. ويعيش أبناؤنا الأكبر سنّاً في ليوبولدڤيل معظم أيام السنة للدراسة، لكنّهم جاؤوا معنا في عطلة صغيرة لزيارة الأقارب».

ونظر إلى زوجته التي ابتسمت، وأوضحت بهدوء: «تاتا فاولز يهتم كثيراً بالطيور. وقد صنّف أنواعاً عديدة في هذه المنطقة لم يكن يعرفها الأوروبيون من قبل».

تاتا فاو-لز؟ أين سمعت هذا الاسم قبل الآن؟ كنت أعصر دماغي، عندما بدأت أمي والسيّدة حديثاً حول بقائهم لتناول العشاء. ويبدو أن أمي نسيت أنه لا يوجد لدينا شيء لائق يمكن أن نقدّمه لهم، ولم تكن تلك العائلة تعرف ما هم مقبلون عليه إذا بقوا لتناول العشاء.

تاتا فاولز، ظللت أقلّب ذلك في رأسي. في هذه الأثناء سحبت إدا كرسيها وقرّبته منه، وفتحت أحد كتب الطيور القديمة المتعفّنة التي وجدتها في هذا البيت والتي كانت تعشق أن تحملها معها أينما ذهبت.

«أوتش» -صاح بسعادة- «لقد نسيت هذه الكتب تماماً. يا له من شيء رائع أنك تستخدمينها! لكن يجب أن تعرفي أنه توجد عندي كتب عديدة أفضل من هذا في القارب».

بدا أن إدا تريد أن تجري إلى القارب وتقرأها بطريقة عكسية في هذه اللحظة. كانت تشير إلى صور مختلفة من طائر القيق الطويل الذيل، وكان الرجل يتدفّق بكمية كبيرة من المعلومات، لدرجة أنه ربما لم يلاحظ بعد أن إدا لا تستطيع أن تتكلّم.

أوه! قلت لنفسي فجأة: الأخ فاولز، إنه الأخ فاولز ذاته! القسّ الذي كان قبلنا في البعثة، والذي طُرد لأنه تعاطف مع السكّان المحليّين أكثر من اللازم. يجب أن أقول ذلك! فهمت الآن. لكن فات الأوان لأن أقول أيّ شيء، بعد أن فاتتني المقدّمات بما أنني أعمل خادمة في هذا البيت. فجلست هناك، بينما راحت إدا تستمع إلى دروس عن الطيور، وتحاول ليا إقناع أطفال فاولز الصغار الخجولين ليدخلوا من الشرفة ويجلسوا على الأرض معها ومع روث ماي لتقرأ لهم قصصاً. ثمّ أظلمت الغرفة فجأة، لأن أبي ظهر عند الباب. تسمّرنا كلّنا في أماكننا، ما عدا الأخ فاولز الذي قفز من على كرسيه ومدَّ يده لأبي شابكاً اليد اليسرى فوق ساعده: المصافحة السرّية عند الكونغوليين.

«الأخ برايس، أخيراً» -قال- «ذكرتك في صلواتي، والآن حظيت بنعمة لقاء أسرتك الرائعة. أنا الأخ فاولز، سلفك في هذه البعثة. وهذه زوجتي، سيلين، وأطفالنا».

لم يمدّ أبي يده لمصافحته، وإنما راح يدقّق النظر في ذلك الصليب

الكاثوليكي الكبير المتدلي من رقبته، وربما كان يفكّر بكلّ ما سمعناه عن الأخ فاولز، عن ضلاله وتصرفاته، إضافةً إلى كلّ كلمة لعنة نطقها الببغاء. صافحه أخيراً، لكن ببرود، على الطريقة الأميركية، وقال له: «ما الذي أعادك إلى هنا؟».

«كنّا نمرّ من هنا! نقوم بمعظم عملنا أسفل النهر بالقرب من كوا، ويعيش والدا زوجتي في غاندا، فرأينا أن نتوقّف قليلاً ونزوركم ونزور أصدقاءنا الآخرين في كيلانغا. وبالطبع، علينا أن نزور تاتا ندو ونعرب له عن احترامنا».

يمكنكم أن تروا جلد أبي الذي اقشعرّ عندما سمع اسم عدوّه اللدود، الزعيم، يُنطق بلكنة يانكي. لكن أبي لعب دور القطّة اللامبالية، ولم يعترف بالإخفاق الذي مُني به حتى الآن في نشر المسيحية.

«إننا على ما يرام، شكراً لك. وما العمل الذي تقوم به الآن؟»، شدّد على «الآن»، كما لو أنه يريد أن يقول، إننا نعرف جيّداً أنك طُردت وأُوقفت عن الوعظ بالإنجيل.

«إني أجد بهجة في عمل الربّ» -قال الأخ فاولز- «كنت أقول لزوجتك للتوّ إنني أعمل قليلاً في التبشير، وأدرس الحيوانات وأصنّفها. ألاحظ الكثير، وربما أقدّم القليل جداً من الخلاص للناس على المدى الطويل».

فقال له أبي: «أمرٌ مؤسف، التخليص من الخطيئة هو الطريق والحق والنور. لأن كلّ من ذكر اسم الربّ سيخلص. وكيف يؤمنون به إلّا إذا سمعوا عنه؟ وكيف يسمعون عنه إذا لم يأتهم واعظ؟ والكتاب يقول "ما أجمل أقدام المبشِّرين بالسلام، المبشِّرين بالخيرات"».

«"المبشِّرين بالخيرات" هذا عمل عظيم بالفعل» -قال الأخ فاولز- «رسالة بولس إلى أهل رومية، الإصحاح العاشر، الآية الخامسة عشرة».

يا إلهي. هذا اليانكي يعرف الكتاب المقدّس. خطا أبي خطوة صغيرة إلى الوراء عندما سمع ذلك.

«من المؤكّد أنني أبذل كلّ ما بوسعي» -قال أبي بسرعة ليغطي على صدمته- «آخذ الكلمات المباركة بجدية، "آمن بالربّ يسوع المسيح فتخلص أنت وأهل بيتك، وكلّماه وجميع من في بيته بكلمة الربّ"».

هزّ الأخ فاولز رأسه ببطء: «قال ذلك بولس وسيلا لسجّانيهما، نعم، بعد أن حررتهما الملائكة بإحداث زلزلةٍ عظيمة. أعمال الرسل، الإصحاح السادس عشر، أليس كذلك؟ لكني أشعر بالحيرة دائماً من الآية التالية: "فأخذهما في تلك الساعة من الليل وغسل أشرطتهما"».

«قد توضّح لك الترجمة الأميركية ذلك، فهي تقول: "وغسلهما من الجراحات"» - بدا أبي مثل تلميذ الصف الذي يعرف كلّ شيء وتريد أن تخنقه فحسب.

«نعم» -أجاب الأخ فاولز ببطء- «ومع ذلك فإني أتساءل: من ترجم هذا؟ ففي السنوات التي أمضيتها في الكونغو سمعت أخطاء كثيرة في الترجمة، حتى إن بعضها أخطاء مضحكة. لذلك، أرجو أن تغفر لي إن كنت متشكّكاً يا أخ برايس. أسأل نفسي أحياناً: ماذا لو كانت تلك الخطوط ليست جروحاً على الإطلاق، وإنما شيء آخر؟ فقد كان حارس سجن، وربما كان يرتدي قميصاً مخطّطاً، مثل القميص الذي يرتديه حكم في مباراة. هل كان بولس وسيلا يغسلان له ثيابه، من باب التواضع؟ أم أن المعنى مجازي أكثر: هل استوعب بولس وسيلا شكوك الرجل؟ هل استمعا إلى مشاعره المختلطة إزاء هذا الدين الجديد الذي ألقيا به في وجهه فجأة؟».

قالت الفتاة الصغيرة الجالسة على الأرض بجانب روث ماي شيئاً بلغتهم، فهمست روث ماي: «لقد تزوّج دونالد داك وسنو وايت».

خطا أبي من فوق الأطفال وسحب كرسياً، وأدارَه جالساً عليه بطريقة معكوسة كما يحبّ أن يجلس دائماً عندما تدور مناقشة حامية عن المسيحية، وعقد ذراعيه فوق مسند الكرسي وابتسم ابتسامته المتكلّفة غير الموافقة

للأخ فاولز، وقال: «يا سيّدي، أقدّم لك مواساتي، فأنا شخصياً لم أواجه أيّ صعوبة في تفسير كلمة الله».

«بالفعل، أرى ذلك» -قال الأخ فاولز- «لكني أؤكّد لك أنها ليست مشكلة بالنسبة لي. قد تكون طريقة رائعة لتمضية فترة بعد الظهر. خذ مثلاً "رسالة بولس إلى أهل رومية"، الإصحاح العاشر. دعنا نعُدْ إليها. الترجمة الأميركية إذا كنت تفضّلها. إذا تابعنا القراءة قليلاً نجد: "وإن كانت الباكورة مقدّسة فكذلك العجين، وإن كان الأصل مقدّساً فكذلك الأغصان، فإن كان قد قُطع بعض الأغصان، وأنت زيتونة برية طُعِّمت فيها، فصرت شريكاً في أصل الزيتونة ودسمها، فلا تفتخر على الأغصان. وإن افتخرت، فأنت لست تحمل الأصل، بل الأصل إياك يحمل"».

جلس أبي يرمش بعينيه، مع كلّ تلك الجذور والنباتات.

أما عينا سانتا العجوز فقد لمعتا. كان يبدو أنه يحظى بوقت رائع. ثم قال: «الأخ برايس، ألا تفكّر أحياناً بذلك، عندما تتقاسم الطعام مع إخوانك الكونغوليين وتُبهج قلبك بأغانيهم؟ ألا تراودك الفكرة بأننا الفرع المُطَعّم هنا، نتقاسم ثراء هذه الجذور الإفريقية؟!».

فأجاب أبي: «انظر إلى الآية الثامنة والعشرين يا سيّدي: "فمن جهة الإنجيل هم أعداء من أجلكم"».

«بالتأكيد، ثم تقول: "وأما من جهة الاختيار فهم أحباء من أجل الآباء"».

«لا تكن أحمق، يا رجل» -صاح أبي- «هذه الآية تشير إلى بني إسرائيل».

«قد يكون ذلك. لكن صورة شجرة الزيتون صورة جميلة، ألا تظن ذلك؟».

حدّق أبي فيه، كما لو كانت توجد شجرة واحدة يرغب أن يقطعها ويجعل منها حطباً.

لكن الأخ فاولز لم يبدُ عليه أي انزعاج، بل قال: «أشعر أنني أحمق حقاً عندما أرى صور الطبيعة الواردة في الكتاب المقدّس يا أخ برايس، وأنا مولع بها. أجدها متاحة ومفيدة هنا، بين هؤلاء الناس الذين يتمتّعون بالذكاء ويتعاطفون مع العالم الحيّ من حولهم. إنهم أناس متواضعون جداً إزاء ديونهم نحو الطبيعة. هل تعرف ترتيلة المطر وبذور البطاطا الحلوة، يا أخ برايس؟».

«تراتيل لآلهتهم الوثنية وأصنامهم الزائفة؟ أخشى أنه لم يتح لي الوقت لأشغل نفسي بهذه الأشياء».

«حسناً، فأنت مشغول جداً. أنا متيقّن من ذلك. لكنها مثيرة للاهتمام أيضاً. تماشياً مع ما كنت تقتبس منه من الرسالة إلى أهل رومية، الإصحاح الثاني عشر. ألا تتذكّر الآية الثالثة؟».

فأجاب أبي كاشفاً عن أسنانه: «فإني أقول بالنعمة المعطاة لي، لكل من هو بينكم: أن لا يرتئي فوق ما ينبغي أن يرتئي...».

«...فإنه كما في جسد واحد لنا أعضاء كثيرة، ولكن ليس جميع الأعضاء لها عمل واحد، هكذا نحن الكثيرين: جسد واحد في المسيح...».

«في المسيح» - صاح أبي، كما لو أنه يقول: «بينغو!».

«وأعضاءٌ بعضاً لبعض، كل واحدٍ للآخر»، تابع الأخ فاولز ليضيف من الكتاب المقدّس: «ولكن لنا مواهب مختلفة بحسب النعمة المعطاة لنا: أنبوَّةٌ فبالنسبة إلى الإيمان، أم خدمة ففي الخدمة، أم المعلّم ففي التعليم، أم الواعظ ففي الوعظ، المعطي فبسخاء، المدبّر فباجتهاد، الراحم فبسرور. المحبة فلتكن بلا رياء. كونوا كارهين الشر، ملتصقين بالخير، وَادِّينَ بعضكم بعضاً بالمحبة الأخوية».

«الإصحاح الثاني عشر. الآية العاشرة. شكراً يا سيّدي».

كان من الواضح أن أبي مستعدّ ليوقف معركة الآيات من الإنجيل.

أراهن بأنه يريد أن يطلب من الأخ فاولز أن ينسخ آيةً عقوبة له، ولكن عندئذٍ سيقف الرجل العجوز ويقولها من الذاكرة مع بضع صور إضافية من الطبيعة تُلقى مجاناً.

تذكّر أبي فجأة أنه يجب أن يتوقّف عن كل ذلك وأن يفعل شيئاً أو آخر بالغ الأهمية. ولاختصار القصة الطويلة: لم يبقوا على العشاء. فقد فهموا أنهم ليس مرحّباً بهم في بيتنا أو ربما في القرية كلّها على الأرجح، في رأي أبي المتواضع. وكانوا من النوع الذي يبدو أنهم يفضّلون أن يجلسوا ويأكلوا أحذيتهم قبل أن يزعجوك بأي شكلٍ من الأشكال. وقالوا لنا إنهم يخطّطون لقضاء فترة بعد الظهر في زيارة عدد من الأصدقاء القدامى، لكن عليهم أن يسافروا في النهر قبل حلول الليل.

كان علينا أن نربط أنفسنا بالكراسي كي لا نلحق بهم. فقد كنّا فضوليين لمعرفة ما الذي سيقولونه لتاتا ندو. يا إلهي! فطوال هذا الوقت كنّا نظن أننا البيض الوحيدون الذين وطئت أقدامهم هذا المكان. وكان جيراننا طوال هذا الوقت على صداقة قوية مع الأخ فاولز، لكنهم لم يقولوا شيئاً عن ذلك قطّ. تظن دائماً أنك تعرف عنهم أكثر مما يعرفون عنك، ويأتي هذا الآن ليثبت لك العكس.

عادوا قبل غروب الشمس ودعونا للقدوم ورؤية قاربهم قبل أن يغادروا، فذهبنا أنا وأمي وأخواتي إلى ضفّة النهر. وأخرج الأخ فاولز كتباً أخرى أراد أن يعطيها لإدا. لم يكن هذا كلّ شيء أيضاً، فقد ظلّت السيّدة فاولز تُخرج هدايا أخرى لتعطيها لأمّي: معلّبات، مسحوق حليب، قهوة، سكّر، حبوب كينين، مزيج من الفواكه، وأشياء أخرى عديدة، حتى بدا كأنهما السيّد والسيّدة سانتا كلوز حقاً، مع أن قاربهما لم يكن أكثر من كوخ عائم صغير له سقفٌ من الصفيح الأخضر اللامع، توجد في داخله كلّ وسائل الراحة: كتب، كراسي، موقد الغاز، وكلّ ما يخطر ببالك. وكان أطفالهم يركضون

ويقفزون فوق الكراسي ويلعبون بالأشياء، من دون أي مؤشّر يدل على أنهم يرون إقامتهم على مسطّحٍ فوق الماء غريباً.

«أوه يا للسماء، أوه يا إلهي، أنتم في غاية اللطف!» -ظلّت أمي تقول، بينما كانت سيلين تُخرج شيئاً وراء الآخر وتضعه في أيدينا- «أوه، أنا عاجزة عن شكرك!».

خطر ببالي أن أترك لهم ملاحظة كما فعلت الفتاة الجاسوسة التي قُبض عليها في الفيلم، أقول فيها: «النجدة! أخرجوني من هنا!». لكن قاربهم الصغير المليء بالأشياء بدا كما لو أنه سيغرق لو نظرت إليه نظرةً خاطئة. ويبدو أن التخلّص من المعلّبات التي يعطوننا إياها قد تساعدهم على أن يظلّ عائماً.

كانت أمي تأخذ كل تلك الأشياء، ثم سألتهما: «كيف تتدبّران أمر الحصول على كلّ هذه الأشياء؟».

«لدينا أصدقاء كُثر» -قالت سيلين- «تزوّدنا البعثة الميثودية(*) بمسحوق الحليب والفيتامينات لنوزّعها على القرى الممتدة على طول النهر. أما معلّبات الطعام وحبوب الكينين فترسلها لنا ABFMS».

«إننا على علاقة جيّدة مع جميع الطوائف» -قال الأخ فاولز ضاحكاً- «حتى إننا نحصل على مبلغ صغير من الجمعية الجغرافية الوطنية».

«ABFMS؟» سألت أمّي.

فقال: «هيئة البعثة الأجنبية المعمدانية الأميركية، يوجد عندهم مستشفى عائم في نهر وامبا، ألم تسمعي به؟ لقد صنع هذا المستشفى الصغير عالماً من الخير، فقد ساهم في علاج دودة غينيا ومحو الأميّة ونشر الطيبة الإنسانية.

(*) الميثودية: طائفة مسيحية بروتستانتية ظهرت في القرن الثامن عشر في المملكة المتحدة على يد جون ويزلي «John Wesley»، ثم انتشرت بعد ذلك في عدد من الدول. [م].

يمكنني أن أقول إنهم يُخجِلون شبح الملك ليوبولد العجوز. إذا كان شيءٌ كهذا أمراً محتملاً. ويديرها أكثر القساوسة تعقّلاً وحكمة يمكن أن تلتقي به يدعى ويزلي غرين وزوجته جين».

ثم استدرك الأخ فاولز قائلاً: «لا أقصد الإساءة إلى زوجك، بالطبع».

«لكننا معمدانيون» -قالت أمي بصوت جريح- «وقد قطعت رابطة البعثات التبشيرية راتبنا قبل الاستقلال مباشرة».

فكّر السيّد فاولز في ذلك قبل أن يقول بلباقة: «بالتأكيد، يا سيّدة برايس، هناك مثل هؤلاء المسيحيين، وهناك مثل أولئك المسيحيين».

«كم تبعد هذه البعثة؟ هل تصل إلى هناك بالقارب؟».

كانت أمي ترمق القارب والمعلّبات، وربما مستقبلنا بأكمله.

لكن الأخ والسيّدة فاولز ضحكا وهزّا رأسيهما كما لو أن أمي سألتهما ما إن كانا يأخذان قاربهما إلى القمر بشكلٍ متكرر ليجلبا الجبن الأخضر.

«لا نستطيع أن نأخذ هذا الدلو القديم إلى مسافة تزيد على خمسين ميلاً في نهر كويلو»، قال موضحاً، وأضاف: «لأنه توجد منحدرات نهرية. لكن الطريق الجيّد من ليوبولدڤيل يعبر وامبا ويصل إلى النهر في كيكويت. في بعض الأحيان يأتي الأخ غرين بمركبه، ويستقلّ شاحنة ويقابلنا في كيكويت. أو أننا نذهب إلى المطار في ماسي مانيمبا لنجلبها. وبنعمة الله، يبدو أننا نحصل دائماً على كلّ ما نحتاج إليه».

«إننا نعتمد كثيراً على أصدقائنا»، أضافت سيلين.

«آه، نعم» -قال زوجها موافقاً- «وهذا يعني إقامة علاقات جيّدة، يجب على المرء أن يفهم لغات الكيتوبا، ولينغالا، والبيمبه، والكونيي، والڤيلي، والندنغي، ولغة الطبول النازفة».

ضحكت سيلين وقالت: «نعم، هذا صحيح».

أما بقيتنا فقد كنا نشعر مثل سمك خارج الماء كالمعتاد. لو كانت روث

ماي بصحةٍ جيّدة، لصعدت إلى القارب وبدأت تبربر مع أطفال فاولز، ربما بجميع تلك اللغات إضافةً إلى الفرنسية والسيامية. وهذا يجعلك تتساءل، هل يتكلّمون حقاً كلمات حقيقية، أم أن الأطفال الصغار يفهمون بعضهم بعضاً بصورة طبيعية قبل أن يبلغوا مبلغ الشباب؟ لكن روث ماي لم تكن بصحة جيّدة، لذلك ظلّت ساكنة، ممسكةً بيد أمّي.

«لقد طلبوا منّا بوضوح أن نغادر» -قالت أمّي- «أظن أنه كان علينا أن نفعل ذلك حقاً، لكن ناثان قرر أن نبقى».

فقال الأخ فاولز موافقاً: «بالتأكيد، كان هناك اندفاع للمغادرة بسرعة بعد إعلان الاستقلال. فقد غادر الناس لمليون سبب: الحس السليم، الجنون، ضعف القلب. أما نحن فقد بقينا للأسباب نفسها، ما عدا ضعف القلب. لا أحد يستطيع أن يتّهمنا بذلك، أليس كذلك، يا سيّدة برايس؟».

«حسناً...» قالت أمي في حيرة. أظن أنها تكره أن تعترف بأنها تريد أن ننسحب من هنا كالأرانب. وأنا أيضاً، ولا أبالي حتى لو قالوا إنني جبانة. أرجوكم ساعدوني، حاولت أن أقول للسيّدة فاولز بعينيَّ فقط: أخرِجونا من هنا! أرسِلوا لنا قارباً أكبر!

تنهّدت أمي أخيراً، وقالت: «لا نريد أن نراكم تذهبون».

أنا متأكّدة من أن أخواتي كلّهن يوافقن على ما قالته أمّي، لأننا نشعر هنا أننا آخر الناس على الأرض الذين يستخدمون اللغة الإنكليزية وفتّاحات العلب، وبمجرّد أن يغيب هذا القارب الصغير عن أنظارنا في النهر، فإننا سنعود ونشعر بذلك.

«يمكنكم أن تبقوا في كيلانغا لبعض الوقت» - اقترحت ليا، مع أنها لم تقل لهم إنهم يستطيعون البقاء معنا. ولم تقل: سيكون عليكم أن تشرحوا للأب الأمور التي يراكم بسببها مرتدّين. لم يكن عليها أن تقول ذلك، فقد عبّر الحاضرون جميعاً عن هذه الكلمات من دون أن يقولوها.

«هذا لطف منكم» -قالت سيلين- «يجب أن نذهب لزيارة عائلة أمّي. فقد بدأت قريتهم تزرع فول الصويا، وسنمر عند عودتنا من هذا الطريق بعد نهاية الموسم الماطر، وسنحرص على زيارتكم مرة أخرى».

وبالطبع قد يكون ذلك في أي وقت من شهر تموز القادم حتى الثاني عشر من الأبد، كما كنا نعرف. وقفنا هناك نشعر بحسرة شديدة ونحن نراهم يجمعون أغراضهم ويحصون أطفالهم.

«لا أريد أن أزعجكم» -قالت أمّي- «لكن روث ماي، صغيرتي، أُصيبت بحمّى شديدة منذ أكثر من شهر. ويبدو أنها بدأت تتحسّن الآن، لكنّي قلقة جداً عليها. هل يوجد طبيب في أي مكان يمكننا الوصول إليه بسهولة؟».

اقتربت سيلين من جانب القارب ووضعت يدها على رأس روث ماي، ثمّ انحنت ونظرت في عينيها: «قد يكون ذلك ملاريا. قد يكون تيفوس. لا أظن أنه مرض النوم. دعيني أجلب لك شيئاً قد يساعدك».

عندما اختفت داخل القارب، أفضى الأخ فاولز لأمي بصوت منخفض: «أرجو أن يكون بإمكاننا أن نفعل أكثر من ذلك من أجلكم. لكن طائرات البعثة لم تعد تحلّق على الإطلاق، ولا يستطيع أحد أن يخمّن ما الذي يجري على الطرقات. كلّ شيء في حالة فوضى. سنحاول أن ننقل الرسالة إلى الأخ غرين عن ابنتك الصغيرة، لكن لا نعرف ما الذي يمكنه أن يفعله، الآن حالاً».

ونظر إلى روث ماي التي كان يبدو أنها لا تعرف أنهما يتحدّثان عن مصير حياتها، ثم سألها بعناية: «هل تظنين أنها مسألة ملحّة جداً؟».

قضمت أمي ظفرها وتفحّصت روث ماي، ثم قالت: «أخ فاولز، ليس لدي أي فكرة، فأنا مجرّد ربّة بيت من جورجيا!».

عندئذٍ ظهرت سيلين تحمل بيدها قنينة زجاجية صغيرة فيها كبسولات وردية اللون، وقالت: «إنها مضادات حيوية، فإذا كانت مصابة بالتيفوس أو

بالكوليرا أو بأشياء أخرى، فقد يساعدها هذا، أما إذا كانت مصابة بالملاريا أو بمرض النوم، فإني أخشى أنها لن تفيدها. وفي جميع الأحوال، فإننا سنصلّي من أجل شفاء ابنتك العزيزة روث».

«هل كلّمتِ تاتا ندو؟» -قال الأخ فاولز- «إنه رجل يمتلك موارد مدهشة».

«أظن أن ناثان وتاتا ندو متخاصمين. لست واثقة من أنه سيولينا أي اهتمام».

«قد تُفاجَئين»، قال.

كانوا على وشك أن يغادروا، لكن بدا أن أمي تريد أن يستمر حديثهما بأي طريقة. فسألت الأخ فاولز وهو يعقد بعض الحبال وأشياء أخرى على سطح القارب: «هل كنتَ حقاً على علاقة جيّدة مع تاتا ندو؟».

رفع عينيه، مندهشاً بعض الشيء، وقال: «إني أحترمه، إذا كان هذا ما تقصدينه».

«لكن باعتبارك مسيحياً، هل توصّلت حقاً إلى أيّ تفاهم معه؟».

نهض الأخ فاولز وحكَّ رأسه، جاعلاً شعر رأسه الأبيض ينتصب واقفاً. كلّما نظرت إلى هذا الرجل وهو يفعل شيئاً كان يبدو لي أنه أصغر سناً، وقال أخيراً: «باعتباري مسيحياً، فأنا أحترم أحكامه. إنه يدير شؤون قريته جيّداً، إذا أخذنا كلّ الأمور بالاعتبار. لكننا لم نتّفق قط على مسألة الزواج بأربع زوجات...».

«عنده أكثر من ذلك الآن»، وشَت ليا به.

فقال: «أهاه، إذاً تعرفين! لم يكن لي تأثير كبير عليه في هذا الأمر، لكن يمكنني أن أقول لك إن جميع زوجاته استفدن من تعاليم المسيح بطريقة أو بأخرى. فقد كنا نمضي أنا وتاتا ندو أوقاتاً طويلة بعد الظهر مع كالاباش مليء بنبيذ النخيل بيننا، ونناقش مزايا معاملة الزوجة بلطف. وخلال

السنوات الستّ التي أمضيتها هنا، رأيت أن ممارسة ضرب الزوجة لم تعد دارجة كثيراً، وظهرت هياكل سرية صغيرة لتاتا المسيح في كلّ مطبخ تقريباً نتيجةً لذلك».

ألقت ليا الحبل له وساعدته على دفع القارب من الوحل الضحل إلى مسافة أعمق في الماء، وغاصت حتى ركبتيها، ببنطالها الجينز الأزرق، من دون أن تأبه لذلك، وضمّت إدا كتبها الجديدة عن فراشات أجنحة الطائر(*) إلى صدرها، بينما أخذت روث ماي تلوّح بيدها وتصيح بصوت ضعيف: «ويندا مبو ته! ويندا مبو ته!».

«هل تشعر بأن ما فعلته كان كافياً؟» - سألت أمي الأخ فاولز، كما لو أنها لم تدرك بعد أننا ودّعناه للتوّ وأن الحديث قد انتهى.

وقف الأخ فاولز على سطح القارب واستدار، ونظر إلى أمي كما لو أنه لا يعرف ما الذي يمكن أن يفعله حيالها. هزَّ كتفيه أخيراً وقال: «إننا أغصان طُعّمت على هذه الشجرة الطيّبة يا سيّدة برايس. إن جذر إفريقيا العظيم يدعمنا. أتمنّى لك الحكمة ورحمة الله!».

«شكراً لك»، قالت.

كانوا قد أصبحوا على مسافة بعيدة في الماء، عندما نهض فجأة وصاح: «أوه، الببغاء! ميثوسالا! كيف حاله؟».

نظرت إحدانا إلى الأخرى، ولم نكن نريد أن تنتهي الزيارة بما يمكن أن يعكّر. فصاحت روث ماي بصوتها الخافت الضعيف: «جنة الطيور! لقد أصبح في جنة الطيور يا سيّد فاولز».

«ها! إنه أفضل مكان له، ذاك الوغد الصغير»، صاح الأخ فاولز بشكلٍ طبيعي، مما فاجأنا.

(*) تُخطئ راشيل في تهجئة الكلمة، فتكتبها ornithoptery عوضاً عن ornithoptera، وفراشات أجنحة الطائر من أكبر فصائل الفراشات خطافية الذيل. [م].

في هذه الأثناء، تجمّع جميع أطفال القرية وراحوا يقفزون على ضفّة النهر الموحلة. بعد أن حصلوا جميعاً على هداياهم أيضاً، كما أرى: علب مسحوق الحليب وأشياء من هذا القبيل. لكنّهم كانوا يصرخون بسعادة كبيرة وكان يبدو أنهم يحبّون الأخ فاولز لأسباب تفوق مجرّد مسحوق الحليب، كانوا مثل الأطفال الذين حصلوا على جوارب فحسب في عيد الميلاد، ولكنهم مع ذلك ما زالوا يؤمنون بسانتا كلوز بكلّ قلوبهم.

أمي وحدها لم تلوّح بيدها. كانت واقفة وكاحلها يغوص في الطين، كما لو أن مهمتها ستنتهي عندما ترى قاربهما يبدأ ينكمش ويصبح مثل نقطة في الماء المتلألئ، ولم تتحرّك من مكانها حتى اختفى القارب عن أنظارنا تماماً.

إدا

إلى السوق، إلى السوق لشراء خنزير سمين![*] سمين خنزير لشراء! إلى السوق، إلى السوق! لكن حيثما نظرت، لا ترى خنازير الآن، بل بصعوبة يمكن إيجاد كلبٍ لا يستحق العناء وحطب الموقد. الماعز والخراف، غير موجودة. بعد نصف ساعة من بزوغ الفجر تنطلق الصقور من الشجرة العارية من الأوراق وترفرف بعيداً باعثةً صوتاً يشبه صوت حفيف أثواب الساتان السوداء القديمة. أُغلق سوق اللحوم طوال فترة الجفاف. لم تهطل أمطار، وحتى الآن لا أمطار، ولم يتبقَّ لآكلي النباتات شيء يقتاتون عليه.

لم يجلب لنا شهر تموز إلّا الظهور الغريب لأسرة فاولز، وفي أعقاب ذلك رسخ في عقل كلّ واحدة منّا أن زيارتهم يمكن أن تكون مجرّد حلم. عقولنا كلنا ما عدا عقل أبي الذي يرى أن الأخ فاولز شخص عديم الجدوى،

(*) العبارة مأخوذة من أغنية إنكليزية شهيرة للأطفال. [م].

وأصبح على يقين الآن بأنّ الأحجار التي وُضعت في طريقه وضعها هذا المسيحي المضلّل المهمل.

ولم يجلب لنا شهر آب أي أحلام سعيدة على الإطلاق، فتدهورت حالة روث ماي الصحية فجأة تدهوراً لا يمكن تفسيره، تماماً كما تحسّنت فجأة منذ مدة. وعلى الرغم من الأمل والمضادات الحيوية التي أعطتها لنا السيّدة فاولز بحسن نية وإخلاص، ارتفعت حرارة روث ماي وعادت تستلقي في السرير بشعرها الملتصق برأسها في عرق مظلم. وأخذت أمي تصلي للإله الزجاجي الصغير الذي توجد في بطنه تلك الكبسولات الوردية.

وحمل لنا النصف الثاني من شهر آب أيضاً أسبوع كيلانغا الذي يستمر خمسة أيام والذي يبدأ وينتهي بيوم السوق، والذي لا يوجد فيه يوم الأحد، بل يترك أيام الأحد تقف على جانبيه مثل قوسين. احتمال حدوث هذه التركيبة الخاصة هو واحد من كل سبعة، بالمناسبة. ويجب أن تحدث سبع مرات في السنة في المتوسط، تفصلها فترات أطول بقليل من تلك التي تحمّلها نوح على متن فُلكه المفترض.

هل هذا الحدث غير العادي خاصّ بجيراننا؟ هل لاحظوا؟ لا أعرف. هكذا كانت علاقتنا مع البشر في كيلانغا. أما في بيتنا فقد مرَّ مثل عطلة كئيبة غريبة، لأن زعيم قرية كيلانغا، تاتا ندو، أصبح يأتي كلّ يوم من الأيام الخمسة تلك إلى بيتنا. ودن اتات. كان يرسل أبناءه قبله يصيحون ويلوّحون بطريقة احتفالية بقطع حيوانية للإعلان عن وصول سموّه.

وفي كلّ مرة، كان يجلب معه هدية. أولاً: لحمَ ظبي طازجاً ملفوفاً في قطعة قماش مبقّعة بالدم (كم كان يغمى علينا من شدة الجوع عندما كنا نرى ذلك الدم)، وفي اليوم الثاني: سلة كروية الشكل عليها غطاءٌ محكم الإغلاق، مليئة بفاصولياء مانغوانسي. وفي اليوم الثالث: دجاجةً برية حيّة

وقد رُبطت ساقاها معاً، وفي اليوم الرابع: فروة مدبوغة ناعمة لدبّ النمل. وفي اليوم الأخير: منحوتة صغيرة من العاج الوردي لامرأة حامل. رمق والدنا المرأة الوردية الصغيرة تلك، وألهمته بأن يفتح حديثاً مع تاتا ندو بخصوص الأصنام الزائفة. لكن حتى اليوم الخامس -وبعد ذلك، عموماً- كان أبي يبدو سعيداً بهذا الاهتمام الجديد الذي بدأ الزعيم يبديه لنا. وبدأ القسّ يصيح مثل الديك في أرجاء المنزل: «إن صدقتنا المسيحية عادت إلينا سبعة أضعاف»، ضارباً الرياضيات عرض الحائط، وهو يصفع فخذه من فوق بنطاله الكاكي مبتهجاً. «مرحى يا أورليانا! ألم أقل لك إن ندو سيقف إلى جانبنا في نهاية الأمر؟».

«أوه، هل هي النهاية الآن يا ناثان؟» - سألته أمي التي ظلّت صامتة بخصوص مسألة قدوم تاتا ندو لزيارتنا في البيت.

أكلنا اللحم الذي كان يحضره لنا وكنّا سعيدين لأنه أصبح لدينا شيءٌ نأكله، واحتفظت أمي بالحلي الرخيصة التي جلبها في غرفة نومها، بعيدة عن الأنظار. وكان يعترينا الفضول لأن نتفحّص هذه الأشياء المثيرة ونلمسها، خصوصاً تمثال المرأة الوردي الصغير، لكن أمي شعرت أنه لا ينبغي أن نُظهر اهتماماً مفرطاً. وعلى الرغم من شهادة الأخ فاولز بشخصية تاتا ندو، إلا أن أمي ساورها الشكّ في أن هذه الهدايا التي يحضرها لنا الزعيم ليست عفوية. وتبيّن أنها محقّة، مع أن معرفة ذلك استغرقت شهراً كاملاً.

في البداية، شعرنا بالإطراء ودُهشنا: ترى ودن اتات يدخل من باب بيتنا الأمامي، يقف لحظة أمام ضريح مرآة راشيل اليدوية المعلّقة على الحائط، ثمّ يجلس على كرسيّنا السليم الوحيد ذي الذراعين. متوّجاً هناك تحت قبّعته، ينظر إلينا من خلال إطار نظّارته التي لا توجد فيها عدسات، يهسهس بمنشّة الذباب المصنوعة من ذيل حيوان، والتي تدلّ على مكانته في الحياة. وعندما كان يخلع قبّعته البارزة الغريبة، كان يكشف عن نفسه بأنه رجل

قوي ضخم، له جبين داكن يشبه نصف قبة انحسر منه خط الشعر كثيراً ليبرز وجهه العريض، وصدره الواسع، وكتفيه العريضين، وذراعيه المكسوّتين بالعضلات، ويضع تحت إبطيه قطعة قماش ملوّنة، ويشبك ذراعيه أمام صدره كما يفعل الرجل عندما يكون مزهوّاً ببنية جسده. لم يُثر ذلك إعجاب أمّنا، لكنّها تمالكت نفسها وحشدت كل طاقتها لتصنع عصير البرتقال الذي كان الزعيم مغرماً به.

أما والدنا الذي صار يحرص على أن يكون في البيت ليستقبل تاتا ندو، فكان يسحب أحد الكراسي الأخرى، ويجلس عليه بطريقة معكوسة ويشبك ذراعيه على ظهر الكرسي، ويبدأ يتحدّث عن الكتاب المقدّس. لكن تاتا ندو كان يحاول تحويل مجرى الحديث ليتحدّث عن القرية، أو تلك الثرثرة الغامضة عن الاضطرابات التي كنا نسمع عنها في ماتادي وستانليڤيل، وقد سُرَّ والدنا كثيراً بملاحظاته الإطرائية مثل: « تاتا برايس عندك *trop de jolies filles* فتيات جميلات جداً»، أو ملاحظات أقل لطفاً لكنها أكثر صدقاً مثل: «إنك بحاجة كثيراً إلى الطعام، *n'est-ce pas?* (أليس كذلك؟)»، ولمتعته الخفيّة أمرَ الفتيات الجميلات (ونفّذنا الأمر) بأن نصطّف أمامه كل واحدة بحسب طولها: الأطول راشيل، خمسة أقدام وستّ بوصات، وطريقة وقفتها التي تشبه وقفة ملكة جمال أميركا، والأقصر كانت أنا، أقل ببوصتين من أختي التوءم لأني محدودبة قليلاً (أُعفيت روث ماي من الوقوف معنا لأنها تهذي ومستلقية في السرير). نقر تاتا ندو بلسانه وقال إنّنا نحيفات جداً، ما جعل راشيل ترتعش زهواً وراحت تتمشّى في أرجاء البيت يسبقها حوضها كما تفعل عارضات الأزياء. وكانت تفرط في التباهي بنفسها في أثناء هذه الزيارات، فتهرع لتساعد أمي بطرق لم تكن تحلم بها من دون جمهور.

«تاتا ندو» -ألمحت أمّي- «إن أصغر بناتنا تحرقها نيران الحمّى. إنك رجل هام لذلك أرجو ألّا تعرّض نفسك للإصابة بعدوى بمجيئك إلى هنا».

كان هذا أكثر شيء يمكنها أن تقترب فيه من طلب المساعدة الصريحة منه.

ثم خفت اهتمام تاتا ندو لعدة أيام، ذهبنا خلالها إلى الكنيسة، وابتلعنا حبة الملاريا الأسبوعية، وذبحنا دجاجة أخرى من قطيعنا المتضائل، وتسلّلنا بالدور إلى غرفة نوم والدينا لنتفحّص العضو التناسلي في تمثال المرأة الصغيرة. لكن الزعيم عاد بعد يومَي أحد. كانت هداياه هذه المرة شخصية أكثر: «باني» من قماش مصبوغ بشكلٍ جميل، وسواراً خشبياً منحوتاً، وجرّة صغيرة من مادة شمعية كريهة الرائحة، رفضنا أن نخمّن ما هي أو نناقش الأمر مع تاتا ندو. وقبلت أمي هذه الهدايا بكلتا يديها، كما جرت العادة هنا، ووضعتها جانباً من دون أن تقول شيئاً.

كالمعتاد، كان نِلسون هو الذي أشفق أخيراً على غبائنا الجاهل وأخبرنا ما الذي يجري: كوكويلا. تاتا ندو يريد زوجة.

«زوجة!» قالت أمّي، وهي تحدّق في نِلسون في بيت المطبخ، تماماً مثلما حدّقت في الكوبرا التي ظهرت هنا ذات يوم. وتساءلتُ عما إذا كانت ستحمل عصا وتضرب نِلسون خلف رأسه، كما فعلت بالأفعى.

«نعم، ماما برايس»، قال متعباً، من دون أي أثر للاعتذار. كان نِلسون معتاداً على ردود أفعالنا المبالغة على ما كان يعتبره أشياء عادية، مثل الكوبرا في المطبخ. لكن كانت في صوته رنّة ثقة خاصة عندما قالها، لأن رأسه كان داخل الفرن. فجثت أمي بجانبه، وراحت تساعده في تثبيت علبة الرماد الثقيلة بينما كان يزيل الرماد من الموقد. كان ظهر كلٍّ منهما متجهاً نحو الباب، ولم يعرفا أنني واقفة هناك.

«إحدى البنات، تقصد؟» -قالت أمّي. وسحبت مؤخرة قميص نِلسون، لتسحبه إلى خارج الموقد وتكلّمه وجهاً لوجه- «أنت تقول إن تاتا ندو يريد أن يتزوّج إحدى بناتي؟».

«نعم».

«لكن، نِلسون، توجد عنده ستّ أو سبع زوجات الآن! يا إلهي!».

«نعم. تاتا ندو غني جداً. وقد سمع أن تاتا برايس لا يملك نقوداً ولا طعاماً الآن، ورأى بناتك هزيلات ومريضات. وهو يعرف أن تاتا برايس لا يقبل مساعدة من الكونغوليين، لذلك، يمكنه أن يفاوضه رجلاً لرجل. يمكنه أن يساعد أسرتك بأن يقدّم لتاتا برايس قليلاً من العاج، إضافةً إلى خمس أو ستّ عنزات، وربما بعض النقود ليأخذ مڤولا من بيته. تاتا ندو زعيم جيّد، ماما برايس».

«يريد راشيل!».

«النمل الأبيض هي التي يريد أن يشتريها، ماما برايس. سيكون لديك عنزات، وأيضاً لن تضطروا لإطعام الفتاة بعد الآن».

«أوه، نِلسون. هل يمكنك حتى أن تتخيّل ذلك؟».

قرفص نِلسون على كعبَيْه، جفناه الرماديان يرمشان بقوة بينما يتفحّص وجه أمّي.

من المستغرب أن أمي ضحكت، ثم بشكل أكثر إثارة للاستغراب بدأ نِلسون يضحك أيضاً. فتح فمه الذي يكاد يكون بلا أسنان وراح يجأر بجانب أمّي، ووضع كلّ منهما يديه على فخذيه. أظن أنهما كانا يتصوّران راشيل ملفوفة بالباني وهي تهرس المانيوك.

مسحت أمي عينيها وسألته: «لماذا تظن أنه اختار راشيل؟».

من صوتها أستطيع أن أخمّن أنها لم تكن تبتسم، حتى بعد كلّ ذلك الضحك.

«إنه يقول إن لون مڤولا الغريب سيبهج زوجاته الأخريات».

«ماذا؟!».

«لونها» -فرك ساعده الأسود ثم رفع إصبعين يكسوهما الرماد، كما لو كان يُريها كيف أن الحبر زال تماماً من على جسد راشيل الحزينة- «كما تعرفين، فإن بشرتها ليست سليمة» - قال نِلسون، كما لو أن ذلك شيئاً يستطيع أي شخص أن يقوله عن ابنة امرأة من دون أي إساءة لها. ثمّ مال إلى الأمام وأدخل رأسه وكتفيه في الموقد ليزيل ما تبقى من الرماد. لم يقل شيئاً إضافياً حتى عاد وخرج من أعماق الموقد.

«يقول الناس ربما ولدت قبل أوانها بكثير، قبل أن تنتهي فترة طهيها. هل هذا صحيح؟»، قال ذلك وهو ينظر إلى بطن أمي مستفسراً.

حدّقت به أمي وقالت: «ماذا تقصد أن لونها سيبهج زوجاته الأخريات؟».

نظر إليها بتساؤل صبور، منتظراً أن توضح سؤالها أكثر.

«حسناً، لم أفهم. إنك تجعلها تبدو مثل قطعة إكسسوار يريدها حتى تتماشى مع بقية ثيابه».

صمت نِلسون لفترة طويلة ليمسح الرماد من على وجهه ويفكّر بلغز استعارة الإكسسوار والثياب. دخلتُ إلى بيت المطبخ لآخذ موزة، بعد أن عرفت أنه ربما لم يعد هناك شيء يمكنني أن أسمعه. فقد وصلت أمي ونِلسون إلى آخر حدود التفاهم المتبادل بينهما.

ليا

هنا تكمن مشكلتنا: سيشعر تاتا ندو بإهانة كبيرة إذ رفض أبي عرضه السخي للزواج من راشيل، وليس تاتا ندو وحده المعنيّ هنا. فمهما كان رأينا بهذا الرجل المهيب بقبّعته المدبّبة، فهو رمز يمثّل إرادة كيلانغا. أظن أنه لهذا السبب قال الأخ فاولز إنّنا يجب أن نحترمه، أو على الأقل نوليه شيئاً من الاهتمام، مهما بدا لنا هذا الزعيم خارجاً عن المألوف. فهو لا يتكلّم عن

نفسه فحسب. ففي كلّ بضعة أسابيع، يعقد تاتا ندو اجتماعات مع الزعماء الأدنى مرتبة الذين يعقدون اجتماعاتهم الخاصة مع جميع العائلات في قراهم. لذا فإنه عندما يكلّمك تاتا ندو، فيجب أن تكون على يقين من أنه يتحدّث نيابةً عن الجميع. وكان أناتول قد شرح لي نظام الحكم المحليّ. فقال إن فكرة إلقاء الأحجار في الطاسات ليفوز الشخص الذي يجمع أكبر عدد من الأحجار بالانتخابات هي فكرة بلجيكا من أجل الإنصاف والمساواة بين المرشّحين، لكنها فكرة غريبة على السكّان المحلّيّين. ويستغرب الكونغوليون (وبضمنهم أناتول نفسه، كما اعترف لي) من أنه إذا حصل رجل على خمسين صوتاً وحصل آخر على تسعة وأربعين صوتاً، فإن الشخص الأول يفوز والثاني يخسر، وهذا يعني أن نصف السكّان تقريباً لن يكونوا سعداء بهذه النتيجة، وقال لي أناتول إنه في قرية نصف سكّانها غير راضين عن النتيجة، لا بدّ من وقوع مشكلات كثيرة.

ويبدو أن الطريقة الناجعة هنا هي أن تحصل على نسبة مئة في المئة. ويستغرق تحقيق ذلك وقتاً طويلاً. فهم يتناقشون ويعقدون صفقات ويتجادلون حتى يصلوا إلى اتفاق بخصوص ما يجب أن يفعلوه، عندئذٍ يتأكّد تاتا ندو أنّ الأمور تسير على ما يرام. وإذا كان أداؤه جيّداً، يخلفه أحد أبنائه في الزعامة بعد موته، أما إذا كان سيئاً، فإن النسوة يطاردن تاتا ندو إلى خارج البلدة بعصي غليظة، وتجرّب عندئذٍ كيلانغا زعيماً جديداً. لذلك يمثّل تاتا ندو صوت الشعب، ويخبرنا هذا الصوت الآن أننا سنكون أقل عبئاً على أنفسنا وعلى الآخرين إذا تركناه يشتري راشيل مقابل بضع عنزات. لقد وُضعنا في موقف حرج.

جُنَّ جنون راشيل، ولأول مرة في حياتي لم أستطع أن ألومها. كنت سعيدة جداً لأنه لم يخترني أنا. وأكّدت أمي لراشيل أننا لن نبيعها، إلا أن تطمينات من هذا النوع ليست بالكلمات التي أنت مستعدة لسماعها وهي

تخرج من فم أمّك. ويبدو أن مجرّد فكرة الزواج من تاتا ندو أفسدت حالة راشيل العقلية، فأصبحت تتوقّف عما تفعله كلّ عشر دقائق أو قرابة ذلك، مهما كانت تفعل، وتصرخ باشمئزاز، وقد قالت في وجه أبي إننا يجب أن نعود إلى بلدنا الآن قبل أن تتعرّض لمزيد من الإذلال. فعاقبها أبي بأن تنسخ الآية التي تنتهي باحترام الأب والأم، وعندما انتهت من كتابتها طلب منها أبي أن تعيد كتابتها. وبما أنه لم يعد لدينا ورق فارغ، اضطرت إلى كتابتها مئة مرة بخط صغير جداً على ظهر أغلفة الرسائل القديمة التي ما تزال موجودة عندنا منذ الأيام التي كنا نتلقى البريد فيها. وأشفقت أنا وإدا عليها وساعدناها في كتابة بعضها سرّاً. حتى إننا لم نطلب منها عشر سنتات مقابل كتابة كل آية، كما اعتدنا أن نفعل عندما كنّا في بلدنا. لأننا إذا فعلنا ذلك، فكيف يمكنها أن تدفع لنا؟

لم يكن بإمكاننا أن نرفض زيارات الزعيم إلى بيتنا، مهما كانت مشاعرنا إزاءه. لكن راشيل بدأت تتصرّف بمنتهى الغرابة عندما يأتي لزيارتنا. بصراحة، كان تصرّفها يبدو غريباً حتى عندما لا يأتي أيضاً. فقد بدأت ترتدي طبقات كثيرة من الثياب في آن معاً، وتغطي نفسها تماماً، حتى إنها بدأت ترتدي معطفها المطري داخل البيت على الرغم من الحرارة والجفاف الشديدين. وأصبحت تفعل أشياء غريبة في شعرها، وإذا أصبحت راشيل على هذا النحو فهذا دليل على حجم المشكلة. وخيّم التوتّر على أجواء بيتنا، صدّقوني!

منذ إعلان الاستقلال سمعنا قصص عنف تدور بين السود والبيض. ولكن إذا نظرنا من نافذتنا، فإنّ هذا ما كنا نراه: ماما نغوزا وماما موانزا تتحدّثان وهما تسيران في الطريق وصبيّان صغيران يمشيان بجانبهما يحاول أحدهما أن يبول على الآخر. وما زال الجميع فقراء مثل فئران الكنيسة، وعلى الرغم من ذلك، فهم قانعون بشكل من الأشكال. يبدو أن الاستقلال

قد مرَّ من فوق قريتنا، كما مرَّ البلاء في تلك الليلة منذ أمد بعيد في مصر، وأُنقذ الذين وُضعت علامات على عتبات أبوابهم(*). لكن على الرغم من ذلك، لم نعرف ما هي العلامة التي وضعت على عتبة دارنا، أو كيف أُنقذنا. بادئ ذي بدء، بصعوبة عرفنا ما يجري من حولنا، وإذا تغيّرت الأمور الآن، فإننا لا نعرف ما الذي يجب أن نعتقده أو كيف سنتصرّف. كان يعترينا شعور خفيّ بأنه يوجد ثمة خطر لكن لا يمكننا مناقشته، لكن كنّا نشعر بأننا يجب أن نتوقّع حدوثه دائماً.

وقد كانت أمي غير متسامحة مع مزاج راشيل، وطلبت منها أن تعدّل من سلوكها لأنها مشغولة الآن برعاية روث ماي. فقد بدأ طفح جلدي يملأ ظهرها وكان حاراً إذا لمسته. وكانت أمي تحمّمها بإسفنجة باردة قرابة كلّ ساعة. وكانت تمضي معظم الليالي وهي مكوّرة عند أسفل سرير والديَّ الحديدي الكبير. وقرّرت أمي أن ننقل سرير روث ماي إلى الغرفة الرئيسية حتى يمكنها أن تكون معنا في أثناء النهار، ونتمكّن من مراقبتها عن كثب. ساعدتها أنا وراشيل على سحب السرير بينما تولّت إدا أمر الفراش. كانت أسرّتنا مصنوعة من أنابيب حديدية ملتحمة معاً، وكان ثقلها تقريباً بقدر ما تعتقد أن ثقل السرير يمكن أن يكون. في البداية، فككنا الناموسية من إطار السرير، ثمّ دفعنا السرير بقوة بعيداً عن الحائط. وجعلنا ما رأيناه على الجدار وراء السرير نحدّق بدهشة.

«ما هذا؟» سألت راشيل.

«أزرار؟» - خمّنتُ، لأنها كانت مستديرة وبيضاء، وتذكّرت مشاريع صندوق الأمل. مهما كان هذا فقد كان مشروع روث ماي منذ مدة طويلة جداً.

(*) إشارة إلى سِفر الخروج، حين اجتاز الربّ أرض مصر وضرب كل بكرٍ فيها، إلا بيوت بني إسرائيل التي عليها علامة الدم، عبرَ عنها ولم يُهلك من فيها. [م].

«حبوب الملاريا»، قالت أمّي، وكانت محقّة.

كانت هناك مئة حبة تقريباً، ذاب بعضها مكوّناً خطوطاً طويلة متعرجة على الحائط وراء السرير.

وقفت أمي ونظرت إليها طويلاً. ثمّ ذهبت وعادت وبيدها سكّين. وبعناية كشطت الحبوب عن الحائط الجبسي، الواحدة تلو الأخرى، ووضعتها في يدها المكوّرة. كان هناك واحد وستّون حبّة. ظلّت إدا تعدّها، وكتبت الرقم في الأسفل. إنه عدد الأسابيع التي أمضيناها في الكونغو تماماً.

راشيل

يا إلهي! إنني أغلي من الغضب ولا يوجد مكان أستطيع أن ألجأ إليه. عندما يأتي تاتا ندو إلى بيتنا، يا إلهي! فإنني لا أستطيع حتى أن أقف وأنظر إليه وهو ينظر إليّ. أتحاشى النظر إليه. في بعض الأحيان، أفعل أشياء لا تليق بسيّدة مثل أن أخدش نفسي وأتظاهر بأنني متخلّفة عقلياً. لكنّي أظن أنه سيكون سعيداً بالمقدار نفسه لإضافة زوجة متخلّفة عقلياً إلى مجموعة زوجاته. ربما لا توجد عنده زوجة متخلّفة عقلياً بعد. يا إلهي! مجرّد أن يسمح له والداي بأن يدخل إلى بيتنا! وبدأت أرفض أن أمنح أبي متعة الرد عليه عندما يكلّمني، وأمي أيضاً، إذا استطعتُ ذلك لأنها لم تكن تهتم إلّا بروث ماي: روث ماي المسكينة هنا وروث ماي هناك! حسناً، ربما تكون مريضة، لكنّ الأمر ليس سهلاً عليّ أيضاً، أن أكون هنا وأتحمّل كل هذا القرف. إن أسرتي تفكّر بكلّ شيء إلّا بسلامتي الشخصية. عندما نعود إلى جورجيا سأقدّم طلباً كي تتبنّاني أسرةٌ أخرى.

وإن لم يكن ذلك أقصى ما يمكن حصوله بالفعل، فقد وصل الآن فارسي الذي يضع درعاً لامعاً: السيّد أكسلروت ذو الرائحة الكريهة. لقد

ظهر في باحة بيتنا ذات يوم، عندما كان تاتا ندو يصعد الدرج بقبّعته السخيفة ونظّارته التي من دون عدسات، وتبادلا بضع كلمات. مكث تاتا ندو قرابة عشر دقائق ثم غادر. كنت قد بدأت للتوّ أتظاهر بأنني الابنة المتخلّفة عقلياً. أمر سيّئ للغاية.

ثم اكتشفت أن أبي والسيّد أكسلروت وضعا خطة كي لا أتزوّج تاتا ندو من دون أن نجرح مشاعر أهالي القرية. وقررا أن يقولا إن أبي كان قد وعد إيبين أكسلروت بأن يتزوّجني. كدت أصرخ. قالت أمي يجب ألّا أغضب، لأن كلّ ذلك تظاهرٌ فحسب. لكن هذا يعني أنه سيأتي إلى بيتنا باستمرار، وأنني يجب أن أتصرّف كأنه خطيبي. وكان من الطبيعي أن نمثّل هذه التمثيلية على الشرفة الأمامية حتى يرى الجميع ذلك. أن أجلس على الشرفة وأراقب العشب حتى يجفّ. هكذا أصبحت حياتي الاجتماعية الآن. لا تدعي الأمر يحبطك؟ يا رجل -أوه- يا رجل! أنا التي كنت أريد دائماً أن أكون الحسناء الجميلة في الحفلات الراقصة، لكن اللعنة، هذه هي الحفلة الأكثر خطأً على الإطلاق!

في المرّة الأولى التي بقينا فيها وحدنا لمدة عشر ثوان على الشرفة، صدّقوا أو لا تصدّقوا، حاول أكسلروت أن يكون لطيفاً معي. فأسند ذراعه فوق ظهر الكرسي الذي أجلس عليه. فصفعته بقوة كما فعلت إليزابيث تايلور(*) في فيلم «سطح الصفيح الساخن»، وأظن أن هذا علّمه شيئاً أو اثنين. لكنه ضحك، إن كنتم تصدّقون ذلك. وذكّرته بأن هذه الخطوبة تمثيلية وأنه يجب ألّا ينسى ذلك. وقلت له: «سيّد أكسلروت، إني أرثي لنفسي لأنك موجود معي على هذه الشرفة، لكن كلّ ذلك بهدف الحفاظ على الهدوء والسلام في هذه القرية. وسيكون من الأفضل أيضاً أن تستحمّ مرّة كلّ سنة أو سنتين!».

(*) إليزابيث تايلور (1932–2011) Elizabeth Taylor: ممثّلة أميركية شهيرة. [م].

أنا على استعداد لأفعل أي شيء من أجل السلام، لكن بالنسبة لسيّدة راقية هناك حدود لرائحة العرق التي يمكنها تحمّلها، وتذكّرت بريجيت باردو(*) وجميع أولئك الجنود.

أصبح يتصرّف بشكلٍ أفضل الآن. كنت أدعوه أكسلروت فقط، وكان يدعوني أميرة، وأظن أن هذا شيء لا أستحقه بعد أن أصبحت مثل شيءٍ عتيقٍ بالٍ، لكنّه كان يقولها بنيّة حسنة، كما أظن. وإذا حاول فإن بإمكانه أن يكون نصف محترم. وبالفعل فقد بدأ يستحمّ ويترك قبّعته المريعة في البيت، وبدأ يمتدح الربّ. لكن أمي صارت تكرهه أكثر من أي وقت مضى، وأنا كذلك، لكن ماذا يمكنني أن أفعل سوى أن أتحدّث إليه؟ وما دمت جالسة هناك تتظاهرين بأنك مخطوبة لأحد، فعليك أن تمضي الوقت بأي شكل من الأشكال. وكان وجوده معي يبعد الأطفال الذين كانوا يخافون من وجود أكسلروت الذي كان يضربهم، مع أنه لم يكن عليه أن يفعل ذلك. أعرف ذلك! لكن ليس من الضروري أن أكون محاطة بأطفال صغار يقفزون ويشدّون شعري طوال النهار. كانوا يتحلّقون حولي عادةً حتى أكاد أشعر بأنني غاليفر(**) بين الأقزام.

كانت خطّتي غير المعلنة هي أنني إذا استطعت أن أتزلّف إليه بما يكفي فقد يغيّر رأيه ويأخذنا بالطائرة من هنا. فقد كانت أمي قد عرضت عليه سرّاً أن تعطيه خاتم زواجها، إضافةً إلى مبلغ ألف دولار يُفترض أن ندفعها له بعد وصولنا إلى جورجيا من دون أبي، ومن دون أيّ وسيلة يمكننا أن نعيل فيها أنفسنا، فقال لها أكسلروت: «نقداً فقط، يا سيّدات»، فهو لا يقبل الدفع بالدين، لكن ربما سيشفق علينا الآن.

(*) بريجيت باردو Brigitte Bardot (وُلدت 1934): ممثّلة فرنسية شهيرة. [م].

(**) رحلات غاليفر: رواية كتبها الآيرلندي جوناثان سويفت Jonathan Swift، تعدّ من كلاسيكيات الأدب الإنكليزي. [م].

ولذا كنت أمضي معظم الوقت معه وأنا أحكي له قصصاً من الأيام التي كنّا فيها في بلدنا: الأطفال الذين كنت أعرفهم في مدرسة بيت لحم الثانوية والأشياء التي كنّا نفعلها. كان ذلك يجعلني أشعر بالحنين إلى الوطن. لكن، يا إلهي، لو كان بإمكان الفتيات اللاتي كنّ يعيّرنني بأنني ابنة واعظ أن يرينني الآن مخطوبة لرجل يكبرني في السن بكثير! رجل لديه خبرة كبيرة في الحياة، وُلد في جنوب إفريقيا، وأمضى فترة شبابه هنا وهناك، حتى إنه عاش في تكساس، كما فهمت. وكانت لهجته تبدو طبيعية، ويختلق قصصاً سخيفة وغير قابلة للصديق(*) تجعل شعري ينتصب واقفاً، فقد زعم أنه كان طيّاراً حربياً، وكان يطلق النار على الرجال ذوي النفوذ بدم بارد، ويلقي قنابل حارقة من السماء يمكن أن تدمّر حقلاً كاملاً من المحاصيل خلال عشر ثوان، وهو ليس مجرّد طيار ينقل مبشّرين فحسب، لا يا سيّدي! فهذه مهمة للتغطية على عمله السري، أو هكذا قال لي. وكان يدّعي بأنه في الحياة الحقيقية شخص شديد الأهمية في الكونغو في هذه اللحظة من التاريخ. وكان يذكر أحياناً أسماء أشخاص لا أذكر أسماءهم جيّداً الآن: نائب رئيس وكالة الاستخبارات المركزية، رئيس محطة الكونغو، وقال إنه يعرف أسماءهم السرية: «الطلقة الكبيرة» هو نائب رئيس الوكالة، ورئيس المحطة يُدعى «الشيطان». أعرف جيّداً أنه يكذب. رجل في عمره يبدو أنه أكبر بكثير من أن يقوم بأداء دور زورو. كما أنه يمكنك أن تعرف أن مصداقية هذه الكلمات ليست عالية، نظراً لقائلها.

سألته: «إذا كنتَ شخصية هامة في الكونغو، فكيف رأيناك كلّنا وأنت تدفع مبالغ زهيدة للقرويات لقاء البضائع التي كنّ يبعنها لك، حتى تأخذها وتبيعها في المدينة، ثم تعود إلينا حاملاً مسحوق الحليب وكتب القصص المصوّرة من ليوبولدڤيل؟!».

(*) أي: للتصديق، لكنها تُخطئ في تهجئة cockamamie وتكتب cockalamie. [م].

فقال إنه لم يكن حراً في الكشف عن مهنته الحقيقية، لكنه يتمتع الآن بحماية الولايات المتحدة الأميركية، ويستطيع أن يخبرني بشيء أو اثنين، إذا أبقيت فمي مغلقاً. طبعاً حتى لو كان ذلك صحيحاً - فمن يوجد هنا حتى أخبره؟ مراهقة بريئة أُلقي بها في منتصف جحيم الله الأخضر من دون هاتف، ولا تكلّم والديها! مع أن أبي لم يلاحظ أنني لا أكلّمه، بحسب علمي، أما أمي فهي تعرف. تحاول أحياناً أن تكون لطيفة معي وتسألني أسئلة شخصية كثيرة. إنها تأمل أن تعرف، من هي راشيل برايس الحقيقية؟

لكنّي لن أخبرها. أفضّل أن أبقى فتاةً غير سوية(*).

روث ماي

في الليل تجري السحالي فوق الجدران وتقف رأساً على عقب فوق السرير تنظر إليّ في الأسفل. تلتصق هناك بأصابع أقدامها. وكذلك تفعل الفئران أيضاً. يمكنهم التحدّث معي. قالوا إن تاتا ندو يريد أن يتزوّج راشيل. لقد صنعت صندوق الأمل خاصتها لذا فهي تستطيع الزواج. لكن تاتا ندو كونغوليّ. هل يمكن للكونغوليين أن يتزوّجوا منّا؟ لا أعرف. لكنّي أحبّ أن أرى راشيل وهي ترتدي الثوب الأبيض. لا بدّ أنها ستكون جميلة به. ثمّ قالوا إنّ السيّد أكسلروت سيتزوّجها بدلاً من تاتا ندو. لكنّه رجل وضيع. أحلم أحياناً بأن أبي هو الذي ستتزوّجه فيختلط عليّ الأمر وأشعر بالحزن، لأنه إذا فعل ذلك فأين ستكون ماما؟

تصدر السحالي أصواتاً تشبه أصوات الطيور في الليل. في الأحلام التي أراها أستطيع أن أمسك السحالي وأجعلها حيواناتي الأليفة. تبقى في يدي

(*) تريد القول إنها تفضّل أن تبقى فتاةً مجهولة، لكنها تستخدم كلمة anomalous (غير سوي)، بدلاً من anonymous. [م].

ولا تهرب، وعندما أستيقظ لا أجدها، فأحزن. لذلك فإنني لن أستيقظ إذا لم يكن عليّ ذلك.

كنتُ في الظلام في غرفة أمّي، أما الآن فقد أصبحت خارج الغرفة. يوجد الكثير من الضوء هنا والجميع يتحدّثون. لا أستطيع أن أقول ماذا أريد. أفتقد السحالي في الليل، هذا ما أريد أن أقوله. فهي لا تخرج في الضوء الذي يؤذي عيني أيضاً. تضع أمي الخرقة المبلّلة الباردة على جسمي كلّه، وبعد ذلك أشعر بأنّ عيني تتحسّن، لكن يبدو أنها ليست سليمة. فهي كبيرة جداً، والآخرون كلّهم أيضاً.

مهمة السيرك. هذا ما قالوه. ما زال تاتا ندو يأتي إلى بيتنا. يبدو برتقالياً أحياناً في ثيابه. جلد أسود ورداء برتقالي. يبدو جميلاً. قال لأبي إنه يجب أن تُجري راشيل مهمة السيرك التي يقطعون منها شيئاً لكيلا تجري وراء أزواج الناس الآخرين. لم أسمعه عندما قال ذلك بالفرنسية، لكن أبي حكى ذلك لأمي في الليل. مهمة السيرك(*).

قال إنهم يفعلون ذلك لجميع الفتيات هنا. قال أبي: «ألا ترين حجم العمل الذي يجب أن نقوم به؟ إنهم يقودون تلك الطفلات كالحملان إلى الذبح». فسألته منذ متى بدأ يهتم بحماية الفتيات الصغيرات. وقالت إن مهمتها الأولى هي أن تعتني ببناتها ولو كان أباً حقيقياً لفعل الشيء نفسه.

قال أبي إنه يفعل ما بوسعه، وإن السيّد أكسلروت، على الأقل، صفقة أفضل، فانتابت أمي نوبة هستيرية ومزّقت صفحة بيدها إلى قطعتين، لأنها لا تحبّ أيّاً منهما، لكن يجب أن يأتيا لأن تاتا ندو هو زعيم كلّ شيء، والسيّد أكسلروت هو صفقة. لكن تنتاب الكلّ هنا نوبات هستيرية. خصوصاً راشيل.

وجدت أمي حبات الدواء التي كنت قد ألصقتها بالحائط. كانت تخرج

(*) يختلط اللفظ على الطفلة روث ماي فتسمع circumcision (الختان)، على أنها circus mission. [م].

من فمي. لم أستطع أن أتحمّلها. كان طعمها سيئاً جداً وتلتصق بالجدار بشكل أفضل عندما تُخرجها من فمك. اقتلعت أمي جميع الحبّات بسكين ووضعتها في كوب شاي أبيض. رأيت أين وضعتها، على الرفّ مع حبات «أسبيرين باير» التي لم يبقَ لدينا منها شيء. سألتها راشيل: «ماذا سنفعل بها؟»، فقالت لها أمّي: «سنتناولها طبعاً. على روث ماي أن تتناولها وكلّنا أيضاً». لكنّي لا أريد أن أتناولها لأنها تشعرني بالغثيان. وقالت راشيل إنها لن تتناولها أيضاً لأنها أصبحت مقرفة وقالت، يا إلهي، إنها تشبه علكة ABC، التي سبق مضغها. راشيل تمضي معظم الوقت مشمئزة. فقالت لها أمي: «حسناً، إذا أردت أن تمرضي مثل روث ماي فلا تأخذيها، ورتّبي سريرك واستلقي عليه(*)». إذاً هذا ما حصل لي. فقد رتّبت سريري وها أنا ذا الآن مريضة أستلقي عليه. ظننت أنني أشعر بحرارة شديدة لكنّها قالت لراشيل إنني مريضة جداً. تتحدّث أمي وأبي عن ذلك أحياناً. هو يقول: «الربّ القدير»، وهي تقول: «الطبيب». لا يتفق أحدهما مع الآخر وأنا السبب في ذلك.

ذهبت إلى الطبيب قبل الآن مرتين في ستانليڤيل، مرة عندما كُسرت ذراعي، والمرة الأخرى عندما نزع الطبيب الجبيرة من يدي. كان الجبس فيها قد اتسخ كثيراً، فقصّها بأكبر مقصّ عنده لكني لم أشعر بالألم. أما الآن فلا نستطيع أن نذهب لزيارته لأنهم يتحاربون في ستانليڤيل ويجرّدون الناس البيض من ثيابهم، وقد قتلوا بعضهم. عندما ذهبنا إليها أول مرة رأيت قطع الماس الصغيرة المتسخة في كيس في مؤخرة الطائرة. قبض عليّ السيّد أكسلروت أتجسّس على أغراضه، ولم يعجبه هذا. عندما كنّا ننتظر أبي ليعود من عند الحلّاق، وضع السيّد أكسلروت يديه عليّ بقوة وقال: «إذا

(*) تركيب يُراد منه أن الفرد يتحمّل عواقب ما يفعله، لكننا فضّلنا ترجمته في هذا الموضع ترجمة حرفية. [م].

أخبرت أحداً بأنك رأيت الماس في تلك الأكياس فستمرض أمّك وأبوك ثم سيموتان». لم أكن أعرف ما هو الماس إلى أن قال لي ذلك. لم أُخبر أحداً، فمرضتُ عوضاً عن أمي وأبي. ما يزال السيّد أكسلروت يعيش في كوخه وعندما يأتي إلى بيتنا ينظر إليّ ليرى ما إن كنت قد أخبرتهما. إنه يستطيع أن يرى في داخلي مثل يسوع. يأتي إلى بيتنا ويقول إنه سمع كلّ شيء؛ بأن تاتا ندو يريد أن يتزوّج راشيل. كلّ الناس هنا يعرفون ذلك. يقول أبي إن على الناس البيض أن يتآزروا معاً الآن، لذلك يجب أن نكون أصدقاء مع السيّد أكسلروت، لكنّي لا أريد ذلك. عندما كنّا ننتظر في الطائرة، وضع يديه بقوة عليّ.

كُسرت ذراعي لأنني كنت أتجسّس مع أن أمي قالت إنني يجب ألّا أفعل ذلك. مرضتُ هذه المرة لأن الطفل يسوع يستطيع أن يرى ماذا أفعل، ولأنني لست فتاة جيّدة. فقد مزّقت بعض صور إدا، وكذبت على أمي أربع مرات، وحاولت أن أرى نِلسون عارياً، وضربت ليا على ساقها بعصا، ورأيت الماس في طائرة السيّد أكسلروت. الكثير من التصرّفات السيئة. إذا متُّ فإني سأختفي وأعرف أين سأعاود الظهور. سأكون هناك فوق الشجرة، اللون نفسه، كلّ شيء نفسه. سأنظر إلى الأسفل إليك، لكنك لن تراني.

راشيل

السابعة عشرة! أبلغ الآن من العمر عقدين وسبع سنين. أو هكذا ظننت، حتى أعلمتني ليا أن هذا يعني سبعة وعشرين. إذا كان الله يريد أن يعاقبك حقاً، فإنك ستعرفين ذلك عندما لا يرسل لك أختاً واحدة، وإنما يرسل أختين أصغر منك تحفظان القاموس كله عن ظهر قلب. أحمد الله أن واحدة منهما فقط تتكلّم.

لم يعرني أحد ذرة اهتمام في عيد ميلادي. مرَّ عليّ الآن في الكونغو عيدا ميلاد، كنت أظن أن عيد ميلادي الأول كان الأسوأ. فعلى الأقل بكت أمي في عيد ميلادي السنة الماضية، وأرتني علبة مزيج الكيك «الحلم الملائكي» الذي حملته طول الطريق من محلّات بيغلي ويغلي في بلدتنا بيت لحم، لتساعد على التخفيف من ثقل قضاء سنوات مراهقتي الغضة في أرض أجنبية. شعرت بأنني مهملة لأنني لم أحصل على أيّ هدايا لطيفة: لا بلوزة، لا أسطوانات فونوغراف - أوه، ظننت أن ذلك اليوم كان أسوأ يوم يمكن أن يمرّ في حياة فتاة.

يا إلهي! لم أحلم أبداً بأنني سأمضي عيد ميلاد آخر هنا، 20 آب آخر وأنا أرتدي الثياب والملابس الداخلية نفسها التي كنت أرتديها السنة الماضية، والتي اهترأت وأصبحت رثة، ما عدا المشدّ بوبي الذي توقّفت عن ارتدائه على الفور، ففي هذه الغابة الدبقة المرعبة لا مكان للتحكّم في شكل الجسد. والآن، فوق كلّ شيء، مرَّ عيد ميلادي ولم يلحظه أحد تقريباً. «أوه، أليس اليوم هو العشرون من آب؟!» سألت مراراً بصوت مسموع، وأنا أنظر إلى ساعتي كما لو كان هناك شيء يجب أن أفعله. وبما أن إدا تحتفظ بمفكّرتها، فهي الوحيدة التي تعرف في أيّ يوم نحن، وأبي، طبعاً، الذي يوجد لديه تقويم كنيسته الصغير الذي يدوّن فيه جميع مواعيده الهامة، هذا إن كان عنده مواعيد هامة أصلاً. وتجاهلتني ليا، وجلست إلى طاولة أبي للعمل على برنامج الحساب لتكون معلّمة. لقد اعتقدت ليا أنها عظيمة ورائعة منذ أن طلب منها أناتول أن تساعده في إعطاء بعض الدروس في المدرسة. يا له من شيء يستحق الحماس حقاً! إنها مجرّد رياضيات، أكثر مادة مملّة في العالم، وطلب منها أن تعلّمها لأصغر الأطفال أصلاً! لن أفعل ذلك حتى لو دفع لي أناتول دولارات أميركية خضراء. أظن أنه سيغمى عليّ إذا رأيت المخاط يسيل من أنوف الصبية الصغار إلى شفاههم.

سألتُ إدا بصوت مرتفع: «قولي، أليس اليوم هو العشرين من آب؟!»، فهزّت رأسها بأن نعم، ونظرت حولي بدهشة، حيث كانت أسرتي كلها تعدّ الفطور وتضع خطط الدروس وأشياء أخرى كما لو أن اليوم التالي هو مجرّد يوم بعد البارحة، وليس شيئاً خاصاً، حتى لا يمكن مقارنته بأيام الخميس في بلدتنا في بيت لحم: اليوم الذي نُخرج فيه القمامة دائماً.

تذكّرَتْ أمي أخيراً. فبعد الفطور أعطتني زوجاً من أقراطها وإسوارة مطابقة لهما، كانا من الكريستال فحسب، ولكن بظلٍّ جميل من الأخضر الذي يُبرز لون شعري وعينيَّ. وبما أنها المجوهرات الوحيدة التي رأيتها طوال سنة، فقد بدت لي مثل الماس - كنت محرومة تماماً. لكن في جميع الأحوال، من الجيّد أن أحصل على هدية صغيرة. فقد لفّتها داخل قطعة قماش وكتبت على بطاقة صنعتها من ورقة أخذتها من دفتر إدا: «إلى ابنتي البكر الجميلة، التي كبرت». في بعض الأحيان كانت أمي تحاول فعلاً. قبّلتها وشكرتها. لكن كان عليها أن تعود لتحمّم روث ماي بالإسفنجة. لذا فقد كان هذا كلّ شيء. إذ ارتفعت حرارة روث ماي إلى مئة وخمس درجات(*)، ولسع عقرب قدم إدا وكان عليها أن تغطسها في الماء البارد، ودخل نمس إلى قنّ الدجاج والتهم بعض البيض. كلّ ذلك حدث في اليوم نفسه: في يوم عيد ميلادي! إنهم يبذلون قصارى جهدهم لإبعاد الانتباه عني، ما عدا -كما أظن- النمس.

إدا

«تاتا المسيح هو بانغالا!» بهذه العبارة كان القسّ يختتم موعظة يوم الأحد. فمع تزايد عدم ثقته بالمترجمين، صار يحاول أن يتحدّث باللغة

(*) فهرنهايت، أي ما يعادل 40.6 درجة مئوية. [م].

الكيكونغولية. فيلقي برأسه إلى الوراء ويردّد هذه الكلمات بصوتٍ عالٍ مخاطباً السماء، بينما حملانه يجلسون يحكّون أجسادهم مندهشين. فكلمة بانغالا تعني شيئاً عزيزاً ثميناً. لكن بالطريقة التي كان يلفظها بها، يصبح معناها شجرة السم. سبِّحوا الربّ، هللويا، يا أصدقائي! لأن المسيح سيجعلكم تحكّون أكثر من أي أحدٍ غيره.

وبينما كان أبونا يبشّر بإنجيل شجرة السم، قامت ابنته روث ماي من بين الأموات. لم يلاحظ أبونا ذلك، ولعلّه لم يتأثّر كثيراً لأنه كان يفترض أن هذا سيحدث، فثقته بالله لم يكن لها حدود. كلب هو! كلب إيفول!(*) ربما كان الله يعرف أو لا يعرف أنّ أمّنا هي التي ساعدت على اجتراح هذه المعجزة عندما أجبرت روث ماي على تناول الحبوب نفسها مرة أخرى.

***

ا ه س ف ن – ب وب ح ل ا. لا تستطيع أن تخوض في ماء النهر مرّتين. هكذا يقول الفلاسفة اليونان، والتماسيح تؤكّد ذلك أيضاً. لم تعد روث ماي هي روث ماي نفسها. يام ثور. لم يبقَ أيٌّ منا كما كان: ليشار، ايل، ادإ، انايلروأ. تغيّر الجميع إلّا ناثان الذي يبقى نفسه من أي جانب أو زاوية نظرت منها إليه. أما نحن فكان لنا جانبان. نذهب إلى أسرّتنا ونحن أنفسنا، وننهض مثل الدكتور جيكل المسكين، متغيّرين. وأما أمّنا التي كانت مصابة برهاب الخلاء، والتي دأبت أن تبقينا دائماً في البيت طوال الشهور الماطرة وفي أثناء الوباء والاستقلال، فقد انقلبت الآن ضد حاميها، وبدأت تنظر إلى بيتنا بريبة، وتقول إنه مثل «شبكة العنكبوت» وإنه «يخنقنا من شدة الحرارة»، تتحدّث عنه مثل شيء له إرادةٌ وقصد. وأصبحت تُلبسنا بعد ظهر كلّ يوم، أفضل ما لدينا من ثياب ونخرج من بيتنا الموبوء، ونسير في الدرب المؤدي إلى الغابة في رتل واحد، الواحدة وراء الأخرى، باتجاه جدول الماء. وعندما

(*) عكس لحروف: Oh God! God's Love! (أوه، الله! حبّ الله!). [م].

كنا نجري بعيداً وتظن أننا لم نعد نراها، كانت تسير الهوينى متمايلة مثل شجرة تهزّها الريح، وعلى الرغم من خطر دودة الأنكلستوما، فقد كانت تخلع حذاءها وتمشي حافية.

ابتهِجوا أيها المؤمنون لأن روث ماي قامت من بين الأموات، لكن بعينين ذات نظرات فارغة كما لو كانتا لزومبي، وفقدت اهتمامها بأن تكون الأولى دائماً أو الأفضل في كلّ شيء. كما أن نِلسون لم يعد يقترب منها، وهذه هي نظريته: إن البومة التي كانت لدينا حفظت مخطط بيتنا عن ظهر قلب، وأصبح بإمكانها أن تعود إليه وتتسلل من النافذة وتلتهم روحها.

أخذت أخواتي الأخريات، بطرق مختلفة، يتصرّفن بغرابة تجاه الرجال. فقد أصبحت راشيل هستيرية بعد أن خُطبت، وعلى الرغم من أن هذه الخطوبة مختلقة، فإن ذلك لم يمنعها من قضاء ساعات في لعب دور «مرآتي مرآتي على الحائط»، بأقراطها الكريستالية الخضراء الجديدة، ثمّ تنتابها نوبات غضب شديدة وتحتجّ على زواجها المقبل.

أما ليا، التوءم الأكثر تناغماً، فقد كانت تبدي اهتماماً كبيراً باللغتين الفرنسية والكيكونغو - على وجه التحديد، مهتمة بتعلّمهما من أناتول. وفي الصباح أصبحت تعلّم تلاميذه الصغار الحساب، ثم تجلس ساعات عدة عند كمّ قميصه الأبيض الناصع يعلّمها تصريف الأفعال الانعكاسية *L'homme–se noie* (أنا أغرق)- التي كانت تقول قبل سنة إنها عديمة الجدوى. ويبدو أن الأفعال الانعكاسية تكتسب أهمية جديدة عند بعض الفتيات عندما يبلغن الخامسة عشرة، كما تعلّمت أيضاً الصيد بالقوس والنشاب. فقد قدّم لها أناتول هديةً صغيرة: قوساً وجعبة أسهم يوجد في ذيلها ريش أحمر - مثل «الأمل» في قصيدة الآنسة ديكنسون، ومثل ميثوسالا البائس، ببغاؤنا الذي مات. وكان أناتول قد شذّب هذه السهام بسكّينه من غصن شجرة «القلب الأخضر» ليقدّمها إلى ليا.

هذه هي القصيدة التي تُقرأ طرداً وعكساً والتي كتبتها عن الموضوع: إيروس، قذى العين(*).

ابتهج نِلسون كثيراً. فقد اعتبر قوس ليا وسهامها تطوّراً إيجابياً في أسرتنا بعد كلّ الأمور المثبّطة الأخرى، مثل اقتراب روث ماي من الموت. وأخذ نِلسون على عاتقه عملية تدريب ليا، فراح يصنع أهدافاً من أوراق الأشجار ويثبّتها على جذع شجرة المانغا الضخمة التي تنتصب عند حافة فناء بيتنا. وكانت هذه الأهداف تصغر يوماً بعد يوم. كان قد بدأ بورقة شجرة أذن الفيل الضخمة التي تشبه مئزراً مثلّث الشكل يرفرف في النسيم، والذي كان من المستحيل تقريباً عدم إصابته. في وقتٍ واحد كانت ليا ترمي سهامها التي تترنّح عبر الحافة الخضراء المشقّقة، لكنّها بدأت بعد ذلك تشقّ طريقها بثبات، حتى باتت تصيب الآن ورقة شجرة صغيرة مستديرة بحجم الإبهام في شجرة جوافة. وعلّمها نِلسون أيضاً كيف تقف، وتغمض إحدى عينيها ثم تطلق سهمها فينطلق مرتجفاً إلى قلب ورقة الشجر. لقد أصبحت رامية ماهرة على نحوٍ لا يُصدّق.

أصبحنا أنا وإلهة الصيد، أختي التوءم، نزداد تباعداً يوماً بعد يوم، على ما أعتقد باستثناء هذا: بدأ سكّان القرية ينظرون إليها على أنها فتاة غريبة الأطوار، أو على الأقل، فتاة لا تتمتع بأي قدر من الأنوثة. وصرت أُعتبر الآن فتاةً أكثر طبيعية منها. أنا «البندوكا» الكلمة الوحيدة التي تصفني تماماً: فتاة منحنية تميل إلى جانب واحد وتمشي ببطء. أما أختي التوءم التي أصبحت تعلّم الآن تلاميذ المدرسة وتصيب جذوع الأشجار بسهامها، فقد سمعتُ من جيراننا كلمات مختلفة عنها لا تعبّر عن حبّ كبير. فقد كانت الكلمة

(*) العبارة في الإنجليزية تقرأ طرداً وعكساً: Eros, eyesore!. و«إيروس» واحد من المصطلحات اليونانية القديمة الأربعة، ويشير إلى الحب. وهو إله الحب والجنس. [م].

التي يصفونها بها باكالا التي تعني أشياء كثيرة تغطي الأرض، كالفلفل الحار ونوع من البطاطا ذات النتوءات الكثيرة، وكذلك العضو الذكري.

لكن ليا لم تكن تولي ذلك أدنى اهتمام. ودأبت على القول بما أن أناتول أعطاها القوس، وطلب منها أن تعلّم التلاميذ في المدرسة، فذلك معناه أنها لا تخالف أي عادات اجتماعية. أخفقت في أن ترى أن أناتول يكسر العادات السائدة من أجلها، وسيكون لهذا عواقب. ومثل هستر برين(*) الغافلة، حملت ليا حرف D الأخضر الكبير في قوسها المتدلي على كتفها، D مثل في كلمة دراماتيك، أو دايانا إلهة الصيد، أو داهية تنتهك أعرافاً اجتماعية.

وأصبحت تذهب إلى السوق وحتى إلى الكنيسة وقوسها مرمي على كتفها مع أنه يفترض أن تترك سهامها في البيت يوم الأحد. وحتى ماما التي لم تكن في أفضل أحوالها مع المسيح الآن، كانت غير راضية عن ذهاب ابنتها إلى بيت المسيح وهي تحمل الأسلحة.

ليا

بالنظر إلى وجه أناتول جانبياً، يمكنك رؤية أنه بعينه المائلة قليلاً إلى الأسفل وجبهته العالية، يشبه فرعوناً أو إلهاً في لوحة مصرية. عيناه أكثر العيون البنيّة دكنةً يمكن للمرء أن يتخيّلها. حتى البياض في عينيه ليس أبيض، وإنما أبيض مائل إلى الصفرة قليلاً. نجلس أحياناً إلى المنضدة تحت الأشجار خارج المدرسة بعد أن يذهب التلاميذ إلى بيوتهم. أدرس اللغة الفرنسية وأحاول ألّا أضايقه كثيراً وهو يحضّر الدروس التي سيعطيها غداً. نادراً ما

(*) Hester Prynne هي بطلة رواية «الحرف القرمزي» للكاتب الأميركي ناثانيال هاوثورن Nathaniel Hawthorne، وقد حُكم عليها أن ترتدي ثياباً عليها حرف قرمزي، للدلالة على ارتكابها إثم الزنى. [م].

ترتفع عيناه عن الكتاب الذي يقرؤه، وأعترف أنني أختلق الأعذار لمقاطعة تركيزه. هناك أشياء كثيرة أريد أن أعرفها منه. أريد أن أعرف مثلاً ما الذي جعله يطلب مني أن أعلّم التلاميذ الآن. أبسبب الاستقلال أم بسببي أنا؟ أريد أن أسأله ما إن كانت جميع القصص التي نسمعها صحيحة: ما يحدث في ماتادي وثيسڤيل وستانليڤيل. فقد روى تاجر متجوّل كان يعبر كيلانغا متجهاً إلى كيكويت حكايات مرعبة عن أعمال ذبح وقتل جرت في ستانليڤيل. وقال إن الفتيان الكونغوليين الذين يضعون تيجاناً من أوراق الأشجار حول رؤوسهم لا يخترقهم الرصاص الذي يطلقه عليهم البلجيكيون. وقال إن الطلقات تخترق أجسادهم ثم ترتطم بالجدران وراءهم، وادّعى بأنه رأى ذلك بأمّ عينه. كان أناتول واقفاً هناك لكنه لم يكن يبدي أي اهتمام بهذه الحكايات. وبدلاً من ذلك، كان يتفحّص نظّارات اشتراها من ذلك التاجر. وللنظّارات التي اشتراها عدسات تكبّر الأشياء: عندما جرّبتها بدت حتى الكلمات الفرنسية كبيرة وسهلة القراءة. إنها تجعل أناتول يبدو أكثر ذكاء، لكنها أيضاً تجعله يبدو مصرياً أقل من ذي قبل.

لكن قبل كل شيء، أريد أن أسأل أناتول هذا السؤال الذي لا يُسأل: هل يكرهني لأنني بيضاء؟

لكني سألته، بدلاً من ذلك: «لماذا يكرهني نكوندو وغابرييل؟».

نظر إليّ أناتول نظرة مليئة بالدهشة من حافة الإطار وعدسات نظّارته الجديدة، وقال: «هل يكرهك نكوندو وغابرييل أكثر من الآخرين؟»، وبدأ يركّز على حديثنا وعليّ، ثم أضاف: «لمَ تعتقدين ذلك؟».

زفرتُ الهواء من بين شفتي مثل حصان غاضب، وقلت: «يكرهني نكوندو وغابرييل أكثر من التلاميذ الآخرين، لأنهما يقرعان على الكرسي كأنه طبل ويشوّشان عليّ عندما أحاول أن أشرح لهم عملية القسمة المطوّلة».

«إنهما صبيان شقيّان إذاً».

أعرف أنا وأناتول أن الأمر ليس كذلك. فقد لا يكون هناك داعٍ لأي استنتاجات إذا ما قرع التلاميذ على الكرسي في مدرسة بيت لحم، حيث كان التلاميذ الصغار يتصرّفون كما يحلو لهم، لكن هنا فإن أهل الصبية يبذلون كل ما بوسعهم للحصول على طعام أو نقود إضافية ليذهب أبناؤهم إلى المدرسة، ويعرف الجميع ذلك. فالذهاب إلى المدرسة هنا يُعتبر قراراً هاماً، وتلاميذ أناتول جدّيون مثل القبر. لكن عندما أحاول أن أعلّمهم الرياضيات، ويكون أناتول منهمكاً في تعليم تلامذته الأكبر سنّاً، فإنهم يثيرون ضجة كبيرة.

«حسناً، أنت محقّ. فالجميع يكرهونني هنا» -قلت بحزن- «أظن أنني لستُ معلّمة جيّدة».

«أنت معلّمة جيّدة. ليست هذه هي المشكلة».

«ما المشكلة إذاً؟».

«يجب أن تفهمي أولاً أنك فتاة. ولم يتعوّد هؤلاء الصبية على إطاعة جدّاتهم. فإذا كانت القسمة المطوّلة هامة لنجاح شابّ في هذا العالم، فكيف تمكّنت فتاة جميلة من معرفة ذلك؟ إنهم يفكّرون بهذه الطريقة. وثانياً يجب أن تفهمي أنك بيضاء».

ماذا يقصد بأنني فتاة جميلة؟!

«بيضاء» -كرّرت- «إذاً فهم يظنون أن البيض لا يعرفون شيئاً عن القسمة المطوّلة أيضاً؟».

«في سريرتهم، يعتقد معظمهم أن البيض يعرفون كيف يشعلون الشمس ويطفئونها ويجعلون النهر يتدفّق إلى الوراء. في سريرتهم، لكن ليس علناً، ففي هذه الأيام بدؤوا يسمعون من آبائهم بأنهم حصلوا على الاستقلال، وأن على الرجل الأبيض أن يرحل من الكونغو، ويجب ألّا يعلّمنا ماذا يجب أن نفعل».

«ويقولون أيضاً إن على أميركا وبلجيكا أن تعطيهم أموالاً كثيرة، كما علمت، تكفي لأن يكون لدى كلّ شخص مذياع أو سيارة أو شيءٌ ما. نِلسون قال لي ذلك».

«نعم، هذا ثالثاً. إنهم يظنون أنّك تمثّلين بلداً جشعاً».

أغلقت كتاب تصريف الأفعال الفرنسية، وقلت له: «أناتول، هذا غير معقول. إنهم لا يريدون أن نكون أصدقاء، وهم لا يحترموننا، وفي ليوبولدڤيل ينهبون بيوت البيض، ومع ذلك فإنهم يريدون أن تعطيهم أميركا نقوداً».

«أيّ جزء من هذا يبدو لك غير معقول؟».

«كلّ شيء».

«بينيه، فكّري جيّداً!» - قال بصبر، كما لو كنت تلميذة في صفّه لم تعرف كيف تحلّ مسألة سهلة.

ثم أضاف: «عندما يحالف أحد الصيّادين -لنقل تاتا بواندا- الحظ في النهر، ويعود بقاربٍ محمّل بالسمك، فماذا يفعل؟».

«هذا لا يحدث في كثير من الأحيان!».

«لا، لكنّك رأيت أنّ هذا حدث. ماذا يفعل؟».

«يغني بأعلى صوته، فيهرع إليه الجميع ويوزّع عليهم السمك».

«يعطيه حتى لأعدائه؟».

«أظن ذلك. أعرف أن تاتا بواندا لا يحبّ تاتا زينسانا كثيراً، ومع ذلك فهو يعطي زوجات تاتا زينسانا أكبر كمية من السمك».

«صحيح، وهذا يبدو منطقياً لي. فعندما يكون لدى شخص أكثر مما يستطيع أن يستهلكه، فمن المنطقي ألّا يحتفظ بكلّ شيء لنفسه».

«لكن تاتا بواندا يضطر إلى أن يوزّع السمك كلّه، لأنه سيفسد إذا بقي فترة طويلة. فإذا لم يتخلّص منه، فإنه سيتعفّن وتصل رائحته إلى السماء».

ابتسم أناتول وأشار بإصبعه إلى أنفي، وقال: «هذه هي الطريقة التي يفكّر فيها الكونغوليّ بالنقود».

«لكن إذا أعطيت كلّ ما يزيد عن حاجتك دوماً، فلن تصبح غنياً أبداً».

«هذا صحيح على الأرجح».

«وجميع الناس يريدون أن يصبحوا أغنياء».

«هل هذا صحيح؟».

«بالتأكيد. نِلسون يريد أن يوفّر نقوداً ليتزوّج، وربما أنت أيضاً».

لسببٍ ما لم أستطع أن أنظر إليه عندما قلت له ذلك.

ثم قلت: «تاتا ندو غني جداً عنده ستّ زوجات، والجميع يحسدونه».

«تاتا ندو لديه مهمة شاقة للغاية، لذلك فإنه يحتاج إلى أكثر من زوجة. لكن لا تظني أن الجميع يحسدونه. أنا نفسي لا أريد عمله» -ضحك أناتول- «ولا زوجاته».

«لكن ألا تريد مالاً كثيراً؟».

«بينيه، لقد أمضيت سنوات كثيرة وأنا أعمل لصالح البلجيكيين في مزارع المطاط في كوكويلهاتڤيل، ورأيت رجالاً أغنياء هناك. كانوا دائماً غير سعيدين وعندهم عدد قليل جداً من الأطفال».

«ربما سيكونون أكثر تعاسة لو كانوا فقراء»، جادلته.

ضحك وقال: «قد يكون كلامك صحيحاً. ومع ذلك، فأنا لم أتعلّم أن أحسد رجلاً غنياً».

«لكنك تحتاج إلى نقود» -واصلت بإلحاح، مع أنني أعرف أن المسيح عاش في فقر، لكن ذلك كان في مكان وزمن آخرين. ثقافة صحراوية قاسية، كما قال الأخ فاولز- «إنك تحتاج إلى نقود تكفي لشراء الغذاء والذهاب إلى الأطباء وكلّ هذه الأشياء».

فقال موافقاً: «قليل من المال يكفي لشراء سيارة ومذياع لكلّ قرية. يستطيع بلدك أن يعطينا كلّ ذلك، إي-إي؟».

«ربما. لا أظن أن هذا سيُحدث مشكلة عندنا. ففي جورجيا، توجد لدى كل شخص نعرفه سيارة».

«آبو، لا تلفّقي قصصاً. هذا غير معقول!».

«حسناً، ليس جميع الناس. فأنا لا أقصد الأطفال الرضّع والأطفال الصغار. لكن توجد لدى كلّ عائلة سيارة».

«هذا غير ممكن».

«نعم، هذا ممكن! حتى إنه توجد لدى بعض العائلات سيارتان».

«لماذا كلّ هذه السيارات في الوقت نفسه؟».

«لأن كلّ شخص يريد أن يذهب إلى مكان معيّن كلّ يوم: إلى العمل أو إلى المخزن لشراء أغراض أو إلى أي مكان آخر».

«لماذا لا يذهبون مشياً على الأقدام؟».

«الحياة ليست كما هي هنا يا أناتول. فكلّ شيء هناك بعيد. ويعيش الناس في بلدات ومدن كبيرة. مدن حتى أكبر من ليوبولدڤيل».

«بينيه، إنك تكذبين عليّ، فإذا عاش كلّ الناس في المدينة فلن يتمكّنوا من زراعة طعام يكفيهم».

«إنهم يزرعون المحاصيل في الريف، في حقول شاسعة. يزرعون الفول السوداني والصويا والذرة، كلّ ذلك. يزرع المزارعون هذه المحاصيل، ثمّ يأخذونها في شاحنات كبيرة إلى مخازن كبيرة في المدينة حيث يشتريها الناس».

«من السوق».

«لا، المخازن تلك لا تشبه السوق هنا على الإطلاق. إنها مثل بيت كبير

جداً، مضاء بأنوار ساطعة فيه رفوف كثيرة، ويُفتح كلّ يوم، وبإمكان شخص واحد أن يبيع البضائع المختلفة».

«توجد لدى مزارع واحد كلّ هذه المحاصيل؟».

«لا، ليس المزارع. صاحب المخزن يشتري المحاصيل من المزارعين، ثم يبيعها إلى سكّان المدينة».

«إذاً لا تعرفين من أي حقل جاء هذا الطعام؟ هذا شيء فظيع. فقد يكون مسموماً».

«إنه ليس سيئاً. يكون عادة جيّداً».

«كيف يمكن أن يتوفّر طعام يكفي الجميع يا بينيه؟ إذا كان الناس كلهم يعيشون في المدينة؟».

«يوجد طعامٌ كافٍ. الأمور مختلفة عن هنا».

«وما هو هذا الاختلاف؟».

«كلّ شيء»، قلت.

أردت أن أواصل كلامي، لكن لساني لعق أسناني من الخلف، متذوّقاً طعم كلمة «كلّ شيء». رحت أحدّق في حافة الأرض وراءنا حيث تطبق الغابة علينا بجدارها الأخضر الكثيف من الأشجار، وتغريد الطيور، وأصوات الحيوانات وهي تتنفّس، كل شيء مستمر مثل نبضات القلب التي نسمعها في نومنا. تحيط بنا أشجار حيّة رطبة كثيفة وأعشاب طويلة على امتداد الكونغو. ونحن لسنا سوى فئران صغيرة نتسلل عبرها في دروبنا الصغيرة المظلمة. يبدو أن الأرض في الكونغو هي التي تمتلك البشر. كيف يمكنني أن أصف لأناتول حقول الصويا حيث يجلس الرجال في جرّارات ضخمة كما يجلس الملوك على عروشهم، يروّضون التربة من أفق إلى آخر؟ بدا ذلك أشبه بخدعة ذاكرة أو حلم بلون أزرق مخضرّ: مستحيل.

فقلت: «في بلدنا لا توجد غابة كهذه».

«إذاً ماذا يوجد عندكم؟».

«حقول شاسعة، مثل حديقة مانيوك عريضة وطويلة مثل نهر كويلو. أظن أنه كانت هناك أشجار، لكن الناس قطعوها».

«ولم تعد تنمو؟».

«أشجارنا ليست حيوية مثل أشجاركم. لقد استغرقت أنا وأبي وقتاً طويلاً حتى نفهم كيف تنمو النباتات هنا. هل تتذكّر أن أول شيء فعلناه عندما وصلنا إلى هنا أننا أزلنا الأعشاب لنزرع حديقتنا؟ ولا تستطيع الآن أن تعرف أين كانت. فقد نما كل شيء بسرعة، ثم مات، وتحوّلت الأرض إلى طين أحمر نتن مثل اللحم المتعفّن، ثمّ نمت الكروم في كل مكان. كنا نظن أننا سنعلّم الناس هنا كيف يزرعون كما نفعل في بلدنا».

فضحك وقال: «حقول المانيوك الشاسعة بطول نهر كويلو وعرضه».

«أعرف أنك لا تصدّقني، لكن ما أقوله لك صحيح! لا يمكنك أن تتخيّل ذلك، لأنك هنا إذا قطعت مساحة كبيرة من الغابة لزراعة محاصيل، فإن المطر سيغرقها ويحوّلها إلى نهر من طين».

«ثم سيخبزها الجفاف».

«نعم! وإذا حصلت على أيّ محصول، فإن الطرق ستغرق ولن تتمكّن من نقل محصولك إلى البلدة، على أي حال».

نقر بلسانه وقال: «لا بدّ أنك تجدين الكونغو مكاناً غير متعاون».

«لا يمكنك أن تتصوّر كم الأمر مختلف هنا عمّا نحن معتادون عليه. ففي بلدنا توجد مدن وسيارات وأشياء أخرى لأن الطبيعة منظّمة بطريقة مختلفة تماماً».

استمع أناتول ورأسه مائل، ثم قال: «لذلك جاء أبوك وصمّم على أن يزرع حديقته الأميركية هنا في الكونغو».

«يرى أبي أن الكونغو بلد متخلّف وأن بإمكانه أن يساعد على تقدّمه. أعرف أن هذا جنون، كأنه يحاول أن يضع عجلات مطاطية للحصان».

رفع أناتول حاجبيه متعجباً. لا أظن أنه رأى حصاناً في حياته، لأن الحصان لا يستطيع أن يعيش في الكونغو بسبب ذبابة النوم «التسه تسه». حاولت أن أفكّر بحيوان آخر لأفسّر له، لكني لم أجد في الكونغو أيّاً منها. ولا حتى أبقار. كانت الفكرة التي حاولت أن أعبّر عنها صحيحة لكني لم أجد طريقة أعبّر فيها عنها.

«للعنزة» -قلت أخيراً- «عجلات للعنزة. أو للدجاجة، أو للزوجة. كانت فكرة أبي تطبيق ما يجعل الأشياء عندنا تعمل بشكلٍ أفضل، لكن هذا لا يناسب أيّ شيء هنا».

«أبي، بينيه. العنزة المسكينة التي عند والدك حزينة جداً».

«وزوجته كذلك!» قلت في نفسي. لكنّي لم أتمالك نفسي من أن أتخيّل عنزة ذات عجلات كبيرة عالقة في الطين، فضحكت. ثمّ شعرت بأنني غبية. فلم أكن أعرف هل أناتول يحترمني أم أنه يرى أنني لست إلّا طفلة مسلّية.

«يجب ألّا أسخر من أبي»، قلت.

«لا» – قال، وهو يلمس شفتيه وتزوغ عيناه إلى الأعلى.

«يجب ألّا أفعل ذلك. إنها خطيئة».

خطيئة، خطيئة. شعرت أني مبللة بها، ومريضة منها، ثم اعترفت: «كنت أدعو الله دائماً أن يجعلني مثله، ذكية وتقية وصالحة أطيع إرادته، أما الآن فلم أعد أعرف حتى ما الذي أتمنّاه. أصبحت أتمنّى أن أكون مثل أي شخص آخر».

انحنى إلى الأمام، ونظر في عينيَّ. ثم انتقلت إصبعه من شفتيه نحو وجهي وحامت أمامه لتجد مكاناً تزرع فيه مباركتها.

«بينيه، إذا كنت مثل أي شخص آخر، فلن تكوني بينيه-بينيه».

«أرجو أن تقول لي ماذا تقصد بكلمة بينيه-بينيه. ألّا يحق لي أن أعرف معنى اسمي؟».

سقطت يده على الطاولة، وقال: «سأقول لك ذات يوم».

إذا لم أتعلّم تصريف الأفعال الفرنسية من أناتول، فعلى الأقل سأحاول أن أتعلّم منه الصبر.

«هل يمكنني أن أسألك سؤالاً آخر؟».

فكّر قليلاً. كان ما زال يضع يده اليسرى في كتابه، وقال: «نعم».

«لماذا تترجم مواعظ أبي؟ فأنا أعرف رأيك ببعثتنا هنا».

«حقاً؟».

«أظن ذلك. عندما دعاك أبي إلى العشاء في بيتنا في ذلك اليوم وقلت إن تاتا ندو لا يريد أن يتبع الناس الطريقة المسيحية، ويتخلّوا عن الطرق القديمة. أظن أنك تفكّر أيضاً بأن الطرق القديمة أفضل، وأنك لا ترغب في الأسلوب الذي وضعه البلجيكيون لإجراء الانتخابات، بل إنني أظن أنك لست متحمّساً جداً لتعليم الفتيات في المدرسة».

«بينيه، لم يأت البلجيكيون إليّ ويسألوني: أناتول نغيمبا، كيف يمكننا أن نجري الانتخابات؟ لم يقولوا إلّا: "كيلانغا، ها هي ذي أصواتكم. تستطيعون أن تلقوا بها في طاسة كالاباش هذه، أو في طاسة كالاباش تلك، أو ألقوا بها كلّها في النهر". كانت مهمتي شرح هذا الخيار لهم».

«لكني ما أزال أظن أنك لست متحمّساً لما يهدف أبي إلى تحقيقه هنا».

«لا أعرف تماماً ما الذي يهدف والدك إلى تحقيقه هنا. هل تعرفين أنت؟».

«أن يروي قصص المسيح وحبّ الله. يجلبهم كلّهم إلى محبة الله».

«وإذا لم يترجم أحد مواعظه، فكيف سيستطيع أن يحكي هذه القصص؟».

«هذا سؤال جيّد. أظن أنه كان سيحاول ذلك بالفرنسية والكيكونغو، لكنّه يخلط بينهما بشكلٍ سيّئ. ربما لن يفهم أهل القرية ما الذي يفعله هنا بالضبط».

«أظن أنك على حقّ. فإذا لم يفهموا ما يقوله والدك جيّداً، فقد يحبّونه أكثر، أو أقل. لا يمكن معرفة ذلك. أما إذا فهموا ما يقوله، فقد يتمكّنون من اتخاذ قرارهم بأنفسهم».

رمقت أناتول طويلاً، وقلت: «إذاً فإنك تحترم أبي».

«أنا أحترم ما رأيته. لا يمكن أن يبقى شيء كما هو. فعندما يأتي شخص جديد إلى بيتك حاملاً الهدايا. لنقل إنه جلب قِدر طهي، ويوجد عندك قِدرٌ تحبّينه كثيراً، لكن قد يكون القِدر الجديد هذا أكبر حجماً. عندئذٍ ستكونين سعيدة جداً وتعطين القِدر القديم إلى أختك، أما إذا كان هناك ثقب في القِدر الجديد، فإنك ستشكرين ضيفك كثيراً على هديته، وعندما يذهب ستضعينه في باحة البيت لتطعمي فيه قشور السمك للدجاج».

«إذاً، أنت تفعل ذلك بدافع التهذيب فحسب، أنت لا تؤمن بالمسيح مطلقاً».

نقر بلسانه، وقال: «إن ما أؤمن به ليس هاماً جداً، فأنا معلّم. هل أؤمن بجدول الضرب؟ هل أؤمن باللغة الفرنسية، أو بالأحرف الإضافية التي تتدلى في نهاية الكلمات كالأطفال الكسالى؟(*) لا يهمّ. يحتاج الناس لمعرفة ما يختارونه. لقد رأيت عدداً كبيراً من الرجال البيض يأتون إلى بيتنا، يجلبون معهم دائماً أشياء لم نرها في حياتنا، ربما مقصّ أو دواء أو محرّك قارب، وربما كتب، أو مخطط لاكتشاف الماس أو لزراعة المطاط. وقد تكون قصصاً عن المسيح. يبدو بعضها مفيداً جداً، وبعضها الآخر غير مفيد. المهم أن يكون المرء قادراً على أن يميّز بين ما يفيده وما لا يفيده».

(*) في اللغة الفرنسية ثمة حروف تكتب في نهاية الكلمات ولا تلفظ. [م].

«وإذا لم تترجم قصص الإنجيل، فقد يؤمن الناس بالمسيحية لأسباب خاطئة. سيظنون أن ربنا أعطانا مقصّاً وحبوباً للقضاء على الملاريا، وأن هذا هو السبيل الذي يجب أن يتبعوه».

فابتسم وقال: «إذاً، فأنتِ تريدين أن تعرفي معنى كلمة بينيه-بينيه؟».

«نعم».

«إنها تعني: كما يمكن أن تكون الحقيقة».

أحسست بوخز خفيف في خدَّيَّ، وقد زادني الشعور بالحرج خجلاً. حاولت أن أفكّر بشيء أقوله، لكني لم أستطع. عادت عيناي إلى الجمل الفرنسية وقد تبيّن لي أنني لا أستطيع ترجمتها.

قلت أخيراً: «أناتول، إذا كان بإمكانك أن تحصل على أيّ شيء في العالم، فماذا تريد؟».

فقال من دون تردد: «أن أرى خريطة العالم كلّه في قطعة واحدة».

«حقاً؟ ألم ترها قط؟».

«ليس كلّها مرة واحدة. لا أعرف ما إن كانت في شكل مثلّث أم دائرة أم مربع».

«إنها مستديرة» - قلت مندهشة. كيف لا يعرف؟ فقد ذهب إلى مدارس المزرعة، وخدم في بيوت أشخاص عندهم رفوف مليئة بالكتب، ولغته الإنكليزية أفضل من إنكليزية راشيل، ومع ذلك فهو لا يعرف ما هو شكل العالم الحقيقي. «إنها ليست دائرة، لكن كهذه» -قلت وكوّرت يدي- «مستديرة مثل كرة. أصحيح أنك لم ترَ الكرة الأرضية قط؟».

«لقد سمعت عن الكرة الأرضية. خريطة مثبّتة فوق كرة. لم أكن متيقّناً مما إن كنت قد فهمتها بشكلٍ جيّد، لأنني لم أتصوّر كيف يمكن للأرض أن تتناسب مع الكرة. هل رأيتِ واحدة؟».

«أناتول، عندي واحدة. توجد عند الكثيرين في أميركا».

فضحك وسألني: «لماذا؟ ليعرفوا إلى أين سيذهبون بسيارتهم؟».

«إنني لا أمزح. إنها موجودة في قاعات الدروس في المدرسة وفي كل مكان. أمضيت أوقاتاً كثيرة وأنا أحدّق في كرات أرضية حتى إنني أستطيع أن أصنع واحدة».

رمقني بنظرة تشي بالشكّ.

«يمكنني أن أصنع واحدة. أحضر لي كالاباش نظيفاً وسأصنع لك منه كرة أرضية».

«أودّ ذلك كثيراً» - قال، وبدأ يكلّمني الآن كصديق بالغ، لا كطفلة. ولأول مرة في حياتي، شعرت باليقين من ذلك.

«أتعرف، يجب ألّا أُعلّم الرياضيات، يجب أن أُعلّم الجغرافيا. أستطيع أن أحدّث تلاميذك عن المحيطات وعن المدن وعن جميع عجائب العالم».

ابتسم بحزن وقال: «بينيه، لن يصدّقوك!».

راشيل

في اليوم الذي أعقب عيد ميلادي، جاء أكسلروت وخرجنا لنتمشّى. بدأت أتوقّع موعد عودته بشكل تقريبي. فقد كان يسافر بالطائرة إلى المكان السري الذي يذهب إليه يوم الخميس، ويعود يوم الاثنين، ويأتي إلى بيتنا يوم الثلاثاء. كنت أرتدي ثوبي الأخضر الذي حال لونه الآن وأصبح بلون أخضر باهت، واقتُلع زرّان من أزراره. في النصف الأول من السنة الماضية، كنت أصلّي لأن أحصل على مرآة بالطول الطبيعي، وفي النصف الثاني شكرت الربّ لأنه لم يكن لدينا مرآة. لكن من يهتم ما إن كان ثوبي أنيقاً؟ لم يكن لقاؤنا موعداً غرامياً، وإنما كنا نلتقي لكي يحسب الناس أننا مخطوبان.

قررت أن أتمشّى معه حتى حدود القرية فحسب، لا خطوة واحدة أبعد من ذلك. ووعدتُ أمي بألّا أذهب معه إلى الغابة أو إلى أي مكان بعيد عن الأنظار، لأنها لا تثق به، وتتمنى أن تلقي به إلى أبعد مسافة تستطيعها، وصدّقوني، من النظرة في عينيها أعتقد بأنها يمكن أن تلقي به إلى أبعد مكان ممكن. لكن سلوكه أصبح الآن نظيفاً ومهذباً. وقف ينتظرني عند الباب في بدلته الكاكي السانفوريزيد من نوع «اغسل والبس»، وكان يضع نظّارات شمسية كالتي يضعها الطيّارون. بشكلٍ عام كان يبدو وسيماً، إذا استطعت تجاهل الإشارات التي تشي بأنه شخص خسيس.

تمشّينا تحت حرارة الشمس التي لا تطاق، في الحادي والعشرين من آب من عام ألف وتسعمئة وستّين. كان أزيز البقّ عالياً جداً يكاد يجرح أذنيك، وكانت طيور حمراء صغيرة تجثم فوق أطراف الأعشاب الطويلة على جانبي الطريق تتمايل يمنةً ويسرة. وخارج القرية، كانت أوراق نبتة الفيل الطويلة تتشابك في أعلى الدرب وتشكّل نفقاً مظلّلاً. في بعض الأحيان، تشعر بأن الكونغو جميلة تقريباً. تقريباً. ثم، لا تنظر الآن، لأن صرصوراً طوله أربع بوصات أو شيئاً ما، سيزحف أمامك على المسار، وهذا ما حدث تماماً، فقفز أكسلروت ودهسه بقدمه. لم أستطع أن أنظر إليه. كان الصوت مزعجاً بما فيه الكفاية، صدّقوني. صوت بين الخشخشة والهرس، لكني أظن أن ما فعله سلوك متحضّر منه(*).

قلت: «حسناً، يجب أن أقول إنه من الجيّد أن أشعر بأن أحداً يحميني وذلك نوعٌ من التغيير، فإذا ظهر صرصور عملاق حول بيتي، فإن أحداً من أسرتي سيروّضه ويجعله حيوانه الأليف أو يطبخه لنأكله على العشاء».

«أسرتك غير عادية».

(*) تريد راشيل القول إنه سلوك شهم، لكنها تُخطئ في تهجئة chivalrous وتكتب عوضاً عن ذلك civilrous «متحضّر». [م].

«جداً! وهذه أكثر طريقة مهذبة يمكن أن تصف فيها أسرتي».

«أريد أن أسألك، ما الذي حدث لأختك؟».

«أيّ أخت منهن؟ بحسب علمي، فقد وقعن ثلاثتهن على رؤوسهن عندما كنّ رضيعات».

فضحك وقال: «الأخت التي تعرج، إدا».

«إنها مصابة بشلل نصفي. لقد أُتلف نصف دماغها قبل أن تولد فكان على النصف الآخر أن يتولّى الأمر، وهذا جعلها تفعل الأشياء بطريقة عكسية» - كان من عادتي أن أقدّم تفسيراً علمياً عن حالة إدا.

فقال: «فهمت. هل تعرفين أنها تتجسّس عليّ؟».

«إنها تتجسّس على الجميع. لا تأخذ الأمر شخصياً. إن التحديق في شخص آخر من دون إصدار أدنى صوت هو أسلوبها في إجراء محادثة».

مشينا أمام بيت ماما موانزا واجتزنا بيوتاً أخرى كان يجلس أمامها على دلاءٍ رجالٌ معظمهم مسنّون لا يوجد سنّ واحد في أفواههم. وتنعّمنا أيضاً بصبية صغار يركضون أمامنا عراة تماماً، لا يسترهم سوى خيط رفيع من الخرز يلتف حول بطونهم. تسألونني لماذا أنزعج؟ فقد كانوا يركضون في الدرب ليروا كم يمكنهم الاقتراب منا قبل أن يصرخوا ثم يهربوا. هذه هي لعبتهم المفضّلة. وكانت النسوة يعملن في حقول المانيوك لأننا لا نزال في فترة الصباح.

أخرج أكسلروت من جيب قميصه علبة دخان «لاكي سترايك» وهزّها باتجاهي. ضحكتُ وذكّرته بأنني لست كبيرة بما يكفي، لكني أدركت بعدئذٍ، يا إلهي، أنني في السابعة عشرة من عمري. أستطيع أن أدخّن إذا أردت، لمَ لا؟ حتى إن بعض المعمدانيين يدخّنون في بعض المناسبات. أخذت منه سيجارة.

«شكراً. أتعرف أنني بلغت السابعة عشرة البارحة؟» - قلت له، ووقفت تحت ظلّ شجرة نخيل واضعةً السيجارة بين شفتيَّ ليشعلها لي.

«تهانيَّ» -قال بصوت منخفض من خلال السيجارة التي وضعها في فمه- «كنت أظنُ أنك أكبر من ذلك».

جعلني هذا أرتعش، لكن لم يكن نصف ما شعرت به بعد ذلك. فعندما كنا واقفين في منتصف الدرب أخذ السيجارة من فمي ووضعها في فمه، ثمّ أشعل عود ثقاب على ظفر إبهامه وأشعل السيجارتين معاً، تماماً مثل الممثّل همفري بوغارت. وبلطف شديد، وضع السيجارة المُشعَلة بين شفتَيّ. بدا ذلك كما لو أن أحدنا قبّل الآخر. سرت قشعريرة أسفل ظهري، لكنّي لم أكن متيقّنة ما إن كانت قشعريرة برد أم إثارة. إذ يصعب أحياناً التمييز بينهما.

حاولت أن أمسك فلتر السيجارة بين إصبعَيَّ كما تفعل الفتيات في الإعلانات على صفحات المجلّات. حتى الآن كان كلّ شيء يسير على ما يرام في ما يتعلّق بالتدخين. قلت لنفسي، ثمّ أخذت نَفَساً، وأطلقت الدخان من بين شفتَيّ المزمومتين، واعتراني شعور بالدوار على الفور تقريباً. وسعلت مرة أو مرتين، فضحك أكسلروت.

قلت له: «لم أدخّن منذ فترة. فكما تعرف، من الصعب أن نحصل على مثل هذه الأشياء الآن».

«يمكنني أن أحضر لك كلّ السجائر الأميركية التي تريدينها. فقط قولي».

«حسناً، لن أخبر والديّ بذلك. إنهما ليسا مدخّنين».

تساءلت كيف يستطيع أن يحصل على سجائر أميركية في بلد لا يمكنك أن تشتري فيه حتى ورق تواليت؟ ثم قلت له: «لا بدّ أنك تعرف شخصيات رفيعة المستوى، أليس كذلك؟».

فضحك وقال: «يا أميرة، ليس لديك فكرة!».

«أنا متأكّدة من أنه ليس لدي».

كان هناك شبان صغار فوق سطح الكنيسة - بيت المدرسة يرممون السقف بسعف النخيل. قلت لنفسي: لا بدّ أن أبي هو الذي نظّم هذه الحفلة الإصلاحية، ثم تملّكني الخوف. يا إلهي! فها أنا هنا في وضح النهار أُنعش ذائقتي بسيجارة «لاكي سترايك». وعندما نظرت حولي لم أرَ أبي في أي مكان قريب، الحمد لله. لم يكن هناك سوى شبان يغنون باللغة الكونغولية ويصلحون السقف. هذا كلّ شيء.

لماذا يصلحون السقف الآن؟ إنه سؤال جيّد. ففي السنة الماضية في وقت قريب من عيد ميلادي هطلت أمطار غزيرة طوال بعد الظهر من كل يوم، وفاض النهر وأصبح سيلاً جارفاً، أما هذا الصيف، فلم تهطل نقطة مطر واحدة حتى الآن. وكانت الحشرات تُحدث صريراً بين الأعشاب الجافة الهشّة، والهواء يصبح أثقل وأثقل في أيام الانتظار الرطبة الخانقة هذه. أظن أن الحرارة الرطبة تجعل الجميع يتشوّقون لشيء ما.

ثم مرّت بجانبنا مجموعة من النسوة عائدات من حقل المانيوك. يحملن حزماً ضخمة من جذور بنيّة ضخمة مربوطة معاً بحبل، ومتوازنة فوق رؤوسهن. كنّ يمشين ببطء ويضعن برشاقة قدماً أمام الأخرى، وقد لففن أجسادهن النحيفة بباني ملوّنة يرفعن رؤوسهن إلى الأعلى، وصدّقوني -مع أنه من الغريب قول ذلك- فقد كنّ يشبهن عارضات أزياء. ربما تخيّلت ذلك لأنه مضى عليّ وقت طويل لم أرَ فيه مجلّة أزياء واحدة. لكن بعض النساء هنا جميلات جداً بطريقتهن. ويبدو أن أكسلروت يعتقد ذلك أيضاً. حيّاهن بطرف قبّعته التي ربما نسي أنها لم تكن على رأسه. «مبوته أ - أكينتو أكوا كيلانغا. بنزيكا كووكو».

فأشحْن بنظرهن عنّا، وأطرقن برؤوسهن في الأرض. كان شيئاً غريباً جداً.

«ماذا قلت لهن؟» سألته بعد أن اجتزنا.

«"هيه، أنتن، يا سيّدات كيلانغا، لماذا لا تستمتعن معي قليلاً، كنوعٍ من التغيير"، هذا ما قلته تقريباً».

«بالتأكيد لن يفعلن، أليس كذلك؟».

فضحك وقال: «لا يردن مشكلات مع أزواجهن الغيورين».

هذا ما أقصده عندما تحدّثت عن أكسلروت: لا يمكنك أن تنسى لدقيقة واحدة أنه شخص خسيس. فها هو ذا أمامي، أنا خطيبته المفترضة، يغازل كل نساء كيلانغا. ويحكي شيئاً قليلاً عن الأزواج الغيورين. أنا متأكّدة أنه لم يكن أحدٌ في كيلانغا كلها يحبّ أكسلروت، سواء أكانوا رجالاً أم نساء. وحتى أمي وأبي قد قالا ذلك. كان يبدو أن النسوة يحتقرنه كثيراً. فقد رأيتهن بنفسي وهنّ يبصقن على حذائه عندما كان يحاول أن يشتري منهن المانيوك والموز ليأخذه إلى ستانليفيل.

قال: «ليست خسارة كبيرة، صدقيني. أفضّل أ- أكينتو أكوا إليسابيثفيل».

«وما الذي يميّز النساء هناك في إليسابيثفيل؟».

دفع رأسه إلى الوراء، ابتسم، ثم نفث الدخان في السماء الرطبة الحارة. اليوم بدت السماء ستمطر أخيراً، وأحسست بذلك أيضاً. كان الهواء يبدو مثل أنفاس شخص حارة ينفثها فوق جسدك كله، حتى تحت ثيابك.

«الخبرة»، قال.

أدركت الآن أنني يجب أن أغيّر مسار الحديث. فأخذتُ نَفَساً من سيجارتي من دون أن أبتلع كمية كبيرة من الدخان. كنت ما أزال أشعر بدوار.

«أين هي إليسابيثفيل على أي حال؟».

«في الجنوب، إقليم كاتانغا. يجب أن أقول: دولة كاتانغا الجديدة. هل تعرفين أن كاتانغا انفصلت عن الكونغو؟».

تنهّدت، شعرت بدوار.

«أكون سعيدة عندما أعرف أن أحداً تمكّن من تحقيق شيء. هل تذهب إلى هناك في رحلاتك؟».

«أحياناً. لكن من الآن فصاعداً، سأذهب أكثر».

«أوه، حقاً. أظن أن أوامر جديدة صدرت إليك من القائد».

«ليس لديك فكرة!»، كرّر.

بدأت أملّ من سماع هذه العبارة. صدقاً، هل يظن أنني طفلة؟ فقلت: «أنا متأكّدة من أنه ليس لدي».

كنا قد وصلنا إلى حافة القرية، اجتزنا بيت الزعيم، حيث يفترض أن يرانا تاتا ندو ونحن نسير معاً، وهذا ما نسيناه كلانا. فقد وصلنا الآن إلى مكان يخلو من الأكواخ وبدأت أعشاب الفيل الطويلة تتشابك مع حافة الغابة. كنت قد أقسمت إنني لن أتجاوز القرية، لكن استفزاز المرأة قد يجعلها تغيّر رأيها. فلم يتوقّف أكسلروت عن السير، وفجأة لم أعد أبالي بما قد يحدث بعد ذلك، فواصلت السير أيضاً. قد تكون السجائر هي التي جعلتني طائشة. سأحاول أن أقنعه بأن يأخذنا من هذا المكان بأي وسيلة. هذا ما كنت أفكّر به في أعماق قلبي. وكان الجوّ في الغابة أكثر برودة، وهادئاً جداً. كان صوت الطيور فقط يتخلل هذا الصمت، وإذا جمعت هذين الصوتين فقد تبدو الغابة هادئة أكثر مما لو لم يكن هناك أي صوت على الإطلاق. وهي ظليلة جداً إلى درجة أنها تكاد تكون مظلمة مع أننا في منتصف النهار. توقّف أكسلروت وأطفأ سيجارته بحذائه الطويل. ثم سحب سيجارتي من فمي، وأمسك ذقني بيده وقبّلني. يا إلهي! قبلتي الأولى، ولم تتح لي الفرصة لأستعدّ لها. لم أكن أريد أن يفعل ذلك، وكنت أريد في الوقت نفسه.

غالباً أردت. كانت تفوح منه رائحة تبغ وملح، وكانت التجربة بأكملها مليئة بالرطوبة. دفعته أخيراً جانباً، وقلت: «هذا يكفي، فإذا كان علينا أن نفعل شيئاً، فيجب أن نفعله في مكان يرانا فيه الناس كما تعلم».

«حسناً، حسناً». ابتسم، ومرر قفا يده على خدي، وقال: «كنت أعتقد أن ابنة القسّ ستكون أكثر تحفّظاً».

«سأريك ابنة القسّ. اذهب إلى الجحيم يا أكسلروت!» - استدرت وبدأت أغذّ الخطا نحو القرية. فلحق بي ووضع ذراعه على كتفي كي أتمهّل.

«يجب ألّا نُري تاتا ندو أننا تشاجرنا»، قال وانحنى نحو وجهي.

ألقيت برأسي إلى الوراء فطار شعري في وجهه الفضولي. كنا ما نزال في الغابة على أي حال، بعيداً عن بيت تاتا ندو أو عن بيت أي شخص آخر.

«هيّا» -قال ملاطفاً- «ابتسمي. ابتسامة جميلة وسأخبرك أكبر سرّ لعين في إفريقيا!».

«أوه، هذا مؤكّد!» قلت. لكنّي كنت فضولية. نظرت إليه، وسألته: «ما هو هذا السرّ؟ هل ستعود أسرتي إلى بلدنا؟».

ضحك وقال: «ألا تزالين تظنين أنك مركز العالم، أيتها الأميرة؟».

فقلت: «لا تكن سخيفاً!». مكتبة سُر مَن قرأ

سأسأل ليا إذا كان «مركز العالم» شيئاً جيّداً أم سيئاً، إذا قال ذلك عنك رجل يُفترض أنك مخطوبة له، أريد أن أعرف.

بدأت أسير ببطء حتى عدنا نسحب أنفسنا مثل حلزون. جعلني ذلك أشعر بالتوتّر. لكنّي إذا انتظرت فإنه سيفضي لي بسرّه. شعرت بأنه يريد ذلك، فلم أسأله. فأنا أعرف شيئاً أو اثنين عن الرجال.

قال أخيراً: «سيموت أحدهم».

فقلت: «يا لها من مفاجأة! فهنا يموت شخص كلّ عشر ثوان ونصف».

كنت أتساءل بالطبع: من هو؟ لكني خفت، ولم أسأله. واصلنا سيرنا بخطوات وئيدة. كان عليّ أن أسير ببطء لأن يده ما زالت تطوّقني. ثم قال: «شخص مهم».

«جميع الأشخاص مهمّون في عيون المسيح، حتى العصافير التي تسقط من أعشاشها الصغيرة».

عندما سمع ذلك نخر وقال: «أميرة، هناك أشياء كثيرة يجب أن تتعلّميها. فالأحياء لا يعودون مهمين كثيراً على المدى الطويل، أما الأموات، فإن بعضهم يظلّ أكثر أهمية من الآخرين».

مللت من لعبة التخمين هذه، وقلت: «حسناً، ومن هو؟».

قرّب فمه من أذني حتى أحسست بشفتيه تلامسان شعري، وهمس: «لومومبا».

«باتريس لومومبا، الرئيس؟» -سألته بصوت مرتفع، مجفلة- «أو مهما كان منصبه... الشخص الذي انتخبوه؟».

«هو في عداد الموتى!» - قال بصوتٍ منخفض، صوت جعل الدم يتجمّد في عروقي.

«هل تريد أن تقول لي إنه مريض أو شيء من هذا القبيل؟».

«أقصد أن أيامه انتهت. ستنتهي».

«وكيف يمكنك معرفة ذلك؟».

قال ساخراً: «عرفت لأنني في موقع يجعلني أعرف. ثقي بكلامي يا أختاه. فقد أرسلت الطلقة الكبيرة البارحة برقية إلى الشيطان: أوامر بضرورة تغيير الحكومة الكونغولية الجديدة بالقوة. لقد سمعت المكالمة المشفّرة في جهاز اللاسلكي. وأوامري الخاصة ستأتي قبل نهاية الأسبوع، أؤكّد لك!».

كنت متيقّنة من أن هذا كلام فارغ، فلا أحد في القرية يملك جهاز لاسلكي، لكنّي تركته يسترسل في ألغازه الصغيرة إن كان هذا يرضي غروره. قال إن الشيطان يطلب من أتباعه أن يقنعوا الجيش بالانقلاب على لومومبا، وإن الولايات المتّحدة سترسل إلى الشيطان مليون دولار ليدفعها للجيش

للقيام بهذه المهمة، لقتل الشخص الذي انتخبوه. مليون دولار، ولا نستطيع نحن أن نحصل على خمسين ورقة مالية خضراء تافهة في الشهر نسدّ بها رمقنا! قد تكون هذه القصّة محتملة.

أشفقت على أكسلروت الذي راح يختلق قصصاً سخيفة ليجعلني أُعجب به وأقبّله مرة أخرى. وعلى الرغم من أنني ابنة قسّ، فإني أعرف شيئاً أو اثنين عن الرجال، وأحد هذه الأشياء أنه عندما يرغب الرجال في تقبيلك فإنهم يتصرّفون وكأنهم على وشك القيام بشيء سيغيّر العالم بأسره.

إدا

حسٌّ داخليّ – ذلك الظلّ الطويل –
فوق العشب –
يشير إلى أن الشموس تغرب –
إعلانٌ للعشب المشدوه
بأن الظلام – على وشك المجيء!

أشفق على العشب المشدوه الأبكم المسكين، أرثي لحاله. المجيء وشك على. أنا مغرمةٌ بالآنسة إيميلي ديكنسون Emily Dickinson: No Snikcidy Lime، اسم معاكسٌ له طعم أخضر حامض لذيذ(*). بعد أن قرأت أسرارها والقسوة الصغيرة المهذبة في قلبها، أظن أنها استمتعت بأخذ العشب المشدوه على حين غرة في قصيدتها. مثقلة بجسدها، مُتشحة بالسواد، منحنية فوق دفتر ملاحظاتها السري وستائر النوافذ مسدلة أمام عيون العابثين السعداء في الخارج. تنبعث من قلمها أصوات خربشات

(*) Lime: هو الليم، ثمرة شجرة تنتمي إلى الحمضيات، وتكون عادةً مستديرة الشكل يتراوح لونها بين الأخضر والأصفر. [م].

صغيرة، تغطّي، مع حلول الليل، جميع المخلوقات التي لا بدّ أنها تعرف ما تتوقّع حدوثه الآن، لكنها لا تعرف. هي تحبّ نفسها أكثر في الظلام، مثلي.

في الظلام عندما تصبح جميع القطط سوداء متماثلة، أتحرّك بخفّة مثل أي شخص آخر. بندوكا تعني فتاة منحنية تميل إلى جانب واحد وتمشي ببطء، وبندوكا أيضاً اسم طائر سريع الطيران، له جناحان مقوّسان، يندفع بسرعة منحنياً بين الأشجار القريبة من النهر. يمكنني أن ألحق به. أنا القطّة السوداء الجميلة الناعمة التي تنسلّ من البيت مثل ظلٍّ سائل بعد حلول الظلام. الليل هو الوقت الذي تستطيع أن ترى فيه ولا تُرى. بظلّي الضيّق مثل قارب أبحر في جداول نور القمر التي تتخلل جزر الظلّ في بستان أشجار نخيل التمر. وتخترق الخفافيش صمت الليل كالسكاكين بأصوات تشبه قرع الأجراس. طعنة الخفافيش(*)، وينادي البوم البيكيندا، أرواح الموتى. البوم جائع كالآخرين، يبحث عن أرواح ليأكلها.

في أثناء موت الأطفال الطويل بعد إصابتهم بـ كاكاكاكا رأيت لون الهواء يتغيّر: فقد كان أزرق مع بيلالا، النحيب على الأموات. وعندما دخل إلى بيتنا، سدّت أمي أذنيها وفمها. بي لا يي باندو! بي لا يي باندو! لماذا، لماذا، لماذا، تغني الأمهات اللاتي يمشين في شارعنا يتمايلن وراء جثامين صغيرة ملفوفة بإحكام. أمهات فقدن صوابهن يزحفن على ركبهن، أفواههن فاغرة مثل حفرٍ في ناموسية. فتحة الفم تلك! المكان المثلّم الممزّق في أرواحهن الذي يدع الآلام الطائرة الصغيرة تدخل إليه وتخرج. أمهات أطبقن عيونهن بقوة، وشُدَّت عضلات خدودهن السود في شكل عُقد، رؤوسهن تتمايل من جانب إلى آخر وهنَّ يسرن أمام بيتنا. رأينا كلّ ذلك من نوافذ بيتنا. رأيت ذلك مرّتين. لكن القسّ منعنا من رؤية طقوس لم يُطلب منه أن يترأسها، لكني تسلّلت خارج البيت مرّتين في الليل لأتلصّص على تلك الجنازات.

(*) Bats stab: كلمتان متناظرتان. تقلب إذا كلمة «خفاش» فتصبح «طعنة». [م].

وفي بستان الأشجار، رأيت الأمهات يلقين بأنفسهن فوق أكوام التراب التي تغطّي أطفالهن. يزحفن على أيديهن وركبهن، يحاولن أن يأكلن التراب فوق القبور، لكن النسوة الأخريات يحاولن إبعادهن وسحبهن جانباً. والبوم ينعق وينعق، ولا بدّ أن الهواء مثقلٌ بأرواح الأطفال الميّتين.

مرّت شهور على ذلك، وتحدّث القسّ مع جميع الأمّهات اللاتي فقدن أطفالاً. حبلت بعض تلك النسوة ثانية. وكان يقول لنا بعد يوم عمل طويل: لا تريد تلك النسوة أن يتكلّمن عن الأموات، ويرفضن أن يذكرن أسماء أطفالهن. حاول أن يوضح لهن كيف أن المعمودية -\الباتيزا- ستغيّر كلّ شيء في حياتهن، لكن الأمهات قلن له: لا، لا، فقد عقدن للتو \النكيسي حول رقبة الطفل أو معصمه، تعويذة من النغانجا كوفودُندو لدرء الشرّ. إنهن أمهات طيّبات ولن يتخلّين عن حماية أطفالهن بهذه الطريقة، كنّ يقلن للقسّ. شخص آخر لديه شرٌّ أقوى. يحاول أبونا أن يُفهمهن أن \الباتيزا\ليست تعويذة وإنما هي عقدٌ مع يسوع المسيح، وأنه لو تعمّد أولئك الأطفال، لكانوا في الجنة الآن.

كانت الأمهات يرمقنه بعيون مائلة، ويقلن له إذا كانت ابنتي في الجنة فهل يمكنها أن تعتني بأخيها الرضيع عندما أعمل في حقل المانيوك؟ هل يمكنها أن تجلب لي الماء؟ هل سيكون لدى ابني في الجنة زوجات يعتنين بي عندما أتقدّم في السن؟

كان أبونا يرى في نبرتهن الساخرة والأنانية تلك مؤشّراً على عدم وجود حزن حقيقي. وكانت النتيجة العلمية التي خلص إليها هي: أن الكونغوليين لا يرتبطون بأطفالهم كما نفعل نحن الأميركيين. يا إلهي، أبونا يعرف كلّ شيء، وهو يكتب مقالة علمية عن هذا الموضوع لرجال الدين المعمدانيين في بلدنا.

***

أتلصّص من نافذة بيت تورلسكا نيبيا. ص ص ل ت أ. ة س و س ا ج ا ن أ. في الظلام عين يسرى داكنة صغيرة على الزجاج. أوراق الموز تغطّي الزجاج الوسخ كأنها ستائر نوافذ ورقية تاركةً فجوات مثلّثة ضيّقة طويلة لعيني. رآني تورلسكا نيبيا بالقرب من مرحاض بيته بعد ظهر أحد الأيام، أتسكّع كما قال، كما لو أنّ ذلك المكان النتن مكانٌ يرغب المرء أن يلجأ إليه ويرغب في أن يشمّ رائحة الغائط. وظنّ أنه أخافني إلى الأبد. من أجل الخير والشر. بدأت أذهب في الليل فحسب عندما يكون كلّ شيء جلياً: الأشكال المضاءة في الداخل، وجهه ومذياعه بتلك الهالات الشيطانية اللامعة في ضوء فانوس الكيروسين. المذياع كتلة حيّة من الأسلاك تنبع من صندوقه، مجموعة كبيرة من الأفاعي. يتحدّث من خلال الأفاعي ويقول أشياء يصعب عليّ وصفها. أسماء مشفّرة. أفهم بعضها: Eugor, I-W, W-I Rogue. شكل اسم ينتمي إلى نوعٍ معيّن من الرجال، وبين ورقتَيْ شجرة، رأيت دبليو آي روغ أخيراً. فقد جاء بالطائرة عند الغسق ومكث حتى الصباح متخفياً في بيت تورلسكا. وقد شرب الرجلان ويسكي من الزجاجات، وملأا الغرفة بطبقات من دخان السجائر في ضوء لهب الليل الأبيض. ثم رتّلا ابتهالاً من الأسماء لكتلة الأفاعي، ونطقا، أحدهما للآخر، الأسماء الأخرى بصوتٍ مرتفع.

يقولون دائماً: في عداد الموتى. باتريس لومومبا. قال ذلك الصوت في المذياع مرات عدة. لكن الاسم الذي قاله الرجلان أحدهما للآخر، بصوتٍ مسموع، هو الرئيس. لم يقولا لومومبا. الرئيس: آيزنهاور، نحن نحبّ آيك. We Like Ike. Eki Ekil Ew. ملك أميركا يريد أن يرى الرجل النحيف الطويل في الكونغو في عداد الموتى. لقد ألقيت أحجار كثيرة من أجل تلك القارورة. القارورة التي يجب أن تُكسر الآن.

غاصت ركبتاي، دفقة من الدمّ الحار جعلتني أتهاوى. إني معتادة على

شعور التعب في جسدي، لكني لم أكن معتادة على الإغماء الشرير المفاجئ لجسد أصابته مفاجأة مروّعة. الدوخة ناتجة عن الخوف لأنني اكتشفت سرّاً: لدى الرجل الأصلع المبتسم الذي يشبه وجهه وجه جدّ، وجهٌ آخر. يستطيع أن يتكلّم بواسطة الأفاعي ويأمر بأن رئيس بلد يقع في مكانٍ بعيد -بعد أن نُقلت كل تلك الأحجار في قوارب ثمينة عبر النهر ولم تغرق- هذا الرئيس لومومبا سيُقتل.

زحفت إلى سريري وكتبت ما رأيته وسمعته، ثمّ كتبت النهاية بشكل عكسي. حدّقت في الكلمات في دفتر ملاحظاتي، قصيدتي الأسيرة: القتل يحب الذي آيك نحب نحن.

بحلول الصباح فقدتُ قوّة الصدمة. في وضح النهار، أين هي حقاً المفاجأة من كلّ هذا؟ كم يختلف هذا عن الله الجدّ الذي يُرسل الأطفال الإفريقيين إلى نار جهنم، لأنهم لم يولدوا في مكان قريب من الكنيسة المعمدانية؟ أريد أن أقف الآن في مدرسة يوم الأحد وأسأل: هل لإفريقيا الحق في الردّ؟ هل يستطيع هؤلاء الأطفال الوثنيون أن يرسلونا إلى جهنم لأننا لا نعيش بالقرب من الغابة؟ لأننا لم نتناول السرّ المقدس من جوز شجرة النخيل؟ أو هل يقوم ذلك الرجل الطويل، النحيف، من بين الأموات، ويقول: نحن لا نحبّ آيك، نحن آسفون جداً، لكن ربما يجب قتل آيك الآن بسهم مسموم.

يا إلهي، سيصبح لدى المجلّات شيء تستطيع أن تتحدّث عنه. أيّ نوع من الرجال هذا الذي يريد أن يقتل رئيس بلد آخر؟ لا أحد إلا إذا كان همجياً. رجل يضع عظمة فوق رأسه.

لا أريد أن أرى المزيد لكني أريد أن أعود إلى الوراء على أي حال، أن أنادي إدا السوداء كالفحم، التي تسير في مسار واحد، إدا الملعونة المجنونة، التي تُقسم أن ترتدي ثياباً سوداء وتكتب قصائد مروّعة. ها! أريد أن أجعل

الظلّ يمرّ فوق كلّ الوجوه المذهلة النظيفة، جميع الذين يؤمنون بالأجداد الرؤساء. بدءاً من ليا.

بين أوراق أشجار الموز التي لا ينبعث منها صوت في الليل الصامت، أنصت. سيأتي جو من باريس، هكذا يقول جهاز اللاسلكي. فقد صنع جو القادم من باريس سمّاً سيبدو أنه مرض منتشر في الكونغو، موت إفريقي خالص للومومبا. دبليو آي روغ يقول إنهم سيضعون السم في معجون أسنانه. تورلسكا يضحك ويضحك، وقال إنهم لا يستخدمون فراشي أسنان هنا، وإنما يمضغون عشبة موتيتي لتنظيف أسنانهم. بعد ذلك غضب تورلسكا لأنه -كما يقول- يعيش هنا منذ عشر سنوات وهو يعرف أكثر. وقال إنه يجب أن يدير ذلك العرض، وتساءلت: ما هو ذلك العرض؟

من خلال المثلّثات بين أوراق الموز الهادئة رأيت وجوهاً تحيط بها هالات من لهب تضحك على وعد الموت الأبدي. حسٌّ داخليّ، ذلك الظلّ الطويل الذي يمرّ، ونحن العشب المشدوه.

ليا

هذه الليلة الفظيعة أسوأ ليلة تمرّ علينا على الإطلاق: نسونغونيا. هبطوا علينا كالكابوس. اختلطت ضربات نِلسون القوية على الباب الخلفي مع نومي، وحتى بعد أن استيقظت، كان للساعات التي أعقبت ذلك وجودٌ مزعزع لحلم. وحتى قبل أن أعرف أين أنا، كان شخص يجرّني من يدي في الظلام، ولدغات نارية فظيعة تلسعني في ربلتَيْ ساقيَّ. كنّا نخوض في مياه حارة جداً. خُيِّل إليّ ذلك، لكن لا يمكن أن يكون ذلك ماء، فحاولت أن أسأل ما هو هذا السائل الحارق الذي أغرق بيتنا -لا، لأننا كنا خارج البيت- الذي أغرق العالم كله؟

«نسو نغو نيا» -ظلّوا يصرخون- «*Les fourmis! Un corps d'armée!*» (النمل! فيلق من الجيش).

نمل. كنّا نمشي، محاطين بالنمل، مطوّقين، مغلّفين، ملتَهمين من قبل النمل. كل سطحٍ كان مغطّى بالنمل ويغلي، وكان الدرب يشبه تياراً من الحمم السوداء المتدفقة في نور القمر. وانتفخت جذوع الأشجار الداكنة وتورّمت واهتاجت. واستحال العشب إلى حقل من الخناجر السوداء المنتصبة، تهتزّ وتتكوّم على أنفسها. رحنا نسير فوق النمل، نجري فوقه، ورائحة الخلّ التي تنبعث منه تفغم الليل الهادئ الغريب. كان الجميع صامتين. أخذنا نجري بأسرع ما يمكننا جنباً إلى جنب مع جيراننا. البالغون يحملون الأطفال الصغار والعنزات، والأطفال يحملون قدور الطعام والكلاب وإخوتهم الصغار وأخواتهم الصغيرات. قرية كيلانغا بأكملها. فكّرت بماما موانزا: هل سيحملها أبناؤها الكسالى؟ مشينا كلنا في الدرب مثل تيار متدفّق، ثم ركضنا حتى بلغنا النهر حيث توقّفنا. كان كلّ واحد منّا ينقل ثقل جسمه من قدم إلى أخرى، ويصفع. وكان البعض يئنّون من الألم، أما الرضّع فكانوا يصرخون. وخاض الرجال الأقوياء ببطء في الماء حتى وسطهم، وسحبوا قواربهم، بينما انتظر الباقون دورهم للصعود إلى قارب أحدهم.

«بينيه، أين أفراد أسرتك؟!».

قفزتُ. كان أناتول يقف بجانبي.

«لا أعرف. لا أعرف أين هم، وجدت نفسي أركض!».

لم أكن قد استيقظت تماماً بعد، وصعقني الآن أنه كان يجب عليّ البحث عن أسرتي. فكّرت بماما موانزا لكني لم أفكّر بأختي التوءم المعاقة. انبعثت مني أنّة: «أوه، يا إلهي!».

«ماذا؟!».

«لا أعرف أين هم. يا إلهي! ستُلتهم إدا وهي على قيد الحياة. إدا وروث ماي».

لمسَتْ يده يدي في الظلام، وقال: «سأبحث عنهما. ابقِي هنا حتى أعود».

قال شيئاً بصوتٍ خفيض لشخص بجانبي، ثمّ اختفى. كان يستحيل أن تقف ساكناً فوق الأرض السوداء التي تعجّ بجحافل النمل، لكن لا يوجد مكان آخر يمكنك أن تلجأ إليه. كيف طاوعتني نفسي أن أترك إدا وحدها مرّة أخرى؟ مرّة في الرحم، ومرة للأسد، والآن، مثل القديس بطرس، أنكرتها للمرّة الثالثة(*).

بحثت عنها وعن أمي وجميع الآخرين، لكني لم أرَ إلّا أمهاتٍ أخريات يخضن في الماء مع أطفال صغار يبكون، يحاولن أن ينثرن الماء عليهم ويفركن أذرعهم وسيقانهم ووجوههم من النمل. حفنة من الرجال المسنّين خاضوا في الماء حتى رقابهم. بعيداً في النهر، لمحت رأس ماما لالابا العجوز، الرأس الأصلع نصف الأسود ونصف الأبيض، ولا بدّ أنها فضّلت أن تأكلها التماسيح على أن يقتلها نسوغونيا. انتظرنا نحن في المياه الضحلة، حيث حجب شريط داكن من النمل العائم بريق الماء الصقيل. «ارحمني يا الله حسب رحمتك، وحسب كثرة رأفتك امحِ معاصيَّ». لقد فعلت كل شيء خاطئ، والآن لا توجد نجاة لأيّ منّا.

قمرٌ ضخم ارتعش فوق سطح الوجه المظلم لنهر كويلو. حدّقت بقوة في الانعكاس الوردي المتضخّم، مؤمنةً بأن هذا قد يكون آخر شيء أراه قبل أن تُقتلع عيناي من جمجمتي. وعلى الرغم من أنني لا أستحقّ ذلك، فإنني كنت أريد أن أصعد إلى السماء وفي ذاكرتي شيءٌ جميل عن الكونغو.

(*) بطرس أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، وهنا إشارة إلى حادثة إنكاره للمسيح ثلاث مرات قبل صياح الديك، في الليلة التي قُبض فيها على المسيح. [م].

راشيل

ظننت أنني متّ وذهبت إلى جهنم. لكنّ الأمر أسوأ من ذلك، فأنا على قيد الحياة في جهنم.

بينما كان الجميع يجري هارباً من المنزل، رحت أتطلع حولي بجنون أفكّر بما يمكن إنقاذه. كان الظلام حالكاً أكاد لا أرى من خلاله شيئاً، لكن عقلي كان صاحياً.

عليّ أن أنقذ شيئاً ثميناً واحداً، شيئاً أحضرناه من بيتنا في أميركا. لا أقصد ثيابي لأنه لم يكن هناك وقتٌ كافٍ لأجلبها، ولا الكتاب المقدّس، لأن إنقاذه لا يستحق في تلك اللحظة، ساعدني يا الله! إنها مرآتي. كانت أمي تصرخ بأعلى صوتها أن نخرج بسرعة، لكنني استدرت وعدت إلى داخل البيت، أعرف تماماً ما أريد. أمسكت مرآتي. كسرت الإطار الذي صنعه لنا نِلسون واقتلعتها من الحائط، وجريت بأسرع ما يمكن أن تحملني ساقاي.

كانت الفوضى تعمّ الشارع وكان الناس يتدافعون. لمسني الغرباء ودفعوني. ليلة العشرة آلاف رائحة. تجمّعت الحشرات كلها فوقي، تنهش جلدي، من كاحليَّ صاعدةً تحت ملابس نومي لينتهي بها الأمر إلى مكان لا يعلم أين إلّا الله. كان أبي في مكان قريب، لأنني استطعت سماعه يصيح شيئاً عن موسى والمصريين والنهر الذي تجري فيه الدماء وما إلى ذلك. ضغطت مرآتي على صدري كي لا تضيع مني أو تنكسر.

جرينا باتجاه النهر. في البداية، لم أعرف لماذا أو إلى أين، لكنّ ذلك لم يكن مهمّاً. لأنك لا تستطيع أن تذهب إلى أيّ مكان آخر بسبب الحشود التي تدفعك. ذكّرني ذلك بشيء قرأته ذات يوم، وهو أنك إذا وجدت نفسك عالقاً في مسرح مزدحم وقد شبَّ فيه حريق، فما عليك إلّا أن تدفع بمنكبيك

وترفع قدميك. كان عنوان الكتاب «كيف تنجو من 101 كارثة» وهو يشرح ما الذي يجب أن تفعله إذا تعرّضت لأيّ كارثة مريعة -مصاعد تهوي، قطار يتحطّم، مسرح يحترق، وما إلى ذلك- وأحمد الله أنني كنت قد قرأت ذلك الكتاب، وها أنا ذا عالقة الآن في ورطة وأعرف ما الذي يجب أن أفعله! فرحت أدفع بمرفقَيَّ، بقوة، أضلاع الناس الذين يحيطون بي، واستطعت أن أشقّ طريقي بطريقةٍ ما. ثم رفعت قدمَيَّ، وكان لذلك مفعول السحر، فبدلاً من أن يدوسني الناس تحت أقدامهم، طفت فوقهم مثل عصا في النهر، تجرفني قوّة الآخرين.

لكن ما إن وصلنا إلى النهر حتى انهار عالمي. وصل التدافع إلى طريق مسدود، لكن النمل ما زال يحتشد في كل مكان. ما إن وقفت على ضفّة النهر حتى داهمني مرة أخرى، كان يزحف. لم أعد أحتمله لحظة أخرى، وتمنّيت أن أموت. كان النمل يملأ شعري. لم أستعدّ في طفولتي البريئة لأن أكون في الكونغو في ليلة حالكة الظلام كهذه والنمل ينهش فروة رأسي. وقد أُطهى أيضاً في قِدر آكلي لحوم البشر. هذا هو ما وصلت إليه حياتي!

استغرق مني الأمر بعض الوقت لأدرك أن الناس بدؤوا يصعدون إلى القوارب ليهربوا! صرخت ليأخذوني معهم في أحد القوارب، لكن لم يعرني أحدٌ أيّ انتباه، مهما علا صوتي. لمحت أبي من بعيد يحاول أن يقنع الناس بأن يصلّوا حتى ينقذهم المسيح، لكن أحداً لم يكن ينصت له أيضاً. ثمّ رأيت ماما موانزا يحملها زوجها على ظهره ويسير باتجاه القوارب. مرّا من جانبي! إنها امرأة تستحق المساعدة، المسكينة، لكن بنيتي هشّة.

خضت في الماء وراءها وحاولت أن أصعد إلى قاربهم. كان أولاد موانزا يصعدون إلى القارب. وبما أنني جارتهم فقد ظننت أنهم لن يمانعوا من صعودي إلى قاربهم، لكن أحدهم دفعني فجأة وضرب وجهي. لقد صُفعت على وجهي بقوة، شكراً جزيلاً! أُلقيت فوق الوحل مباشرة. لكن

قبل أن أدرك ما الذي حدث، انزلقت مرآتي الثمينة من يدي وارتطمت بطرف القارب. التقطتها بسرعة من حافة النهر، لكن عندما وقفت، كانت القطع قد تناثرت مثل سكاكين في الوحل. وقفت أنظر إليها مصدومة، بينما أخذ القارب يبتعد عن الشاطئ. تركوني وحدي، ومرآتي متناثرة من حولي، تعكس ضوء القمر في أشكال جنونية. وبقيت وحدي في وسط كلّ هذا النحس والسماء المتصدّعة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

روث ماي

بينما كان الجميع يصيحون ويبكون، دفعت ساقيّ كي أنزل لكني لم أستطع، لأن أمي كانت تمسكني بقوة لدرجة أن ذراعي آلمتني. اسكتي، يا طفلتي الصغيرة! اسكتي!

كانت تجري على الدرب وتغنّي لي: اسكتي، يا طفلتي الصغيرة! ماما ستشتري لك مرآة.

كانت ماما تشتري لي كلّ شيء، حتى إذا كُسرت كلها، أو تعطّلت.

عندما وصلنا إلى المكان الذي يحتشد فيه الجميع، رفعتني على كتفها وسارت نحو القارب وهي تتمايل يمنةً ويسرة. ثم رفعتني يدا أحدهم إلى القارب الذي كان يتمايل. عندما أجلستني في القارب كان النمل الصغير يقرصنا بقوة في أجسامنا ويلسعنا. لا بدّ أن يسوع رأى ليا وهي تطعم النملة لأسد النمل، فجاء الآن أصدقاء تلك النملة لينتقموا.

ثمّ رأينا إدا. مدّت ماما يدها إليها وبدأت تبكي وتتكلّم بصوت عالٍ، كأنها تحكي وتبكي، ثم أمسكني شخص آخر. كان شخصاً كونغولياً ولم تعد ماما تمسك بي، فبدأت أبكي أيضاً. من سيشتري لي مرآة والطائر الذي يقلّد الأصوات؟ رحت أركله لكنّه لم يتركني. سمعت أطفالاً يبكون ونساء

يبكين لكني لم أستطع أن أدير رأسي لأرى شيئاً. كل ما عرفته هو أنني كنت أبتعد عن أمّي.

قال لي نِلسون: فكّري بمكان جيّد لتذهبي إليه. فعندما يحين موعد الموت لن أموت، وإنما سأختفي وأذهب إلى ذلك المكان. قال فكّري بذلك المكان كلّ يوم وكلّ ليلة حتى تتعلّم روحك الطريق، لكنّي لم أفعل ذلك. كنت أعرف ذلك المكان الآمن، لكن بعد أن تحسّنت صحتي نسيت أن أفكّر بالأمر. وعندما جرت أمي على الطريق معي رأيت أن الجميع سيموتون. كان العالم كله يبكي ويصرخ. كانت الضوضاء شديدة فسددت أذنيَّ بأصابعي، وحاولت أن أفكّر بالمكان الأكثر أماناً.

أعرف ما هي: إنها أفعى مامبا الخضراء التي تقبع في أعلى الشجرة. لم يعد من الضروري أن تخافي منها لأنك أصبحت مثلها. إنها تقبع بهدوء فوق غصن الشجرة؛ إنها كالشجرة. قد تكونين واقفة بجانب إحداها وأنت لا تعرفين. إنها تقبع هناك ساكنة. هذا ما أريد أن أذهب إليه وأن أكونه، عندما أختفي. ستصبح عيناك صغيرتين ومدوّرتين، لكنك تكونين بعيدة في الأعلى تستطيعين أن تنظري إلى الأسفل وتشاهدي العالم كله، ماما والجميع. قبائل حام وسام ويافث، كلّها مجتمعة معاً.

أخيراً، ستصبحين أعلى واحدة على الإطلاق.

إدا

حيّةً كنت قبل أن أرى الشرّ(*).

أقف الآن على الطرف الآخر من تلك الليلة وأستطيع أن أحكي القصّة، وهذا يعني أنني ربما لا أزال حيّة، مع أنني لا أشعر بأي شيء يدلّ على ذلك.

(*) تُقرأ طرداً وعكساً في الأصل. [م].

وربما لا يكون ما رأيته شرّاً، وإنما مجرّد طريق جميع القلوب عندما نزع الخوف قشرة الادعاءات اللطيفة. أهو شرٌّ أن تنظر إلى طفلك، ثمّ ترفع شيئاً آخر بين ذراعيك وتبتعد؟

اومئ، أمسك، تخلَّ! (Nod, nab, abandon)

أمّي، يمكنني أن أقرأك طرداً وعكساً.

حيّةً كنت قبل أن أرى الشرّ.

كان ينبغي أن أُلتهم وأنا مستلقية في سريري، هذا ما أستحقّه. ففي لحظة أنا حيّة ترزق، وفي اللحظة التالية أُترك وحدي. لقد انتشَلَنا شيءٌ أو شخص من أسرّتنا، الضجيج يملأ المكان. خبطٌ على الباب وصراخ في الخارج. قفزت أخواتي وهنّ يصرخن ثم اختفين. لا أستطيع أن أصدر صوتاً للنمل من حنجرتي. سحبتُ نفسي إلى الخارج ورأيت تحت نور القمر منظراً مرعباً. كانت الأرض حمراء داكنة تغلي. لم يكن هناك شيءٌ ساكن، سواء أكان إنساناً أم حيواناً. حتى العشب كان يتمايل تحت الظلّ، مظلماً ومفترساً، حتى العشب المشدوه.

لم يكن أحد واقفاً، أمي فحسب من وقفت ساكنة. كانت واقفة بثبات أمامي على الدرب. تقف على ساقين نحيلتين تنبثقان من باطن الأرض المفترسة عديمة الجذور. تحمل شيئاً بين ذراعيها، كأنها تحمل حطباً. كانت تحمل روث ماي.

تكلّمت بصوتٍ عالٍ، لمرةٍ وحيدة: «ساعديني!».

«أبوك...» -قالت- «أظن أنه سبقنا مع راشيل. كنت أرجو أن ينتظرنا، يا حلوتي، ليحملك، لكن راشيل كانت... لا أعرف كيف ستجتاز هذا. ليا يمكنها أن تعتني بنفسها».

إنها تستطيع، أنتِ لا تستطيعين، أنتِ لا تستطيعين!

تكلّمتُ مرة أخرى: «أرجوك!».

حدّقت فيّ للحظة، تزن بعينيها حياتي، ثمّ أومأت، حرّكت ما تحمله بين ذراعيها، واستدارت.

«تعالي!» أمرتني من وراء كتفها. حاولت أن أبقى قريبة جداً وراءها، لكنها كانت محنية الظهر من ثقل روث ماي وهي تشقّ طريقها بسرعة بين الحشد. أقدام أخرى كانت تدوس فوق كعبَيْ قدميَّ من الخلف. تابعت السير، مع أنني كنت أشعر بتنميل في قدمي من النمل الحارق. أعرف متى سقطت. قدم حافية داست على ربلتَيْ ساقيَّ، ثم فوق ظهري، فأصبحت تحت الأقدام. أقدام تدوس فوق صدري. تقلّبت على الأرض، وغطّيت رأسي بذراعي. ثم استندت إلى مرفقَيَّ ورفعت نفسي، وبيدي اليسرى القوية تشبّثت بأرجل سحبتني إلى الأمام. كان النمل يسري فوق شحمتَيْ أذني ولساني وجفني. سمعت نفسي أصرخ عالياً - ضوضاء غريبة، كما لو أنها انبعثت من شعري وأظفاري، ومرةً تلو الأخرى نهضت. عندما بحثت عن أمي ورأيتها، كانت بعيدة عني. تبعتها، مستسلمةً لإيقاعي الخاص. متقوّسة داخل أغنية جسدي الدائمة: يسار... خلف.

لم أعرف من هو الشخص الذي رفعني من بين جموع الناس ووضعني على الزورق مع أمّي. التفتُّ بسرعة فرأيته عندما بدأ يبتعد. إنه أناتول. عبرنا النهر معاً، الأمّ وابنتها، تجلسان إحداهما أمام الأخرى في وسط ذلك القارب الهادئ. حاولت أن تمسك يديَّ لكنها لم تستطع، وظلّت إحدانا تحدّق في الأخرى من دون أن ننبس كلمة واحدة في عرض النهر.

في تلك الليلة ظللت أتساءل لماذا لم تساعدني؟ حيّةً كنت قبل أن أرى الشرّ. لم أعد أتساءل الآن. تلك الليلة تمثّل مركز حياتي المظلم، اللحظة التي توقّف فيها النمو وبدأ المنحدر الطويل إلى الأسفل نحو الموت.

العجيب بالنسبة لي الآن هو اعتقادي بأنني أستحقّ أن ينقذني أحد.

وقد أُنقذت. لقد فعلت! أوه، لقد فعلت! مددت يدي اليسرى السليمة مثل مخلب وتشبّثت بالحياة. أمسكت السيقان المتحرّكة كي أرفع نفسي من فوق التراب، مستميتةً لأنقذ نفسي في نهر البشر الذين يسعون لإنقاذ أنفسهم. ولو نظروا إلى الأسفل ورأوني أكافح تحتهم، لرأوا أن حتى الفتاة الحدباء المعاقة تؤمن بأن حياتها ثمينة. هذا ما يعنيه أن تكون وحشاً في المملكة.

ليا

فجأة، بعد ذلك دُفعت من الوراء، وسحبتني أيادٍ أخرى إلى قارب، وأصبحنا في الماء لنعبر إلى برّ الأمان. صعد أناتول خلفي. دُهشت عندما رأيته يحمل روث ماي على كتفه مثل ظبي مقتول حديثاً.

«هل هي على ما يرام؟».

«أظن أنها نائمة. منذ عشرين ثانية كانت تصرخ. لقد ذهبت أمّك وإدا مع تاتا بواندا»، قال.

«الحمد لله. هل إدا بخير؟».

«إدا في أمان. راشيل شيطان. وأبوك يلقي الآن موعظة عن جيش فرعون والضربات(*). الجميع بخير».

جلست القرفصاء وأسندت ذقني على ركبتي، وشاهدت قدمَيَّ الحافيتين وقد بدأ لونهما يتغيّر شيئاً فشيئاً من اللون الكستنائي الداكن، إلى مبقّع، ثم إلى أبيض عندما تبعثر النمل وتوغّل في أرضية القارب. أكاد لا أشعر بالألم الآن. القدمان اللتان كنت أحدّق فيهما أصبحتا تبدوان كأنهما قدما شخص آخر. أمسكتُ بطرفَي القارب، وخشيت أن أتقيّأ أو أن يغمى عليّ فجأة.

(*) إشارة إلى الضربات العشر التي أنزلها الله على مصر في زمن النبي موسى، وهي مذكورة في سفر الخروج. [م].

عندما استطعت أن أرفع رأسي مرة أخرى، سألت أناتول بصوت منخفض: «هل تظن أن هذه هي يد الله؟».

لم يجب. روث ماي تئن في نومها. انتظرتُ طويلاً لأسمع ردّه. عندما لم يجب ظننت أنه لم يسمعني، ثم قال ببساطة: «لا».

«إذاً لِمَ؟».

«يستطيع العالم أن يعطيك دائماً أسباباً لحدوث ذلك. فلم تهطل أمطار كافية حتى يتغذّى النمل. شيء من هذا القبيل. نسونغونيا يتحرّك دائماً، هذه طبيعته. سواء أكان الله يهتمّ بذلك أم لا».

بدا محتدّاً تجاه الله. محتدّاً بمنطق. بدت الليلة أشبه بحلم يمرّ أمامي كشريط بسرعة كبيرة، مثل تيارٍ في طوفان، وفي هذا الحلم الذي لا أستطيع أن أتحكّم فيه، كان أناتول هو الشخص الوحيد الذي أبدى اهتماماً لمساعدتي، بينما لم يبدِ الله أدنى اهتمام. حاولت أن أرى من خلال الظلام الكثيف الذي يغلّف النهر، بحثاً عن الضفة المقابلة للنهر.

«الله يكرهنا»، قلت.

«لا تلومي الله على ما يفعله النمل. كلّنا نجوع. لا يختلف الشعب الكونغوليّ كثيراً عن النمل الكونغوليّ».

«وهل يجب أن يجتاح القرية ويأكل أهلها أحياء؟».

«عندما يشعر النمل بضغط شديد لمدة طويلة فإنه سيثور. وعندما يعضّك فإنه يحاول أن ينتقم بالطريقة الوحيدة التي يعرفها».

كان القارب مكتظاً بالناس، لكنني لم أستطع أن أميّز ظهورهم المحدودبة في الظلام. كنت أحدّث أناتول بالإنكليزية، وبدا أنه لم يكن هناك أحد غيرنا.

«ماذا تقصد؟ هل تقصد أن إلحاق الأذى بالناس شيء مقبول؟».

«إنك تعرفينني. ليس عليّ أن أخبرك بما أنا عليه!».

ما أعرفه هو أن أناتول ساعد أسرتنا كثيرة، وأن أختي تغفو الآن على كتفه.

«لكنك تؤيّد ما يفعلونه للبيض، حتى لو لم تكن أنت نفسك تفعل ذلك. إنك تقول إنك ثوري مثل *Jeune Mou-Pro*».

ذراعان سوداوان قويتان لشخص غريب جذّفتا بالقارب إلى الأمام، بينما كنت أرتجف بفزعٍ بارد، لكنني خشيت أن يغضب أناتول أكثر من أيّ شيء آخر.

«الأمور ليست بهذه الدرجة من البساطة كما تظنين» -قال أخيراً، ولم يكن يبدو غاضباً أو لطيفاً- «والآن ليس الوقت المناسب للتحدّث عن تاريخ الحركات الثورية الكونغولية».

«تقول إدا إن الرئيس آيزنهاور أرسل أوامر لقتل لومومبا» -اعترفتُ فجأة. فبعد أن حبست هذا الخبر في فمي لأيام عدة، دلقته الآن في القارب المليء بالنمل- «لقد سمعَتْ ذلك من جهاز أكسلروت اللاسلكي. تقول إن قاتلاً مرتزقاً سيفعل ذلك لصالح الأميركيين».

انتظرت أن يقوم بأي ردّ فعل على كل هذا، لكنّه لم يفعل. برودةٌ مثل الماء انتفخت في معدتي. لا يمكن أن يكون هذا الخبر صحيحاً، مع أن لدى إدا دائماً القوّة لتعرف أشياء لا أعرفها أنا. وقد أرتني الحديث الذي دار بين أكسلروت ورجل آخر، والذي دوّنته في دفتر ملاحظاتها. منذ ذلك الحين، لم تعد لدي أيّ رؤية واضحة لما هو الأمان. أين هي الأرض السهلة، أرض الآيس كريم وأحذية «كيدس» الرياضية الجديدة و«نحن نحبّ آيك»؟ البلد الذي كنت أظن أنني أعرف قواعده جيّداً. أين هو المكان الذي أستطيع أن أذهب فيه إلى البيت؟

«هل هذا صحيح، يا أناتول؟!».

تحرّك الماء تحتنا وابتعد، اندفاع إيقاعي بارد.

«قلت لك، الآن ليس الوقت المناسب للكلام».

«لا يهمّني! فكلّنا سنموت على أي حال، لذلك سأتكلّم كما أريد».

لو كان يستمع، فلا بدّ أنه اعتبرني طفلةً مملّة. لكن رعباً شديداً كان يعتمل في داخلي ولم أستطع أن أمنعه من الخروج. كنت أريد أن يُسكتني، أن يقول لي أن أهدأ وأنني فتاة جيّدة.

«أريد أن أكون فتاة تقية يا أناتول. أن أعرف الصواب من الخطأ، هذا كلّ شيء. أريد أن أعيش حياة جيّدة وأن أُخلَّص».

كنت أرتجف بقوة حتى خشيت أن تتكسّر عظامي.

لم يفُه بكلمة واحدة.

صرخت حتى يسمعني: «ألا تصدّقني؟ عندما أمشي في وادي الظلّ، من المفروض أن يكون الله معي، لكنه لم يفعل! هل تراه هنا في هذا القارب؟».

الرجل أو المرأة الضخمة التي كنتُ أستند إليها تحرّكت قليلاً، ثمّ انحنت. عندئذٍ أقسمت ألّا أفوه بأي كلمة أخرى.

لكن أناتول قال فجأة: «لا تتوقّعي أن يحميك الله في الأماكن التي هي خارج سلطانه، لأن ذلك سيجعلك تشعرين بأنه يعاقبك. إني أحذّرك. عندما تزداد الأمور سوءاً، فإنك ستلومين نفسك».

«ماذا تقول لي؟».

«أقول لك ما أقوله لك. لا تحاولي أن تجعلي الحياة مسألة حسابية تتمحور حولك، وكلّ ما ينجم عنها يكون متساوياً. عندما تكونين طيّبة، فإن الأشياء السيئة تظلّ تحدث. وإذا كنتِ سيئة، فلا يزال من الممكن أن تكوني محظوظة».

يمكنني أن أفهم ما يدور في رأسه: وهو أنّ إيماني بالعدالة طفوليّ، ولم يعد مفيداً هنا مثله مثل وضع العجلات للحصان. شعرت بأنفاس الله تزداد

برودة على جلدي. ثم قلت: «ما كان يجب أن نأتي إلى هنا. إننا أغبياء لأننا قطعنا كل هذه المسافة لنأتي إلى حظنا السيّئ. أليس هذا ما تفكّر به؟».

«لن أجيب عن ذلك».

«إذاً، تقصد أن تقول إنه لم يكن علينا أن نأتي».

«لا، لم يكن عليكم أن تأتوا. لكنكم جئتم، لذلك نعم، يجب أن تكونوا هنا. في العالم توجد كلمات أكثر من لا ونعم».

«أنت الشخص الوحيد هنا الذي يتكلّم معنا يا أناتول! لا يهتم بنا أي شخص آخر، يا أناتول».

«تاتا بواندا يحمل أمّك وأختك في قاربه. وتاتا ليكولو يجذّف قاربه وقد سدَّ أذنيه بأوراق الشجر بينما يلقي أبوك عليه موعظة عن محبّة الربّ، ومع ذلك، يوصله تاتا ليكولو إلى بر الأمان. هل تعرفين أن ماما موانزا تضع أحياناً بيضات من دجاجاتها تحت دجاجاتكم عندما لا ترون؟ كيف تقولين إن أحداً لا يهتمّ بكم؟».

«ماما موانزا تفعل ذلك؟! كيف عرفت؟».

لم يقل لي. كنت غبية لأنني لم أكتشف ذلك. فقد كان نِلسون يجد أحياناً بعض حبات البرتقال ونبات المانيوك وحتى قليلاً من اللحم في بيت مطبخنا عندما لم يكن هناك شيء منها في الليلة السابقة. كنا نؤمن كثيراً بالعناية الإلهية لدرجة أننا ظننا أن معجزات تحدث لنا.

«ما كان يجب أن تأتوا إلى هنا، يا بينيه، لكنكم جئتم ولا يريد أحد في كيلانغا أن تجوعوا. إنهم يفهمون أن البِيض يصنعون لهم أشباحاً مزعجة».

تصوّرت نفسي شبحاً: عظام وأسنان. راشيل شبح بشعر أبيض طويل، وإدا شبح صامت يحدّق. وروث ماي شبح يتسلّق الأشجار، ويدها الصغيرة تضغط على ذراعك. أبي ليس شبحاً. إنه الله وقد أدار ظهره لنا، عاقداً يديه وراء ظهره، وعيناه تحدّقان بشراسة في الغيوم.

لقد أدار الله ظهره لنا وابتعد عنا.

بدأت أبكي بهدوء، وخرج كلّ ما يجيش في داخلي من خلال عينيّ. «أناتول، أناتول» -همست- «أنا خائفة حتى الموت مما يحدث ولن يكلّمني أحد هنا. أنت الوحيد».

كرّرت اسمه لأنه حلَّ محل الصلاة. رسّخني اسمه إلى الأرض، والماء، والجلد الذي يضمّني إليه مثل خابية ماء. أنا شبح في خابية.

«أحبّك يا أناتول».

«ليا! لا تقولي ذلك مرة أخرى أبداً!».

لن أقول ذلك أبداً.

وصلنا إلى الضفة المقابلة. رفرفت دجاجة أنقذها أحدهم وطارت إلى مقدّمة القارب ثم تبخترت بهدوء على طول شفير القارب، وراحت تهزّ لغدها الرقيق لتبعد النمل عنه. لأول مرة في تلك الليلة، فكّرت بدجاجاتنا المسكينات الحبيسات طوال الليل في القن. تخيّلت عظامها قد أصبحت بيضاء خالية من اللحم مكوّمة فوق البيض.

بعد يومين، عندما انسحبت جحافل النمل الثائرة من كيلانغا وأصبح بوسعنا أن نعود إلى بيوتنا، وجدنا دجاجاتنا كما تخيّلتها. فوجئت بأنّ هياكلها العظمية المخلّعة تبدو كما تخيّلتها تماماً. لا بدّ أن هذا ما تعلّمته، في الليلة التي أدار فيها الله ظهره لي: كيف أستخدم العظام للتنبؤ بالمستقبل.

الكتاب الرابع

بال والثعبان

أتحسب أن بالاً ليس بإلهٍ حيّ؟
أوَلا ترى كم يأكل ويشرب كل يوم؟

بال والثعبان 1: 6(*)

(*) ترد هكذا في الأبوكريفا، أما في الكتاب المقدّس المعتمد لدى معظم الطوائف المسيحية، فترِد قصة «بال» في سِفر دانيال، والآية أعلاه هي الآية الخامسة من الإصحاح 14. وبال المقصود هو إله بابل، كما أنه لقب يشير إلى «الربّ» أو «السيّد»، وكان يطلق على مختلف الآلهة في ديانات بلاد ما بين النهرين. [م].

أورليانا برايس

جزيرة ساندرلينغ، جورجيا

لدغة ذبابة -يقول الكونغوليّون- يمكنها أن تبدأ نهاية العالم. كم تبدأ الأشياء ببساطة!

ربما كان مجرّد اجتماع عابر. بلجيكي وأميركي، دعنا نقُلْ: صديقان قديمان يجمعهما جشع مشترك، يعملان يداً بيد في استخراج الماس. ذبابة تطنّ وتضيء. يسحقانها ويدخلان إلى مكتب البلجيكي المصقول بدقّة في إليسابيثفيل. ويحرص أحدهما على أن يسأل الآخر عن أحوال أسرته وعن الأرباح التي يحققها كلّ منهما، ثم يتبادلان الحديث حول العيش في زمن تطرأ فيه تغيّرات كبيرة، والفرصة عظيمة. خريطة الكونغو ممدودة على طاولة الماهاغوني بينهما. عندما يتحدّثان عن العمل والعملة الأجنبية يبعدهما جشعهما عن الحديث الراقي الذي كان يدور بينهما، ويلعق حافات الخريطة الممدودة على الطاولة، ويقسمها بينهما. يتناوبان على الانحناء إلى الأمام ليشيرا إلى تحرّكاتهم بفطنة شديدة، كأنهما يلعبان الشطرنج، ذلك النوع من الألعاب التي تتيح للرجال المتحضّرين إمكانية أن يلعبوا لعبة قتل متخيّلة. وبين تلك الحركات يُرجعون رؤوسهم إلى الوراء، ويرشفون شراب البراندي بلون الدم من كأسين زجاجيين، ويراقبانه وهو يسيل على

الزجاج المحني في شكل عروق سائلة. بفتور أعادا تنظيم خريطتهما. من سيكون الملك ومن القلعة ومن الفيل، الذين سيرتفعون ليضربوا من بعيد؟ أيُّ البيادق سيُضحّى بها؟ تتدحرج أسماء إفريقية مثل رؤوس أزهار جافة سُحقت بتكاسل بين الإبهام والسبّابة - نغوما، موكينجي، موليلي، كاساڤوبو، لومومبا(*). تتفتت إلى غبار فوق السجادة.

خلف رأسَي الرجلين الحليقين، تقف ألواح من خشب الماهاغوني الداكن على أهبة الاستعداد. ذات يوم كانت ألواح الخشب في هذا المكتب تتنفّس هواء الغابة الكونغولية الرطب، وتمنح ملاذاً للحياة، وتحسّ بحراشف الأفعى وهي تتسلّق أغصانها. أما الآن فقد كُتمت أنفاس هذه الألواح، موليةً ظهرها إلى الحائط. وكذلك رؤوس الكركدن والفهد في الأعلى، التي تثبت أن البلجيكيين صيّادون ماهرون. رؤوس مقطوعة تحوّلت إلى جواسيس صامتة تقبع في البيت الذي شيّده هؤلاء الأجانب. وتهتزّ خارج النافذة أوراق شجرة النخيل مع هبّات الريح المتزايدة. تمرّ سيارة. تتطاير أوراق صحيفة باتجاه المياه المتعفّنة في حفرة مكشوفة. تتطاير الصحيفة على طول الشارع، تتبعثر صفحاتها المنفلتة فوق الماء، وتطفو فوقه مثل مربّعات نصف شفافة من القماش المخرّم. لا يعرف أحد ما إن كانت فيها أخبار جيّدة أم سيئة. امرأة تمشي بجانب الخندق تحت سلّتها المليئة بالذرة المحمّصة. عندما ينهض البلجيكي ليغلق النافذة، تهبّ عليه روائح كلّ هذه الأشياء: العاصفة، الخندق، المرأة التي تحمل الذرة. يغلق النافذة ويعود إلى العالم الذي من صنعه. الستائر مصنوعة من البروكار الدمشقي. السجادة تركية. الساعة على الطاولة ألمانية، قديمة لكنها لا تزال تعمل بدقة. الرؤوس المعلّقة على الحائط تراقب بعيون من الزجاج المستورد. الساعة الدقيقة تتكتك، وفي هذا الفضاء الصغير بين الثواني، تتحوّل النزوة إلى واقع.

(*) كلّها أسماء سياسيّين كونغوليّين. [م].

مع مرور الوقت، جحافل من الرجال ستُجرّ للمشاركة في اللعبة. الأبنوس والعاج كلاهما: رئيس مكتب وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في الكونغو، ومجلس الأمن القومي، وحتى رئيس الولايات المتحدة الأميركية. يدخل شاب كونغوليّ يدعى جوزيف موبوتو إلى المكتب حافياً ليشتكي من طبيعة الطعام الذي يصل إلى الجيش. صحفي بلجيكيّ لاحظ ذكاء هذا الشاب وجشعه البدائي -عاملان مفيدان في أيّ لعبة- فأخذه تحت جناحه وعلّمه كيف يصعد المرتفعات الهوائية حيث يسكن الأجانب. قلعة ستصبح ملكاً. ما هو البيدق الذي سيسقط؟ باتريس لومومبا، عامل البريد الذي انتُخب ليصبح رئيساً لبلده. يتفق البلجيكيون والأميركيون على أن لومومبا رجل يصعب التعامل معه، يحبّه الكونغوليون كثيراً، ولا يريد أن يهيمن الرجل الأبيض على رقعة اللعب، وهو يفضّل استشارة السود وصحبتهم.

استجاب اللاعبون بسرعة وتصرّفوا في الخفاء. ينطلق كلّ لاعب عبر الأنهار والغابات والقارات والمحيطات، لا يراهم أحد سوى العيون الزجاجية الأجنبية والأشجار المحلّيّة الضخمة التي كانت تملأ الغابة ذات يوم قبل أن تُجتثّ من جذورها.

أتخيّل هذا المشهد، أجمّعه قطعة قطعة على مدى سنوات من المقالات التي قرأتها، عندما بدأ كل شيء في الظهور. أحاول أن أتخيّل هذين الرجلين واللعبة التي يلعبانها، لأن ذلك يساعدني على أن أضع أفعالي المؤسفة ضمن سياق أوسع، حيث تبدو أقل أهمية. ما هي الأشياء التافهة التي كنت أفعلها بينما كانا يقسّمان الخريطة تحت قدمي؟ من هي المرأة التي مرّت تحمل على رأسها ذرة محمّصة؟ هل يمكن أن تكون إحدى قريبات شخص كنت قد ساومته ذات يوم في أحد أيام السوق؟ كيف لم نعرف كلانا الأساليب التي يتبعها العالم منذ أمد بعيد؟

بعد مضي خمس عشرة سنة على الاستقلال، في عام 1975، دعت مجموعة من أعضاء مجلس الشيوخ لجنة الكنيسة للتحقيق في العمليات السرية التي كان لها أثر كبير على الكونغو. وقد هزّت المفاجأة العالم. فقد عثرت لجنة الكنيسة على محاضر من الاجتماعات السرية التي عقدها مجلس الأمن القومي مع الرئيس آيزنهاور. ففي غرفهم المغلقة، وضع هؤلاء الرجال رؤوسهم معاً، وأعلنوا أن باتريس لومومبا رجل خطير على أمن العالم وسلامته. باتريس لومومبا نفسه، انتبه، الذي كان يغسل وجهه صباح كلّ يوم من طاسة صفيح مثلّمة، ويفرغ مثانته ويتغوّط بين الأحراش، الرجل الذي خرج يبحث عن وجوه شعبه. تخيّل لو أنه سمع هذه الكلمات -خطير على أمن العالم وسلامته- من غرفة مليئة برجال بيض يحملون في أيديهم المشذّبة مخططات الجيوش والقنابل الذرّيّة، والقوّة لإخماد أي حياة على وجه الأرض. هل كان لومومبا سيصرخ مثل فهد؟ أم أنه سيخلع نظّاراته، يمسحها بمنديله، ويهزّ رأسه، ويبتسم؟

في أحد الأيام في أواخر شهر آب عام 1960، أرسل السيّد آلِن دالاس المسؤول عن وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، برقية إلى رئيس المحطة في الكونغو يقترح فيها استبدال الحكومة الكونغولية في أقرب وقت ممكن. وطُلب من السيّد لورانس ديفلن أن يبدأ بتنفيذ هذه العملية الجريئة بسرية تامة: الانقلاب سيكون مناسباً. وقال إن أموالاً ستُرسل لتُدفع إلى الجنود لتنفيذ العملية. لكن ربما كان الاغتيال أقل تكلفة، فلديه عصابة من الرجال الذين يجيدون إطلاق النار ولا يوجد عندهم وازع أو ضمير. ولعدم ترك أي احتمال لشيء مفاجئ، استُخدم أيضاً عالم يدعى الدكتور غوتليب ليعدّ سمّاً يسبّب مرضاً قاتلاً (شهد الطبيب بذلك في جلسات الاستماع لاحقاً)، فإذا لم يُقتل لومومبا على الفور، فإنه سيبقى مشوّهاً ولن يعود بإمكانه أن يكون زعيماً لشعبه.

في ذلك اليوم نفسه من شهر آب، كان هذا كلّ ما عرفته: كان الألم في بيتي كبيراً يكفي ليملأ العالم كله. فقد بدأت روث ماي تنزلق إلى الحمّى. وحلَّ عيد ميلاد راشيل السابع العشر. كنت ألفّ القرط الكريستالي الأخضر في منديل ورقي آملةً أن أرضي ابنتي البكر، وفي الوقت نفسه أحاول أن أطفئ النار من جسد أصغر بناتي. في ذلك الحين كان الرئيس آيزنهاور يرسل أوامره للسيطرة على الكونغو. تخيّلوا ذلك! كانت أسرته العالم بأسره، وكان قد اتخذ قراره بخصوص ذلك. وكان يرى أنه منح لومومبا فرصة جيّدة، فقد استقلّت الكونغو لمدة واحد وخمسين يوماً!

جلس السيّد ديفلن وأصدقاؤه مع موبوتو الشاب الطموح الذي رُقِّي إلى رتبة كولونيل. وفي 10 أيلول، قدّموا مليون دولار من أموال الأمم المتحدة لشراء الولاء، وأنهت وزارة الخارجية خططها للقيام بانقلاب وتعيين موبوتو مسؤولاً عن الجيش كله. لقد أُعِدّ كلّ شيء. وفي 14 أيلول، سيطر الجيش على جمهورية الكونغو المستقلة مؤقتاً، ووُضع لومومبا تحت الإقامة الإجبارية في ليوبولدڤيل، يحاصره جنود موبوتو الذين تمّ شراؤهم مؤخراً.

في تلك الأيام، بينما كنّا نبحث عن خبزنا اليومي ونساوم للحصول عليه، كنت أعلّق صورة الرئيس آيزنهاور في مطبخي، كنت قد قصصتها من إحدى المجلّات وعلّقتها فوق اللوح الخشبي حيث أعجن الخبز. كانت تلك الصورة تشكّل جزءاً هاماً من حياتي إلى درجة أنني أتذكّر كلّ تفصيل في وجهه: النظّارات بإطارها الواضح، وربطة العنق المنقّطة، والابتسامة الواسعة، والرأس الأصلع مثل مصباح مضيء دافئ، رأس يشبه الجد. كان يبدو جديراً بالثقة ولطيفاً جداً. منارة تنبعث من بيتنا، تذكّرني بالهدف من رحلتنا.

في وقت مبكر جداً من صباح 27 تشرين الثاني، على الأرجح كنت أوقد النار في موقدنا الخشبي لأعدّ طعام الفطور، هرب لومومبا الذي

ساعدته سرّاً شبكة من المؤيّدين المنتشرين في طول الكونغو وعرضها، من ليوبولدڤيل حتى قريتنا وإلى مسافة أبعد منها بكثير. طبعاً، لم يقل لي أحد ذلك. فقد كنّا نسمع إشاعات عن أن لومومبا في محنة. بصراحة، كان اهتمامنا ينصبّ أكثر على الأخبار التي تقول إن أمطاراً غزيرة تهطل غرب قريتنا، وربما تصل قريباً إلى قريتنا التي ضربها الجفاف. واتضح أن الأمطار أتاحت غطاءً لرئيس الوزراء. فقد غمرت المياه ليوبولدڤيل الليلة الماضية. أستطيع أن أتخيّل القوام الحريري لذلك الهواء البارد، ورائحة الأرض الكونغولية تتلوى على أصابعها تحت قش العشب الجاف. وفي الضباب الكثيف، ظهر الوهج الأحمر لسيجارة الحارس، الذي كان يسرح بخياله في أحلام يقظة، ويلعن البرد، لكنه ربما كان سعيداً بهطول المطر، فلعلّه ابن مُزارع. على أي حال، فإنه يجلس وحيداً الآن، أمام بوّابة البيت الذي سُجن فيه لومومبا في ليوبولدڤيل. سُمع هسيس عجلات سيارة «ستيشن واغن» تتوقّف في الظلام. انتصب الحارس واقفاً، يتلمّس بدلته، ورأى السيارة محمّلة بعاملات المنازل اللواتي أنهين نوبتهن الليلية وهنّ في طريقهن إلى بيوتهن في أحياء الصفيح الفقيرة على أطراف المدينة. أبدى الحارس نفاد صبر، فهو مشغول جداً بأمور الدولة، وها هو ذا يُزعج من قبل الخادمات والسائق. نقر بإبهامه وسبّابته، مشيراً للسائق بأن يمضي في طريقه.

وراء المقعد الخلفي، محشوراً بين ركب العاملات اللاتي يرتدين جوارب بيضاء، كان رئيس الوزراء يجثم تحت بطانية.

كانت سيارة بيجو وسيارة فيات بانتظاره أسفل الشارع وسارتا وراءه. اتجهت السيارات الثلاث شرقاً، إلى خارج المدينة. وبعد أن اجتازت نهر كوانغو فوق عبّارة، نهض رئيس الوزراء من وراء المقعد، تمطّى بجسده الطويل، النحيف، ثم انضمّ إلى زوجته بولين، وابنه الصغير رولاند، في سيارة تابعة لسفارة غينيا. مضت السيارة وحدها شرقاً نحو ستانليڤيل حيث

كانت أعداد غفيرة من الموالين الذين ينتظرون للترحيب بزعيمهم، الذين يؤمنون بكلّ جوارحهم أنه سيتمكّن من استعادة أحلامهم بإنشاء كونغو حرة.

لكن الطرق كانت صعبة جداً. فالطين الذي هو نعمة لمحصول المانيوك أضحى نقمةً للسيارة التي تقلّ لومومبا، فراحت تتقدّم ببطء في ظلام الليل. وعند الفجر، ثُقبت عجلة السيارة وتوقّفت، فترجّل لومومبا منها وراح يمشي فوق العشب المسطّح بجانب الخندق، وبقي أنيقاً بشكلٍ ملحوظ، فيما انهمك السائق في تبديل العجلة.

وعندما شغّل السائق السيارة ثانيةً، لم تتحرّك بسبب الطين الكثيف. انحنى لومومبا وراح يدفع السيارة بكتفه، لكنها لم تتحرّك قيد أنملة. لقد علقوا هنا بشكلٍ ميئوس منه، وكان عليهم انتظار وصول مساعدة. كانا لا يزالان واثقين بالحرية التي تنتظرهما. ثم وصل عضوان من أعضاء وزارة لومومبا السابقة، قادمين من ليوبولدڤيل في سيارة أخرى.

لكن كان الحظ السيئ بالمرصاد، فعندما وصل هذان الرجلان إلى نهر كوانغو أخذا يلوّحان بيأس لصيّاد سمك كان يقف مذهولاً. كانا يحاولان أن يطلبا منه أن يذهب ويوقظ صاحب العبّارة الرابضة في الماء عند الضفة الأخرى من النهر التي كانت قد أقلّت رفاق لومومبا الليلة الماضية. كان هذان الوجيهان الهاربان ينتميان إلى قبيلة باتيتيلا، وكانا قد تعلّما اللغة الفرنسية في المدارس التبشيرية، ولم يكن لديهما أدنى فكرة عن كيفية التفاهم مع رجال قبيلة كوانغو التي تصطاد السمك في النهر شرقي ليوبولدڤيل. لم يكن ذلك ذا أهمية في الماضي، لأن أحداً لم يكن يفكّر بجغرافية الكونغو الكبيرة قبل الاستقلال، أما الآن، في صباح 28 تشرين الثاني فقد أصبح ذلك يعني كلّ شيء. لم يكن النهر عريضاً جداً، وكان باستطاعتهما رؤية العبّارة بوضوح، والإشارة إليها. لكن الصيّاد وقف هناك يحدّق بهذين الرجلين اللذين يرتديان بدلات مثل الرجال في المدينة، وأيديهما النظيفة، وأفواههما التي

تبالغ في نطق كلمات غير مفهومة. كان يرى أنهما في حالة يائسة، فعرض أن يقدّم لهما قليلاً من السمك.

هكذا تسير الأمور في الحياة.

انتظر حزب لومومبا معظم فترة النهار، إلى أن عثر على العائلة أحد المفوّضين الإقليميين وأنقذهم وأخذهم إلى بولونغو، حيث توقّفوا لأن زوجة لومومبا وابنه كانا جائعين وطلبا أن يتناولا طعاماً. وبينما راح لومومبا ينتظر تحت ظلّ شجرة ويزيل بقع الطين التي جفّت على بنطاله، عرفه أحد القرويين وسرعان ما تحلّق حوله حشدٌ من الأشخاص المتحمّسين. فألقى عليهم كلمة مرتجلة عن توق إفريقيا الذي لا يُقهر إلى الحريّة. وكان يقف في ذلك الحشد طيّار جشع من جنوب إفريقيا معه جهاز لاسلكي. وسرعان ما أُبلغ رئيس مكتب الاستخبارات المركزية الأميركية بأن لومومبا طليق، وطارت على موجات راديو غير مرئية الكلمات المشفّرة: «لقد هرب الأرنب» إلى جميع أنحاء الكونغو، فألقى الجيش القبض على لومومبا على مسافة لا تزيد على خمسين ميلاً من قريتنا. تدفّق الناس على الطرقات، وراحوا يضربون بعصيهم وأصنامهم أغطية سيارات الجيش التي تنقله. وطار الخبر بسرعة كبيرة بواسطة الطبول إلى منطقتنا وما وراءها، وجرى عدد من جيراننا إلى هناك في محاولة لمساعدة زعيمهم المأسور. لكن نحن -الذين كنا في وسط الرعد، ووسط الأخبار التي كانت كافية لثقب طبلة الأذن- لم نسمع شيئاً.

نُقل لومومبا إلى سجن ثيسفيل، ثمّ نُقل جوّاً إلى إقليم كاتانغا حيث ضُرب بوحشية إلى درجة أنهم لم يستطيعوا أن يعيدوا جثمانه إلى أرملته لكيلا يشعروا بالحرج دولياً.

حزنت بولين وأطفالها كثيراً، لأن عدم وجود جثمان لدفنه بشكلٍ صحيح شيءٌ فظيع لأي عائلة كونغولية، إذ إن الجسد الذي لا تقام له مراسم

دفن رسمية لا يستطيع أن يرتاح، ويبقى يحلّق في الليل. كانت بولين تأوي إلى فراشها في تلك الليالي متوسّلة إلى زوجها ألّا يقضم الأحياء بمنقاره. هذا ما أظنه على أي حال، وأظن أيضاً أنها كانت تتوسّل إليه ألّا يسلب أرواح الذين سيحلّون مكانه. وعلى الرغم من صلواتها، فقد أصبحت الكونغو في أيدي رجال فارغين لا أرواح لهم.

بعد خمسة عشر عاماً من حدوث هذا كلّه، جلستُ بجانب مذياعي في أتلانتا أستمع إلى السيناتور تشيرش وجلسات استماع اللجنة الخاصة بخصوص الكونغو. غرزت أظافري في راحة يدي حتى ثقبت لحمي. أين كنت؟ في مكان آخر تماماً؟ الانقلاب، في شهر آب، كنت متأكّدة أننا لم نفهم شيئاً. ففي الشهور الخمسة التي أعقبت سجن لومومبا، وهروبه، والقبض عليه ثانية، أتذكّر - ماذا؟ مشاقّ الغسيل والطبخ في ذلك الطقس الجاف. حدث مهين في الكنيسة، ونشوب خلافات متزايدة بين أبناء القرية. وبالطبع مرض روث ماي، والشيء المريع الذي أصاب ليا التي أرادت أن ترافق الرجال في الصيد. كنت منهمكة كلّ يوم، وأحسست بأنني منفصلة عن الأشياء الكبيرة كالشهر أو السنة. لم يعبر التاريخ في ذهني على الإطلاق، لكن الآن جاء الفهم بهدوء. أصبحت أعرف الآن أنه مهما ثقلت أعباؤك، فإن محاولة أن تنأَيْ بنفسك عن هؤلاء الرجال الأقوياء ما هو إلّا وهم. وفي ذلك اليوم المشؤوم من شهر كانون الثاني 1961، دفع لومومبا حياته، وكذلك أنا. وعلى جناحَيْ بومة، بدأت الكونغو تطارد كل شيء، حتى أسرتنا الصغيرة، نحن رسل النيّات الحسنة الذين جُرفنا على غير هدى في بحر النيّات الخاطئة.

من الغريب القول إنه عندما حصل كلّ ذلك، شعرت بأنني كنت أنتظر ذلك طوال حياتي الزوجية. أنتظر أن تسقط تلك الفأس، فأستطيع الابتعاد من دون أي مغفرة في قلبي. لعلّ المأساة كانت قد بدأت في يوم زفافي،

أو ربما قبل ذلك عندما رأيت ناثان لأول مرة في خيمة الإحياء. اجتماع عابر بين شخصين غريبين، ثم بدأت نهاية العالم تتجلّى. من يستطيع القول أين بدأ ذلك؟ أمضيت سنوات عدة وأنا أعود إلى ذلك الطريق الموحل: كم أتمنى لو أنني لم أترك البنات يغِبن عن بصري في ذلك الصباح، لو أنني لم أدع ناثان يأخذنا إلى كيلانغا أصلاً، لو أن المعمدانيين لم يأخذوا على عاتقهم تحويل الكونغوليين إلى الديانة المسيحية. ماذا لو لم يتذوّق الأميركيون، وقبلهم البلجيكيون، طعم الدم والمال في إفريقيا؟ ماذا لو لم يطأ عالم الرجل الأبيض أرض الكونغو قطّ؟

إنها مغامرة رائعة لكنها غير مجدية: محاولة تغيير المصير. يمكن تتبّع هذا المسار إلى وقت ما قبل ولادتنا. وفي تلك البئر العميقة من السهل إلقاء اللعنات على أسلافنا كما تلقى الحجارة. لكن ذلك لا يتجاوز أن نلعن أنفسنا وكلّ ما فعلناه. لو لم أتزوّج واعظاً يدعى ناثان برايس، لما رأت بناتي نور هذا العالم. لقد سرت في وادي قدري ومصيري، هذا كلّ شيء، وتعلّمت أن أحبّ ما يمكن أن أخسره.

يمكنك أن تلعن الأموات أو أن تصلّي من أجلهم، لكن لا تتوقّع أن يفعلوا شيئاً من أجلك. إنهم بعيدون جداً، بعيدون لدرجة أنهم لا يهتمون كثيراً بمراقبتنا، ورؤية ما نفعله باسم السماء.

ما خسرناه

كيلانغا، 17 كانون الثاني 1961

ليا

لا يمكنك فقط أن تشير إلى أفظع شيء، وتتساءل: لماذا حدث ذلك؟ كان هذا وقتاً فظيعاً بالكامل، بدءاً بالجفاف الذي ترك كثيرين من دون طعام، ثم ليلة النمل، حتى الآن، أسوأ مأساة من بين كلّ المآسي. فكلّ شيء سيّئ يفضي إلى شيء أسوأ منه. وكما قال أناتول: «كلّما تمعّنت في الأمور أكثر، أمكنك دائماً أن تكتشفي السبب، ولكن إذا فكّرتِ بأن ما حدث ما هو إلّا عقاباً على الذنوب التي ارتكبتها، فإنك ستفقدين صوابك». أرى ذلك بوضوح شديد عندما أنظر إلى أمي وأبي. فالله ليس بحاجة إلى أن يعاقبنا، إنه يمنحنا حياةً طويلة بما يكفي لنعاقب أنفسنا.

عندما أتذكّر الماضي، تلك الشهور التي أفضت بنا إلى يومنا هذا، أرى أن الأشياء بدأت تنهار في شهر تشرين الأول عندما أُجري الاقتراع في الكنيسة. كان علينا أن نتمتّع بروح رياضية ونغادر الكونغو آنذاك. كيف لم يرَ أبي الخطأ الذي ارتكبه؟ فقد قاطع الحاضرون الموعظة التي كان يلقيها كي يصوّتوا: هل ينبغي قبول المسيح مخلّصاً لكيلانغا أم لا!

كان ذلك اليوم قائظاً، في فصلٍ شديد الجفاف، وكنّا نشعر بطعم التراب في ألسنتا عندما ننام، ونستيقظ كأننا مخدّرون. وأصبحت البقعتان المفضّلتان للسباحة -حيث من المفترض أن نرى المياه البنية تدور بسرعة في هذا الوقت من السنة- جافتين تملؤهما الأحجار البيضاء.

وبدأت القرويات يسحبن ماء الشرب من النهر مباشرة، بينما تلهج ألسنتهن بقصص عن نسوة أصبحن طعاماً للتماسيح في سنوات جافة أخرى - مع أنها لم تكن بجفاف هذه السنة. وكانت حقول المانيوك مسطّحة: ميّتة. وأشجار الفاكهة عارية، وكانت أوراق الأشجار الصفراء تتساقط في كل مكان، وتكسو الأرض كأنها سجادة مُدّت للترحيب بالزيارة الوشيكة لنهاية الزمن. وبدأت أشجار الكابوك القديمة الضخمة وأشجار الباوباب التي تظلّل قريتنا تتألم وتئن على أغصانها، وأصبحت تشبه أشخاصاً طاعنين في السن أكثر من شبهها بالأشجار.

وتناهت إلينا شائعات عن أن المطر يملأ وديان الأنهار في غرب قريتنا، فأثارت هذه القصص أشدّ أنواع العطش الذي يمكن للمرء أن يتخيّله - عطش المحاصيل الميّتة والحيوانات النافقة. كانت الأعشاب الميّتة التي تكسو التلال البعيدة حمراء ضاربة إلى الصفرة، ليست برتقالية وإنما لون أكثر جفافاً: برتقالي - أبيض، مثل السديم في الهواء. وكانت القرود تتجمّع فوق أغصان الأشجار العالية، العارية، عند الغروب، تتبادل النشيج بينما تتقصّى السماء.

وغادر كل كائن حيّ يستطيع أن يغادر بيته، وبينهم بعض جيراننا الذين هاجروا غرباً في الاتجاه الذي تنطلق أصوات الطبول منه في كلّ ليلة. وأصدر تاتا كوفودُندو نبوءاته بإلقاء العظام في الطاسات، ورقصت جميع الفتيات في القرية تقريباً وقد وضعت كل واحدة منهن دجاجة على رأسها لكي يهطل المطر. لقد بذل الناس كل ما بوسعهم. وبدأ الحضور إلى الكنيسة يرتفع

وينخفض، ربما لأن الناس ظنّوا أن المسيح مفيد في البداية، لكنه لم يؤكّد ذلك لهم.

في صباح يوم الأحد ذاك، جلس تاتا ندو نفسه على المقعد الأمامي. على الرغم من أنه لم يكن يقترب من باب الكنيسة إلّا نادراً، لذلك لا بدّ أن مجيئه اليوم هو إشارة واضحة، لكن من يستطيع أن يعرف ما إن كانت إشارةً جيّدة أم سيئة؟ ولم يكن يبدي اهتماماً كبيراً بالموعظة التي يلقيها أبي. في الواقع، لم يكن أحد من الحاضرين يولي أي اهتمام بالموعظة لأنها لم تكن تتحدّث عن المطر. ففي الشهر الماضي، عندما بدا أن عواصف رعدية ستهبّ، قال لهم أبي إنهم إذا أعلنوا توبتهم عن الخطايا التي ارتكبوها، فإن الله سيكافئهم بالمطر. لكن على الرغم من إعلان توبتهم، لم تهطل قطرة واحدة، وها هو ذا يقول لنا الآن إننا يجب ألّا نكون جزءاً من هذه الخرافات.

لكن في صباح هذا اليوم، كان موضوع موعظته عن قصة بال في المعبد، التي استمدّها من الأبوكريفا. ومع أن معظم رجال الدين الآخرين ينظرون بازدراء إلى الأبوكريفا، فقد ظلَّ أبي متمسّكاً بها. فقد كانوا يقولون إن عدداً من الأشخاص المذعورين هم الذين اختلقوها وألصقوها بالكتاب المقدّس لبثّ الخوف في نفوس الناس، وظلَّ أبي يردد إنه إذا لم يلهمك الله لتتوقّف عن ارتكاب الآثام بأي طريقة أخرى، فلن يكون أمامه إذاً سوى أن يبثّ الذعر في نفسك.

إن قصة بال والثعبان ليست قصة مرعبة كثيراً، وإنما تُظهر بشكلٍ أساسي ذكاء دانيال. ففي ذلك الزمان، خرج دانيال ليبرهن للبابليين أنهم يعبدون أصناماً زائفة.

حتى أنا لم أستطع التركيز في ما يقوله أبي، فمؤخراً لم تعد تؤثّر فيّ حماسته إلا نادراً، ولم يعد يؤثّر فيّ ما يتعلّق بالله إطلاقاً.

«وكان لأهل بابل صنم اسمه بال» – قال أبي. كان صوته هو الشيء

الواضح الوحيد في ذلك السديم الذي يخيّم علينا. كان الناس يهوّون أنفسهم من شدة الحرّ.

«وكانوا ينفقون له كل يوم اثني عشر إردباً من السميذ وأربعين شاةً وستة أمتار من الخمر».

ترجم أناتول ما قاله أبي، لكنّه استخدم عوضاً عنها كلمات: المانيوك والماعز ونبيذ النخيل. عند ذلك بدأ بعض الحاضرين يهوّون لأنفسهم بقوة أكثر عندما خطر لهم أن كلّ ذلك الطعام سيذهب إلى إلهٍ جائع واحد فقط. لكن معظمهم غطّوا في النوم.

«كان الناس يبجلّون صنم بال ويذهبون كلّ يوم إلى المعبد لعبادته، لكن دانيال كان يعبد الربّ مخلّصنا. وعندما سأله الملك: لماذا لا تعبد الإله بال؟ أجابه دانيال: أنا لا أعبد أصناماً زائفة بل الإله الحيّ رأس كلّ البشر، فقال البابليون» -هنا خفض أبي صوته إلى نبرة محادثة عادية- «أتحسب أن بالاً ليس بإلهٍ حيّ؟ أوَلا ترى كم يأكل ويشرب كل يوم؟ فضحك دانيال وقال لهم: لا تنخدعوا! فليس هذا إلّا تمثالاً من الطين والنحاس!».

صمت أبي، وانتظر أناتول حتى ينهي ترجمته.

أنا شخصياً أحبّ قصة بال والمعبد. إنها قصّة جيّدة، لكن بسبب التأخر الناجم عن الترجمة صارت سرعة رواية القصة بطيئة جداً، فلم تستطع إبقاء الناس مهتمين.

إنها فعلاً قصّة بوليسية. لو كنت مكان أبي لحكيت القصة هكذا: «كان دانيال يعرف أن كبار كهنة الملك يتسللون إلى المعبد في الليل ويأخذون الطعام. فوضع دانيال خطة. وبعد أن وضع الناس أضاحيهم في المعبد، تسلل إلى المعبد ونثر رماداً على الأرض، وعندما دخل الكهنة إلى المعبد في تلك الليلة من درجٍ سرّي تحت المذبح، لم يلاحظوا الرماد، فتركوا آثار أقدامهم على أرضية المعبد. وكان الكهنة يقيمون حفلة صاخبة في كلّ ليلة

للاحتفاء بإلههم بال. لكن دانيال أمسكهم بالجرم المشهود من آثار أقدامهم التي تركوها على الرماد الذي كان قد نثره».

بينما كان أبي يستعد لمواصلة حكايته وقف تاتا ندو فجأة، وقاطع أبي الذي لم يكن قد أكمل رسالته. حدّقنا به جميعاً. رفع تاتا ندو يده وقال بصوته العميق، صوت الرجل الكبير معطياً لكل كلمة الحجم والوزن نفسيهما بالضبط: «حان الوقت الآن للاقتراع».

«ماذا؟» - قلتُ بصوت مسموع.

لكن أبي الذي يعرف عادةً كلّ شيء قبل أن يحدث، تعامل مع هذا الأمر بأريحية، فأجاب بأناة: «حسناً، هذا جيّد. الانتخابات شيء جميل ومتحضّر، ففي أميركا ننتخب كلّ أربع سنوات لنختار زعماء جُدداً».

ثم انتظر حتى ينهي أناتول ترجمة ما قاله.

ربما كان أبي يريد أن يُلمّح إلى أنه قد حان الوقت ليعيد القرويون النظر في تاتا ندو بأكمله.

فأجابه تاتا ندو بصبر متساوٍ: «آبي باندو، إذا لم تكن تمانع، تاتا برايس، سنجري انتخابنا *Ici, maintenant* (هنا والآن)!» - تكلّم بخليطٍ حذر من اللغات التي يفهمها الحاضرون جميعهم.

لا بدّ أن هذه نكتة، قلت في نفسي، لأن تاتا ندو لا يؤمن بطريقتنا في الانتخابات أكثر مما يؤمن أناتول.

قال أبي: «بكلّ الاحترام الواجب، الآن ليس الوقت أو المكان المناسبين لعمل ذلك. لماذا لا تجلس الآن، وتعلن عما تنوي أن تفعله بعد أن أنهي موعظتي؟ إن الكنيسة ليست المكان المناسب للاقتراع».

«الكنيسة هي المكان الملائم لعمل ذلك، *Ici, maintenant* (هنا والآن)! سنقترع إن كان المسيح سيتبوأ منصب الربّ في قرية كيلانغا».

تسمّر أبي في مكانه لعدّة ثوان، فنظر تاتا ندو إليه متسائلاً: «اغفر لي، أتساءل ما إن كنت قد سبّبت لك شللاً؟».

وجد أبي صوته أخيراً، وقال: «لا، لم تفعل!».

«آبو، سنبدأ. بيتو توتاكوي كوسالا».

فجأة سُمع حفيف ملوّن يتحرّك بنشاط في الكنيسة، عندما بدأت النسوة يتحرّكن بالباني الملوّنة البرّاقة. سرت في جسدي رجفة. من المؤكّد أن هذا الأمر مخطّط له مسبقاً. أخرجت النسوة الأحجار من طاسات الكالاباش ووضعنها في طيّات تنانيرهن وتحرّكن بين المقاعد، وهنّ يضعن حجرة بقوة في راحة كلّ يد ممدودة. كان يبدو أن النساء والأطفال سيشاركون كلّهم في التصويت هذه المرة أيضاً. تقدّم والد تاتا موانزا ووضع طاستين فخاريتين للتصويت أمام المذبح، واحدة للتصويت لصالح المسيح، والأخرى ضدّه. ووضع بجانبهما شعاران: الصليب وقنينة نسامبا، نبيذ النخيل الطازج. يجب على أي شخص أن يعرف أن هذه ليست مباراةً عادلة.

حاول أبي أن يوقف العملية وقال بصوت مرتفع إنه لا علاقة ليسوع المسيح بأي انتخابات شعبية، فغضب الحاضرون لأنهم تعلّموا العملية الديمقراطية مؤخراً. عندما أصبح أهالي كيلانغا جاهزين لإلقاء أحجارهم، تقدّموا نحو المذبح في صفّ واحد، كما لو كانوا يتقدّمون أخيراً لكي ينقذهم المسيح، فتقدّم أبي للقائهم كما لو أنه صدّق حقاً بأن هذه دعوة سماوية. لكن رتل الناس انقسم من حوله كما ينقسم الماء حول صخرة في جدول الماء وواصلوا عملهم. لم يكن ذلك أمراً مبجّلاً، فتراجع أبي وعاد إلى منبره المصنوع من سعف نخيل مضفورة معاً، ورفع يده ليعلن عن بركته، كما أظن. لكن التصويت انتهى قبل أن يقول شيئاً، وبدأ مساعدو الزعيم تاتا ندو على الفور عدّ الأحجار. فرتّبوها في خمس مجموعات بخطٍّ مستقيم على الأرض، ووضعوها على كلا الجانبين ليراها الجميع.

«*C'est juste*» -قال تاتا ندو وهم يعدّون الأحجار- «نستطيع أن نرى كلنا بأمّ عيوننا أن العملية عادلة».

احمرّ وجه أبي وصاح: «هذا تجديف». وفتح يديه على وسعهما كما لو كان يلقي بالشياطين التي لم يكن يراها أحد غيره، وصاح: «لا يوجد شيء عادل هنا».

فالتفت تاتا ندو على الفور نحو أبي وحدّثه بلغة إنكليزية دقيقة بشكلٍ مدهش، مموّجاً حروف الراء، واضعاً كلّ مقطع مثل الحجرة في يده، وقال: «تاتا برايس، لقد جلب لنا الرجل الأبيض مشاريع كثيرة لتحسين طريقة تفكيرنا. مشروع المسيح ومشروع الانتخابات. وقلت إنهما شيئان جيّدان. والآن لا يمكنك أن تقول إنهما ليسا كذلك».

اندلعت في الكنيسة مباراة في الصياح، ووافق معظمهم على ما قاله تاتا ندو. صاح رجلان في الوقت نفسه تقريباً: «كو نيانغا، نغي إيبلي كو تالا!».

انحنى أناتول الجالس على كرسي بالقرب من المذبح، وقال لأبي هامساً: «يقولون إنك غطّيت سقفك بالقش، ويجب ألّا تهرب الآن من بيتك إذا هطلت الأمطار».

لكن أبي تجاهل هذا المَثَل، وصاح بحزم: «إن المسائل الروحانية لا تُقرّر في السوق». فترجم أناتول ما قاله.

«آبو كوي؟ أين، إذاً؟» - سأل تاتا نغوزا، ونهض واقفاً بجرأة، ثم قال إن الرجل الأبيض الذي لم يقتل حتى ظبياً صغيراً واحداً ليطعم أسرته لا يعرف ما هو الإله الذي يستطيع حماية قريتنا.

عندما ترجم أناتول ذلك، بدا أبي مندهشاً. ففي المكان الذي أتينا منه، تصعب رؤية صلة هذا بذاك.

فقال أبي ببطء، كما لو كان يكلّم أشخاصاً بسيطين: «الانتخابات جيّدة، والمسيحية جيّدة. كلتاهما جيّدتان».

نحن بناته أدركنا الخطر في طريقة كلامه الهادئة، واللون الذي بدأ يزحف نحو خط شعره. أضاف: «أنتم محقّون. إننا نكرّم هذين الأمرين في أميركا، لكنّنا نتخذ قراراتنا بشأنها في بيوت مختلفة».

«إذاً، يمكنك فعل ذلك في أميركا» -قال تاتا ندو- «وعندئذ لن أقول إنك غير حكيم، لكننا هنا في كيلانغا يمكننا أن نستخدم البيت نفسه للقيام بأشياء عدة».

انفجر أبي قائلاً: «أيها الرجل، إنك لا تفهم شيئاً! إنك تطبّق منطق الأطفال في عرض طفولي ينمّ عن الجهل». وخبط بقبضته على الهيكل، فتمايلت سعف النخيل الجافة من جانب إلى آخر، ثم بدأت تتساقط الواحدة تلو الأخرى، فركلها أبي بقدمه بغضب ومشى نحو تاتا ندو، لكنه سرعان ما توقّف على بعد بضع أقدام منه. فقد كان تاتا ندو أضخم من أبي بكثير، وذراعاه ضخمتان، وبدا في تلك اللحظة مهيباً أكثر من أبي بكثير.

أشار أبي بإصبعه مثل مسدس في وجه تاتا ندو، ثمّ أدارها ليوجّه الاتهام إلى الجميع، وقال: «حتى إنكم لم تتعلّموا كيف تديرون بلدكم البائس! أطفالكم يموتون من مئة مرض ومرض! لا يوجد لديكم وعاء لتتبوّلوا فيه! وتظنون أنكم تستطيعون أن تقبلوا نِعَم المسيح أو ترفضوها!».

لو كان هناك أحدٌ بالقرب من أبي للكَمَه، وسلك سلوكاً يتعارض مع المبادئ المسيحية. لم أكن أريد أن أكون واقفة بالقرب منه في تلك اللحظة. ولو بقيت فيّ صلاة فهي ألّا يرفع هذا الرجل ذو الوجه الأحمر الذي يرتجف من شدة الغضب يده عليّ ثانية.

كان تاتا ندو هادئاً ولم يبدُ أنه فوجئ بما حدث. وقال بصوتٍ عميق هادئ: «آ، تاتا برايس، تظنّ أننا موانا، الأطفال الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً إلا بعد أن جئت إلى هنا. تاتا برايس، أنا رجل متقدّم في السن تعلّمت على يد رجال كبار آخرين. يمكنني أن أذكر لك اسم الزعيم الأكبر الذي علّم

أبي، وجميع من سبقوه، لكنّ يجب أن تتعلّم كيف تجلس وتنصت. يوجد مئة واثنان وعشرون. منذ مانكولو(*) وضعنا قوانيننا من دون مساعدة الرجل الأبيض».

ثم التفت إلى الحاضرين كأنه هو الواعظ. لم يكن أحد نائماً الآن، وقال: «إن أسلوبنا المتعارف عليه هو أن نتقاسم النار حتى تحترق كلها وتنطفئ، أبي؟ أن يتحدّث بعضنا مع البعض الآخر حتى يرضى الجميع. وينصت الشباب إلى الرجال الأكبر سناً، أما الآن فإن \البيليزي يقول لنا إن صوت شاب طائش واحد يساوي صوت شيخ».

في تلك الحرارة السديمية صمت تاتا ندو قليلاً. خلع قبّعته، أدارها في يده، ثمّ أعادها فوق قبة جبهته العالية. لا أحد يتنفّس.

«قال لنا الرجل الأبيض: \انتخبوا\، بانتو! قالوا لنا: ليس من الضروري أن توافقوا كلكم، *ce n'est pas nécessaire*، لو اقترع رجلان بـ"نعم" ولم يقل أحد لا، لانتهت المسألة. آبو، حتى الطفل يمكنه أن يرى كيف سينتهي ذلك. إن قِدر الطهي يحتاج إلى ثلاثة أحجار لتسنده تحت النار. فإذا أبعدت أحدها وتركت الحجرين الآخرين، فماذا سيحدث؟ سيسقط القِدر وينسكب في النار».

فهمنا كلّنا مغزى مَثَل تاتا ندو. لم تعد نظّاراته وقبّعته الطويلة مضحكة، وإنما أصبحت تبدو لنا ثياب زعيم حقيقية.

«لكن هذا هو قانون الرجل الأبيض، أليس كذلك؟ *n'est-ce pas?*، حجران يكفيان. نحن بحاجة إلى الأغلبية فحسب *Il nous faut seulement la majorité*».

صحيح، هذا ما كنّا نؤمن به: الأغلبية تحكم. كيف يمكننا أن نجادل في ذلك؟ نظرت إلى قبضتي التي كانت ما تزال تقبض على الحجرة. أنا لم

(*) كلمة بلغة الكيكونغو وتعني: الأسلاف. [م].

أقترع، ولا أمّي. كيف نجرؤ على أن نفعل ذلك وأبي يحدّق بنا؟ الوحيدة التي تجرأت واقترعت هي روث ماي التي تقدّمت وألقت بحجرتها لصالح المسيح، ألقتها بقوة إلى حد أن حجرتها ارتطمت بالصليب وارتدّت إلى الخلف. لكني أظن أننا كلّنا اتخذنا خياراتنا، بطريقة أو بأخرى.

التفت تاتا ندو إلى أبي وكلّمه بلطف تقريباً: «بما أن المسيح رجل أبيض، فإنه سيفهم قانون الأغلبية يا تاتا برايس. ويندا١مبو ته».

خسر يسوع المسيح. أحد عشر صوتاً مقابل ستة وخمسين صوتاً.

راشيل

ربما يجب ألّا أقول هذا، لكنّها الحقيقة: ليا هي سبب كلّ مشكلاتنا. بدأ كلّ ذلك عندما شنّت هي وأبي حرباً عالمية ثالثة في بيتنا. يا له من مشهد فوضوي مجنون! فقد بدأت ليا تتجاسر وتردّ على أبي في وجهه مباشرة، يا إلهي! وكنّا نحن أخواتها ننسحب ونختبئ كما لو أن قنبلة ذرية ستسقط، مع أن ليا كانت أكثرنا احتراماً له، لكن بعد الجلبة التي حدثت في الكنيسة عندما صوّتوا ضد أبي، لم تعد شديدة التهذيب معه.

بدأ ذلك عندما قالت إنها ستخرج إلى الصيد بقوسها الصغير وسهمها. أختي، الآنسة «الربّ يرعاني» الصغيرة، أصبحت تعتبر نفسها الآن روبن هود. أنا مندهشة لأنها لم تحاول أن تصيب تفاحة فوق رأسي، هذا إذا كان عندنا تفاحة أصلاً. فلم تعد توجد ذرة طعام واحدة في أي مكان، لأن النمل التهم كلّ الأشياء التي خزّنها الناس والتي لم تكن كثيرة، بسبب الجفاف. كانت السحب تغطي السماء في صباح كلّ يوم ويكون الطقس رطباً وحاراً لمدة ساعة، ثمّ سرعان ما تظهر الشمس وتجفّف كلّ شيء. وأصبح يوم السوق يبدو كما لو أنك خرجت للتوّ من ملجأ بعد هجوم بالقنابل: فلا ترى

أحداً سوى بضعة رجال مسنّين يبيعون قطع غيار سيارات وسكاكين وقدور طهي، يأملون في مقايضتها بشيء من الطعام. حظاً سعيداً، يا رفاق! ما زلنا نتدبّر أمورنا بما أعطته لنا السيّدة فاولز من قاربهم، إضافةً إلى بضع بيضات لأن ماما موانزا -شكراً لله- أعطتنا دجاجتين بيّاضتين بعد أن قضى النمل على دجاجاتنا. وبما أنها كانت تترك دجاجاتها تسرح في كل مكان، نجت من موتها المحتم عندما طارت وحطّت فوق أغصان الأشجار. وفكّرت بأن أكسلروت يمكن أن يجلب لنا شيئاً من الطعام أيضاً، هذا إذا حاول. لكنّه اختفى منذ شهور عدة. أظن أنه في مهمّة سريّة للغاية. وهذا يكفي لجعلي أفقد صوابي! قال إنه سيجلب لي سجائر وشوكولاتة هيرشي عندما يعود، وكدت أطير فرحاً عندما قال ذلك، لكن يا رجل-أوه-يا رجل. أنا مستعدة الآن لأن أقبل برغيف خبز جيّد فحسب!

أما الشيء التالي الذي عرفناه فهو أن تاتا ندو أعلن أنه يجب على جميع سكّان القرية أن يخرجوا إلى الصيد لأن ذلك سينقذنا جميعاً. كلّنا معاً! وكانت الخطة، كما شرحها لي نِلسون، بأن يشعلوا ناراً في دائرة ضخمة حول التلّ الكبير وراء القرية، وبما أن التلّ تغطيه أعشاب طويلة جافة فإنه سيحترق بلمح البصر. وكان على النسوة أنّ يلوّحن بسعف النخيل ويدفعن ألسنة النار إلى الداخل كي تشعر الحيوانات المحصورة في داخلها بالخطر وتبدأ تجري وتقفز نحو النيران المشتعلة، وهذه هي النقطة المناسبة ليطلق الرجال السهام عليها. بعد ذلك سيسير الأطفال والمسنّون في الخلف ويلتقطون مخلوقات الله التي احترقت. وقال لي نِلسون إن جميع القرويين يجب أن يكونوا هناك. المشاركة إلزامية.

حسناً، يمكنني أن أذهب إلى حقل محترق ليغطيني السخام من قمة رأسي حتى أصابع قدميَّ. لقد تخلّيت منذ فترة طويلة عن محاولات الإبقاء على نفسي نظيفة تماماً. وكانت خطة ليا الصغيرة أن ترافق الرجال في الصفوف

الأمامية وترمي الحيوانات بقوسها وسهمها. ويبدو أن صديقها الجديد أناتول يشجعها على ذلك. فعندما عقدوا اجتماعاً لمناقشة هذا الأمر، ظلَّ يردد أنها رامية ماهرة، وإذا كنّا نتضوّر جوعاً فماذا يهمّ من الذي سيصيد الظبي ما دمنا سنحصل عليه؟ ووافق نِلسون مع أناتول، وقال إنّنا يجب أن نكون سعيدين لكلّ سهم يُرمى بثبات، حتى لو كان من يد فتاة. صدقاً، كان نِلسون فخوراً لأنه علّمها الرمي. وكما تعرفون فإن ليا -في المقام الأول- فتاة متباهية بنفسها كثيراً.

تاتا ندو وجميع الرجال المسنّين الذين حضروا الاجتماع، كانوا ضد الفكرة. خصوصاً تاتا كوفودُندو الذي جلس زامّاً شفتيه حتى جاء دوره في الكلام مرة ثانية، فنهض بردائه الأبيض الملتفّ حوله وراح يحكي قصصاً عن أشياء مروّعة وقعت في قديم الزمان: مياه سامّة انبثقت من الأرض، فيلة هائجة، وما إلى ذلك، كلّما كان الناس يبتعدون عن السير في الطرق المعتادة. قالوا جميعهم: «آه، نعم، أتذكّر!». ولم يتوقّف المسنّون عن هزّ رؤوسهم، وكانوا ينهضون وينتصبون في وقفتهم، مرافقهم قريبة جداً من أوساطهم، أيديهم مُرخاة في أحضانهم، وأقدامهم منبسطة على الأرض وأصابع أقدامهم ملتفّة قليلاً إلى الداخل. أما الرجال الأصغر سناً فقد جلسوا وأسندوا ظهورهم إلى مقاعدهم، سيقانهم متباعدة، شاغلين كلّ المساحة التي يحتاجون إليها، وكانوا يعبّرون بسرعة عن كلّ ما يجول في أذهانهم. كان معظم حديثهم بالفرنسية، لكن إدا دوّنت كلّ شيء في دفتر ملاحظاتها بالإنكليزية، ووضعته في مكان أتمكّن فيه من قراءته. وهكذا، أصبحت مفيدة لمرة واحدة في حياتها، إضافةً إلى كونها صامتة دوماً.

بطبيعة الحال، كان لأبي أجندته الخاصة للاجتماع. وعندما حصل على فرصته الوحيدة في الكلام، حاول تغيير موضوع الاجتماع من التحدّث عن الصيد إلى نوع جديد من الصلاة ينتهي بالصيد، لكن أحداً لم ينصت إليه، فقد

كانوا منهمكين في الحديث عن الفتاة التي تريد مشاركة الرجال في الصيد. كنت متيقّنة من أن أبي كان غاضباً من ابنته لأنها صرفت عنه الانتباه. ومن حظّ أبي أنه لم يكن عنده أبناء، لأنه كان من الممكن أن يُجبَر على احترامهم.

في النهاية صار الحديث بين تاتا ندو وتاتا كوفودُندو وأناتول. كان تاتا ندو بثوبه المخطط باللونين البرتقالي والأبيض الملتف حول صدره يعطي انطباع «أنا الزعيم ولا تنسوا ذلك!». ولا تنسوا أيضاً تاتا كوفودُندو، الطبيب المشعوذ الذي توجد في قدمه ستّ أصابع، وتصبح عينه حولاء في منتصف الجملة ليضفي تأثيراً مرعباً على الآخرين. أما أناتول فهو معلّم المدرسة الذين كبر معظم تلامذته وأصبحوا الآن في التاسعة عشرة من عمرهم أو قرابة ذلك، وأصبح عندهم زوجات وعائلات وتعلّموا منه بشكلٍ رئيسي اثنين زائد اثنين، وما زالوا ينادونه مسيو أناتول، لا «تاتا» كما جرت العادة هنا، لأنه كان معلّمهم. لذلك يمكن القول إنهم انقسموا إلى فريقين، فريق الشباب مقابل فريق المسنّين، بعد أن أقنع أناتول شبّاناً كثيرين. وصدّقوني يموت الناس في قريتنا لأدنى سبب، لذلك فإنك لا تجد عدداً كبيراً من الرجال الكبار في السن.

كان على ليا أن تجلس في الصف الأمامي في الغرفة طوال تلك الليلة من دون أن تنبس بكلمة واحدة، ولم تحوِّل عينيها عن أناتول. لكن بعد قليل، لم يعد بوسعك أن تعرف ما إن كان يدعمها أم لا، فلم يعد يشير إلى أنها رامية ماهرة، وإنما انتقل إلى موضوع هل يجب أن تقتل جرذاً من أجل جلده أم أنك تقتله لأنه جرذ؟ لا أعرف بدقة ماذا كان يقصد بذلك. فأجابه تاتا ندو إنه إذا كان يجري في جلد جرذ فهو جرذ، ثمّ بدؤوا يصيحون بأشياء عن الأجانب، وعن انقلاب الجيش، وعن زجّ شخصٍ ما في السجن، وإذا سألني أحدهم، فإن هذا الموضوع أفضل بكثير من الحديث عن الجرذان.

في النهاية انتقلوا إلى نقطة خلاف أخرى: هل علينا أن نواصل الحديث

عن هذا الموضوع طوال الليل، أم علينا أن نقترع؟ لكن أناتول عارض التصويت بقوة، وقال إننا يجب أن نناقش هذا الموضوع ونتوصّل إلى اتفاق بخصوصه، لأنه حتى إذا طردَت كيلانغا أسرة بيضاء منها، فإن هناك ملايين من الناس البيض في العالم، وإنكم إذا لم تتعلّموا كيف تميّزون الجرذ الجيّد من الجرذ السيّئ، فإنكم ستعيشون قريباً معهما كليهما في بيوتكم. وقال لا تندهشوا إذا أرادت إحدى بناتكم أو زوجاتكم أن ترمي السهم من وراء ظهوركم. فضحك الجميع عندما قال ذلك، مع أنني لم أرَ شيئاً مضحكاً في كلامه. هل كانوا يدعوننا بالجرذان؟!

أدرك تاتا ندو أن هذا يكفي، فنهض ووضع أمام ليا إناءين فخاريين كبيرين للاقتراع فيهما. وبدا أن الآخرين غضبوا منه لأنه فعل ذلك. فقد كانوا يؤيّدون أناتول ويرون أن المسألة بحاجة إلى مزيد من المناقشة. لكن، لا، كفى. وبدت ليا مثل دجاجة سيُلقى بها في قِدر لطهيها. لكن هل عليّ أن أشفق عليها؟ فهي التي جلبت كلّ ذلك على نفسها، وبذلت ما بوسعها لتجذب الانتباه إلى نفسها. وكان بعض الرجال يظنّون أن الأمر كله مزحة مضحكة، وربما اعتقدوا أن السهم سيسقط بالتأكيد تحت قدميها. وعندما حان وقت الاقتراع، أُلقيت إحدى وخمسون حصوة في وعاء ليا الذي وُضع بجانبه قوسها، وخمس وأربعون حصوة في قِدر الطبخ.

لم يكن تاتا كوفودُندو مسروراً بهذه النتيجة، فنهض واقفاً وصرخ بأعلى صوته إننا قلبنا نواميس الطبيعة رأساً على عقب، وإننا سنندم على ذلك. كان يحدّق في أناتول بينما يقول ذلك، لكنّه بدا أيضاً غاضباً من تاتا ندو الذي دعا إلى الاقتراع الذي أسفر عن نتيجة عكسية.

لم يقل تاتا ندو الكثير من الكلام، لكنّ وجهه تجهّم، فظهرت تجاعيد كثيرة في جبهته الصلعاء الكبيرة مثل عجينة خبز عندما تضغط عليها، وشبك ذراعيه الكبيرتين المكسوّتين بالعضلات على صدره، ومع أنه كان رجلاً

مسنّاً في نحو الخمسين من عمره، فقد كان يبدو أن أحداً في الغرفة لا يستطيع أن يهزمه.

«الحيوانات تسمعنا هذه الليلة»، صرخ تاتا كوفودُندو وبدا أنه يغني مغمضاً عينيه، ثمّ صمت. خيّم صمت مطبق على الغرفة وراح ينظر ببطء شديد حوله، ثم أضاف: «ستسير النمور(*) منتصبة القامة كما يمشي الرجال في دروبنا، وستخرج الأفاعي من جحورها في الأرض وتأتي إلى بيوتنا لتسكن فيها بدلاً من أن تسكن في باطن الأرض. بْوِي؟ لقد فعلتم هذا. قرّرتم أن عاداتنا القديمة لم تعد صالحة. لا تلوموا الحيوانات، لأنه قراركم أنتم. إنكم تريدون أن تغيّروا كلّ شيء، والآن، كوليكا؟ هل تتوقّعون أن يغمض لكم جفن؟».

لم يقل أحد شيئاً، وبدا الخوف على وجوههم. ثم جلس تاتا ندو وألقى برأسه إلى الوراء وراح يراقب بعينيه المشقوقتين قليلاً.

«لن ينام أحد» - صرخ تاتا كوفودُندو فجأة، وراح يقفز ويلوّح بذراعيه في الهواء.

قفز الجميع ما عدا ليا التي ظلّت جالسة لا تأتي بحركة. كما قلت لكم، كانت متباهية بنفسها، حتى إنه لم يرمش لها جفن. نهضنا كلّنا وغادرنا الاجتماع، ثم لحقت بنا ليا.

وطوال الطريق إلى البيت لم يقل أحد منّا شيئاً للآخر. لكن عندما وصلنا

(*) Leopard في الأصل، وتُترجم خطأً إلى «فهد»، بينما الصحيح أنها «نمر»، فالحيوان الأنمر هو الحيوان المرقّط، وكانت النمور هي السنوريات الوحيدة التي عرفها العرب قديماً فأطلقوا عليها هذا الاسم. وبعد مجيء الإسلام وتوسّعه إلى العراق وفارس عرف العرب «البَبْر»، فاقتبسوا اسمه الفارسي كي لا يحصل لغط بين الحيوانين. وسبب وضعنا لهذا التوضيح هو عدم حصول أي التباس لدى القارئ، فمن المعروف أن البَبْر (Tiger) -الذي نطلق عليه اليوم خطأً اسم النمر- لا يعيش في إفريقيا. [م].

إلى البيت، وقف أبي أمام الباب وسدَّ الطريق علينا. أوه، يا إلهي! سيوقفنا على الشرفة ويلقي على أسماعنا قصة أخلاقية.

قال: «ليا، من هو سيّد هذا البيت؟».

وقفت وذقنها مطرقة إلى الأسفل، ولم تجب عن سؤاله. ثم قالت أخيراً: «أنت» بصوت ضعيف جداً مثل نملة.

«عفواً، لم أسمعك؟!».

«أنت» - صاحت في وجهه.

قفزتُ أنا وأمّي، لكن أبي أجابها بصوت طبيعي: «إن ما حدث هذه الليلة في القرية قد تنجم عنه عواقب كثيرة، لكن لن تكون هناك عواقب عليك. لقد أمر الله أن تكرمي أباك وتذعني لقواعد بيته».

لكن ليا لم تتحرّك. كانت ذقنها ما تزال مائلة إلى الأسفل، أما عيناها فكانتا تنظران إليه مباشرة بشكلٍ غير عادي.

ثم قالت بهدوء: «إذاً فإنك توافق على ما قاله تاتا ندو والطبيب المشعوذ».

أخذ أبي نَفَساً، وقال: «هما اللذان يتفقان معي. من السخافة أن تذهبي وتشاركي الرجال الصيد. إنك تسبّبين مشكلات، وأنا أمنعك من ذلك».

ألقت ليا قوسها على كتفها، وقالت: «سأذهب مع الرجال وهذا قراري النهائي!»، واجتازت الشرفة وغاصت في عمق الليل حيث يُفترض أن الحيوانات مستيقظة وتتجوّل كالبشر. وقفت أنا وماما وإدا هناك وأفواهنا فاغرة. كان بإمكانك أن ترمي بنا أرضاً بريشةٍ وحسب.

طار صواب أبي. كنا نتساءل دائماً ماذا يمكن أن يحدث إذا عصينا أوامره. ورحنا ننتظر الآن لنرى ما الذي سيجري. فانطلق وراءها وهو يُخرج حزامه الجلدي العريض من بنطاله وهو يجري. لكن بحلول الوقت الذي وصل فيه إلى حافة فناء بيتنا كانت قد اختفت. اختفت بين الأعشاب الطويلة، وغابت

بين الأشجار. وكان من السهل رؤية أنه لن يجدها أبداً، فهي تستطيع أن تتسلّق الأشجار مثل شمبانزي، حتى عندما لا يطاردها أحد.

وبدلاً من أن يعود إلى البيت، تظاهر بأنه يريد أن يتمشّى هناك، وراح يجلد الأشجار بحزامه. يا إلهي، لقد فعل ذلك. سمعناه يفعل ذلك طوال ساعة. رحنا ننظر من النافذة ورأيناه يقطع مجموعة كاملة من عيدان قصب السكر وهو يضربها بحزامه. تملّكنا خوف شديد مما سيفعله بنا عندما يعود، لأننا لا نعرف حقاً ما الذي يمكن أن يفعله. لم نكن نغلق عادة الأبواب علينا، لكن أمي في تلك الليلة جاءت إلى غرفتنا وساعدتنا على أن نضع الأسرّة وراء الباب لكيلا يتمكّن من فتحه. استلقينا في فراشنا في وقت مبكّر وأخذنا معنا أغطية القدور المعدنية والسكاكين وأشياء أخرى من المطبخ لنحمي بها أنفسنا. لم نستطع أن نفكّر بأي شيء آخر لحمايتنا، فقد كانوا يستخدمون مثل هذه الدروع في العصور القديمة. ووضعت روث ماي قِدر ألمنيوم على رأسها ودسّت كتابين مصوّرين تحت مقعد بنطالها الجينز ليحمياها إذا ضربها على مؤخرتها، ونامت أمي في سرير ليا، أو أنها استلقت هناك بصمت، لأن أيّاً منا لم تغمض عينها، ثم تسلّلت ليا من النافذة قبل الفجر، وهمست في أذن أمي شيئاً، لكني لا أظن أنها نامت أيضاً.

كانت حالة نصف سكّان القرية تشبه حالتنا، مع أنني أظن أن الأسباب مختلفة. فبعد تصرّف تاتا كوفودُندو في الاجتماع وإطلاق العين الشرّيرة، لم يغمض لأحد جفن. وقال نِلسون إن هذا كان الموضوع الوحيد الذي يتحدّث به أهالي القرية الذين بدؤوا يقولون إن حيواناتهم ترمقهم، فقتل بعضهم الحيوانات المتبقية لديهم: عنزات أو دجاجات أو كلاب. كان بإمكانك أن تشمّ رائحة الدم منتشرة في كل مكان. فقد وضعوا رؤوس الحيوانات التي ذبحوها أمام بيوتهم في طاسات كالاباش لدرء الكيبازو، كما قالوا.

سألتُ نِلسون: «إذاً، لماذا كانوا بتلك الدرجة من الحماقة عندما صوّتوا

لصالح ليا، إذا كانوا يعرفون أن هذا سيثير غضب تاتا كوفودُندو؟». فقال نِلسون إن بعض الذين صوّتوا لصالح ليا كانوا ساخطين على تاتا ندو، والبعض الآخر كانوا ساخطين على أبي، وكانت النتيجة أخيراً أنهم حصلوا جميعاً على الشيء الذي لم يكونوا يريدونه، والآن عليهم أن يقبلوه. وقال نِلسون إن أحداً لم يكن مهتماً -بطريقة أو بأخرى- بليا.

قلت له: «أوه، حسناً، إن هذا ما نسميه الديمقراطية».

من الغريب القول إن السلام عمَّ بيتنا في صباح اليوم التالي فجأة. فقد تصرّف أبي كما لو أن شيئاً لم يحدث. ظهرت على ذراعيه جروح وبثور من ضرب الأشجار، وشرب كوب الشاي على الفطور من دون أن يقول شيئاً، ثم وضع ضمادة على ذراعيه وخرج إلى الشرفة ليقرأ مقاطع من الكتاب المقدّس. تساءلنا هل يبحث عن أطول آية تتحدّث عن الوقاحة، ليطلب من ليا أن تنسخها؟ هل يبحث عن شيء قاله المسيح عن وعّاظ يقتلون بناتهم؟ أم أنه عرف أنه خسر هذه المعركة، ولذلك سيتظاهر بأنها لم تحدث قطّ، وأن ليا ما تزال تحت سيطرته؟ مع أبي، الحياة عبارة عن مفاجأة تلو الأخرى.

ليا لديها ذكاءٌ كافٍ لتدرك أنها يجب ألّا تظهر في العلن كثيراً. فكانت تبقى في مدرسة أناتول أو في الغابة تتبارى مع نِلسون بالقوس، ليريا من يستطيع أن يصيب حشرة على غصن شجرة. كانت تفعل هذه الأشياء أحياناً. لكن سادت أجواء من التوتّر العصبي في بيتنا، صدّقوني. وبدأت روث ماي تتبوّل في سروالها ما إن يسعل أبي على الشرفة. ومن سيقوم بتنظيفها؟ طبعاً أنا! لا يعجبني البتّة الوضع الذي نحن فيه الآن، وكل ذلك بسبب ليا.

حدث ذلك في الليلة التي سبقت الصيد، وكانت ليا ما تزال محافظةً على ابتعادها، عندما وجد صديقها أناتول إشارة شريرة خارج كوخه. وكان نِلسون هو من أخبرنا، إذ أرسلته أمي إلى المدرسة ليأخذ عدة بيضات مسلوقة إلى ليا من أجل العشاء، فعاد وهو يجري وقال إنه وجد أناتول يبدو وكأنه قد

رأى شبحاً. ورفض نِلسون أن يقول لنا ما هي تلك الإشارة الشريرة، وكل ما قاله إنها علامة فقط، لعنة شريرة، كيبازو، أصابت أناتول. خُيِّل إلينا أنه ربما كان يختلق كل ذلك، لأن نِلسون يختلق أشياء درامية.

حسناً، لا يا سيّدي. ففي وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وجد أناتول أفعى مامبا خضراء متكوّرة بجانب سريره، والحمد لله، أنها لم تعضّه في ساقه وإلا لمات على الفور. ضربة حظّ جيّد، أم معجزة؟ قالوا إنه يغادر سريره عادةً قبل الفجر ليخرج ويمارس رياضته الصباحية، وكان سيدوس فوقها، لكن في صباح ذلك اليوم، لسببٍ ما، استيقظ باكراً وقرر أن يشعل مصباحه ويقرأ في سريره قليلاً قبل أن ينهض، فرآها. ظنّ أن أحداً رمى حبلاً إلى داخل بيته كعلامة شرّيرة أخرى، لكنها تحرّكت! لا توجد علامة أكثر من ذلك. هذا هو الشرّ الحقيقي! وانتشرت القصّة في القرية حتى بأسرع مما لو كانت توجد عندنا هواتف، وراح الناس يجرون لأنه يوم الصيد ويجب عليهم أن يستعدّوا، لكن هذه الإشارة منحتهم شيئاً آخر ليفكّروا به، يا إلهي. صدّقوني، لا أهتمّ ما إن كانوا يؤمنون بالله القدير أو يؤمنون بالأشياء التي تصيبك في الليل، والتي راحوا يصلّون من أجلها الآن، شاكرين حظهم لأن ما حدث لأناتول لم يحدث لهم.

إدا

بيتو نكي توتاسالا، تعني: ماذا نفعل؟ نفعل ماذا؟ واحسرتاه! في الليلة التي سبقت الصيد لم ينم أحد. أحد ينم لم! عيونٌ ناعسة تفتح عيونك للنوم. ظننا أننا كنّا ننظر، لكننا لم نستطع رؤية ما الذي يقبع أمامنا. النمور تسير منتصبة في الدروب، والأفاعي تزحف وتخرج بصمت من جحورها. حرف S على الأرض لم يكن أول حرف لكلمة نوم sleep.

الناس تعني بانتو، ومفردها مونتو. لكن مونتو لا تعني شخصاً بالضبط، وإنما شخصاً حيّاً، أو شخصاً ميّتاً، أو شخصاً لم يولد بعد. مونتو تعني كلّ هذه الأشياء من دون تغيير. البانتو تتحدّث عن «الذات» بصفتها رؤية مقيمة في الداخل، تتلصّص من خلال فتحات عيون الجسم، بانتظار ما الذي سيحدث بعد ذلك. باستخدام الجسم قناعاً، فإن مونتو تراقب وتنتظر من دون خوف، لأن مونتو نفسها لا يمكن أن تموت. إن عملية التحوّل من روح إلى جسد، ثم العودة إلى الروح ثانية، ليست إلّا مغامرة. إنها ركوب على قوّة نومو، قوة الاسم للاتصال بذاته. نومو تمطر من غيمة، ترتفع في البخار من فم بشر: أغنية، صيحة، صلاة. طبل يعطي نومو في الكونغو، حيث توجد لغة للطبول. رقصة تعطي نومو عندما لا تكون الأجسام منفصلة عن الإرادة التي تقبع فيها. في ذلك المكان الآخر منذ عهد بعيد، أميركا، كنتُ مزيجاً فاشلاً من جسد واهن وإرادة قوية، أما في الكونغو، فإن هذين الشيئين متحدّان معاً اتحاداً وثيقاً: إدا.

في الليلة التي سبقت الصيد، عندما لم ينم أحد، كل مونتو في كيلانغا رقص وغنّى: الطبول، الشفاه، الأجساد، وفي أغانيهم قالوا أسماء الحيوانات التي ستصبح وليمتنا وخلاصنا في الصباح، وسمّوا الأشياء التي يخافون منها: الأفعى، الجوع، النمور التي تمشي منتصبة كالرجال في الدروب. هؤلاء هم نومو، رنّموا، هذه الأجساد تعيش وترقص وتلتصق بأجساد سوداء ملساء أخرى، كلّها تضرب الشيء مع الريش: تضرب العزيز، الأمل العزيز، فرصة العيش. لكن مونتو لا يكترث إن عاشت الأجساد أم ماتت غداً، مونتو تتلصّص من خلال فتحات العين، تراقب بدقة لمعرفة ما الذي سيحدث بعد ذلك.

قبل طلوع الصباح، اجتمعنا كلّنا عند طرف القرية، لا بجانب النهر حيث كان أبونا يريد أن يجمعنا، وإنما في مكان بعيد عنه، بالقرب من التلّ حيث

يكمن خلاصنا. سرنا عبر الحقل المكسو بعشب الفيل، وصعدنا إلى التلّ الكبير. أعشاب يبلغ طولها بطول الرجال الأحياء، بل أطول منهم، لكنها جافّة وبيضاء مثل شعر امرأة ميّتة. راح الرجال يطرحون الأعشاب الطويلة بالعصي. كانوا يضربونها معاً في انسجام كما لو كانوا يؤدّون رقصة، وكان يرافق ذلك نخيرٌ هادئ في إيقاع منخفض طويل يعود إلينا من مقدّمة الصفّ. رجال يحملون أقواساً وسهاماً، ورجال يحملون رماحاً، وقلة يحملون بنادق يسيرون أمامنا. كانت أغنيتهم هي الصوت الوحيد المسموع في ضباب الصباح البارد. يتبعهم الأطفال والنساء، يحملون أكبر سلال تستطيع أذرعهم أن تحيط بها. كانت سلّتي معلّقة في شريط على كتفي لأن ذراعي لا تستطيع الإحاطة بها، وسارت النسوة الأكبر سنّاً وراءنا، يحملن مشاعل تحترق بشكل بطيء من دون لهب، وعواميد لُفَّت عليها خرقٌ مبلّلة بزيت النخيل. كنّ يرفعن مشاعلهن عالياً، يجرحن الهواء فوقنا بدخان موكبنا. وكانت الشمس منخفضة فوق النهر، يبدو أنها مترددة في دخول هذا اليوم الغريب. ثمّ ارتفعت محمرّة إلى السماء الأرجوانية، مثل كدمة حول العين.

عندما أعطى تاتا ندو إشارة، انقسم الصفّ الذي أسير فيه وتقوّس كل قسم إلى أحد جانبَيْ التلّ. قوس مهيب من أناس متحمّسين، جائعين - ربما كنا نبدو هكذا بالنسبة إلى مونتو الذين يراقبوننا من الأعلى: الأموات، والذين لم يولدوا بعد. وبعد نصف ساعة التقت مقدّمة الصفين، وأطبقنا، نحن الجائعين في كيلانغا، بدائرتنا حول التلّ. ثم علت صيحة، فوضعت حاملات النار مشاعلهن، وفتحت النسوة الأصغر سناً الباني ورحن يركضن إلى الأمام، يهوّين ألسنة النار مثل فراشة أمام شمعة.

كانت الدائرة التي شكّلناها كبيرة جداً إلى درجة أن الصيحات التي كنّا نسمعها من الجانب الآخر كانت تبدو أنها آتية من بلد آخر. وسرعان ما ابتلعت النار كلّ الأصوات. لم تكن تهدر وإنما تهمهم، تتصدّع، تهمس،

تمتصّ الهواء من حناجرنا ومعها كلّ كلماتنا. وارتفعت ألسنة اللهب وراحت تلعق الأعشاب. تقدّمنا كلّنا إلى الأمام، نلاحق الخطّ المضيء أمامنا، نلاحق النيران التي أخذت تلتهم بنهم شديد العشب المذهول، من دون أن تخلّف وراءها شيئاً من الحياة، لا تترك شيئاً سوى أرض عارية سوداء ملتهبة، وشعيرات بيضاء رفيعة جداً من الرماد تتطاير، ثم تتساقط وتتفتت تحت الأقدام الحافية. بدأ الرجال يتقدّمون الآن متأهبين لإطلاق سهامهم، متلهّفين كي تتقلّص الدائرة نحو مركزها، بدأت تصغر وتصغر، بكلّ الحياة السابقة لسهل معشوشب واسع حُصر بداخلها. وقد علقت الحيوانات كلّها في هذه الرقصة، الفئران والرجال معاً. وبدا الرجال الذين بدؤوا يندفعون ويقفزون مثل دمى مصنوعة من عيدان سود أمام جدار النار. جاء المسنّون والأطفال ببطء وراءهم. كنّا مثل ساريات أعلام غريبة محطّمة، محنية بشكل مضاعف، وثيابنا البرّاقة تَصْفِق في الريح. قمّامون(*) بطيئون. بدأنا نمشي في الحقل الأسود الذي يهسهس تحت أقدامنا، نلتقط الحشرات المتفحّمة التي كان معظمها يرقات نغوكا الهشّة، الوجبة الخفيفة المفضّلة لتلاميذ أناتول، والتي تشبه أغصاناً صغيرة جداً كان من المستحيل أن أراها حتى تعلّمت كيف أتحسّس أطرافها الرمادية. بدأنا نلتقطها ونملأ سلالنا بها حتى ملأت عيني، وعرفت أنني سأراها في نومي. من الأسهل العثور على ديكونكو، الجراد والجنادب التي تؤكل والتي تقلّصت بطونها المنتفخة وأصبحت شفّافة مثل البالونات نصف الممتلئة بالماء. يرقة بعد يرقة كنت أضعها على لساني. طعمها المقرمش المحترق كان بلسماً حلواً سريعاً لجسد يتوق ليحصل على البروتين. إن جوع الجسد يختلف عن جوع البطن اليومي الضحل. الذين يعرفون هذا النوع من الجوع لا يمكنهم أن يحبّوا كثيراً أولئك الذين لم يعرفوه في حياتهم.

(*) تطلق صفة قمّام على كل حيوان آكل للجيف. [م].

كانت النار تتحرّك أسرع مما نتحرّك نحن لاقطات الحشرات الميّتة الشابات والمسنّات. كنت أنهض واقفة أحياناً كي يجري الدم من رأسي إلى العضلات التي تخدّرت خلف فخذيَّ. كانت أمي تمسك بيد روث ماي بقوة، طفلتها المختارة، لكنها ظلّت قريبة مني أيضاً. فمنذ ليلة النمل الرهيبة تلك، كانت أمي تجرّ ندمها بدوائر خرقاء من حولي من دون أن تصرّح بذلك، ترتدي شعورها بالذنب مثل ثديي أمّ مرضعة ممتلئين. ومع أنني رفضت حتى الآن أن أرضع من ثديها وأمنحها الراحة، فقد ظللتُ قريبة منها. لم يكن أمامي خيار آخر، بما أننا أُلقينا معاً، بعيداً عن ليا، الصيّادة. وبإرادتنا ابتعدنا أيضاً عن راشيل وعن أبي اللذين كان وجودهما الصاخب -بنوعيه المختلفين- يجعلنا نشعر بالحرج في هذا العمل الذي يتطلّب تركيزاً وهدوءاً. كنت أضع أحياناً يدي فوق عيني وأبحث عن ليا، لكني لم أكن أراها، وإنما كنت أرى روث ماي وهي تقضم يرقة ببطء. كانت ملوّثة وضعيفة، تبدو مثل قريبٍ صغير مصاب بسوء التغذية أكثر من كونها أختي الصغيرة. لا بدّ أن النظرة البعيدة في عينيها هي مونتو روث ماي، مقيّدة بهذه الطفلة المحاربة لفترة وجيزة، في مرحلة ما قبل الحياة، وفي أثناء الحياة، وبعد الحياة، تطلّ من خلال محاجر عينيها.

كانت النار تجري أمامنا أحياناً، وتتوقّف أحياناً أخرى، كما لو أنها تتعب مثلنا. كانت الحرارة فظيعة. تخيّلت طعم الماء.

كلّما احترقت الحلقة وصغرت أكثر رأينا جانبها الآخر، ألسنة نار برتقالية حمراء ورماد أسود يغلقان الدائرة. هيئات حيوانات تلوح في الأفق تتجمّع في داخلها: غزلان، وظباء الغابة، وخنازير عريضة الرأس وصغارها تجري وراءها. كانت قرود البابون تجري وذيولها المقوّسة تطير في الهواء يمنةً ويسرة. لم تكن قد أدركت بعد الفخ الذي وقعت فيه، وآلاف الحشرات تصارع الهواء في ذعرٍ حيواني، والطيور ترتطم بجدار النار مضيئة مثل

المفرقعات. وعندما بدا أنه لم يعد هناك مزيد من الهواء، ولم يعد ثمة أمل، أخذت الحيوانات تجري لتخرج من دائرة النار، حيث كانت الرماح والسهام لها بالمرصاد. لم تقفز الظباء برشاقة كما تخيّلت، وإنما أخذت تدور داخل الدائرة مثل خيول مذعورة، ثمّ انحرفت للخارج فجأة كما لو أن ذلك حدث مصادفة أو لأنه أصابها العمى. وعندما كانت ترى رفيقاتها أصيبت بسهام في أعناقها، يتملّكها الرعب وتعود أحياناً إلى داخل النار، لكنها كانت في غالب الأحيان تندفع إلى الأمام، نحو الناس والموت مباشرة. سقط ظبي مرقّط صغير بجانبي وقدّم لي هدية موته الغريبة والمميّزة. رحت أراقب أضلاعه المرتفعة وهي تنخفض ببطء وتجد الراحة، كما لو أنه التقط أنفاسه أخيراً، وسال دمٌ داكن من فمه الأسود الرقيق على الأرض المتفحّمة.

كل حيوان يسقط كان يثير صرخة مساوية ومعاكسة للابتهاج البشري. لقد تصدّعت عظامنا الجائعة وسال منها النخاع.

ثم جثت النسوة ورحن يسلخن جلود الحيوانات بسكاكينهن، حتى قبل أن تتوقّف حوافرها عن ضرب الأرض برعب. أما الحيوانات الكبيرة التي كانت تجري عبر النار -ظبي، خنزير بري- فلم يكن ينجو منها سوى قلة قليلة. ولم يتمكّن بعضها من الخروج أبداً واحترق: الطيور الصغيرة المكسوّة بالريش، والحشرات، وعدد قليل من إناث قرود البابون التي تمكّنت من أن تحمل أجنّتها طوال فترات الجفاف الصعبة. راحت تجري ببطونها المندلقة مع الأجنّة المتشبّثة وراء القرود الذكور ذوي اللبدات الكثيفة الذين كانوا يحاولون إنقاذ أنفسهم، لكن عندما وصلن عند ستارة اللهب التي اجتازتها حيوانات أخرى، توقّفن فجأة، وجثمن في مكانهن وأدركن أنه لا يوجد لديهن من سبيل سوى أن يحترقن مع أطفالهن.

قسّمت ستارة النار إرادة البقاء عن البقاء نفسه. كان من الممكن أن أسقط على الأرض وأنا أرتجف، لكنني ظللت واقفة ورحت أراقب كل

ذلك، أرى أطفال كيلانغا يصيحون ويرقصون كلّما وجدوا جسد أمٍّ من قرود البابون محترقة مع وليدها. بفضل كلّ هذا الموت، سيعيش أطفال كيلانغا المبتهجين فصلاً آخر. وسيرى البانتو الذي يراقب من الأعلى مهرجاناً أسود من الحياة والموت، فلا يمكن تمييز أحدهما عن الآخر في تلك الأرض السوداء المحترقة.

بعد ذلك اليوم، أصبحت أختي راشيل (لفترة قصيرة) نباتية. وأصبحت أختي روث ماي منبّشة عن الطعام، وليا صيّادة، أما أنا فأصبحت شيئاً آخر. وفي يوم الصيد عرفت شيئاً واحداً فريداً وسط المركز الأملس في عظامي: كل الحيوانات تقتل كي تعيش، ونحن حيوانات أيضاً. الأسد يقتل قرد البابون. والبابون يقتل الجنادب السمينة. والفيل يمزّق الأشجار الحيّة، يقتلع جذورها الثمينة من تحت التراب الذي تحبّه. ويمرّ ظلّ الظبي الجائع فوق العشب المذهول. ونحن، حتى لو لم يكن عندنا لحم، أو حتى عشب يمكننا أن نأكله، ما زلنا نغلي الماء كي نقتل المخلوقات غير المرئية التي تريد أن تقتلنا أولاً، ونبتلع حبوب الكينين. إنّ موت شيء حيّ هو ثمن بقائنا، ونحن ندفعه مراراً وتكراراً. لا يوجد أمامنا خيار آخر. إنه الوعد المهيب الوحيد الذي تولد به كلّ حياة على الأرض، وتلتزم بالحفاظ عليه لاستمرارها.

ليا

قتلت طريدتي الأولى: حيوانٌ جميل أسمر، له قرون مقوّسة وخطّ أسود في وسطه: ظبي إيمبالا صغير. عندما رأى النار اضطرب ولم يعرف ماذا يفعل، كان صغيراً جداً على أن يضع استراتيجية جيّدة أمام الخطر، لكنه كبيرٌ بما يكفي ليتظاهر بذلك، فراح يركض يميناً وشمالاً، ينخر مثل «عنتر» أو بلطجي، حتى أصبح آخر حيوان من نوعه محاصراً داخل الدائرة. كنت

أعرف أنه سرعان ما سيستسلم، لأن الطريقة التي كانت حوافره تضرب بها الأرض مستميتة ويائسة. وعائلته كلها قد ذهبت. أقعيت بجانب نِلسون، ورحت أراقبه. كان نِلسون قد اصطاد ظبيَين، الواحد تلو الآخر، وأشار لي بأنه سيسترجع سهامه، وأن ظبي الإيمبالا متروكٌ لي. رحت ألاحقه بعينيَّ كما علّمني نِلسون أن أفعل، باحثةً عن درب آماله. فجأة رأيت المكان الذي سيخترق حاجز النار منه. اتجه مباشرة نحوي ثم انحرف يميناً إلى المكان الذي ذهبت منه أمّه. حتى «العنتر» يريد أمه عند اليأس، حبستُ أنفاسي كي لا ترتعش ذراعاي. كان لديّ جوع وعطش مجاعة كاملة، والدخان يملأ عينَيّ المحترقتين. لقد خارت قواي. رحت أصلّي ليساعدني المسيح، ثمّ صلّيت لأيّ إله آخر يمكن أن يسمعني ويساعدني على أن أبقي ذراعي اليسرى ممدودة ويدي اليمنى مسحوبة إلى الخلف، وسهمي مشدود على وتره مستعدٌّ ليغني ويطير. واحد، جاء وبدأ يراوغ... اثنان، اقترب أكثر... ثلاثة، تعثّر في مشيته، وتوقّف... أربعة!

قفز جانباً وابتعد عني، قوائمه الأربع ملتمّة معاً تطير في الهواء لمدة نصف ثانية فقط، ثم واصل الجري. عندما رأيت خطّ الدم البنّي عرفت أنني أصبته. غاص قلبي في صدري وانفجرت خفقاته في أذنيَّ. لقد قتلت حيواناً أضخم مني. صحت كما لو أني أصبت نفسي بالسهم. وقبل أن أدرك أن ساقيَّ تحركانني رحت أطارد الظبي على درب آماله - الغابة التي يمكن أن يراها عند نهاية الوادي الطويل المتفحّم حيث سيجد أمّه والأمان. لكنّه انهار، تباطأ ثم تهاوى. وقفت فوقه، ألهث.

استغرق الأمر دقيقة لأدرك حقيقة ما رأيت: سهمان اخترقا خاصرته، لا يوجد لأيّ منهما ريش أحمر، كالسهام التي أستخدمها. ثم سمعت بينيي، ابن تاتا ندو البكر، يصيح بي بأن أبتعد عن الطريدة، ابتعدي، «آ، باكي!» وهي تعني أنني سارقة.

ثمّ رأيت نِلسون يقف بجانبي، يلوّح بسهمي. «هذا السهم هو الذي قتل إيمبالا» -صاح في وجه بينيي- «لقد اخترق رقبته. انظر إلى سهمك. غرزتان صغيرتان في خاصرته، حتى إنه لم يشعر بهما قبل أن يموت!».

لوى بينيي شفته، وقال: «كيف يستطيع سهم امرأة أن يقتل ظبي إيمبالا صغيراً؟».

«بإصابته في رقبته، يا بينيي. أما سهامك فقد أصابت الذيل مثل كلب وراء كلبته. أين كان هدفك، نكينتو؟».

رفع بينيي قبضته. كنت متيقّنة من أنه سيقتل نِلسون لأنه أهانه، لكنّه وجّه إصبعه نحوي بدلاً من ذلك، وهزّها أمام وجهي كما لو أنه يمسح عنها بقعة دم أو وحل، وأمرني بأن أسلخ الظبي وأُحضر لحمه إلى القرية. ثمّ استدار وابتعد عنا.

أخرج نِلسون سكينه وجثا على ركبتيه ليساعدني في هذا العمل الشاق، وراح يقطع أوتار العضلات ويسلخ الجلد. انتابني شعور مختلط، شعور بالامتنان، وشعور بالحزن.

لقد سخر نِلسون من هدف بينيي بتسميته نكينتو: امرأة.

راشيل

إن كنت تظن أنه يمكنك تصوُّر مدى فظاعة الأمر، فأنت مخطئ. حِملاناً للذبح كنّا، أو الحيوانات كانت، حتى إنني لا أعرف على من سأشفق أكثر. كان أسوأ يوم في حياتي. وقفت في ذلك الحقل المحترق وطعم الرماد في فمي، والرماد في عينيَّ، ويملأ ثنايا شعري وملابسي. كان كلّ شيء ملوّثاً ومبقّعاً. وقفت ورحت أصلّي للمسيح، إن كان يسمعني، ليعيدني إلى بيتنا في جورجيا، حيث يمكن أن أجلس في مطعم «القلعة البيضاء» وأطلب

الهامبرغر من دون أن أرى عينَيْ الذبيحة وهما تزوغان في رأسها والدم يتدفّق من جسدها.

أوه، هلّلوا لرؤيتها! لم أسمع الكثير من هتافات البهجة منذ أن لعبنا لعبة «العودة إلى الوطن». قفز الجميع من الفرحة، وقفزت أنا أيضاً، في البداية، لأنني قلت في نفسي: «وافرحتاه، ها هي ذي وجبة طعام جيّدة آتية أخيراً!»، فإذا تناولت عجّة البيض مرة أخرى فإني أظن أنني سوف أقلب بسهولة، وأبدأ أقرقر مثل دجاجة.

لكن بحلول نهاية اليوم، كان الجميع ملطّخين بالدم مثل غيلانٍ سعيدة رهيبة، ولم أحتمل أن أكون واحدة منهم. لقد تغيّر كلّ شيء. فقد بدأت أرى القرويين قد تحوّلوا إلى مخلوقات شرسة، بأفواههم الجائعة الفاغرة. حتى أختي ليا أقعت على ركبتيها وذبحت ظبياً صغيراً مسكيناً بحماسة كبيرة، حزّت بطنه أولاً ثم سلخت جلده من ظهره، وكانت الأصوات مريعة. جلسَتْ بجانب نِلسون واستخدما سكّيناً في ذبحه، حتى إنهما كانا يستخدمان أسنانهما أحياناً. كان الرماد يكسوهما وكانا يبدوان مثل القِدر والمقلاة، من الصعب تحديد أيهما أكثر سواداً من الآخر. وعندما انتهيا، كانت الذبيحة ممدّدة على الأرض تلمع باللونين الأزرق والأحمر، تكسوها طبقة بيضاء لزجة. كانت تبدو مثل جرو كلب الصيد العجوز الذي كان في بيتنا، ما عدا أن هذا كلّه كان مجرّد غضاريف ودم. كانت عيناه الميّتتان العاريتان ناتئتين من رأسه، تطالبان بالرحمة. انحنيت وتقيأت على حذائي. يا يسوع! لم أتمالك نفسي. نزلت مباشرة من التلّ المحترق وسرت كل الطريق إلى المنزل من دون أن أخبر أمي حتى بأنني ذاهبة. فقد بلغت السابعة عشرة من عمري، ولم أعد طفلة، وأصبح بإمكاني أن أقرّر مصير حياتي بنفسي. ذهب الجميع إلى ساحة البلدة الغبية، لكي -أنا متأكّدة من ذلك- يصيحوا ويهتفوا عن الثروة الجيّدة، ويقتسموا الغنائم المقتولة. لكن ليس أنا. فقد حبستُ نفسي في بيت

مطبخنا، مزّقت ملابسي القذرة وألقيت بها في الموقد. سخّنت إبريق الماء الكبير ودلقته في الحوض المجلفن وجلست فيه مثل حبة بطاطا مسلوقة، وحيدة في هذا العالم، وأجهشت في البكاء. لاحظت أن صورة الرئيس آيزنهاور التي علّقتها أمي على الحائط تنظر إليّ، فغطّيت صدري العاري بذراعيَّ خجلاً، وازداد بكائي حرقة. شعرت أن بشرتي الحمراء ستتقشّر تماماً، ثم سأبدو مثل ذلك الظبي المسكين. حتى إنهم سيكونون غير قادرين على تحديد جثتي من بين الجثث الأخرى التي سيجرّونها إلى المنزل. لا أبالي إن متّ مع الحيوانات المسكينة الأخرى. من يبالي على أي حال؟ بينما يبرد الماء جلست هناك أنظر إلى صورة الرئيس. كان رأسه الأبيض المستدير ودوداً ولطيفاً، وبكيت مثل طفلة لأنني أردت أن يكون هو أبي بدلاً من والدي. أردت أن أعيش في حماية شخص يرتدي ثياباً لائقة، ويشتري لحماً من المتجر كما يأمر الربّ، ويهتم بالآخرين.

أقسمت إنني إذا نجوت من هذه المحنة، فلن ألمس قطعة لحم من تلك الحيوانات التي حاصروها وقتلوها على سفح التل كما يقتلون أطفالاً أبرياء. هكذا كانوا كلّهم - قرد البابون والخنزير البري والظباء التي خافت وجُنّ جنونها من النار، لا فرق بين الناس والحيوانات: ليا وجميع أولئك الرجال يلعقون شفاههم، يتذوّقون اللحم المشوي في دخان النار. وروث ماي الصغيرة المسكينة تلتقط الديدان المحترقة وتضعها في فمها، لأن والديها لا يستطيعان أن يوفّرا لها الطعام. الذين كانوا هناك تحت الشمس الحارة في ذلك اليوم كلّهم كانوا مجرّد حيوانات بكماء ملعونة بعلامة الرماد على جباهها(*). هذا كلّ شيء. حيوانات بكماء مسكينة تهرب للنجاة بحياتها.

(*) إشارة إلى وضع علامة الصليب بالرماد على الجباه في بداية الصوم، وهو تذكير في التقاليد المسيحية بالآية: «بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أُخِذتَ منها» - سِفر التكوين 19:3. [م].

ليا

كان من المفروض أن يكون اليوم أكثر الأيام تألقاً وبهجة في قريتنا، لكن بدلاً من ذلك، انهار كلّ شيء. وإذا عشت بعد خمسين سنة فإني سأتذكّر عصر ذلك اليوم وصباح اليوم الذي تلاه. وأقسم إني سأتذكّره آنذاك على حقيقته: كان أفظع يوم في حياتنا.

كان يُفترض أن يقام احتفال بعد انتهاء الصيد، لكن قبل أن يقرع الرجال المسنّون طبولهم ويبدأ الرقص، تحوّل المكان إلى ساحة حرب يعلوها الصراخ. وبغتةً أصبح الرجال الذين كنّا نعرف أنهم آباء وديعون وكرماء، أصبحوا غرباء، يصيح أحدهم في وجه الآخر بقبضات مشدودة وعيون مفتوحة على وسعها. فانفجرت روث ماي في البكاء، واختبأت وراء تنورة أمّي. لا أظن أنها فهمت أسباب ما يجري. ولن تفهم أبداً.

أعرف أنه كان لي دور في ذلك. أدرك ذلك. لكن أموراً كثيرة لم تسِر على ما يرام حتى قبل أن أنضم إليهم. لم تكن الأمور على ما يرام منذ أن وطئت أقدامنا كيلانغا لأول مرة، على الرغم من أننا لم نكن نستطيع رؤية ذلك. حتى الاستقلال المجيد لم يكن مفيداً للجميع، كما وعدوا في ذلك اليوم عند ضفّة النهر، عندما أطلق لومومبا والبلجيكيون وعودهم المختلفة، وظلّ الملك الأبيض متخفياً في مكانٍ ما. سيكون هناك منتصرون وخاسرون، الآن تدور حروب في الجنوب، وأعمال قتل في الشمال، وانتشرت شائعات عن أن الأجانب يسيطرون على الجيش ويريدون أن يقتلوا لومومبا. وفي يوم الصيد، كانت هناك حرب تزحف نحونا بقوة، بيض ضدّ السود. لقد جرفنا جميعاً جشعٌ لم نتمكّن من إيقافه.

أثار الجدال بيني وبين بينبي حول ظبي إيمبالا الذي اصطدته خلافاً شديداً بين الذين صوّتوا لصالحي والذين صوّتوا ضدّي. وغيّر بعضهم

مواقفهم، وأصبحوا ضدي بسبب تحذيرات تاتا كوفودُندو. فقد بدأت الأشياء الفظيعة التي حذّر منها تحدث فعلاً. كانت العيون تراقبنا من الأشجار فيما نحن نسحب الحيوانات التي اصطدناها إلى ساحة القرية، ونضعها ونتحلّق حولها في دائرة تتضوّر جوعاً. كان بينيي أول من تحرّك. سحب الظبي الذي اصطدته من فوق كومة اللحم ورفعه بفخرٍ عالياً في الهواء. ثم أخذه منه تاتا ندو ورفع منجله، وبضربة واحدة قوية قطع ورك الظبي، ثم رفعها ورماها إليّ، فسقطت أمامي مُحدثةً دويّاً قوياً وتناثر الدم على قدمي. وفي الصمت المطبق الذي أعقب ذلك، بدأ الجراد الذي يملأ أوراق الأشجار يطنّ في أذني.

كنت أعرف ما الذي يجب أن أفعله: أن أحملها بكلتا يديَّ وأقدّمها إلى ماما موانزا. يجب أن أدير خدّي الآخر(*). لكن خطيئة الكبرياء أمسكت بي بقبضةٍ شرسة، فرفعت الورك التي كانت تنزف دماً ورميتها على بينيي، فأصابته في ظهره عندما كان يشمت مع أصدقائه، فترنّح إلى الأمام وضحك أحد أصدقائه. التفت تاتا ندو نحوي، عيناه غاضبتان تحت جبينه الضخم المجعّد، ومدَّ يده نحونا باشمئزاز، وقال بلغة الكيكونغو: «تاتا برايس لا يريد حصة أسرته من اللحم، آبو مبايا. دور من التالي؟»، وحدّق في الوجوه الصامتة، الواحد تلو الآخر.

وقال أخيراً: «أناتول، أناتول بانا بانسيسيلا أو آ-آآنا». أي أناتول اليتيم من دون سلالة! - وهي أشد إهانة يمكن أن توجّه إلى رجل كونغوليّ.

«سيكون هذا كافياً لك» - قال تاتا ندو، مشيراً إلى كفل الظبي الضامرة المرمية فوق التراب. منذ ساعات كانت كفل ظبي قوي، أما الآن فهي ملقاة عارية عند أقدامنا، يغطيها التراب. كانت تبدو لعنة أكثر منها نعمة.

(*) إشارة إلى الآية: «وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضاً» - إنجيل متى 39:5. [م].

أجاب أناتول بصوت المعلّم المؤدّب: «آنا آسف، تاتا ندو، لكن لا، هذا هو نصف حصة أسرة برايس، والحيوان الكبير لي».

وبدأ أناتول، اليتيم الذي لن يكون لديه سلالة، يجرّ بيديه أسمن كفل اصطيد فوق التلّ. لم يكن على تاتا ندو أن يهين أناتول الذي لم ينحز إلى جانبي حقاً، بل تجادل مع الناس فحسب ليفكّروا بأنفسهم. أخشى أن يُطرد بسبب علاقته الوثيقة مع عائلتنا.

بارتياح رأيت تاتا بواندا يتقدّم لمساعدة أناتول. لكن تاتا بواندا توقّف فجأة وبدأ يصيح. فهمت أنه ادّعى أن الظبي الذي اصطاده أناتول له. ركضت ماما بواندا وهي تصرخ ولطمت أناتول على وجهه. عندما ترنّح إلى الوراء جريت نحوه لأسنده، لكني صُدمت من الخلف من قبل تاتا كيلي العجوز ذي الذراع الواحدة الذي لم يستطع تجاوزي بالسرعة الكافية في عجلةٍ من أمره للمطالبة بحصته، وجاءت وراءه زوجتاه مصممتين أن يشرفا على حصته وزيادتها. بدأ تاتا ندو يتكلّم ثانيةً، لكن موجة جيراننا الذين تقدّموا إلى الأمام وأحاطوا به غطّت على صوته.

وهكذا تحوّل هذا الحدث السعيد لتقاسم اللحم بعد الصيد إلى حرب من الإهانات والغضب والبطون الجائعة. كان من المفروض أن تكون هناك كميات أكثر من كافية لكلّ عائلة، لكن عندما سرنا في دائرة ليستلم كلّ شخص حصته، تقلّصت أطراف الحيوانات المكتنزة التي اصطدناها فوق التلّ وأصبحت ذبائح جافة ماتت جوعاً من الجفاف. فاختفت الوفرة من أمام عيوننا. وما كان وفيراً رأيناه فجأة لا يكفي. حتى الصبية الصغار ضربوا رفاقهم وسرقوا اليرقات أحدهم من سلال الآخر، وبدأ الأبناء يصيحون في وجوه آبائهم. وأعلنت النسوة عن رغبتهن في إجراء انتخابات وصوّتن ضدّ أزواجهن. وأما الرجال المسنّون الذين لم تكن أصواتهم تزيد على الهمس لأنهم اعتادوا على أن ينصت الجميع إلى ما يقولونه، أُسكتوا تماماً في وسط

هذا الضجيج، وبدا تاتا كوفودُندو في حالة يرثى لها، وكان غاضباً واسودّت عباءته البيضاء من الرماد، ورفع يديه وأعلن ثانية عن نبوءته بأنّ الحيوانات والطبيعة ستنقلب علينا.

حاولنا أن نتجاهل كلماته الغريبة، لكننا سمعناها كلّنا. وفي زاوية من قلوبنا تراجعنا جميعاً، عارفين أنه كان محقّاً. وأدركنا أن الحيوانات الميّتة بين أيدينا تلعننا وتسخر منا لأننا قتلناها.

في النهاية عدنا إلى بيوتنا مع لحومنا يتملّكنا شعور بأننا اصطدنا أنفسنا. كان من المؤكّد أن أهم احتفال في القرية على الإطلاق لتقاسم الوفرة، تحوّل إلى خراب في أيدينا.

راشيل

عند هبوط الليل عادت أخواتي ووالداي إلى البيت وجُنّ جنون كلّ شيء. لم يسِرْ شيء بالطريقة التي توقّعتها. كنت قد خرجت من الحمّام، وارتديت ثيابي النظيفة، وجفّفت شعري بالمنشفة، وجلست بهدوء في الغرفة الأمامية أتهيأ لأعلن لأفراد أسرتي أنني أصبحت نباتية. كنت أعرف جيّداً ماذا يعني ذلك: فهذا يعني أنني، من الآن فصاعداً، سأعيش على الموز وسأعاني من سوء التغذية. كنت أعرف أن أمي ستعارض بشدة وستقول لي إن ساقيَّ ستصبحان مقوّستين وستصبح عظامي هشّة مثل عظام الأطفال الكونغوليين المساكين. لكن لا يهمّني كل ذلك، حتى لو تساقط شعري. فقد بلغت السابعة عشرة من عمري وعندي حقوقي، إضافة إلى أني قد رسمت خطتي السرية. فعندما يعود إيبين أكسلروت، سأستخدم مفاتني الأنثوية لإغوائه، وبغضّ النظر عما سيكلّف الأمر، سأقنعه بأن يأخذني بطائرته ويبعدني عن هذا المكان، وسأقول لهم: «سنعود أنا وخطيبي السيّد

أكسلروت إلى أميركا، البلد الحر الذي يمكنك أن تحصل فيه على كل ما تريد أن تأكله».

لكن لم يكن هذا هو الحديث الذي دار بيننا. فعندما عادوا إلى البيت، قالوا إن شجاراً كبيراً جرى في القرية من أجل من سيحصل على حصة أكبر من ذلك اللحم الشنيع. ولم يتوقّفوا عن الكلام وإبداء ملاحظاتهم، بينما راحت أمي تشعل نار الموقد وتضع فيه ساق ظبي لشوائه، وراحت تهرس موز الجنة. وفاحت رائحة لذيذة. كان يمكنك أن تسمع أزيز اللحم وقرمشته. ويجب أن أعترف بأنني تناولت بضع لقيمات على العشاء، وذلك لأنني كنت ضعيفة وجائعة. وبدأت أفكّر بتساقط شعري. لكن لو كان هناك متجر على مسافة مئة ميل، صدِّقوني، لجريت إليه وجلبت طعاماً لا توجد قوائم مرفقة به.

عند العشاء، لم يتوقّف الشجار في أسرتنا، وظلّت ليا تحكي كيف أنها اصطادت ظبياً كاملاً وحدها، وأنه ليس من العدل ألّا تحصل عليه أسرتنا كله. وقال لها أبي إن الله لا يرحم الذين لا يحترمون كبارهم ويضربون بآرائهم عرض الحائط، وقال إنه، القسّ برايس، قد غسل يديه من تعليمها الأخلاقي. قال ذلك بصوته اليومي العادي، كما لو كان يناقش موضوع الكلب الذي عاد إلى القمامة مرة أخرى، وأضاف إن ليا أصبحت أداة مخزية وسيئة أمام إرادة الله، ولهذا السبب فإنه «لن يتنازل ويعاقبها عندما تكون بحاجة إلى عقاب بعد الآن».

فردّت ليا بصوت هادئ كما لو كانت تناقش أيضاً مسألة شيء دخل إلى القمامة، وبالتأكيد من دخل إليها لم تكن هي. وقالت: «هل هذا رأيك بي يا أبي؟ إن ما تفكّر به مثير للاهتمام»، وما إلى ذلك. أظن أن ذلك كان شيئاً جيّداً ومدهشاً من طرفها، لأنها لن تُعاقب على ما قالته! البطّة المحظوظة. وبقيت أنا وروث ماي وإدا خارج دائرة عدم العقاب، وما زلنا أدوات مناسبة

للضرب، وهذا آخر شيء نريد أن نسمعه. وعلى الرغم من أنه يمكن لأحد أن يشير لأبينا بأنّ أحداً في البيت، على الأقل، جلب أخيراً إلى بيتنا كمية من اللحم، ولعلّه يشير أيضاً إلى أنّ ليا المسؤولة عن المنزل هي التي جلبته، وهذا صحيح. وقفت أمي ضدّ أبي من دون أن تعلن عن هذا. فعلت ذلك بالطريقة الصاخبة التي كدّست بها الصحون.

وفجأةً بين ثانية وأخرى تحوّل الحديث إلى الكلام عن نِلسون الذي جاء إلى البيت وهو يجري مرعوباً. قال شيئاً عن أفعى. قال إنه رأى علامة شريرة خارج قنّ الدجاج في فناء بيتنا. حسناً قد لا يكون ذلك شيئاً مفاجئاً لأن الناس بدؤوا يرون مؤخراً أفاعي في كل مكان، داخل البيت، أو في سلة فاصولياء مغطاة بإحكام، وفي أماكن لا يخطر لك أنها يمكن أن توجد فيها. وقال نِلسون إن جميع أهالي القرية خائفون، وأن باستطاعتك أن ترى الخوف يطوف أرجاء المكان. وعندما رأى نِلسون علامة الشر تلك انطلق يصيح مبلغاً عن كل شيء، لأن قنّ الدجاج في بيتنا هو مكان نومه. كان متيقّناً من أن لعنة وقعت عليه، ولم يكن هناك طريقة للتفاهم معه أو إقناعه. حاولت أمي أن تهدّئ من روعه، لكنّه لم ينصت لها. قال إنه عندما كان ذاهباً لينام سمع صوتاً فخرج ليتبيّن ما هو. وعندما خرج من الباب، سقط أمامه ظلّان في شكل X. كان نِلسون قد بدأ يربط باب قنّ الدجاج بحبل عندما يعود في الليل، لكنه اكتشف الآن أنه لا يوجد حبل يمكن أن يكون قوياً بما يكفي، فرفض نِلسون أن ينام في قنّ الدجاج بعد الآن لأي سبب في العالم.

قالت له أمي إن أيّ شيئين مستقيمين قد يشكّلان ظلّاً بحرف X، وهذا صحيح، خصوصاً عندما تبدأ المخيّلة تؤدي دوراً في ذلك. ومن الممكن أن هناك أحداً يريد أن يخيفه، ومن فعل ذلك يجب أن يُعاقب ويعطى صفعةً قوية على وجهه، لكن نِلسون أكّد أنها ليست ظلالاً عادية، وقال إنه: الحلم بالأفاعي.

فقال له أبي إن هذا هو التأثير المؤسف للإيمان بآلهة زائفة، وغسل يديه من المسألة. لقد غسل أبي يديه من كلّ شيء في تلك الليلة. ولم تتفق أمي بالضرورة معه، لكنها حذّرتنا من الاقتراب من قنّ الدجاج ذاك بدافع الفضول. واستشهد أبي بمقطع من الكتاب المقدّس يقول إن الشيء الوحيد الذي يجب أن نخاف منه هو الخوف نفسه، وقال لأمي إنها إذا سمحت لِنلسون أن ينام في بيتنا هذه الليلة، فإنها ستصبح ألعوبة بين أيدي عبدة الأوثان، وأنها إذا أرادت أن تعتبر نفسها واحدة منهم، فعليها أن تأخذ بناتها وتذهب لتبحث عن ملاذ بينهم، ثمّ التفت إلينا وقال لقد حان الوقت لنذهب إلى السرير وأن نطفئ الضوء على الخرافات الكونغولية المثيرة للضحك.

انسلَّ نِلسون خارجاً من البيت يرتعد رعباً، ولم نستطع إيجاد شيء نضحك منه، هذا مؤكّد. حتى أناتول طلب منا أن نتوخّى الحذر أكثر من قبل، ويجب أن أعترف أنه يوجد لدى أناتول رأس بين كتفيه يفكّر به. حاولنا أن ننام، لكن نشيج نِلسون تحت النافذة لكي نسمح له بأن يمضي الليلة في بيتنا منعنا من النوم وتملّكنا خوف شديد. حتى ليا خافت. مع أن إحدانا ذكّرت الأخرى حتى ازرقّت وجوهنا بأننا يجب ألّا نؤمن بأرواح الفودو. وعلى الرغم من ذلك، كان هناك شيء مظلم يراقبنا من الغابة ويتكوّر تحت أسرّة الناس في الليل. وسواء سمّيته الخوف أم الحلم بالأفاعي أم آلهة زائفة أو أي شيء آخر، فهو يظلّ شيئاً. وهو لا يتأثّر بأي صلاة نقولها قبل أن نخلد إلى النوم. وحتى لو اعترفنا بأننا نؤمن بها، فهل ستؤمن هي بنا؟ هذا هو السؤال.

استلقينا في أسرّتنا نستمع إلى توسّلات نِلسون الحادة والمستمرة. كانت السحالي ذات الأصابع الملتصقة تجري على جانبَي الجدار. ورسم القمر ظلالاً فوق ناموسيتنا، ولم يكفّ نِلسون عن التوسّل وهو يردّد: «بدكالا مبوتو نِلسون، بدكالا مبوتو»، مثل كلب جائع مسكين يئنّ منذ فترة طويلة لدرجة أنه لم يعد يعرف كيف يتوقّف. فجأة سمعنا صرير سرير أبي الذي

فتح النافذة وصاح به أن يسكت. فاستلقت ليا على بطنها ووضعت وسادتها فوق رأسها. شعرتُ بالغثيان. شعرنا كلنا بالغثيان. كانت كراهية أبي وخوف أمي الصامت يحفران في عقولنا.

«هذا خطأ» -قالت ليا أخيراً- «سأساعده. من لديها الشجاعة لتأتي معي؟».

جعلتني فكرة الخروج من البيت أرتعد من الخوف. لكن إذا ذهبن كلهن، فإني لا أريد أن أبقى وحدي بين الظلال والسحالي. أظن أن بيتنا يغرس فيّ أشدّ أنواع الخوف. كان هذا البيت هو المشكلة برمّتها لأن أسرتنا موجودة فيه. لم أعد أشعر بالأمان تحت جناحَيْ والديَّ منذ زمن. ربّما كنت أشعر بالأمان أول ما وصلنا إلى الكونغو لأننا كنّا صغيرات، أما الآن فقد تغيّر كلّ شيء، بعد أن لم يعد كوننا أميركيين يهمّ أحداً ولا يعطينا أي ميزة خاصة. فقد أصبحنا كلنا نلقى المصير نفسه الآن، السود والبيض، لا يهم. ومن المؤكّد أننا لم نعد أطفالاً. وكانت ليا قد قالت إنه توجد في الكونغو فئتان من الأعمار فقط وهما: فئة الأطفال الذين يجب أن يُحملوا، وفئة الذين يقفون على أقدامهم ويعتمدون على أنفسهم. لا توجد مرحلة وسطى بينهما. لا يوجد شيء يدعى الطفولة. في بعض الأحيان أعتقد أنها على حق.

ثم قالت: «سأخرج لأساعد نِلسون، ويستطيع أبي أن يذهب إلى الجحيم مباشرة».

سواء أقلنا ذلك أم لم نقله، فقد وافقنا جميعاً على المكان الذي يمكن أن يذهب إليه أبي.

والمثير للدهشة أن إدا نهضت وبدأت ترتدي بنطالها الجينز. كانت هذه طريقتها في القول: «أنا معكم». ولذا تحسّست الأرض باحثةً عن نعلي. وسحبت ليا قميص روث ماي فوق رأسها وانتعلت حذاءها الرياضي، وبهدوء الفئران، تسللنا خارجاً عبر النافذة.

ما قرّرنا فعله هو أن ننصب فخّاً كما فعل دانيال في المعبد. كانت تلك فكرة ليا. فجمع نِلسون في وعاء بعض الرماد البارد من الموقد، ونثرناه على التراب في جميع أنحاء الفناء، خارج قنّ الدجاج وداخله أيضاً. فعلنا ذلك على ضوء شمعة. كان نِلسون يراقب الدرب ليتأكّد من أن أحداً لا يرانا. لكن روث ماي لم تكن حريصة جداً، وكذلك نحن، إلى حدٍّ ما، فارتسمت آثار فوق آثار أقدام بعضنا. ويبدو أن الدجاجات انزعجت من الضوء، لأنها كانت تعيش حياة مختلفة في قنّ ماما موانزا، ولم تتعوّد على العيش في قنّ بيتنا حتى الآن، فراحت تتراكض هنا وهناك مخلّفةً آثار أقدامها فوق كلّ شيء. فاضطررنا أن نكنس كل شيء، ونبدأ الكرّة من جديد. في المرة الثانية، كنّا أكثر حذراً، وطلبنا من روث ماي أن تقف جانباً، وأعدنا الدجاجات إلى قنّها، فرمقتنا بعيونها الصغيرة الغبية وأطلقت أصواتاً خفيفة من ريشها، لتهدّئ من روعها.

عندما انتهينا، طلبنا من نِلسون أن يعدنا بأن يذهب ويختبئ في بيت أناتول هذه الليلة وأن يعود قبل الفجر. رافقته ليا إلى نصف الدرب لأنه كان خائفاً، وعادت وحدها. تسلّلنا على أطراف أصابعنا إلى أسرّتنا، وتركنا الرماد وراءنا كأنه ثلج هطل حديثاً. وهكذا إذا دخل أي شيء أو أيّ شخص إلى قنّ الدجاج -إذا كانت لديه أقدام- فإننا سنقبض على الجاني متلبساً.

إدا

يمكن للقدم أن تلمس الأرض بسبع طرق مختلفة، لكلّ طريقة قوّتها التي تميّزها. هل كان يعرف ماذا سيحدث لنا في النهاية؟ هل كان عليّ أن أعرف؟ لأنني كنت أراقبه قبل ذلك بفترة طويلة. رأيته وهو يرقص، قدماه على الأرض، ورأيته يرمي العظام، في الخلاء وراء بيتنا حيث نفّذ مخططه،

رأيته يقطع بمنجله رأسَيْ كلبين صغيرين حيّين، ثم ضغط بخياشيمهما على الأرض وهو يتمتم تعاويذه. وبهدوء، فتحت قفل صوتي وغنّيت في الغابة. غنّيت ضدّه تراتيلي الأكثر كمالاً طرداً وعكساً، لأنني لا أملك أي قوة أخرى.

عاش لحناً، جوزة نادرة، شيطاناً،
عاش شيطاناً!
عاش شيطاناً!
أنوف مبلّلة في حساء مقزز
العمل الشرير يعيش!
العمل الشرير يعيش!
الشمس! التأليف! جرذ! أرى نجوماً فوقنا،
عين، مستوى العين!
عين، مستوى العين!
تحذّر أدا الفاسدة، شبكة ممزّقة:
عينٌ تختلس النظر، شاهدَتْ العين(*).

مكتبة
t.me/soramnqraa

في صباح اليوم التالي بعد أن نثرنا الرماد، استيقظنا قبل شروق الشمس، وتساءلنا: «ما الذي يمكن أن نجده في الفخ الذي نصبناه؟»، بقينا مستلقيات في أسرّتنا لا نأتي بحركة وعيوننا مفتوحة على وسعها حتى ظهر وجه نِلسون عند نافذتنا المفتوحة. كان والدانا ما يزالان نائمين، فتسلّلنا من البيت على أطراف أصابعنا. كان نِلسون ينتظرنا وبيده قضيب أطول منه مرّتين. لم يكن يوجد معنا شيء سوى خوفنا، ونحن نتجه إلى قنّ الدجاج.

(*) ترنيمة متناظرة، كل عبارة فيها تُقرأ بالإنكليزية طرداً وعكساً وتبقى ذاتها. [م].
Lived a tune, rare nut, a devil, / Lived a devil! / Lived a devil! / Wets dab noses on bad stew, / Evil deed live! / Evil deed live! / Sun! opus! rat! See stars upon us, / Eye, level eye! / Eye, level eye! / Warn rotten Ada, net torn raw: / Eye did peep did eye.

من الغريب القول إنك إذا لم تصف نفسك بكلمة مبتهج أو مذعور، فإن هذين الشيئين يعطيان الشعور نفسه في الجسد. عندما زحفنا أمام غرفة نوم والدينا وانسللنا من الباب، اعترى أجسادنا الشعور نفسه الذي كان يعترينا في أعياد الميلاد الماضية، وصباحات أيام عيد الفصح، عندما يقوم المسيح من بين الأموات، وتكون أمّنا قد خبأت لنا قبيلة من أرانب المارشميلو المحلّاة في العشب المشدوه في حديقة بيت القسّ في بيت لحم، بجورجيا. كانت روث تحدّق بعينين مدهوشتين واضعةً يدها على فمها.

أجبرت نفسي على أن أنسى، أنسى، أنسى، وعلى ألّا أنسى، لأن هاتين العينين ستريان من خلال أيّ شيء، حتى أحلامي. روث ماي بعيون صباح عيد الفصح.

عندما أدرك نِلسون أنها قابعة داخل قنّ الدجاج، طلب منا أن نقف عند المدخل. تسمّرنا وراء ذراعه الممدودة حتى تمكّنا من رؤيتها أيضاً قابعة في الزاوية البعيدة، في داخل صندوق العشّ، ملتفّة بقوّة حول دجاجتين من دجاجاتنا الثمينة وكل بيضهما. دجاجتان منتفشتا الريش مسكينتان فقدتا القدرة على التنفّس، تتشبّثان بمستقبلهما المُجهَض. كان العشّ والبيض والدجاجات كلّها كتلة واحدة، ملفوفة في خيط رفيع أخضر لامع. سلة جميلة محوكة بإتقان بين الدجاجة والبيضة. في البدء لم نفهم حقيقة ما رأيناه أمام أعيننا. تيسكت، تاسكت(*)، هدية. رفع نِلسون القضيب الطويل وهوى به بقوة فأصاب الحائط فوق العشّ، تطاير الغبار في الظلام، على الدجاجات الساكنة، الهادئة. وفجأة تحرّك العشب الأخضر، ارتفع إلى الأعلى ثم إلى الأسفل، ثم بدأ يتمايل يمنة ويسرة. ثم توقّف، وتقدّم إنشاً إلى الأمام، وبرز رأس مثلّم صغير واستدار نحونا. وببطء شديد فتحت فمها

(*) A tisket, A tasket: أغنية أطفال سُجّلت في أميركا أواخر القرن 19. لا معنى محدد لهاتين الكلمتين، لكن الجملة التي تليهما هي «سلة خضراء وصفراء». [م].

واسعاً، وظهر اللون الأزرق البرّاق داخل فمها: نابان عاريان، ولسان يلعق الهواء برقّة.

وبغتةً طارت نحو القضيب الذي يمسكه نِلسون بيده وضربت ضربتين، ثمّ اندفعت من صندوق العشّ ومرّت بجانبنا بسرعة كبيرة وخرجت من الباب إلى الصباح المضيء، واختفت.

حبسنا أنفاسنا ورحنا نحدّق في المكان الذي كانت تقبع فيه الأفعى. التقت عيوننا نُشهد ذاكرتنا على ما مرَّ أمامنا. أفعى مامبا الخضراء، سيّدة التمويه، والرشاقة، وخفة الحركة، والسرعة، والعدوانية.

«L'ingéniosité diabolique de la nature a atteint avec ce serpent le plus haut degré de perfection».

هذا ما كتبه الخبراء في الكتاب المصوّر عن الأفاعي الذي وجدته في المكتبة العامة: «لقد بلغت عبقرية الطبيعة الشيطانية أعلى درجات الكمال، في هذه الأفعى».

لم يكن ما مرَّ أمامنا سوى سلة الموت الذي انفجر، هدية موجّهة إلى نِلسون. ثم تنفّسنا ثلاثتنا الصعداء معاً. ونظرنا إلى الأرض البيضاء المكسوّة بطبقة من الرماد.

رأينا آثار قدم على الأرض بجميع طرق الرقص السبع. آثار أقدام رُسمت في دوائر ضيّقة. العمل الشرير يعيش. لم تكن مخالب نمر يمشي منتصباً في مواجهة الرجال بسبب استفزازهم، ولم تكن بطن أفعى زلقة غاضبة زحفت فوق الأرض المحمية من تلقاء نفسها لتعاقبنا.

إنه رجل واحد، واحدٌ لا أحد غيره، الرجل الذي جلب الأفعى في سلة أو حملها وهي دائخة أو مسحورة بيديه الاثنتين هديةً. راقصٌ واحد فقط توجد في قدمه اليسرى ستّ أصابع.

ليا

لا أذكر إلّا أنني سمعت صوت شهقة ثم تنهّد وصراخ في آن معاً، أغرب صرخة أسمعها، مثل مولودٍ يأخذ أنفاسه الأولى. لم نعرف من أين جاء الصوت، لكن من الغريب أننا رفعنا كلنا عيوننا إلى أعلى الشجرة. لم تكن هناك سوى ريح مهتاجة تحرّك الأغصان، لا شيء آخر. ثم حلَّ صمتٌ مطبق.

من الغريب أنني أتذكّر أننا رفعنا عيوننا كلّنا. لم ينظر أحدٌ منّا إلى روث ماي. لا يمكنني أن أقول إنها كانت معنا، في تلك اللحظة. ولوهلةٍ فحسب، بدا كما لو أنها اختفت، وأُلقي بصوتها فوق الأشجار، ثمّ عادت إلينا، لكن كلّ ما تبقّى منها كان مجرّد صمت فظيع. الجلد الفارغ بلا صوت لأختي الصغيرة يجلس بهدوء على الأرض، يعانق نفسه.

«روث ماي، يا حلوتي، كل شيء بخير!» -قلت- «لقد ذهبت الأفعى اللعينة» -جثوت بجانبها، ووضعت يدي على كتفها برفق- «لا تخافي، لقد ذهبت!».

جثا نِلسون أيضاً، وقرّب وجهه من وجهها كثيراً. فتح فمه ليقول شيئاً، ليطمئنها، كما أظن، لأنه كان يحبّ روث ماي. أعرف ذلك. فقد رأيته كيف كان يغنّي لها ويحميها. لكن صمتاً فظيعاً تملّك نِلسون أيضاً، ولم تخرج من فمه أيّ كلمات. اتسعت عيناه عندما رأينا كلّنا وجهها وقد تحوّل إلى قناع أزرق شاحب يهبط من جذور شعرها إلى شفتيها المتورّمتين. لا عينان. ما أقصده هو أنّ من كان ينظر من عينيها هو أحدٌ لا نستطيع التعرّف عليه.

«روث ماي، ماذا جرى؟ ماذا رأيتِ؟!». من شدّة خوفي رحت أهزّها بقوة، وأظن أنني صحت بهذه الكلمات. لا أستطيع أن أغيّر ما فعلته: هززتها بقوّة كبيرة، وصحت بها. ربما كان ذلك آخر شيء عرفَته عن أختها ليا.

دفعني نِلسون جانباً. لقد عادت إليه الحياة ثانية فجأة، وراح يتكلّم بسرعة بلغة الكيكونغو ولم أفهم شيئاً مما قاله. مزّق بلوزتها وفتحها. مزّقها فحسب، ووضع وجهه على صدرها. ثمّ انسحب مذعوراً. بينما كنّا نراقب كل ذلك بخوف شديد تذكّرت أنني يجب أن أنتبه إلى المكان الذي سقطت فيه الأزرار، كي أساعدها في رتقها عندما نعود إلى البيت. فالأزرار ثمينة جداً هنا. أغرب الأشياء التي فكّرت بها، سخيفة جداً، لأنني لم أستطع أن أنظر إلى ما كان يقبع أمامي.

«ميديكي»، صاح بي. انتظرتُ الكلمة لتخترق دماغي السميك الغبي وتبدأ تعني شيئاً. «حليب»، كان يصيح. «أحضري قليلاً من الحليب. حليب ماعز، أو حليب كلب، أيّ نوع من أنواع الحليب، لنسحب منها السمّ. اذهبي ونادي ماما نغوزا، فهي تعرف ما الذي يجب عمله، لقد أنقذت ابنها من أفعى مامبا الخضراء مرة. كاكاكاكا اذهبي».

لكنّي وجدت نفسي لا أستطيع أن أتحرّك. أحسست بحرارة شديدة، وكنت غير قادرة على التنفّس، وملدوغة مثل ظبي أُصيب بسهم. لم أستطع إلّا أن أحدّق في كتف روث ماي الأيسر العاري، حيث ظهر جرحان أحمران مثل خرزتين حمراوين على لحمها. نقطتان تبعد الواحدة بوصة عن الأخرى، صغيرتان ودقيقتان مثل علامتَيْ تنصيص في نهاية جملة لا يستطيع أحدٌ منّا أن يقرأها. كانت الجملة ستبدأ في مكانٍ ما فوق قلبها مباشرةً.

إدا

لأنني لا أستطيع التوقّف وانتظار الموت، توقّف الموت بلطفٍ لي. لم أكن موجودة عند ولادة روث ماي لكنني رأيتها الآن، رأيت كلّ خطوة من خطوات حياتها تجري في الاتجاه المعاكس عند نهاية حياتها. علامتا

التنصيص للإغلاق في نهاية العبارة المتناظرة، التي اسمها روث ماي. آخر جرعة هواء لها كانت جائعة مثل النفس الذي يأخذه الرضيع أول مرة. كانت تلك الصيحة تشبه صوت عواء، مثل الصيحة الأولى تماماً، ثم، في النهاية، تراجع متواصل إلى الخلف، إلى خارج هذا العالم. أعقب الصرخةَ صمتٌ بعينين مفتوحتين على وسعهما من دون تنفّس. تغضّن وجهها المزرقّ بضغطٍ أخذ يطبق عليها، قريبٍ من شيء مختلف عن الحياة التي تتجمّع حول أطراف الحياة. أغمضت عينيها بإحكام، وأُطبقت شفتاها المتورّمتان، وتقوّس عمودها الفقري، وتقلّصت أطرافها أكثر فأكثر حتى بدا جسدها صغيراً جداً. وبينما كنا ننظر إليها من دون أن ندرك ما الذي حدث، ذهبَتْ إلى المكان الذي لا يريد أحد منّا أن يذهب إليه. لقد انكمشت روث ماي وتقلّصت عبر الممر الضيّق بين هذا النسيج الوجيز للضوء وبقية كلّ ما هو موجودٌ هنا لنا: الانتظار الطويل. الآن ستنتظر بقية الزمن الذي سيكون تماماً بطول الزمن الذي مرَّ قبل أن تولد.

لأنني لا أستطيع التوقّف وانتظار الموت، توقّف الموت بلطفٍ لي، أو توقّف قليلاً على الأقل ليوجّه ضربة عابرة بفمه الأزرق السماوي في أثناء مروره. برقٌ لا يمكنه أن يضرب مرّتين، درسنا الذي تعلّمناه في سرعة الضوء البغيضة. لدغة في الضوء لروث ماي، حقيقة، حسٌّ داخليّ أزرق سماوي، وأوه كم نحن عزيزون على أنفسنا عندما يأتي، يأتي، ذلك الظلّ الطويل الطويل في العشب!

راشيل

توجد لحظة غريبة في الزمن، بعد أن يحدث شيء فظيع، عندما تعرف أنه حقيقي لكنّك لم تخبر أحداً عنه بعد. من بين جميع الأشياء، هذا أكثر ما

أتذكّره. كنت هادئة جداً، وقلت لنفسي: يجب أن نذهب الآن ونخبر أمّنا بأن روث ماي، أوه، أيها المسيح العذب! لقد رحلت روث ماي. يجب أن نخبر والدينا اللذين ما زالا في السرير، نائمين.

في البداية لم أبكِ، ثم، لا أعرف لماذا، تهاويت عندما فكّرت أن أمي نائمة في السرير، سيكون شعرها الأسود مبعثراً على الوسادة، ووجهها حلواً وهادئاً. جسدها كله لا يعرف شيئاً بعد. جسدها الذي حمل بروث ماي وأنجبها. أمي تغطّ في النوم مرتدية رداء نومها وهي تعتقد أنه لا يزال عندها أربع بنات على قيد الحياة. الآن سنضع قدماً أمام القدم الأخرى، ونمشي إلى الباب الخلفي، وندخل إلى البيت، ونقف بجانب سريرهما، نوقظ أمي ونقول لها الكلمات: روث ماي. ثم نقول الكلمة: ماتت. نقول لها: ماما استيقظي!

عندئذٍ سيتغيّر العالم كلّه، ولن يكون كل شيء على ما يرام مرةً أخرى. سيواصل الناس الآخرون في العالم الواسع أعمالهم، أما نحن، فلن تعود الحياة أبداً كما كانت. ليس لعائلتنا.

لا أستطيع أن أتحرّك. لا أحد فينا يستطيع. نظرت إحدانا إلى الأخرى لأننا نعرف أن واحدةً منا يجب أن تذهب، لكن يُخيَّل إليّ أنه خطرت لنا كلّنا الفكرة الغريبة نفسها، وهي أننا إذا وقفنا هناك من دون أن نتحرّك إلى الأبد والأبد، يمكننا أن نحافظ على أسرتنا كما هي. لن نستيقظ من هذا الكابوس لنكتشف أنها كانت حياةً حقيقية لشخص، ولمرة واحدة لم يكن ذلك الشخص شخصاً مسكيناً منكود الحظ يعيش في كوخ، ويمكنك أن تنساه. كانت حياةً واحدة، الحياة الوحيدة التي كانت ستكون لدينا. روث ماي الوحيدة.

حتى تلك اللحظة، كنت ما زلت أعتقد بأنّ هناك إمكانية لأن أعود إلى بلدنا والتظاهر بأن الكونغو لم تحدث في حياتنا قطّ. البؤس، الصيد، النمل،

الحرج من كلّ ما رأينا وتحمّلناه - لم تكن سوى قصص سأرويها ذات يوم وأنا أضحك وألقي بشعري إلى الخلف، عندما تكون إفريقيا بعيدة ومتخيّلة كالأشخاص المذكورين في كتب التاريخ. فالمآسي التي حدثت للإفريقيين لم تكن مآسيّ أنا. كنّا مختلفين، لا لأننا بيض ولُقِّحنا ضد الأمراض فحسب، وإنما لأننا ببساطة كنّا أشخاصاً محظوظين أكثر منهم بكثير. سأعود إلى بيتنا في بيت لحم، بجورجيا، وسأعود راشيل كما كانت في سابق عهدها، وسأكبر وأصبح زوجة أميركية هانئة، لديّ أشياء جميلة وأعيش حياة متزنة، عندي ثلاث أخوات بالغات يشاركنني مُثُلي العليا، ونتبادل الحديث على الهاتف بين الحين والآخر. هذا ما كنت أفكّر به. لم أخطّط قطّ لأن أكون شخصاً مختلفاً. لم أتخيّل قطّ أنني سأكون فتاة يتحاشون النظر إليها ويتهامسون أنها عاشت حياة مأساوية لأنها خسرت أشياء كثيرة.

أظن أن ليا وإدا تفكّران بمثل هذه الأشياء أيضاً، كلٌّ بطريقتها، لذلك لم تتحرّك أي واحدة منّا. خُيِّل إلينا أننا نستطيع أن نجمّد الزمن لدقيقة أخرى فحسب، ثم دقيقة بعدها، وخُيِّل إلينا أنه إذا لم تعترف إحدانا بما حدث، فقد نحول دون حدوث اللعنة التي ستصبح حكايتنا.

ليا

لم تنتحب أمي، ولم تلطم وتشدّ شعرها، وإنما تصرّفت كما لو أنّ أحداً آخر كان قد نقل إليها الخبر قبل أن نأتي لنخبرها.

ارتدت ثيابها بصمت، وعقصت شعرها إلى الوراء، وبدأت في سلسلة متتالية من الأشياء، بدءاً بنزع الناموسيات من فوق أسرّتنا. خفنا أن نسألها لماذا تفعل ذلك. لم نعرف ما إن كانت تريد أن نصاب بالملاريا الآن، عقاباً لنا، أم أنها فقدت صوابها فحسب. فابتعدنا عن طريقها ورحنا نراقبها. كلّنا،

حتى الوالد. لأول مرة لم تكن لديه كلمات تنير عقولنا وتحسّن أرواحنا، فلا توجد لديه قصة تحوّل موت روث ماي بلدغة الأفعى إلى درس عن مجد الله. وبدا أن أبي -الذي كانت يداه القويتان تقبضان دائماً على أي شيء يأتي في طريقه، وتشكّلانه وفقاً لإرادته- غير قادر على أن يدرك حقيقة ما حدث.

«لم تُعمّد بعد»، قال.

عندئذٍ رفعت عيني، متفاجئة من هذه الملاحظة غير المناسبة على نحو يثير الشفقة. هل هذا ما يهتمّ به الآن حقاً: ما هي حالة روح روث ماي؟ تجاهلته أمّي، لكنّي درست وجهه في ضوء الصباح المشرق. كان في عينيه الزرقاوين -خصوصاً في عينه اليسرى الحولاء التي أصبحت ضعيفة في الحرب- نظرة خاوية. وشعرت بنفور من أذنيه المحمرّتَين الكبيرتين. كان والدي مجرّد رجل قبيح بعقل بسيط.

صحيح أنها لم تُعمّد، وإذا كان أحدٌ منا يبالي بذلك، فالملامة تقع على أبي الذي دأب على القول إن روث ماي ما تزال فتاة صغيرة جداً، وليست مستعدة لتحمّل مسؤولية قبول المسيح، لكني أظن، في الحقيقة، أنه أجّل تعميدها لأنه ينوي أن يعمّدها مع الأطفال الذين كان يريد أن يعمّدهم في كيلانغا، في ذلك اليوم العظيم على ضفة النهر الذي سيحقّق فيه حلمه أخيراً. كان ذلك سيضفي شكلاً من أشكال الصدق وحسن النيّة على هذه المناسبة.

أصبح يبدو لي الآن رجلاً ضيّق الأفق ولا توجد لديه أحلام محددة. لم أستطع تحمّل النظر إليه وهو واقف عند مدخل الباب، جسده داخل إطار الباب الخشبي، من دون شيء سوى يديه عديمتي الفائدة. كان كلّ ما استطاع أن يفكّر به هو أن قال لزوجته: «لا يمكن أن يحدث ذلك».

لا يمكن أن يحدث ذلك، لكنه حدث، وبدا أن أمّنا هي الوحيدة بيننا التي أدركت ذلك. غطّت شعرها بوشاح أسود، وشمّرت كمَّي بلوزتها البيضاء المبقّعة، وراحت تؤدي عملها بتأنٍّ شديد مثل الشمس أو القمر، جرم سماوي

يتتبّع مساره عبر بيتنا. كان عملها في شؤون البيت يبعدها عنا دائماً - تلك الظلال الخالية من أي شعور، زوج وبنات ما يزالون أحياء. بهمّة كبيرة جمّعت كلّ ما تحتاج إليه من كلّ غرفة قبل أن تنتقل إلى الغرفة الأخرى، كما كانت تفعل عندما كنّا أصغر بكثير وكنّا نحتاج إليها أكثر.

خرجت إلى بيت المطبخ، أشعلت الموقد، وسخّنت وعاءً من الماء، ثمّ حملته وعادت إلى البيت وركنته على طاولة الطعام الكبيرة حيث وضع نِلسون الجسد فوق شرشف.

راحت أمي تغسل جسم روث ماي بمنشفة كما لو كانت طفلة صغيرة. وقفت موليةً ظهري إلى الحائط، تراودني ذكريات كثيرة من زمن آخر، وأنا أنظر إليها وهي تفرك بعناية شديدة تحت ذقن روث ماي وعند ثنايا مرفقيها وركبتيها. عندما كنا في بيتنا في بيت لحم، كنت أقف عادة خارج باب الحمّام وأراقبهما في المرآة. كانت أمي تغنّي لها أسئلة رقيقة وتقبّل أجوبتها في راحتَيْ يديها الصغيرتين الممدودتين. في ذلك الوقت، كنّا أنا وإدا في التاسعة من عمرنا، أكبر من أن نشعر بالغيرة من طفلة صغيرة، لكني كنت ما أزال أتساءل ما إن كانت أمي تحبّني بهذا القدر. لأنه بإمكانها أن تقسّم حبّها في ما بيننا مناصفة، نحن التوءم، لكن بالطبع إذا كانت بحاجة إليها أكثر مني.

غرّد عصفور آكل العسل(*) في الأحراش خارج النافذة. كان يبدو أنه من المستحيل أن يكون هناك يوم عادي مشرق خارج بيتنا. وضعت أمي اليد الناعمة الصغيرة على يدها وغسلت أصابعها الواحد تلو الآخر. ثم ضمّت رأسها إليها ورفعته لتغسله، وحرصت على ألّا يدخل الماء الممزوج بالصابون في عينَيْ روث ماي. وبينما كانت تجفّف شعرها الأشقر المتهدل بمنشفة، انحنت فوقها وتنشّقت رائحة فروة رأس أختي. شعرت بأني غير

(*) نوع من الطيور، يتبع رتبة العصفوريات، ويتغذّى على رحيق الأزهار، وهذا سبب تسميته بهذا الاسم. [م].

مرئية. إن رغبة أمي في أن تفعل ذلك من دون أن يراها أحد، تسببت في اختفائي، مع أنني لم أستطع مغادرة الغرفة. وبعد أن جفّفت طفلتها الصغيرة ولفّتها بمنشفة، همهمت بصوت رقيق هامس وهي تمشّط العقد المتشابكة في الشعر الندي وتجدله في ضفائر. بعد ذلك قصّت ناموسيتنا وجعلتها في شراشف طويلة وخاطتها معاً. أدركنا أخيراً أنها كانت تصنع لها كفناً.

«ليا، ساعديني على إخراج هذه الطاولة إلى الخارج!»، قالت عندما أنهت ما تفعله.

كانت تلك أول مرّة تفتح فيها فمها وتقول شيئاً منذ أكثر من نصف يوم، لأحد منّا، فقفزت لأنفّذ ما طلبته مني.

حملَتْ روث ماي إلى سريرها بينما رحنا ننقل الطاولة الثقيلة الكبيرة إلى وسط الفناء الأمامي. كان علينا أن نميلها قليلاً لنخرجها من الباب. عندما وضعناها، انغرزت قوائمها في التراب بعمق فأصبحت ثابتة، لا كما كانت في البيت تهتز. ثم دخلت أمي إلى البيت وعادت تحمل بين ذراعيها جسد أختي المغطّى. وضعت روث ماي على الطاولة برفق، وأمضت وقتاً طويلاً وهي تُدخل ذراعيها وساقيها في قطعة القماش. وامتدَّ ظلّ شجرة المانغا في الفناء، فأدركت أن الوقت كان عصراً، وقد فوجئت بذلك. رحت أنظر إلى الأشياء العديدة المألوفة، كلّ واحدة على حدة: ثمرة مانغا خضراء مخطّطة ملقاة بين الأعشاب، يدي، طاولة الطعام. بدت كلّ هذه الأشياء جديدة وكأنني لم أرها من قبل. نظرت إلى الطاولة وأجبرت عقلي على أن يقبل الكلمات: «هذه هي أختي الميّتة». لكن روث ماي كانت ملفوفة بالكثير من الطبقات الضبابية من الناموسية، فلم أستطع تبيُّن وجود أيّ شكل لطفلة ميّتة فيها. بدت كأنها سحابة متموّجة يمكن أن ترتفع وتعلو فوقنا بين الأشجار، حين تتركها أمي تذهب أخيراً.

كان نِلسون يعقد سعف شجرة نخيل معاً ليصنع قوساً جنائزياً من أوراق

الأشجار والأزهار لنضعه على الطاولة. بدا شيئاً يشبه المذبح. اعتقدت أنه يجب عليّ مساعدته، لكني لم أعرف كيف أفعل ذلك.

جاءت عدّة نساء من القرية. في البداية، وصلت ماما موانزا مع بناتها، ثم تبعتهن أخريات، عددٌ قليل في كل مرة. عندما وصلن ركعن عند حافة فناء بيتنا، وبدأن يزحفن على ركبهن نحو الطاولة. كانت تلك النسوة كلّهن قد فقدن أطفالاً، بزغت هذه الفكرة من خلال صدمتي. ألمنا الآن ليس أعظم من الألم الذي عشنه، وليس حقيقياً أو مأساوياً أكثر من ألمهن. لم يكن يختلف عنه. ركعن جميعهن حول الطاولة ولذن بالصمت لفترة طويلة. كنت أعرف أنني يجب أن أشاركهن في ذلك، لكنني شعرت أنني مقيّدة بخوف لا يمكن تفسيره من الاقتراب من الطاولة أكثر، فبقيت واقفة وراءهن.

فجأة انطلقت صيحة من إحدى النسوة، فأحسست أن جمجمتي قد انفلقت، وسرعان ما انضمّت إليها الأخريات جميعهن بصرخة بيلالا عالية مرتعشة. شعرت بالدم يجري في أجزاء جسدي الضيّقة: المعصمَين، الحنجرة، وراء ركبتَيَّ. كانت إدا تقف بجانبي وقد ابيضّ وجهها، ونظرت في عينيَّ كما لو أنها تغرق. كنّا قد سمعنا أغنية الحداد الغريبة هذه كثيراً قبل الآن، عندما هطلت أمطار غزيرة وأصيب عدد كبير من الأطفال بالمرض. خدعتنا في البداية، أكثر من مرة، فكنا نهرع إلى النافذة لنشاهد أنواع الطيور الغريبة الجميلة التي تطلق هذه الصيحة الغريبة. أما الآن، بطبيعة الحال، فلم نعد نفكّر بالطيور. فقد أطلق نحيبُ ألسنة جاراتنا سكاكينَ فصلت لحمنا عن عظمنا وجعلتنا نهبط بحزننا وحبّنا وغضبنا. لقد قُطعنا كلنا بسكّين أملنا، لأنه لو كان هناك شيء يتمناه كلّ واحد منّا، فلا بدّ أن يكون هذا: أن يعيش الأصغر سناً سنوات أطول من الأشخاص الأكبر سناً.

في أسرتنا، كان الأخير هو الأول. أريد تصديق أنها حصلت على ما كانت تريده. جلست على ركبتيَّ في التراب وارتجف جسدي، وبكيت

وفتحت فمي لأصرخ عالياً. شبكت ذراعيَّ فوق صدري ولمست أطراف كتفَيَّ، وتذكّرت عظام كتفي روث ماي الحادّة النحيلة تحت قميصها الأبيض الصغير. تذكّرت أسد النمل ولعبة «ماما هل يمكنني أن؟». وتذكّرت ظلّها المتغيّر الغريب عندما دفعتها في الأرجوحة آخر مرة. ارتفعت أصواتنا بين أغصان الشجرة إلى السماء، لكن من دون صوت روث ماي.

عندما توقّف النحيب أخيراً، لفّنا الصمت وأزيز الجراد. كان الهواء كثيفاً ومثقلاً بالرطوبة. كان يبدو مثل بطانية صوف رطبة ثقيلة جداً بحيث لا يمكنك أن تبعدها.

بدأت أمي تنقل أثاث بيتنا كلّه إلى الفناء. الكراسي أولاً، ثمّ أسرّتنا ومكتب والدي. جرّت كلّ هذه الأشياء الثقيلة وحدها، مع أنني أعرف أنها لم تكن تستطيع أن تزيحها من مكانها قبل شهرين. ظللت أراقبها من دون أن أتوقّع شيئاً محدداً عندما ظهرت ثانية وهي تحمل ثيابنا وكتبنا، ثمّ أحضرت أواني الطبخ. كدّستها كلّها فوق الكراسي وعلى المكتب. راقبت النسوة ذلك عن كثب، كما فعلت أنا وأخواتي، لكن أحداً لم يبرح مكانه. ثم وقفت أمي وراحت ترمقنا جميعاً، تنتظر. في النهاية، أخذت المقلاة الجيّدة التي كنا قد جلبناها معنا من بيتنا في البلد ودفعتها إلى يدي ماما موانزا، وأعطت بلوزاتنا وفساتيننا لأطفال ماما موانزا. قبلن هذه الأشياء بكلتا اليدين، وشكرنها ثم غادرن. وازنت ماما موانزا المقلاة على رأسها لأنها تحتاج إلى يديها لتمشي، وقادت أفراد أسرتها بمهابة بعيداً عن جنازتنا. ولمست النسوة الأخريات أغراضنا. في البداية أتاح تردّدهن الفرصة لتبادل أحاديث بينهن بحماسة وهنّ يفتّشن في أغراضنا المكدّسة، وحملن ثيابنا بلا خجل ووضعنها على صدور أطفالهن ورحن يتفحّصن الأشياء الغريبة الأخرى مثل فرشاة الشعر، ومقصّ الأظافر، وأخذن يقرعن المقالي والقدور المطلية بالمينا بعُقد أصابعهن ليختبرن قيمتها. في النهاية أخذن ما يحتجن

إليه، وغادرن. لكن الأطفال سرعان ما عادوا إذ لم يتمكّنوا من مقاومة مشهد كهذا، تماماً كما فعلوا عندما وصلنا أول مرة إلى هذا المكان، فقد خرجوا الواحد تلو الآخر من الهواء الرطب وأجمات أعواد الخيزران وشكّلوا دائرة صامتة حول محيط فناء بيتنا. أظن أنهم كانوا مندهشين مثلنا بأن أحداً من أسرتنا يمكن أن يموت. وشيئاً فشيئاً تقدّموا إلى الأمام، وأطبقوا بدائرتهم حول الطاولة، ووقفوا حولها لمدة طويلة، يحدّقون في جسد روث ماي.

عادت أمي إلى المنزل، وكان بإمكاننا سماع مواظبتها الغريبة التي لا تعرف الكلل، وهي تتحرّك في أرجاء الغرف الفارغة. لم يظهر والدنا البتّة. وبقينا أنا وأخواتي في الفناء مع الأطفال لأنهم احتضنوا وجودنا. وبدافع العادة ركعنا على الأرض، وصلّينا تلك الصلوات السخيفة التي كنّا نرددها في طفولتنا: «أبانا الذي في السماوات»، و«إذا سرت في وادي ظلّ الموت لا أخاف شرّاً». لا أستطيع أن أؤمن بأن راعياً يقودني في هذا الوادي المخيف، لكن الكلمات المألوفة حشت فمي مثل القطن، وشعرت بشيء من الراحة لأن أعرف، على الأقل، بأنّ جملة تتبع جملة أخرى. كانت هذه وسيلتي الوحيدة لمعرفة ماذا أفعل.

كلّما توقّفتُ عن الصلاة، كان طنين الجراد يصبح فظيعاً في أذنيَّ، لذلك لم أتوقّف. كانت راشيل تصلّي معي أحياناً، وكان الأطفال الكونغوليّون يصلّون أحياناً أخرى، بأي كلمات يعرفونها. تلوت المزمور 23، والمزمور 121 و100 و137 و66، والإصحاح 21 من سِفْر الرؤيا، والإصحاح الأول من سِفْر التكوين، والإصحاح 22 من إنجيل لوقا، ورسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، وأخيراً يوحنا 16:3 «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية».

ثمّ توقّفت. كان قد حلَّ المساء، ولم أعد أستطيع التفكير في صلوات أخرى. وصلت إلى نهاية كلّ ما أعرفه. رحت أنصت إلى العالم من حولي،

لكن كلّ الأصوات الأخرى صمتت، لم يعد أيّ طير يغرّد. تملّكني الرعب. بدا الهواء مشحوناً بالخطر لكنّي لم أستطع أن أكمل صلاتي، ولم أستطع أن أنهض وأفعل أيّ شيء آخر. حتى إنني لم أستطع على نحوٍ خاص أن أدخل إلى بيتنا الذي أصبح خاوياً والذي توجد فيه أمي. لا أعرف السبب. بدا ذلك مستحيلاً. فلبثت في مكاني، جاثية بجانب أخواتي ورؤوسنا مطرقة تحت طقطقة الهواء.

أنّت السماء وتصدّعت، وفجأة بدأت إبر باردة حادة من المطر تخز أيدينا وخلف أعناقنا. وهبّت عاصفة رعديّة، وبقوّة هائلة مثل عطش المحاصيل والحيوانات، انهمر المطر فوق رؤوسنا. أصبحت قطرات المطر تلسعنا بقوة، استجابةً لشهور من الصلوات من أجل أن يهطل المطر. جرى الأطفال الأصغر سناً وراحوا يقطعون أوراق شجرة أذن الفيل لاتخاذها مظلّات، ولبث معظمنا ببساطة في مكانه، نتلقى قطرات المطر المنهمر. وغنّى البرق وأصدر هسيساً حول أكتافنا، وهدرَ الرعد.

خرج أبونا أخيراً من البيت وراح ينظر إلى السماء، رافعاً يديه. وبدا أنه استغرق وقتاً طويلاً ليصدّق أنها تمطر.

«كلّم الربّ عامة الناس الذين تجمّعوا عند البئر» -قال أخيراً، بصوته الجهوري القديم الذي لا يدع أي زاوية للشكّ. كان عليه أن يصيح كي يُسمَع في وسط صوت انهمار المطر الغزير- «كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً. ولكن من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية».

لم يولِ الأطفال اهتماماً كبيراً لأبي أو للنبع الفوّار في الحياة الأبديّة. كانوا مذهولين بسبب المطر. ورفعوا وجوههم وأذرعهم إلى الماء البارد، كما لو كان جلدهم حقل مانيوك بحاجة إلى الماء.

صاح أبي: «إن عطش أحد فليُقبل إليّ ويشرب. من آمن بي، كما قال

الكتاب، تجري من بطنه أنهارُ ماءٍ حيّ»، واتجه نحو فتى طويل القامة يقف بجانبي، الأخ غير الشقيق لباسكال. كنت قد تكلّمت معه مرّتين وعرفت أن اسمه لوشِن. أنا متأكّدة من أن أبي لا يعرف اسمه، ومع ذلك مدَّ يده البيضاء الكبيرة ونشر أصابعه فوق رأس الفتى. نظر لوشِن في عين أبي كما لو كان يتوقّع أنه سيضربه، لكنّه لم يتراجع.

«أنا صوتٌ صارخ في البرية: قوِّموا طريق الرب!» -صاح أبي- «أنا أعمّد بماء، ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه، هوذا حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم!».

خفض أبي يده وأغلق أصابعه برفق فوق رأس لوشِن.

«باسم الآب والابن والروح القدس، أعمّدك يا بني. تقدّم إلى النور!».

لم يتحرّك لوشِن من مكانه. رفع أبي يده عنه وانتظر، كما أظن، كي تحدث معجزة المعمودية. ثمّ التفت إلى أخت لوشِن الصغيرة، بوانغا، التي كانت تمسك بيد لوشِن تشبّثاً بالحياة الغالية. فقد ماتت أمّهما في أثناء تفشي المرض، فأخذتهما زوجة أبيهما الأخرى -أمّ باسكال- إلى بيتها. وطوال هذا الوقت من الفقدان والخلاص، ظلّت بوانغا صديقة روث ماي الأكثر ولاءً. حتى إن أبي لا يعرف ذلك. شعرت بيأس فظيع لا يُوصف، فهو لا يعرف شيئاً عن بناته. وتحت يده المكوّرة بدا رأس بوانغا الصغير الأصلع صغيراً مثل ثمرة أفوكادو ناضجة، وكان هو يستعد لرميها بعيداً. وقفت الفتاة في مكانها ساكنة تحدّق بعينيها الواسعتين.

«باسم الآب والابن والروح القدس» - كرّر، ثم أطلق سراحها.

«ماه - داه - ميي - أي؟» سألت بوانغا.

تذكّر أطفال آخرون هذه اللعبة وردّدوا: «ماه - داه - ميي - أي؟». تركت عيونهم أبي واستقرّت على جسد روث ماي داخل غيمة الشِّباك المبللة على الطاولة. وراحوا يكرّرون بصوت واحد متصاعد: «ماما هل يمكنني أن؟»،

ومع أنهم كانوا يعرفون بالتأكيد أنه لن يُسمح لهم، واصلوا أنشودتهم الناعمة والثابتة لفترة طويلة تحت المطر المنهمر. علق الماء في رموشهم وجرى في جداول أسفل وجوههم. والتصقت ثيابهم القليلة التي فرضها عليهم الأجانب بصدورهم النحيفة وسيقانهم، وبدت كأنها جلدٌ ثانٍ مستعدٌّ أخيراً ليتوافق مع شكل أجسادهم. وأصبح التراب فوق أقدامنا بلون الدم وأظلمت السماء، بينما راح أبي يتحرّك حول الدائرة يعمّد كلّ طفل، واحداً تلو الآخر، مناشداً سلالة كيلانغا الحيّة أن تتقدّم نحو النور.

الكتاب الخامس

الخروج

... فانقلوا عظامي معكم من هنا،
وارتحلوا... ونزلوا في طرف البريّة...
ولم يبرح عمود السحاب نهاراً وعمود النار ليلاً.

الخروج 13: 19-22

أورليانا برايس

جزيرة ساندرلينغ، جورجيا

ما دمت أتحرّك، فإن حزني يجري خلفي مثل شعر طويل لامرأة تسبح في الماء. أعرف أن الثقل موجود هناك لكنّه لا يلمسني. عندما أتوقّف فقط تطفو الكتلة المظلمة حول وجهي، وتتشبّث بذراعي وحنجرتي حتى أبدأ أغرق. لذا أنا فقط لم أتوقّف.

جوهر الحزن ليس خيالياً. إنه حقيقي مثل الحبل أو مثل انعدام الهواء، ومثل هذين الشيئين يمكن أن يقتلك. أدرك جسدي أنه لا يوجد مكان آمن أستطيع أن ألجأ إليه.

جسد الأم يتذكّر أطفالها - طيّات اللحم الطرية، فروة الرأس تضغط على أنفها. كلّ طفلٍ يمتلك مناشدته الخاصة للجسد والروح، مع ذلك فإن الابنة الأخيرة هي التي تستحوذ على جميع مشاعرك. لا أجرؤ على القول إنني أحبّ بناتي الأخريات أقل مما أحبّها، لكن بناتي الثلاث الأوائل جئن بغتةً، وفي آن معاً، فأرعبتني الأمومة. أنجبت التوءم عندما كانت راشيل لا تزال تتعلّم كيف تمشي. ما حدث بعد ذلك بصعوبةٍ أتذكّره، سنوات كاملة حاربت فيها كلّ يوم لأطعم تلك الأفواه، حتى أستطيع أن أرتمي على السرير لبضع ساعات وأحلم بأنني أؤكل حيّة في لقيمات صغيرة. كنت أعدّ حتى

المئة وأرتعش، أستجمع كلّ الصبر حتى أنتهي من واحدة وأبدأ بالأخرى. فمٌ مغلق على ملعقة يعني أن هناك اثنين فارغين يبكيان، والريش يتطاير، فأندفع ذهاباً وإياباً مثل الطائر الأم التي أرسلت لها الطبيعة الساخرة الكثير من الفراخ. لم أكن أتخيّل أنني سأعيش إلّا بعد أن تستطيع البنات الثلاث الاعتماد على أنفسهن. فقد كنّ جميعهن محطّ اهتمامي الأول. كنت آخذ نفساً عميقاً عندما أخطو كلّ خطوة يأخذنها منّي. هذا ما يحدث مع الطفل البكر، أيّاً تكن تلك الأمّ - فقيرة أم غنية، منهكة حتى الموت أم راضية وقانعة. إن الطفل الأول هو أفضل قدم تتقدّمين بها إلى الأمام، وتبتهجين عندما تنطلق تلك الأقدام الصغيرة. تتفحّصين كلّ تغيّر يطرأ على ذلك الجسد كي تلاحظي النضج المبكر وتنقليه ببهجة شديدة إلى العالم.

أما الابنة الأخيرة: الطفلة التي تركت وراءها رائحتها مثل راية استسلام طوال حياتك، فلن يكون هناك من يأتي بعدها. أوه، هذا هو الحبّ لكن باسم مختلف. إنها الفتاة الجميلة الصغيرة التي تحملينها بين ذراعيك لساعة، بعد أن تكون قد غطّت في النوم. لكن عندما تضعينها في سريرها، تستيقظ ويتكدّر مزاجها، وتبدأ تبكي بصوتٍ عالٍ، فتضطرّين إلى هزّ سريرها الذي بجانب النافذة، تتشرّبين الضوء من بشرتها، تتنفّسين الأحلام التي تزفرها، ويهفو قلبك لِهِلالَيْ رمشيها المطبقين على خدّيها. إنها الطفلة التي لا يمكنك أن تتركيها.

طفلتي الحبيبة، دمي، حقيقتي الأكثر صدقاً: لا تُلحِّي عليّ أن أتركك وأرجع عنك، لأنه حيثما ذهبتِ أذهبُ، وحيثما بتِّ أبيتُ. حيثما متِّ أموتُ، وهناك أندفن(*).

بغريزتي، لا بإرادتي، بقيت على قيد الحياة. حاولت أن أهرب من الحزن. لم أكن روحاً وإنما الجسد هو من حرّكني من مكان إلى آخر. أراقب

(*) سِفر راعوث 1:16-17. [م].

يديَّ، أستمع إلى فمي وهو يصدر أوامر. أتفادى الزوايا والسكون، وعندما كنت أتوقّف قليلاً لآخذ نفساً، أقف في وسط الغرفة أو أخرج إلى حديقة البيت حيث تتلألأ الأشجار وترقص كما لو كانت تحترق تحت قطرات المطر الغزير، تطلب مني أن أستمرّ، أستمرّ. وعندما أُخرجت طاولتنا إلى فناء البيت وقد سُجّيت فوقها ابنتي، لم أعد أرى أيَّ معنى في أيّ شيء، والشيء الوحيد الذي بدا معقولاً لي هو أن أُخرِج بقية الأغراض. هذا الكمّ الكبير المحيّر من الأشياء التي تملكها أسرة واحدة فقط، والتي أصبح يبدو أنه لم يعد لها فائدة الآن. نقلت الثياب والخشب والمعادن التي في بيتنا وكدّستها معاً. وتملّكني شعور بالراحة لأن أتخلّص من هذه الأشياء، لأنني بحاجة إلى الحقيقة والنور حتى أتذكّر ضحكة ابنتي الحبيبة. وكانت هذه الأشياء تشوّش طريقي. شعرت براحة كبيرة عندما وضعت كلّ هذه الأشياء في أيدي النسوة اللاتي يحملن العبء الذي أحمله. كانت حاجتهن الشديدة تجعلني أدوخ: إذ ستتحوّل ثيابي إلى ستائر، وستائري إلى ثياب، ومنشفة الصحون إلى حفّاظة أطفال. وستصبح علب الطعام الفارغة مصابيح تضيء بزيت النخيل، وربما تتحوّل الألعاب إلى شفرات محاريث - من يعرف؟ منزلي سيمرّ عبر الجهاز الهضمي الكبير في كيلانغا ويتحوّل إلى معالم غير مرئية. كانت معجزة أن أرى حركتي البسيطة مضخّمة. عندما تخلّيت عن كلّ شيء مدّت الأشجار ألسنتها الملتهبة وتوهّجت تعبيراً عن موافقتها.

أصبحت الحركة كلّ هدفي. وعندما لم يبقَ شيء أحرّكه سوى نفسي، مشيت حتى نهاية القرية ولم أتوقّف، مع مجموعة كبيرة من الأطفال معلّقين ورائي. لم يكن هناك شيء يمكنني أن أفعله سوى المغادرة، سالا مبوته! سرت على قدمَيَّ لأنني ما أزال أمتلك قدمين يمكنهما أن تحملاني.

واضحٌ وبسيط، كان ذلك سبب خروجنا: يجب عليّ الاستمرار في الحركة. لم أخطّط لترك زوجي. يمكن أن يرى أي شخص أنه كان عليّ فعل

ذلك منذ زمن طويل، لكنّي لم أكن أعرف كيف. لأن النسوة مثلي، على ما يبدو، ليس عليهن تولّي مسؤوليات البدايات والنهايات. فلسن من يتقدّمن لطلب الزواج، ولا الوصول إلى أعلى القمم، ولسن من يطلقن الطلقة الأولى ولا الأخيرة أيضاً - المعاهدة التي أُبرمت في أبوماتوكس(*)، السكّين في القلب. ليكتب الرجال هذه القصص، فأنا لا أستطيع أن أكتبها لأنني لا أعرف إلّا الأرض الوسطى التي نعيش عليها. نصفّر بينما روما تحترق، أو نفرك أرضية البيت، أو نفعل أي شيء. لا تجرؤ على افتراض أن هناك عاراً يلحق بمصير المرأة التي تواصل طريقها. فعندما قررت اللجنة المؤلّفة من الرجال اغتيال الكونغو الوليدة، ماذا كانت ماما موانزا تفعل؟ هل كان اليوم التالي سيكون مختلفاً؟ طبعاً لا. هل كانت غبية في تلك اللحظة، أم أنها كانت العمود الفقري للتاريخ؟ فعندما تسقط حكومة، تسحق كلّ من يعيش تحت سقفها، مع أن أشخاصاً مثل ماما موانزا لم يعرفوا أصلاً أنه كان يوجد منزل! الاستقلال كلمة معقّدة بلسان أجنبي. لمقاومة الاحتلال، سواء أكنت شعباً أم مجرّد امرأة، يجب أن تفهم لغة عدوّك. الغزو والتحرير والديمقراطية والانفصال كلمات تعني اغتصاب، استيلاء، خصوصاً عندما يكون أطفالك جائعين، وهناك ثياب يجب أن تُخرج وتُنشر على الحبال، فيما يبدو أنها ستمطر.

لعلّك ما زلتِ لا تفهمين سبب بقائي هنا طوال هذه المدة. ومع أنني على وشك أن أنهي حكاية الشطر المتعلّق بي من القصّة، فإني لا أزال أشعر بعينيك المستديرتين الصغيرتين تحدّقان بي. أتساءل ما هو الاسم الذي ستطلقينه على الخطيئة التي ارتكبتها: تواطؤ؟ ولاء؟ غباء؟ كيف تعرفين

(*) أبوماتوكس Appomattox: قرية في ولاية فرجينيا في الولايات المتحدة الأميركية، حيث استسلم جيش الولايات الكونفدرالية بقيادة الجنرال روبرت لي Robert E. Lee، أمام جيش الاتحاد بقيادة الجنرال يوليسيس غرانت Ulysses S. Grant، منهياً الحرب الأهلية الأميركية في 9 نيسان 1865. [م].

الفرق بينها؟ هل خطيئتي عدم الفضيلة، أم عدم الكفاءة؟ كنت أعرف أن روما تحترق، لكن بصعوبة كانت لديّ كمية كافية تقريباً من الماء لأفرك أرضية البيت، فبذلت كلّ ما بوسعي. إن المواهب التي أمتلكها تختلف عن مواهب النسوة اللاتي ينفصلن عن أزواجهن في أيامنا هذه - وقد يكون من الصعب التعرّف على فضائلي. لكن انظري إلى تلك النسوة العجائز ولا تنسَي أننا نعيش في بلد آخر. مكتبة سُر مَن قرأ

عندما تزوّجنا كانت آمالنا بسيطة: لا تتجاوز أن نأكل جيّداً وننجب أطفالاً ليعيشوا حياة أطول من حياتنا. لم تكن حياتي أكثر من تنمية ما زرعته، والوفاء على أفضل نحوٍ ممكن بالواجبات التي فرضتها عليّ الحياة. كانت الرفقة والبهجة تأتي فجأة، وبشكلٍ غير متوقّع، في أحيان كثيرة، في لحظات صغيرة متفجّرة، عندما كنت بعيدة عن زوجي وبناتي: قبلة شمس مشرقة بلون اللحم تغمرني عندما أنشر الغسيل، تنهيدة طيور نيلية اللون تنبعث من بين الأعشاب. حيوان آكاب في الماء. لم يخطر في بالي أن أترك ناثان بدافع التعاسة، كما لم يترك تاتا موانزا زوجته المعاقة، مع أنه كان بإمكانه أن يتزوّج امرأة تتمتع بصحة أفضل، تستطيع أن تزرع المزيد من المانيوك وتبقي المزيد من أطفاله على قيد الحياة. كان ناثان شيئاً حدثَ لنا، شيئاً مُدمّراً مثل السقف الذي احترق وسقط فوق رؤوس عائلة موانزا. مع مصيرنا المصاب بندوبٍ من نار جهنم والكبريت، ما يزال يتعيّن علينا الاستمرار في طريقنا، وحدث أخيراً بنعمة نار جهنم والكبريت أنه وجَبَ عليّ الاستمرار في الحركة، وظلّ هو ساكناً.

هذا النوع من الناس ينتهي بهم الأمر دائماً بالخسارة، كنت أعرف ذلك، وعرفت سبب ذلك الآن. سواء أكانت زوجة أم بلداً يحتلّونها، فإنهم يرتكبون الخطأ نفسه: يقفون بثبات، بينما تميد الأرض تحتهم. «مات فرعون» -يقول سِفْر الخروج- «وتنهّد بنو إسرائيل من العبودية وصرخوا».

السلاسل تصلصل، والأنهار تجري، والحيوانات تجفل وتثب، والغابات تتوسّع، ويخرج الرضّع فاغرين أفواههم من أرحام أمهاتهم، شتلات جديدة تقوّس رقابها وتزحف نحو الضوء. حتى اللغة لا تقف ساكنة. أرضٌ تُمتلَك فقط للحظة من الزمن. إنهم يجازفون بكلّ شيء في تلك اللحظة، يأخذون أوضاعاً لتُلتقط لهم الصور وهم يثبّتون الراية، ويضعون صورهم في لوحات ذات إطار برونزي. واشنطن يعبر نهر دالوير. يُستولى على أوكيناوا. إنهم مستميتون للتشبّث.

لكنّهم لا يستطيعون، فحتى قبل أن تبدأ سارية العلم بالتقشّر والتشقق، فإن الأرض تتقوّس تحت أقدامهم وتنزلق إلى الأمام، إلى مصيرها الجديد. قد تحمل آثار الأحذية على ظهرها، لكن تلك الآثار تصبح ملكاً للأرض. ماذا تتذكّر أوكيناوا من سقوطها؟ ممنوعةً من صنع آلات الحرب، بدأت اليابان تصنع السيارات بدلاً من الأسلحة وكسبت العالم. كلّ شيء يمضي إلى الأمام. ما يزال نهر دالوير العظيم يجري، فيما السيّد واشنطن نفسه لم يعد حتى ما يمكن أن تسمّيه «سماداً جيّداً». أما نهر الكونغو -لكونه من مزاج مختلف- فقد أغرق معظم الغزاة في الحال. في الكونغو، سرعان ما تتحوّل غابة اجتُثّت أشجارها إلى حقل مليء بالزهور، وتصبح الندوب هي الحلي التي تزيّن وجهاً معيّناً. سمّيه ظلماً، تواطؤاً، غباءً، أطلقي عليه ما تشائين، لا يهمّ. فقد ابتلعت إفريقيا موسيقا المحتلّين، وبدأت تنشد أغنية جديدة خاصة بها. إن كنتِ العيون في الأشجار تراقبيننا ونحن نبتعد عن كيلانغا، فكيف ستحكمين علينا؟ بعد ثلاثين سنة يعرف الله أنني ما زلت ألتمس مغفرتك، لكن من أنت؟ قبرٌ صغير في وسط حديقة ناثان انتشرت فوقه النباتات المتشابكة والأزهار منذ أمد بعيد لتُطعم الحشرات والأطفال. أهذا ما أنتِ عليه؟ أما زلتِ لحمي ودمي، آخر مولودٍ لي، أم أصبحت الآن جزءاً من لحم إفريقيا؟ عندما يندمج فرعان ويتدفّقان في نهرٍ واحد، كيف يمكنني التمييز

بينهما؟ حاولي أن تتخيّلي أن ذلك لم يحدث قطّ: أسرتنا من دون إفريقيا، أو إفريقيا وما كانت ستصبح عليه من دوننا. انظري إلى أخواتك الآن: «قفل، ومخزون، وسبطانة»(*): كلّ واحدةٍ منهن وجدت طريقتها الخاصة للعيش مع تاريخنا. يمكن للبعض أن يجدها، لكن كثيرين لن يجدوها أبداً. لكن من منا بلا خطيئة؟ بما أنني أكاد لا أستطيع التفكير في مكان أرمي فيه أحجاري(**)، فإني سأستمر في ندب الخسائر التي تكبّدتها، أحاول أن أضع آثار الحذاء على ظهري برشاقة كما تضع الكونغو آثار الحذاء على ظهرها.

يا وحشي الصغير، عينَيَّ، ابنتي الأثيرة المسروقة، أنصِتي! أن يعيش المرء يعني أن يكون موسوماً. أن يعيش يعني أن يتغيّر، أن يكتسب كلمات قصّة، وهذا هو الاحتفال الوحيد الذي نعرفه نحن البشر حقاً. لأكون صادقة: في السكون التام لم أجد إلا الأسى.

(*) في الأصل: lock, stock and barrel، وهو تعبيرٌ يعني: كل شيء بالكامل. لكننا فضّلنا ترجمته هنا ترجمة حرفية، لسبب سيتبيّنه القارئ في ما بعد. وعموماً اشتُق هذا التعبير من الأجزاء الثلاثة الفعّالة في البندقية: آلية القفل أو الإطلاق، المقبض أو المخزن، السبطانة أو فوهة البندقية. [م].

(**) إشارة إلى حادثة وردت في الإنجيل، عندما قبض الناس على امرأة زنت، وأرادوا رجمها حتى الموت، قال لهم يسوع: «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر!»، فغادر الجميع. [م].

ما أخذناه

ليا برايس

بولونغو، أواخر موسم الأمطار 1961

لم نأخذ إلّا ما كان بإمكاننا أن نحمله على ظهورنا. لم تلتفت أمي خلفها البتّة. لا أعرف ماذا كان يمكن أن يحدث لنا، لو لم تجلب لنا بنات ماما موانزا اللاتي ركضن وراءنا، بضع حبات من البرتقال ودمجانة ماء. كنّ يعرفن أننا سنعطش مع أنّ المطر كان يهطل غزيراً، ويبلّل قمصاننا حتى ظهورنا ويُشعرنا ببرد شديد. وبدا لنا أن الشعور بالعطش مجدداً أمرٌ غير وارد، إما أننا لم نشهد أمطاراً كهذه قطّ، وإما أننا نسينا. وبعد ساعات قليلة من هبوب العاصفة، تحوّل الدرب الجاف الذي يمرّ عبر قريتنا إلى مجرى من الطين، أحمر قانياً بلون الدم، ينبض مثل شريان. لم نستطع مواصلة السير، وبصعوبة استطعنا الحفاظ على أقدامنا على الضفاف المكسوّة بالأعشاب على الجانبين. البارحة فحسب كنا سنفعل أي شيء كي يهطل المطر، وها نحن الآن نرجو العكس أمام هذا الطوفان. تمنّينا لو كان لدينا زورق، لركبناه واتجهنا مباشرة إلى ليوبولدڤيل. هذه هي الكونغو: إما مجاعة وإما فيضان. لم تتوقّف الأمطار عن الهطول منذ ذلك الحين.

في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، بينما كنا نمشي بتثاقل على طول الطريق، لمحنا باقة ورد زاهية الألوان تلمع بخفوت عبر المطر، وسرعان ما أدركت أنها النجمة الوردية الضخمة المرسومة على ردف ثوب ماما بواندا، كانت واقفة مع ماما لو، وعدّة نساء أخريات على جانب الطريق، يحتمين تحت أوراق أشجار أذن الفيل، منتظرات انتهاء هذه النوبة الشعواء من المطر. أشرن إلينا لنأتي إلى ملجئهن، فانضممنا إليهن مذهولاتٍ بالمطر. من الصعب التصديق بأن مياهاً على الأرض يمكنها أن تكون بهذه القوة والنقاء. عندما مددت يدي لم أرها عند نهاية ذراعي. كان الضجيج فوق رؤوسنا هديراً أبيض جمعنا معاً في هذا الملاذ الصغير بين أوراق الشجر. تركت عقلي يسرح إلى اللامكان اللطيف ورحت أتنشّق رائحة الفول السوداني والمانيوك. رائحة الهَوَس. كانت أغصان شعر ماما بواندا المنتصبة تقطر ماء من أطرافها مثل حديقة صغيرة من المرشّات التي ترشح.

عندما بدأ المطر يخفّ، انطلقنا معاً. كانت النسوة يحملن على رؤوسهن صرراً من أوراق المانيوك وأشياء أخرى، طعام يأخذنه إلى أزواجهن في بولونغو، كما قلن، حيث يُعقد اجتماع سياسي هام. وكانت ماما لو تحمل كذلك زيت نخيل لبيعه في بولونغو. كانت تضع على رأسها، بتوازن شديد، علبة زيت مستطيلة كبيرة، بينما تتجاذب أطراف الحديث معي، وكان يبدو أنها مرتاحة تماماً، فحاولت أن أضع دمجانة الماء البلاستيكية على رأسي، ولدهشتي وجدت أنني استطعت أن أبقيها فوق رأسي ما دمت أسندها بيد واحدة. فخلال إقامتنا في الكونغو كنت أُدهش عندما أرى السيّدات يحملن على رؤوسهن أشياء هكذا، لكن لم أجرّب ذلك بنفسي قطّ. يا له من اكتشاف، يمكنني أن أحمل رزمتي مثل أيّ امرأة هنا. وبعد أميال قليلة، لم أعد أشعر بالثقل فوق رأسي إطلاقاً.

مع عدم وجود رجالٍ في الجوار، كانت النسوة في غاية المرح،

وقد انتقل إلينا مرحهن بالعدوى. فرحنا نضحك على المظهر غير اللائق الذي نبدو فيه عندما نعلق في الطين. وبين الحين والآخر، كنّ يغنّين معاً في دفقاتٍ صغيرة، بطريقة السؤال والجواب. ولمّا تعرّفت على اللحن، انضممت إليهن. لقد نجحت بعثة أبي في شيء واحد على الأقل وهو أن الكونغوليين أحبّوا موسيقانا. فقد كان بإمكانهم عمل معجزات في أغنية «جنود الصليب» بلغتهم المحلّيّة. حتى تلك التراتيل المسيحية الكئيبة –«لا أحد يعرف المعاناة التي رأيتها»– بدت حيوية ومتفائلة عندما كانت تخرج من القصبات الهوائية لتلك النسوة وهنّ يمشين الهوينى على الدرب: «ناني أوزي مباسي زازو! ناني أوزي مباسي». لقد عشنا معاناةً لا توصف، لكن، في تلك اللحظة، عندما بدأنا نسير معهن تحت المطر الذي كان يسيل من أطراف شعرنا، شعرنا كأننا في مغامرة كبيرة معاً. وبدا لنا أن حزن أسرتنا، عائلة برايس، ينتمي إلى زمن آخر ولم نعد نفكّر به. ومرة واحدة فقط شعرت بأنني أنظر من حولي باحثةً عن روث ماي، متسائلة عمّا إذا كانت تشعر بالدفء أم أنها تحتاج إلى قميصي الإضافي، ثمّ تساءلت بدهشة: لماذا روث ماي ليست معنا؟ بدا الأمر بسيطاً جداً: كنّا نسير على هذا الدرب ولم تكن معنا.

هام فكري في الكثير من الأشياء إلى أن وجد أناتول. كانت تدور في رأسي أفكار غريبة تُثقل عليّ، وكانت بي حاجة ماسّة لأحكيها له. أريد أن أخبره مثلاً أن الجزء الداخلي من فم أفعى المامبا الخضراء أزرق سماوي نقي. وأننا نثرنا رماداً على الأرض كما فعل دانيال، وأننا شاهدنا آثار القدم ذات الأصابع الست الذي لم أذكره لأحد، قد لا يكون أناتول في مأمن في كيلانغا أكثر مما كنا. لكن ربما لا يوجد أحد آمن هناك بعد أن انقلبت أشياء كثيرة رأساً على عقب. ما الذي يهدف إليه الاجتماع السياسي الذي يعقدونه في بولونغو؟ من هو الرجل السرّي الذي رأته إدا في كوخ أكسلروت، والذي

كان يضحك على أوامر من الرئيس آيزنهاور؟ هل كانوا يريدون حقاً أن يقتلوا لومومبا؟ عندما كنا نمشي في الغابة سمعنا صوت إطلاق نار من بعيد، لكن لم تتحدّث أيٌّ من النساء عنه، لذا لم نقل شيئاً نحن أيضاً.

كان الدرب يسير بمحاذاة نهر كويلو عكس التيار. أمضيت سنة في كيلانغا أفكّر في أن الحضارة تقع عند المصبّ لأنه الاتجاه الذي تسير فيه القوارب إلى بانينغفيل. وعندما خرجت أمي من القرية وسألت جاراتنا عن الطريق المتجهة إلى ليوبولدفيل قلن لها إن أفضل طريق هو أن تسير باتجاه أعلى النهر، وأننا سنصل إلى بولونغو بعد يومين حيث يلتقي الدرب بطريق أوسع يتجه غرباً نحو العاصمة. وقالت جاراتنا إننا سنجد هناك شاحنات قد توصلنا إحداها. وعندما سألتهن أمي ما إن كنّ قد سلكن هذا الطريق إلى ليوبولدفيل قبل الآن، راحت الواحدة تنظر في وجه الأخرى، وقد استغربن هذا السؤال الغريب. لا. كان الجواب: لا، فلا يوجد لديهن سبب ليسلكن ذلك الطريق، لكنّهن على يقين من أننا سنستمتع برحلتنا.

في الواقع، ملأ الطين أحذيتنا وتلوّثت ثيابنا بالوحل، وكانت رحلتنا أبعد ما يكون عن المتعة، فقد فقّس البعوض الذي كان هاجعاً طوال فترة الجفاف، وارتفع من أرض الغابة في سحابات كثيفة ملأت أفواهنا وفتحات أنوفنا. وتعلّمت كيف أزمّ شفتيَّ وأتنفّس ببطء من بين أسناني كي لا يخنقني البعوض. وعندما كان يغطّي أيدينا ووجوهنا بلدغات حمراء كان يتسلل من أكمامنا ويلدغنا تحت آباطنا كالإبر، فنهرش أجسامنا بقوة. وكانت أعداد كبيرة من البعوض تصعد دائماً من الدرب كأنها أعمدة دخان عظيمة، تطير أمامنا وكانت تخيفنا كثيراً. ولكن بوضع قدمٍ أمام الأخرى، فقد قطعنا في يوم واحد مسافة أطول بكثير مما فكّرنا الذهابَ من قبل.

بعد حلول الظلام بقليل، وصلنا إلى قرية صغيرة تدعى كيالا. دعتنا ماما بواندا إلى البيت الذي تعيش فيه أمّها وأبوها مع أختين عازبتين، بدا أنهما

أكبر من ماما بواندا بعشرين سنة. ولم نتأكّد مما إن كنّ أخواتها أم خالاتها، أو أي شيء آخر. لكننا سررنا لأننا ابتعدنا عن المطر! لا أظن أن الأبقار التي تنجو من الذبح من الممكن أن تكون أكثر سعادة منا. وجلسنا القرفصاء حول وعاء العائلة الكبير وتناولنا فوفو وخضراوات نساكي بأصابعنا. وكان والدا ماما بواندا العجوزين يشبهان أحدهما الآخر إلى درجة كبيرة، فقد كان حجمهما ضئيلاً، وكانا أصلعين وبلا أسنان تقريباً. حدّق تاتا خارج المدخل بلا اكتراث، لكن الأم اهتمّت وكانت تومئ بجدّية، بينما كانت ماما بواندا تحكي قصة طويلة جداً، ثم أدركنا أنها تحكي عنّا عندما سمعنا كلمة نيو كا -أفعى- عدة مرات، وكلمة «يسوع» أيضاً. عندما أنهت كلامها راحت المرأة العجوز تتفحّص أمي طويلاً وهي تلفّ، وتعيد لفّ الباني الأزرق الباهت اللون فوق صدرها المسطّح، وبعد فترة تنهّدت وخرجت، ثم عادت بعد قليل وبيدها بيضة مسلوقة أعطتها لأمي وأشارت إلينا بأن نأكلها. فقشّرت أمي البيضة وقسّمناها في ما بيننا في حين راح الآخرون يراقبوننا عن كثب كما لو كانوا يتوقّعون أن يروا نتائج فورية علينا. لا أعرف ما إن كانت هذه البيضة الثمينة علاجاً خاصاً للحزن، أم أنهم كانوا يظنون أننا بحاجة إلى بروتين كي نتمكّن من مواصلة رحلتنا المخيفة.

كانت أجسادنا ترتجف من شدة الإعياء. فقد جعل المطر والطين كلّ ميل أشبه بعشرة أميال، وحلّت الرعشة التشنّجية محلّ الطرف الضعيف لدى إدا، وبدا أن راشيل في غيبوبة. وقالت المرأة العجوز لابنتها إنها تخشى أن تموت الضيفات في بيتها، وهذا يعني فألاً سيئاً، لكنّها لم تطردنا من بيتها، وشعرنا بالامتنان لها، وبحركات بطيئة بذراعيها النحيفتين العظميّتين، اقتلعت عيداناً من كومة بجانب الباب وأشعلت ناراً لنتدفأ داخل الكوخ. ومع أن الدخان جعلنا نتنفّس بصعوبة، فقد أراحنا قليلاً من البعوض. لففنا أنفسنا في أقمشة باني إضافية أُعطيت لنا كبطانيات، واستلقينا على الأرض ونمنا بين الغرباء.

كانت الليلة حالكة الظلام. عندما كنت أسمع المطر يتساقط فوق سقف القشّ وبعض قطرات المطر تتسرّب منه إلى داخل البيت، تذكّرت أبي. «يقولون إنك سقفت سطح بيتك بالقش وعليك الآن ألّا تغادر بيتك عندما يهطل المطر». أبي لم يعد معنا. أبي وروث ماي، كلاهما. بهذه البساطة. بدأ عقلي يؤلمني مثل عظمة مكسورة عندما حاولت أن أقف في المكان الجديد الذي وجدت فيه نفسي. كنت أعرف أنني لن أرى أختي الصغيرة ثانيةً، لكنّي لم أفكّر بعد بفقدان أبي الذي سرت على خطاه طوال حياتي، والآن -من دون سابق إنذار- سقط جسدي فجأة وراء أمّي، المرأة التي كان جانبها وفكّها يلمعان كبلورات الملح وهي جالسة حول النار مع النساء الأخريات، عيناها الشاحبتان تحدّقان في مكانٍ بعيد لا يستطيع أن يلحقنا إليه. كان هذا مؤكّداً، فهو لن يترك مكانه ويلحق بنا، لأنه لا يستطيع أن يقدم على أي عمل قد يعتبره ربّه جبناً. ولا أظن أنه يوجد ربّ، في أيّ قلب على وجه هذه الأرض، أكثر ترصّداً للضعف البشري من الربّ الذي يؤمن به.

من بين الأمطار الرعدية، تناهت الكلمات إلى أذني بصوت أناتول الهادئ: يجب ألّا تخرجي من بيتك عندما يهطل المطر. لقد فسّر أناتول غضب قرية بجملةٍ هادئة واحدة تستطيع أن تسمّر رجلاً قوي الإرادة على الأرض. من المثير للدهشة كيف أن أمي وأبي تصلّبا، بطريقتين مختلفتين، عندما استحالا أحجاراً.

تخيّلته ما يزال واقفاً في الفناء، متسمّراً تحت الطوفان، يعمّد دائرة لا نهاية لها من الأطفال الذين سينسلّون ويعودون بوجوه جديدة تطلب مباركته. لن أفهم أبداً حجم مهمّة أبي في هذا العالم. الحجم، أم الغلوّ الرهيب؟ كنت أغفو وأصحو من النوم بتأثير حلم غريب ثقيل، فكان عليّ أن أتحرّك لأحرّر نفسي. جبلٌ من البيض المسلوق استحالوا أطفالاً عندما لمستهم بيدي، أطفال بعيون داكنة، وجوههم تستجدي حفنة من مسحوق

الحليب وثيابي وأيّ شيء يوجد لديّ. لكنّي لم أجلب شيئاً يمكنني أن أعطيه لكم، قلت لهم، وهبط قلبي ثقيلاً كالرصاص، لأنه سواء أكانت كلماتي هذه صادقة أم كاذبة، فهي فظيعة وخاطئة. وكلّما غفوت غصت ثانية في الرائحة الرطبة المحمومة واليأس الأزرق الداكن لهذا الحلم المفزع. وفي النهاية، نفضته عن كاهلي واستلقيت من دون نوم، ألفّ حول كتفي قطعة قماش قطنية رقيقة تفوح منها رائحة عرق ودخان. مستنفدة الصحبة، رحت أنصت إلى المطر الذي كان يهطل بغزارة، وقلت لنفسي لن أسير على خطا أحد بعد الآن. كيف يمكنني أن أتبع أمي الآن وأهرب مما فعلناه؟

لكن بعد ما فعلناه، كيف يمكنني البقاء؟

***

لم نصل إلى بولونغو في اليوم الثاني، وفي اليوم الثالث أُصبنا بحمّى. فقد استسلمت أجسادنا أخيراً لهجمات البعوض الكاسحة. طوال تلك الشهور كنت أتخيّل الملاريا عدوّاً سرياً، شبحاً، أما الآن، بعد أن أصابتني، فقد أصبحت حقيقة واقعة مثل أيّ شيء. وشعرت بالسمّ يجري في دمي مثل عسل ملوّث كثيف. تصوّرت أن لونه أصفر. في البداية، شعرت بالرعب، مرتجفةً من البرد والهلع الذي أصاب قلبي، الذي بدا كأنه يغرق مع ارتفاع السمّ في صدري. لكن حتى لو كنت أستطيع التعبير عن خوفي بكلمات، فلم يكن هناك أحد يسمعها. وغطّى صوت المطر الذي يسقط فوق رؤوسنا على جميع الأصوات الأخرى، وواصلنا السير من دون توقّف، وقد تملّكنا الإعياء وأكثر منه بكثير. ومع الوقت أصابني هدوء ثقيل، غريب. تخيّلت طفيليات بلون العسل تحتفل في أعضاء جسدي الذهبية، فأتجمّد حيناً وأحترق حيناً آخر. وعندما اكتشفت أن وجهي حارّ مثل موقدٍ متّقد، استعملته بسعادة لأدفّئ يديَّ المتجمّدتين، وتحوّل المطر إلى جليد يلسع ذراعي، وبدأت الأشجار تحترق بهالة وردية خفّفت الألم في عيني. أضعتُ

فردة حذائي في الطين لكني لم أكترث لذلك، ثمّ أضعتُ الفردة الأخرى، وبدأت ساقاي تنثنيان تحتي بشكل غريب، وعند نقطةٍ ما شعرت بتجويف لا يمكن مقاومته، فاستلقيت عند جذع شجرة، حاثّةً أمي والأخريات على مواصلة طريقهن من دوني.

لا أتذكّر كيف وصلنا إلى بولونغو. قالوا لي إنني وصلت على نقّالة حملها رجالٌ التقيناهم عندما كانوا خارجين من الغابة حيث يعملون في معسكر لصنع الفحم خلال الفصل الجاف. إني أدين لهم بحياتي، وآسفُ لأنني لا أتذكّر وجوههم أو أصواتهم، أو حتى وقع خطواتهم وهم يحملونني. خشيت أن أكون قد أسأت لهم، وشتمتهم كما فعلت روث ماي أحياناً عندما كانت تهذي بحمّى الملاريا. أعتقد أنني لن أعرف ذلك أبداً.

كانت بولونغو دوّامة من الإثارة التي بدأت أستوعبها شيئاً فشيئاً، وخُيِّل إليّ أن ذلك كان بمناسبة وصولنا. ولم يخطر ببالي أننا لم نكن شيئاً يُحتفى به. كانت أشياء عديدة غير محتملة تحيط بنا: رجال يقرعون طبولاً ويرقصون تعلو رؤوسهم تيجان من سعف النخيل، مثلاً، ونسوة يزيّن رؤوسهن ريشٌ قزحيّ الألوان يتدلّى من وراء ظهورهن، وطائرة إيبين أكسلروت محاطة بهالات من اللهب تتراقص حول الجناحين، عندما تهبط فوق حقل تكسوه أعشاب وردية تتمايل. ثم في الملجأ المظلم حيث كنا نقيم في بيت أحدهم، رأيت الرجل الذي يدعى أكسلروت وقد تغيّر على نحوٍ غريب: توهّجت قرون شيطان في شعره الملمّع، بينما يجلس أمام النافذة قبالة أمّي. وثمة ذيلٌ حيّ يزحف مثل أفعى مخملية سرّية بين قوائم الكرسي وراءه. لم أستطع أن أبعد عينيَّ عن هذا القلق المشؤوم. أمسك الذيل بيده اليسرى، محاولاً تهدئته عندما يتكلّم. كانوا يتناقشون بخصوص راشيل، وتحوّل جانب وجه أمي في النافذة إلى بلورة ملحيّة تعكس الضوء كلّه.

جاء أشخاص آخرون وذهبوا في الظلام حيث كنت أستلقي تحت سقف

القشّ، محتمية في كهف الأحلام والمطر. وكان جدّي وارتون يتراءى لي أحياناً وهو واقف بجانب سريري، ينتظرني بصبر كي ألعب دوري. وبصدمة مفعمة بالشعور بالذنب، رأيت أننا كنّا نلعب الداما، وأنني لم أكن أقوم بدوري كما يجب، وقال لي جدّي بأكثر الطرق تلقائية إنّنا كلانا ميّتان.

لم يأتِ أبي إلّا مرة واحدة، وألسنة لهب زرقاء تنبعث من حاجبيه ولسانه: «كثيرةٌ هي مصائب الصالح، ولكن من جميعها ينجيه الربّ». وصعد الخطّ الأزرق الرفيع لهذه الكلمات فوق شفتيه في الهواء. شاهدت ذلك مفتونةً، وعند النقطة التي لمست الكلمات فيها السقف المغطّى بالقش، تحوّلت إلى صفٍّ من النمل. في الصباح وفي المساء، ثم في الصباح مرة أخرى شاهدتهم يصعدون إلى فتحة في أعلى السقف، حاملين أعباءهم الصغيرة خارجين إلى النور.

لم يفاجئني شيء هنا، على الأقل وجود أناتول نغيمبا. ففي صباح أحد الأيام رأيته هنا، ثم في كلّ يوم بعد ذلك، يقرّب كوباً ساخناً من الشاي المرّ من فمي ويردّد اسمي: «بينيه-بينيه»، الحقيقة الأصدق. طوال الستّ عشرة سنة من عمري نادراً ما فكّرت بأني أستحق شيئاً إلا التذمّر المشتت من الله، أما الآن، في ملجئي الذي توجد فيه كلّ الأشياء المستحيلة، فإني أنجرف في حمّام دافئ من المغفرة، ويبدو لي أن لا فائدة من مقاومة ذلك. لم تعد لديّ طاقة لكي أحسّن نفسي، وإذا كان باستطاعة أناتول أن يلفّ ذنوب كومة عظامي في بطانية ويقول إنني الطيبة نفسها، فإني سأصدّقه.

هذا كلّ ما أستطيع أن أقوله لتوضيح سبب تودّدنا المفاجئ. فعندما استيقظت من سباتي الذي استمر أشهراً، وجدت أن مسار حياتي قد ضاق كثيراً، وشعرت بنفسي أندفع فيه مثل فيضان من الطين الأحمر السميك. أظن أن السعادة تغمرني.

***

لا أعرف كم أسبوعاً أمضينا هنا قبل أن تغادر أمّي، أو كم أسبوعاً مضى على مغادرتها. كنت محظوظة لأنني وجدت ملاذاً. كان صاحب الكوخ الذي أقمنا فيه أحد تلاميذ أناتول الذي كان أبوه يعيش هنا قبل وفاته. وكان أناتول قد غادر كيلانغا بعد أن غادرناها بفترة وجيزة، وأمضى أوقاتاً طويلة في القرى المجاورة، يكلّم الناس وينظّم شيئاً كبيراً. يبدو أن لديه عدداً لا يحصى من الأصدقاء والموارد في بولونغو، وأستطيع أن أمكث هنا طوال الفترة التي أحتاج إليها، أما أمي فلم تستطع.

ما يزال اليوم الذي غادرت فيه الكوخ ماثلاً في ذاكرتي مثل صباح مشمس نديّ. كان المطر قد بدأ يخفّ، وقال أناتول إنني تحسّنت وأصبح بإمكاني مغادرة ناموسية البعوض لبضع ساعات. ذهبنا حتى كوينغ لنودّع أمّي. كانت راشيل قد سافرت بالطائرة مع منقذها الشيطاني، ويجب أن أبقى أنا في بولونغو لأن جسمي ما يزال غارقاً في السمّ بشكلٍ كبير، ولم يعد يتحمّل مزيداً من لسعات البعوض. وقرّرت أمي وإدا أن تغادرا. جاء تاجر بالشاحنة من ليوبولدڤيل، وفي موسم الأمطار تعتبر هذه معجزة لا ينبغي تجاهلها. كان التاجر ينوي العودة إلى المدينة بعد أن يحمّل شاحنته بالموز. طرد بعصاه النسوة الكونغوليات الأخريات اللاتي حاولن أن يصعدن إلى مؤخّرة شاحنته المحمّلة بكثرة. لكن ربما فكّر التاجر الذي تفحّص أمي من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، لكنه تحاشى نظرتها الزرقاء الصارمة، في أنه يمكن أن يجد مكاناً لهذه المرأة البيضاء. فصنع في جبل الموز الأخضر الكبير عشاً صغيراً يتسع لأمي ولإحدى ابنتيها. أظن أن عرج إدا ويأس أمي جعله يتعاطف معهما، لكني لم أعرف آنذاك أنه كانت تنتشر شائعات بأن الشخص الذي يسلّم امرأة بيضاء بأمان وسلامة إلى السفارة في ليوبولدڤيل فإنه يحصل على مكافأة كبيرة.

كان لون الشاحنة برتقالياً. رافقناهما أنا وأناتول حتى النهر لنودّعهما.

ويُخيَّل إليّ أنني سمعت أناتول يعد أمي بأنه سيعتني بي، وأنه سيرسلني عندما أصبح مستعدّة لأعود إلى بلدنا. بدا كأنه يتحدّث عن شخص آخر، تماماً كما لو كان الرجل ذو القرون قد طار مع شخصٍ آخر غير راشيل. وبينما كنا جميعاً نهتزّ على جبل الموز، رحت أحدّق بأمي وبإدا، محاولةً أن أحفظ ما بقي من أسرتي عن ظهر قلب.

عندما وصلنا إلى ضفة نهر كوينغ الموحلة، اعترضتنا مشكلة. كانت العبّارة القديمة المسطّحة التي أقلّت التاجر يوم أمس -على حد زعمه- واقفةً على الضفة الأخرى من النهر تتمايل بسأم على الرغم من الصافرات التي كان يطلقها وتلويحات الذراعين لصاحب العبّارة. ثم ظهر صيّادا سمك في زورق شجريّ وقالا إن العبّارة مقطوعة من الطاقة. كان هذا طبيعياً، على ما يبدو، وليس عقبة لا يمكن التغلّب عليها.

وسرعان ما رفع غطاء الشاحنة، وأخرج البطارية التي نقلها الصيّادان عبر النهر إلى العبّارة، مقابل ثمنٍ بالطبع دفعه التاجر وهو يتمتم لعنات قوية في هذه الساعة المبكرة من الصباح، لأن هذه أول مشكلة تعترضه في رحلته الطويلة جداً (أو المشكلة الثالثة إذا اعتبر أن أمي وإدا هما المشكلتان الأولى والثانية). وأوضح لنا أن صاحب العبّارة سيركّب البطارية ليشغّل محرّكها ويأتي بها إلينا، عندئذٍ نستطيع أن ندفع الشاحنة فوق العبّارة، ثم يعيد البطارية إلى شاحنته في الضفة المقابلة.

ثم طرأت مشكلة أخرى فوراً، فقد كانت البطارية كبيرة جداً من نوع قديم ولا يمكن وضعها في الزورق الصغير. وبعد نقاش طويل وجد الصيّادان حلاً لهذه المشكلة: فقد كان يوجد لوحان خشبيان عريضان عبر القارب، في تشكيلٍ غريب، واقترحا أن توضع البطارية على أحد جانبَي القارب، وأن يوضع ثقل على الجانب الآخر كي يتوازن القارب. وبما أنه لم تكن هناك أحجار كبيرة يمكن استخدامها، رمقني الصيّادان أنا وإدا، واقترحا

أن تجلس إحدانا في الجانب الآخر من القارب، وخشيا أن تشكّل إعاقة إدا عقبة، فإذا سقطت في النهر فإنهم سيخسرون البطارية الثمينة أيضاً. نظرت أمي إليّ واختارتني لأنني أقوى من إدا، لكنها نسيت أنني مصابة بدوار حمّى الملاريا، ولم يخطر في بالي أن أقول هذا العذر، وعقد أناتول لسانه احتراماً لعائلتي. فقد خسرنا أشياء كثيرة، ومن هو حتى يعلّمنا كيف نجازف بما تبقّى؟

صعدتُ إلى الزورق. أستطيع القول إن النهر بدأ ينحسر بعد الفيضان الذي سبّبه المطر، وذلك بسبب الرائحة الكريهة الغريبة والأخشاب العالقة على طول ضفتيه. تعجّبت من أنني قد تعلّمت أشياء كثيرة عن الأنهار الكونغولية. وتذكّرت تحذير أمي لنا باستمرار في أثناء طفولتنا عندما كنا نصعد إلى قارب: إذا انقلب القارب، يجب أن نتمسّك به جيّداً كي لا نغرق، لكن الزوارق الكونغولية مصنوعة من خشب سميك وإذا انقلبت فإنها تغوص بسرعة مثل صخرة. راودتني هذه الأفكار عندما بدأ الصيّادان يجذّفان القارب بسرعة في نهر كوينغ المهتاج الرشيق. تمسّكت جيّداً باللوح الخشبي الصلب، المتوازن فوق الماء، ضاغطةً بكلّ قوّتي حتى يحافظ الزورق على توازنه. لا أذكر أنني أخذت أنفاسي إلا بعد أن وصلنا إلى الضفة الأخرى بأمان.

لعلّي أتخيّل كلّ ذلك لأن ما حدث يبدو غريباً ويكاد يكون مستحيلاً. وعندما ذكرت هذه الحادثة لأناتول لاحقاً سخر مما سمّاه تاريخي الذي صغته كما أريد، وقال إنني أنا التي طلبت أن أصعد إلى القارب لأن البطارية الغريبة الشكل جعلت القارب يميل كثيراً. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا الحدث يستمر في العودة إلى أحلامي، تماماً كما وصفته بجميع الروائح والمشاهد التي حدثت تباعاً عندما ألقيت بوزني فوق الماء. وأجد صعوبة في أن أشكّ بكيفية حدوث هذا. لا أستطيع أن أنكر أن عقلي لا يزال مشوّشاً.

وتراودني ذكرى ضبابية بأنني ألوّح لأمي وأختي في سحابة متصاعدة من دخان الديزل والبعوض عندما بدأتا رحيلهما البطيء، الدائم، عن الكونغو. أتمنّى أن أتذكّر وجهيهما، خصوصاً وجه إدا. هل شعرت أنني ساعدتُ في إنقاذها؟ أم أن ذلك كان جزءاً من الحظوظ التي أوصلتنا إلى كل ما وصلنا إليه، إلى هذا المكان حيث سينقسم طريقنا أخيراً إلى طريقين؟

عوّضت كل ذلك بتذكّر كل شيء عن أناتول في الأيام التي أعقبت ذلك. الطعم الأخضر الدقيق للخلطات التي غلاها لمعالجتي، وحرارة يده على خدّي، وأشكال الضوء الذي يتسلل عبر سقف القشّ عندما يحلّ الصباح محل الظلام حيث ننام، أنا بجانب حائط، وهو على الجانب الآخر من الحائط. كنا نتقاسم زمالة كوننا يتيمين. فقد شعرت بذلك بحدّة مثل الجوع الشديد للبروتين، وأُحبطت من المساحة الترابية المسطّحة التي تفصل بيني وبينه. رجوته أن يقترب مني أكثر، بوصةً فبوصة، وكنت أتمسّك بيديه عندما يجلب لي الكوب. لا تزال مرارة الكينين وحلاوة التقبيل مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً في فمي الطريّ. لم يسبق لي أن أحببت رجلاً، بالمعنى الجسدي، وكنت قد قرأت ما يكفي من روايات جين إير وبريندا ستار لأعرف أن الحبّ الأول يكون قوياً. لكن عندما أحببت، كنت مخدّرةً بالهذيان الغريب لحمّى الملاريا، لذلك كان حبي كليّ السلطة والنفوذ. كيف يمكنني أن أحبّ أحداً الآن غير أناتول؟ من غيره يمكنه أن يجعل ألوان الشفق الشمالي تنبثق من بشرتي عندما يمسّد ذراعي؟ أو يرسل إبراً من الجليد لتخز دماغي عندما ينظر في عينيَّ؟ أي شيء غير هذه الحمّى يمكن أن يحوّل شبح أبي الذي يصيح «ساقطة»، إلى تجعيد من الدخان الأزرق ينجرف من ثقب صغير مشرق في قشّ السقف؟ لقد خلّص أناتول دمي من ألم الملاريا العسلي ومن الإحساس بالذنب. من خلال أناتول تهشّمتُ إلى قطع ثم جُمِعَ شتاتي، من خلال أناتول أُنقذت، لا من خارج حياتي، وإنما من خلالها.

الحبّ يغيّر كلّ شيء. لم أفكّر للحظة بأنه سيكون هكذا. يجب عليّ قول: الحبّ المتبادل، إذ إني أحببت أبي بشدة طوال حياتي، ولم يغيّر فيّ شيئاً. أما الآن، فقد نهضَتْ من حولي أشجار اللهب بعد نوم طويل جاف، وشكّلت جدراناً من الأزهار القرمزية. كان أناتول يتحرّك عبر الظلّ المرقّط عند حواف رؤيتي، مرتدياً فروة نمر حريرية. كم أتوق لأن تلامس تلك الفروة عنقي. أتوق إليه بصبرٍ نافدٍ لمُفترِس، متجاهلةً الوقت، حريصةً على صمت البوم. وعندما يغيب ليلة أو ليلتين، كان عطشي له لا يطاق، وعندما يعود، أتجرّع كلّ قبلة حتى الثمالة، ومع ذلك، يظلّ فمي يؤلمني مثل كهف جاف.

لم يخترني أناتول، بل أنا التي اخترته. مرةً، منذ زمن بعيد، منعني أن أقول إنني أحبّه بصوتٍ مسموع، لذا سأخترع وسائلي الخاصة لأقول له كم أنني أشتاق إليه، وما الذي يمكنني أن أمنحه له. كنت أُمسك يديه ولا أتركهما، ويبقى، يزرعني مثل ميراث صغير من الأرض حيث يقبع مستقبله.

أصبحنا ننام معاً تحت الناموسية نفسها، بعفّة. لا أرى ضيراً في قول إني كنت أريد أكثر، لكن أناتول كان يضحك ويدلّك مفاصل يديه بشعري، ويدفعني مداعباً إلى خارج السرير، ثم يقول لي أن أُخرج قوسي وأذهب لأصطاد ظبياً إن كنت أريد أن أقتل شيئاً. إذ إن كلمة بانديكا التي تعني «يقتل بسهم» يوجد لها معنيان، كما ترون. قال لي إنه لم يحن الوقت بعد كي أصبح زوجته بالمعنى الذي يستخدمه الكونغوليّون. وقال إنني ما زلت أعيش حداداً، وما زلت مريضة، وما زلت أعيش جزئياً في مكان آخر. أناتول مزارع صبور، وذكّرني بأنّ وضعنا هذا ليس غير عادي، فهو يعرف الكثير من الرجال الذين تزوّجوا فتيات لا يتجاوزن العاشرة من العمر. أنا في السادسة عشرة من عمري لذلك فإنني أفهم الحياة وفقاً لمعايير بعض الناس، وفي نظر أي واحد أنا امرأة مكرّسة تماماً لرجل.

ومع أن الحمّى تلاشت من عظامي ولم يعد الهواء يتراقص مع ألسنة اللهب، لكن أناتول ما يزال يأتي إليّ ليلاً في فروة نمر.

تماثلت إلى الشفاء وأصبح بوسعي أن أسافر الآن. كان هذا صحيحاً لمدة من الزمن. فقد كان يسهل عليّ أن أمكث هنا مع أصدقاء أناتول في بولونغو، لكن كان يصعب علينا أن نتكلّم عمّا سيأتي بعد ذلك. وأخيراً، هذا المساء، سألني. عندما كنّا نتمشى نحو النهر، فاجأني بأن أمسك يدي لأنه عادةً يكون متحفّظاً ولا يحب إظهار المودّة في الأماكن العامة. أعتقد أنه لم يكن مكاناً عاماً جداً، فالأشخاص الوحيدون الذين كان يمكننا رؤيتهم هم الصيّادون الذين يصلحون شبكات صيدهم على الضفة المقابلة. وقفنا نراقبهم فيما الغروب يلوّن النهر بخطوط عريضة باللونين الوردي والبرتقالي، وكانت جُزر الإيكهورنية(*) تعوم في التيار الناعس. اعتراني شعور بأنني لم أشعر بالرضا ولم أرَ جمالاً كهذا طوال حياتي. في تلك اللحظة قال: «بينيه، أصبحت في صحة جيّدة، وأصبح بإمكانك أن تعودي، كما تعلمين لقد وعدت أمّك بالتأكّد من عودتك بسلامة إلى بيتك عندما تتماثلين إلى الشفاء».

توقّف قلبي عن الخفقان وسألته: «برأيك أين هو البيت؟».

«في المكان الذي تكونين فيه أكثر سعادة».

«إلى أين تريدني أن أذهب؟».

«إلى المكان الذي تكونين فيه سعيدة» - كرّر، ولذلك فقد أخبرته أين يكون ذلك المكان.

لا شيء يمكن أن يكون أسهل من ذلك. فكّرت طويلاً بجدية وقلت

(*) جنس نباتات، ينمو ويطفو فوق المياه العذبة. وهو النبات المعروف باسم «ورد النيل» نفسه، فقد أُدخل إلى مصر في عهد محمد علي باشا، بعد أن جيء به من بحيرة ڤكتوريا في وسط إفريقيا. [م].

إن كان يتحمّلني كما أنا، فإني أرفض أن أعود إلى أي مكان توجد فيه سبل الراحة المألوفة، وإنني أفضّل البقاء معه هنا.

لم يكن اقتراحاً عادياً، بمعايير أيّ ثقافة. وقفنا على ضفة نهر كوينغ نعدّد الأشياء التي سيتعيّن علينا أن نتخلّى عنها أو نتركها. هذه معلومات هامة. فمقابل كلّ شيء قد أتخلّى عنه، سيتخلّى هو عن أشياء أكثر بكثير: الزواج من أكثر من زوجة مثلاً. لم تكن هذه إلا البداية.

حتّى الآن، أظن أن أصدقاء أناتول بدؤوا يشكّون في سلامة عقله، لأن بياض بشرتي سيحرمه من إمكانيات كثيرة، ربما حتى بقاءه على قيد الحياة في الكونغو. لكن لم يكن لدى أناتول خيار. أخذته وتشبّثت به. هناك في داخلي ما يكفي من والدي لأصمّم على تحقيق ما أريده.

راشيل برايس أكسلروت

جوهانسبرغ، جنوب إفريقيا 1962

Want so lief het God die wêreld gehad, dat Hy sy eniggebore Seun gegee het, sodat elkeen wat in Hom glo, nie verlore mag gaan nie, maar die ewige lewe kan hê(*).

كيف يمكن أن تحب ذلك؟ ها! إنه إنجيل يوحنا 16:3 باللغة الأفريكانية. طوال السنة الماضية ظللت أرتدي قفّازاتي البيض الصغيرة وقبّعتي المستديرة الصغيرة، وأذهب إلى الكنيسة الأسقفية الأولى في جوهانسبرغ، وأتلو هذا الإصحاح كل الوقت، مع المصلّين الذين ينتمون إلى الطبقة الراقية. والآن واحدة من أقرب صديقاتي -وصادف أنها من باريس في فرنسا- قد ضمّتني

(*) «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية». [م].

تحت جناحيها لذا فأنا أستطيع أيضاً مرافقتها إلى الكنيسة الكاثوليكية وأردّد: *«Car Dieu a tant aimé le monde qu'il a donné son Fils unique...»* بالفرنسية، بكلمات أخرى. لقد أصبحت أتكلّم ثلاث لغات بطلاقة. لم أعد على اتصال وثيق مع أخواتي، لكني أجرؤ على القول إنه على الرغم من المواهب التي يتمتّعن بها، فإنهن لا يستطعن قراءة يوحنا 16:3 بثلاث لغات على نحوٍ صحيح.

قد لا يضمن لي ذلك بالضرورة مقعداً في الصفّ الأمامي في الجنة، لكن بالنظر إلى ما عانيته من إيبين أكسلروت في السنة الماضية، وهذا كبداية فحسب، فإن ذلك يجب أن يوصلني إلى باب الجنة على أقل تقدير. إن نظراته المحدّقة ببلاهة بالنساء الأخريات فيما أنا ما زلت فتاة شابة وجذّابة جداً، أفقدتني أعصابي التي كانت تالفة مسبقاً -يمكنني أن أضيف- لأنني مررت بالكثير. هذا من دون ذكر المرات العديدة التي يتركني فيها وحدي حين يذهب في رحلاته، ليزداد غنىً من مشروع معتوه تلو الآخر، كلّها لا تنجح أبداً. العرفان بالجميل هو ما جعلني أتحمّله. أعتقد أن إعطاء أجمل سنوات شبابك هو ثمنٌ عادل لشخصٍ أخرجك من حفرة الجحيم تلك. لقد وعدته بأنني سأشهد بهذه الكلمات: أنقذني من احتمال الموت الوشيك. وقد وفيت بوعدي أيضاً، بجميع السبل، حتى نحصل من سفارة الولايات المتحدة، على مبلغ من المال، لأن لديهم صندوق طوارئ يساعدون من خلاله مواطنيهم كي يصلوا إلى برّ الأمان، بعد الأزمة الشيوعية مع لومومبا وكلّ تلك الاضطرابات. حتى إن أكسلروت حصل على ميدالية شرف لقاء خدماته البطولية التي يتفاخر بها كثيراً، ويضع تلك الميدالية في صندوق خاص في غرفة النوم. لهذا السبب لم نتزوّج بطريقة قانونية بعد. فقد شرح لي إنه لا يبدو مناسباً أن يحصل على المال لأنه أنقذ زوجته. هذا النوع من الأشياء التي من المتوقّع أن تقوم بها وحدك بشكلٍ طبيعي من دون أن يدفع

لك أحد مبلغاً من المال لقاء ذلك، أو تفوز بأي ميدالية شرف. ومن شدة غبائي صدّقته. ثم اكتشفت أن أكسلروت يستطيع أن يحصل على ميداليات كثيرة في قسم تجنّب الزواج المقدّس، وأنّ لديه مئة سبب وسبب حتى لا يتزوّج بقرة عندما يستطيع الحصول على الحليب مجاناً.

بالطبع لم أفكّر بكلّ هذا في ذلك الوقت. تخيّلوا فقط كيف سيبدو الأمر لفتاة شابة مرهفة الأحاسيس!

كنت أرتجف هناك تحت المطر، تحيط بي من كل جانب أكواخ طينية، ودروب موحلة، والتراب حولي في كل مكان. ويقرفص الناس فوق الطين، ويطهون طعامهم على النار تحت المطر المنهمر، والكلاب المسعورة تجري فوق الطين. لقد قطعنا نصف مساحة الكونغو سيراً على الأقدام. كان ذلك دربي المختار إلى المعاناة، كما كان سيقول والدنا العزيز العجوز. على الرغم من أنه ليس لدي أيّ خيار آخر أيضاً. لقد تعمّدت بالطين. كنت أستلقي كلّ ليلة على الأرض المتربة، وأصلّي لله ألّا أموت من لدغة أفعى كما حدث بشكل مأساوي لأختي، مع أنني أعي تماماً أن ذلك قد يحدث في أي لحظة. لا يمكنني أن أصف حالتي العقلية بكلمات. وعندما وصلنا أخيراً إلى تلك القرية، كان السيّد أكسلروت بنظّاراته الشمسية يتكئ على طائرته، ويبتسم تلك الابتسامة المتكلّفة مرتدياً تلك البدلة الكاكي بكتفيها العريضين، لم يكن عندي سوى شيء واحد أقوله له: «هذا يكفي. أخرجني من هنا!». ولم أكترث للأوراق التي كان عليّ أن أوقّعها. كنت سأوقّع صفقة مع الشيطان نفسه. أقسم إنني سأفعل.

هذا ما كان عليه الحال بالنسبة لي: ففي يوم كنت غارقة حتى رأسي في الطين، وفي اليوم التالي، وجدت نفسي أتمشّى في شوارع جوهانسبرغ المشمسة العريضة في جنوب إفريقيا، بين المنازل ذات المروج الخضراء الجميلة وأحواض السباحة ومساكب الزهور الرائعة وراء جدرانها العالية

ذات البوّابات الكهربائية. وحتى كانت هناك سيارات وهواتف، وأناس بيض حيثما نظرت.

كان أكسلروت آنذاك في مرحلة تجهيز نفسه في جوهانسبرغ، بعد أن أصبح عنده منصب جديد في دائرة الأمن في منجم للذهب بالقرب من الضواحي الشمالية، حيث يُفترض أننا سنعيش قريباً حياة مرفهة. وبعد عامٍ كامل، كل وعوده بدأت تشيخ، فضلاً عن أثاثنا، الذي كانت كل قطعة فيه مهما صغرت مستعملةً من قبل.

عندما وصلت إلى جوهانسبرغ لأول مرة، مكثت لفترة قصيرة مع زوج وزوجة أميركيين لطيفين جداً، السيّد والسيّدة تيمبيلتُن. وكانت توجد عند السيّدة تيمبيلتُن خادمات إفريقيات، واحدة لأعمال الطهي، وواحدة للتنظيف، وثالثة للغسيل. لا بدّ أنني غسلت شعري خمسين مرة خلال عشرة أيام، وكنت أستعمل منشفة نظيفة في كلّ مرة! يا إلهي، خُيِّل إليّ أنني متّ وذهبت إلى الجنّة، لأني عدت فحسب لأكون بين الناس الذين يتكلّمون اللغة الأميركية القديمة الجيّدة، ويفهمون مبدأ المرحاض المزوّد بالماء المتدفّق.

بالطبع لم يكن البيت الذي نسكن فيه أنا وإيبين كبيراً، لكننا تدبّرنا أمرنا فيه، وقد أضفيتُ عليه مسحة أنثوية. وحقّق أكسلروت من عمله طيّاراً في الكونغو شيئاً جيّداً، كان ينقل بضائع قابلة للتلف من الغابة إلى المدن لبيعها بالمفرّق، وكان يعمل أيضاً في تجارة الماس، وكذلك يؤدي مهامّ سرّية للحكومة، لكنّه لم يحدّثني عنها قطّ منذ أن بدأنا نعيش تحت سقف واحد. ونحن نقيم علاقةً في أي وقتٍ نشعر برغبةٍ في ذلك، ولا أظن ذلك أسوأ خطيئة موجودة، في الوقت الذي فيه أشخاص يتعرّضون للأذى أو يُخدعون أو يُقتلون يمنة ويسرة في هذا العالم.

حسناً، الآن لم يعد السيّد أكسلروت مضطراً للتباهي بأسراره الهامة

أمام أميرته ليحصل منها على قبلة. وأصبح سرّه الأول الآن: أريد قنينة بيرة أخرى! وهذا يظهر لك ما هو الوضع.

لكنني كنت عازمة بادئ ذي بدء على انتهاز أي فرصة من أجل تحسين أوضاعي في مكاني الجديد في جوهانسبرغ، بجنوب أفريقيا، فبدأت أُعرف باسم راشيل أكسلروت، وما من داعٍ لأن يعرف أحد أن ذلك غير صحيح. وكنت أحرص دائماً على ارتياد الكنيسة مع أناس من الطبقة الراقية بدؤوا يدعوننا إلى الحفلات التي يقيمونها. أنا أصرّ على ذلك. حتى إنني تعلّمت كيف ألعب لعبة البريدج. وعلّمتني صديقاتي هنا في جوبيرغ كيف أقيم حفلات في بيتي، وأراقب عن كثب الخادمة، وعموماً علّمنني: الانتقال الأنيق إلى الزوجية والغش(*). واشتركت مع صديقاتي في مجلّة «بيت السيّدات». لكن مجلّاتنا كانت تصل متأخرة فلم نكن نستطيع مواكبة الموضة السائدة، وكنّا نتخلّف عنها شهراً أو شهرين. فنبدأ مثلاً بصبغ أظافرنا بلون المرجان بعد أن تكون النساء الأخريات قد انتقلن إلى اللون الوردي. ولكن، على الأقل كنا كلّنا معاً وراء الزمن.

الفتيات اللواتي صادقتهن كنّ راقياتٍ جداً بطريقة لا يمكن ببساطة تعلّمها من مجلّة. خصوصاً روبين، تلك المرأة الكاثوليكية الباريسية التي كانت ترفض أن تتناول الحلوى بالشوكة نفسها التي كانت قد تناولت بها طعام العشاء، وزوجها كان ملحقاً بالسفير، لذا يمكنك تخيُّل الأخلاق الحميدة التي تتمتّع بها. ومتى دُعينا إلى عشاء فإنني أُبقي عيني على روبين فحسب، وعندئذٍ لا مجال لأن أُخطئ في شيء.

تجمّعنا نحن الفتيات بعضنا مع البعض الآخر، مثلما تتجمّع الطيور التي تشبه بعضها بعضاً، وأشكر الله على ذلك، لأن الرجال دائماً مشغولون بنوعٍ

(*) تضيف لاحقة خاطئة إلى الاسم Adult، فتصبح adulteration «غشّ» بدلاً من Adulthood «بلوغ - رشد»، وهو المعنى الذي تريده. [م].

ما من الأعمال أو آخر. أما في حالة أكسلروت، فكما سبق أن ذكرت، كثيراً ما تبيّن أن أعماله هي أعمال مشبوهة. وكل ما أعرفه، أنه قد يكون في مكانٍ ما ينقذ فتاة أخرى واقعة في محنة، ويعدها بأن يتزوّجها ذات يوم بعد أن يحصل على مكافأته! هذا هو أكسلروت الذي لا أستغرب أن يأتي بزوجة أو زوجتين أخريين مدّعياً بأن هذا ما يفعلونه هنا. لعلّ حياته الطويلة في إفريقيا أنسته أننا مسيحيون وعندنا نظامنا الخاص، وهو: الرتابة(*).

حسناً، لقد تحمّلت معه على أي حال. لكن على الأقل كنت أجد نفسي، عندما أصحو صباح كلّ يوم، ما زلت على قيد الحياة لا ميّتةً مثل أختي روث ماي. وهذا يعني أن ما فعلته كان جيّداً. ففي بعض الأحيان، يجب أن تنقذي نفسك وتفكّري بالتفاصيل لاحقاً، كما قال ذلك الكتاب الصغير: ادفع مرفقيك، ارفع قدميك، واطفُ مع الحشد! فآخر شيء تريد أن يحصل لك هو أن تُداس تحت الأقدام وتموت.

بخصوص ذلك اليوم، عندما أخرجني على متن طائرته من الكونغو، يصعب عليّ حتى أن أتذكّر ما إن كنت أفكّر آنذاك بما سيحصل لاحقاً، لأنني كنت متلهّفة للخروج من حفرة الطين الفظيعة تلك، ولم يكن بإمكاني أن أفكّر بشكلٍ جيّد.

إني متأكّدة من أنني ودّعت أمي وإدا وليا، على الرغم من أني حقاً لا أتذكّر ما إن أعطيت لحظة واحدة للتفكير في متى سأراهن ثانية، هذا إن رأيتهن. لا بدّ أنني كنت في حالة ذهول تامة.

إنه شيء مضحك لكنني لا أتذكّر شيئاً إلّاه: عندما كانت طائرة إيبين تحلّق في الجو على ارتفاع مئات الأقدام، فوق الغيوم، تذكّرت فجأة «صندوق الأمل» الذي أعددته! كلّ تلك الأشياء الجميلة التي صنعتها

(*) هنا أيضاً تُهجئ الكلمة خطأً فتكتبها Monotony «الرتابة»، بدلاً من Monogamy «الزواج من امرأة واحدة». [م].

-مناشف موقّعة بالأحرف الأولى، مفرش مائدة ومناديل مطابقة له- وكان يبدو لي أنه من غير المناسب أن أتزوّج من دون كل تلك الأشياء، وبتشوّشي الذي كان في تلك اللحظة، طلبت من أكسلروت أن يعدني بأنه سيعود ذات يوم ويجلب لي تلك الأشياء من بيتنا في كيلانغا.

بالطبع لم يفعل. وأدرك الآن كم كان غبياً اعتقادي بأنه سيَفي بوعده.

أظن أنك تستطيع القول إن آمالي لم ترتفع عن الأرض قطّ.

إدا برايس

جامعة إموري، أتلانتا 1962

قُل الحقيقة كاملةً، لكنْ قُلها بطريقة مائلة! هذا ما تقوله صديقتي إيميلي ديكنسون. وحقّاً ما هو الخيار المتاح لديّ؟ فأنا إنسانة صغيرة محنيّة، مهووسة بالتوازن.

قرّرت أن أتكلّم، عندما وجدت فرصة للحديث. فقد أصبح الكلام مسألة دفاع عن النفس منذ أن صمتت أمي، ولم يعد هناك أحد يستطيع أن يشهد على موقعي في العالم، وجدت نفسي أتأرجح على المنحدر ذاته الذي تأرجحت فوقه عندما دخلت إلى الصف الأول في المدرسة: موهوبة، أم يجب أن أتلقى تعليماً خاصاً مع أطفال عائلة كرولي الذين يشدّون آذانهم؟ لا أهتم إن وضعوني في صفٍّ مع ذوي العقول البسيطة، لكن كان عليّ الفرار من بيت لحم التي صُنعت جدرانها من عيون مكدّسة في صفوف كالآجر، ويوجد في كلّ نفحة هواء طعمٌ حامض للنميمة الأخيرة لشخصٍ ما. عدنا إلى بلدتنا ورحّبوا بنا كأننا أبطال مميّزون: كانت البلدة متلهّفة لسماع ثرثرة جديدة. أهلاً بكم في دياركم، أفراد عائلة برايس المساكين! المدهشين، والثكالى،

والغريبين، والمشرّدين (لأنه لم يعد بإمكاننا أن نسكن في بيت القسّ من دون القسّ). لقد تسلّلت أورليانا وإدا ملوّثتين بسواد إفريقيا، وربما أصبحتا وثنيتين، وعادتا إلى البلدة لا يرافقهما رجل البيت، مثل كلبتين دلماسيّتين مسعورتين تسيران مترنّحتين إلى البيت من دون أن ترافقهما سيارة إطفاء(*).

ظنّوا أننا مختلتا العقل. وقد قبلت أمي التشخيص ببساطة، نقلت أغراضنا من المخزن إلى مقصورة من الخشب على مشارف البلدة، في مكانٍ تحفّه أشجار الصنوبر، استأجرتها بالمبلغ الزهيد الذي ورثته من جدّي وارتون. لم تضع أمي هاتفاً في البيت، وإنما اشترت معزقة، وزرعت كلّ شبر مربّع من الأرض الرملية المستأجرة التي تبلغ مساحتها فدّانين: فول سوداني وبطاطا حلوة وأربع دزينات لأنواع مختلفة من الأزهار. بدا أنها عازمة على أن تُخرج المأساة منها مثلما تتخلّص من تصفيفة شعر سيّئة. وكان أحد الجيران في أسفل الشارع يملك إوزّة متوسطة، وخنازير أليفة، فكانت أمي تحمل روث هذه الحيوانات كل يوم لتستخدمه سماداً، كانت تحمله في دلوين توازنهما مثل امرأة إفريقية. ولن أُفاجأ إن رأيتها تضع دلواً ثالثاً على رأسها. وبحلول منتصف الصيف حجبت نباتات قفّاز الثعلب والقنطريون العنبري التي طالت كثيراً الرؤيةَ من النوافذ. قالت أمي إنها تريد أن تضع كشكاً خشبياً على جانب الطريق لتبيع باقات الأزهار بثلاثةٍ ونصف لكل باقة. تساءلت ماذا سيقول أهل بلدة بيت لحم عن ذلك؟ زوجة القسّ خرجت حافية لتبيع على قارعة الطريق؟

بالجدّيّة نفسها التي جمعت فيها أمي كتباً عن البذور، أحضرتُ دليل

(*) في الثقافة الشعبية الأميركية كان الكلب الدلماسي يرافق عربات الإطفاء التي يجرّها الخيل، سواء لإلهاء الخيل عن خوفها من النار حين الاقتراب من مكان الحريق، أو للنباح تنبيهاً للمارة حين تخرج العربة في الطريق، واليوم صار الدلماسي يُعتبر تميمة تُرافق رجال الإطفاء. [م].

جامعة إموري ودرست جميع إمكانيات الدراسة فيها، ثمّ استقللت الحافلة وذهبت إلى أتلانتا وتوجّهت مباشرة إلى مكتب القبول، حيث أجرى لي رجل اسمه د. هولدن ريميل مقابلة. كانت مهمته، كما أظن، تثبيط عزيمة أشخاص مثلي عن طلب إجراء مقابلات مع أشخاص مثله. كان مكتبه هائل الحجم.

فتحتُ فمي وانتظرتُ الجملة التي رجوت أن تصل: «أريد أن أدرس في كليّتكم هنا يا سيّدي. وعندما أنهي دراستي، أريد أن أدرس في كليّة الطب في جامعتكم».

صُدم الدكتور ريميل تماماً، إما من إعاقتي وإما من جرأتي، لا أعرف، لكن ربما كانت صدمته أقل مما كنت أنا مصدومة بالشكل الذي خرج فيه صوتي.

سألني ما إن كان لديّ نقود أو كشوف علامات من المدرسة الثانوية، أو إن كنت درست الكيمياء أو الجبر المتقدّم على الأقل في المدرسة الثانوية، فكان ردّي الوحيد: «لا يا سيّدي»، لكنّي ذكرت له إنني قرأت بعض الكتب.

«هل تعرفين ما هو حساب التفاضل والتكامل، أيتها الشابّة؟» - سألني بطريقة من يخفي شيئاً مخيفاً في إحدى يديه.

لكني بعد أن نشأت على يد القسّ برايس، أصبحت محصّنة إلى حدٍّ ما من مثل هذا الخوف.

فقلت له: «نعم يا سيّدي، إنها رياضيات دراسة التغيّر المستمر».

رنّ هاتفه. وبينما انتظرته حتى ينهي مكالمته، حسبت في عقلي ناتج العدد الحاصل من الملفات العديدة المرقّمة المصطفّة على رف مكتبته والتي كانت جميعها بغير ترتيب، وصنعت معادلة لتصحيحها، دوّنتها له على قصاصة ورق. كان عليّ أن أستخدم الجبر، لا حساب التفاضل والتكامل، ولاحظت أيضاً أنّ اسمه، إذا قُلب عكساً، فإنه يصبح الفعل الفرنسي لارتداء

المرء ثياباً رثّة، وقلت له ذلك أيضاً من دون قصد الإساءة لأنه كان يرتدي ثياباً جيّدة.

قال الدكتور ريميل فجأة إنني أستحقّ إعانة حكومية خاصة لأنني ابنة محارب قديم، وجهّز أوراقي لأجري امتحان القبول، الذي عدت إلى أتلانتا لإجرائه بعد شهر واحد. استطعت أن أحلّ أسئلة الرياضيات كلّها، وفي الجزء اللفظي فاتتني أربعة أسئلة تدور كلها حول اختيار كلمة لا تنتمي إلى سلسلة الكلمات الأخرى. كنت أجد دائماً صعوبة في هذا النوع من الأسئلة، فبسبب ظروفي الخاصة، كنت أجد أيّ شيء يمكن أن ينتمي تقريباً إلى أي شيء آخر.

قلت الحقيقة: أنا بحاجة إلى الدراسة في هذه الجامعة. كنت بحاجة إلى الخروج من بيت لحم، إلى الخروج من جلدي، من جمجمتي، ومن شبح عائلتي. لم يكن ذلك لأنني كنت أخجل من أمي - كيف يمكنني، أنا بلهاء القرية، أن أخجل منها؟ كنت أجد متعة بصحبة جنونها أحياناً، وكنت أفهمه جيّداً. لكن أمي كانت تريد أن تستهلكني كالطعام. كنت أشعر بالحاجة إلى أن تكون عندي غرفة خاصة بي وكتب لي. ولأول مرة في حياتي شعرت بالحاجة إلى أن يكون عندي أساتذة يخبرونني كلّ يوم بما يجب أن أفكّر فيه.

في الكيمياء العضوية وعلم الحيوانات اللافقارية، وفي التناظر الملهم لعلم الوراثة المندلي، وجدتُ دِيناً صالحاً. فصرت أقرأ الجدول الدوري للعناصر كأنه صلاة؛ وأجري امتحاناتي كما لو كنت أتناول القربان المقدّس، وكان نجاحي في الفصل الدراسي الأول بمنزلة سرٍّ من الأسرار المقدّسة(*). كان ذهني يعجّ بغابة من الحقائق. بين الأشجار تمتد سهول يأسٍ واسعة مفتوحة على مصراعيها. أطوف حولها. ألتصق بالغابة.

(*) وفقاً للمعتقدات المسيحية فإن الأسرار المقدّسة طقوسٌ دينية، الغاية منها الحصول على نعمة سرّيّة، وعدد الأسرار سبعة. [م].

بما أنني لم أكن أستطيع الاتصال بها بالهاتف، كنت أعود لزيارتها بالحافلة في عطل نهاية الأسبوع. نشرب الشاي وتريني الأزهار التي زرعتها. الغريب أنها لم تكن تبدي أي اهتمام بالزراعة عندما كانت تعيش مع أبي. كان ذلك ميدانه، وقد وجّهنا كلّنا إلى زراعة النباتات المفيدة، من أجل مجد الله، وما إلى ذلك. لم تكن عندنا زهرة واحدة في حديقة بيتنا خلال فترة طفولتي، ولا حتى الهندباء البرّية. أما الكوخ الذي أقامته أمي فقد كان عبارة عن سقفٍ محاطٍ ببريق الوردي والأزرق والبرتقالي، ويجب أن تحني رأسك عندما تمرّين تحت قوس برّيّ من أزهار الكوزموس في الممر، وأن تزيحي أزهار الخطمية بكلتا ذراعيك لكي تَصلي إلى الباب الأمامي. اتضح أن أمي تمتلك موهبة استثنائية في زراعة الأزهار. هي نفسها حديقةٌ نباتية كاملة تتفتّح.

عندما أزورها لا تدور بيننا أحاديث كثيرة، ونشعر كلتانا بالراحة في الصمت، على ما أعتقد. لم يعد أحد الآن سوانا، هي وأنا، وأنا أدين لها بحياتي، أما هي فلا تدين لي بشيء على الإطلاق. وعلى الرغم من ذلك فقد تركتها، وهي الآن حزينة. أنا لست معتادة على فعل هذا، فقد كنت دائماً الفتاة التي تضحّي بحياةٍ وأطراف ونصف دماغ لتنقذ النصف الآخر. لقد تعوّدت أن أجرّ نفسي بغطرسة في عالم يدين لي بديون غير مسدّدة. اعتمدت لفترة طويلة على عزاء الاستشهاد.

أما الآن فإني أدين بدين لا يمكنني سداده. فقد أمسكتني بقبضة قوية وسحبتني. كانت أمي ستخرجني من إفريقيا حتى لو كان ذلك آخر فعلٍ تقوم به في حياتها، وقد كان الأمر قريباً جداً من ذلك.

هذا ما حدث: وعدنا التاجر الذي ظهرت شاحنته مثل ملاك صدئ في بولونغو بأن يقلّنا في شاحنته المحمّلة بالموز إلى ليوبولدڤيل، لكنّه سرعان ما غيّر رأيه وألقى بنا ليأخذ حمولة موز أخرى. فقد أقنعه بعض الجنود على

الطريق بأن الفاكهة الآن تحقق سعراً أعلى من ثمن توصيل امرأة بيضاء إلى سفارتها. ولذا نزلنا.

سرنا يومين كاملين من دون طعام. وفي الليل كنا نقعي عند حافة الغابة ونغطّي أنفسنا بسعف النخيل حتى لا يرانا الجنود. وفي ساعة متأخرة من مساء اليوم الثاني، توقّفت شاحنة عسكرية بجانبنا، وألقى بنا أحد الجنود إلى مؤخّرة الشاحنة، فهبطنا بين ركبٍ وخوذ وبنادق. من دون شكّ كان الجنود يخططون لإيذائنا، كنت مشلولةً بسبب هذا التوقّع. لكن عينيّ أمي الحليبيّتين الزجاجيّتين أخافتهم. كان من الواضح أن هؤلاء الرجال أحسّوا بأنها تمتلك شرّاً شرساً من شأنه أن يصيبهم إذا لمسوها أو لمسوني. خصوصاً أنا. لذلك بقوا على مسافةٍ منا. جلسنا صامتتين في مؤخّرة الشاحنة، واجتزنا عشرات الحواجز العسكرية، ثم سلّمونا إلى السفارة البلجيكية التي مكثنا فيها حتى قرروا ماذا سيفعلون بنا. أمضينا في المستوصف تسعة عشر يوماً، ابتلعنا خلالها مجموعة كبيرة من مضادات السموم لأننا كنا مصابتين بطفيليات معوية، وكانت الفطريات تنمو بغزارة فوق أقدامنا وسواعدنا، ودرجة الملاريا لدينا أعلى من المعتاد.

وعلى متن طائرة طبية تقلُّ عدداً من موظّفي الأمم المتّحدة وعدداً من المرضى البيض، نُقلنا خلال ظلام دامس طويل، نمنا فيه نوم الموتى. وعندما توقّف الطنين انتصبنا في جلستنا ورمشنا بعيوننا مثل جثث مضطربة. كان ثمة ضوء عند النوافذ المستديرة. وفُتح بطن الطائرة متأوّهاً وتنشّقنا الهواء الربيعي اللطيف لفورت بنينغ، بجورجيا.

لا يمكن وصف صدمة العودة إلى الوطن. أذكر أنني وقفت طويلاً أحدّق في خطّ أصفر مطلي بدقّة فوق رصيف أسمنتي. خطّ خطّ أصفر أصفر. تأمّلتُ الصناعة البشرية الأنيقة، الطلاء، شاحنة الأسمنت والأشكال الخرسانية، كلّ هذه المواد ذهبت من أجل بناء رصيف واحد. ما الهدف من كل ذلك؟

لا أعرف الجواب. كي لا تقف سيارة هناك؟ هل توجد سيارات كثيرة حتى تُقسّم أميركا إلى أماكن بها وأماكن من دونها؟ هل كان الأمر كذلك دائماً، أم أن عددها تضاعف كثيراً -إضافةً إلى الهواتف والأحذية الجديدة وأجهزة راديو الترانزستور والبندورة الملفوفة بورق السلوفان- خلال فترة غيابنا؟ ثم حدّقت قليلاً بإشارة مرور معلّقة بإتقان فوق أسلاك عند تقاطع الطرق. لم أستطع أن أنظر إلى السيارات نفسها. كان عقلي يضجّ بكلّ تلك الألوان والحركة المعدنية المنتظمة. من المبنى المفتوح ورائي هبّت نسمة هواء لا رائحة له، وصوت طنين عالي التردد لمصابيح الفلورسنت. ومع أنني كنت واقفة خارج المبنى، فقد أحسست بأنني حبيسةٌ على نحو غريب. كانت هناك صحيفة مرمية عند حافة الشارع. كانت نظيفة بشكلٍ مستحيل، ولا تشوبها شائبة. نسيمٌ قلَبَ برقّة صفحاتها لي، صفحة بعد صفحة: ها هنا أمٌّ بيضاء صُفَّ شعرها بأناقة تقف بجانب مجفّفة ملابس بيضاء ضخمة، وطفل أبيض بدين وكومة كبيرة من الملابس النظيفة الساطعة تكفي، كما بدا لي، لإلباس سكّان قرية كاملة؛ وهنا رجل وامرأة يحملان بينهما علماً كونفدرالياً في مرج واسع ومشذّب بعناية وقد امتدّ ظلّهما وراءهما بطول شجرة ساقطة؛ وهنا امرأة شقراء، ترتدي ثوباً أسود وتضع مجوهرات وأظافرها حمراء طويلة، تمدّ يدها فوق مفرش مائدة شديد البياض لتمسك كأس نبيذ؛ وهنا طفلة ترتدي طبقات من الثياب الجديدة تضمّ إليها دمية نظيفة وغير مجعّدة، يبدو أنها ليست لها؛ وهنا امرأة ترتدي معطفاً وتعتمر قبّعة على رأسها، بيدها مجموعة من الجوارب الملوّنة. بدا لي العالم مزدحماً وفارغاً في آن معاً، خالياً من الروائح، ومشرقاً جداً. واصلت التحديق في إشارة المرور التي كانت متوهّجة باللون الأحمر، وفجأة برز سهم أخضر، يشير إلى اليسار، فانطلق صفٌّ طويل من السيارات مثل حيوانات مطيعة إلى اليسار. انفجرت في الضحك.

في هذه الأثناء تحركت أمّي. سارت كأنها في غيبوبة نحو هاتف عمومي. جريت وراءها، خجلت قليلاً لأنها اتجهت مباشرة إلى مقدّمة طابور طويل من الجنود الشبان الذين ينتظرون دورهم ليجروا اتصالاً بذويهم. ثم طلبت منهم أن يعطونا فكّةً تكفي لإجراء مكالمة مع المسيسيبي، فهرع شابان إليها وقدّما لها قطعة نقود حتى خُيِّل إليّ أن أمي قائدتهما. بدت قطعة النقود المعدنية الأميركية غير المألوفة خفيفةً في يدي. أعطيتها لأمي فاتصلت على الفور بأحد أبناء عمومتها من الدرجة الثانية، فوعد بأن يأتي على الفور ليأخذنا. مع أنّ أمي لم تكلّمه منذ عشر سنوات تقريباً، لكنها كانت لا تزال تحفظ رقم الهاتف عن ظهر قلب.

***

قُل الحقيقة كاملةً، لكنْ قُلْها بطريقة مائلة. ما هو السرّ الذي بقي في أسرتنا كي نبوح به؟ ربما تعيّن عليّ أن أتوقّف عن الكلام ثانية، حتى أتأكّد مما أعرفه. اعتقدت أنني سوّيت ذلك منذ زمن بعيد. ترتيلتي إلى الله: *Evol's dog, dog ho!* ترتيلتي إلى الحبّ: *Eros, eyesore!* أوه، عرفتها كلّها، طرداً وعكساً. تعلّمت توازن القوى ذات ليلة كونغولية طويلة، عندما زحف النمل: الخبط على الباب، الازدحام الشديد في الظلام والأقدام الملتهبة، وفي النهاية، إذا تجرّ الصوت الرخيم الدائم لجسدها «يسار... خلف». خرجت تحت نور القمر حيث كانت الأرض تلتهب وأمي تقف مثل شجرة راسخة لا تتحرّك في وسط عاصفة. كانت تحدّق بي، تحمل روث ماي في ذراعيها، تزن إحدانا إزاء الأخرى: الطفلة السليمة الجميلة ذات الجدائل الذهبية والساقين المتناسقتين القويّتين، أم الفتاة المراهقة السمراء البكماء التي تسحب نصف جسد مفكّك عنيد. أيّ واحدةٍ منهما؟ بعد تردّد لثانية واحدة فقط، اختارت أن تنقذ الكمال وتترك الإعاقة. على كلّ شخص أن يختار في لحظةٍ ما.

حيةً كنت قبل أن أرى الشرّ، كتبتُ في دفتري. على قيد الحياة في لحظة، وميّتة في اللحظة التالية، لأن دماغي المنقسم هكذا تصوّر العالم. لم يكن هناك مكان في إدا إلّا للحبّ النقي والكراهية الخالصة. حياة كهذه مُرضية وليست معقّدة. منذ ذلك الحين، بدأت حياتي تزداد صعوبة. لأنها اختارتني أنا بعد ذلك. في نهاية الأمر، لا تستطيع أن تُخرج من إفريقيا إلّا طفلة واحدة حيّة، وكنت أنا تلك الطفلة. هل كانت تفضّل روث ماي؟ هل كنت أنا مجرّد جائزة ترضية؟ هل تنظر إليّ وتزدري خسارتها؟ هل أنا على قيد الحياة فقط لأن روث ماي ماتت؟ ما الحقيقة التي يمكن أن أقولها؟

نقّبت مؤخّراً في تاريخ والدنا. وجدت صندوقاً قديماً مليئاً بأغراض تخصّه. كنت بحاجة إلى العثور على وثائق تسريحه من الخدمة العسكرية لأحصل على بعض المزايا في الجامعة. وجدت أكثر مما كنت أبحث عنه. فلم يحصل أبي على الوسام كما كان يقول لنا، نتيجة أعمال بطولية قام بها، وإنما لأنه أصيب بجروح ولم يمت بعد أن هرب من الغابة، بينما سيق رفاقه الآخرون جميعاً إلى حتفهم. لا أكثر من ذلك. كانت ظروف تسريحه مشرّفة من الناحية الرسمية، لكنها كانت في الحقيقة: جبن، ذنب، عار. كان القسّ هو الناجي الوحيد من كتيبة لقي كل رجالها حتفهم ولازمه ذلك طوال حياته. لا عجب أنه لم يتمكّن من الهرب من الغابة نفسها مرّتين. حكت لي أمي جزءاً من القصّة، وأدركت أني أعرف الباقي فعلاً. لقد حكم القَدَر على أبينا أن يمضي بقية حياته وهو يدفع ثمن تلك الأرواح، وقد قضى حياته فعلاً بالظهور اليائس تحت أعين إلهٍ لن يغفر له أيّ دَيْن. لقد جعلني هذا الله أشعر بالقلق، وفي الآونة الأخيرة كان ينظر إليّ. أرى في منامي روث ماي والأطفال الآخرين المدفونين بجانب قبرها، يصيحون: «ماما هل يمكنني أن؟»، وتزحف الأمهات على أيديهن وركبهن، يحاولن أن يأكلن التراب من فوق القبور الجديدة لأطفالهن. والبوم لا يزال ينعق وينعق، والهواء مثقل

بالأرواح. هذا ما حملته من الكونغو على ظهري الصغير المحني. خلال السبعة عشر شهراً التي أمضيناها في كيلانغا، مات واحد وثلاثون طفلاً، وبضمنهم روث ماي. لمَ ليست إدا؟ لا أستطيع أن أفكّر بأي جواب يمكن أن يبرّئني.

أظن أن الأسباب التي جعلت أمي تنقذني معقّدة مثل تعقيد القَدَر نفسه. فمن بين أشياء أخرى، كانت البدائل المتاحة لها محدودة. ذات مرة خانتني، ومرة أخرى أنقذتني. لقد صنع القَدَر الشيء نفسه لروث ماي، لكن بصورة معاكسة. توجد في كلّ خيانة لحظة مثالية، قطعة عملة معدنية على وجهها طرّة أو نقش، والخلاص يكون على الوجه الآخر. الخيانة صديقةٌ عرفتها منذ زمن بعيد، إلهة ذات وجهين تنظر إلى الأمام وإلى الوراء بشكٍّ واضح وجادّ تجاه الحظ السعيد. لطالما اعتقدت بأنني سأصبح عالمة ثاقبة التفكير، بسبب ذلك. وكما اتضح، فإن من الممكن أن تنجب الخيانة تائبين أيضاً، سياسيين ثانويين دهاة، وأشباحاً. يبدو أن أسرتنا أنجبت واحداً من كلٍّ منهم.

احملونا، تزوّجونا، انقلونا بالعبّارة، ادفنونا: هذه هي طرقنا الأربع للخروج.

على الرغم من ذلك، كي أقول الحقيقة، فإنه لم يعبر أحد منّا بسلامة حتى الآن إلّا روث ماي، بالطبع. لكن ربما يجب أن ننتظر لنسمع منها.

صعدت إلى العبّارة. حتى صباح ذلك اليوم الذي انتقلنا فيه إلى ضفة النهر الأخرى، كان يتملّكني شعور بأن أمي ستأخذ معها ليا، وتتركني. اندفعت ليا التي كانت مصابة بحمّى الملاريا وجلست في القارب كي يتوازن مع البطارية في الطرف المقابل منه. إنها تتفوّق عليّ دائماً ببطولتها. لكن عندما كنا ننظر إلى القارب وهو يجتاز نهر كوينغ، أمسكت أمي بيدي بقوة. عندئذٍ فهمت أنها اختارتني أنا لتخرجني من إفريقيا، حتى لو كان ذلك آخر فعلٍ تقوم به في حياتها، وأظن أنه ربما كان كذلك.

ليا برايس

بعثة نوتردام دي دولور 1964

تسمّيني الراهبات هنا *La dragueuse*. كاسحة ألغام. وهذا ليس لأن رداء الراهبات الذي أرتديه يجرف التربة، فأنا أرتدي بنطالاً تحته وأرفعه نصف الوقت تقريباً كي أتحرّك بسرعة أكبر أو كي أتسلّق شجرة وأنا أحمل قوسي لأصطاد قليلاً من اللحم - الذي أستطيع القول إنهن سعيدات لتناوله، لكنّي كنت أرى في عيونهن أنهنّ يعتقدن أنني أمتلك طاقة كبيرة بالنسبة للظروف الحالية. حتى الأخت تيريز -وهي أقرب شيء إلى الصديقة هنا في «الصمت الكبير»- ميّزتني كغنمة سوداء في هذا القطيع الأبيض كالثلج، بإصرارها على أن أرتدي كل شيء بنيّ تحت الكتف، لأنها المسؤولة عن الغسيل في المستشفى، مدّعيةً أنني حالة ميئوس منها عندما يتعلّق الأمر بالأبيض.

«ليزيلن!» - تقول موبّخة، وهي ترفع وشاحي الكتفيّ الملطّخ بالدم. دم قطّة كنت قد سلختها.

«الزيارة الشهرية؟» - أقول، فتنحني إلى الأمام، مورّدة الوجه، وتؤكّد «*de trop* (كثيرٌ جداً)». ومع ذلك أنظر حولي وأتساءل كيف، في الظروف الحالية، أيّ قدرٍ من الطاقة يمكن أن يكون كافياً؟!

ليزيلن هي أنا: الأخت ليزيلن، قضية رحمة تسللت تحت جنح الظلام، ومُنحت ملاذاً لفترة غير محددة من الزمن لأن خطيبي في السجن، فارتديت عدة ثياب وارتبطت بالربّ كي أخفي اسمي الأصلي. عندما أصلّي أرجو أنه يفهم أنّ ارتباطنا لن يدوم إلى الأبد. يبدو أن الراهبات ينسين أنني لست واحدةً منهن، مع أنهن يعرفن كيف جئت إلى هنا. تطلب مني تيريز أن أعيد على مسامعها التفاصيل بينما تتسع عيناها الرماديتان. إنها في العشرين من

العمر وتبعد آلاف الأميال عن مراعي فرنسا، تغسل ضمادات المصابين بالجذام وملاءات الإجهاض المروّعة، وعلى الرغم من ذلك يثيرها أنني نجوت، أو ربّما لأنني تشاركت نجاتي مع أناتول. وعندما نكون وحدنا في غرفة الغسيل الحارة، تسألني كيف أعرف أنني واقعة في الحبّ.

«يجب أن أكون كذلك! فماذا غيره يجعلك غبية بما يكفي لتعريض حياة مئات الأشخاص للخطر؟».

هذا صحيح، لقد فعلت ذلك، فعندما استيقظت أخيراً من حالة الخدر التي كانت تغمرني في بولونغو، أدركت كم أني عبءٌ ثقيل، لا من أجل فوفو وصلصة السمك التي كنت أتناولها كلّ يوم فحسب، وإنما لأنني أجنبية في قلب العاصفة، فقد كان معروفاً عن جيش موبوتو أنه عديم الرحمة ولا يمكن التنبؤ بما يمكن أن يفعله. فهو يستطيع أن يتهم بولونغو كلها لأنها تؤوي فتاة بيضاء، ويمكنه أن يأمر بحرق بولونغو عن بكرة أبيها من دون أي سبب. وقد تعلّم الجميع بسرعة أن أفضل استراتيجية هي أن تكون غير مرئيّ. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان وجودي معروفاً في المنطقة كلها: كنت راية متلألئة الألوان تلوح عالياً طوال شهور المرض والنسيان تلك، لكني مجرّد فتاة عاشقة. مركز الكون الخاص بي.

أخيراً، انتصبت في جلستي، فرأيت أن الشمس ما تزال تشرق من الشرق، لكن كلّ شيء آخر انقلب رأساً على عقب. رجوت أناتول أن يأخذني إلى أي مكان لا أشكّل فيه خطورةً على آخرين، لكنّه رفض أن أذهب وحدي، وأصرّ على أنه لا يوجد فيّ شيءٌ أخجل منه. كان يجازف بحياته –بصفته من أنصار لومومبا السابقين– ليبقى بقربي. لكنه قال إن الكثيرين بدؤوا يجازفون الآن بحياتهم في سبيل ما أحبّوه، أو ببساطة، من أجل ما عرفوه. ووعدني بأن نذهب قريباً، نذهب معاً.

وضع لنا بعض الأصدقاء خططاً، ومنهم رجال من كيلانغا لم أكن أحلم

بأنهم سيجازفون بحياتهم من أجل أناتول. وكان تاتا بواندا أحدهم. جاء ماشياً ببنطاله الأحمر اللامع، في وقت متأخّر في إحدى الليالي، يحمل على رأسه حقيبة فيها نقود قال إنه كان مديناً بها لأبي، مع أنني أشكّ في صحّة ذلك. كانت تلك الحقيبة حقيبتنا، فيها ثوب ودفتر تلوين لروث ماي وأشياء أخرى كنا قد صنعناها من أجل «صندوق الأمل»، إضافةً إلى قوسي وسهامي. لا بدّ أن أحداً ما في كيلانغا قد احتفظ لنا بكلّ هذه الأشياء الثمينة. وأفترض أنه من المحتمل أيضاً أن النسوة اللاتي هرعن إلى بيتنا عندما غادرناه لم يرغبن في هذه الأشياء، على الرغم من أن القوس على الأقل كان ذا قيمة. الاحتمال الثالث: هو أنهم كانوا فزعين من إخفاق يسوع في حمايتنا، فاختاروا ببساطة أن يتجنّبوا ما يتعلّق بنا.

أخبار أبي لم تكن جيّدة، فقد صار يعيش وحده. لم أفكّر بذلك - من سيطبخ له طعامه؟ لا أتخيّل أبي أبداً من دون نساء يحطنه بالرعاية. وسمعت أنه أطلق لحية، وأصبح شعره أشعث طويلاً، ويعاني بشدة من سوء التغذية والطفيليات. وسمعتُ أن بيتنا احترق، إمّا بسبب روح أمي وإما أن أطفال القرية أحرقوه، لكن تاتا بواندا قال إنه ربما حاول أبي أن يشوي اللحم على موقد الكيروسين. هرب أبي ولجأ إلى كوخ في الغابة سماه «الكنيسة الجديدة للحياة الأبديّة، المسيح بانغالا»، وبقدر ما يبدو ذلك واعداً فإنه لم يكن يأتي إلى كنيسته الجديدة أناس كثيرون، لأن الناس كانوا ينتظرون رؤية كيف سيتمكّن المسيح من حماية تاتا برايس الذي أصبح يعيش الآن كالآخرين، من دون مساعدة خارجية تأتيه بالطائرة، ومن دون نساء يعتنين به. وحتى الآن، يبدو أن الأب لم يتلقَّ أيّ معاملة خاصة من المسيح. إضافةً إلى كل ذلك فإن كنيسته في مكان قريب جداً من المقبرة.

أخبرني تاتا بواندا بلطف صادق أن كيلانغا كلها حزنت على موت روث ماي، وأن تاتا ندو هدّد تاتا كوفودُندو بنفيه من القرية لأنه وضع الأفعى في

قنّ الدجاج في بيتنا، وذلك بعد أن تأكّدوا أنه هو الذي فعل ذلك، عندما أظهر نِلسون آثار قدمَي تاتا كوفودُندو لبعض الشهود. وتعرّضت كيلانغا لمشكلات من كل نوع. وكان أنصار لومومبا من تلاميذ أناتول الذين سُلِّحوا يخوضون -جنوباً على طول النهر- مناوشات مع ما تبقّى من الجيش الوطني الذي أصبح الآن جيش موبوتو. وقد حُذِّرنا من أن السفر إلى أي مكان سيكون صعباً.

كان الأمر أصعب من ذلك. فعلى الرغم من توقّف الأمطار، إلا أننا بصعوبة استطعنا السير حتى كوينغ، من هناك خطّطنا للسفر بالعبّارة إلى ستانليڤيل التي ما يزال لومومبا يحظى بدعم شعبي هائل فيها. ثمة عملٌ يجب أن يُنجَز. وتوقّع أناتول أنّنا قد نكون في مأمن أكثر هناك.

أنقذتنا النقود التي جلبها لنا تاتا بواندا. صحيحٌ أنه كان مبلغاً صغيراً، لكنه كان بالفرنكات البلجيكية الصلبة، فالعملة الكونغولية صارت عديمة الفائدة بين ليلة وضحاها، ولم يعد بإمكاننا بمليون ورقة كونغولية وردية اللون دفع ثمن ركوبنا على العبّارة.

كان كل شيء على هذا النحو: فقد كانت الأرض تتحرّك من تحتنا ونحن نائمون، ونستيقظ صباح كلّ يوم على مفاجآت جديدة فظيعة. وسرعان ما تبيّن لنا أنني عرضة للخطر في ستانليڤيل أكثر مما كنت في بولونغو. فقد كان الناس يستشيطون غضباً عندما يرون بشرة بيضاء، لأسباب أستطيع أن أفهمها. فقد خسروا بطلهم في صفقة عقدها الأجانب البيض مع موبوتو. لفّني أناتول بباني شمعي منقوش، آملاً أن أتخفّى في هيئة امرأة كونغولية، في أثناء محاولات الحفاظ عليّ من الدوار الصاعق أمام السيارات. كاد يُغمى عليّ في ذلك الازدحام والصخب في ستانليڤيل: الناس، السيارات، الحيوانات في الشارع، والنظرة الصارمة للنوافذ في المباني الأسمنتية العالية.

لم أكن قد غادرت الغابة منذ ذهابي مع أبي إلى ليوبولدڤيل منذ سنة، أو منذ مئة سنة، لا أعرف بالتحديد.

لم يُضِعْ أناتول أيّ وقت في ترتيب مسألة خروجنا من المدينة بسرعة. في مؤخّرة شاحنة أحد أصدقائه، تغطّينا أوراق المانيوك، غادرنا ستانليڤيل في ساعة متأخرة من الليل، وعبرنا إلى جمهورية إفريقيا الوسطى بالقرب من بانغاسو، وسُلِّمت إلى هذه البعثة في عمق الغابة، حيث تستطيع فتاة مبتدئة مجعّدة الشعر تُدعى الأخت ليزيلن أن تمضي -وسط حياد الأخوات الحذِر- بضعة أشهر من دون أن يلاحظها أحد. ومن دون أي سؤال، دعتنا الرئيسة الأم أن نمضي أنا وأناتول ليلتنا الأخيرة معاً في غرفتي الفارغة الصغيرة. شعوري بالامتنان للطفها جعلني أعبر شوطاً طويلاً على طريق صعب.

كانت تيريز تنحني وتنظر إليّ بحاجبيها المائلين اللذين يشبهان علامات الحروف فوق اسمها (Thérèse)، وتسألني: «ليزيلن، بماذا تتّهمين نفسك؟ هل لمسك في كل مكان؟».

توقّعنا أن نفترق لمدة لا تزيد عن ستّة أسابيع أو ثمانية، لأن أناتول سيعمل مع أنصار لومومبا لإعادة تجميع صفوفهم وتنفيذ خطة زعيمهم الراحل، من أجل تحقيق السلام والازدهار. كنّا بهذه السذاجة. ألقت شرطة موبوتو القبض على أناتول حتى قبل أن يتمكّن من العودة إلى ستانليڤيل. واستُجوب حبيبي على صوت ضلع مكسور، ونُقل إلى ليوبولدڤيل، وسُجن في فناء يعجّ بالجرذان، في مكان كان في الماضي سفارةً راقية. وقد زاد فراقنا الطويل حبي لأناتول قوة، ولقواعد اللغة الفرنسية التي علّمني إياها، وزاد قدرتي على التعايش مع عدم اليقين. وأفضيتُ لتيريز أخيراً أنني بدأت أفهم صيغة الشرط.

سرت في جسدي رعشة عندما فكّرت بما يمكن أن يقوله لي أبي إذا رآني هنا، أتوارى داخل قبيلة من الراهبات من طائفة الكاثوليك الباباوية.

أمضي أيامي أفعل أشياء مفيدة بقدر ما أستطيع: أبذل قصارى جهدي لأكون نظيفة، وأحدّد أهدافي، وأُبقي شفتيَّ مغلقتين بدءاً من صلاة الغروب حتى يحين موعد الفطور، محاولةً تعلّم مهارة الصبر. كنت أتلقى رسالة من ليوبولدڤيل كلّ بضعة أسابيع تجعلني أتمالك نفسي، ويخفق قلبي كلما رأيت مغلّفاً أزرق كبيراً بيد إحدى الأخوات، تسلّمه لي سراً كما لو أنّ رجلاً يختبئ في داخله، ونعم، كان يوجد في داخله رجل ما يزال حلواً ومريراً وحكيماً، والأفضل من كلّ ذلك: كان ما يزال على قيد الحياة. لا أتمالك نفسي، فأصرخ وأجري إلى الباحة لأتذوّق طعمه وحدي مثل قطّة تحمل في فمها فرخةً مسروقة. أسند وجهي إلى الحائط البارد، وأقبّل حجارته القديمة في مديح الأسر، لأن وجودي هنا ووجوده في السجن كانا الشيئين الوحيدين اللذين يتيحان لنا كلانا فرصة أخرى لنكون معاً. كنت أعرف أنه يحتقر جلوسه هناك لا يفعل شيئاً بينما ثمة حربٌ تدور خلفنا. لكن لو كان أناتول حراً في فعل ما يحلو له الآن، فإني أعرف أنه سيُقتل. وإذا كان السجن يدمّر روحه، فحسبي أن آمل ببقاء جسده سليماً، وسأفعل ما بوسعي للباقي لاحقاً.

كانت الراهبات يتجسّسن عليّ واقفةً هناك، ويقلن لي إنني سأقوّض مؤسستهنّ، فقد اعتدن على المصابين بإطلاق النار والمصابين بالجذام، لكن لم يعتدن رؤية حبٍّ حقيقي.

من الواضح أني سأبقى هنا لبعض الوقت، لذا كلّفتني الأم ماري بيير بالعمل في العيادة، فإذا لم أستطع أن أكتسب الفقر والعفّة والطاعة، فبإمكاني أن أتعلّم، بدلاً من ذلك، عن الأدوية المضادة للدود، والولادات المقعدية، والجروح الناجمة عن الإصابة بالسهام، والغرغرينا، وداء الفيل. كان جميع المرضى تقريباً أصغر منّي سناً، فهناك في هذا البلد كل أنواع الأسباب التي تمنع دخول الناس في سن الشيخوخة.

تصل إمداداتنا من هيئة الإغاثة الكاثوليكية الفرنسية، وأحياناً لا تأتي إلا من الهواء. ففي أحد الأيام جاء مراسل شاب على درّاجة هوائية يتأرجح فوق درب الغابة، جالباً لنا اثنتي عشرة قارورة من مضادات السموم، لُفّت كل قارورة بقماشة ووُضعت داخل علبة مجوهرات نسائية - كنز مدهش لا يمكننا أن نعرف تاريخه. وقال الشاب إنها من عند طبيب غادر ستانليڤيل. فتذكّرت الطبيب البلجيكي الذي عالج ذراع روث ماي، وقررت أن أؤمن بأن روث ماي نفسها شاركت بهذه الهدية. شكرَتْ الأخوات الربّ، وشرعن في إنقاذ دزينة من الأشخاص من لدغات الأفاعي. أكثر مما فقدناه!

من التحدّث مع المرضى أصبحت أتكلّم، بشكلٍ لا بأس به، باللينغالا، اللغة السائدة في شمال الكونغو، وفي ليوبولدڤيل، وفي معظم المناطق الصالحة للملاحة على طول النهر. إذا عاد لي أناتول في أي وقت، فسأكون جاهزة للذهاب معه إلى أي مكان. ثم مرَّ شهر لم أستلم خلاله أي رسالة منه، فاعتراني شعور بأنه انزلق إلى الموت، أو أنه ثاب إلى رشده وقرر أن يبتعد عن فتاة بيضاء تعيش في مكان غير مكانها، وأنه رحل إلى غير رجعة. شعرت بأنني فقدته كما فقدت أختي، يا إلهي! يا يسوع الجميل! روث ماي وإدا وراشيل وأمي وأبي، كلّهم ذهبوا. ما جدوى أن أمكث هنا من دون اسم ولا جواز سفر، أكرّر كالببغاء «كيف حالك» بلغة لينغالا؟! أحاول أن أحصل على تفسير من الله، لكن لا شيء يصلني. وفي الليل، كنا نجلس في صالة الطعام نضع أيدينا في أحضاننا نحدّق في المذياع، سيّدنا الفظّ، الصغير، نسمع نبأً سيئاً تلو الآخر، من دون أن نستطيع فعل شيء. الكونغو الحرّة التي كادت تتحقق بدأت تتراجع الآن. ماذا بإمكاني أن أفعل سوى أن ألقي بمسبحتي على جدار غرفتي الصغيرة وألعن العنف؟ كانت الراهبات يتحلّين بقدرة عجيبة على الصبر، فقد أمضين هنا عقوداً من الزمن يعملن على إطالة أمد حياة من يعانون نقص التغذية، واعتدن على المآسي التي تحيط بنا، لكن

بالنظر إلى عيونهن التي لم تغمض، والتي يؤطّرها غطاء الرأس الأبيض المنشّى، أرغب في الصراخ: «هذه ليست إرادة الله!». كيف يمكن لأحد، حتى لو كان إلهاً تشتّته هموم أخرى، أن يسمح بحدوث كلّ ذلك؟

«*Ce n'est pas à nous*» -تقول تيريز- «ليس لنا أن نسأل هذا السؤال»، وهذا يشبه في درجة إقناعه صياح ميثوسالا: «أختاه، الله كبير! أغلقي الباب».

«لقد سمعت هذه العبارة قبل الآن» -قلت لها- «وأنا متأكّدة من أن الكونغوليين سمعوا ذلك كلّ يوم لمدة مئة سنة عندما كان عليهم أن يتحمّلوا البلجيكيين. الآن لديهم فرصة القتال أخيراً، ونحن نجلس هنا لنشاهدها تولد ميّتة، مثل ذلك الطفل الأزرق الذي ولدته تلك المرأة المصابة بداء الكزاز هذا الصباح».

«هذه مقارنة فظيعة».

«ولكن هذه هي الحقيقة».

تنهّدت وكرّرت ما قالته للتوّ. الأخوات لا يتخذن موقفاً في الحرب، وإنما عليهن أن يحملن المحبة والإحسان في قلوبهن حتى للعدو.

«لكن من هو العدو؟ قولي لي يا تيريز. أي طرف تحاولين ألّا تكرهيه، الرجل الأبيض أم إفريقيا؟!».

تلتقط ملاءةً مفتوحة وتأخذ الوسط بأسنانها لتطويها إلى نصفين. أظن أنها فعلت ذلك أيضاً كي توقف فمها عن الكلام.

«سأقاتل إلى جانب السيمبا إذا سمحوا لي»، اعترفت لها ذات مرة.

لدى تيريز طريقة للنظر إليّ بطرف عينها، وأتساءل عما إن كانت لم تتسرع كثيراً عندما نذرت نفسها لتصبح راهبة، فعمل كاسحة الألغام يجذبها.

«لديك هدف جيّد وتمتلكين أعصاباً قوية» -قالت من وراء الملاءة التي كانت تطويها- «اذهبي وانضمّي إليهم!».

«أتظنين أنني أمزح؟!».

توقّفت ورمقتني بجدية: «*Non, ce n'est pas une blague*. (أنا لا أمزح!) ليس عليك أن تحاربي مع السيمبا، حتى لو كنت رجلاً. لأنك بيضاء، وهذه حربهم، ومهما حدث فإنه سيحدث».

«ليست حربهم ولا هي إرادة الله، إنها من تدبير البلجيكيين والأميركيين الملاعين».

«الراهبة الأمّ ستغسل فمك بالمُطهِّر».

«لدى الراهبة الأمّ أشياء أكثر إلحاحاً لتستعمل فيها مطهّرها».

ولا مكان قريب كفاية أيضاً، فكّرت. وفي غرفتي الصغيرة رحت ألعن في سريرتي عدداً من الرجال ليذهبوا إلى الجحيم: الرئيس آيزنهاور والملك ليوبولد وأبي أيضاً. لعنتهم لأنهم ألقوا بي في حرب أصبحت البشرة البيضاء فيها على الطرف الخاطئ. هذا واضح وبسيط.

«إن كان لله فعلاً يدٌ في هذه الأشياء» -أبلغتُ تيريز- «فإنه يسخر بقسوة من الأمل في الحبّ الأخوي. ويؤكّد أنّ اللون سيظلّ مهماً إلى الأبد».

وعندما لم يعد هناك شيء يمكن أن يُقال بين فتاة المزرعة التقيّة وكاسحة الألغام، طوينا ملاءاتنا وأرديتنا المختلفة الألوان.

سيقتلني السيمبا ما إن يرونني، هذا صحيح، إنهم جيش من اليأس الخالص والكراهية. لقد اتحد شباب ستانليڤيل والمسنّون في القرى وأي شخص يستطيع أن يجد بندقية أو منجلاً. يربطون نكيسي من أوراق النباتات حول معاصمهم ويعلنون أنفسهم آمنين من الرصاص، محصّنين ضد الموت. وهم كذلك فعلاً، يقول أناتول: «كيف يمكنك أن تقتل شخصاً ميّتاً؟». وسمعنا كيف أنهم شحذوا أسنانهم وهاجموا الغزاة في شمال شرقي الكونغو، يتغذّون على الغضب فحسب.

قُتل ثلاثون شخصاً أبيض في ستانلي، من بينهم شخصان أميركيّان – سمعنا ذلك في الراديو على الموجة القصيرة وعرفنا ما يعنيه. وفي الليل،

أعلنت الأمم المتّحدة ردّها، وشنّت هجوماً جوياً وبرياً. وأطلقوا على هذا الجيش الغازي اسم القوات المشتركة التي تضم الولايات المتحدة وبلجيكا وجنوداً مرتزقة من خليج الخنازير. وفي الأسابيع التالية سمعنا أكثر من مئة مرة عن مقتل أشخاص بيض على يد السيمبا في ستانليڤيل، بثلاث لغات: على راديو فرنسا، وهيئة الإذاعة البريطانية (BBC)، وفي نشرات أخبار موبوتو بلغة اللينغالا التي تبث من ليوبولدڤيل. كانت الأخبار كلّها متشابهة. كان هؤلاء البيض الثلاثون، لترقد أرواحهم بسلام، اختاروا أن يشنّوا هجوماً شاملاً على مناصري الاستقلال. كم كونغولياً قُتلوا على يد البلجيكيين، وأعمال السخرة، والمجاعات، والشرطة الخاصّة، والآن على أيدي جنود الأمم المتحدة؟ لن نعرف على الإطلاق. لم يُعَدّوا، وحتى لو كان من الممكن عدّهم، فلا قيمة لهم.

في الليلة التي حلّقت فيها طائرات الهيلوكوبتر، أيقظتنا الاهتزازات وغادرنا أسرّتنا بسرعة. خُيِّل إليّ أن حجارة الدير القديمة ستنهار. جرينا إلى الخارج وهبّت علينا ريح قوية من مراوح الطائرات فوق الأشجار، وخفقت أثواب نومنا الناصعة البياض متحوّلةً إلى زبد. تملّك الراهبات الخوف فرسمن شارة الصليب وهرعن عائدات إلى أسرّتهن. لم أستطع أن أفعل مثلهن. فجلست على الأرض، أعانق ركبتي، وأجهشت في البكاء، لأول مرة منذ أن بدأ الزمن، كما يبدو. بكيت وفمي فاغر، انتحبت على روث ماي وعلى الأخطاء القديمة العبثية التي ارتكبناها وعلى كلّ ما سيحدث الآن، على جميع الأموات وعلى من لم يموتوا بعد، سواء أمعروفين كانوا أم مجهولين بالنسبة لي، وعلى جميع الأطفال الكونغوليين الذين من دون أمل. شعرت بأنني أتهاوى، وأنني، عندما يأتي الصباح، لن أكون سوى عظام ذائبة في التربة المتعفّنة في حديقة الخضراوات التي زرعتها الراهبات. كومة من العظام العقيمة، لا شيء أكثر من ذلك: المستقبل الذي تنبّأت به ذات يوم.

لأستجمع نفسي حاولت أن أبكي من أجل شيء أكثر واقعية، واستقررت على أناتول. جثوت أمام تمثال العذراء الصغير ذي الوجه المتآكل، وحاولت أن أصلّي من أجل زوجي المستقبلي. صلّيت من أجل الحصول على فرصة، ومن أجل السعادة والحبّ، ومن أجل -لأنه لا يمكن أن تصلّي من أجل الجنس بشكل مباشر- إمكانية إنجاب أطفال. وأدركت أنني أكاد لا أتذكّر وجه أناتول. لم أستطع تخيُّل الله على الإطلاق، وانتهى به المطاف ليبدو في صورة أبي. حاولت أن أتخيّل المسيح في جسد الأخ فاولز، تاتا بيدييبيدي وزوجته الجميلة، وقاربهما غير المستقر الذي يوزّعان به مسحوق الحليب وحبوب الكينين والحبّ للأطفال على امتداد النهر. «اهتمّي بالمخلوقات» كانت نصيحته. اقتُلعت أشجار النخيل في فناء الدير وسُوِّيت بالأرض بفعل الريح التي أحدثتها طائرات الهيلوكوبتر، وبدا أنها مهزومة جداً في هذه الحرب لتقبل صلواتي. لذا ركّزت على جدران الدير المتينة وصلّيت مباشرة للأحجار السوداء، ناشدتها: «أرجو أن تبني جدراناً متينة كهذه حول أناتول. أرجوك دعيهم يقيمون سقفاً يمنع أن تسقط هذه السماء الفظيعة فوقه». صلّيت للأحجار الإفريقية القديمة السوداء التي كشفتها الأرض الداكنة القديمة الموجودة هنا منذ القدم. الشيء الصلب الوحيد الذي يمكن الإيمان به.

راشيل أكسلروت

جوهانسبرغ، 1964

لو كنت أعلم أن الزواج سيكون على هذا النحو، لربما ربطت كل أقمشة «صندوق الأمل» معاً وصنعت منها حبلاً علّقته على شجرة وشنقت نفسي.

لم تكن الحياة في جنوب إفريقيا هي التي تزعجني، لأنه لم يكن يبدو

لي بلداً أجنبياً. يمكنك الحصول هنا في المتاجر على، كلّ ما تحتاج إليه: شامبو بريك ذو التركيبة الخاصة، وحليب فيليبس ماغنيزيا، وحساء البندورة كامبيل، وكل شيء يمكن أن تفكّر فيه حقاً! والمناظر الطبيعية جميلة، خصوصاً عندما تستقلّ القطار إلى الشاطئ. أنا وصديقاتي نحبّ أن نملأ سلّة النزهة بالشمبانيا وبسكويت توبلير (الذي هو في الواقع كوكيز وليس بسكويت - تخيّلوا الدهشة التي أصابتني عندما اشتريته لأتناوله مع صلصة اللحم)، ثم نتوجّه إلى الريف لنستمتع بمناظر التلال الخضراء. بطبيعة الحال، يجب أن تنظر إلى الجانب الآخر من الطريق عندما يمرّ القطار بالبلدات، لأن هؤلاء الناس لا يعرفون ماذا يعني المنظر الطبيعي الجميل، هذا مؤكّد، فهم يبنون بيوتهم من لوح صدئ من الصفيح أو من واجهة صندوق، ويتركون الطرف المكتوب عليه إلى جهة الخارج ليراه الجميع. ولكن عليك أن تحاول وتفهم، هم لا يملكون المبادئ الأخلاقية نفسها التي نملكها. ما هذا إلّا جزء واحد من العيش هنا، ويجب أن تتفهّم هذه الاختلافات.

في ما عدا ذلك، يشبه هذا البلد أيّ بلد آخر يمكن أن تجده في أي مكان، حتى الطقس نموذجي هنا، ولا أظن أن الناس في البلدان الأخرى يعرفون أن الطقس في إفريقيا قد يكون طبيعياً وعادياً هكذا. أما الشيء السيّئ الوحيد هنا فهو أن تغيّر الفصول يسير إلى الوراء لأن خط الاستواء فوقنا، وهذا ما يستغرق بعض الوقت منك للتعوّد عليه. لكن هل أتذمّر؟ يا إلهي، لا! أضع فقط شجرة عيد الميلاد في منتصف الصيف وأغنّي «زينّوا القاعات»، وأتناول المارتيني في الشرفة ولا أعود أفكّر بشيء. أنا شخص قابلٌ للتكيّف، ولا أشعر بالحرج إذا كلّمت الخادمة بالأفريكانية، بالطريقة نفسها التي يتحدّث فيها شخصٌ بالإنكليزية في بداية تعلّمه لها. إذ إنّ إصدار التعليمات والأوامر يكاد يكون هو ذاته في جميع اللغات. فإذا سمعت مثلاً كلمة «نووس» في الراديو، فإن أيّ شخص مهما كان غبياً يمكنه أن يعرف

أنها تعني «نيوز News» (أخبار)، ولذا ما عليك إلا أن تنهض وتنتقل إلى المحطة الإنكليزية!

أعيش حياة جيّدة، بالنظر إلى المحيط العام. لقد رميت الماضي ورائي ولم أعد أفكّر فيه. هل عندي أسرة؟ أتوقّف أحياناً وأسأل نفسي. هل عندي أمّ وأب وأخوات؟ هل جئت حتى من أي مكان؟ لأن الأمر لا يبدو كذلك. يبدو كما لو أني هنا فحسب، وكنت كذلك دائماً. عندي صورة صغيرة جداً أظهر فيها مع أخواتي، قُصَّت على شكل قلب، وصادف أني كنت قد وضعتها في قلادة ذهبية وعلّقتها في رقبتي عندما غادرتُ ظروفنا التعيسة في الكونغو. أُخرجها بين الحين والآخر وأحدّق بتلك الوجوه البيضاء الصغيرة الحزينة، أحاول أن أعرف أين أنا في هذه الصورة. وهذا يكون الوقت الوحيد الذي أتذكّر فيه أن روث ماي ميّتة. كنت قد قلت إن كلّ ما حدث كان بسبب ليا، لكن في الحقيقة أظن أنه كان بشكل أساسي خطأ والدنا، لأنه كان يجب علينا كلنا أن نرضخ لإرادته. لو كان الأمر بيدي لما وضعت قدمي قطّ في تلك البقعة المليئة بالأفاعي، كنت سأبقى في البيت وأترك الناس يذهبون للتبشير إذا أرادوا ذلك، مرحى لهم! لكن الصورة صغيرة جداً فأضطر إلى أن أقرّبها كثيراً من وجهي حتى تكاد تلتصق بطرف أنفي لأميّز هذا من ذاك. إن التركيز الشديد فيها يؤلم عيني، لذلك فإنها غالباً تبقى في الدرج.

كما قلت، فأنا راضية بمعظم الظروف التي أعيشها حالياً. أما بؤسي فمصدره قلقٌ آخر وهو زواجي. ويمكنني إضافة إنه لا توجد كلمة سيئة تكفي لوصف إيبين أكسلروت الذي لم يجعل مني امرأة مخلصة، فقد كان يعاملني تماماً مثل جارية، خليلة، مدبّرة منزل، ويضاجعني عندما يشتهي، ثم يسافر لشهور عديدة إلى مكان لا يعلم أحد أين هو إلّا اللّه. يتركني وحدي، وأنا في زهوة شبابي. وعندما كنت أهدّده بأنني سأتركه، كان يقول إنني الفتاة الغنية المسكينة الصغيرة (ولو كنّا أغنياء حقاً لاختلفت القصّة كلها)، ويقول

إنني لا أستطيع تركه لأنه لا يوجد أحدٌ هنا يستطيع تحمّل نفقاتي. هذا غير صحيح لأن جميع الذين نعرفهم يسكنون في منازل أفضل من منزلنا.

كان إيبين قد حصل على مبلغ كبير لقاء الخدمات التي قدّمها في الكونغو، يمكنك أن تقول مدّخرات لائقة، لكن هل رأيتها؟ لا يا سيّدي، وصدّقني، بحثت عنها تحت الفراش لأنه من ذلك النوع من الأشخاص - في الحقيقة وجدت هناك مسدساً. وكان يقول إنه يستثمر أمواله، ويدّعي بأنه عاد للعمل في تجارة الماس في الكونغو وأن لديه شركاء أجانب، لكن كان يجب أن أذكّره دائماً بأن يستحمّ ذات يوم. ولذا فلو كان عنده شركاء أجانب، فإني لا أظن أنهم من طبقة محترمة. عندما قلت له ذلك رفع رأسه من قنينة البيرة التي كان يشربها ليضحك ساخراً مني، ثم قال: «حبيبتي إن إمكانياتك العقلية من خارج هذا العالم»، وهو يقصد فراغ الفضاء الخارجي، ها، ها. هذه هي نكتته المفضّلة. وقال إن دماغي مثل لوح فارغ إلى حدّ أنه يستطيع أن يفضي إليّ بكلّ سرّ دولة يعرفه، ثم يأخذني مباشرة إلى دامنيستري إنترناشيونال(*) من دون أن يشعر بالقلق، وقال إن على الحكومة أن توظّفني لأعمل مع الجانب الآخر. لم يكن ذلك شجاراً محبّاً ولطيفاً مثل شجار العشاق. كان يقول ذلك ويضحك في وجهي. أوه، لقد بكيت لدرجة أني خفت إفساد بشرة وجهي.

لكن ليس بعد الآن. لقد انتظرت بصبر وأبقيت عيني مفتوحة، وطوال هذا الوقت كنت أوبّخه جيّداً أمام مرآة الحمّام، كما كنت أفعل مع أبي، وأقول له: «انتظر فقط، سأريك عقل من هو اللوح الفارغ!».

لقد اقترب يوم راشيل برايس. فقد رسمت خطة سرية لم أُخبر بها أحداً. على الرغم من أنها حقيقية تماماً، وأنا أعرف ذلك: لدي فرصة جيّدة مع السفير.

(*) تخطئ في تهجئة «Amnesty International» منظّمة العفو الدولية، وتكتبها على الشكل «Damnistry International». [م].

في الواقع، فإنّ دانيال ليس سفيراً، بل الملحق الأول في السفارة. ولكن جميع الفرنسيين هم من الطبقة الراقية بغضّ النظر عن مناصبهم. وكما قلت، كنا نلتقي مع أشخاص من الطبقة الراقية بواسطة السيّد والسيّدة تيمبيلتن اللذين كانا يدعواننا إلى الحفلات التي يقيمانها. «تعالي وتناولي مشروباً وبراي»، أي: شواء، كما نقول في جوهانسبرغ.

كان لهذه الحفلات مذاقٌ دوليّ، بفضل الويسكي الإسكتلندي والأغاني وتسجيلات الموسيقا الأميركية والثرثرات عن السفارة. فبعد أن أُطلقت النار على رأس رئيس الوزراء، جرت حملات قمع شديدة على السود. كان ذلك ضرورياً جداً، لكنه تسبب بسوء فهم لدى بعض السفارات الأجنبية. فاستخدمت فرنسا، خصوصاً، كل غطرستها مهدّدةً بإزالة جمعياتها من جنوب إفريقيا، وبدأنا نسمع منذ عدة أسابيع بأنهم سينقلون دانيال إلى برازاڤيل، لكن زوجته الفرنسية الصغيرة روبين لن تقبل بالذهاب إلى هناك. كنت أرى ذلك بوضوح شديد. فقد كانت معروفة بأنها تطرد خادماتها ما إن تقع عينها عليهن، وبالنسبة لها فإن كلّ شيء يقع خارج حدود جوهانسبرغ المتحضّرة، فهو إفريقيا المظلمة. كانا، هي وزوجها، على وشك الانفصال حتى لو لم يكونا يعرفان ذلك. تستطيعون القول إنني رأيت في ذلك فرصتي.

«لا تعرف كم هي محظوظة» -همست في أذنه- «سأفضي لك بسرّ صغير. لو كنت مكانها، لذهبت معك عند أدنى إشارة إلى أي مكان تذهب إليه».

حدث ذلك منذ أسبوعين في بيت تيمبيلتن عندما كنا نرقص رقصة هادئة حول البركة على أنغام «أيتها الفتيات الكبيرات لا تبكين» لفرقة الفصول الأربعة. أتذكّر جيّداً أن هذه هي الأغنية التي كانت تصدح آنذاك، لأنني في صباح ذلك اليوم اكتشفت واحداً آخر من آثام أكسلروت الصغيرة. وبما أنني فتاة كبيرة فقد رفعت شعري إلى الأعلى، وذهبتُ إلى وسط المدينة،

واشتريتُ بذلة سباحة حمراء مغوية تكشف البطن. هذا ما أسمّيه التأمين على الحياة. وكما يقولون في المجلّات: ارتدي جانزين، ابتسمي، وامضي! وهذا ما فعلته تماماً منذ أسبوعين في أثناء حفلة تيمبيلتن.

«بعد كلّ ما مررت به في الكونغو» -همست لدانيال- «يمكنني أن أذهب إلى برازافيل وأنا مبتسمة».

وخمّنوا ماذا: هذا بالضبط ما سأفعله! من الأفضل أن أبدأ بحزم حقائبي وأخذ قياساتي من أجل فساتين ديور. وبعد ما عرفته عن ذلك الرجل، فبإمكاني أن أجعله خاتماً في إصبعي. إن الرجل لا يفعل أشياء كهذه إلّا عندما تغمره مشاعر معيّنة. يمكنني أن أقول بثقة تامة إنني سأصبح بعد فترة وجيزة السيّدة دانيال، زوجة ملحق السفير دوبري. وسيظلّ إيبين أكسلروت وحده من دون معونة أحد باستثناء الخادمة التي تلتقط جواربه، وأما دانيال -بارك الله قلبه- فلن يعرف أبداً ما الذي أصابه.

ليا برايس نغيمبا

محطة بيكوكي، 17 كانون الثاني 1965

يمكن أن تشعر بالبرد هنا، في سديم الصباح الباكر لموسم الجفاف، أو ربما كنت أنا الوحيدة التي تشعر بهذا البرد. ربما أصبح دمي رقيقاً، وهو ضعفٌ اعتاد الأب اتهامنا به عندما كنّا نشتكي من فصول الشتاء الباردة في شمال جورجيا. بالطبع لا يوجد شتاء في هذا المكان، لأن خط الاستواء يمرّ بالضبط عبر سريرنا. قال لي أناتول إنني أسير من نصف الكرة الشمالي إلى نصفها الجنوبي عندما أخرج لأشعل النار في بيت المطبخ، لذلك يجب أن أعتبر نفسي امرأة رأت العالم، رغم أنه من المستحيل مغادرة المحطة هذه الأيام.

الحقيقة البسيطة المرّة هي أنني شعرت بالرعب في هذا اليوم حتى العظم. أحاول ألّا أبدي أي اهتمام للشهر والتاريخ، لكن زهرة البوينسيتيا المزدهرة تقول لي بصوتٍ عالٍ إنها آتية لا محالة. في هذا اليوم، 17 كانون الثاني، استيقظت في وقت مبكر من الصباح أشعر بألم في صدري. لماذا كان يجب أن أصيح: «من يمتلك الشجاعة الكافية ليرافقني إلى هناك؟!»، مع أنني أعرف تماماً أنها لا تريد أن ينعتها أحد بأنها جبانة، ولا سيما أختها.

إنها ذكرى قاتمة في أسرتنا. قتلت أفعى هذا الصباح، وقطّعتها إلى ثلاث قطع بمنجلي وألقيتها فوق الشجرة. كانت الأفعى الكبيرة السوداء تحوم حول الباب الخلفي منذ أن توقّفت الأمطار. خرج أناتول من البيت ونقر بلسانه على ما فعلته يداي: «لكن هذه الأفعى لم تؤذِنا، يا بينيه!».

«أنا آسفة، لكنّي استيقظت هذا الصباح وعندي توق شديد لانتقام العين بالعين».

«ماذا يعني ذلك؟».

«يعني أنّ الأفعى اعترضت طريقي في اليوم غير المناسب».

«كانت تأكل الكثير من الجرذان التي ستأتي الآن لتأكل المانيوك».

«جرذان سوداء أم بيضاء؟ لست متأكّدة من أني أستطيع معرفة الفرق».

رمقني طويلاً، محاولاً أن يفهمني، وسألني أخيراً: «لماذا تظنين أن حزنك خاصّ؟ فالأطفال يموتون كلّ يوم في كيلانغا. إنهم يموتون كل الوقت».

«أوه، كيف يمكنني أن أنسى يا أناتول. إنها واحدة من مليون شخص غادروا العالم في ذلك اليوم، إضافةً إلى رئيس الوزراء العظيم باتريس لومومبا. أنا واثقة أن موت روث ماي لن يكون مهمّاً على المدى الطويل».

اقترب مني ولمس شعري الذي أصبح أشعث قليلاً. عندما أتذكّر أنني يجب أن أكون زوجة كونغولية جيّدة، أعقد شعري في عصابة للرأس. مسح أناتول عينيَّ برفق بذيل قميصه، وقال: «هل تظنين أنني لا أتذكّر الأخت

الصغيرة؟ كان لديها قلب نمس. كانت فتاةً شجاعة وذكية. كانت زعيمة الأطفال في كيلانغا، وبضمنهم أخواتها الكبيرات».

«لا تتكلّم عنها. اذهب إلى العمل فحسب. ويندا مبو ته!».

أبعدتُ يده عني وحدّقت في وجهه بغضب. لا تذكرها ولن أتكلّم عن لومومبا الذي قُطع جسده بالمناجل مثل هذه الأفعى المسكينة وأُلقي به في بيت مهجور في إليسابيثفيل بمباركة من بلدي الحقود.

عندما دخلت إلى بيت المطبخ سمعت صوت الجرذان التي بدأت تلتهم المانيوك، مكافأةً على ضغينتي.

هذا يومٌ علينا -أنا وأناتول- ببساطة أن نتجاوزه. سمعت بعض الناس يقولون إن الحزن يقرّبنا أحدنا من الآخر، لكن الحزن الذي يحمله كلٌّ منّا يختلف عن حزن الآخر كثيراً. فمما لا شك فيه أن حزني أبيض وأميركي. أنا حزينة على روث ماي، في حين أن أناتول وشعب الكونغو يُحْيُونَ سرّاً اليوم الوطني للحِداد على الاستقلال الذي سُلب منهم. أذكر أنني رأيت راشيل منذ عدة سنوات تبكي بِلَوعة لأن حرقاً ثقب فستانها الأخضر، بينما كان يوجد خارج باب بيتنا أطفال عراة وهنت أجسادهم من الثقوب التي أحدثتها الحروق داخل بطونهم الخاوية، وتساءلت آنذاك ما إن كان قلب راشيل بحجم كشتبان. أعتقد أن هذه هي الطريقة التي يراني بها أناتول اليوم.

قد أصلّي في أيّ يوم آخر مثل صديقاتي الراهبات البنيديكتيات، لتتلاشى إرادتي الخاصة في خدمة المجد الأعظم. أما في يوم 17 كانون الثاني، فلا يقبع في قلبي الأناني إلّا روث ماي.

من خلال شقّ في الألواح رأيته يأخذ حقيبة كتبه، ويمضي بكلّ إخلاصه، نازلاً بكتفيه العريضتين في طريقه إلى المدرسة. أناتول هو صلاتي الأولى المستجابة. فقد أُنقذنا كلانا، جسدياً على الأقل، من الجدران الحجرية لسجنينا المختلفين، وتغيّرنا روحياً بطرائق نكافح كي نفهمها. لقد نسيت

كلمات صلوات طفولتي، ولذلك فإن رأسي يرنّ بصدى صمته العظيم. أما أناتول فقد وجد كلمات جديدة لتشكيل معتقداته.

كانت ظروفه غريبة مثل ظروفي، وكنا محظوظين جداً -نتفق على ذلك- فقد أُعدم معظم المنشقّين أو يُحتجزون الآن في ظروف يتمنّون فيها الموت. كان موبوتو ما يزال ينظّم نفسه في عام 1961، وما يزال هناك العديد من الثغرات، حين كان أناتول يقضي أيامه في السجن يلعب الداما بأغطية القناني مع حارسين واهنين سمحا له أن يقرأ ويكتب ما يشاء ما دام لن يهرب. كان الحارسان قد أحبّا أناتول واعتذرا منه، وقالا إنهما مرغمان على حراسته لإعالة أسرتيهما والحصول على حفنة من النقود أو الرزّ التي يقدّمها لهما نوّاب موبوتو، عندما يأتون لعدّ السجناء صباح كلّ يوم. ثم أصبح يعطي دروساً تحت شجرة المانغا النحيلة في باحة السجن، يعلّم أيّ حارس أو سجين يريد تحسين نفسه: القراءة والكتابة. وساعد الحارسان أناتول في الحصول على كتب، وواجها الكثير من المتاعب لإرسال رسائله إلى بلدان مختلفة. وبالضبط تحت سمع موبوتو وبصره، تعرّف على كتابات أحد أهم الوطنيين الإفريقيين: كوامي نكروما، وقرأ قصائد طبيب شاب أنغولي يدعى أغوستينو نيتو، وبدأ يراسله.

كان نيتو في عمر أناتول تقريباً، وكان قد تلقى تعليمه في البعثات التبشيرية أيضاً، وسافر ودرس الطبّ في الخارج، وعاد إلى بلده ليفتح عيادة ويقدّم رعاية لائقة لأبناء بلده، لكنه لم يستطع ذلك. ففي أحد الأيام، اقتحمت مجموعة من رجال الشرطة البيض عيادته وسحبوه إلى خارجها، وأوسعوه ضرباً وتركوه نصف ميّت، ثم ألقوا به في السجن. وقُطعت الجماهير التي تدفّقت إلى الشوارع تطالب بإطلاق سراحه كما تُقطع الأشجار بالمدافع الرشّاشة. ولم يكتفوا بذلك، بل أحرق الجيش البرتغالي القرى عن بكرة أبيها، لإضعاف شعبية نيتو، ولكن بمجرّد خروجه من السجن بدأ يجذب

جموعاً كبيرة من الناس للانضمام إلى حزب معارض في أنغولا. يشجّع مثالُه أناتول الذي بدأ يتحدّث عن نيتو كثيراً، وكان يأمل أن يلتقي به بطريقةٍ ما وفي مكانٍ ما. لكنني لم أتخيّل كيف يمكن ذلك، لأنه حتى تبادل الرسائل بينهما، كان شيئاً محفوفاً بالخطر.

بالطبع، كانت أكثر الرسائل إخلاصاً في السجن هي تلك التي كان يتبادلها أناتول مع راهبة في بانغاسو، وكان ذلك مصدر مرح عظيم لزملائه في السجن. كانوا يمازحونه بالقول: «Sa planche de salut!» -لوح خلاصه- وهو تعبير عامي يعني: الأمل الأخير. لا يزال أناتول أحياناً يناديني بلوح خلاصه. ولكن في الوقت الذي اجتمعنا فيه الخريف الماضي، لم أعد أثق بالله كثيراً، وكنت مستاءة من أي أحد آخر يمكن أن يعرض أي نوعٍ من الخلاص. طبعاً، على الرغم من ذلك، كان لديّ ما يكفي من الفقر، العفّة، الطاعة، لأصبح زوجة أناتول.

متخفّيةً على هيئة جثة طوال الطريق أوصلتني سيارة جيب مخصصة للإخلاء الطبي إلى بيكوكي، وهي مستوطنة قديمة لمزارع المطاط تقع خارج كوكويلهاتفيل، حيث كان ينتظرني حبيبي الذي أُطلق سراحه من السجن بعد ثلاث سنوات دون أن توجّه إليه أي تهمة. كان ينتظرني هناك ليقيمني من بين الأموات.

اخترنا بيكوكي لأننا كنا نتوقّع أن نجد فيها أشخاصاً يعرفهم أناتول، أصدقاء وأرباب عمل سابقين حينما كان يعمل في تجارة المطاط، لكن معظمهم كانوا قد ماتوا أو غادروا البلد. غير أن المفاجأة كانت عندما وجدنا الخالة إليزابيت، الأخت الصغرى لأمّه، وقد جاءت لتبحث عنه هنا منذ عقدٍ من الزمن، لكن أناتول كان قد غادر قبل ذلك بوقت طويل. عملت إليزابيت في محطة البعثة وأنجبت طفلاً هنا، ولم تغادرها البتّة. أحدث وجود أقارب وزوجة تغييراً كبيراً لأناتول بعد أن عاش يتيماً طوال حياته الماضية.

أصبح مركز البعثة الآن مدينة أشباح، وكانت المحطة الزراعية شبه مهجورة بعد أن طرد السيمبا الأوروبيين منها، من دون أن تطأ أقدامهم هنا، وتحوّل معظمها إلى ركام. (أتخيّل أن أشباح عمّال المطاط بأيديهم المقطوعة هم من حوّلوها إلى ركام). يضمّ المبنى الوحيد المتبقّي منها المكتبة التي تعلّم فيها أناتول، عندما كان خادماً صغيراً، القراءة والكتابة بالإنكليزية. وبناءً على طلبي، زوّجنا زعيم القرية في هذه الغرفة بمراسم لم تكن مسيحية تماماً ولا بانتو. وطلبت من الله أن يبارك زواجنا، وحملتُ أزهار الجهنمية الحمراء تكريماً لأمّي، ولفّت الخالة إليزابيت قماشة الزواج التقليدية -وتدعى نزولي- حول كتفينا، وهي باني مزدوج الحجم جميل يمثّل تلاحم الزوجين، ويُستخدم أيضاً غطاءً للسرير.

عندما كان المبنى قصراً في أوج أيامه، كانت أجزاء من البيت تُستخدم ثكنةً عسكرية ومستشفى توليد وحظيرة ماعز. وأردنا الآن أن نحوّله إلى مدرسة. وقد أُعجب رئيس القسم في كوكويلهاتقيل بأناتول، ولذا فقد غضَّ الطرف عن سجلّه في السجن، وعيّنه مديراً للمدرسة الإقليمية الثانوية. وحاولنا كذلك الاستمرار في برنامج الإرشاد الزراعي، وتدريب عمّال المطاط السابقين على زراعة محاصيل الاكتفاء الذاتي. وتطوّعتُ للعمل في العيادة التي كان يأتي إليها طبيب غينيّ من كوكويلهاتقيل مرة في الأسبوع ليُطعِّم الأطفال الرضّع ويفحصهم. وعلى الرغم من كلّ الصعوبات التي اعترضتنا، وقفت أنا وأناتول في الخريف الماضي وأعلنّا كلمة الاستقلال بصوتٍ عالٍ. قلناها وعيوننا متجهة نحو السماء، كما لو كانت طيراً جميلاً يمكننا أن نطلب منه أن يهبط إلى الأرض.

استغرق الأمر وقتاً طويلاً لتثبيط آمالنا. سارت الأمور بسرعة كبيرة كما لو كان ثمة ساحرٌ يلعب ألعاب الخفّة: تحرّكت الأيدي الأجنبية خلف الستار واستُبدل بالملك الأبيض آخرُ، وظلَّ فقط الوجه الظاهر أسود. وحاول

مستشارو موبوتو الأميركيون إجراء انتخابات، لكنهم غضبوا عندما فاز الرجل الذي لم يكونوا يرغبونه، أنطوان جيزينغا، ضابط لومومبا، فدفعوا الجيش لاحتلال البرلمان وأعادوا تنظيم الانتخاب مرة أخرى لصالح موبوتو.

قال أناتول: «إذا كان الأميركيون يريدون تعليمنا الديمقراطية، فقد أصبح الدرس واضحاً جداً!».

فقلت موافقة على كلامه: «واضحٌ على نحوٍ يقطع الأنفاس».

يقول أناتول إنه توجد لديّ عدة شخصيات: فشخصيتي باللينغالا حلوة وأمومية، ولكن بالإنكليزية أصبح ساخرة، فقلت له: «هذا لا شيء، فبالفرنسية أنا كاسحة ألغام. أيّ شخصية تزعجك أكثر؟!».

فقبّل جبيني وقال: «أحبّ بينيه خاصتي أكثر من أي شيء آخر».

حقيقته المطلقة؟ أهذا ما أنا عليه؟ فعندما كان الجيران أو الطلاب يسألونني ما هي جنسيتي، أقول لهم إنني جئت من بلد لم يعد موجوداً، وكانوا يصدّقون ذلك.

في الأشهر الأخيرة تدنّت رواتب حكومتنا من لا شيء تقريباً إلى لا شيء بالكامل. وكنا نشجّع زملاءنا ونقول لهم إنّ عدم دفع رواتبنا يجب ألّا يثبّط آمالنا. كنّا نعرف أن انتقاد موبوتو، حتى في الأماكن الخاصة، يعني المجازفة بأن يُكسر رأسك مثل الجوز، ومن الطبيعي أن يثبّط ذلك تماماً آمال أيّ شخص. كنا نعيش على ما نستطيع أن نجده، وعندما نسمع خبراً عن أحد الأصدقاء، نأخذ نفساً عميقاً أولاً. فقد قتل جنود الجيش صديقي القديم باسكال وطالبين سابقين من طلّاب أناتول على الطريق جنوباً من هنا. كان باسكال يحمل كيلوغراماً من قصب السكر، ويضع في حقيبة ظهره مسدساً قديماً من الحرب العالمية الثانية. سمعنا هذا الخبر في يوم عيد الميلاد، عندما جاء لزيارتنا فينتان وسيلين فاولز، اللذين يعيشان حالياً في كيكونغو، في مستشفى البعثة التي أخبرونا عنها من قبل، والتي تقع في وامبا. فرحت

كثيراً بلقائهما، لكن أي لقاء هذه الأيام يجلب معه أنباء مروّعة، فبكيت حتى النوم حين غادرا. كدت أنسى باسكال بعينيه الواسعتين وابتسامته الماكرة، لكنه بدأ يزحف الآن إلى أحلامي، ويرمي النوافذ المفتوحة بأسرع مما يمكنني إغلاقها. أيّ جرأة بسيطة لفتت انتباه ضابط في الجيش على الطريق؟ ماذا لو حدث ذلك بسبب بعض الكلمات الإنكليزية التي كنت قد علّمته إياها بغباء مثل ببغائنا المنكود الحظ؟

هذا هو الخوف الجنوني الذي نعيش معه كلّنا. وكان جيراننا خائفين أيضاً بالمقدار نفسه من جنود موبوتو، وكذلك من معارضيه السيمبا، الذين وصلت سمعتهم إلى شمال الكونغو مثل الأسد نفسه(*). إني أتفهّم غضب السيمبا من الأجانب، لكني لا أفهم سبب تصرّفاتهم العنيفة المتزايدة تجاه أبناء شعبهم. كنا نسمع عن تلك الأعمال الوحشية في الإذاعة التي تبث على الموجة القصيرة، ثمّ نسمعها بصورة مبالغ فيها في نشرات الأخبار الرسمية التي تبثها إذاعة موبوتو، لذلك كان يصعب معرفة أيّ من تلك الأخبار هي الحقيقية. أفكّر بالطعام غالباً، وأشغل ذهني بمشاهدة الأطفال. لم أكن أخاف من السيمبا على الرغم من أنني بيضاء، أناتول يحظى باحترام كبير؛ لا أعرف ما إن كانت علاقتي به ستنقذني أم لا، فمسارات العدالة غامضة.

ما زال أبي يواصل الدعوة إلى كنيسة يسوعه المُعذَّب: «المسيح بانغالا». كان هذا هو الخبر السيّئ الآخر الذي نقله لي فاولز: قال إن أبي ذهب سيراً على قدميه إلى بعثة كيكونغو أو ربما أوصله أحد إلى هناك، وكان في حالة هياج، ويصيح بأعلى صوته إنّ الألم يحرق أحشاءه من السمّ. ادّعى أنه ابتلع أفعى حيّة، فأعطاه طبيب البعثة حبوب الكينين ودواءً لقتل الديدان، مما تسبب في خروج سريع لبعض الديدان المعوية، لكن على الأرجح أن الدواء لا يمكنه إخراج أفعى مامبا خضراء. وقال إن أبي المسكين غادر كيلانغا الآن

(*) سيمبا تعني: «الأسد». [م].

واختفى في الغابة، أو أنه ذاب تحت المطر. في الليل أفكّر أحياناً بأنه ربما مات ولم أسمع ذلك بعد. في الظلام، هذا النوع من التفكير مدمّر، لذا أظلّ صاحية وأرسم خططاً بأن أذهب إليه وأبحث عنه، لكن عندما يأتي النهار يدفعني جدار من الغضب باتجاهٍ مختلف، ويهدر بي بأنني يجب أن أترك أبي خلف ظهري. لا أستطيع الخروج وحدي، وحتى بمساعدة أحد فإن الأمر لا يستحق المخاطرة. أعلم جيّداً أنه الآن يشكّل خطراً عليّ.

وأظن أنه أصبح خطيراً على أشخاص آخرين أيضاً، كما كان دائماً. ولا بدّ أن فينتان وسيلين صُدما لرؤية معقلنا التبشيريّ الذي ضلَّ الطريق في كيلانغا، حيث كنّا قد سكنّا في بيتهما، عادينا أصدقاءهما السابقين، بل حتى أننا طردنا ببغاءهما ورميناه في فم الطبيعة. ولا بدّ أن طبيب البعثة في كيكونغو رأى هيئة أبي غريبة: واعظ أشعث الشعر تقبع أفعى في بطنه.

على الرغم من جميع المخاطر، بقي هذا الطبيب مع أسرته هنا – يقول فينتان إنه من الجنوب الأميركي، جورجيا أو كنتاكي. أرجو أن أتمكّن من الذهاب لزيارته، وأن أكلّمه بلغتي الإنكليزية التي كنت أتقنها قبل أن تنمو الأشواك فوق لساني.

المرة الوحيدة التي شعرت فيها بالحنين إلى الوطن، كانت عندما وقفت أميركا أمام عتبة بيتي في ثوب تبشيري. فهناك أشخاص آخرون لم يعودوا أيضاً، مثلي. لكن، يبدو أنهم واثقون جداً من وجودهم هنا، راسخين في قوة الإيمان – أحدهم فينتان فاولز، والغرباء الذين يظهرون بين الحين والآخر ليسألوا ما إن كان بإمكاني مساعدتهم في نقل رسالة أو الاحتفاظ بعلبة دواء ريثما يتم العثور على مركب لأخذها عبر النهر. وكنت أعدّ لهم وجبة طعام بسعادة كبيرة، وأُعدّ فراشاً على الأرض، لمجرّد الاستماع إلى قصصهم اللطيفة. كانوا على النقيض من أبي. وعندما كنت أشعر بفراغ الحياة من دون إلهه، كان من المريح معرفة هؤلاء الأشخاص ذوي الحديث اللطيف،

الذين يقيمون مستشفيات تحت تلك الأسطح المسقوفة بالقشّ، أو تراهم منحنين إلى جانب نساء القرية يزرعون فول الصويا، أو يركّبون مولّدات كهربائية في مدرسة. لقد جازفوا بحياتهم ولم يخافوا من موبوتو، ولا من كل الطفيليّات التي يمكن تخيّلها في أماكن المستنقعات حيث يُترك الأطفال يموتون أو يعانون، في حين هربت عائلة أندرداون وأمثالهم من البلد. وكما قال لنا الأخ فاولز منذ زمن: «هناك مثل هؤلاء المسيحيين، وهناك مثل أولئك المسيحيين».

أما الزوّار الآخرون فهم نادرون، وتمرّ معظم الأيام كالأيام التي تسبقها. وأظن أن من السخافة التكلّم عن الملل. فعندما كنت طفلة، لو حاولت تخيُّل أنني سأعيش في الغابة كما أفعل الآن، لضربني خَدَر المغامرة التي يمثّلها ذلك. لكنّي بدلاً من ذلك أشعر الآن بخَدَر الملل من صعوبة الحياة هنا. أرتمي على السرير في الليل منهكة بعد أن أمضي اليوم كله في السير بين حقول فول الصويا، وفي المطبخ، والسوق، والعيادة، وصفّ التغذية الذي أدرّسه في المدرسة الزراعية، وأتساءل في كلّ يوم عما إذا كنت قد أعطيت معلومات أكثر مما أخذت. مكتبة سُر مَن قرأ

لا بدّ أن هذا هو الاتجاه الذي تذهب فيه السعرات الحرارية، فلا يوجد عندنا سوى المانيوك والبطاطا الحلوة نملأ بهما بطوننا، أما البروتين فهو أندر من الماس. أساوم كثيراً كي أحصل على بيضة أو قليل من الفاصولياء، أو دجاجة ثمينة، أو سمكة نهرية طازجة، وكنت أذهب إلى السوق في كوكويلهاتقيل وأحدّق في أشياء ثمينة مثل علبة لحم الخنزير غالية الثمن، أستطيع أحياناً أن أتدبّر الأمر وأدفع ثمنها.

كان أناتول قد خسر الكثير من وزنه هذا الشتاء، وخسرت أنا بسرعة وزناً أكثر منه، ثماني كيلو غرامات، فخشيت أن أكون قد أُصبت بالدودة السوطية مرةً ثانية. كنت متأكّدة تماماً أنني حامل خلال عيد الميلاد، والآن أنا متأكّدة

أنني لست كذلك، ولذلك هناك جزء من الخسارة بسبب هذا، ومن الأفضل ألّا أذكر ذلك لأناتول. سيكون أسهل ألّا أحسبها، إذا كان ذلك ممكناً.

أفقد أفراد أسرتي، واحداً تلو الآخر. فقد ضاع أبي ولا أحد يعرف مكانه. أما راشيل فإن بإمكاني احتقارها أكثر إذا علمت على وجه اليقين إلى أي جهةٍ عليّ توجيه حنقي، من المفترض أنها ذهبت إلى جنوب إفريقيا حيث أعتقد أنها اكتشفت أخيراً مصدر الثروة ببياض بشرتها الشديد وزوجها المرتزق. ولا يمكنني إرسال رسالة إلى أمي أو إلى إدا لأن وزير البريد في وزارة موبوتو، وهو أحد أقارب زوجة موبوتو، توقّف عن دفع رواتب العاملين في البريد منذ السنة الماضية، ليبني بتلك الأموال قصراً له في ثيسقيل، وأصبح عليك الآن أن تدفع رشوة كبيرة أو أن تعرف شخصية هامة كي تستطيع إرسال رسالة إلى خارج البلد، وأظن أن الرسائل الواردة تتكدّس في مكانٍ ما في ليوبولدڤيل، وتُشَمّ لمعرفة ما إن كانت تحوي نقوداً أو أشياء ثمينة.

وحتى لو صُدم الناس بهذه الخسائر غير المبررة -البريد، رواتبهم، صديق كان في طريق عودته إلى المنزل- فإنهم لا يذكرونها. ما الذي يعرفه الناس هنا إلّا الصبر والتحمّل؟ وعندما يرون بدلات شرطة موبوتو الغالية الثمن المستوردة فإنهم يعرفون أن عليهم أن يحتفظوا بآرائهم لأنفسهم، لأنهم يعرفون من الذي يقف وراء موبوتو، وأنه يقبع في مكان بعيد بعد السماء، حيث تُرسى القواعد الهامة، ويعرفون أن حياة البيض والسود مختلفة باختلاف العملات. فعندما قُتل ثلاثون أجنبياً في ستانليڤيل، رُبط كلّ واحد منهم بطريقةٍ ما بعملة قوية، بمعيار ذهبي، مثل الفرنك البلجيكي، أما حياة الكونغوليّ فهي مثل أوراق نقدية كونغولية عديمة القيمة تراكمها في قبضتك أو تكدّسها في دلو وتعطيها إلى تاجر، ولا تستطيع شراء موزة واحدة بها.

طلع النهار عليّ وأنا أفكّر في أنني أعيش بين رجال ونساء فهموا أن وجودهم كلّه لا يساوي أكثر من موزة مقارنةً بالإنسان الأبيض. أرى ذلك في عيونهم عندما ينظرون إليّ.

كان كانون الثاني شهراً قاسياً وجافاً، وأنا أشعر بالوحدة. أفتقد للآخرين من نوعي، أيّاً كانوا. وفي بعض الأحيان، أتصوّر أنني أريد مغادرة هذا المكان والعودة إلى بلدي لأزور أمي وإدا، على الأقل، لكن مسألة النقود والسفر وجواز السفر مرهقة للغاية، حتى مجرّد تخيّلها مرهق. وتصل بي أحلام يقظتي إلى البوّابة الأمامية وتنتهي هناك، فألتفت إلى الوراء وأنظر إلى أناتول الذي يقول لي: «ليس أنتِ، يا بينيه».

سيعود الليلة إلى البيت قلقاً ومنهكاً. فلا توجد هناك طريقة لمواصلة فصل آخر في المدرسة الثانوية من دون نقود، والآباء قلقون من أن يعرّض التعليم أبناءهم لخطر أكبر، والحقيقة البشعة هي أنهم على حق. لكنّه لا يريد أن يتحدّث عن هذا الأمر، فينسلّ من ورائي في المطبخ ويلقي بذراعه على صدري، فأصرخ وأضحك في الوقت نفسه، سيفرك مفاصل يده على شعري ويصيح: «يا زوجتي، وجهك طويل بطول وجه تمساح».

فأقول له إن وجهي بشع أيضاً، وتكسو بشرتي حراشف. أقول له ذلك لأستثيره. لأنني أصبح عصبية المزاج في كانون الثاني. أعرف ذلك. وكنت أريد أن يصرّ على أني زوجة مفيدة وصالحة، وأنه كان واعياً تماماً عندما تزوّجني، وأنّ بشرتي البيضاء ليست معياراً للإساءة، وأنني لست جزءاً من كل خطأ أدى بنا إلى ما نحن عليه الآن، 17 كانون الثاني، بكلّ آثامه وأحزانه التي يجب تحمّلها.

في أحد الأيام ذكّرني بأنه كان المستهدف من أول أفعى مامبا خضراء، لأن حديثه عنا وعن الناس البيض أثار حفيظة تاتا كوفودُندو. ألقى باللوم على سوء تقديره لسياسات القرية. أظنّ أنه تقبع في بطن كلّ واحد منا أفعى،

لكن أناتول لا يستطيع أن يُخرج الأفعى القابعة في بطني. فإذا لم أحزن بعد على مليون شخص غادروا هذا العالم في يوم واحد، فإني سأبدأ بالحزن على شخص واحد فقط، وسأتحرّك من هناك. لم يتبقَّ لديّ معتقدات كثيرة من طفولتي يمكنني أن أحبّها أو أن أثق بها، لكنّي ما زلت أعرف ما هي العدالة. فما دمت أحمل روث ماي على ظهري خلال كل أيامي، ولا يزال صوتها يرنّ في أذني، فهي لا تزال باقية معي.

إدا برايس

مستشفى إموري - أتلانتا، عيد الميلاد، 1968

بدأت أفقد انحرافي. في كليّة الطب صادقني طبيب أعصاب مغرور يعتقد أنني تصرّفت على أساس زيفٍ كبير طوال حياتي. غطاء إدا الزائف. وفي رأيه أن إصابة الدماغ في وقت مبكر، كما حدث لي، لا تُحدِث تأثيرات جسدية دائمة في الحركة. وأصرّ على أنه يجب أن يكون هناك تعويض كامل في الجزء السليم من قشرة دماغي، وأنّ جرّي للجانب الأيمن أثناء المشي مجرّد تمسّك بعادة تعلّمتها في طفولتي. سخرت منه، بالطبع. لم أكن مستعدة لقبول فكرة أنّ كلّ إحساسي تجاه إدا تأسس على سوء تفاهم بين جسدي ودماغي.

لكن طبيب الأعصاب كان مقنعاً، وكان شديد الوسامة. وكان حاصلاً على منحة -يطمح إليها الجميع- لإجراء بحوث في هذا المجال. وغالباً لكي أثبت خطأ نظريته، قدّمت نفسي إلى البرنامج البحثي الذي صمّمه. فجعلني أتوقّف عن المشي تماماً لمدة ستّة شهور، حتى تنظف مساراتي العصبية تماماً مما يسمّى بالعادات السيئة التي اكتسبتها. وبدلاً من أن أمشي، كنت أزحف. وبمساعدة بعض الأصدقاء أعدت ترتيب شقّتي الصغيرة

لتضمّ طفلة بالغة، وبدأت أحبو بحذر صباح كلّ يوم من السرير إلى جهاز صنع القهوة وإلى موقد التسخين على أرضية المطبخ. كنت أستخدم الجزء السفلي من الثلّاجة فقط. وحفاظاً على كرامتي، كنت أذهب إلى عملي على كرسي متحرّك. كنت قد بدأت آنذاك دورةً في طب الأطفال - حظّاً سعيداً لأن الأطفال لا يميلون إلى تحميل الأشخاص المشلولين المسؤولية عن شللهم، كما يفعل البالغون - فالبالغون ينصتون إليك بنصف أذن، وتطنّ الوصفة التوراتية: «أيها الطبيب، اشفِ نفسك» في الأذن الأخرى. ولاحظت أن الأطفال يبتهجون عندما يرون طبيباً على كرسيٍّ بعجلات.

في البيت، عندما بدأت أحفظ العيوب الموجودة في سجادتي عن ظهر قلب، بدأ جسدي يتعلّم كيف يعمل بشكلٍ متناسق. وفي أحد الأيام، أحسست بطقطقة مثل رباط مطاطي يشدّ ساقي اليمنى إلى الأعلى كلّما تحرّكت ذراعي اليسرى إلى الأمام. وبعد أسبوع أصبحت أشعر بتوازن بين يديّ وأصابع قدمَيَّ، وأصبح بإمكاني أن أدفع مؤخّرتي إلى الأعلى وأهبط بها في وضعية الجلوس. أشكر الله أنه لم يكن هناك أحد عندما صفّقت بيدي لا شعورياً لهذا الإنجاز المعجزة. وفي غضون أسابيع، أصبحت أمتلك قوّة كافية في كلتا ذراعيَّ، وأصبح بمقدوري أن أرفع نفسي إلى قطع الأثاث، ومن هناك بإمكاني أن أدفع نفسي لأقف. الآن، مبدئياً، بدأت أتهادى في خطٍّ مستقيم. أخطو خطوة تلو الخطوة. لقد تعلّمت ذلك من جديد، لأول مرة، كما يبدو، لأن أمي قالت إنني لم أفعل شيئاً كهذا عندما كنت طفلة. وأصرّت على أنني كنت أستلقي على ظهري طوال ثلاث سنوات لم أتوقّف خلالها عن البكاء لكي تبقى ليا بجانبي وتلعب معي. إلى أن نزلت أخيراً في أحد الأيام، دون أي مقدّمات، من الأريكة وسرت وراءها وأنا أعرج. وتقول أمي إنني لم أكن أفعل شيئاً، وإن كلّ ما فعلته هو مراقبة ليا، وتركها ترتكب الأخطاء بالنيابة عنّا كلينا، حتى أصبح مستعدّة لأن أفعل الشيء بنفسي

بدرجةٍ مقبولة من الدقّة. لم تكن أمي قاسية معي، ربما لأنني ظللت قريبةً منها أكثر من أخواتي، لكنني لا أوافقها على ما قالته، لأنني ارتكبت أخطاء كثيرة بنفسي. لكني ارتكبتها في داخلي فحسب.

استغرقت وقتاً طويلاً حتى صدّقت أنني شُفيت فعلاً، لا من المَيل أثناء سيري، لأنني ما أزال أسير مائلة قليلاً وببطء شديد، وإنما شُفيت من الهجر الذي استحققته. في الواقع استغرق الأمر حتى هذه الليلة.

تعيش ليا حالياً في أتلانتا، وهذا جزء من المشكلة، إن لم يكن كلّها. وهي تعيش مع أناتول وابنهما الصغير باسكال وطفل آخر لا يزال في طور التشكّل. وقد تخصّصت في الهندسة الزراعية، ويبذلون كلهم محاولات نبيلة ليزرعوا أنفسهم في التربة الأميركية، لكنني أستطيع رؤية أنّ ذلك لن يستمر طويلاً. فعندما كنت أرافقهم إلى مخزن البقالة، كانوا يجفلون ويخافون ويشعرون بالازدراء في داخلهم، كما أظن. بالطبع كانوا يشعرون كذلك. ولا أزال أتذكّر كيف كان الأمر في البداية: مخازن ضاجّة، ساطعة بالضوء، تصطفّ على رفوفها بفخرٍ أنواعٌ عديدة من بخّاخات الشعر وكريمات تبييض الأسنان، ومساحيق للأقدام. يبدو الأمر كما لو أن راشيل تولّت فجأة مسؤولية كلّ شيء هنا.

«ما هذا، خالتي إدا؟ وهذا؟» - يسألني ابنهما باسكال وعيناه مفتوحتان على وسعهما، مشيراً بين الممرات: مرطبان وردي فيه كريم لإزالة الشعر، وعلبة عطر للرشّ على السجادة، وأكوام من القدور لها أغطية بالحجم نفسه، كالمرطبانات التي نرميها كل يوم.

«إنها أشياء لا يحتاج إليها المرء فعلاً».

«لكن، خالتي إدا، لماذا توجد كل هذه الأشياء إذا لم يكن المرء بحاجة إليها فعلاً؟».

لم أستطع أن أفكّر بجواب مناسب. لماذا يختار أحدنا بين ماركات

معجون الأسنان المختلفة، بينما على آخرين أن يختاروا بين التراب الندي وغبار العظم لإطفاء النار المشتعلة في بطانة معدهم الفارغة؟ لا يوجد شيء عن أميركا يمكنني أن أشرحه لهذا الطفل القادم من عالم آخر. أترك ذلك لأناتول الذي يرى كلّ شيء بوضوح فوراً. يضحك بصوت مرتفع عندما يرى صور نساء شبه عاريات في لوحات الإعلانات العملاقة على الطرق، ويعقد صداقة مع المشرّدين الجالسين عند زوايا الشوارع في أتلانتا، يسألهم بتفصيل شديد أين ينامون وكيف يصطادون طعامهم. وتكون الأجوبة مثيرة للاهتمام. فقد تُفاجأ عندما تعرف عدد الحمام الجاثم فوق إفريز مكتبة أتلانتا العامة، والذي انتهى به المطاف مشوياً على النار في حديقة غرانت العامة.

وجدت روحاً بها قرابة استثنائية مني في أناتول، لأننا كلَينا موسومان، كما أظن. للوهلة الأولى نبدو غريبين، لمن تعلّموا أن يأخذوا العالم بظاهره.

كان أناتول قد وُسم في وقت مبكر من حياته بيُتمه، ونزوحه، وعقله المشكّك المتحمّس، ووحدته. ولاحظت أنه يستطيع هو أيضاً أن يقرأ الأشياء بشكلٍ عكسي مثلي، من قبيل: ما الذي تبيعه لوحات الإعلانات، ومن أين يأتي الفقر وإلى أين يذهب. لن أشتهي زوج أختي، لكنني سأتعرّف عليه -بطريقتي- بشكلٍ أفضل. إذ نعيش أنا وأناتول في الأجواء الانعزالية نفسها، لكن الفرق بيننا هو أنه سيتخلّى عن ذراعه اليمنى وساقه وسيعطيهما إلى ليا، أما أنا فقد فعلت ذلك سابقاً بالفعل.

هل سأفقد نفسي بالكامل إذا فقدت عَرَجي؟

كيف يمكنني أن أعيش على نحوٍ معقول بعد أن ماتت روث ماي وجميع أولئك الأطفال؟ هل يكمن الخلاص في موتي أنا؟

يُتاح لي في المستشفى وقتٌ طويل لأطرح على نفسي أسئلةً كهذه. أفكّر بأنني أستطيع أن أحصل على مجموعة متنوّعة لا حصر لها من العقاقير

المخدّرة. النوم احتمالٌ مطلق، لأن الله لا يستطيع أن يراك عندما تكون نائماً، كما كانت روث ماي تصرّ. الشر لا عين له على النوم. عِش![*]

مُت!

أناتول وليا يزوران أمي كثيراً. ففي السنة الماضية تخلّت أمي عن صومعتها المليئة بالأزهار في بيت لحم، وانتقلت إلى شقّة في أتلانتا، بعد أن وجدت كنيسةً جديدة من نوع خاص، تنظّم مسيرات للدفاع عن الحقوق المدنية. وأصبح لديها مكتب وتتقاضى راتباً، لكني أعرف أنها كانت تعيش من أجل المسيرات. إنها جيّدة جداً في ذلك، ولم تكن تبالي بالخطر. فقد جاءت إلى شقّتي ذات ليلة، بعد أن سارت مسافة ميل تقريباً بين القنابل المسيّلة للدموع، لأفحص عينيها وأتأكّد من أن القرنية فيهما لم تصب بضرر. حتى إن عينيها لم تكونا حمراوين. أعتقد أن الرصاص يمكن أن يمر عبر جسدها من دون أن يؤذيها.

يتبادر إلى ذهني أنني أحتاج إلى دِيْن، مع أن أمي أصبحت تعتنق ديناً الآن، وما زالت تعاني. أظن أنها تتكلّم مع روث ماي بشكلٍ أو بآخر باستمرار، حينما تكون وحيدةً، وتتوسّل منها المغفرة.

ويوجد لدى ليا دينٌ أيضاً، وهو المعاناة.

أما راشيل فلا يوجد لها دين، وهي بكلّ وضوح أسعد واحدة فينا. على الرغم من أنه يمكن المجادلة بأنها هي نفسها الصنف الخاص بها من الآلهة.

يؤسفني أن أقول إنني لا أرى ليا وأناتول كثيراً كما أرغب، لأنني أدرس في كلية الطبّ، ولديّ جدول أعمال لا إنساني، والجميع يلتمس العذر لذلك، كما أنني أسكن في الجامعة في قسم مختلف عن مساكن الطلاب المتزوّجين. هم ينجبون الأطفال هناك، ونقوم نحن بإنقاذهم هنا فحسب.

(*) تُقرأ طرداً وعكساً في الأصل. [م].

كان شهراً صعباً: كنت مناوبة في قسم العناية المركّزة لحديثي الولادة. وفي الأسبوع الأخير فقدنا طفلين رضيعين. وفي عشية عيد الميلاد، البارحة، عندما دارت الساعة دورتين كاملتين، كنت أقدّم الرعاية لثلاثة مخلوقات صغيرة تكافح رئاتهم مثل أجنحة فراشات مسطّحة وعديمة الجدوى برزت قبل أوانها. ثلاثة توائم. فكّرت في وجهة نظر نِلسون عمّا يجب أن نفعله مع التوائم، والعواقب الرهيبة لتجاهل هذا التقليد. لكن لدينا الآن حالة أسوأ: كارثة ثلاثية سقطت فوق منزل هذين الأبوين الفقيرين. تحدّثت إلى الأب، فتى في السادسة عشرة من عمره تقريباً، وقد أعطى انطباعاً واضحاً -من خلال استخدام الصيغة الشرطية خلال حديثنا عن الرعاية الأبوية التي يجب توفيرها لهؤلاء الأطفال المتضررين- بأنه لن يبقى قريباً منهم، لذا فإن البلاء كله سيقع على كاهل الأمّ وحدها. وبينما كانت الآلات تهمهم بهدوء في المستشفى، وتُصدر أحذيتنا المطاطية البيضاء هسيساً في الممرات، كانت كارثة تزأر فوق رأس هذه الأمّ التي ما تزال طفلة. هذه هي هديتها في عيد الميلاد: ستصبح خادمة إلى الأبد، ولن تكون حياتها مرة أخرى خالية من الكدح وخيبة الأمل من الفئران الثلاثة العمياء. قد تقطع ذيولهم بسكين حادة(*)، هذه الزوجة التي لا زوج لها، والتي لا تزال صديقاتها في المدرسة يتنزّهن مستمتعات بفترة صباهن.

من سيقول إنه يجب عليها ألّا تركض إلى الغابة وشعرها وحبالها السرّية تتطاير وراءها، ثم تجثو لتضع كلّ طفل من هؤلاء الأطفال الثلاثة عند جذع شجرة الصنوبر؟ من يستطيع أن يجادل بأنّ القطرات والحاضنات هنا هي الشيء الأكثر حكمة حقاً؟!

من يستطيع أن يلوم أمي لو اختارت أن تتركني؟!

(*) إشارة إلى أغنية أطفال إنكليزية اسمها «ثلاثة فئران عمياء Three blind mice»، وترد فيها قصة الفلّاحة التي ستقطع ذيول الفئران بسكّين حادة. [م].

بعد منتصف الليل غططت في النوم على سريري الصغير في غرفة الأطباء المتمرّنين، وبدأت الأحلام تهاجمني بقوة. رأيت أطفالاً من جميع الألوان، أطفالاً متضررين، أُدخلت أنابيب في قصباتهم الهوائية، يرقصون على رأسي وذراعيّ ويديّ. عش أو مُت، عش أو مُت؟ يرددون جميعاً: ماما هل يمكننا أن؟

من تحت بيتي الورع، من تحت مدوّنة إدا للأخلاق، انزلقت إفريقيا على الأرض وخرجت خلسة. كم كنت واثقة من قبل، كم كنت معتدّة بنفسي، أتحرّك في عالم يريد أن يلقي بي في عرين أطفال التعليم الخاص وشدّ الأذن. إدا، اللقب المُقيِّد، إدا المأذون لها أن تحتقر الجميع. عليها الآن أن تعترف لمن كان يرى أنني يجب أن أُترك في الغابة عندما وُلدت: حسناً، لديهم وجهة نظر.

إن ما حملته من الكونغو على ظهري المحني الصغير هو حالة من عدم اليقين الشرس بشأن قيمة الحياة. وها أنا ذا الآن سأصبح طبيبة. يا له من شيء منطقي!

عانيت وأنا نصف مستيقظة ونصف نائمة، وفجأة، في وسط غفوتي المحمومة التي اختلستها، صحوت تماماً، مذعورة، أرتعش. كنت مستلقية على جانبي وعيناي مفتوحتان. أحسست بيديّ باردتين. كنت خائفة. هذا هو الشيء الفظيع الجديد الذي لا أستطيع احتماله. خائفة.

هذه رسالتي للعالم الذي لم يكتب لي البتّة - هذه الأنباء البسيطة صرّحت بها الطبيعة - بوقارٍ لطيف. سُلِّمَت رسالتها إلى أيادٍ لا أستطيع أن أراها - من أجل حبّها، يا أبناء جلدتي اللطفاء، احكموا عليّ برفق!(*)

رغماً عني أحببت العالم قليلاً، وقد أفقده.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(*) من قصيدة لإيميلي ديكنسون. [م].

انتصبتُ جالسةً في سريري، مرّرت يدي فوق شعري الرطب المتشابك، وأحسست بكدمات تملأ ذراعي في شكل آثار أقدام صغيرة. ووضعت يدي الأخرى على الساعة التي تواصل تقدّمها الراسخ الغريب: تك، تك، تك...

ممَّ أنتِ خائفة بالتحديد؟

انتحار الأشقاء الشاعري(*). خائفة أن تختار أمي ليا.

ليا المثالية مع ابنها الصغير الجميل وزوجها. بعد ساعات قليلة سيطلع الصباح، وسيرقصون حول الشجرة مع هداياهم الصغيرة التي قدّمتها لهم أمّي، وسيبقون، سيبقون بعد كل شيء. وسيكون إغراء الأحفاد أقوى من أن يُقاوم، ستكون أمي ملكاً لهم. ثم عليّ أن أخلد إلى النوم. النوم أيها النوم أنت عقدةٌ أكيدة من السلام(**).

جلستُ على حافة سريري للحظات مضجرة، أبتلع التردد والدموع. ثمّ نهضت ومسحت وجهي بكمّ معطفي الأبيض، ثم توجّهت إلى غرفة الأطباء، واتصلت بالرقم الذي أحفظه عن ظهر قلب. اتصلت بها. كان ذلك في منتصف الليل. الليلة التي سبقت ليلة الميلاد، مع أنني، أنا إدا، لا أتوقّع أن أحصل على هدايا. إدا التي ليست بحاجة إلى ما يقوله الآخرون عنها ولا تكترث بما يقولونه. ومع ذلك، أيقظت أمي وسألتها لماذا اختارتني في ذلك اليوم عند نهر كوينغ.

تردّدت أمي مدركةً أن هناك العديد من الإجابات الخاطئة. لم أكن أريد سماع أن الآخرين يستطيعون الاعتناء بأنفسهم، أو أنه لم يكن لديها خيار آخر. قالت أخيراً: «بعد روث ماي أنتِ أصغر بناتي يا إدا. وعندما يبدأ التدافع فإن الأمّ تعتني بأطفالها بدءاً من الأصغر حتى الأكبر».

(*) الكلمات في الأصل الإنجليزي مقفّاة. [م].

(**) مقتبس من قصيدة لفيليب سيدني Philip Sidney وهو شاعر إنكليزي من القرن السادس عشر. [م].

هذه قصّة ما قبل النوم التي اختلقتها لي أمّي. لم يكن الأمر يتعلّق بمدى قيمتي على الإطلاق، لأنه لا توجد قيمة أصلاً، وإنما هي مسألة تتعلّق بالمكانة وبحاجة أمّي. فبعد روث ماي، هي تحتاج إليّ أكثر من كلّ أخواتي.

أجد هذا التفسير مريحاً على نحوٍ لافت، ولذا قرّرت أن أتعايش معه.

ليا برايس نغيمبا

كنشاسا، 1974

لم يعد بإمكانك الآن أن تذهب إلى ليوبولدڤيل أو ستانليڤيل أو كوكويلهاتڤيل أو إليسابيثڤيل. مُحيت كلّ أسماء هؤلاء الغزاة (وسيّداتهم) من على خريطتنا. ولم يعد بإمكانك حتى أن تذهب إلى الكونغو فقد أصبح اسمها الآن زائير(*). نكرّر هذه الكلمات كما لو كنا نحاول أن نحفظ هوية مزوّرة عن ظهر قلب: أنا أعيش في كنشاسا، زائير. الأماكن التي كنا نستخدمها دائماً لنحدد موقعنا أصبحت فجأة غير مألوفة: المدن، القرى، وحتى الأنهار. أصبحت إليزابيت قلقة -على الرغم من تطميناتنا لها- من أنهم قد يغيّرون اسمها واسم أناتول ويستبدلون بهما أسماء محلّيّة جديدة، لأن لهما صبغة أوروبية و«استعمارية». لن أُفاجأ إذا حدث ذلك، لأن القوانين التي أصدرها موبوتو يمكن أن تصل إلى هذا الحد. وكان جيرانها، الرجل والمرأة العجوزان، يشاركانها هذه المخاوف: فهما ينسيان دائماً ويقولان «ليوبولدڤيل»، ويغطّيان فميهما بيديهما بسرعة كما لو أنهما قد ارتكبا جرماً.

في المساء، يختبر أحدنا الآخر، نسأل عن أماكن لم تعد واضحة على الخريطة ليخربط أحدُنا الآخر: تشارليسڤيل؟ بانينغڤيل؟ دجوكوبوندا!

(*) حملت الكونغو اسم زائير بين عامي 1971-1997، أي إلى حين سقوط نظام الرئيس موبوتو. [م].

باندوندو! أبنائي يعرفونها أكثر مني، يرجع ذلك أساساً إلى أنهم يحبّون التباهي. لم يُخطئ أناتول ولا مرة لأنه سريع البديهة ويفكّر بسرعة، ولأن الأسماء الأصلية تعني له كثيراً. لكنها تبدو لي أسماء أجنبية طبعاً. بعد أن ينام الأولاد، أجلس إلى الطاولة على ضوء مصباح الكيروسين المرتعش، وأبدأ أتعرّف ببطء على الخريطة الجديدة، وأشعر كما لو أن أبي كشفني هنا وسيعاقبني بآية. نحن نعيد تدريب ألسنتنا على حملة الأصالة العظيمة التي أطلقها موبوتو.

لكن أين الأصالة في ذلك؟ أسأل أناتول باستمرار. فقد أصبح شارع كنشاسا الرئيسي يسمى شارع 30 حزيران تخليداً لذكرى يوم الاستقلال المُكتسب بآلاف الحصوات التي أُلقيت في تلك الطاسات ثم نُقلت عبر النهر. أين الأصالة في ذلك؟ فما حدث في هذا التصويت أمرٌ آخر، ولم يُخلّد في أي مكان عام يمكنني رؤيته. لا يوجد شارع أُطلق عليه اسم 17 جانڤييه(*)، يوم وفاة لومومبا. فأشار أناتول إلى الدرب الترابي الممتد بين بيتنا وبيوت جيراننا نزولاً إلى خندق نضطرّ فيه إلى رفع تنانيرنا والسير على رؤوس أصابعنا على براميل الزيت فوق مياه المجاري لنصل إلى الطريق الرئيسي، وقال: «هذا الشارع يحتاج اسماً يا بينيه. ضعي لافتةً هنا!». رجلٌ حكيم. لا يمكنه الانتظار لمعرفة ما إذا كنت سأفعل ذلك.

منزلنا متين، له أرضية إسمنتية وسقف من الصفيح. نعيش في ما يمكن أن نطلق عليه في أميركا: حيّ الفقراء، على الرغم من أن هنا يُعتبر جزيرة من الرفاهية النسبية مقارنةً بضواحي المدينة، فعلى أقل تقدير لدى معظم الناس قدرٌ أقل من السقف مما لدينا. وتحت هذا السقف ستّة أشخاص: أنا وأناتول وأبناؤنا باسكال وباتريس والطفل الرضيع، مارتن لوثير، والعمّة إليزابيت وابنتها كريستيان التي تأتي لتسكن معنا أحياناً. فبعد أن عدنا من

(*) بالفرنسية في الأصل، وجانڤييه هو شهر كانون الثاني. [م].

أتلانتا أحضرنا إليزابيت من بيكوكي حيث ساءت الحياة إلى حدٍّ ما. لا يمكنني أن أقول إن الحياة أقلّ سوءاً هنا، لكن على الأقل توجد رفقة جيّدة. كنت أظن أنني تعلّمت سعة الحيلة، لكن إليزابيت ما زالت تقدّم لي خبرتها في هذا المجال. كانت تناديني مونديل، أنا ابنتها البيضاء، مع أنها تكبر أناتول بسنوات قليلة وتشبهه تماماً، باستثناء الكتفين العريضين والخصر الضيّق (شكلهما معكوسٌ نوعاً ما). وبصبره اللطيف نفسه كانت تعمل في منزلنا ذي الغرفة الواحدة، وهي تغنّي باللينغالا، بيدها اليسرى تغلق دائماً الباني الخارجي للاحتشام، فيما يدها اليمنى بمفردها تعمل أكثر مما أستطيع أن أفعله أنا بثلاث أيادٍ.

حكت لي كلّ ما تتذكّره عن أختها الأكبر، والدة أناتول، ومثل طفلة صغيرة كنت أطلب منها تكرار تلك القصص، فقد كنت أتوق لأي شعور بالدفء العائلي. فإن حالفني الحظ قد أسمع شيئاً من أمي وإدا مرّتين في السنة. لكن هذا ليس ذنبهما. فأنا أعرف أنهما أرسلتا لي عدداً لا يحصى من الطرود، لكنها مكدّسة في مكان ما في مبنى البريد المتهالك ذاك في وسط المدينة. وأتوقّع أن وزير البريد يمكن أن يبني لنفسه منزلاً ثانياً وثالثاً من تلك الطرود التي لم تُسلّم لأصحابها.

بمعجزةٍ ما تلقينا طرداً في عيد الفصح. راح الصبية يجرون على طول شارع 17 جانفْييه يصيحون ملوّحين بألواح شوكولاتة «مارس» الثمينة. (سمعت باسكال يقول لأصدقائه متفاخراً بأن هذه الشوكولاتة صُنعت في المرّيخ(*)). شعرت بإغراء أن أفعل مثلهم بغنيمتي الخاصة: خمسة كتب باللغة الإنكليزية! وأيضاً: ثياب، أسبرين، مضادات حيوية، مرهم لليدين، حفّاظات أطفال قطنية سميكة، بطاريات للراديو، ورسائل طويلة. دفنت

(*) كوكب المريخ بالإنكليزية هو Mars، وهو الاسم نفسه للشوكولا الشهيرة، التي أخذت اسمها من لقب المؤسّس Forrest Mars. [م].

وجهي في الثياب لأشمّ رائحة أمّي، لكني سرعان ما أدركت أنها جاءت من طفل أميركي لا يقربنا، لأن أمي تعمل متطوّعة في برنامج الإغاثة الإفريقية، ويمكن القول إننا أصبحنا مشروعها الأثير.

في كلّ رزمة يوجد شيء غريب أرسلته إدا. نوعٌ من الرسائل السرية، كما أعتبرها. هذه المرة أرسلت قصاصة من صحيفة «ساترداي إيڤنينغ بوست» قديمة وجدتها في الجزء السفلي من خزانة ثياب أمّي. تصفّحتها وتساءلت ما إن كانت تريدني أن أقرأ كيف كانت بدايات الممثّل جيمي ستيوارت، أو معرفة أنه عندما يدخل تلفاز ماركة فيلكو إلى بيتك فإن جميع مشكلاتك مع التلفاز القديم ستنتهي؟ ثمّ وجدت ما الذي تريدني أن أقرأه: مقالة بعنوان «هل ستصبح إفريقيا شيوعية؟». لا تزال إدا تحتفظ بعينها الحادة الساخرة. كانت المقالة تقول إن على الولايات المتحدة أن تتولّى بطريقةٍ أفضل مسؤولية الحكم في الكونغو المارقة. الصورتان المرفقتان بالمقال أوقفتا قلبي عن الخفقان: ففي إحداهما ينظر جوزيف موبوتو الشاب بتذلّل، فوق تعليق يقول إن وضعه محفوف بالمخاطر، وإلى جانبه صورة باتريس لومومبا بابتسامته الماكرة مع تعليق يقول محذّراً: «قد يكون في طريق عودته!». كانت الصحيفة مؤرّخة في 18 شباط 1961 وكان قد مضى حينذاك على موت لومومبا شهر واحد، ودُفن تحت قنّ دجاج في شابا. وقد كان موبوتو راسخاً بالفعل على العرش. يمكنني تخيّل ربّات البيوت في جورجيا وهنّ يرتجفن من التحدي الشيوعي، وسرعان ما يقلبن الصفحة على ذلك الشيطان الأسود لومومبا ذي الذقن المدبّبة. أما أنا فأكاد لا أكون أكثر استنارة. كنت أعيش هنا في بولونغو، القرية ذاتها التي ألقوا فيها القبض على لومومبا، وأعرف أن أختي تزوّجت رجلاً ربما يكون قد ساعد في نقل حكم الإعدام إلى شابا، مع أن راشيل لن تستطيع معرفة ذلك على وجه اليقين. في هذه القصّة يوجد جهلة، لكن لا يوجد أبرياء حقيقيون.

وفي أسفل الصفحة، كتبت إدا: «أتتذكّرين الشيطان رقم واحد ودبليو آي. روغ؟ أسرارنا السرية؟»، وقالت إن حديثاً يدور حالياً بأن الكونغرس سيجري تحقيقاً، وأنه سينظر في الانتهاكات التي ارتُكبت في الماضي في الكونغو، أو في وجود «أيّ صلة محتملة بين وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية وموت لومومبا وانقلاب الجيش الذي أوصل موبوتو إلى السلطة». هل يمزحون؟ تقول إدا إن أحداً لا يصدّق ذلك. أما هنا، فلا أحد يشكّ في ذلك البتّة. كما لو أنّ التاريخ لا يمكن أن يكون أكثر من مرآة مقلوبة لتُظهر لكلٍّ منا تماماً ما كان يعرفه مسبقاً. الجميع يدّعون الآن أنهم سيضعون الأمور في نصابها: سيعقدون جلسات استماع، وخلال ذلك يقوم موبوتو باستعراض تغيير أسماء الأماكن والشوارع التي تحمل أسماء أوروبية ويطلق عليها أسماء محلّيّة للتخلّص من الهيمنة الأجنبية. لكن ما الذي سيتغيّر؟ سيستمرّ في النجاة ببراعة عبر إبرام الاتفاقات مع الأميركيين الذين ما زالوا يسيطرون على جميع مناجم الكوبالت والماس لدينا. ولقاء ذلك، ستذهب جميع المعونات الخارجية إلى موبوتو نفسه مباشرة. قرأنا أنه يبني لنفسه قلعة حقيقية ذات أبراج، ويحيط بها خندق مائي بالقرب من بروكسل. أعتقد أنه يريد أخذ إجازةٍ فيها من الفيلّات التي شيّدها في باريس وإسبانيا وإيطاليا. عندما أفتح باب بيتنا وأنظر إلى الخارج، أرى ألف بيت صغير مبني من الألواح الخشبية الصغيرة والكرتون المقوّى، بيوت تطفو في كلّ ميل يمكن تصوّره على محيط لا نهاية له من التراب. وبصعوبةٍ تجد مستشفى حقيقياً في منطقتنا، أو طريقاً سالكاً خارج كنشاسا. كيف يمكن أن يكون ذلك، قلعة بأبراج وخندق مائي؟ لماذا لا يفتح العالم فكَّيه مثل حوت ويبتلع هذه الصفاقة بلعةً واحدة؟ حالياً، هذا هو السؤال الذي أفكّر أن أطرحه على أبي: «فمَن يا تُرى وكّلهُ بالأرض، أو جعلَ الكونَ كلّه في عهدته؟ لو كانت لديك بصيرة، فاسمع هذا، وأصغِ إلى صوت كلماتي:

ألعلّ من يُبغض الحقّ يتسلّط، أم البارّ الكبير تستذنب؟»، سفر أيوب 13:34، شكراً جزيلاً.

أفادت آخر الأخبار بأن موبوتو سيدعو الملاكمين الأميركيين العظيمين: محمد علي وجورج فورمان، ليلعبا في استاد كنشاسا. أُعلن هذا الخبر في المذياع بعد ظهر اليوم. استمعت إلى الخبر بأذن واحدة، لأن أشياء أكثر درامية كانت تجري في مطبخنا. كنت قد وضعت مارتن للتوّ على حصيرته لينام قليلاً، وذهبت لأغلي حفّاظاته، بينما كانت إليزابيت تفتّت قليلاً من البصل والبيلي -بيلي الحارّ، وتقليها مع طماطم مهروسة لصنع صلصة حمراء رقيقة نتناولها مع المانيوك. هذه هي الحيلة الرئيسية للطبخ الكونغوليّ: أن تفرك ورقتين معاً لإعطاء لون ومذاق للمانيوك نصف الشفّاف الخالي من أي قيمة غذائية.

كان قِدر الفوفو ينتظر دوره لأضعه على الموقد بعد أن أنهي غلي حفّاظة الطفل، بعد ذلك يأتي دور وعاء الغسيل الكبير الذي أغلي فيه قمصان الأولاد والملاءات الثلاث والمنشفتين الموجودتين في البيت. يوجد لدينا هنا في كنشاسا «مطبخ المدينة»، ويوجد موقد في البيت، لكنه مجرّد موقد صغير يعمل على الغاز. وهو بطيء إلى حدٍّ يدفعني للجنون بعد السنوات التي أمضيتها في الطهي على نار الحطب المتقدة بقوة. لا يزال الكثيرون هنا يطبخون على الخشب الذي يسحبونه سرّاً في الليل من منازل بعضهم بعضاً، مثل النمل الأبيض.

كان من المفترض أن يقبض أناتول راتبه اليوم. وكان الحديث في المدرسة يدور عن زيادة على الراتب، مما يعني إمكانية أن تسدد الحكومة الرواتب المتأخرة التي تسرقها من جميع المدارس العامة منذ أكثر من سنة. ويفترض أن تكون هذه الزيادة بادرة حسن نية لمنع حدوث إضراب طلّاب الجامعة في جميع أرجاء البلد. لكن كان بعض الطلّاب قد خرجوا فعلاً،

وأبدى موبوتو حسن نيّته باستخدام الهراوات. أشعر بقلق شديد على أناتول رغم معرفتي بأن لديه قدرة مذهلة في مجال ضبط النفس في لحظة خطيرة.

مع أننا كنا نعرف، أنا وإليزابيت، بأنه لن يكون هناك أي زيادة، بدأنا نتسلّى بالتفكير كيف سننفق هذا المبلغ غداً في السوق. قلت لها: «كيلو سمك أنقليس طازج وأربعاً وعشرين بيضة»، فضحكَتْ على ما قلته. كان تعطّشي لتناول البروتين يجعلني لا أفكّر بأي شيء آخر، وكانت هي تسميه جوع البِيض.

«الأفضل أن نشتري عشرة كيلوغرامات من الرزّ وقطعتَي صابون» - قالت، وكان هذا ما نحتاجه فعلاً، لكني كنت أتمنى أن نحصل على مبلغ مفاجئ متخيّل لا يجلب كمية إضافية من النشاء الأبيض إلى هذا البيت.

«لا شيء أبيض»، قلت.

عرضت: «إذاً صابون بني اللون»، ثم أضافت بحرارة: «أوه، ومناديل حمّام وردية جميلة»، فضحكنا كلتانا لهذا الأمل الكاذب. كانت آخر لفّة ورق تواليت رأيناها -بأيّ لون- قد جاءت من أتلانتا.

انتحبت: «بعض الفاصولياء على الأقل، يا إليزابيت. أشياء خضراء طازجة. مانغوانسي، كما اعتدنا في البلد».

ثم جاءت صديقة باسكال المقرّبة: فتاة مفعمة بالحيوية، اسمها إيلوڤي، تجوّلت في المكان ثم جلست إلى الطاولة قبالة إليزابيت. لكنها كانت هادئة اليوم على غير عادتها.

«ما رأيك؟» -نكزتها إليزابيت بالطرف الحاد لسكّينتها- «قولي لمدام نغيمبا إنها تحتاج إلى باني جديد يحتفظ بقليل من اللون على الأقل. قولي لها إنها تُلحق الخجل بأبنائها من خرقة الغسيل التي ترتديها عندما تذهب إلى السوق».

أمسكت إيلوڤي الأكمام القصيرة لزيّها المدرسي. كان من الواضح

أنها لا تريد أن تتكلّم عن الأزياء الآن. بدت بشرتها الداكنة رمادية، وانحنى كتفاها بتلك الطريقة المتعبة التي أراها عند أبنائي عندما يصابون بدودة الأنكلستوما. حملتُ الحفّاظة المغلية إلى الخارج، غسلت يدي بعناية بقطعة الصابون المتبقية، وذهبت لأصنع كوباً من الشاي لإيلوڤي، متجاوزةً قدور الطبخ التي تنتظر دورها.

فجأة قالت إيلوڤي بوجه يخلو من أي تعابير إنها ستترك المدرسة.

قلت لها: «إيلوڤي، لا يمكنك ذلك!».

إنها فتاة صغيرة ذكية، مع أن ذلك لا يضمن لها شيئاً في هذه الحياة بالطبع، ثم سألتها إليزابيت ببساطة: «لماذا؟».

«لكي أعمل مع أمي ليلاً» - قالت بحزم. وهذا يعني أنها ستعمل عاهرة.

«كم عمرك؟» -سألتها بحدّة- «إحدى عشرة سنة؟ عشر سنوات؟ هذه جريمة يا إيلوڤي، أنتِ طفلة! هناك قوانين تحميك من هذا النوع من العمل. إنه مروّع، إنك لا تعرفين. ستخافين وستتأذّين وقد تصابين بمرض فظيع!».

نظرت إليّ إليزابيت بفزع وقالت: «مونديل، لا تخيفيها! إنهم بحاجة إلى نقود».

طبعاً هذا صحيح، وبالطبع لا توجد قوانين تحمي الأطفال من الدعارة. أظن أن كريستيان، ابنة إليزابيت، التي تبلغ السابعة عشرة من عمرها، تعمل بعض الأحيان ليلاً في المدينة، مع أننا لا نستطيع أن نتحدّث عن هذا. عندما نصل إلى الحضيض، تكتشف إليزابيت بطريقةٍ ما القليل من المال في محفظتها. آمل ألا يكون هذا هو الحال حقاً. حدّقت بإيلوڤي، صديقة ابني الصغيرة بركبتيها المكشوطتين وضفيرتيها البارزتين مثل مقودَي درّاجة: عاهرة! خطر لي أن كونها طفلة سيزيد من قيمتها طبعاً، لفترة من الزمن. جعلني ذلك أرغب في الصراخ. دفعت قِدر المانيوك عن الموقد، فاندلق الماء في كل مكان.

أعيش هنا على الغضب. بالطبع سيكون الأمر هكذا! فقد نشأت على الإيمان الأعمى بالرجل الأبيض العظيم في السلطة: الله، الرئيس، أو أيّاً يكن لا يهمّني، ولكنه سيحقق العدالة! في حين أنه لا يوجد لدى أحد هنا أدنى سبب ليفكّر بمثل هذه الأوهام. أشعر أحياناً بأنني الوحيدة على مسافة أميال كثيرة التي لم تستسلم بعد، بخلاف أناتول الذي يفرغ شحنات غضبه بطرق مثمرة أكثر.

لم يتفوّه أحدنا بحرف لمدة قصيرة، بعد ما قالته إيلوڤي. وأبلغتنا الإذاعة أن كل ملاكم من الملاكمَين الأميركيّين سيتقاضى خمسة ملايين دولار أميركي، من خزانتنا، لقاء قدومهما إلى هنا. وسيكلّف توفير الحماية المشددة وتنظيم أجواء احتفالية للمباراة مبلغاً مماثلاً. «العالم كلّه سيحترم اسم زائير»، أعلن موبوتو في مقابلة مسجّلة قصيرة في نهاية البثّ.

«احترام!». بصقت على الأرض، الأمر الذي أخاف إليزابيت أكثر مما أخافها الإنفاق المتهوّر لعشرين مليون دولار.

«هل تعرفين ماذا يوجد تحت أرض ذلك الملعب؟»، سألتها.

«لا» – قالت إليزابيت بحزم، مع أنني متأكّدة من أنها تعرف أن مئات السجناء السياسيين يقبعون هناك مقيّدين بالسلاسل. إنه أسوأ سجون موبوتو وأشهرها، ونعرف كلّنا أن أناتول قد ينتهي به المطاف هناك، في أي يوم. فقد يقع بين أيديهم بوشاية مخبرٍ مرتشٍ، بسبب ما يعلّمه للطلاب، ولإيمانه بالاستقلال الحقيقي، وولائه لحزب لومومبا المتحد السريّ.

«قد يُصدر السجناء ضجيجاً أثناء المباراة»، قالت إيلوڤي.

«حسناً، إن هذا لا يحسّن الاحترام العام لزائير»، قلت.

هزّت إليزابيت كتفيها: «ليكامبو تي. لا يهمّ. سيكون باسكال وباتريس متحمّسين جداً. مونديل، فكّري بالأمر، محمد علي. إنه بطل! الصبية الصغار في الشوارع سيهتفون له».

فقلت: «لا شكّ في ذلك، وسيأتي أناس من جميع أنحاء العالم لمشاهدة هذا الحدث العظيم. رجلان أسودان يضرب أحدهما الآخر بشكلٍ أخرق مقابل خمسة ملايين دولار لكلٍّ منهما، وسيرحلان من دون أن يعرفا أنه ليس ثمة موظّف واحد -باستثناء موظّفي الجيش اللعين في زائير- قد قبض راتبه منذ سنتين».

إنه لأمرٌ بغيض أن تلعن المرأة باللينغالا. إليزابيت تتحمّلني في أشياء عديدة.

«ستانليڤيل»، قالت لتغيّر الموضوع.

«كيسانغاني»، أجبت من دون حماسة. بينما جرت إيلوڤي لتلعب مع باسكال كي لا تشاركنا في هذا التمرين الكئيب.

«حديقة ألبرت العامة؟».

«حديقة مايكو».

لم يكن أحد منّا يعرف أو يهتم ما إن كانت أجوبتي صحيحة أم لا.

بدأت أعرف أنّ تغيير إليزابيت المفاجئ للحديث يكون دائماً لسبب وجيه - يتعلّق عادةً بسلامة شخصٍ ما، على الأرجح سلامتي. كنت أراقبها في السوق أيضاً، أدرك أنه لم تعلّمني أيّ مدرسة بهذا القدر من قبل. يتمتّع الكونغوليّون بحسٍّ إضافي. يمكنني أن أطلق عليه «الحسّ الاجتماعي». إنه طريقة لمعرفة الشخص من نظرة واحدة وحساب احتمالات التبادل، وهو ضروري كالتنفّس. إن البقاء على قيد الحياة هنا عملية مفاوضات مستمرة، إذ يجب عليك المقايضة سرّاً مقابل كلّ خدمة تدّعي الحكومة بأنها تقدّمها للناس، مع أنها لا تفعل ذلك في واقع الحال. كيف يمكنني البدء بوصف تعقيدات الحياة في بلد يشكّل الفساد فيه معيار القيادة المطلق؟ لا يمكنك حتى الحصول على صندوق بريد في كنشاسا، إذ بعد يوم واحد من استئجارك له، يمكن لمدير مكتب البريد أن يبيعه إلى شخص يدفع مبلغاً

أعلى، ملقياً برسائلك في الشارع وهو خارج من المبنى. وسيجادلك، على نحوٍ مقنع، بأنه لا توجد لديه وسيلة أخرى لإعالة أسرته - لأن مغلّف راتبه يصل إلى يده فارغاً كلّ أسبوع مع بيان رسمي مطبوع عن التدابير الاقتصادية الطارئة. وستسمع هذه الحجّة نفسها من مشغّلي أجهزة الهاتف الذين لا يجرون لك اتصالاً إلى خارج البلد إلّا بعد أن تحدّد لهم المكان الذي تركت لهم فيه مغلّفاً يحتوي على رشوة. وينطبق الشيء نفسه على الموظّفين الذين يمنحون التأشيرات وجوازات السفر. يبدو ذلك فوضى لأي شخص خارج البلد، لكنه ليس كذلك، إنها مفاوضات منظّمة بلا حدود، ولا نهاية لها.

وبما أنني امرأة بيضاء أعيش في كنشاسا، فإني معرّضة لاحتمالات عدة، لكن حتى امرأة سوداء تحمل المحفظة نفسها التي أحملها وتنتعل الحذاء نفسه الذي أنتعله يمكن أن تتعرّض لما أتعرّض له في الشارع. استغرقت وقتاً طويلاً لأتعوّد على ذلك. ففي الأسبوع الماضي، دنا مني شاب وطلب مني على الفور أن أعطيه ثلاثة آلاف زائيري، فتدلى فكّي من المفاجأة.

«مونديل، لم يكن يطلب منك ثلاثة آلاف زائيري» - قالت إليزابيت بهدوء بينما كنا نحدّق بشهوة في الأناناس. وأوضحت أنه كان يفتح الباب لصفقة. عنده شيء يريد أن يعرضه عليك، ربما كانت لديه معلومات سريّة عن سلع من السوق السوداء أو اسم عامل هاتف يجري اتصالات دولية بطريقة غير شرعية (لذلك فهي أرخص). كانت قد شرحت لي ذلك عشرات المرات، لكن هذا لا يُدرك تماماً إلا حين تعيشه بنفسك. فأي شخص يحتاج إلى أي شيء في كنشاسا -إجراء عملية حصى في الكلية أو شراء طابع بريدي- عليه أن يساوم بدهاء لكي يحصل عليه. وقد تعوّد الكونغوليون على ذلك واخترعوا ألف اختصار. إنهم يلخّصون الاحتمالات بعد أن يدرس كلٌّ منهم ثياب الآخر وتصرّفاته، وتُعقد الصفقة حتى قبل أن يفتح أحدهم فمه ليقول شيئاً. وإذا لم تكن تجيد هذه الأساليب الخفيّة في الحديث، فإنك

ستُصدم عندما يُفتح باب المساومة بجملة: «مدام، أطلب منك ثلاثة آلاف زائيري». وقد سمعت زائرين أجانب يتذمّرون بأنّ الكونغوليين جشعون، ساذجون، غير أكفاء. لكنهم لا يعرفون حقيقة الأمر. فالكونغوليون شعب يجيد إيجاد سبل البقاء على قيد الحياة، ويتمتّعون ببصيرة لا تُصدَّق، وإلّا فإنهم سيموتون في سن مبكّرة. هذه هي الخيارات المتاحة أمامهم.

أظن أنني تعلّمت شيئاً ما عن هذا الأمر من أناتول قبل وقت طويل، عندما شرح لي سبب ترجمته لمواعظ أبي. فلم يكن يفعل ذلك بهدف التبشير بالإنجيل، وإنما لتوضيح الأمور، وفتح باب المساومة للأشخاص الذين قد يرغبون في اعتناق الدين الجديد. تضاعف فهمي لذكاء أناتول عشرة أضعاف في ذلك اليوم، وعندما أتذكّر ذلك الآن، أقول إنه عليّ إعادة محاولة فهم جميع من نعرفهم. فلم يكن الأطفال الذين يطلبون منّا كلّ يوم نقوداً أو طعاماً متسوّلين حمقى، وإنما اعتادوا على توزيع الفائض، وكانوا لا يفهمون سبب ابتعادنا عنهم. ولم يكن الزعيم الذي عرض أن يتزوّج أختي يحلم بالتأكيد أن أبي سينقل له مسؤولية نملته البيضاء المتأففة. أظن أن تاتا ندو كان يقترح بلطف أننا سنصبح عبئاً على قريته في وقت تقترب فيه المجاعة، وأن الناس هنا يتحمّلون هذه الأعباء بإعادة ترتيب العائلات، وأننا إذا وجدنا أن هذه الفكرة مستحيلة، فربما سنكون أفضل حالاً إذا غادرنا إلى مكان آخر. بالتأكيد كان تاتا ندو متغطرساً في طرق قيادته، حتى إنه كان يهدف إلى إهانة أبي عندما دعا إلى الاقتراع في الكنيسة، أما في المسائل المتعلّقة بالحياة والموت، فيمكنني أن أرى الآن، أنه كان مهذباً بطريقة غير مفهومة.

إنه لمحزنٌ رؤية ذكاء الزائيريين ودبلوماسيتهم تُبدّد على محاولات البقاء على قيد الحياة فقط، في حين أن ثروات بلادهم من الماس والكوبالت تنسلّ كل يوم من تحت أقدامهم.

«إنها ليست أمة فقيرة» -أذكّر أبنائي باستمرار حتى يسمعوا ذلك في نومهم- «وإنما أمة من الفقراء».

بالطبع لا يوجد راتب هذه الليلة، ولا علاوة إضافية. وعلى الرغم من ذلك فقد عاد أناتول إلى البيت متحمّساً للإضراب العام، وبدأ يتحدّث عنه بهدوء على العشاء، وكالعادة كان يستخدم كلمات مشفّرة وأسماء مستعارة لأن معرفة الأولاد بهذه الأشياء قد يعرّضهم لخطر كبير. مع أنني أظن أنه حتى هجوم بيرل هاربُر(*) بنفسه سيتجاوز آذانهم الليلة، فهم منهمكون كدأبهم بالتهام المانيوك الذي رحت أتناول بيدي اليسرى لقيمات صغيرة منه لكي يدوم أكثر، وفي الوقت نفسه أُرضع مارتن بيدي اليمنى. ومع كلّ جرعة يسحبها، كنت أزداد نهماً.

قلت: «ذات يوم سآخذ قوسي وأتسلل عبر قضبان سكن موبوتو».

كان قصر موبوتو في كنشاسا محاطاً بحديقة ضخمة تجوبها الحمير الوحشية، وفيها فيلٌ هزيل يدبّ على العشب.

كان باسكال موافقاً تماماً على ذلك، فقال: «أوه! ماما اقتلي الفيل!».

قال باتريس بجدّيّة إنه لا يظن أن سهماً يستطيع أن يخترق جلد فيل.

لكن باسكال لم يكترث بذلك، وتابع: «هل رأيته؟ إن سهم ماما سيصرعه. بلاف! كوفوا!».

ثم سألتْ إليزابيت بتمعّن: «موندِيل، كيف ستطهين فيلاً؟».

كان كلّ طعامنا مانيوك، مانيوك، مانيوك. سواء أكان لونه وردياً مع قشور الطماطم، أو أخضر مع ورق الرشاد، فإنه يظلّ مانيوك. وتساعدنا وجبة من

(*) Pearl Harbor: ميناء وقاعدة عسكرية أميركية، كانت هدفاً لهجوم ياباني مباغت في عام 1941، وقد غيّر هذا الحدث مجرى التاريخ وأرغم الولايات المتحدة على دخول الحرب العالمية الثانية. [م].

الرزّ والصويا، إذا تمكّنا من الحصول عليها، على توازن أحماضنا الأمينية حتى لا تأكل أنسجة عضلاتنا نفسها في العملية المعروفة باسم كواشيوركور. عندما انتقلنا إلى كيلانغا أول مرة، أتذكّر أنني ظننت أن الأطفال يأكلون كثيراً لأن بطونهم منتفخة وناتئة. لكنني عرفت الآن أن العضلات أسفل بطونهم أضعف من أن تثبّت أكبادهم وأمعاءهم في أماكنها. بدأت ألاحظ علامات من ذلك على باتريس. وبما أن الطعام الذي يصلنا إلى كنشاسا يجتاز طرقاً مستحيلة عبر المناطق الداخلية في شاحنات متداعية، فقد كان يكلّف كثيراً حتى لو وجدته. وفي بعض الأحيان، يذكّرني أناتول بالحديث الذي دار بيننا منذ زمن، عندما كنت أحاول أن أشرح له كيف نزرع المحاصيل في أميركا، في حقول شاسعة بعيدة عن السكّان الذين يتناولونها. بدأت أفهم الآن سبب فزعه. فهي فكرة سيئة، على الأقل بالنسبة لإفريقيا. هذه المدينة هي نتاج ما يسميه الأجانب «الكفاءة»، وهي مزروعة خطأً على هذه التربة. لا يمكن لأحد يعيش هنا أن يشكّ في هذا. إنها تجمّع كبير لكلٍّ من الجوع والأمراض المعدية واليأس، متنكرة على هيئة فرصة.

حتى إننا لا نستطيع أن نزرع هنا أيّ محصول خاص بنا. فقد حاولت ذلك في قطعة أرض عند الإطار الحديدي للباب الخلفي لبيتنا، تحت حبل الغسيل. وكان باسكال وباتريس قد ساعداني على حفر قطعة أرض صغيرة نبتت فيها أخيراً بضع باقات قاتمة ومتربة من السبانخ والفاصولياء التهمتها كلّها عنزة جيراننا ذات ليلة. بدا أطفال تلك الأسرة (مثل عنزتهم) في حالة جوع شديد، فلم أستطع الحزن على هذا التبرّع.

يوجد لدينا على الأقل خيار أن نغادر هذا البلد. أفكّر بذلك في خلفية عقلي - يمكننا أن نحاول مرة أخرى في أتلانتا. فعلى الرغم من أننا بقينا هنا بسبب عمل أناتول في التعليم وبسبب التنظيم، ونعيش على اللا شيء تقريباً الذي يُكسبه إيّاه هذا العمل، لكن ما زال لدينا قدرٌ من الامتياز غير

المفهوم لجيراننا. كنت قد أخذت أبنائي إلى الولايات المتحدة ليأخذوا اللقاحات غير المتوفّرة في أي مكان في زائير. يكفي أنني رأيتهم يولدون كلّهم أحياء، ولم نفقد واحداً منهم بسبب الجدري أو السلّ. إننا محظوظون أكثر من معظم الناس الآخرين. هذا أصعب شيء يمكن تحمُّله: المشهد خارج النافذة. عندما أرى المدينة الكالحة، أرض بلون التراب، أعاني في داخلي الحنينَ إلى حياة الداخل. ففي بيكوكي وكيلانغا كنا نستطيع دائماً أن نقطف ثماراً من أي شجرة، ولم يمرّ يوم لم نرَ فيه أزهاراً. صحيح أن الأوبئة كانت تدمّر القرية تماماً بعض الأحيان، لكنّها كانت تنتهي دائماً، في مكانٍ غير بعيد عن المكان الذي بدأت منه.

يمكنني أن أضحك على نفسي السابقة عندما أتذكّر كيف أعددنا، أنا وأخواتي، بعصبية، قائمة آمالنا: برتقال، طحين، وحتى بيض. حتى في أدنى مستوياتنا كمبشّرين، كنا نُعتبر أغنياء على نحوٍ مذهل بحسب معايير كيلانغا. ولا عجب أن أي قطعة منزلية تركناها بلا مبالاة على شرفتنا وجدت بهدوء منزلاً جديداً في الليل. ولا عجب أن جاراتنا كنّ يعبسن عندما كنا نسحب بطانات جيوبنا إلى الخارج لإثبات أننا لا نملك شيئاً. حتى إنه لم يكن لدى أي شخص آخر في هذه القرية جيوب. لا بدّ أنهم شعروا تماماً كما أشعر الآن عندما أحدّق في موبوتو عند عتبات قصوره الفخمة، وهو يهزّ كتفيه بلا مبالاة، ويداه غائصتان في الغنائم المتلألئة التي ينهبها من المناجم.

«ظننت أنك قلت إن الكونغوليين لا يؤمنون بالاحتفاظ بالثروات لأنفسهم» - قلت لأناتول ذات يوم راغبةً في جداله.

لكنّه ضحك فحسب وقال: «من، موبوتو؟ حتى إنه لم يعد إفريقياً الآن».

«حسناً، ما هو إذاً؟».

«إنه الزوجة الوحيدة لعدة رجال بيض» - أوضح أناتول الأمر على هذا النحو: «مثل أميرة في قصة، ولدت الكونغو ثرية، جذبت إليها من أقاصي

الأرض رجالاً أرادوا نهبها ولم يتركوا فيها شيئاً. وتزوّجت أميركا اقتصاد زائير، لكنه لم يكن زوجاً لطيفاً، بل راح يستغلها ويخضعها بادعاء إنقاذها من الانحدار الأخلاقي الحتمي عن طبيعتها».

فقلت: «أوه، إني أفهم هذا النوع من الزواج جيّداً، فقد نشأت وأنا أشاهد واحداً يشبهه تماماً».

لكنْ، يخطر لي الآن أن أمي حملت، في النهاية، آخر ممتلكاتنا إلى الخارج وقدّمتها هدية وداع لكيلانغا. هناك زوجات، وهناك زوجات. أمي الوثنية الوحيدة بيننا التي فهمت معنى الفداء.

أعتقد أن بقيتنا لم نفهم ذلك إلا لاحقاً. إن الله يمنحنا حياةً طويلة تكفي لنعاقب أنفسنا. وظلَّ يوم 17 جانفييه، اليوم الذي مات فيه لومومبا وروث ماي، يوماً كئيباً في بيتنا.

أنا وأناتول صمتنا، وبدأنا نحدّق من مسافة بعيدة إلى ما نندم عليه، والذي صار ملتصقاً بنا الآن. كانت تراودني أحلام بائسة في ليالي كانون الثاني وأرى نفسي ممدّدة فوق الماء، أحاول أن أتوازن. وعندما ألتفت إلى الشاطئ، أرى صفّاً من البيض، يتحوّل إلى وجوه أطفال جائعين، ثم يأتي السقوط في اليأس الأزرق، إذ يتعيّن عليّ تحريك الجبل الذي ينهار بين يدي. أشعر براحة كبيرة عندما أستيقظ مبلّلة بالعرق وأجد أناتول مستلقياً بجانبي. لكن حتى تفانيه لا يستطيع أن يزيل هذا الثقل عن كاهلي.

«ارحمني يا الله حسب رحمتك، وحسب كثرة رأفتك امحِ معاصيَّ». أجد نفسي أصلّي قبل أن أصحو تماماً على عالم لا يوجد لي فيه أب، ولا يمكنني أن أعتمد فيه على أي رأفة.

يقول أناتول إن تكرار الأحلام أمرٌ شائع بين أولئك الذين عانوا بشدة من الملاريا. وعندما أكون متوتّرة الأعصاب أو حزينة، فإني أقع أيضاً فريسة لحكّة فظيعة من الطفيليات الصغيرة التي تتغلغل إلى داخل مسامات جلدي،

وتسبّب طفحاً شديداً في جلدي من وقت إلى آخر. لإفريقيا ألف طريقة لتتغلغل داخل جلدك.

***

إن حياتنا في كنشاسا هنا أرحم بكثير مما يتمنّى الكثيرون. فلم أضطر حتى الآن لأن أقتل فيل موبوتو. واستطعت أن أجلب إلى البيت راتباً جيّداً لفترة من الوقت. فقد سُجِّلت في قائمة الرواتب الأميركية، مسوّغةً الأمر أني سأنثر الدولارات على الباعة في أي ركن صغير من المدينة. على الأقل، لأنه من المؤكّد أنهم لن يحصلوا على أي إعانة أجنبية بطريقة أخرى.

«السيّدة نغيمبا، معلّمة اللغة الإنكليزية»، أصبحت هويتي الجديدة. وقد أزعجني هذا بقدر ما أزعجني الرداء البنيديكتي. فقد بدأت أعلّم في مدرسة خاصّة في مجمّع للأميركيين الذين جاؤوا لمدّ خطّ كهرباء إنغا-شابا. هذه هي هدية الزواج العظيمة التي قدّمتها أميركا للكونغو: تمويل خطّ كهرباء إنغا-شابا، الخطّ الكهربائي الضخم الذي يمتدّ مسافة ألف ومئة ميل في الغابة، ويربط السدود الكهرومائية أسفل ليوبولدڤيل بمنطقة التعدين الجنوبية البعيدة في شابا. وجلب المشروع مهندسين من جامعة بوردو، وطواقم من عمّال الحفر من تكساس مع أسرهم عاشوا في مدينة غريبة خارج ليوبولدڤيل تسمّى أميركا الصغيرة. كنت أستقلّ الحافلة إلى هناك صباح كلّ يوم لأدرّس القواعد والأدب للأطفال الجلفين. كانوا شاحبين مُقتلعين من بيوتهم يتذمّرون لأنهم يفتقدون برامجهم التلفزيونية الفظيعة: برامج توجد في عناوينها عبارات مثل الرذيلة والشرطة والمخاطر، وأظن أنهم سيغادرون الكونغو من دون أن يعرفوا أنهم كانوا محاطين بالرذيلة والشرطة ومخاطر الغابات التي تعجّ فيها الأفاعي. كان المجمّع أشبه بسجن مبني من الأسمنت والحجارة، محاطاً بأسلاك شائكة حادّة. وكما يفعل السجناء، كان هؤلاء الأطفال يتشاجرون ويستخدمون أيّ آلة حادّة قد تقع

في أيديهم. كانوا يسخرون من طريقتي في ارتداء ثيابي ويسمّونني «السيّدة غومبو»(*). رثيت لحالهم، احتقرتهم، وأردت بصمت أن يعودوا إلى بلدهم على متن أول سفينة. ثم بدأت تنهال عليّ التحذيرات مراراً وتكراراً بسبب «موقفي» على حد تعبير المدير، لكنّه تحمّلني لأنه لم يكن هناك بديل لي. وفي النهاية، تركت العمل في نهاية الفصل الثاني.

أفزعني المكان. كنت أصعد إلى الحافلة عند ناصية شارع 17 جانڤييه، وأغفو على اهتزاز الحافلة لنصف ساعة قبل بزوغ الفجر، ثم أفتح عينيَّ في عالم آخر. يحتوي المجمّع على صفّ وراء صفّ من البيوت المعدنية اللامعة وعشرات الحانات التي تقدّم مشروبات كحولية تتلألأ عند طلوع النهار بهالة من القيء الجديد والزجاج المكسور. كانت الحافلة تصدر هسيساً وتتوقّف عند البوّابة مباشرةً، ويجري تبادلٌ عجيب: فننزل نحن المعلّمات وعاملات التنظيف، وتصعد عاهرات مرهقات بشعرٍ أشعث. فتيات كونغوليات بشعر برتقالي باهت يعرفن عبارة سوقية أو عبارتين بالإنكليزية، وتنزلق أشرطة حمّالات الصدر الأميركية الباهظة الثمن إلى أسفل أكتافهن من تحت البلوزات الضيقة. أستطيع أن أتخيّلهن عندما يصلن إلى بيوتهن، يطوين لباسهن الرسمي، ويتدثّرن بالباني قبل أن يتوجّهن إلى السوق.

وفيما نقف كلنا نرمش بعيوننا إحدانا في وجه الأخرى، نحاول اكتشاف الاتجاهات، كانت شاحنات المجمّع تهدر أمامنا متجهة نحو الغابة تحمل أفواجاً من الرجال الذين يبدو (نظراً لوجود العاهرات) أنه لم يغمض لهم جفن.

طوال سنة كاملة كنت أشاهد هؤلاء الأجانب الفظّين الذاهبين لبناء آلاف الأميال من الطرق المؤقّتة لنقل الأسلاك، والآلات، والصفائح المعدنية،

(*) هو حساء شائع في أميركا، يتكوّن بشكل أساسي من البامية. [م].

عابرين بقرى سيعيش سكّانها بلا كهرباء، أو آلات أو صفائح معدنية. مع أنه توجد في إقليم شابا، بالمناسبة، شلّالات هادرة أكثر من كافية لتوليد الكهرباء التي تحتاجها المنطقة. لكن مع الكهرباء القادمة من العاصمة، فإن يد موبوتو يمكن أن تشعل المنجم، ويمكن أن تطفئه عند أول إشارة تمرّد شعبي. حاولت كاتانغا الانفصال ذات يوم. كنت أعمل هناك في ذلك الحين، وفكّرنا أن هذا هو مبرر هذا المشروع الغريب.

بعد أن تركت العمل فهمنا المزيد، فهمنا بما يكفي لألعن المساهمة الصغيرة التي قدّمتها إلى إنغا-شابا الذي لم يكن مشروعاً مضللاً فحسب، وإنما مشروع شرّيرٌ أيضاً، فلم يكن الهدف أن يعمل خطّ الكهرباء إطلاقاً. مع عدم وجود صيانة وخدمة للحفاظ على شبكة تمتدّ في قلب الظلام، رأى المهندسون ذيل الوحش ينهار بمجرّد أن رفعوا رأسه. وفي النهاية نُظّف بالكامل بالطريقة نفسها التي ينظّف بها النمل قاطع الأوراق أشجار الغابة: الصواميل والبراغي، وأيّ مواد يمكن استخدامها في التسقيف، اختفت تدريجياً في الغابة. كان بإمكان أي شخص أن يتوقّع هذا الإخفاق الذريع. لكن بإقراض الكونغو أكثر من بليون دولار لمدّ خطّ الكهرباء، أكّد بنك الاستيراد والتصدير العالمي وجود دين دائم سيُسدد بالكوبالت والماس من الآن وحتى نهاية الزمن، أو على الأقل حتى نهاية عهد موبوتو. إنها لعبة شائعة، أتساءل أيها سيأتي أولاً. وبهذا الدين الخارجي ببلايين الدولارات، أصبح أيّ أمل في الاستقلال مُقيَّداً في سجن الدائن، والآن أصبحت السوق السوداء مزدهرة أكثر بكثير من الاقتصاد الشرعي. رأيت الناس يستخدمون أوراق عملة الزائيري لسدّ الشقوق في جدران بيوتهم، وانتشر التهريب الأجنبي للمعادن على نطاق واسع، إلى درجة أن جارتنا الكونغو الفرنسية التي لا يوجد فيها منجم ألماس واحد، أصبحت خامس أكبر مصدّر للألماس في العالم.

وكل ما لم يغادر البلد فهو في حجرة الملك. وإذا جمعت أختي راشيل رأسها مع رأس السيّد وليام شيكسبير لاختراع طاغية مفرط في طغيانه، فإنهما لن يستطيعا اختراع دكتاتور يبزّ موبوتو، الذي شرع الآن في بناء قصر في قريته في غبادوليت على غرار القتسر الذي بناه صديقه شاه إيران. ويقال إنّ طواويس مسمّنة تتهادى في الحديقة المسوّرة بجدران عالية، تنقر الحبوب من صحون فضّية نُقشت عليها أشكال موريّة(*)، وينبعث من مولّد الكهرباء الذي يعمل بالبنزين ويضيء القصرَ كلّه، ضجيجٌ فظيع، ليل نهار، حتى إن جميع القرود فرّت من المناطق المجاورة. إذ يجب أن يعمل مكيّف الهواء طوال الوقت حتى لا تتسبب حرارة الغابة في إتلاف ورق الذهب الذي يكسو الثريّات في قصره.

لا أستطيع إلّا أن أتخيّل فقط. تجلس القرويات في قرية غبادوليت القرفصاء خارج جدران القصر في باحات بيوتهن، منهمكات في غلي المانيوك في أوعية التقطنها واحتفظن بها، بعد أن كانت أغطية عجلات عربات قديمة، وإذا سألتهن عن معنى الاستقلال، فإنهن يتجهّمن ويلوّحن بالعصي في وجهك ويقلن إنك شخص مزعج، فقد تغيّرت أسماء البلدات وأصبح لها أسماء جديدة، وكأنّ ذلك ليس كافياً، فإنه من المفروض أن يدعو كلٌّ منّا الآخر الآن: «مواطن».

في وسط مدينة كنشاسا، حيث توجد في حانات كثيرة شاشات تلفزيون، يطلّ موبوتو معتمراً قبّعة جلد النمر مساء كلّ يوم عند الساعة السابعة، بهدف توحيد أمتنا. «كم عدد الآباء؟» يسأل مراراً وتكراراً الموكب الفخم في العرض المسجّل، فيردّ عليه جمهوره في العرض المسجّل: «واحد».

(*) نسبة إلى الموريّين، وهو اسم أجنبي استخدمه المسيحيون الأوروبيون لأول مرة للإشارة إلى السكّان المسلمين في المغرب العربي وشبه الجزيرة الإيبيرية ومالطا خلال العصور الوسطى. [م].

«كم عدد القبائل؟ كم عدد الأحزاب؟» -يواصل- «كم عدد الأسياد؟». وفي كلّ مرة يصيح الحشد من أنصاره: «موو كو! واحد».

تومض الصورة ويشرب المواطنون البيرة أو يواصلون أعمالهم. يتحدّث موبوتو بلغة قبيلته. معظم الناس هناك لا يستطيعون حتى فهمها.

راشيل أكسلروت دوبري فيرلي

الإكواتوريال، كانون الثاني 1978

اسمعي، لا تؤمني بالحكايات الخيالية! فبعد حفل الزفاف السعيد، لن يخبروك أبداً ببقيّة القصّة. وحتى لو تزوّجتِ الأمير نفسه، فإنك ستستيقظين في الصباح وفي فمك طعمٌ يشبه طعم منظّف أنابيب الصرف الصحي، وشعرك مشعّث.

كانت تلك هي أنا، الفتاة المسكينة الشابة التي أصبحت فجأة زوجة دبلوماسي، بعد أن غادرت غابة الشرّ الرئيسة(*)، وأصبحت ترتدي ثوباً ماركة ديور، وترتدي قفّازات سوداء طويلة، وتحضر حفلات تقيمها السفارة في برازافيل، في الكونغو الفرنسية. هذا هو الجزء المتعلّق بالحكايات الخيالية، وبالتأكيد، فهو ممتع إذا استمر. شعرتُ كأنني سندريلا حقيقية. كان شعري جميلاً رغم الرطوبة، وكان عندي مصفّف شعر خاصّ بي، وكان فرنسيّاً (أو هكذا يقول لكنني أشتبه في أنه بلجيكي) ويأتي إلى بيتنا مرّتين في الأسبوع: الثلاثاء والسبت. لا يمكن أن تكون الحياة أفضل من هذه. لن يصدّق أحد أنني كنت أعيش منذ بضع سنوات مع أسرتي على الجانب الآخر من النهر - أنا راشيل نفسها التي كانت تخوض في الأوحال والأتربة، وكانت مستعدة

(*) هنا تستخدم خطأً prime evil forest، بدلاً من primeval forest: الغابات البدائية، وهي الغابات التي عاشت عمراً كبيراً دون حدوث تغيير كبير فيها. [م].

أن تبيع روحها مقابل سترة جافة من الموهير وعبوة مثبّت الشعر «فاينال نت». يا إلهي! تلقّيت بعض التثقيف السياسي لأنني زوجة دبلوماسي في السفارة. ولا يفصل الكونغو الفرنسية وجمهورية الكونغو المستقلة حديثاً سوى نهر واحد، ونحو مليون ميل من طريقة التفكير الحديث المعاصر. فهم يريدون الاحتفاظ بكلّ شيء بأيديهم، لكن ليس لديهم المزاج لفعل شيء. وحتى الآن ما زالوا لا يملكون خدمة هاتف لائقة. وخلال الفترة التي أمضيتها في السلك الديبلوماسي في برازاڤيل، الكونغو الفرنسية، كان أسوأ شيء اضطررت لفعله هو أن أطلب من الخدم أن يقصّوا عشبة الكركديه في الحديقة، وأن يزيلوا العفن الذي يكسو الكريستال.

حسناً. لقد أصبح كلّ هذا من الماضي الآن. سواء أكان يعمل في السلك الديبلوماسي أم في غيره، فإنه ليس من الجيّد أن يهجر الرجل زوجته من أجل عشيقة، كما تبيّن لي، للأسف. حسناً، من يعش كثيراً يتعلّم كثيراً. كما يقولون دائماً، المرآة الخلفية تمكّنك من الرؤية بوضوح أكبر.

أما ريمي، زوجي الثالث، فكان رجلاً مخلصاً جداً، ومتقدّماً في السن. وإذا ما كانت حياتي مليئة بالكوارث، فنصفها على الأقل بسبب الزواج، لكني في النهاية حظيت أخيراً بحبٍّ جيّد مع ريمي فيرلي. فقد كان، على الأقل، ذا أخلاق، إذ ترك لي الإكواتوريال بعد أن مات.

بعد أن رقدت روح ريمي في سلام، أصبحت لديّ الحرية في أن أعبّر عن مواهبي. دعوني أخبركم أنني بنيت هذا المكان من المبنى القديم الذي كان. فقد أصبح الإكواتوريال الآن أفضل فندق لرجال الأعمال على طول الطريق الشمالي الممتدّ من برازاڤيل إلى أواندو. ومع أنه يبعد قرابة مئة ميل إلى شمال المدينة، وهي أكثر بكثير إذا حسبناها بالكيلومترات، فإن السياحة جيّدة هنا. يأتي دائماً فرنسيون وألمان وجميع رجال الأعمال المتجهين شمالاً ليشرفوا على مشروع أو آخر، أو الذين يهربون من المدينة ليتذوّقوا

شيئاً من الحياة الحقيقية في إفريقيا، قبل أن ينهوا عملهم في برازافيل ويعودوا إلى بلادهم وزوجاتهم. وعادة ما يكون هؤلاء تجّار نفط أو مقاولين(*).

بما أن هذا المبنى كان مزرعةً في الماضي، لذا فإنه محاط ببساتين جميلة ملأى بأشجار البرتقال وجوز الهند. وقد حوّلتُ القصر نفسه إلى اثنتَي عشرة غرفة مريحة من أحجام مختلفة، كلّها فاخرة جدّاً، وفي كلّ طابق يوجد حمّامان مجهّزان بالكامل، ويقع المطعم في الطابق الأرضي في رواق واسع له أعمدة ومظلّل بنبات الجهنمية، تهبّ عليه نسائم عليلة على الدوام. وبنيت مؤخراً فناءً صغيراً ثانياً مغطّى يوجد فيه مشرب. فبينما يستمتع ضيوفي بتناول طعامهم، يوجد لسائقيهم مكانٌ لطيف يمكنهم أن يمضوا فيه وقتهم. والمطعم مخصّص للنزلاء القادرين على الدفع فقط، أي لا داعي للقول، إنهم يجب أن يكونوا من البيض، لأن الإفريقيين الذين يعيشون في هذه المنطقة لا يكسبون نقوداً في الشهر تكفيهم لدفع ثمن وجبة طعام فاخرة ذات سعر ثابت. وبالطبع فأنا لست من ذلك النوع من الأشخاص الذين يتركون أحداً يجلس تحت المطر، فبنيت لهم هذا المأوى حتى لا يدخلوا إلى المشرب الرئيسي ويتسكّعوا هناك مكتوفي الأيدي. ومعروفٌ عني أيضاً أنني أحبّ الحيوانات، فأقمت حديقة حيوانات صغيرة في المساحة التي تفصل بين الحديقة والمطعم كي يتسلّى الجميع. ففي أي لحظة أثناء النهار يمكنك أن تسمع صوت الببغاوات تتحدّث في أقفاصها، وقد علّمتها أن تقول: «هيّا اشرب الآن» و«حان وقت الإغلاق»، بالإنكليزية والفرنسية والأفريكانية، لكن يجب أن أعترف بأن هذه الببغاوات التقطت بعض العبارات غير اللائقة من النزلاء على مرّ السنين. فعلى الرغم من أن نزلاء الإكواتوريال ينتمون دائماً إلى الطبقة الراقية، لكنهم يظلّون رجالاً!

أما أكثر إنجازاتي فخراً، فهي المسبح والفناء والحدائق، وقد صمّمتها

(*) هنا تستخدم خطأً interprener، بدلاً من entrepreneur. [م].

بنفسي بالكامل. وقد أخذ مني بناء حوض السباحة جهداً كبيراً، فقد أحضرت جيشاً كاملاً من الصِّبية من القرى المجاورة ليحفروه، ودفعت لهم نقوداً لقاء كلّ سلة تراب نقلوها. وبطبيعة الحال، كنت أراقبهم بعينَيْ صقر لكيلا يملؤوا قعر السلة بأوراق الشجر. إنه عمل شاقّ أن تدير مكاناً كهذا، أليس كذلك؟ فإذا لم أضع كلّ شيء وراء قفلٍ ومفتاح فإن الخادمة ستسرقه، وكنت أعاقب، بحزم، كلّ من يرتكب خطأً. لن تستطيع معظم النساء الاستمرار في منصبي أكثر من أسبوع. سرّي هو أنني أحبّ عمليَ! أنا حقاً أحبّه. وكنت رغم كلّ شيء أتجوّل في المطعم بالمايوه البكيني، رافعةً شعري الأشقر البلاتيني إلى الأعلى، وسلسلة مفاتيحي الكبيرة تُصدر جلجلة عندما أمشي، أشجّع ضيوفي بمرح على شرب كؤوس المارتيني لينسوا همومهم ومشاغلهم اليومية. وأقول لنفسي دائماً: أخيراً، يا راشيل، هذا هو عالمك الصغير. تستطيعين أن تديريه كما تشائين. لماذا أحتاج إلى زوج وحولي عددٌ من الرجال المحترمين الوسيمين أكثر مما يمكن تصوّره؟ وإذا لم يعجبني سلوك أحد هؤلاء النزلاء، فإني أطلب منه أن يغادر على الفور، وإذا أردت أن أتناول دجاجاً بالكاري على العشاء، فإني أقول للطهاة: دجاج بالكاري، فأراه جاهزاً، وإذا أردت أن أرى مزيداً من الأزهار، فإني أحرّك طرف إصبعي فقط وأراها تملأ المكان. هكذا فقط. يا إلهي، إنني أبذل جهداً كبيراً كي يظلّ الفندق مفتوحاً طوال أيام الأسبوع، إضافةً إلى عطل نهاية الأسبوع. قد تكون الأسعار التي أطلبها أعلى من المتوسط، لكن أحداً من نزلائي لم يتذمّر. فلماذا سيذهبون إلى فندق آخر ويُخدعون هناك، بينما يستطيعون المجيء إلى هنا؟!

قد أُصبح امرأة ثريةً جداً وأتقدّم في السن في الإكواتوريال قبل أن يأتي أحد من أسرتي لزيارتي هنا. هذه حقيقة! فلم يزُرني أحدٌ منهم حتى الآن، حتى ليا التي تعيش في كنشاسا التي على مرمى حجر من هنا. وعندما أقيمت

المباراة بين الملاكمين محمد علي وجورج فورمان هناك جاء إلينا أطنانٌ من السيّاح الذين قدموا إلى إفريقيا لمشاهدة المباراة، ثم عبروا النهر وتجوّلوا في أرجاء الكونغو الفرنسية، لأن الطرق وكلّ شيء هنا أجمل. ما إن أعلنوا عن المباراة حتى عرفت أن أعداداً كبيرة من الناس ستأتي. كان لدي دائماً حاسة سادسة، لأتوقّع الآتي، وكانت توقّعاتي صحيحة. أنهيت بناء الحمّام في الطابق الثاني بعد أن واجهت مشكلات كثيرة في بنائه، وجدّدت ديكور المشرب ووضعت فيه أشياء تتعلّق بالملاكمة. وبذلت جهداً كبيراً لأحصل على ملصق حقيقي عن المباراة، لكنك تضطر أحياناً لأن تكتفي بما يتوفّر لديك. فطلبت من أحد الفتيان أن يصمّم قفّازات ملاكمة صغيرة من أوراق نبات لسان الحمل المجفّفة والمخيطة معاً -بدت كأنها حقيقية- وجعلتها تتدلّى من جميع الأضواء والمراوح. لا أحب التباهي، ولكن إن كان عليّ القول فسأقول إنها جميلة جداً.

كنت أقول لنفسي دائماً إن الجميع هنا يعيشون في هذا المزاج البهيج، وإن ليا ليست بعيدة عني كثيراً، على بعد أميال فقط. ولا تكفّ أمي وإدا عن القول إنهما قد تأتيان لزيارتي، وإذا كان باستطاعتهما عبور المحيط كله، فأعتقد أن ليا عليها التنازل واستقلال حافلة والمجيء لزيارتي. إضافةً إلى ذلك، فمن المفترض أن أبي لا يزال يطوف في الغابة هناك، وبصراحة، ما الذي يمكن أن يفعله غير ذلك؟ بإمكانه أن يغتسل ويأتي لزيارة ابنته الكبرى. لقد حلمت بلمّ شمل حقيقي لعائلتنا. تخيّلوا فقط تعابير وجوههم عندما يرون هذا المكان. مع ذلك، لا بدّ لي من إضافة جملة أخرى، وهي أنّ أحداً منهم لم يأتِ لزيارتي قطّ.

أظن أنه عليّ التوقّف عن التفكير بذلك، لكن ذلك لا يزال يدور في أعماق عقلي. أتخيّل نفسي آخذ ليا وإدا في جولة في الفندق، أمسح بيدي ألواح الماهوغني الأنيق الذي يغطي سطح المشرب، أو أفتح لهما بفخامة

باب الحمّام في الطابق العلوي الذي توجد فيه مرايا مؤطّرة بطبقة من الذهب الزائف (باستطاعتي تحمّل تكلفة ذهب حقيقي لكنّه سيتقشّر فوراً في هذا الجوّ الرطب)، والذي يعطي انطباعاً عاماً بأنه مثل حمّام قارّيّ فيه كرسي مرحاض وشطّافة. كم ستُدهشان عندما تريان ما أنجزته، بدءاً من لا شيء عملياً. لا يهمّني ما إن كانتا موهوبتين وتعرفان كلّ كلمة في القاموس، لكن عليهما أن تعترفا بالعمل الشاقّ الذي أقوم به.

«يا إلهي، يا راشيل!» -ستقول ليا- «إنك تديرين هذا المكان بكلّ هذا النشاط والحيوية! لم أكن أعرف أن لديك موهبة نموذجية في مجال الضيافة». وبالطبع فإن إدا ستقول شيئاً أكثر طرافة، مثل: «يا إلهي، راشيل، لقد أصبح اهتمامك بالنظافة الشخصية مهنة حقيقية!».

لو سألتموني لأجبت إن هذا هو بالضبط سبب عدم زيارتهما لي – لأنهما تخشيان أن تبدأا باحترامي أخيراً. فأنا متأكّدة من أنهما تفضّلان الاستمرار في الاعتقاد بأنهما عقل الأسرة وأنا الشقراء الغبية. كانتا دائماً متغطرستين، ومعتمدتين على نفسيهما، وهذا أمر جيّد، لكن إذا سألتني يجب عليّ القول إنهما أفسدتا حياتيهما بنفسيهما. أصبحت إدا معروفة في الجامعة بذكائها وذهبت إلى كليّة الطب (أرسلت لي أمي قصاصات من صحيفة تقول إن إدا تفوز بجائزة كلّما تغوّطت)، وأظن أنها ستكون طبيبة ناجحة. لكن ما فهمته مما كتبته لي أمي الآن هو أنها تعمل ليل نهار، وهي ترتدي معطفاً أبيض في مكان كئيب في أتلانتا يدرسون فيه الكائنات الحيّة التي تُسبب الأمراض. حسناً، أظن أنه يجب على أحدٍ ما أن يفعل هذا النوع من الأشياء.

أما ليا، فلن أفهمها أبداً. فبعد كل هذا الوقت أستطيع بالتأكيد العمل مع الإفريقيين، كما يستطيع أي شخص آخر، وذلك ما داموا غير معرّضين للإغراء. لكن أن تتزوّجي واحداً منهم؟ وتنجبي أطفالاً؟ فهذا أمر غير طبيعي. لا يمكنني أن أفهم كيف يمكن أن يكون هؤلاء الصبية أقرباء لي.

بالطبع لن أقول ذلك في وجهها. أقسم إنني لم أقل كلمة واحدة عن ذلك طوال هذه السنوات. ليس هذا بالأمر الصعب، لأن إحدانا لا تكتب للأخرى كثيراً. لكنها ترسل لي بطاقات أعياد الميلاد وتصلني إلى هنا متأخرة عموماً: في الوقت المناسب لعيد الفصح. لا بدّ أن سعاة البريد في زائير كسالى أو يمضون نصف وقتهم في السُّكْر، وعندما أتلقّى منها رسالة، تكون دائماً بمنزلة خيبة أمل كبيرة. فهي تقول فقط: أوه، كيف حالك؟ لقد أنجبت طفلاً آخر اسمه هكذا أو هكذا. ألا تستطيع على الأقل أن تسمّيهم أسماء إنكليزية واضحة! وفي جميع الأحوال، فإنها لا تسألني إطلاقاً عن الفندق.

أظن أن لدينا كلّنا آمالاً كبيرة في الحفاظ على روابطنا الأسرية، لكن أسرتنا الحقيقية تفكّكت بعد وفاة روث ماي المأساوية. يمكنك أن تمضي حياتك كلها وأنت تشعر بالسوء على هذا، وفهمت أن أمّي، خصوصاً، لا تزال تقضي أيامها كئيبة. وقررت ليا أن تدفع ثمن موتها لتصبح عروس إفريقيا. وأصبح باستطاعة إدا الآن أن تتزوّج، فقد وجدت صديقاً محترماً، بعد أن شُفيت من مشكلتها، لكن لا، فقد فضّلت أن ترمي شبابها في أنبوبة اختبار للكائنات المسببة للمرض.

حسناً، هذا قرارهما. إن ما حدث لنا في الكونغو كان ببساطة حظّاً تعساً لعالمَين متضادّين اصطدم أحدهما بالآخر، مما تسبب في مأساة. بعد شيء من هذا القبيل، لا يمكنك أن تمضي في حياتك إلا كما يمليه عليك قلبك. وفي أسرتي، يبدو أن في داخل كلّ قلبٍ من قلوبنا توجد أشياء مختلفة.

أسأل نفسي، هل لي علاقة بكلّ ما حدث؟ الجواب لا. لقد اتخذت قراري منذ وقت طويل أن أضع كل شيء وراء ظهري. أصفّف شعري بشكل جميل وأتظاهر بأنني أعيش في مكان آخر. ألم أكن أنا التي كانت تصرخ ليل نهار إنّنا في خطر؟ صحيح أنني كنت أكبر واحدة فيهن في السن عندما حدث ذلك، وأنا على يقين من أن البعض سيقولون إنني يجب أن أكون المسؤولة.

لكن مرّت لحظة واحدة فقط ربما كان بإمكاني أن أنتهزها، غير أن كلّ شيء حدث بسرعة كبيرة. هي لم تعرف ما الذي أصابها. إضافةً إلى ذلك فلا يمكنك أن تكون مسؤولاً عن أسرة لا يمنحك أفرادها الوقت. لذلك، فأنا أرفض تحمّل أدنى مسؤولية. أنا فعلاً أرفض.

في الأمسيات هنا في الإكواتوريال، أُنهي يومي عادةً بأن أُغلق باب المشرب وأجلس وحدي في العتمة وأحتسي كأس ما قبل النوم وأدخّن آخر سيجارة، وأنصت إلى الأصوات الخادرة في مشرب أصبح خالياً من الصخب والمرح. ثمة أشياء صغيرة زاحفة تتسلل عبر السقف المكسوّ بالقش، سعدان سنجابي أو أي شيء آخر لا يمكن أن تلاحظه إلّا في الليل. تزحف وتسترق النظر إلى الأسفل بعيونها الخرزية حتى أكاد أفقد صوابي وأصرخ: «اذهبوا إلى الجحيم». أخلع أحياناً خفّي وألقيه عليها قبل أن تهبط إليّ. من الأفضل إبقاء هذا المكان مليئاً برجال الأعمال والحفاظ على تدفّق المشروب، هذا ما أقوله لنفسي دائماً. صدقاً، ليس من المنطقي قضاء الكثير من الوقت بمفردك في الظلام.

ليا برايس نغيمبا

كنشاسا، الموسم الماطر 1981

أناتول في السجن. ربّما للمرة الأخيرة. أنهض من السرير وأنتعل حذائي وأجبر نفسي على رعاية الأطفال. خارج النافذة، المطر يهطل بغزارة مبللاً العنزات السوداء والدرّاجات الهوائية والأطفال، وأنا أقف هنا لتقييم نهاية العالم. أتمنّى من كلّ قلبي لو أننا لم نعد من أتلانتا. لكن كان يجب أن نعود لأن شخصاً مثل أناتول لديه الكثير ليقدّمه لبلده. بالطبع، ليس للنظام الحالي الذي هدفه الوحيد البقاء في السلطة. يعتمد موبوتو على رجال سريعين في

إطلاق النار، لكنهم بطيئون في طرح أسئلة. والعمل المشرّف الوحيد حالياً هو العمل على إسقاطه. هذا ما يقوله أناتول الذي يفضّل أن يكون هنا، حتى لو في السجن، على أن يتجاهل الفظائع. أعرف مدى قوة إحساس زوجي بالشرف كما أعرف جدران هذا البيت. لذا أنهض من السرير وأنتعل حذائي وألعن نفسي لأنني شعرت بالرغبة في أن أغادر. فقدت الآن كلّ شيء: صحبة مُثُله العليا، وخطة الهرب السرية التي وضعتها كحلّ بديل إذا فشلت خطتي تماماً. لطالما اعتقدت أنني أستطيع العودة إلى بلدي، لكن ليس الآن. لقد أخرجت هذا الخيار من الحفرة، تمعّنت فيه، ووجدت أنه غير مفيد لي، فقد انخفضت قيمته مع مرور الزمن، تماماً مثلما انخفضت قيمة ورقة عملة كونغولية قديمة وردية اللون.

كيف حدث هذا؟ لقد سافرت ثلاث مرات حتى الآن، وفي كلّ مرة كان شعوري بالغربة يزداد. هل انجرفت أميركا من تحت قدميَّ، أم أنها لا تزال ثابتة وأنا أسير بخطوات واسعة باتجاه أي شيء ألاحقه، متّبعةً عمود دخان عبر خروجي؟ في رحلتنا الأولى، بدت لنا أميركا مكاناً محتملاً. كان كل شيء يبدو محتملاً. كنت حاملاً بباتريس آنذاك - عام 1968. كان باسكال في الثالثة من عمره تقريباً، يلتقط الإنكليزية مثل ببغاء صغير ذكي. ودرست الهندسة الزراعية في جامعة إموري، ودرس أناتول العلوم السياسية والجغرافيا. كان طالباً مذهلاً، يستوعب كلّ ما يوجد في الكتب، ثمّ يبحث عن أشياء لا يعرفها أساتذته. كانت المكتبة العامة في نظره هي الجنّة. «بينيه» -همس لي ذات يوم- «إن كلّ شيء يخطر ببالي، هناك بالفعل كتابٌ قد كُتب عنه».

«انتبه!» -قلت أستثيره- «ربما تجد كتاباً هنا عنك».

«أخشى هذا، لأنني سأجد فيه تاريخاً كاملاً لجرائم طفولتي».

كان يشعر بالذنب حيال النوم في الليل، إذ سيضيّع هذا الوقت دون قراءة

المزيد من الكتب. وكان لديه بعض التحفّظ بشأن التحدّث بالإنكليزية، إذ يرفض مثلاً أن يلفظ كلمة sheet (ورقة) مطلقاً لأنه لا يمكن تمييزها في أذنه عن shit (خراء). قرأ على نحوٍ نهم لم أره قطّ في حياتي. أما أنا فكان عليّ أن أمضي وقتي مع أسرتي. كانت إدا تدرس في كليّة الطب آنذاك، وكانت مشغولة جداً، فأمضينا معظم الوقت مع أمي التي عاملتنا على نحوٍ جيّد. وكان باسكال يحبو فوق الأثاث في بيتها، ثم يغفو في حضنها مثل قطّة.

عدت مرّة أخرى لأمضي فترة نقاهة بعد أن ولدت مارتن، لأنني أصبت بفقر دم حادّ، ومن أجل إعطاء اللقاحات لأبنائي. كانت أمي قد دبّرت لي النقود اللازمة لنأتي إليها. فذهبت أنا وأبنائي فقط هذه المرة، ومكثنا فترة أطول مما كنا نخطط له، من أجل الاستمتاع الرائع بالطعام الكافي، وكذلك لأتيح لأمي فرصة أكبر لتتعرّف على أحفادها الوحيدين. أخذتنا إلى المحيط، إلى مكان تجتاحه الريح من الجزر الرملية قبالة ساحل جورجيا. كان الصبيان في غاية الجموح بسبب اكتشافاتهم والمساحات الطويلة المفتوحة للركض. لكن ذلك جعلني أشعر بالحنين إلى الوطن. فقد شممت على الشاطئ رائحة تشبه الرائحة في سوق السمك في بيكوكي. وقفت على الشاطئ ورحت أحدّق عبر مساحة الفراغ المستحيلة باتجاه أناتول وكلّ شيء تركته ورائي في إفريقيا.

إنه لأمرٌ مضحك أن أتذمّر من هذا، لكن لا توجد روائح في أميركا. لا بدّ أنني لاحظت ذلك من قبل، لكنني في المرة الأخيرة شعرت به وكأنه خلل. ظللت أفرك عيني لأسابيع بعد وصولنا، وظننت أنني سأفقد بصري أو ربّما سمعي، لكن حاسة الشم هي التي اختفت، حتى في محل البقالة الذي يوجد في قسمٍ واحد منه أنواعٌ كثيرة من الطعام تفوق ما يمكن أن يعرفه أي شخص كونغوليّ طوال حياته، لم تكن تعبق في الجوّ رائحة سوى رائحة فراغ مُطهَّر مبهم. قلت ذلك لأناتول الذي أُحيط علماً بذلك منذ مدة طويلة، بالطبع. ثم

قلت له: «الهواء فارغ في أميركا. لا يمكنك أن تشمّ رائحة ما حولك إذا لم تلصق أنفك بالشيء».

فقال: «ربّما لهذا السبب لا يعرفون شيئاً عن موبوتو».

حصل أناتول على راتب لقاء إعطاء طالب دروساً خصوصية، مبلغ يعتبره الطلاب المتخرّجون الآخرون هنا «مبلغاً زهيداً»، مع أنه يفوق ما نكسبه معاً في السنة هناك. وأقمنا في مسكن للطلّاب المتزوّجين، مجمّع بيوت من الخشب المعاكس محاط بأشجار الصنوبر. وكان موضوع الحديث الوحيد الذي يدور بين جيراننا الشباب هو أن هذه البيوت المتداعية القديمة ليست ملائمة. لكنها كانت تبدو لي ولأناتول -على نحوٍ سخيف- بيوتاً فاخرة: نوافذ زجاجية، يوجد لكل نافذة قفل، وثمة قفلان على كل باب مع أننا لا نملك شيئاً واحداً يمكن سرقته. مياه جارية، ساخنة، تأتيك مباشرة من صنبور في المطبخ، وهناك صنبور آخر على بعد عشر خطوات فقط في الحمّام!

كانت تنتاب أولادي نوبة حنين إلى الوطن تارةً، ونوبات جنون تارة أخرى. وبدؤوا يحبّون بعض الأشياء الأميركية مما أثار قلقي، كما أنهم تجاهلوا أشياء أخرى أثارت قلقي أكثر. مثلاً الطريقة التي تحدّث بها إليهم الأشخاص البيض ذوو النيّة الحسنة، فقد خاطبوا أبنائي الذين يجيدون ثلاث لغات (يتكلّمون الفرنسية واللينغالا والإنكليزية بطلاقة، لكن بلكنة طفيفة في كلٍّ منها) بصوتٍ عالٍ وبطريقة مبسّطة، محادثات طفولية. وقد فعل طلاب أناتول بشكلٍ أساسي الشيء نفسه، إذ أظهروا دافعاً ثابتاً لتثقيفه عن الديمقراطية وحقوق الإنسان - طلّاب سنة ثانية متغطرسون، ليس لديهم أي فكرة عن ماذا يفعل بلدهم لبلده. كان أناتول يحكي لي هذه القصص في الليل باستسلام، لكنّي كنت أشتم بغضب وأرمي الوسادات وأبكي، بينما يضمّني إليه في راحة سريرنا الزوجي الواسع.

كان مواطنو بلدي يعتبرون زوجي وأطفالي أشخاصاً بدائيين، أو غريبي

المظهر. وعندما كنا نسير في الشارع، كانوا يقطّبون وجوههم فينا من بعيد، معتقدين أننا مجرّد آفة كانوا يعرفونها بالفعل ويحتقرونها: زواج مختلط، وأطفال هجينون هم الإعلان عن آثامنا. وعندما كانوا يقتربون منا أكثر، كانوا يحدّقون بأناتول ويفسح الازدراءُ الطريقَ لصدمةٍ قوية. وجهه الذي يشبه وجه محارب، بتلك الخطوط المرسومة بإتقان كان يتحدّث عن أناقته بلغةٍ أجنبية يعرفونها بمقدار معرفتهم بلغة اللينغالا تماماً. كان ذلك الكتاب مغلقاً بالنسبة لهم. حتى صديقات أمي اللواتي بذلن قصارى جهدهن حقاً، لم يسألنني شيئاً عن خلفية أناتول أو عن مواهبه – فقط كنّ يسألن ما إن يغادر الغرفة بهمسات خافتة: «ما الذي جرى لوجهه؟».

كان أناتول يتظاهر بأنه لا يبالي بتلك النظرات المحدّقة به، لأنه أمضى شطراً طويلاً من حياته كغريب. لكنّي لم أحتمل ذلك. فأناتول رجل وسيم وله مكانة جيّدة في بلده حيث يقدّرون الذكاء والشرف.

أمضيت طفولتي وأنا أعتقد بأنني حطّمت حياة أختي التوءم، وسحبتها ورائي مترنّحة إلى الضوء، ولا أستطيع الآن أن أسحب زوجي وأبنائي إلى حياة يتفتّح فيها جمالهم ثم يذوي في الظلام.

لذلك عدنا إلى بلدنا. عدنا إلى كارثة. فقد صادروا جواز سفر أناتول في المطار. كان باسكال وباتريس يضرب واحدهما الآخر بسبب الملل والإرهاق، فيما كان مارتن يتشبّث بي ويبكي بسبب ألم في أذنيه، واحتجزوا زوجي دون أن ألاحظ. كان مطلوباً في زائير. لم أفهم ذلك آنذاك. قال لي أناتول إنها إجراءات شكلية، وإنه يجب أن يعطيهم عنواننا في كنشاسا ليرسلوا له جواز السفر في اليوم التالي. ضحكت وقلت (أمام المسؤولين) إنه استناداً إلى كفاءة حكومتنا فلن يصل جواز سفره حتى السنة القادمة. ثمّ ركبنا سيارة أجرة طراز بيجو صغيرة بالية، وأحسست أخيراً بأنني عدت إلى بلدي. وذهبنا إلى بيت إليزابيت، ونمت نوماً متقطّعاً بسبب اضطراب

الرحلات الجوية الطويلة. كانت تدور في رأسي ألف فكرة: إرسال الأولاد إلى المدرسة، العثور على مكان نقيم فيه، صرف الدولارات التي أعطتني إياها أمي من بنك في كنشاسا لا يعطينا زائيريات قديمة أو عملة جديدة مزيّفة، ثم الحصول على طعام لكيلا نأكل طعام إليزابيت الفقيرة. لم أفكّر بزوجي، حتى إننا لم نعد ننام معاً لأن إليزابيت استعارت الأسرّة الصغيرة القليلة التي تمكّنت من إيجادها لنا.

كان من الممكن أن تكون تلك فرصتنا الأخيرة! فقد جاء أصحاب الخوذات الزرقاء عند الفجر وطرقوا الباب بعنف. كنت لا أزال نصف نائمة. وكانت إليزابيت لا تزال تلفّ الباني عندما توجّهت إلى الباب مترنّحة، فاقتحم البيت أربعة رجال ودفعوها إلى الحائط. كان مارتن الوحيد مستيقظاً، وراح يحدّق في المسدّسات في أحزمتهم بعينيه السوداوين الواسعتين.

تصرّف أناتول بهدوء، لكن عينيه كانتا يائستين عندما نظر إليّ. ذكر لي أسماء أشخاص يجب أن أجدهم على الفور -لمساعدتنا على الاستقرار، كما قال، على الرغم من أني كنت أعرف ما يقصده- وذكر عنواناً بدا لي وكأنه يقوله معكوساً.

«الأولاد» - قلت، ولم أعرف كيف أنهي الجملة.

«الأولاد يحبّونك أكثر من عيونهم. لوح خلاصي».

«إنهم أفارقة وسيبقون كذلك دوماً، كما نعلم».

«بينيه، انتبهي إلى نفسك!».

ورحل، وأنا ليس لدي أي فكرة كيف سأنتبه لنفسي. فالحياة كمشروع عام قاسية إلى درجة لا تصدّق.

على الأقل أعرف مكانه، وهو ما تقول إليزابيت إنه نعمة، لكني لا أوافقها الرأي. أخذوه فوراً إلى ثيسڤيل التي تبعد قرابة مئة كيلومتر جنوب ليوبولدڤيل على أفضل طريق في هذا البلد، فقد أعيد تعبيد الطريق مؤخراً

بمعونة خارجية. من الواضح أنّ السجن مهمّ. اضطررت إلى زيارة ثمانية مكاتب حكومية مختلفة لأحصل على معلومات، مذعنة مثل كلبة مطيعة أنتقل من مكتب إلى آخر حاملةً قصاصة ورقة شفّافة مختلفة كل مرة، إلى أن قابلت سيّدي الذي كان يجلس في كرسيّه راجعاً إلى الخلف ويضع حذاءه على المكتب. بوغت عندما رأى امرأة بيضاء، ولم يعرف ما إن كان عليه أن يعاملني باحترام أم بازدراء، ففعل الاثنتين، الواحدة تلو الأخرى. وقال إن زوجي سيظلّ محتجزاً حتى تُوجّه إليه تهمة رسمية، وقد يستغرق ذلك من ستّة شهور إلى سنة. وقال إن طبيعة التهمة تدور حول الخيانة، أي معاداة نظام موبوتو، ويرجّح أن يُحكم عليه بالسجن المؤبّد، مع وجود احتمالات أخرى.

قلت: «في معسكر هاردي».

فصحّح لي قائلاً: «معسكر إيبيا».

بالتأكيد، فقد أعادوا تسمية معسكر هاردي، من أجل الأصالة.

أعلم أنه يجب عليّ ألّا أكون متشجّعة بشأن ما يُسمّى «احتمالات أخرى». إذ صادف أن لوموبا كان معتقلاً في معسكر هاردي هذا، وضُرب حتى الموت قبل أن يعيدوا جثمانه إلى كاتانغا. أتساءل ما هي الراحة التي سيحصل عليها زوجي عندما يعرف هذا الجزء من التاريخ المشترك بينهما. ونعرف أشخاصاً آخرين، منهم معلّم زميل لأناتول، كانوا محتجزين في معسكر هاردي الذي يُعتبر مركز إعدام طويل الأجل، لا سيما عن طريق التجويع حتى الموت. وذكر لنا صديقنا إنهم كانوا يقدّمون له خلال مدة طويلة موزة واحدة كلّ يومين، وأن معظم الزنازين انفرادية، لا يوجد فيها ضوء أو أنابيب صرف، أو حتى فتحة في الأرضية، ولا يفرغون الدلاء منها مطلقاً.

قال لي السيّد إنني لا أستطيع أن أزوره إلى أن تُوجّه إليه تهم رسمية.

وقال إن كلّ شيء يتوقّف على تلك التهم. حدّقت في الخوذة الزرقاء الفارغة الجاثمة على الطاولة، ثم في رأس القائد العاري، وأملت أن أفجّرها بعنف غضبي. وعندما لم يعد لديه شيء آخر يقوله لي، شكرته بلغتي الفرنسية الأكثر تهذيباً وغادرت. «ارحمني يا الله حسب رحمتك»، فقد اشتهيت في أعماق قلبي أن أهشّم جمجمة هذا الرجل، وأنثر الرائحة النتنة لدماغه في أفنية بيوت كثيرة.

على الأقل لم يُسجن ويُقيّد بالسلاسل تحت أرض الملعب، كما تقول إليزابيت باستمرار، وأظن أنه حتى قلبي المكسور تقبّل ذلك على أنه حظّ جيّد.

لم أعرف مثل هذه الوحدة من قبل. وبطبيعة الحال حزن الأولاد كثيراً. بلغ باسكال وباتريس مبلغ الرجال تقريباً، فهما في الخامسة عشرة والثالثة عشرة من عمريهما، وصار لديهما طرقهما في التأقلم مع هذه الأمور. أما مارتن فكان مشوّشاً ويحتاج إلى راحة، وليس لديه شيء ليقدّمه لي.

وجدنا بيتاً بسرعة كانت قد أخلته مؤخراً أسرة معلّم غادر إلى أنغولا. كان بعيداً عن المركز، في واحدٍ من آخر المجمّعات السكنية الصغيرة على الطريق المؤدي نحو الداخل، لذلك بإمكاننا على الأقل أن نرى أشجاراً مزهرة، ولدينا باحة نستطيع أن نزرع فيها بعض الخضراوات. لكنّنا ابتعدنا كثيراً عن بيت إليزابيت وكريستيان اللتين كانتا تعملان ساعات طويلة في تنظيف مركز شرطة والمخازن الحكومية الملحقة به، وقد فقدتُ سلوان المحادثات اليومية. لم تكن إليزابيت رفيقة الروح، فعلى الرغم من أنها تحبّني لكنها تجد أنني امرأة مثيرة للحيرة وغير أنثوية، وربما مثيرة للمشاكل، ومن المحتمل أن تُطرد من عملها بسبب ارتباطها العائلي مع الخيانة!

لم ألاحظ من قبل مدى اعتمادي الكلي على أناتول من أجل تبرير وجودي هنا. فلسنوات عديدة كانت لدي رفاهية نسيان أني امرأة بيضاء

تعيش في أرض يقطنها ذوو البشرة السمراء والسوداء. كنت السيّدة نغيمبا، المرأة التي ترثي لها في السوق عند المساومة على ثمن الفاكهة، أمّ الأطفال الذين كانوا يريدون إيذاء أطفالهم. ملتفّةً بالباني وبرفقة أناتول بدوت أني أنتمي إلى هنا، لكني الآن أصبحت أعيش من دون زوج في هذا المجمّع الجديد، ببشرتي التي تتوهّج مثل لمبة عارية. كان جيراني يُبدون لي الاحترام، لكنهم كانوا متحفّظين. ويوماً بعد يوم، كنت إذا سألت أحداً عن اتجاه طريق أو حاولت أن أدردش معهم عن الطقس، يجيبونني بتوتّر بالإنكليزية أو بالفرنسية. ألم يلاحظوا أنني بدأت الحديث معهم باللينغالا؟ ألم يسمعونني أصيح من وراء السياج لأبنائي كلّ يوم بلهجة أمومية مألوفة لبائعة سمك وُلدت هنا؟ كانت رؤيتهم لبشرتي الأجنبية تجمّد أحاسيسهم. وفي السوق المحلّيّة، كانت فقاعة من المحادثات المتوقّفة ترافقني حيثما أمشي. وكنت أعرف أن جميع سكّان هذا الحيّ يعرفون ما الذي جرى لأناتول وأعرف أنهم متعاطفون معي، وأنهم يكرهون موبوتو مثلنا، ويتمنّون أن يتحلّوا بنصف شجاعة زوجي، لكن كان عليهم كذلك أن يأخذوا في الاعتبار، عندما يفكّرون فيه، زوجته ذات البشرة الشاحبة، لأنهم لا يعرفون إلّا شيئاً واحداً عن الأجانب، وهو ما فعلناه لهم. أظن أنني لن أستطيع أن أرفع من مكانة أناتول في عيونهم، بل على العكس: كنت أنا من يضعفه.

لا يسعني إلا التفكير في نفسي بذلك. أين يمكن أن يكون الآن، لو لم يكن معي؟ لا بدّ أنه كان يرقص مع الكارثة نفسها بالتأكيد، لأنه كان رجلاً ثورياً حتى قبل أن ألتقيه، لكن ربّما ما كانوا سيقبضون عليه. فما كان ليغادر البلد مرّتين، لو لم يستمع إلى توسّلاتي عن أمٍّ عجوز، وشريحة لحم لذيذة. وعلى الأرجح لن يكون لديه جواز سفر حتى. هكذا تمكّنوا من القبض عليه.

لكن أين سيكون أطفاله؟ هذا ما نعود إليه نحن الأمهات دائماً. كيف يمكن أن يندم على الزواج الذي جلب باسكال وباتريس ومارتن-لوثر إلى

أرض إفريقيا؟ كان اتحادنا صعباً لكلينا على المدى البعيد، لكن هل يوجد اتحادٌ ليس كذلك؟ إن الزواج سلسلة طويلة، عميقة، وعريضة من التنازلات والتسويات، توجد دائماً أهداف ورغبات تبتلع الأخرى، عجلة تصدر صريراً عالياً، لكن أليس لحياتنا المشتركة معنى أكثر ثراءً من الحياة التي نقضيها كلٌّ على حدة؟

هذه هي الأسئلة التي أطرحها على نفسي لأُلهي نفسي، عندما لا يكون الأولاد في البيت وتفقدني الوحدة صوابي. أحاول أن أملأ الفراغ بالذكريات، أحاول أن أتذكّر وجهه عندما حمل باسكال أول مرة. أتذكّر ممارسة الحبّ في ألف ظلام مختلف، تحت مئة ناموسية مختلفة، أتذكّر أسنانه على لحم كتفي، برقّة، ويده على شفتي ليهدّئني عندما يكون أحد الأولاد نائماً نوماً خفيفاً بجانبنا. أتذكّر عضلات فخذيه ورائحة شعره.

في نهاية المطاف، أخرج وأنظر إلى دجاجاتي السمينة في الباحة لأقرر أيّها سأذبح على العشاء. لكني أقرر أخيراً تركها كلها لأنني لا أريد أن أفقد رفقتها.

أحد السبل للتغلّب على الحزن هو البقاء منشغلاً. أصحّح، على الأقل، شيئاً في زاوية صغيرة في بيت الأخطاء الكثيرة - تعلّمت ذلك من أناتول، أو تعلّمت ذلك بنفسي؛ بفضل التركيبة غير المتجانسة لوالديّ. لكني بدأت أخشى الآن أن أستنفد كل الإمكانيات المتاحة، مع السنوات العديدة المتبقية. اتصلت بالفعل بالأشخاص الذين نصحني أن أبحث عنهم، لأحذّرهم، أو ليقدّموا لي المساعدة. ثم اكتشفت أن العنوان الذي أعطاني إياه بصورة معكوسة هو وكيل إتين تشيسيكيدي، الوزير الوحيد في الحكومة الذي قد يساعدنا، رغم أن منصبه في حكومة موبوتو معرّض للخطر أيضاً الآن، وكتبتُ إلى أصدقاء أمي أيضاً (في مؤسسة «دامنيستري إنترناشيونال»، كما لا تزال راشيل تسمّيها حتى الآن على الأرجح) وتوسّلت

إليهم أن يرسلوا برقيات تطالب بإطلاق سراح أناتول، وسيرسلون كثيراً من البرقيات. وإذا كانت هناك إمكانية لإحراج موبوتو بأي شكل، فهي إمكانية أن يُخفّض حكمه من المؤبّد إلى السجن لمدة خمس سنوات، أو أقل. وفي هذه الأثناء، بدأت أمي تجمع نقوداً لدفعها رشوة حتى يحصل على طعام. فالسجن خمس سنوات والمؤبّد ليسا الشيء نفسه. وكنت أتنقّل بين المكاتب الحكومية لأعرف أين يجب أن أدفع الرشوة عندما تصبح النقود جاهزة. كنت أزعجهم كثيراً بزياراتي وبرسائلي حتى عرفوا كلّهم وجهي ولم يعودوا يريدون رؤيته. ويبدو أنني بذلت كلّ ما بوسعي، وأصبح عليّ أن أبذل الآن ما ليس بوسعي فعله وهو الانتظار.

عندما ينام الأولاد، أكتب على ضوء المصباح رسائل قصيرة إلى أناتول، أخبره بإيجاز عن الأولاد وعن صحتنا، وأكتب رسائل طويلة إلى إدا أخبرها بها كيف أرتحل. ربما لن يرى أيّ منهما رسائلي، لكنّي كنت بحاجة إلى أن أكتب حتى أفرغ ما يجيش في صدري على الورق. أُخبر إدا عن أحزاني. أصبحت امرأة دراماتيكية. لعلّ من الأفضل أنّ تُخنق هذه الكلمات في كومة، غير مرسلة.

ربما أحسد إدا الآن، فهي من دون ارتباطات تمزّق قلبها. هي لا تريد أطفالاً يتسلّقون على ساقيها، ولا زوجاً يقبّل جبينها. فهي تشعر بالأمان من دون كلّ ذلك. وراشيل، بتعقيداتها العاطفية مثل مملحة. الآن هناك حياة. أتذكّر أحياناً صناديق الأمل التي صنعناها وأريد أن أضحك، إذ كم كانت تنبُّئيّة! وضعت راشيل جهداً في العمل الإضافي مما أنذر بسجلٍّ حافل بالزواج، مميّز من ناحية الكمّ لا من ناحية النوع. أما روث ماي فقد كانت معفاةً مدى الحياة. وأما أنا فقد صنعت مفرش مائدتي من دون حماس، ولكن على المدى الطويل استنفد جهودي الأكثر تفانياً، أما إدا فكانت تطرّز حواف سوداء على المناديل ثم ترميها إلى الريح.

وفي النهاية، استسلمنا كلنا، جسداً وروحاً، لإفريقيا، بطريقة أو بأخرى. حتى إدا التي صارت خبيرة بالأوبئة والڤيروسات الجديدة الغريبة المنتشرة في خط الاستواء. دفنت كلّ واحدة منّا قلبها على عمق ستّة أقدام تحت التراب الإفريقي. كلّنا متواطئات هنا. أقصد، جميعنا، لا أسرتي فقط. فماذا تفعلين الآن؟ عليك أن تجدي طريقك لتخرجي قلباً من باطن الأرض وتنفضيه وترفعيه نحو النور مرة أخرى.

«انتبهي لنفسك!»، قال برفق في أذني، وسألته، كيف يمكنني أن أفعل ذلك؟ أتأرجح في كرسيّ إلى الأمام والوراء مثل طفل رضيع، أشتهي الكثير من الأشياء المستحيلة: العدالة، المغفرة، الفداء. أتوق إلى التوقّف عن تحمّل كل جروح هذا المكان على جسدي النحيف. لكنّي أريد أن أبقى وأواصل الشعور بالمعاناة عندما تكون المعاناة مستَحَقّة. أريد أن أنتمي إلى مكانٍ ما، اللعنة عليه. أريد أن أزيل حرب المئة سنة من هذه البشرة البيضاء حتى لا يبقى شيء، عندئذٍ أستطيع أن أخرج إلى جيراني مرتديةً عصباً وعظاماً خاماً، كما يفعلون.

الأهمّ من ذلك كلّه، تتوق بشرتي البيضاء لأن يلمسها ويضمّها الرجل الوحيد على الأرض الذي أعرف أنه غفر لي.

راشيل برايس

الإكواتوريال، 1984

هذه هي المرة الأولى والأخيرة بالتأكيد التي ألتقي فيها مع أخواتي. فقد عدت للتوّ من لقاء مع ليا وإذا كان بكلّ بساطة فشلاً ذريعاً.

كانت ليا من بنات أفكار الرحلة بأكملها(*)، وقالت إن انتظار زوجها

(*) تقصد أن تقول: «كانت الرحلة بأكملها من بنات أفكار ليا». [م].

شهراً آخر حتى يطلق سراحه سيقتلها إذا لم تغادر ذلك المكان وتفعل شيئاً. في المرة الأخيرة، عندما كان من المفترض أن يطلقوا سراحه، مدّدوا سجنه سنة أخرى في آخر دقيقة، وأعرف أن هذا شيء محبط للغاية. لكن إذا كنت قد ارتكبت جريمة فعليك أن تدفع الثمن. ماذا كانت تتوقّع؟ فأنا شخصياً تزوّجت عدة أزواج، ربما لم يكونوا كلهم من علية القوم، لكن أن أتزوّج مجرماً، لا أستطيع تصوّر ذلك. حسناً، كلّ شخص مسؤول عن تصرّفاته كما يقولون. وقد اشتد شعورها بالوحدة الآن لأن ابنيها الأكبر سناً يجرّبان الذهاب إلى مدرسة في أتلانتا كي لا يُعتقلا أيضاً، والابن الأصغر أيضاً هناك مع الأم خلال الصيف. لذلك كان لدى ليا الوقت للتخطيط بحرية لهذه الرحلة. لكن في الحقيقة فإنها رتّبتها لهدف واحد، وهو أن تنقل سيارة اللاند روڤر من أميركا إلى كنشاسا، لأن لديها هي وأناتول مشروع معتوه لإنشاء مزرعة عامة في الشطر الجنوبي، ثم العودة إلى أنغولا عندما تصبح الأوضاع آمنة، ومما سمعته فإن هذا لن يحدث خلال هذا القرن. وإذا سألتموني فإن أنغولا بلد شيوعي متطرّف. لكن هل تكترث أمي بكلّ ذلك؟ إذ تزمع ابنتها أن تنتقل إلى بلد شيوعي جميع الطرق فيه مزروعة بألغام أرضية! فماذا فعلت؟ جمعت مع صديقاتها نقوداً واشترين لها سيارة لاند روڤر جيّدة بمحرّك مُجدَّد في أتلانتا. وبالمناسبة، فإنّ صديقات أمي لم يجمعن لي سنتاً واحداً ليساعدنني في التمديدات الصحية للطابق العلوي في الإكواتوريال مثلاً. لكن، لمن تشتكي؟!

ذهبت فقط لأن أحد أصدقائي مات مؤخراً بعد مرض طويل، وكنت أشعر بعدم الاستقرار. كان جيفري قد عرض عليّ الزواج قبل أن يصاب بذلك المرض. كان رجلاً نبيلاً ووسيماً وثرياً. ينظّم رحلات سفاري سياحية في كينيا، وهكذا التقينا بطريقة رومانسية جداً، لكنّه أصيب بعدوى شديدة في نيروبي. وعلى الرغم من أنه لم يكن شاباً، فإنه ليس من المفترض أن يحدث

ذلك لرجل طيّب. ومع أنني بلغت الأربعين من عمري العام الماضي، وهذا ليس أمراً هيناً، يقول الناس إنني لا أبدو أكثر من الثلاثين بيوم واحد. عموماً، من يهتمّ بالعدّ؟ في جميع الأحوال ظننت أنني أستطيع أن أحكي لليا مشاكلي وتحكي لي مشاكلها، لأن التعاسة تحبّ الرفقة، مع أنه يوجد عندها زوج لا يزال على قيد الحياة، على الأقل، ولا أستطيع أن أقول أكثر من هذا.

كانت الخطة أن تسافر إدا بالسفينة إلى إسبانيا مع اللاند روڤر، ثم تقودها إلى غرب إفريقيا. لا أستطيع أن أتخيّل أن إدا تقود السيارة، يا إلهي! فما زلت أتخيّلها فتاةً مشلولة، على الرغم من أن أمي كتبت لي وقالت إنها لم تعد كذلك، وإن شفاءها كان معجزة. اتفقنا على أن نلتقي جميعاً في السنغال وأن نمضي معاً بضعة أسابيع لنشاهد المعالم السياحية الخلّابة هناك. ثمّ تعود إدا بالطائرة إلى الوطن، ونسافر أنا وليا معاً بالسيارة حتى برازاڤيل من أجل سلامتنا، لكن إذا سألتموني فإني أقول إن سفر امرأتين معاً خطر أكثر مما لو كانت امرأة تسافر بمفردها، خصوصاً أنا وأختي. وطوال الطريق إلى كاميرون ومعظم الطريق في غابون لم نتكلّم. ثم التقينا بأناتول الذي أُطلق سراحه مؤخراً من السجن في برازاڤيل، وعادا مباشرة إلى بيتهما في كنشاسا. يا إلهي، لقد مدّت ذراعيها وضمّته إليها في محطة العبّارة، وقبّلته أمام الجميع لفترة أطول مما يُخيّل إليك، ثمّ ذهبا وقد شبك أحدهما يده بيد الآخر كأنهما مراهقين، مثرثرين في شيء كونغوليّ. أظن أنهما تعمّدا أن يفعلا ذلك كي لا أشاركهما في الحديث، وهذا ليس شيئاً بالأمر السهل بالنسبة لشخص يتحدّث ثلاث لغات مثلي.

الوداع إلى فترة ليست قريبة، هذا ما قلته لهما. كانت ليا مثل بيت يحترق في الأميال المئة الأخيرة من الرحلة. كانت قد أجرت مكالمة دولية من ليبرڤيل لتتأكّد من أنهم سيطلقون سراحه في اليوم التالي، ويا إلهي، ذهبت من أقصر طريق بعد ذلك. حتى إنها لم تكلّف نفسها عناء أن تأتي لزيارة

الإكواتوريال - مع أننا لم نكن نبعد عنه سوى مسافة نصف يوم بالسيارة، ومع أنني عملياً أرملة مفجوعة. لا يمكنني أن أغفر لأختي ذلك. قالت إنها لن تذهب إلّا بعد أن نذهب إلى برازاڤيل أولاً ونحضر أناتول معنا. لم أستطع أن أجيبها بنعم أو لا فوراً، لأنه كان عليّ أن أفكّر بالأمر، فهذا أمر معقّد أكثر مما تتخيّل. فلديّ سياسة صارمة حول من يُسمح له بالصعود إلى الطابق العلوي، وإذا غيّرت هذه السياسة من أجل شخص واحد فلا أعرف إلى أين يمكن أن ينتهي الأمر. ربّما يمكن أن أفعل استثناء. وعندما قلت لها إنني سأفكّر في الأمر، قالت على الفور: «أوه، لا، لا تزعجي نفسك. لديك معاييرك الخاصة حول تفوّق البيض على السود ويجب أن تحافظي عليها، أليس كذلك؟!»، ثم تصرّفت بعجرفة ضاغطةً على دوّاسة البنزين، ولم تكلّم إحدانا الأخرى لفترة من الوقت. صدّقوني، أمضينا وقتاً طويلاً ونحن نستمع إلى صوت ناقل الحركة في السيارة ذات الدفع الرباعي، وكلّ المطبّات على طول المسافة بين البلدين.

عندما انتهت الرحلة أخيراً، كنت سعيدة جداً بالعودة إلى بيتي الجميل واحتساء كأس مزدوج من الفودكا. خلعت حذائي ورفعت صوت المسجلة ورقصت رقصة البوني في وسط المطعم. كان ينزل عندنا تجّار قطن قادمون من باريس، إذا لم تخنّي ذاكرتي. قلت لضيوفي: «أيها الأصدقاء، لا يوجد شيء مثل أسرتك يجعلك تقدّر الغرباء أكثر»، ثمّ قبّلتهم واحداً واحداً على رؤوسهم الصلعاء، وقدّمت لهم جولة من المشروبات على حسابي.

المشكلة مع أسرتي هي أننا لا نلتقي إلّا نادراً، لذلك لدينا الكثير من الوقت لننسى مدى عدم توافق شخصياتنا. فقد بدأنا، أنا وليا وإدا، نتجادل منذ أول دقيقة التقينا فيها في السنغال، حتى إننا لم نتفق على أين سنذهب، ولا أين سنمكث أو ماذا سنأكل. فكلّما وجدنا مكاناً مستواه فوق البغيض بقليل، كانت ليا تقول إنه غالٍ كثيراً. من الواضح أنها اختارت أن تعيش فقيرة

مع أناتول. وتبدأ إدا، المفيدة كعادتها، في سرد قائمة الكائنات الممرضة التي يُحتمل أن تكون موجودة. كنا نتجادل حول أي شيء: حتى عن الشيوعية. وقد يخطر ببالك أنه لا توجد مواضيع يمكننا أن نتحدّث عنها. نصحت ليا نصيحة منطقية جداً بأنها يجب أن تفكّر مرتين قبل أن تذهب إلى أنغولا، لأن الماركسيين يهيمنون عليها.

«تدور حرب أهلية طويلة بين قبائل المبوندو وقبائل الكونغو هناك، يا راشيل. فقد قاد أغوستينو نيتو قبائل المبوندو إلى النصر، لأنه يحظى بشعبية كبيرة».

«حسناً، لمعلوماتكما، يقول الدكتور هنري كسينجر نفسه إن نيتو وأتباعه من أنصار كارل ماركس، والآخرون من أنصار أميركا».

فقالت ليا: «تخيّلي أن قبائل المبوندو والكونغو في حالة حرب على مدار الستمئة سنة الأخيرة، وقد اكتشف الدكتور هنري كسينجر أخيراً سبب خلافهما: لأن الكونغو من أتباع أميركا، والمبوندو من أتباع كارل ماركس».

«هاه!» - قالت إدا. أول مقطع لفظي فعلي لم تتدرّب عليه في هذا اليوم كلّه. رغم أنها صارت تتكلّم الآن، لكنّها ما زالت لا تقول الكلمات على نحوٍ طبيعي تماماً.

كانت إدا تجلس في المقعد الخلفي، وأنا وليا نجلس في المقعد الأمامي. وقدت أنا السيارة معظم الوقت لأنني اعتدت على ذلك. كنت أخفف السرعة قبل إشارات التوقّف لأنه تبيّن أن السائقين في غرب إفريقيا سيّئون مثل السائقين في برازافيل. كان التركيز على قيادة السيارة صعباً بينما تلقي عليّ شقيقتاي درساً في الديمقراطية العالمية.

«يمكنكما أن تضحكا» -قلت- «لكني أقرأ الصحف. إن رونالد ريغان يحمينا من الدكتاتوريين الاشتراكيين، يجب أن تكونا ممتنّتين له».

«دكتاتوريون اشتراكيون مثل من؟».

«لا أعرف. كارل ماركس! ألا يزال يحكم روسيا؟».

ضحكت إدا بشدة في الخلف حتى ظننت أنها ستبول على نفسها.

«أوه، راشيل، راشيل» -قالت ليا- «دعيني أعطيك درساً صغيراً جداً في علم السياسة. الديمقراطية والدكتاتورية هما نظامان سياسيان، يتعلّقان بمن يحكم في السلطة. الاشتراكية والرأسمالية نظامان اقتصاديان، يتعلّقان بمن يمتلك ثروة بلدك، ومن يأكل. هل تستوعبين ذلك؟».

«لم أقل قطّ إنني خبيرة في هذه المسائل. قلت فقط إنني أقرأ الصحف».

«حسناً، لنأخذ باتريس لومومبا على سبيل المثال. رئيس وزراء الكونغو السابق وحزبه المنتخب عن طريق التصويت الشعبي. فقد كان اشتراكياً يؤمن بالديمقراطية، ثمّ قُتل، ونصّبت وكالة الاستخبارات الأميركية محلّه موبوتو، الرأسمالي الذي يؤمن بالدكتاتورية. في برنامج بانش وجودي للتاريخ الأميركي، يُعتبر هذا نهاية سعيدة».

«ليا، لمعلوماتك أنا فخورة بأنني أميركية».

نخرت إدا ثانية، لكن ليا صفعت جبينها وقالت: «كيف يمكنك أن تقولي هذا؟ ولم تطأ قدمك هناك لمدة نصف حياتك».

«ما أزال أحتفظ بجنسيتي وأرفع العلم الأميركي في المشرب وأحتفل بعيد الاستقلال في الرابع من تموز».

«مثير للإعجاب»، قالت إدا.

كنّا نقود السيارة في الطريق الترابي الرئيسي المحاذي للساحل باتجاه توغو. كانت تمتد مساحات طويلة من الشاطئ، تلوح لنا فيها أشجار نخيل وأطفال عراة سود على الرمال البيضاء. كان ذلك أشبه بصورة في بطاقة بريدية. تمنّيت أن نتوقّف عن الحديث في الأشياء السخيفة ونستمتع فحسب بوقتنا معاً. لا أعرف لماذا كان على ليا أن تتذمّر وتتذمّر.

«لمعلوماتك يا ليا» -قلت لها، فقط لأنهي هذا الحديث- «لومومبا الغالي الذي تتحدّثين عنه كان سيسيطر على الحكم وسيصبح مثل أي دكتاتور آخر. وإذا كانت وكالة الاستخبارات الأميركية قد تخلّصت منه، فإنها فعلت ذلك من أجل الديمقراطية. كلّ شخص حيّ يقول ذلك».

«كلّ شخص حيّ» -قالت إدا- «وماذا يقول الأموات؟».

قالت ليا: «اسمعي راشيل. في ظلّ الديمقراطية كان يجب أن يعيش لومومبا أكثر من شهرين في الحكم، وسيرى الشعب الكونغوليّ بعدهما ما إن كان سيحبّه أم لا، وإذا لم يحبّه سيأتي بشخص غيره».

حسناً، انفجرت عند هذه النقطة: «لا يستطيع الناس هنا أن يقرروا أيّ شيء بأنفسهم! أقسم لك إن الخادمة في مطبخي لا تزال لا تعرف كيف تستخدم المقلاة لطهي عجّة البيض! بحق الله يا ليا، لا بدّ أنك تعرفين مثلي كيف هم!».

«نعم، يا راشيل، أظن أنني تزوّجت واحداً منهم».

أنسى ذلك دائماً. فقلت: «سأطبق فمي».

«كالمعتاد»، قالت إدا.

خلال الرحلة بأكملها، أعتقد أننا تحدّثنا جميعاً لمدة ظهيرة واحدة كاملة فحسب. وعندما وصلنا إلى بنين لم تكن إحدانا قد قتلت الأخرى. أرادت إدا أن ترى القرى المشهورة المرفوعة على أعمدة. لكنها لم تكن تعرف أن الطريق المؤدي إليها قد اختفى. حاولنا أنا وليا أن نشرح لها كيف أن الطرق في إفريقيا قد تكون موجودة هنا اليوم، وتختفي غداً. وتستطيع أن ترى دائماً لافتات على الطريق مثل: «إذا كانت هذه اللافتة تحت الماء فالطريق غير سالك»، وما إلى ذلك. هذا الشيء الوحيد الذي استطعنا الاتفاق عليه.

انتهى بنا المطاف أن ذهبنا بدلاً من ذلك إلى القصر القديم في أبومي،

وهو المكان السياحي الوحيد على امتداد مئات الأميال حوله. تتبّعنا خريطتنا إلى أبومي، ومن حسن الحظ كان الطريق إليها لا يزال موجوداً. ركنّا السيارة في وسط البلدة حيث تنتصب أشجار الجاكاراندا الضخمة الطريفة الشكل. كان من السهل إيجاد القصر القديم لأنه محاط بجدران طينية حمراء ضخمة وله مدخل كبير جداً. وجدنا مرشداً سياحياً يتكلّم الإنكليزية غافياً على مقعد عند المدخل. وقد وافق على الاستيقاظ واصطحابنا في جولة داخل القصر. شرح لنا كيف أنه في القرون الماضية، قبل مجيء الفرنسيين، كان لدى ملوك أبومي قصور ضخمة ويرتدون ثياباً جميلة أنيقة، وقال إنهم دوّنوا تاريخهم على أقمشة جميلة معلّقة على جدران القصر، وقال إنه كان لديهم سكاكين وسيوف متقنة وأشياء من هذا القبيل، وقد استخدموها لغزو القبائل المجاورة واستعبادها. يا إلهي! كانوا يقتلون الناس يمنة ويسرة، ثم يزيّنون بيوتهم بجماجم أعدائهم المفضّلين. هذه حقيقة، فقد رأينا كلّ ذلك - البُسط المزخرفة التي تصوّر أعمالاً وحشية وسيوفاً وسكاكين، حتى إننا رأينا عرشاً وقد ثُبّتت الجماجم البشرية أسفل سيقانه الأربع المطلية بالبرونز، فبدت كأنها أحذية أطفال من تلك التي يُحتفظ بها كتذكار.

«هذا بالضبط ما يحتاجه البهو في الإكواتوريال» - قلت مازحة مع أن فكرة كون هذه الأشياء هي رؤوس سابقة لأشخاص كانوا أحياء لا يمكن احتمالها في الساعة الثالثة بعد الظهر.

لم تكن هذه المملكة من قصص الخيال، دعوني أخبركم. فقد كانوا يرغمون النساء على الزواج من الملك لإنجاب عدد كبير من الأطفال. يا إلهي! كان يوجد لدى ملك واحد خمسون زوجة أو مئة، أو أكثر إن كان يتمتع بقدرات خاصة، أو هكذا قال لنا المرشد، ربما لإثارة إعجابنا. وقال إنهم كانوا يحتفلون بمناسباتهم، بأن يسحلوا ويقتلوا عدداً من العبيد والإماء، ويطحنون دمهم مع عظامهم، ثم يمزجونها بالطين ويبنون بها

جدران معابدهم! والأسوأ من ذلك، عندما يموت ملك، كانت تُقتل أربعون زوجة من زوجاته ويُدفنَّ معه.

هنا أوقفت المرشد وسألته: «هل تُدفن معه زوجاته المفضّلات أم الزوجات الأقل شأناً، أو ماذا؟»».

فقال المرشد إنه يظن أن أجمل زوجاته كنّ يُقتلن. يمكنني أن أتخيّل أنه عندما كان الملك يمرض، تسارع زوجاته كلهن إلى حلّ شعورهن ويلتهمن أكبر قدر من الحلويات ليشوّهن أجسادهن.

مع أننا كنّا، أنا وليا، نتجادل طوال الأسبوع، فإنه بعد ظهر ذلك اليوم في قصر أبومي، ولسببٍ ما، صمتنا جميعاً مثل خفافيش ميّتة. يا إلهي، لقد رأيت كل شيء: أعمال الشغب العنصرية في جنوب إفريقيا، وحضرت حفلات كثيرة في السفارة في برازافيل، وتسوّقت في باريس وبروكسل، وخرجت للصيد في كينيا، رأيت كل ذلك، لكن هذا القصر كان شيئاً آخر، فشعرت بالتوتّر والخوف. تمشّينا في الممرات الضيّقة، نبدي إعجابنا بالأعمال الفنية ونرتجف كلّما رأينا قطع عظام ناتئة من الجدران. وبدا أن المواضيع التي كنّا نتجادل حولها تلاشت الآن بعد أن رأينا عظام الأموات تحيط بنا. ارتجفت من قمة رأسي حتى أخمص قدميّ، مع أنّ النهار كان دافئاً جداً.

كانت ليا وإدا تسيران أمامي، ربما لتبتعدا عن المرشد قليلاً، ولأنهما تحبّان أن تفسّرا كلّ شيء بطريقتهما. عندما دققت النظر فيهما، صُدمت من الشبه الذي يجمع بينهما. فقد اشترت كل منهما قميصاً من القماش المشمّع بألوان بريّة من السوق في السنغال، وكان قميص إدا منسدلاً فوق بنطالها الجينز، وقميص ليا منسدلاً فوق تنورتها الطويلة (شخصياً لا أرى أن هناك حاجة لمجاراة السكّان المحلّيّين بطريقة لباسهم، لا، بل أفضّل أن أحتفظ بثيابي القطنية)، وبالفعل لم تكن إدا تعرج في مشيتها كما قالت أمّي. وأصبحت تتكلّم، وهذا يدلّ على أن طفولتها لم تكن صادقة تماماً. وكان

طولها يقارب طول ليا أيضاً، وهذا شيء لا يمكن تفسيره. ومع أن إحداهما لم ترَ الأخرى منذ سنوات، فقد كانت تصفيفة شعرهما نفسها، الشعر طوله حتى الكتفين، مسحوباً إلى الوراء، مع أنها ليست الموضة الدارجة.

أدركت فجأة أنهما كانتا تتحدّثان عن أبي.

«لا، أنا متأكّدة من أن هذا صحيح» -قالت ليا- «أعتقد أنه هو. أظن أنه مات فعلاً».

حسناً. كان هذا جديداً بالنسبة لي. غذذت الخطا لألحق بهما، رغم أني ما زلت أبدو تقريباً كشخص إضافي في المجموعة. عندما اقتربت منهما، سألتهما: «تقصدان بابا؟ لماذا لم تقولي شيئاً من قبل، بحقّ السماء؟!».

«كنت أنتظر حتى يحين الوقت الملائم، عندما نستطيع أن نتحدّث عن هذا الموضوع»، قالت ليا.

إذاً، ماذا كنّا نفعل طوال الأيام الخمسة الماضية بخلاف أننا كنّا نتكلّم. فقلت: «لا يوجد وقت أفضل من الآن».

بدا أنها فكّرت مليّاً بالأمر، ثم قالت ذلك كما لو كان أمراً واقعاً: «في السنوات الخمس الماضية كان في لوسامبو، ينتقل من قرية إلى أخرى. في الصيف الماضي التقيت بوكيل زراعي كان يعمل هناك، وقال إنه متأكّد تماماً من أنه يعرف والدنا، وأنه مات».

فقلت: «يا إلهي، حتى إنني لم أكن أعرف أنه غادر القرية. كنت أظن أنه ما زال يتجوّل حول قريتنا القديمة طوال هذا الوقت».

«لا، سمعت أنه عبر نهر كاساي بعد عدة سنوات، ولم يكن عنده أصدقاء كثيرون. ولم يعد إلى كيلانغا، هذا كلّ ما أعرفه. لا يزال هناك أشخاص في كيلانغا أنا على اتصال بهم. وما زال بعض ممن نعرفهم هناك، ومات عدد منهم أيضاً».

«ماذا تقصدين؟ من هم الذين نعرفهم؟».

صدقاً لا أتذكّر أحداً. فقد غادرنا، وغادر أكسلروت وسافرت عائلة أندرداون إلى بلجيكا، بل إنهم لم يكونوا هناك أصلاً.

«لماذا لا نؤجّل الحديث عن هذا الموضوع إلى وقت آخر؟» -قالت ليا- «فهذا المكان مليء بالأموات».

حسناً، لم أجادل في ذلك. وأمضينا باقي جولتنا مدفوعة الأجر في القصر بصمت، نسير في القاعات القديمة المتداعية، محاولين ألّا ننظر إلى كتل العظام ذات اللون الكريمي على الجدران.

«هاتان لؤلؤتان كانتا عينيه» - قالت إدا فجأة.

كانت تحب قول مثل هذه الأشياء الغريبة. فردّت عليها ليا: «على عمق خمس قامات وأكثر أبوك الآن راقد».

ما هذا الهراء؟! تساءلت. فأنا متأكّدة أني لم أرَ أيّ لآلئ. إنهما متصلتان إحداهما بالأخرى دائماً بطريقتهما الغريبة الخاصة.

حتى عندما لا تحتمل كلٌّ منهما الأخرى، كانت إحداهما تعرف دائماً ما الذي تتحدّث عنه الأخرى عندما لا يفهم أحدٌ آخر شيئاً من ذلك. لكنني لم أدع هذا يعكّر مزاجي، فقد أصبحت في عمر يكفي لأن أرفع رأسي عالياً وتكون عندي مغامراتي الشخصية في الحياة. حلمت أنني أتجوّل في قصر أبومي القديم وأنا أرتدي حمّالة صدري طراز «مايدن-فورم».

لعلّي كنت أغار قليلاً من ليا وإدا في الماضي، لأنهما توءمان. لكن مهما كان الشبه بينهما كبيراً من حيث الشكل والصوت، فإنني أستطيع أن أرى أنهما كبالغتين مختلفتان في داخلهما اختلاف الليل والنهار. وأنا مختلفة أيضاً، لا مثل الليل والنهار، وإنما مثل شيء آخر تماماً، مثل عيد الاستقلال في الرابع من تموز. هكذا كنا هناك: ليل، نهار، الرابع من تموز، وللحظة فقط عُقدت بيننا معاهدة سلام.

لكن بطبيعة الحال فإن الأشياء تتداعى، وهذا ما يحدث دائماً إن آجلاً

أم عاجلاً. مشينا إلى البلدة الصغيرة لنشرب شيئاً بارداً، ووجدنا مكاناً جيّداً حيث يمكننا الجلوس إلى طاولة معدنية في الخارج، ومراقبة الكلاب والدرّاجات الهوائية والحركة أمامنا. كان جميع المارة، بلا استثناء، يحملون شيئاً على رؤوسهم، ما عدا الكلاب طبعاً. شربنا بيرة. وكانت لذيذة. ثم تابعت ليا تقريرها عن تلك القرية النائية المهمة جداً التي عشنا فيها في طفولتنا، والتي أرى أن من الأفضل أن ننساها. كنت أنتظر أن أسمع الجزء المتعلّق بموت أبينا. لكن بدا من غير اللائق أن ألحّ على ذلك. خلعت نظّاراتي الشمسية ورحت أهوّي وجهي بخريطة غرب إفريقيا.

بدأت ليا تعدّ على أصابعها: «ماما موانزا لا تزال قوية؛ وكذلك ماما وتاتا نغوزا؛ وفقد تاتا بواندا زوجته الأولى لكن لا تزال عنده إبا؛ وأصبح ابن تاتا ندو زعيم القرية، لا الابن البكر، بينيي – فقد طردوه من القرية».

«الابن الذي سرق كفل الظبي الذي كنت قد اصطدتِه»، قالت إدا.

«نعم، هو. فقد كان من النوع الذي يحب إثارة المشكلات دوماً، كما فهمت. ولا يصلح أن يكون زعيماً، فأخذ مكانه الابن الثاني، كينغي. لا أتذكّره جيّداً؛ ومات تاتا ندو بالحمّى بعد أن أصيب بجروح».

فقلت ساخرة: «هذا سيّئ للغاية، كان من المفترض أن يكون زوجي».

فقالت إدا: «كان من الممكن أن يكون أسوأ يا راشيل».

«لقد اختارت من هو أسوأ فعلاً»، أوضحت ليا.

لم يعجبني ما قالته وأخبرتها ذلك.

لكنها تجاهلتني، ومضت تقول: «لقد تزوّج نِلسون، هل يمكنكما أن تصدّقا ذلك؟ وأصبح عنده ابنتان وثلاثة أبناء. وماتت ماما لو. يقولون كان عمرها مئة وسنتين، لكنّي أشكّ في ذلك؛ وذهب تاتا كوفودُندو، مات، منذ زمن بعيد، بعد أن فقد الكثير من الاحترام بسبب... ما فعله معنا».

«الأفعى، تقصدين؟» سألتها.

أخذت نفساً عميقاً، ونظرت إلى السماء وقالت: «كلّ شيء».

انتظرنا، لكن ليا نقرت بأصابعها على الطاولة كأنها تعلن عن نهاية هذا الحديث، ثمّ أضافت: «وطبعاً مات باسكال منذ فترة طويلة. قتله الجنود أصحاب الخوذ الزرقاء على الطريق بالقرب من بولونغو».

وأشاحت بوجهها عنّا، لكنني رأيت الدموع تترقرق في عينيها. كان عليّ أن أبذل جهداً كبيراً لأتذكّر هؤلاء الأشخاص.

«أوه، باسكال، ابنك؟».

فقالت لي إدا إنني بلهاء.

«باسكال صديق طفولتنا الذي سمّيت ابني على اسمه. مات منذ ثماني عشرة سنة، قبل أن يولد ابني باسكال بقليل، عندما كنّا في بيكوكي. لم أخبرك بذلك قطّ يا راشيل، لأنني أعرف أنك لن تهتمّي بذلك. حدث ذلك عندما كنتِ في جوهانسبرغ».

«باسكال صديقنا؟» -رحت أفكّر وأفكّر- «آه. ذلك الصبي الصغير الذي كانت تملأ بنطاله ثقوب والذي كنت تلعبين معه؟».

هزّت ليا رأسها، وظلّت تحدّق في أشجار الجاكاراندا العملاقة التي تظلّل الشارع، والتي تتساقط منها أزهار أرجوانية كبيرة بين الحين والآخر، مثل سيّدات يوقعن مناديلهن لجذب الانتباه إليهن.

أشعلتُ سيجارة أخرى. كنت أتوقّع أن تكفيني علبتَيْ السجائر «لاكي سترايك» طوال الرحلة، لكن، يا إلهي، مع كلّ هذا التوتّر الذي سبّبتاه لي هاتان المغفّلتان خشيت أن أفكّر بالأمر. كان في الشارع الكثير من الصبية الصغار المتسخين يبيعون سجائر منفردة من ماركات مثل بلاك هات ومستر بونز، وأريد أن أذكّركم بأنه لا يوجد فلتر لهذه السجائر ويشبه طعمها طعم القطران المحترق، ولا بدّ أنها ستقتلك برمشة عين. التبغ الإفريقي شيء سيئ جداً!

«إذاً» -قلت أخيراً، ولكزت ليا- «أبي العجوز المسكين. ما هي الأنباء المثيرة عنه؟».

ظلّت تحدّق في الشارع حيث يسير أناس من جميع الأنواع. كانت كما لو أنها تنتظر أحداً. ثمّ تنهّدت، ومدّت يدها وأخرجت سيجارة من سجائري الثمينة الأخيرة المتبقية وأشعلتها.

قالت: «سيمرضني هذا».

«التدخين؟ أم الحديث عن والدنا؟».

فضحكت وقالت: «كلاهما. والبيرة أيضاً. فأنا لست معتادة على ذلك». أخذت نَفَساً عميقاً، ثم قطّبت وجهها في علبة السجائر كأنها شيء يمكن أن يعضّها، وأضافت: «يجب أن تري كيف أوبّخ أولادي عندما يدخّنون».

«ليا، أخبرينا!».

«أوه.. إنه شيء فظيع نوعاً ما. لقد أمضى فترة في شمال كاساي، المنطقة التي يزرعون فيها البن. كان لا يزال يحاول أن يعمّد الأطفال، أنا متأكّدة من ذلك. فينتان وسيلين فاولز يذهبان إلى هناك كلّ بضع سنوات».

فقلت: «الأخ فاولز. أما تزالين على اتصال معه؟ يا إلهي، ليا! البيت القديم... وهل ما زال يعرف أبي؟».

«في الحقيقة لم يرياه. أظن أن أبي وصل إلى حد جعله يختبئ من الغرباء. لكنّهما كانا يسمعان دائماً قصصاً كثيرة عن الطبيب الأبيض المشعوذ الذي يدعى تاتا برايس. وفهما من أحاديثهما مع الناس أنه كان رجلاً متقدّماً في السن، أقصد عجوزاً ذا لحية بيضاء طويلة».

فقلت: «أبي؟ لا أستطيع أن أتصوّر ذلك، له لحية. كم سيكون عمره الآن، ستّون سنة؟».

«أربعة وستّون» – قالت إدا. على الرغم من أنها تكلّمت الآن، لكن الأمر بدا كما لو أنها لا تزال تكتب إعلاناتها الصغيرة على ورقة دفتر ملاحظاتها.

أضافت ليا: «واكتسب سمعةً واسعة النطاق أنه يستطيع أن يحوّل نفسه إلى تمساح ويهاجم الأطفال».

«يمكنني أن أتصوّر ذلك الآن» – قلت ضاحكة. فالإفريقيون يؤمنون بالخرافات كثيراً. فقد أقسم أحد العمّال أن كبير الطهاة عندي يستطيع تحويل نفسه إلى قرد وسرقة أشياء من غرف الضيوف. أصدّق ذلك!

«ما زال يحاول جرّ الحصان بالقوة إلى النهر»، قالت إدا.

«أيّ حصان؟».

«وقع حادث مروّع حقاً على النهر. فقد قلب تمساح مركباً مليئاً بالأطفال، فغرق بعضهم والتُهِم بعضهم الآخر أو شُوِّهوا، وقد أنحوا باللائمة على أبينا. فأعدموه تقريباً دون محاكمة».

«أوه، يا يسوع!» –وضعت يدي على حنجرتي– «هل شنقوه فعلاً؟!».

«لا» – قالت ليا، وقد بدت غاضبة وطفرت الدموع من عينيها في الوقت نفسه، وأردفت: «لا، لم يُشنق، وإنما أُحرق».

أستطيع أن أرى كم كان ذلك قاسياً على ليا، فمددت يدي وأمسكت يدها، وقلت لها: «حبيبتي، أعرف أنه أبونا. وأظن أنك كنت أكثر واحدة فينا تحبّينه وتتحمّلينه. لكنّه كان لئيماً مثل أفعى. إنه يستحق كلّ ما حصل له».

سحبت يدها من يدي لتمسح الدموع من عينيها وتتمخّط، وقالت: «أعرف ذلك»، بدا أنها فقدت صوابها، ومضت تقول: «لقد طلب منه أهالي تلك القرية أن يغادرها مئة مرة، وأن يذهب إلى مكان آخر، لكنّه كان يتسلل إليها دائماً. قال إنه لن يذهب حتى يأخذ جميع أطفال القرية إلى النهر ويغطّسهم في الماء، مما أرعبهم حتى الموت. وبعد حادثة غرق الأطفال طفح بهم الكيل، فحمل كلّ واحد منهم عصا وركضوا وراءه. ربما كانوا يريدون إبعاده عن قريتهم مرة أخرى، لكنّي أظن أن أبي تصدّى لهم».

فقلت: «هذا مؤكّد، وربما ظلَّ يعظهم حول نار جهنم والكبريت من وراء ظهره وهو يجري»، وهذا ما جرى حقاً.

«أحاطوا به في حقل قديم لزراعة البنّ، فتسلّق برج المراقبة المخلخل المتبقي من أيام الاستعمار. هل تعرفان عمَّ أتحدّث؟ يسمّونها *tours de maître*. برج الرئيس، حيث كان رئيس العمّال البلجيكي يقف ليراقب قاطفي البن حتى يتمكّن من تحديد من منهم سيُجلد آخر اليوم».

«وأحرقوه؟!».

«أشعلوا النار في البرج. أنا متأكّدة من أن النار اشتعلت مثل علبة كبريت. فقد بُني هذا البرج من خشب غابة عمره عشرون عاماً، وخلّفه البلجيكيون وراءهم».

قلت: «أراهن أنه كان يعظهم بالحقّ الإلهي حتى آخر لحظة».

«قالوا إنه انتظر حتى وصلت النار إليه قبل أن يقفز. لم يشأ أحد أن يلمسه، فتركوه هناك حتى تأتي الحيوانات وتسحبه».

فكّرت في أنه لن يشرب أحد منّا قهوة لمدة من الزمن. لكن لم يكن الوقت مناسباً لأمزح، فطلبتُ مزيداً من بيرة إليفانت وجلسنا نتأمّل أفكارنا المختلفة.

ثمّ بدت على إدا نظرة غريبة وقالت: «لدي الآية».

«أيّ واحدة منها؟»، سألتها ليا.

«الإصحاح الأخير في العهد القديم، سِفْر المكابيين الثاني، الإصحاح 13 الآية 4: ولكنّ ملك الملوك هيّج سخط أنطيوخس على ذلك الكافر».

«لا أعرفها»، قالت ليا.

أغمضت إدا عينيها وفكّرت للحظة، ثم قالت المقطع كلّه: «ولكنّ ملك الملوك هيّج سخط أنطيوخس على ذلك الكافر؛ فإن ليسياس أشربه أن

الرجل كان هو السبب في تلك النوازل بأسرها؛ فأمر بأن يذهب به إلى بيرية ليُقتل على عادة البلاد. وهناك برجٌ علُوُّه خمسون ذراعاً مملوء رماداً، وفيه آلة مستديرة تهوي براكبها من جميع جهاتها إلى الرماد. ففي ذلك الموضع أهلك ذلك المختلس للهيكل، الذي كان سبباً لشرور شتى مدفوعاً إليه بأيدي الجميع. وبهذه المنية هلك منلاوس المنافق، ولم يحصل على تربة يوارى فيها».

«الهراء المقدّس!»، قلتُ.

«كيف صادف أنك تعرفين هذه الآية؟»، سألتها ليا.

«لا بدّ أنني كتبته خمسين مرة. إنه الإصحاح الأخير في العهد القديم، الآية المئة من النهاية، إذا قمت بتضمين الأبوكريفا، وهذا بالطبع ما فعله دائماً».

«وماذا في نهايته؟» -سألَتْها- «ما هي العبرة النهائية؟».

«العبارة الأخيرة في العهد القديم: هذه هي النهاية».

«هذه هي النهاية»، كررت أنا وليا في دهشة تامة. ثم صمتنا قرابة ساعة، رحنا ننصت خلالها إلى أصوات حنجرة كلّ واحدة منا كلّما رشفت رشفة من البيرة. ودخّنت ليا السيجارتين الأخيرتين من سجائر لاكي سترايك المتبقية لديّ.

سألْتها أخيراً: «لماذا طلب منك أن تنسخي هذه الآيات عدة مرات؟ لم يطلب مني نسخها ولا مرة».

لكن إذا سألتموني ليس هذا هو الهدف من السؤال.

ابتسمت إدا، وأجابت كأنه أمر واقع: «لماذا تظنين يا ليا؟ لكوني بطيئة».

بعد قليل شممنا رائحة دخان خشب. كان بعض الباعة قد بدؤوا يشوون لحماً على طول الرصيف. نهضت واشتريت لنا جميعاً شواء بنقودي كي لا

أضطر لسماع ليا تتذمّر بأنه مرتفع الثمن، أو أن تحدّثنا إدا عن الجراثيم التي تعيش فيها. فطلبت لحم دجاج مشوياً على أسياخ خشبية وأحضرتها إلى الطاولة ملفوفة في ورق شمعي.

قلت لهما: «كُلا وامرحا. بصحّتكما!».

«في ذكرى والدنا!»، قالت إدا.

نظرت إدا وليا إلى أسياخ الكباب، ثم نظرت إحداهما إلى الأخرى. وكان هناك ضحكة أخرى من ضحكاتهما الصغيرة الخاصة.

«كان رجلاً على طريقته، يجب أن نعترف بذلك» -قالت ليا ونحن نمضغ الطعام- «كان كتاب تاريخ كاملاً بحدّ ذاته. كنّا نحصل على تقارير منتظمة من تاتا بواندا والأخ فاولز عندما كان لا يزال يعيش في كيلانغا وحولها. كان من الممكن أن أذهب لرؤيته، لكن لم تؤاتني الشجاعة لعمل ذلك».

«لماذا؟»، سألتها، وأضفت: «كنت لأفعل ذلك فقط لأطلب منه أن يتوقّف».

«أظن أنني خشيت أن أراه وقد فقد صوابه. فقد ازدادت الحكايات عنه وحشية مع مرور السنوات. فقد قيل على سبيل المثال إنه كان لديه خمس زوجات، وإنهنّ هجرنه كلّهن».

فقلت: «هذا مثال جيّد. القسّ المعمداني المتعدد الزوجات».

قالت إدا: «زوج الخمسة الخمسينيّ»(*).

وقالت ليا: «إنها حقاً أفضل طريقة ليذهب -كما تعلمون- في لهيب

(*) في الأصل تقول راشيل: the Baptist Bigamist (ونلاحظ أن الكلمتين لهما القافية نفسها)، فتردّ إدا: The Pentecostal Pentigamist. وفي حين تعني الكلمة الأولى: «الخمسينيّ» أي الذي ينتمي إلى الخمسينية، وهي حركة دينية بروتستانتية ظهرت في الولايات المتحدة الأميركية في أواخر القرن التاسع عشر، فإن الكلمة الثانية هي نحت عملته إدا على القافية نفسها لكلمات أختها، ويعني: الارتباط بخمسة. [م].

المجد. أنا متأكّدة تماماً من أنه كان يعتقد حتى النهاية بأنه يفعل الشيء الصحيح. فلم ييأس ولم يتخلَّ عن السفينة».

«لم أتوقّع أن يصمد كل هذه المدة الطويلة»، قالت إدا.

«صحيح، فهو لم يمت منذ خمس عشرة سنة بسبب التيفوئيد أو مرض النوم أو الملاريا أو كلها مجتمعة. أنا متيقّنة من أن نظافته الشخصية ذهبت إلى الجحيم بعد أن تركته أمّنا».

لم تعقّب إدا على ذلك. فبما أنها هي الطبيبة، لا بدّ أنها تعرف كلّ شيء عن الأمراض الاستوائية، ولن تهتم إذا أبدت ليا معرفتها بذلك. هذا هو حالها معنا دائماً. فمهما أبعدتِ قدمك بعيداً فستطئين فوق أصابع قدمَي أختك.

قلت فجأة: «بحق الله هل كتبتِ لأمّنا عن أبينا؟».

«لا. ظننت أن إدا ترغب في إخبارها شخصياً».

فقالت إدا بحرص: «يخيّل إليّ أن ماما افترضت وفاته منذ زمن بعيد».

أنهينا تناول شيش الكباب ثم تحدّثنا عن والدتنا، وبدأت أحكي لهنّ قليلاً عن الإكواتوريال، وظننت أننا لأول مرة في حياتنا سننهي لقاءنا هذا كعائلة محترمة. لكن كما كان متوقّعاً، بدأت ليا تتحدّث عن موبوتو الذي زجَّ زوجها في السجن، وكيف أن الجيش يبثّ الذعر في نفوس الجميع، وحدّثتنا عن مخطط الرشوة الأخير في زائير - وهذا بيني وبينكم، هو السبب الأساسي الذي أحصل بفضله على الزبائن الذين يأتون إلى الجانب الآخر من النهر، لكنّي لم أقل ذلك. ثمّ انتقلَت ليا للحديث كيف أن البرتغاليين والبلجيكيين والأميركيين دمّروا إفريقيا المسكينة وأوصلوها إلى الحضيض.

«ليا، لقد سئمت ومللت من قصتك الحزينة هذه» - صحت بها.

أظن أنني سمعت الكثير، إضافةً إلى أنه لم يعد معي سجائر، والطقس حار. وبما أن بشرتي شديدة البياض، فإن الشمس ستتوجّه مباشرةً إلى رأسي. لكن في الحقيقة بعد ما رأيناه في ذلك القصر: قتل الزوجات وعظام

العبيد والجواري على الجدران، من الواضح أنه ليس لنا علاقة بهذه الأشياء المروّعة لأنها حدثت منذ مئات السنين. أشرت إلى أن السكّان الأصليين هنا كانوا مستعدين وينتظرون مجيء البرتغاليين ليشتروا العبيد، ولا بدّ أن ملك أبومي كان سعيداً عندما وجد أن بإمكانه أن يقايض خمسة عشر شخصاً من أبناء قبيلته لقاء مدفع برتغالي جيّد.

لكن يوجد دائماً لدى ليا جواب على كلّ شيء، وبمفردات وفيرة وصحيحة طبعاً. فقالت لعلّنا لا نستطيع أن نفهم بيئتهم الاجتماعية التي كانوا يعيشون فيها قبل مجيء البرتغاليين، وأضافت: «فهي بلاد ضئيلة ولا يمكنها أن تستوعب أعداداً كبيرة من السكّان».

«وماذا يعني هذا؟» - سألتها وأنا أتفحّص أظافري التي كانت بصراحة في حالة سيئة.

«إن ما يبدو بالنسبة لنا قتلاً جماعياً، قد تكون طقوساً نُسيء فهمها. ربما كانت لديهم وسائلهم للحفاظ على بقاء أعدادهم متوازنة عندما تحدث مجاعات. ربما كانوا يفكّرون بأن العبيد سيذهبون إلى مكان أفضل».

هنا تدخّلت إدا وقالت: «قليل من القتل الطقوسي، قليل من موت الأطفال، إنها فقط واحدة من الأعمال الصحية للطبيعة التي لا نهتمّ بالتفكير فيها».

بدا صوتها مثل صوت ليا على نحو مدهش. مع أنني أظن أن إدا كانت تمزح، أما ليا فلم تكن تمزح البتّة.

عبست ليا في وجه إدا، ثمّ في وجهي، محاولة أن تقرر من منا العدوّ الحقيقي، ثم قرّرت أنه أنا. فقالت: «لا يمكنك أن تفترضي أن الصواب أو الخطأ بالنسبة لنا، هو نفسه الصواب أو الخطأ بالنسبة لهم».

«لا تقتل» -أجبت- «هذه ليست طريقة تفكيرنا وحسب. إنها موجودة في الكتاب المقدّس».

ابتسمت ليا وإدا كلٌّ منهما في وجه الأخرى. ثم قالت ليا: «صحيح. بصحة الكتاب المقدّس!»، وقرعت زجاجتها بزجاجتي.

«تاتا المسيح هو بنغالا» - قالت إدا، ورفعت زجاجتها أيضاً. نظرت إدا وليا إحداهما إلى الأخرى للحظة، ثمّ بدأتا تضحكان مثل ضبعين.

«المسيح هو شجرة السم»، قالت ليا.

«وهذه بصحة القسّ شجرة السم! وهذه بصحة زوجاته الخمس!».

توقّفت إدا عن الضحك وقالت: «كان هذا نحن».

فقلت: «من؟ ماذا؟!».

«زوجات ناثان الأسطوريات الخمس. لا بدّ أنهم يقصدوننا نحن».

حدّقت بها ليا وقالت: «أنت محقّة».

كما قلت: ليل، نهار، الرابع من تموز. إنني لا أحاول حتى أن أفهم.

إدا برايس

أتلانتا، كانون الثاني 1985

على عمق خمس قامات وأكثر أبوك الآن راقد،
من عظامه يصنع المرجان.
هاتان لؤلؤتان كانتا عينيه.
وما من شيء فيه يتحوّل
إلا وبالبحر يؤول إلى شيءٍ ما، نفيس وغريب(*).

مكتبة
t.me/soramnqraa

هذا لا علاقة له بالحياة أو الموت، فهذا الرجل الذي احتلّنا كلّنا في الحياة لا يزال متشبّثاً بمزاعمه. الآن علينا أن ننقل أجزاءه المتغيّرة النفيسة

(*) شكسبير، العاصفة، الفصل الأول، المشهد الثاني، ترجمة: جبر إبراهيم جبرا. [م].

والغريبة إلى المناطق المختلفة التي رحلنا إليها. مغتربين، مضطربين، نقضي أحلك أوقاتنا ونحن نحدّق في تلكما اللؤلؤتين، تلك العظام المرجانية. هل هذه هي المادة التي خُلقت منها؟ كم من خطاياه تخصّني أنا أيضاً؟ كم من عقوبته؟

تبدو راشيل عاجزةً عن الندم، لكنّها ليست كذلك في حقيقة الأمر. فهي تضع هاتين العينين الشاحبتين حول رقبتها كي تنظر في جميع الاتجاهات وتصدّ الهجوم عليها. أما ليا فقد أخذتها كلها -عظام، أسنان، فروة الرأس- وحاكت لنفسها مِسْحاً(*). ما ابتكرته أمي كان غايةً في الإتقان لدرجة أنه يصعب وصفه. إنه يشغل مساحة كبيرة في بيتها، لذلك كان عليها أن تخطو من حوله بحرص في الظلام.

بعد أن عملت أمي في أعمال تطوّعية لمدة كافية في أتلانتا، انتقلت إلى ساحل جورجيا، إلى قرية من المنازل الصغيرة القديمة المبنية من الآجر في جزيرة ساندرلينغ. لكنها حملت كنزها الغارق أيضاً إلى مكانها الصغير على الشاطئ، وأصبحت تمضي أوقاتاً طويلة خارجاً في الهواء الطلق، أعتقد أنها تهرب منه. وعندما أذهب لزيارتها أجدها دائماً جاثية في حديقتها المحاطة بالأسوار ويداها غارقتان في التراب، تدلّك جذور زهرة الكاميليا. وإذا لم أجدها في البيت، أمشي حتى نهاية الشارع التاريخي المرصوف بالحجارة وأراها واقفةً عند الجدار البحري بمعطفها المطري، حافية، تحدّق في المحيط. أورليانا وإفريقيا وصلتا إلى طريق مسدود. يقود الأطفال درّاجاتهم بسرعة كبيرة متفادين هذه المرأة العجوز الحافية التي تغطي رأسها بابوشكا بلاستيكية(**)، لكني أستطيع أن أؤكّد لكم أنها ليست امرأة مشوّشة العقل.

(*) المِسْح هو ثوب الراهب الزاهد، ويكون من شعر الدواب، أو من الخيش، ليدلّ على التقشّف والتضحية بالنفس. [م].

(**) وشاح مربوط تحت الذقن، لحماية الرأس من المطر. [م].

إن أكثر المواقف العقلانية بالنسبة لأمي هو أن ترتدي الأجزاء الضرورية فقط من الزيّ وتترك الباقي. فالحذاء يتعارض مع رغبتها بالحديث، لأنها تخاطب الأرض دائماً تحت قدميها، طالبةً المغفرة. تعترف، تُنكر، ترتدّ، وتعيد رسم مسار الأحداث الكريهة لكي تجعل تواطؤها مفهوماً. أعتقد أننا كلّنا نحاول ابتكار نسختنا من القصّة. جميع القصائد الإنسانية واحدة في جوهرها: «حياتي هي ما سرقته من التاريخ، وكيف أعيش معه».

أنا شخصياً سرقت ذراعاً وساقاً. فأنا لا أزال إدا، لكنّك تكاد لا تعرفني الآن، لأنني لم أعد أميل في مشيتي. أمشي دون عرج ملحوظ. والشيء الغريب هو أنني استغرقت سنوات عديدة حتى أصبحت أتقبل وضعي الجديد. فلم أعد أدا(*)، لغز المجيء والذهاب. وعندما لم أعدّ أجرّ جسدي المنقسم، فقدت القدرة على القراءة بطريقتي القديمة، عكساً وطرداً. وعندما أفتح كتاباً، تصطفّ الكلمات في نسقٍ واحد ضيّق الأفق في الصفحة، أما القصائد المتناظرة فتمحو نفسها وهي نصف مشكّلة في ذهني. أفتقد تلك القصائد. في بعض الأحيان، في الليل خفاءً، أتعمّد أن أعرج حول شقّتي، مثل السيّد هايد، محاولةً استعادة طرقي القديمة في الرؤية والتفكير. ومثل السيّد جيكل، أتوق إلى ذلك الظلام الخاص المتكوّر في داخلي. في بعض الأحيان يأتي على ما أعتقد. ترتفع الكتب المصفوفة على الرفّ مرتّبة في خط متصل ملوّن موسيقياً، وينحسر العالم، وتبرز أشكاله المخفية إلى الأمام وتلتقي بعينيَّ، لكنّه لا يدوم طويلاً. بحلول ضوء الصباح، تنحني الكتب كلّها معاً مرة أخرى، وتبرز كعوبها، متحجّرة، بلا حياة.

لا أحد يفتقد أدا Ada، ولا حتى أمّي. يبدو أنها كانت مسرورة تماماً وهي ترى الطير المتغضّن الذي أنقذته يقف أخيراً، ويطير.

«لكني كنت أحبّ كيف كنتُ»، أقول لها.

(*) تكتب اسمها هنا Ada، وليس Adah. [م].

«أوه، إدا. وأنا أحببتك أيضاً. لم أفكّر يوماً أنك أقل، لكنّي تمنّيت دائماً أن تكوني أفضل».

هنا، في الحضارة الغربية، فضائلنا بسيطة وبهيجة: إننا نتوقّع الكمال، ونعتبر العيوب مَذلّة. إدا، المسكينة، الشلل النصفي الفاضح يحاصرنا. وقد تقرَّر مؤخراً، على مضض، أنّ البشرة الداكنة أو العرج قد لا يكونان خطأ المرء نفسه، ولكن لا يزال يتعيّن على هذا المرء إظهار الأخلاق الحميدة في أن يبدو خجولاً بها. عندما شفى المسيح أولئك المتسوّلين المعوقين، ألم يقوموا ويرقصوا ورموا بخيزراناتهم جانباً، وهزّوا قبّعاتهم؟ مرحى، لقد أصبح كلّ شيء أفضل الآن، وافرحتاه!

لو كنت شخصاً كاملاً فإنك ستتساءل: لماذا لا يبتهجون؟ ألا يريد جميع البائسين المساكين أن يكونوا مثلي؟

ليس بالضرورة، لا. إنّ غطرسة ذوي الأجسام السليمة فظيعة. نعم، لعلّنا نريد أن نكون قادرين على أن نصل بسرعة، ونحمل الأشياء بكلتا يدينا، لكن فقط لأنه يتعيّن علينا أن نجاريكم، أو سنعاقب بنسخ الآية. إننا نفضّل أن نكون كما نحن، وسيكون ذلك شيئاً جيّداً.

كيف أستطيع أن أفسّر أنّ نصفَي جسدي غير المتطابقين كانا يجعلان مني أكثرَ من شخصٍ كامل؟ في الكونغو كنت نصف بندوكا، أي المرء الذي يميل في مشيته، ونصف بندوكا، أي الطير الأملس الذي يهبط ويعلو فوق ضفاف النهر بجنون متهوّر يسلب الأنفاس. كل منهما كان لديه مزاياه. أما هنا فلا يوجد اسم لهذه الموهبة التي أُعطيتها، لذا فقد ماتت دون مراسم لائقة. أنا الآن الدكتورة برايس، الجيّدة، تُشاهد مستقيمة، ومعترفٌ بأنها تتمتع بكامل قواها العقلية.

كيف يمكنني ابتكار روايتي للقصّة دون رؤيتي وأنا أسير بشكلٍ مائل؟ كيف يستطيع المرء أن ينزع عنه جلده القديم ويبتعد عن مسرح الجريمة؟

جئنا، رأينا، أخذنا، وتركنا. يجب أن يُسمح لنا أن نعبّر عن ألمنا وعن ندمنا. لا تزال أمي تريد أن تغسل نفسها وتنظّفها، لكنّها لا تزال تتمسّك بطينها وترابها. لا تزال أمي امرأة قاسية. تدّعي أنني أصغر بناتها الآن، لكنّها ما تزال تتمسّك بطفلتها الصغيرة. أظن أنها ستُنزل عن كاهلها هذا العبء عندما تسمع أن روث ماي نفسها قد غفرت لها.

ما إن رجعت حتى ذهبت لزيارتها. جلسنا معاً على أريكتها الصغيرة أُريها الصور التي التقطتها في إفريقيا، وضعتها أمامها، فشكّلت مجموعةَ ألوانٍ زاهية بين أصداف البحر الموضوعة على طاولة القهوة.

قلت لها: «ليا نحيفة، لكنها لا تزال تمشي بسرعة».

«كيف حال راشيل؟».

هذا سؤال جيّد. قلت لها: «على الرغم من الظروف المتشابكة اللافتة للنظر التي مرت بها، فإنها إذا عادت إلى بيت لحم وذهبت إلى مدرستها الثانوية لحضور حفل يجمعها بزميلاتها القديمات، فإنها ستفوز بجائزة أقلّ الناس تغيّراً».

نظرت أمي إلى الصور دون اهتمامٍ كبير، باستثناء الصور التي تظهر فيها أخواتي، فقد توقّفت عندها لوقتٍ طويلٍ ودقّقت النظر، كما لو كانت تستمع إلى اعترافات صامتة صغيرة.

أخيراً، قلت اعترافي. أخبرتها أنه مات. لم تبدِ أي اهتمام مطلقاً لسماع التفاصيل، لكنّي على أي حال قلت لها معظم ما أعرفه.

جلست وبدت على وجهها الحيرة، ثم قالت: «يجب أن أزرع بعض بنفسج الثالوث»، وخبطت باب المنخل وراءها عندما خرجت إلى الشرفة الخلفية. تبعتُها، ووجدتها بقبّعة القشّ القديمة التي تضعها على رأسها عندما تعمل في الحديقة، تحمل مجرفةً بيد، وبنفسج الثالوث باليد الأخرى. ثم سارت محنيّة قليلاً تحت أزهار العسل المتشابكة فوقها نحو درب الحديقة،

مستخدمة مجرفتها كمنجل لتزيح جانباً النباتات النامية بإفراط، التي تملأ شرفتها الصغيرة الغابيّة. مشينا ببطء في الدرب الصغير إلى مسكبة الخسّ بجانب البوّابة، حيث جثت على ركبتيها بين الأوراق وبدأت تحفر حفراً في الأرض. قرفصت بجانبها، أراقبها. كانت قبّعتها ذات حافة عريضة من القش وقد تمزّق التاج منها تماماً، كما لو أنّ كل ما في رأسها قد انفجر مرّاتٍ عديدة.

قلت لها: «تقول ليا إنه كان يريد أن يسلك ذلك الطريق. طريق المجد».

«لا أبالي بما كان يريده».

فقلت: «أوه!». كانت الأرض الرطبة قد بلّلت ركبتَي بنطالها الجينز ورسمت عليه بقعاً داكنة كبيرة انتشرت مثل بقع دم.

«ألم تحزني على موته؟».

«إدا، ماذا يعني لي كل ذلك الآن؟».

إذاً على أي شيء تحزنين؟

رفعت الشتلات من الحافظة وفكّت تشابك جذورها البيضاء الرقيقة، وغرستها بيديها العاريتين في الأرض برفق، كما لو كانت تضع على السرير عدداً لا نهائياً من الأطفال الصغار. مسحت الدموع من جانبَي وجهها بظاهر يدها اليسرى، تاركةً خطوطاً داكنة من التراب على طول عظام وجنتيها. أن تعيش يعني أن تكون موسوماً. قالت من دون كلام. أن تعيش يعني أن تتغيرّ، أن تموت مئة مرة. أنا أمّ، أما أنتِ فلستِ أمّاً، وهو لم يكن أيضاً.

«هل تريدين أن تنسي؟».

توقّفت عن عملها، وأرخت المجرفة على ركبتها، ونظرت إليّ، وقالت: «أمسموحٌ لنا أن نتذكّر؟».

«من الذي يقول إننا لا نستطيع؟».

«أتعرفين؟ لم تسألني أي امرأة في بيت لحم كيف ماتت روث ماي!».

«أخمّن ذلك».

«وجميع من عملت معهم في أتلانتا في مجال الحقوق المدنية والإغاثة الإفريقية. لم يتكلّم أحدٌ قطّ عن أنه كان عندي زوجٌ مبشّر مجنون لا يزال في مكانٍ ما في الكونغو. الناس يعرفون. لكن الحديث عنه كان محرجاً. أظن أنهم يظنون أنّ ذلك سيُحدث تأثيراً سيّئاً عليّ».

«ذنوب الأب»، قلت.

«ذنوب الأب لا تُناقش. هكذا هو الحال».

ثم عادت إلى عملها في حفر الأرض.

أعرف أنها على حقّ. حتى الكونغو تحاول أن تنسلّ وتخرج من لحمها القديم، لتتظاهر بأنها لم تُصَب بندوب. كانت الكونغو امرأةً في الظلال، قاتمة القلب، تتحرّك على قرع الطبول. وزائير شابٌّ طويل القامة يقذف الملح وراء كتفه(*). لقد أُعيدت تسمية جميع الإصابات القديمة: كنشاسا، كيسانغاني. ولم يعد هناك اسم الملك ليوبولد، أو ستانلي الأرعن. دفنوهم كلّهم، نسوهم. ليس لديك ما تخسره سوى قيودك.

لكنّي لا أوافقها. إذا كنت مقيّداً بالسلاسل حيثما كنت، فستظلّ تحمل علامات الأغلال على ذراعيك دائماً. ما يجب أن تخسره هو قصّتك، انحناءتك. ستنظر إلى الندوب على ذراعيك فلا ترى إلا القبح، أو ستحرص بشدة على إشاحة نظرك بعيداً عنها فلا ترى شيئاً. وفي كلتا الحالتين، لن يكون لديك كلمات لتحكي قصّة من أين أتيت.

«سأناقش الأمر» -قلت- «لقد احتقرته. كان رجلاً حقيراً».

(*) واحدة من المعتقدات أنه من خلال رشّ الملح خلف الكتف الأيسر يمكن تجنّب الفأل السيئ. [م].

«حسناً يا إدا. يمكنك دائماً أن تسمّي الأشياء بمسمّياتها الحقيقية».

«هل تعرفين متى كنت أكرهه أكثر؟ عندما بدأ يسخر من كتبي. من كتابتي وقراءتي. وعندما كان يضرب أيّ واحدة منّا، أنت على وجه الخصوص. كنت أتخيّل أنني آخذ قليلاً من الكيروسين وأشعل النار به وهو مستلقٍ في سريره، لكني لم أفعل ذلك فقط لأنك كنتِ في السرير معه أيضاً».

نظرت إليّ من تحت حواف قبّعتها. كانت عيناها واسعتين، قاسيتين، زرقاوين كالصوّان.

«هذا صحيح» - قلت. لقد تخيّلت ذلك بوضوح شديد. حتى إنني كنت أستطيع أن أشمّ رائحة الكيروسين البارد وأشعر به وهو يبلّل الشراشف. لا أزال أشعر بذلك حتى الآن.

إذاً، لماذا لم تفعلي ذلك؟ كلانا معاً. كان بإمكانك أن تفعلي ذلك.

لأنك ستصبحين عندئذٍ حرّة أيضاً، لا أريد ذلك. أريد أن تتذكّري ما فعله بنا.

قد أبدو طويلة وأمشي باستقامة، لكنّي سأظل دائماً في داخلي أدا Ada. تلك الفتاة الصغيرة العرجاء التي تحاول أن تقول الحقيقة. القوّة في الميزان: ما نحن إلّا ندوبنا، بقدر ما نحن إنجازاتنا.

ليا برايس نغيمبا

منطقة كيمڤولا، زائير - 1986

لديّ أربعة أبناء، أسماؤهم جميعاً على أسماء رجال فقدناهم في الحرب: باسكال، باتريس، مارتن - لوثر، وناتانييل.

تانييل هو معجزتنا. وُلد السنة الماضية، قبل شهر من موعد ولادته، بعد

الرحلة الطويلة الوعرة في سيارة اللاند روفر التي نقلت أسرتنا من كنشاسا إلى المزرعة في منطقة كيمڤولا. كنا لا نزال على بعد عشرة كيلومترات من القرية، عندما انتقل ألم ظهري المزمن إلى تقلّص عميق صلب كالصخر في أسفل بطني، وأدركت مذعورةً أن المخاض قد جاءني. نزلت من السيارة ورحت أمشي وراءها ببطء شديد لأسيطر على خوفي. كان أناتول قلقاً من تصرّفي الغريب، لكن لا جدوى من مجادلة امرأة في المخاض، فترجّل من السيارة وسار بجانبي بينما كان الأولاد يتشاجرون حول من سيقود السيارة. لا أزال أتذكّر على نحوٍ مبهم أضواءها الخلفية الحمراء وهي تسير أمامنا على طريق الغابة المعتمة، تهتزّ بشكلٍ رتيب مملّ، وقد ظهرت البدايات الغادرة لعواصف بعد الظهر الرعدية. ثم انتحيت جانباً دون أن أقول شيئاً، واستلقيت فوق كومة من أوراق الأشجار الرطبة بين الجذور الطويلة المدعّمة لشجرة كابوك. جثا أناتول بجانب رأسي ومسّد شعري.

«يجب أن تنهضي. لقد هبط الظلام والمكان رطب وبارد هنا، وقد ذهب أولادنا الأذكياء وتركونا».

رفعت رأسي وبحثت عن السيارة التي اختفت عن أنظارنا. كان هناك شيء أريد شرحه لأناتول، لكنّي لم أعد أكترث به وأنا في ذروة التقلّصات. كانت الشجرة فوقنا مباشرة، ودائرة فروعها تنبثق من الجذع الشاحب الضخم. عددت الفروع كما لو كانت أرقاماً مرسومة على واجهة ساعة، ببطء، رحت آخذ نفساً عميقاً مع كلّ رقم. سبعة عشر. دقيقةٌ طويلة جداً، ربّما ساعة. ثم خفّت التقلّصات.

قلت له: «أناتول، أريد أن ألد هذا الطفل هنا، والآن!».

«أوه، بينيه. إنكِ لا تتحلّين بالصبر أبداً!».

قاد الأولاد السيارة قليلاً، ثم توقّفوا ورجعوا إلى الوراء، بفضل الله ومارتن-لوثر الذي أخفق في إقناع شقيقيه بأن يقود السيارة، وكان ينفّخ

ناظراً من النافذة الخلفية عندما بزغ الفجر، فصرخ بأخيه أن يتوقّف: «انتظر، انتظر، لا بدّ أن ماما ستلد الطفل!».

أخذ أناتول يرمي الأشياء الموجودة في السيارة من حوله بجنون، قبل أن يعثر على حصيرة من عشبة الفيل وبعض القمصان (على الأقل كان معنا في السيارة كلّ الأشياء اللازمة وكانت نظيفة). جعلني أنتصب في جلستي ليدسّ هذه الأشياء تحتي. لا أتذكّر ذلك. أذكر فقط توتّر فخذيّ، وحوضي مقوّس إلى الأمام بذلك الدافع المدوّي المفاجئ الأقوى بكثير من أيّ رغبة إنسانية أخرى - الحاجة إلى الدفع. سمعت زئيراً أظن أنه انبعث مني، ثم أصبح ناتانييل معنا هنا ملوّثاً بالدم قميصَ أناتول الأبيض النظيف، وباني قديماً ناعماً موشّى بطيور صفراء.

أطلق أناتول ضحكة، وراح يقفز إلى الوراء راقصاً رقصة التهنئة. لم يكن قد مضى عام على إطلاق سراحه من معسكر هاردي، لذا يمكنه أن يقدّر بعمق توق ابنه للخروج من سجنه الانفرادي. لكن الوليد كان ضعيفاً. ثم قرّر أناتول على نحوٍ قلق أن يقود السيارة في الظلام، بينما تكوّرت حول طفلنا الرضيع في المقعد الخلفي، واعتراني خوفٌ شديد عندما أدركت أنه لا يريد أن يرضع.

وعندما وصلنا إلى كيمڤولا بدا أنه مصاب بالحمّى، وهزل سريعاً فأصبح صرّةً صغيرة هامدة مكوّنة من عظام يكسوها جلد وجمجمة عجفاء عليها جلد رقيق. حتى إنه لم يبكِ. ومرّت الأيام والليالي التالية بسرعة شديدة بالنسبة لي لأنني كنت مرعوبة أن أُنزله من يدي، وكنت أنام وأنا أضمّه إليّ، خوفاً من أن ينسلّ من بين يدي. وبدأنا أنا وأناتول نتناوب على هزّ جسده الصغير الناحل، نكلّمه، نحاول أن نغريه ليعيش في هذا العالم. وأصرَّ مارتن على أن يأخذ دوره أيضاً، فأخذ يهزّه أيضاً ويهمس بأسرار الأولاد قرب البطانية الصغيرة المنقّشة. لكن كان من الصعب إقناع ناتانييل الذي توقّف

عن التنفّس تماماً مرّتين، وكان أناتول ينفخ في فمه، ويدلّك صدره إلى أن يشهق بصوتٍ خافت ويعود.

بعد أسبوع بدأ يأكل، وبدا غير نادم على قراره بالبقاء معنا. لكن خلال ذلك الأسبوع الأول الفظيع من حياته، شعرت بأني مضناةٌ بتعاسات جسدٍ منهك وروح تائهة. يمكنني أن أتذكّر أنني وعدت إلهاً أو آخر، أكثر من مرة، بأنني لو استعدت أناتول فلن أطلب شيئاً آخر على هذه الأرض. لكني عدت أقرع باب السماء الآن، قرعاً يائساً، من فتاة يمكنها أن تحصي عدد السنوات منذ آخر مرة شعرت فيها بأيّ وجود حقيقي على الجانب الآخر من ذلك الباب.

في إحدى الليالي، كنت جالسةً على الأرض، متزعزعة، بلا نوم، مشوّشة من شدّة الإعياء، أحتضن هذا الحطام البريء للطفل الرضيع، وبدأت أتحدّث بصوت مرتفع. تحدّثت إلى النار: «أيتها النار، أيتها النار، أيتها النار، أرجوك أبقيه دافئاً! كلي كلّ الحطب الذي تحتاجين إليه وسأجلب لك المزيد، لكن لا تنطفئي، لا تجعلي هذا الجسد الصغير الذي أحبّه كثيراً يبرد!». قلت ذلك بالإنكليزية. كنت متيقّنة من أنني فقدت صوابي تماماً. تحدّثت إلى القمر في السماء، وإلى الأشجار في الخارج، تحدّثت إلى أجساد أناتول وباتريس ومارتن النائمة، وأخيراً إلى إبريق الماء المعقّم المغلي، وتحدّثت إلى القطّارة الصغيرة التي كنت أستعملها كي لا يصاب ابني بالجفاف. وتشكّلت لديّ فجأة ذاكرة كاملة عندما كانت أمي تجثو وتتحدّث –تصلّي كما أظن– إلى زجاجة المضادات الحيوية عندما كانت روث ماي مريضة جداً. استطعت بالفعل سماع أنفاس أمي وكلماتها. يمكنني أن أتخيّل وجهها بوضوح شديد، وأحسّ بذراعيها حولي. صلّيت أنا وأمي معاً من أجل كل ما لدينا. وكان هذا كافياً!

لو كان الله أحداً يفكّر بي، فيجب عليه أن يفكّر بي كأمّ. مجنونةُ بحثٍ

عن الطعام والملاذ، مجنونة تماماً من أجل الحبّ، هذه هي الأم بالتعريف. أولادي كلّهم يصيحون «سالا مبوته» وهم يخرجون من الباب، بعيداً عن ملاذي ونصيحتي لكنهم لا يهربون من حبّي أبداً.

ذهب باسكال إلى أبعد مكان -يعيش في لواندا منذ سنتين حيث يدرس هندسة البترول- وأعتقد بصدق أنه يلاحق الفتيات. يذكّرني كثيراً بسميّه، صديقي القديم، الذي كانت له عينان واسعتان مثل عينيه، ويسأل السؤال المثير نفسه الذي يبرز مثل بيضة طازجة صباح كلّ يوم جديد: «بيتو نكي تو تاسالا؟ ماذا عسانا نفعل؟».

أما باتريس فهو على عكس أخيه تماماً: مجتهد، رصين، ونسخة جسدية طبق الأصل عن أبيه. يريد أن يدرس الحقوق ليصبح وزيراً للعدل في إفريقيا مختلفة تماماً عن إفريقيا الحالية. أحسّ بوهن في ركبتَيّ من الخوف والإعجاب، أراقبه وهو يشحذ آماله. أما مارتن لوثر فقد كان أكثر دكنةً، في بشرته ومزاجه، في الثانية عشرة من عمره، يتأمل، ويكتب الشعر وينشره في إحدى المجلّات مثل بطل والده: أغوستينو نيتو. إنه يذكّرني بخالته إدا.

نعمل هنا في كيمفولا مع مزارعين في مشروع لزراعة فول الصويا، محاولين إنشاء جمعية تعاونية - مركز متقدّم صغير لنحصل على محصول يكفينا في بطن الوحش موبوتو. ربما لا جدوى من ذلك، لأنه إذا لفتت الحكومة رياحُ أيّ نجاح هنا، فإن وزير الزراعة سوف يمحينا من الوجود. لذلك نحن نزرع آمالنا بهدوء في الغابة هنا، على بعد كيلومترات فقط من الحدود مع أنغولا، عند نهاية طريق فظيع لن يجازف جواسيس موبوتو بسياراتهم الفارهة للمجيء إليه.

نحسب نجاحاتنا الصغيرة من يوم إلى آخر. أعاد أناتول تنظيم المدرسة الثانوية التي كانت في حالة انهيار تام منذ عشر سنوات - تكاد لا تجد شاباً في هذه القرية يستطيع القراءة. وأنا كنت مشغولة بابني تانييل المفترس الذي

كان يرضع ليل نهار، محمولاً على الحمّالة المعلّقة على كتفي، حتى لا يضطر إلى التوقّف عن الأكل أثناء غلي حفّاظاته. وبتوجيه من أبيهما كان باتريس ومارتن يعلّمان الفرنسية والرياضيات على التوالي، مع أنّ ذلك كان يجعل مارتن مسؤولاً عن صِبية يكبرونه سناً. وكنت سعيدة لأنني أعيش في وسط أشجار مثمرة، وعدت أطهو الطعام على الحطب مرة أخرى. وكنت أرهق من حمل الحطب والماء، لكني أستمتع بذلك، فما أكرهه نوعٌ آخر من الإرهاق: الأخبار عن تجاوزات موبوتو اللامتناهية ورؤية العواقب المروّعة للنهب على المدى الطويل. فقد أصبح الناس هنا، غريزياً، أكثر خوفاً وأقل كرماً مما كانوا عليه منذ عشرين سنة في كيلانغا. لا تزال الجارات يأتين ليقدّمن هدايا صغيرة: موزة أو برتقالة ليمصّها الطفل وتجعلنا نضحك على وجهه المتجعّد، لكن عيونهن كانت تضيق عندما ينظرن حول الغرفة، فبسبب أنهن لم يرين شخصاً أبيض طوال حياتهن، كان يخيّل إليهن أنني أعرف موبوتو وجميع الشخصيات الأميركية الهامة. ورغم احتجاجاتي، فإني أظن أنهن يخشين أن أبلّغ أحداً ما أن لديهن برتقالة زائدة. لا يوجد شيء مثل عيش الإنسان لاجئاً في بلده، لتحويل روح سخية إلى قبضة بخيلة صغيرة. الزائيريون مرهقون حتى الموت، يمكنك أن ترى ذلك حيثما نظرت.

بيتنا هنا من الطين والقشّ، وواسع، فيه غرفتان ومطبخ. بالطبع إنه مكان أكثر سعادة من صندوق الأسمنت والقصدير الذي كنا نحشر فيه كل أحزاننا في كنشاسا. هناك كانت الأنابيب التالفة تتذمّر منا باستمرار مثلما تذمّر الربّ لنوح، مهدِّداً بالطوفان. وأقسم أناتول إنه إذا عاش عشرة آلاف صباح في كنشاسا فلن يعتاد أبداً على التغوّط في وسط بيته. صدقاً، يبدو المرحاض وكأنه عودة إلى الحضارة.

لكن حياتنا في هذه القرية تبدو مؤقّتة. فقد كنا نضع قدماً على الحدود داخل الأرض الموعودة، أو ربما داخل القبر. كانت خطّتنا تتمثّل في أن

نجهّز سيارتنا مرة أخرى ونسافر إلى سانزا بومبو في أنغولا، بأسرع ما يمكن ذلك، حيث سنعمل في بلد مستقل وجديد، تتشابه آماله مع آمالنا. إننا نميل نحو أنغولا منذ عشر سنوات – لأن الفرصة أتيحت لأناتول بأن يعمل في الحكومة الجديدة هناك في عام 1975، بعد أن أُبرمت المعاهدة التي نصّبت نيتو رئيساً. لكن أناتول لم يكن مستعداً بعد للتخلي عن الكونغو. ثم مات نيتو وهو شاب. وفي عام 1982، تلقى دعوة أخرى من الرئيس الثاني، خوزيه دوس سانتوس، لكن أناتول لم يستطع قبول تلك الوظيفة لأنه كان آنذاك في غرفة لا تزيد مساحتها على مترين مربّعين، برفقة سطل غائطه، في سجن تأديب ثيسڤيل.

لا أظن أن أناتول نادم على أشياء كثيرة، لكنّه كان سيفخر بالعمل مع نيتو أو مع دوس سانتوس. فبفضل هذين الرجلين الرائعين، إضافةً إلى عدد لا يحصى من الذين لقوا حتفهم في الطريق، ناضلت أنغولا وتحرّرت من البرتغال، واحتفظت بالماس وآبار النفط. ولا تقدّم الصناعة في أنغولا رشوةً للأجانب، ولا تدعم بناء قلاع محاطة بخنادق مائية، وربما سيحصل الأطفال على اللقاح ويتعلّمون القراءة. لكنهم ظلّوا بالطبع يعيشون في فقر مدقع، ودفعوا ثمناً باهظاً للمحافظة على ماسهم ونفطهم. لم يتوقّع أحدٌ منا ما حدث هناك. خاصةً نيتو، الطبيب والشاعر الشاب الذي قصد فقط حماية شعبه من أمراض الندوب، مثل الجدري والإذلال. ذهب إلى الولايات المتّحدة لطلب المساعدة، لكنه طُرد، فعاد إلى بلده وحاول الاعتماد على نفسه في إسقاط الحكم البرتغالي وخلق شعب أنغولا. ثمّ حظي باهتمام الأميركيين، وهو في الوقت الحالي: شيطانٌ شيوعيّ.

قبل عشر سنوات، عندما تلقى أناتول الرسالة الأولى الممهورة بالختم الرسمي الجديد لرئاسة أنغولا المستقلة، بدا أن الأحلام يمكن أن تتحقّق. فبعد ستّمئة سنة من النزاع في ما بينهم وبضعة قرون من النذالة البرتغالية،

وافقت القبائل الأنغولية المتصارعة أخيراً على خطة سلام. أصبح أغوستينو نيتو رئيساً للجمهورية، في بلد إفريقي تحرّر فعلاً من الحكم الأجنبي. أوشكنا على حزم أغراضنا والذهاب في ذلك اليوم بالذات. كنّا مستميتين لننقل أبناءنا إلى مكانٍ يمكن لهم فيه أن يذوقوا -إن لم يكن الطعام- فعلى الأقل طعم الأمل.

لكن بعد مضيّ أسبوعين على إبرام اتفاقية السلام، انتهكتها الولايات المتّحدة التي نقلت جوّاً شحنة ضخمة من الأسلحة إلى زعيم معارضة تعهّد بأن يقتل نيتو. وفي اليوم الذي سمعنا فيه ذلك، جلست أبكي في مطبخنا، يملؤني الشعور بالخزي والغضب. وجاء باتريس وجلس على الأرض بجانب الكرسي الذي أجلس عليه، وربّت على ساقي بصبرٍ رزين، ليُظهر الشخصية الجادة لطفل صغير، وقال: «Mama, Mama, ne pleure pas. Ce n'est pas de la faute de Grand-mère, Mama» (ماما، ماما، لا تبكي، فهذا ليس ذنب جدتي) حتى إنه لم يخطر له الربط بيني وبين العار الأميركي على الإطلاق، وظنّ أنني غاضبة من أمي وإدا. نظر إليّ بوجهه الصغير الضيّق وعينيه اللوزيتين، وتذكّرت والده عندما قال لي منذ سنوات وسنوات: «ليس أنت، يا بينيه».

لكن من له علاقة، إن لم يكن أنا؟ وإلى كم جيل يجب أن يغفر لنا أطفالنا؟ فقد قتلنا لومومبا، وأبقينا موبوتو في السلطة، وها نحن نعيد الكرّة في أنغولا - تبدو هذه الأشياء مجرّد مؤامرات بين الرجال، لكنّها في الواقع خيانات للأطفال من قبل الرجال. وقد أخبرني أناتول مؤخراً أن الولايات المتّحدة أنفقت ثلاثين مليون دولاراً لإسقاط سيادة أنغولا. لا بدّ أن كلّ دولار منها جاء من جيب أحدهم، سوءا أكان رجلاً أم امرأة. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ أظن أنهم يرون أن هذه تجارة. مواد، ومتفجّرات بلاستيكية وألغام أرضية تتطلّب أحداً ليصنعها، أم أنها تجارة المخاوف المتخيّلة؟ فقد

كانت ربّات البيوت في بيت لحم مقتنعات بطريقةٍ ما بأنّ شيطاناً شيوعياً أسود يقبع في مكان بعيد سيؤذيهن وهنّ قابعات في غرف جلوسهن ذات الألوان المتناسقة.

لكن ما الذي يمكن أن يعني لهم أن الكوبيين كانوا الوحيدين الذين استجابوا لطلبات نيتو المستميتة للمساعدة بعد خرق المعاهدة؟ هلّلنا، وراح الصبية وأناتول وجيراننا يقفزون فرحاً ويصيحون في باحة بيتنا، عندما سمعنا في المذياع أن الطائرات وصلت إلى لواندا وعلى متنها معلّمون وممرّضات، وفيها صناديق مليئة بلقاح الجدري. تخيّلنا أنهم سيحرّرون أنغولا ويعبرون نهر الكونغو لتلقيحنا جميعاً.

قالت لي راشيل إن المؤامرة الشيوعية غسلت دماغي. إنها محقّة تماماً. فقد وقفتُ إلى جانب المعلّمين والممرّضات، وفقدت كلّ الولاء للمتفجّرات البلاستيكية. لا يمكنني أن أتصوّر أن بلدي يمكن أن يفجّر السدود الكهرومائية في بلد مكافح بعيد، وأنابيب المياه، ويخترع الظلام والزحار من أجل خدمة مُثُله العليا، ويزرع الألغام في جميع الطرق عبر أنغولا، هذه الطرق التي توصل الطعام إلى الأطفال الجائعين. رحنا نراقب الحرب مليئين بالخوف والانفعال، عارفين ما الذي سنخسره: كونغو أخرى. فرصة ضائعة أخرى تجري مثل ماء مسمّم تحت إفريقيا، تكوّر أرواحنا في قبضات.

فعندما لم يعد لدينا أمل في شيء، رحنا نميل نحو أنغولا وننتظر، بينما أصبح الماضي المتراكم ثقيلاً، وبدأ مستقبلنا يضيق مثل شقٍّ في باب. كنّا واقفين على الحدود مع كلّ ما قد نحتاج إليه لتحديد مصير نهائي يتجمّع حولنا. توجد لدينا الأسرّة الصغيرة، والطاولة والكراسي التي حصلنا عليها في كنشاسا، وعدد من الكتب الزراعية وأدوات تعليم أحضرناها من بيكوكي، وحقيبتي القديمة التي توجد فيها كنوز الأسرة التي جُلبت من

كيلانغا. حتى إن أناتول احتفظ بالكرة الأرضية التي كنت قد قدّمتها له هديةً بمناسبة زفافنا، وقد رسمت على الكالاباش بيدي عندما كانت الراهبات يصلّين التاسوعية. الراهبات اللواتي كانت توجد في مكتبتهن الغريبة روايات سانت إكسوبيري، لكن لا يوجد فيها شيء علماني مثل أطلس العالم، لذلك كان عليّ أن أرسمها من الذاكرة. في ما بعد استخدمها أبنائي مثل كرة عرّافي الكفّ، محاولين التنبؤ بمصير العالم من خلال خطوط الطول ومنحنيات الأنهار. وبمعجزة قاومت الكرةُ الرطوبةَ وتنقّلاتنا الكثيرة، مع عدد قليل من الأرخبيلات غير المبررة من العفن الرمادي تشكّلت فوق المحيطات. كان أناتول يحبها كثيراً، ومن الغريب أنني كنت أول شخص يحدّثه عن شكل عالمنا. لكني عندما أراها على منضدته أُدهش لأنني نسيت أشياء كثيرة عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري، مثل بحر قزوين وسلاسل جبال الأورال ودول البلقان، وجبال البيرينيه، مناطق كاملة اختفت نتيجة إهمالي. لكن بالمقارنة مع أوروبا والأميركتين فإن شكل الكونغو وحجمها كانا صحيحين تماماً. كنت عازمةً آنذاك، على ما أظن، أن أعامل إفريقيا بإنصاف.

لم نتغيّر، لا نزال كلّنا أولئك الأطفال الذين كنّا عليهم، وخططنا السرية مخبّأة في قلوبنا، لا نقولها حتى لأنفسنا. أظن أن خطة أناتول أن يعيش عمراً أطول من موبوتو، ويعود عندما يصبح بإمكاننا الوقوف فوق هذه التربة لنقول: هذا «وطننا»، دون أن نتذوّق طعم أوراق الذهب التي تكسو الثريات وطعم الجوع المرّ الذي يحرق ألسنتنا. وأظن أن خطتي كانت أن أخرج من البيت ذات يوم دون أن أُوسم بأنني بيضاء، وأمشي فوق أرض حنونة برفقة روث ماي، دون أي ضغينة لأحد. لعلّي لن أتمكّن أبداً من التحرر من بحثي اليائس عن التوازن، ولن أكفّ أبداً عن الإيمان بأن الحياة ستصبح عادلة، عندما نستطيع محو كل الأخطاء التي سبّبتها الأحكام المضلّلة، مثل الملاريا

التي لم تبارح جسدي قطّ، وما زالت تسري في دمي. أتوقّع أن تُكافأ الطيبة، وأنتظر فأس العقاب حتى يسقط فوق الشرّ، على الرغم من أني كنت أهتزّ في مهد الشرّ المُكافأَ والطيبة التي تُجرَّم طوال سنوات. فقط عندما أشعر بأنني سئمت الحياة بوجهها الحالي، أستيقظ فجأة وقد استولت عليّ الحمّى، وألقي نظرة على العالم من حولي، وأفغر فمي من كمّ الأشياء التي سارت في الطريق الخاطئ والتي يجب إصلاحها. أظن أنني أحببت والدي كثيراً لدرجة أنني لا أستطيع الهروب من أن أرث جزءاً من رؤيته على الأقل.

لكن التدرّب على التحدّث بلغة غنية ومنغّمة مع جيراني خفّفت صوته في أذني، وصرت أسمع الآن، تحت سطح كلمتَي صواب وخاطئ، العديد من المعاني المحتملة تتلألأ. اعتدنا أن نشعر بالحيرة من كلمات لغة الكيكونغو المتعددة المعاني: بانغالا هو الأغلى، أو أكثر شيء لا يطاق، وهي أيضاً شجرة الخشب السام. هذه الكلمة بالتحديد حطّمت عظات الأب لأنه كان ينهي موعظته كل مرة بالصراخ: «تاتا المسيح بانغالا».

في ذلك الوقت، عندما كانت راشيل تُخرج كلماتٍ من العدم لتعني بها ما تريد، وتخترع روث ماي كلماتها الخاصة، كنت أنا وإدا نحاول حلّ لغز كيف أن كلّ ما كنت تظن أنك تعرفه يعني شيئاً مختلفاً في إفريقيا. كنا نشعر بالقلق من كلمة نزولو، فهي تعني شخصاً محبوباً، أو يرقة بيضاء تُستخدم طُعماً للسمك، أو رقية خاصة لدرء الزحار، أو القليل من البطاطا. ونزولي هي الباني المزدوج الحجم الذي يُلفّ حول شخصين معاً. وبدأت أرى أخيراً مدى ترابط هذه الأشياء. ففي مراسم الزواج يقف الزوج والزوجة معاً يلفّهما نزولي بإحكام ويمسك أحدهما بيد الآخر باعتباره الشخص الأثمن: نزولاني. ثمين كما هي البطاطا في بداية الموسم، عندما تكون صغيرة وحلوة مثل الفول السوداني في جورجيا؛ ثمين مثل أسمن اليرقات التي تُستخرج من باطن التراب لاصطياد أكبر سمكة؛ والرقية الأكثر قيمة

للأمهات لأنها تدرأ الزحار عن أطفالهن، فيها جزء من جميع الأشياء التي تستدعيها كلمة نزولو: يجب أن تحفر وتجفّف اليرقات والبطاطا، ثم تربطها بخيط من قماش زفافك، ويباركها الطبيب الساحر نغانجا في النار. فقط باستخدام أغلى الأشياء في الحياة يمكنك أن تحمي أطفالك، وهذا ما أؤمن به بالتأكيد.

أُطلق على جميع أبنائي الذين لونهم بلون الفستق البني: نزولاني، أقولها وطعم السمك والنار والبطاطا الطازجة في فمي. لا يوجد أي احتمال آخر للمعنى الآن.

«كلّ شيء تكونين واثقةً بأنه صواب قد يكون خاطئاً في مكان آخر، خصوصاً هنا»، أقول ذلك مراراً عندما أغلي الحفّاظات في بيت المطبخ وأخوض مع راشيل الغائبة جدالاتي المتخيّلة (التي لا تختلف كثيراً عن المناقشات التي كانت تدور بيني وبين راشيل شخصياً).

إنها تذكّرني مرة أخرى بالتهديد الشيوعي. أخرج لأفرّغ دلو الماء، وألوّح لجارتي التي تغلي الفول السوداني في غطاء إطار سيارة قديم. أجفلنا كلتانا عندما سمعنا صوت عجلات سيارة قادمة. خفنا أن تكون سيارة مرسيدس سوداء يقودها أصحاب الخوذ الزرقاء، نوّاب موبوتو، جاؤوا ليأخذوا حصادنا القليل من أجل تمويل بناء قصرٍ جديد. ثم تذكّرت فجأة، من أيام الطفولة، أول تعريف متلعثم لي عن الشيوعية قلته لأناتول: إنهم لا يخافون الله، ويقولون إن على الجميع أن يسكنوا في بيوت متشابهة.

من المكان الذي أقف فيه، يا أختاه، من الصعب فهم التهديد.

أعيش في بيت صغير جداً مزدحم بالأطفال والبطاطا والأصنام وكتب العلوم وقطعة قماش العرس وخريطة متداعية للعالم، وحقيبة جلدية قديمة من الذكريات - تراكم متزايد من الماضي يزاحم مستقبلنا الذي يتقلّص باستمرار. وكاد انتظارنا ينتهي. لقد استغرق عشر سنوات وبدا كأنه معجزة،

لكن الأميركيين بدؤوا يخسرون في أنغولا. لا تزال ألغامهم الأرضية منتشرة في جميع أنحاء البلد، تبتر ساق طفلٍ أو ذراعه كلّ يوم، وأعرف ماذا يمكن أن يحدث لنا لو سافرنا على تلك الطرق. في أحلامي لا يزال عندي أمل، ولكن في الحياة، لا يوجد ملاذٌ آمن. حتى لو اضطررت للقفز طوال الطريق على قدم واحدة، سأجد مكاناً يمكنني أن أدّعي أنه بيتي.

الكتاب السادس

أغنية الأطفال الثلاثة

كلّ ما جلبته علينا

وكلّ ما فعلته بنا،

فعلته بعدل...

خلّصنا بطريقتك المذهلة!

أغنية الأطفال الثلاثة، 7-19

الأبوكريفا

راشيل برايس

الإكواتوريال

سأحظى إلى الأبد بالإطراء على بشرتي النقية، التي لا شائبة فيها، لكن دعوني أُفضِ لكم بسرٍّ صغير: إن المحافظة على البشرة هكذا يتطلّب جهداً كبيراً جداً.

يا إلهي! لا شيء يضاهي بلوغك الخمسين من عمرك لجعلك تشعرين بأنك بلغت المئة. لا يعني ذلك أنني كنت على وشك وضع الشموع في قالب الكيك وإحراق المكان كلّه. أمضيت اليوم كلّه بصمت، من دون إخبار أحد على الإطلاق. أغلقت باب المشرب على نفسي، وجلست مع باكيت سجائر «لاكي سترايك» وصندلي يتدلّى من إصبع قدمي، ألقي نظرةً على هذا اليوم وأراه على أنه مجرّد يوم مثل أيّ يوم آخر، لكن من المؤكّد أن الأيام تمنح الإنسان بعض التعويضات.

هل فكّرت يوماً أن المطاف سينتهي بي هنا وأنا متقدّمة في العمر؟ لم أفكّر إطلاقاً في أن يحدث ذلك. لكن ها أنا ذا هنا الآن. تخلّيت عن زيجات، ونجوت من زيجات أكثر مما يمكن عدّه، لكنني لم أغادر القارّة السوداء. فقد استقرّ بي المقام هنا، وأصبحت مثل العصا التي غُرزت في الطين، ولم أرغب حتى في الخروج! الأسبوع الماضي اضطررت إلى قيادة سيارتي إلى برازافيل لطلب بعض المشروبات الكحولية، لأنني -صدقاً- لم أجد سائقاً جديراً بالثقة يمكنه العودة مع الخمور والسيارة ما تزال قطعة واحدة سليمة.

لكن كان هناك فيضان، وسقطت شجرتان في منتصف الطريق. وعندما وصلت أخيراً، قبّلت أرضية الحانة. أقسم إنني فعلت ذلك. قبّلتها لأنني كنت ممتنّةً أنها ما تزال هنا، لأنني أشعر بالقلق دائماً من أن يفرغ موظّفيَّ كل لوح في هذا المكان عندما أكون بعيدة. لكن حتى الآن، كل شيء يسير على ما يرام.

على الأقل يمكنني القول إنني شخص يستطيع النظر حوله ورؤية ما أنجزه في هذا العالم. لا أقول ذلك بدافع التفاخر لكني استطعت إنشاء عملي الخاص. أنا صاحبة القرار هنا. قد تكون هناك بضعة عيوب صغيرة في أعمال السباكة وخلافات بسيطة بين العاملين، لكنني واثقة تماماً من الخدمة التي أقدّمها.

كنت قد وضعت لافتة صغيرة في جميع الغرف أخبر فيها النزلاء بأنهم يستطيعون تقديم شكاواهم إلى المكتب بين الساعة التاسعة والحادية عشرة من صباح كل يوم. لكن هل سمعت من أحد أيّ شكوى؟ لا. فأنا أدير المكان بحزم، ويجب أن أفتخر بذلك. وثانياً، لقد كسبت مالاً كثيراً. وثالثاً، ليس هناك وقت للشعور بالوحدة. وكما قلت، الوجه القديم نفسه في المرآة، امرأة في الخمسين من عمرها، ولا تبدو أنها في التسعين. ها، ها، ها!

هل فكّرت يوماً في الحياة التي افتقدتها في أميركا القديمة الطيّبة؟

سيكون ردّي على ذلك إني أفتقدها كلّ يوم: الحفلات، السيارات، الموسيقا، طريقة الحياة الأميركية الخالية من الهموم كلها. لقد فاتني أن أكون جزءاً من شيء يمكنك أن تؤمن به حقاً. عندما حصلنا على تلفزيون أخيراً هنا، بدؤوا يعرضون في الساعة الرابعة بعد ظهر كلّ يوم، ولفترة طويلة، مسلسل «ديك كلارك» ومسلسل «أميركان باندستاند». كنت أغلق باب المشرب عليّ، وأجهّز لنفسي كأساً مزدوجاً من مشروب سنغافورة سلينغ، وأجلس وبيدي مروحة ورقية يتملّكني حزنٌ عميق حتى يكاد يغمى

عليّ. أعرف كيف أصفّف شعري مثل هذه التصفيفات. لو كنت هناك، فسأكون قادرة حقاً على فعل شيءٍ ما.

إذاً، لماذا لا أعود؟ حسناً، لقد فات الأوان الآن، بالطبع. فلديّ مسؤوليات كثيرة. في البداية كان يربطني زوج ثم زوج آخر، ثم جاء الإكواتوريال، وهو ليس مجرّد فندق، بل تشبه إدارته إدارة بلد صغير كامل، إذ يريد كلّ شخص فيه أن يهرب بقطعةٍ ما منه في اللحظة التي أدير فيها ظهري. وحين أتخيّل أغراضي متناثرة فوق التلّ وأسفل الوادي في الغابة، وطنجرة الضغط الفرنسية الغالية الثمن متفحّمة من غلي المانيوك على نار نتنة، وأسطح المناضد المطلية بالكروم اللامع الجميل قد انتهى بها المطاف لتصبح سقف كوخ أحدهم... لا، شكراً! لا يمكنني تحمّل الفكرة. تنجز شيئاً ما، وتمضي بقية حياتك تكدح كي لا يذهب عملك سدى. شيء يفضي إلى شيء آخر، ثمّ تجد نفسك قد غرقت تماماً.

منذ سنوات، عندما بدأت الأمور تسوء بيني وبين أكسلروت، كان هذا على الأرجح الوقت المناسب لأعود إلى أميركا. فلم يكن عندي شيء أستثمره في إفريقيا آنذاك إلّا شقّة مخدع صغيرة قديمة زيّنتها بلون وردي مائل إلى الحمرة بأفضل ما يمكنني. في ذلك الحين، كان بإمكاني أن أقنعه بالعودة إلى تكساس التي يُفترض أن له فيها بعض الارتباطات، بحسب جواز سفره الذي اكتشفت لاحقاً أنه مزوّر. الأفضل من ذلك: كان بإمكاني أن أعود وحدي. اللعنة! كان باستطاعتي أن أخرج من الباب دون أن أودّع أحداً، لأنه إذا أردنا التكلّم بدقّة فقد كنا متزوّجين بالمعنى التوراتيّ فحسب. حتى في ذلك الحين، كنت أعرف بعض الرجال المحترمين من ذوي المناصب العالية الذين كان بإمكانهم مساعدتي في الحصول على بطاقة طائرة، وبعد ذلك بلمح البصر سأكون قد عدت إلى بيت لحم، لأعيش في كوخ مع أمي وإدا، يغمرني شعور بالخزي والخجل. فأنا متأكّدة من أنني

سأسمعهما تقولان لي: لقد قلنا لك ذلك عن أكسلروت. لكنّي ابتلعت كبريائي قبل ذلك، هذا أمر مؤكّد. لقد فعلت ذلك مرات عديدة، فعملياً أنا مبطّنة بأخطائي من الداخل، مثل حمّام عليه ورقُ جدرانٍ سيّئ.

كنت قد حزمت حقائبي أكثر من مرة. لكن عندما يحين وقت الرحيل كان الخوف يتملّكني دائماً. من ماذا؟ حسناً، يصعب عليّ أن أفسّر ذلك. باختصار كنت أخشى ألّا أتمكّن من التأقلم هناك بعد كل هذا الوقت. فقد كنت في التاسعة عشرة أو في العشرين من عمري آنذاك، وكنت سأرى صديقاتي في المدرسة الثانوية ما زلن يتشاجرن من أجل الفتيان، ويسعين للحصول على عمل توصيل الطلبات ضمن مطاعم A&W، وكل ما يعرفنه عن الحياة الصعبة هو التنافس في مسابقة ملكة الجمال، ثم تأتي راشيل بشعرها الأشعث الملوّث وقد تركت وراءها أختاً ميّتة وزواجاً فاشلاً، والكثير من الصعوبات. فضلاً عن الحديث عن الكونغو. إن تشرّدي الطويل في الطين تركني منهكة وحكيمة للغاية بحيث لم يعد ممكناً تعايشي مع أولئك المراهقات.

«كيف هي الأحوال هناك؟» يمكنني أن أسمعهن يسألنني. ماذا عساي أقول؟ «حسناً، كاد النمل يأكلنا ونحن أحياء. وقد مات جميع من عرفناهم بسبب مرض أو بسبب شيء آخر. ويصاب جميع الأطفال هناك بالإسهال وتجفّ أجسامهم، وعندما نجوع، كنا نذهب ونصطاد الحيوانات ونسلخ جلودها».

لنواجه الأمر، ما كان من الممكن أن أحظى بالشعبية مرة أخرى في بلدتنا. فلن يكلّمني أولئك الذين كانوا أصدقائي بمجرّد أن يشتبهوا في أنني قد تبرزت خلف شجيرة، وإذا أردت أن أنسجم معهم كان عليّ أن أتظاهر، وأنا لا أجيد التمثيل. لطالما كانت ليا جيّدة في ذلك - فقد كان يسهل عليها دائماً التظاهر لإرضاء أبي، أو معلّميها، أو الله، أو ربّما لتثبت فقط أنها

تستطيع فعل ذلك. وبالطبع كانت إذا تتظاهر طوال سنوات وسنوات بأنها لا تستطيع الكلام، من منطلق العناد المطلق وحسب. لكن عندما يتعلّق الأمر بي فإني لن أتذكّر إطلاقاً من حاولت أن أكون، وقبل أن ينقضي النهار أكون قد نسيت ما يجب أن أتظاهر به، ورحت أبدي مشاعري الحقيقية.

هذا استطراد خارج الموضوع الأساسي بالطبع، لكن أتعرفون من الذين كنت أشعر بالتعاطف معهم أكثر من الجميع؟ أولئك الجنود الشبان الذين عادوا إلى أميركا بعد حرب فيتنام. قرأت عن ذلك. كان الجميع يصيحون: «السلام، يا أخي!». فقد ذهبوا إلى الغابة ورأوا الفطريات تلتهم الجثث. أعرف تماماً كيف كانت مشاعرهم.

شخصياً، لا أريد ذلك. فأنا من ذلك النوع من الأشخاص الذين لا ينظرون إلى الوراء أبداً. وقد حققت نجاحاً بنفسي. لقد أتيحت لي فرص كثيرة كامرأة واكتسبت خبرة واسعة. فقد كنت زوجة سفير -تخيّلوا ذلك- أما الفتيات في بيت لحم فلا بدّ أنهن قد تقدّمن في العمر الآن وشابت شعورهن، وهنّ منشغلات بأعباء المنزل كل النهار، يجرين وراء أبنائهن أو حتى أحفادهن، وما زلن يتمنّين أن يكنّ بريجيت باردو، بينما كنت أنا أعيش مع أناس في السلك الديبلوماسي.

لم أتمكّن قطّ أن أنجب أطفالاً، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يؤسفني، فقد عانيت بعض المشكلات النسائية السيّئة بسبب عدوى نقلها لي إيبين أكسلروت. كما قلت: لقد دفعت ثمناً كبيراً معه.

مع ذلك، لا توجد لحظة واحدة مملّة هنا في الإكواتوريال. ومن يحتاج إلى أطفال عندما يكون لديك قرود تتسلّل إلى غرفة الطعام لتسرق الطعام من أطباق ضيوفك؟! لقد حدث ذلك أكثر من مرة. ومن بين الحيوانات المتنوّعة التي أحتفظ بها في أقفاص ضمن الحديقة، يوجد عندي أربعة قرود وثعلب بأذنين طويلتين، وعندما ينظّف الفتى الأقفاص، عليه أن يكون

حذراً، لأنها ستهرب عند أدنى سهو، وتبدأ بالصراخ والركض في أرجاء المطعم. يجري الثعلب المسكين لينجو بحياته. لكن القرود تنحرف بسهولة شديدة عندما ترى بعض الفواكه طازجة، حتى إنها تتوقّف لانتزاع قنينة بيرة وشربها. وفي إحدى المرات عدت من السوق ووجدت قردين من قرود الفرفت الصغيرة، الأميرة غرايس والجنرال ميلز، يترنّحان من شدّة السكْر فوق إحدى الطاولات، بينما كان عدد من مزارعي البنّ الألمان يغنّون لهما: «دحرجوا البرميل». حسناً، يمكنني التساهل مع تلك الأوقات الجيّدة التي يكون فيها ضيوفي سعداء، إذ يعتمد عملنا على ذلك. لكني طلبت من هؤلاء السادة أن يدفعوا لي تعويضاً عن الضرر الذي لحق بالصالة.

وبين الحين والآخر، تتوقّف في فترة ما بعد الظهر مجموعة من الرفاق الرجال في جولة لمشاهدة المناظر الطبيعية، ويأخذون انطباعاً خاطئاً عن فندقي. يحدث هذا فقط مع القادمين الجدد الذين لا يعرفون الإكواتوريال جيّداً. فيرونني مستلقية بجانب المسبح وجميع المفاتيح معلّقة في سلسلة حول رقبتي، ويرون الطهاة الشبان الوسيمين وعاملات التنظيف في أثناء فترة الاستراحة مسترخين على جدار الفناء بين أزهار الجيرانيوم. واحزروا ماذا: يظنون أنني قوّادة تدير بيت دعارة. حسناً، سأخبركم بحقيقتكم، أيها السادة، إذا كان هذا يبدو لكم بيت دعارة، فإن هذا يُظهر حقيقة معدنكم الأخلاقي!

يجب أن أعترف رغم ذلك بأن هذا الأمر مسلٍّ نوعاً ما. فلم أعد شابة كما كنت، لكن حتى لو قلت ذلك، فإنني لا أترك نفسي مهملة على الإطلاق. أظن أنني يجب أن أشعر بالإطراء إذا حاول أحدهم أن يختلس النظر من جدار الحديقة وظنّ أنه يرى إيزابل(*).

(*) زوجة أخاب ملك إسرائيل في سفر الملوك الأول، من العهد القديم. وتستخدم الكلمة مرادفاً للمومس الفاحشة. [م].

يا إلهي، لو رآني أبي الآن، ألن يعاقبني بنسخ الآية؟!

أخشى أن تكون جميع تلك الدروس الدينية التي لُقِّنتها أثناء الطفولة قد انسلّت منّي كما تنسلّ الزبدة الحارة من أطراف الشواية. أتساءل أحياناً ما إن كان أبي العجوز العزيز يتقلّب في قبره (أو في أي مكان يوجد فيه الآن). أنا متأكّدة من أنه توقّع مني أن أكبر وأصبح سيّدة ترتاد الكنيسة واضعةً على رأسها قبّعات صغيرة أنيقة، وتنظّم أعمالاً خيرية. لكن في بعض الأحيان لا تمنحك الحياة فرصاً عديدة كي تصبح إنساناً جيّداً. ليس هنا، على أي حال. حتى أبي تعلّم ذلك بالطريقة الصعبة. فقد جاء قوياً، معتقداً أنه سيُنقذ الأطفال، وماذا فعل سوى أنه خسر أطفاله؟ هذا هو الدرس تماماً. فإذا أخذت بناتك البالغات النشيطات إلى إفريقيا، ألا تعتقد أن بعضهن على الأقل سيتزوّجن أو يبقين هناك؟ لا يمكنك أن تذهب إلى الغابة لتغيّرها كلّها وتجعلها تعتنق المسيحية، دون أن تتوقّع أن الغابة ستغيّرك وستجعلك تعيش على طريقتها. أوه، لقد رأيت ذلك مراراً مع الأشخاص الذين يأتون إلى هنا للعمل. يظن أحدهم أنه سيصبح سيّد إفريقيا، وينتهي به الأمر بأن يجد بدلته الأوروبية المفصّلة مرمية في زاوية البيت مجعّدة، ونصف ذكائه قد عطب من شدّة الحكّ بسبب الطفيليات التي تتغلغل تحت جلده. لو كان الأمر سهلاً كما يظنون لانتهى الأمر، وأصبحت إفريقيا الآن مثل أميركا، والفرق بينهما فقط أنه يوجد هنا عدد أكبر من أشجار النخيل. لكن، بدلاً من ذلك فإن معظمها لا يزال كما كان منذ ملايين السنين. بينما، إذا فكّرت في الأمر، فقد ملأ الإفريقيون أميركا الآن، ويطالبون بحقوقهم المدنية من خلال العصيانات، ويهيمنون على معظم الألعاب الرياضية والموسيقا الشعبية.

منذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها قدماي أرض الكونغو، عرفت أننا لا نستطيع أن نكون في موقع المسؤولية. فقد جُرفنا مع أولئك الذين أخذونا

إلى الكنيسة وهم يرقصون شبه عراة، وقدّموا لنا لحم الماعز الذي لا يزال الشعر عالقاً به، وقلت لنفسي: ستكون هذه الرحلة القصيرة خراب أسرة برايس كما نعرفها.

وكما ترون إنه خطأ أبي الذي حاول أن يحوّل مجموعة كاملة من الناس إلى طريقة تفكيره بالضبط. وكان يقول دائماً: «يا بنات، اخترن طريقكن وتمسّكن بها وتحمّلن العواقب!». حسناً. إذا كان ميّتاً الآن ودُفن في مقبرة فودو إفريقية، أو الأسوأ من ذلك، إذا التهمته حيوانات بريّة، حسناً، آمين! أظن أن هذه هي العاقبة التي يجب عليه تحمّلها.

الطريقة التي أرى فيها إفريقيا، هو أنه ليس من الضروري أن تحبّها، لكن عليك الاعتراف بأنها موجودة هناك. لديك طريقتك في التفكير ولها طريقتها، ولن يلتقي القطاران أبداً. فقط لا تدعها تؤثّر في عقلك. إذا كانت هناك أشياء قبيحة، حسناً، ضع قفلاً متيناً على باب بيتك وتأكّد أنك أوصدته مرّتين قبل أن تأوي إلى الفراش. ركّز على أن تجعل مكانك الصغير مثالياً، كما فعلت أنا، وسترى. ليس من الضرورة أن تجرّك مخاوف الآخرين إلى الأسفل.

أُدهش أحياناً من نفسي حين أفكّر بما مررت به في حياتي، ومع ذلك فما أزال متماسكة. أفكّر أحياناً بأنني أدين بسرّ نجاحي إلى ذلك الكتاب الصغير الذي قرأته منذ زمن بعيد بعنوان «كيف تنجو من 101 كارثة». علاجات بسيطة للمواقف الفظيعة، هذا هو الدرس. فعندما تكون في مصعد يتهاوى، حاول الصعود على الشخص المجاور لك، حتى يحمي جسمه جسمك، أو عندما تكون في مسرح مزدحم ويندفع الحشد إلى منفذ النجاة من الحريق، ادفع مرفقيك بقوة في أضلاع الأشخاص الذين حولك واحشر نفسك بينهم، ثمّ ارفع قدميك كي لا تقع ويدوس الجميع فوقك. هكذا يفقد الناس حياتهم في معظم الأحيان أثناء الاضطرابات والفوضى: يدوس أحدهم على كعب

حذائك، ثمّ يمشي فتقع أنت على الأرض ويدوس فوقك. هذا ما يحدث عندما تقف بثبات، سينتهي بك الأمر مهروساً.

لذلك، هذه هي نصيحتي: دع الآخرين يتدافعون، واندفع أنت مع التيار. وفي النهاية، ستكون الرقبة التي تنقذها هي رقبتك أنت. قد يكون ذلك مخالفاً للمبادئ المسيحية، لكن دعونا نواجه الأمر، فعندما أخطو خارج عالمي الصغير في الليل وأسمع الأصوات المنبعثة في الظلام هناك، فإن ما أشعر به في عظامي هو أنّ هذا المكان ليس مكاناً مسيحياً. إنه إفريقيا الأكثر ظلمة حيث تهدر الحياة بقربك كالفيضان وأنت تتمسّك بأي شيء يمكن أن يرفعك للأعلى.

إذا سألتني، هذا هو الحال وسيظلّ هكذا دائماً. ادفع منكبيك، وارفع نفسك إلى الأعلى!

ليا برايس

سانزا بومبو، أنغولا

«كان ياما كان» - يقول أناتول في الظلام، وأغمض عينيَّ وأحلّق بعيداً عندما يحكي لي تلك القصص. إنه لأمرٌ غريب، أننا بعد نحو ثلاثين سنة من المرافق والكعوب الصغيرة والأفواه الجائعة حولنا في السرير، ننام الآن وحدنا، بعد أن تقدّم بنا العمر. فعندما بلغ تانييل العاشرة من العمر أراد أن يكون له سريره الخاص، المليء بالأحجار التي تسقط من جيوبه. لا يزال معظم الصِّبية الذين في عمره ينامون فوق كومة عائلاتهم، لكن تانييل أصرّ، قائلاً: «توجد لدى إخوتي أسرّة خاصة بهم» (غير مدرك أنهم كسروا وحدتهم الآن -حتى مارتن الذي دخل إلى الجامعة الآن أصبح عنده صديقة). كنت

أُذهل من مدى شبهه بروث ماي، برأسه ذي الشعر المجعّد واندفاعه عازماً على أن يأكل العالم بلقمة واحدة.

وفي سريرنا الذي يسمّيه أناتول «جمهورية الزواج الجديدة» يحكي لي زوجي تاريخ العالم. نبدأ عادة منذ خمسمئة سنة، عندما جاء البرتغاليون بسفينة خشبية صغيرة وصلت إلى مصبّ نهر الكونغو. ينظر أناتول من جهة إلى أخرى، مقلّداً دهشة البرتغاليين.

«ما الذي رأوه؟» - أسأله دائماً، رغم أنني أعرف.

لقد رأوا أفارقة، رجالاً ونساءً سوداً بسواد الليل، يتجوّلون تحت ضوء الشمس الساطع على طول ضفاف النهر. لكنهم لم يكونوا عراة - بل على العكس تماماً. كانوا يعتمرون قبّعات، وينتعلون أحذية ناعمة، ويرتدون طبقات من التنانير والسترات الغريبة أكثر مما يمكن تحمّله في هذا المناخ الحار.

هذه هي الحقيقة. لقد رأيت الرسوم التي نشرها هؤلاء المغامرون الأوائل بعد أن سارعوا للعودة إلى بلدهم في أوروبا. أفادوا بأنّ الأفارقة يعيشون كالملوك، ويرتدون أقمشة الملوك: مخمل، ودامسكو، والقماش المقصّب. كانت تقاريرهم موجزة، فلم يذكروا أن الناس في الكونغو يصنعون منسوجات رائعة، بضرب اللحاء الليفي لأشجار معيّنة، أو ينسجون خيوطاً من ألياف نخيل الرافية. ومن خشب الماهوغني والأبنوس يصنعون المنحوتات ويؤثّثون منازلهم، ويصهرون الحديد الخام ويصنعون منه أسلحة وشفرات محاريث ومزامير، ومجوهرات دقيقة. أُعجب البرتغاليون بمدى كفاءة مملكة الكونغو في جمع الضرائب، وكيف تدير دوائرها الحكومية.

لم تكن لدى السكّان لغة مكتوبة، وإنما تقليد شفوي شديد الحماسة إلى درجة أنه عندما طبّق الآباء الكاثوليكيون الحروف على الكلمات بلغة الكيكونغو، تدفّقت مطبوعةً الأشعارُ والقصص بقوة فيضان. لكن القساوسة

شعروا بالفزع عندما عرفوا أن لدى الكونغوليين كتابهم المقدّس، يحفظونه عن ظهر قلب ويتناقلونه منذ مئات السنين.

مع أن الأوروبيين أُعجبوا بمملكة الكونغو، فقد فزعوا عندما لم يجدوا أيّ سلع زراعية هنا. لأن الناس يتناولون المحاصيل الزراعية بالقرب من مكان زراعتها. فلم يجدوا مدناً، ولا مزارع ضخمة، ولا طرقاً ضرورية لنقل المحاصيل من مكان إلى آخر. وكانت المملكة متماسكة بآلاف الأميال من الدروب التي تجتاز الغابة، والجسور المعلّقة المصنوعة من الكروم المضفورة، تتأرجح بهدوء فوق الأنهار. أتخيّلها كما يصفها أناتول: رجال ونساء يرتدون طبقات من التنانير المخملية، يتهادون في دروب الغابة.

وعندما ينتكس مرضي القديم أحياناً، أرقد بين ذراعيه وأشعر براحة كبيرة، وهو يحكي لي تلك القصص طوال الليل ليبعد الأحلام السيئة عني، لأن حبوب الكينين تُبقي الملاريا تحت السيطرة، بصعوبة، بعد أن ظهرت سلالات مقاوِمة الآن. كانت الكوابيس التي مررت بها عندما عانيت من الحمّى، تتكرّر نفسها الآن، وأظهر لي هذا التحذير الأولي أنني لست بعيدة عن الإصابة مرة ثانية. ويغزو اليأس الأزرق القديم نومي وأنا أجتاز النهر، ألتفت إلى الوراء وأنظر إلى وجوه الأطفال الذين يستجدون الطعام. «كادو، كادو». (هدية، هدية) ثمّ أستيقظ في أمتنا المؤلّفة من شخصين، المحاطة بالناموسية المائلة المضاءة بنور القمر الفضي. وأتذكّر دائماً بولونغو، عندما استلقينا معاً هناك أول مرة هكذا. أناتول يضمّني ويغفر لي، وأنا أرتعش وأهذي من شدة الحمّى. كان زواجنا، بالنسبة لي، فترة نقاهة طويلة جداً.

الآن يعودون إلى البيت، يا بينيه. يحملون سلال جوز النخيل وبساتين الفاكهة من الغابة، ويغنّون.

أغاني عن ماذا؟

أوه، عن كلّ شيء، عن ألوان السمك. وكيف سيكون أطفالهم مهذّبين إذا كانوا كلّهم مصنوعين من الشمع(*).

أضحك. من هم؟ كم عددهم؟

فقط امرأة ورجل يسيران على الدرب. إنهما متزوّجان.

أوَليس أطفالهم المشاغبون معهم؟

ليس بعد. فقد تزوّجا منذ أسبوع واحد فقط.

أوه، حسناً. لذلك فإن أحدهما يمسك بيد الآخر.

طبعاً.

كيف يبدو الحال هناك؟

إنهما قريبان من النهر، في غابة لم تُقطع أشجارها قطّ، يزيد عمرها على ألف سنة. تعيش السحالي والقرود الصغيرة حياتها الكاملة في أعلى الأشجار دون أن تهبط إلى الأرض. تعيش في الأعلى، فوق سطح العالم.

لكن في الأسفل على الدرب الذي نمشي عليه، يسود الظلام؟

ظلام لطيف. من النوع الذي تحبّه عيناك. المطر يهطل، لكن الأغصان كثيفة جداً بحيث لا يهبط إلّا ضباب خفيف. الآن كرمة مبيكا الجديدة تتدلى على الأرض وراءنا، وتتحوّل آثار أقدامنا إلى برك صغيرة.

ماذا يحدث عندما نصل إلى النهر؟

سنعبره، طبعاً.

(*) حكاية شعبية من التراث الإفريقي، تحكي عن ثلاثة أطفال مصنوعين من الشمع، كان ممنوعاً عليهم أن يخرجوا إلى الشمس كي لا يذوبوا. لكن واحداً منهم خالف ذلك وخرج فذاب. حزن أخواه الآخران وقررا أن يشكّلا من كتلة الشمع الذائب عصفوراً، وبعد أن انتهيا وضعاه على أعلى قمة. حين أشرقت الشمس طار العصفور مغرّداً في ضوء الصباح. [م].

أضحك. بهذه السهولة! وماذا لو توقّفت العبّارة في الجانب الآخر لأن بطاريتها فرغت؟

في مملكة الكونغو، يا بينيه، لا توجد بطاريات، لا شاحنات، لا طرقات. لقد رفضوا اختراع العجلة لأنها ستكون مشكلة حقيقية في هذا الطين. ومن أجل عبور النهر، أقاموا جسراً يمتدّ من شجرة خضراء ضخمة إلى شجرة أخرى على الضفة المقابلة.

يمكنني أن أرى هذين الزوجين. أعرف أنهما حقيقيان، وأنهما عاشا فعلاً. يتسلّقان شجرة القلب الأخضر وتحاول المرأة أن توازن نفسها، تلمّ تنورتها الطويلة بيد واحدة، وتتهيّأ لأن تخرج إلى أكثر الأضواء بريقاً وإلى المطر. تتلمّس شعرها المضفور في شكل حبال سميكة وقد عقدته وراء رقبتها وربطت فيه أجراساً صغيرة. وعندما تصبح مستعدّة تخرج وتمشي على الماء فوق جسر الكرمة المهتز. تتسارع خفقات قلبي ثم تستقرّ على إيقاع وقع أقدامها على طول الجسر المتأرجح.

«لكن ماذا لو كان النهر عريضاً» -سألته ذات مرة- «مثل نهر الكونغو الذي هو أوسع بكثير من أي كرمة؟».

فقال: «هذا أمر بسيط، فنهرٌ كهذا لا ينبغي عبوره».

إذا لم يُعبر النهر فإن كلّ ما يوجد على الجانب الآخر يمكن أن يعيش كما يشاء، لا يراه أحد ولا يتغيّر. لكن لم تجرِ الأمور هكذا. فقد نظر البرتغاليون من خلال الأشجار ورأوا أنّ سكّان الكونغو يرتدون ثياباً جميلة ويتكلّمون بوضوح، ولا يشترون المحاصيل ولا يبيعونها ولا ينقلونها، يعيشون في أماكنهم ويأكلون ما يتوفّر لهم من محاصيل، مثل وحوش الغابة. وعلى الرغم من ترديدهم للقصائد وارتدائهم للملابس الجميلة، فلا بدّ أن هؤلاء الناس ليسوا بشراً كاملين – وإنما أناس بدائيون. لا بدّ أن البرتغاليين استخدموا هذه العبارة ليريحوا ضميرهم لما سيأتي لاحقاً. وسرعان ما بدأ

القساوسة يعمّدون السكّان جماعياً على ضفة النهر، ويقودون معتنقي الدين الجديد إلى سفن نقلتهم إلى مزارع السكّر في البرازيل ليصبحوا عبيداً لإله أعلى: الزراعة السلعية.

لا توجد عدالة في هذا العالم. أبي، سامحني أينما كنت، لكن هذا العالم جلب فظاعات شنيعة، الواحدة تلو الأخرى، على رؤوس الناس الطيّبين، ولن أعيش لأرى الودعاء يرثون أيّ شيء. وأقول لنفسي إن ما يوجد في هذا العالم هو ميل الأخطاء البشرية لتجميع نفسها في كل أماكن نفوذها، مثل الماء. هذا تقريباً كلّ ما أستطيع أن أقوله عندما أنظر إلى الوراء. هناك إمكانية التوازن. على الرغم من أن العبء كان لا يطاق إلا أن العالم تمكّن من حمله بأمان.

نعيش في أنغولا منذ عشر سنوات، في محطة زراعية تقع خارج سانزا بومبو. قبل الاستقلال، أقام البرتغاليون مزرعة لزيت النخيل هنا، بعد أن أزالوا الغابات العذراء منذ نصف قرن. تحت أشجار النخيل المتبقية نزرع الذرة الصفراء والبطاطا الحلوة وفول الصويا، ونربّي الخنازير. وفي موسم الجفاف من كلّ عام، عندما يصبح السفر ممكناً، تكسب مزرعتنا التعاونية عدداً من الأسر الجديدة، يتكوّن معظمها من أطفال صغار ونساء في ثياب رثّة، يخرجون من الغابة بصمت، ويهبطون إلى هنا بخفّة مثل فراشات مرهقة بعد سنوات من الفرار من الحرب. في البداية، لا يقولون شيئاً على الإطلاق. وبعد أسبوع أو أسبوعين تبدأ امرأتان تتكلّمان بصوت خفيض جداً ولكن دون توقّف، حتى ينتهين من حساب الأماكن التي غادرنها والأشخاص الذين فقدوهن. وأكاد أجزم أنهم هاجروا هجرةً دائرية طوال حياتهم، فبعد أن هربوا بدايةً من قراهم الأصلية إلى المدينة، واجهوا الجوع هناك، وها هم الآن يأتون إلى هذا المكان الصغير النائي، حيث يوجد لديهم أمل بأن يجدوا شيئاً من الطعام. نستطيع أن ننتج كمية إضافية قليلة من زيت النخيل

لنبيعها في لواندا، لكن معظم ما نزرعه يُستهلك هنا. ويوجد لدى التعاونية سيارة واحدة، لاند روفر قديمة (لو كان بإمكانها الكلام، فإن تقلّبات الحياة التي مرّت بها يمكن أن تسمح لها بسرد تاريخ عالمي)، لكن الأمطار هنا تبدأ بالهطول في شهر أيلول، ولا يصبح الطريق سالكاً مرة أخرى حتى نيسان. وفي معظم السنة، ننظر إلى ما يتوفّر لدينا، ثم نقرّر المضيّ قُدُماً.

لسنا بعيدين عن الحدود، والناس هنا ينظرون ويتكلّمون مثل أهالي كيلانغا. فوجئت عندما جئنا إلى هنا أول مرة، كان لدي شعور بالعودة إلى الطفولة. ظللت أتوقّع أن يأتي في أي لحظة شخصٌ أعرفه لزيارتنا: ماما موانزا، أو نِلسون، أو تاتا بواندا في سرواله الأحمر الفاقع، أو على نحوٍ مخيف: أبي. من الواضح أن الحدود بين الكونغو وأنغولا ليست سوى خطٍّ مرسوم على خريطة، رُسم بحسب رغبة البلجيكيين والبرتغاليين. كانت الكونغو القديمة تمتدّ في وسط إفريقيا كلّها، لكنها سقطت كأمة عندما بيع مليون شخص من مواطنيها الأصحّاء ليصبحوا عبيداً، لكن لغتها وتقاليدها لم تسقط. أستيقظ على صوت «مبوته» الهادر، يُصاح به خارج النافذة المفتوحة في مبنى مزرعتنا. والنسوة يلففن الباني ويُعدن لفّها كما كانت تفعل النسوة في كيلانغا، ويعصرن زيت النخيل بالآلة الغريبة ذاتها التي كانت ماما لو تعصر النخيل فيها. وفي أحيان كثيرة، كان يتناهى إليّ صوتٌ شبحي: صوت باسكال المتصاعد وهو يسأل: بيتو نكي توتاسالا؟ ماذا عسانا نفعل؟

مع ذلك، لم أعد أسمعه كثيراً، لأن في قريتنا يوجد عدد قليل جداً من الصبية في سنّ تسلّق الأشجار بحثاً عن أعشاش الطيور، أو فتيات يتهادين في الدرب مع شقيق يتمايل مثل دمية كبيرة من الخرق. ألاحظ غيابهم في كل مكان. فقد أودت الحرب بحياة معظم الأطفال ممن هم دون العاشرة. انتشر الفراغ الكبير الصامت ببطء ومرَّ من خلالنا. الثقوب التي تخلّفها

الحرب كثيرة، وليست مثل السدود والطرق التي يمكن إعادة بنائها. أعطي دروساً في التغذية والصحة الشخصية وزراعة فول الصويا للنساء اللواتي يدعونني احتراماً ماما نغيمبا، ويتجاهلن تسعة أعشار ما أشرحه لهن. كانت أصعب مهمة لنا هي تعليم الناس الاعتمادَ على المستقبل: زراعة أشجار الحمضيات واستخدام نفاياتهم سماداً. في البداية تشوّشت كثيراً. لماذا يتعيّن على أحد أن يقاوم شيئاً شديد الوضوح مثل زراعة شجرة مثمرة أو تحسين نوعية التربة؟ لكن بالنسبة للذين عاشوا لاجئين لفترة أطول من الذاكرة، فإن تعلّم الإيمان بدورة الغذاء يتطلّب شيئاً قريباً من التحوّل إلى دين جديد.

يجب أن أفهم أني عابرة في حياتي البالغة مثل أي شخص في تعاونيتنا.

الآن فقط، بعد مضيّ عشر سنوات على عملي في هذه الأرض، بدأت أفهم سبب عدم تمكّن الغرباء من إخضاع إفريقيا. فهذه ليست بروكسل أو موسكو أو ماكون بجورجيا. إنها مجاعة أو فيضان. لا يمكنك تعليم شيء حتى تتعلّم ذلك. فالمنطقة الاستوائية ستجعلك منتشياً بحلاوة زهور فرانجيباني وفي الوقت نفسه ستضعك في مكانٍ يمكن أن تُقتل فيه بلدغة أفعى، وقلّما تجد مجالاً لكي تتنفّس فيه بينهما. إنه أمرٌ صادم للأرواح التي نشأت بنعومة في مناطق معتدلة المناخ، والأمل، والرعب.

من الواضح أن البرتغاليين صُدموا جداً، ولذا عرّوا سكّان الكونغو اللطيفين وقيّدوهم بالسلاسل وصفّوهم في أرتال، في الظلام، من أجل العبور. أدانوهم لأنه لا توجد عندهم محاصيل يمكن بيعها لقاء نقود. لم يستطع الأوروبيون تخيُّل أن هناك مجتمعاً عاقلاً لا يفعل ذلك، ويصعب علينا أن نتخيّل ذلك حتى الآن. ففي منطقة معتدلة المناخ فإن أكثر شيء طبيعي في العالم، تماماً مثل المطر، زراعة حقول مموّجة من الحبوب لتنمو عاماً بعد آخر من دون خوف حدوث فيضانات أو تفشّي أوبئة، في تربة تنمو

فيها سوق خضراء تنحني أمام المنجل مراراً وتكراراً، سيكون هناك دائماً خبز يخرج من السلة. يستطيع المسيحيون أن يخترعوا ويؤمنوا بمَثَل الأرغفة والسمك، لأن مزارعيهم يستطيعون أن يثقوا بالوفرة، وينقلون منتجاتهم إلى المدن المزدهرة حيث يمكن للناس أن يمضوا حياتهم كلها من دون أن يلاحظوا أو يهتموا بأن البذور تنتج النبات.

هنا تعرف لماذا خُلقت البذرة، وإلا فإنك ستتضوّر جوعاً. لا تنتج الغابة وفرةً غذائية لإطعام الجموع، ولا تدعم طبقة مرفّهة. التربة صلصالية استوائية حمراء هشّة والمطر شرس. إن إزالة غابة مطرية استوائية لزراعة نباتات حولية أشبه بنزع فراء الحيوان، ثمّ سلخ جلده. الأرض تجأر. المحاصيل الحولية بحاجة إلى حظٍّ ومساعدة إلهية. وحتى لو تمكّنت من حصاد محصول، فإنك تحتاج إلى طرق لنقله!

قم برحلة بريّة واحدة هنا وستعرف دائماً أنّ الطريق في الغابة حلمٌ جميل، ومنبسط، ومستحيل. فالتربة تتداعى، وتذوب الأرض في شقوق بليغة حمراء مثل أفواه الحيتان. ويرمي الفطر والنباتات المعرّشة بطانيةً فوق وجه الأرض الميّتة. إنها بسيطة، حقاً. إفريقيا الوسطى مجتمعٌ صاخب من النباتات والحيوانات التي تمكّنت من تحقيق التوازن معاً فوق صفيحة جيولوجية تهتزّ منذ عشرة ملايين سنة: وعندما تزيل جزءاً من هذه الصفيحة، فإن مآل شرائح كاملة ينزلق كله إلى الخراب. وإذا توقّفوا عن إزالة الغابات، فإن التوازن سيعود إلى الطبيعة ببطء. ربما على المدى البعيد، قد يعيش الناس بسعادة هنا إذا عادوا إلى أساليبهم القديمة، يسافرون سيراً على الأقدام، يزرعون طعامهم بالقرب منهم، ويستخدمون أدواتهم الخاصة بهم، ويلبسون ثيابهم بالقرب من موقع الإنتاج.

لا أدري. أن أكون موجودة هنا دون أن أرتكب خطأً يحتاج إلى نوع جديد من الزراعة، نوع جديد من التخطيط، إلى دين جديد. أنا اللا تبشيرية،

كما تقول إدا، أبدأ يومي وأنا أجثو على ركبتي، طالبةً أن أعتنق ديناً جديداً. اغفري لي، يا إفريقيا، وحسب كثرة رحمتك امحِ معاصيَّ!

لو أستطيع أن أعود إلى الوراء بطريقةٍ ما لأعطيت أبي هديةً واحدة فقط، وهي الراحة البشرية البسيطة لمعرفة أنك قد أخطأت، وعشت في ذلك الخطأ. أبي المسكين، الذي كان مجرّد واحد من مليون رجل لم يدركوا الفكرة مطلقاً. وسمني بظلم الإيمان، ثمّ أغرقني بالذنب، وأنا لا أتمنّى عذاباً كهذا حتى لبعوضة. لكن إلهه المستبدّ، الكثير المطالب، تركني إلى الأبد. لا أعرف تماماً ماذا أسمّي الشيء الذي تسلّل وحلَّ محله. شيءٌ قريب من شغف الأخ فاولز، كما أظن، الذي نصحني بأن أثق بالخلق الذي يتجدّد يومياً ولا يعاني من الترجمة. هذا الربّ لا يعمل بطرق غامضة خاصة. فالشمس هنا تشرق وتغرب في الساعة السادسة تماماً. اليرقة تستحيل فراشة، والطير يربّي ذرّيته في الغابة، وشجرة القلب الأخضر لا تنمو إلّا من بذرة القلب الأخضر. ويجلب الجفاف في بعض الأحيان، وتعقبه أمطار غزيرة، وإذا لم أكن أفكّر بهذه الأشياء باستمرار، فهي ليست عقاباً لي، وإنما جزاء، لنقلْ، على الصبر الذي تتحلّى به البذرة. آثام الآباء ليست قليلة، لكن على الرغم من ذلك فإننا نستمر في المضي قدماً. وكما كانت أمي تقول، لا شيء سيبقى ساكناً ما لم يعلق في الطين. أحرّك يديَّ في النهار، وفي الليل، عندما تعاودني أحلام الحمّى وأرى النهر على بعد أميال تحتي، أطفو فوق الماء، وأجعل ذلك العبور اللانهائي يمتدّ كي أصل إلى التوازن. أتوق لأن أستيقظ، ثم أفعل. أستيقظ وأنا واقعة في الحب، وأجعل جلدي أغمق تحت أشعة الشمس الاستوائية. أنظر إلى أولادي الأربعة الذين لونهم بلون الطمي، التربة، الرمل، الطين، لوحةٌ لانهائية لأطفالهم هم، وأفهم أن الزمن يمحو البياض تماماً.

إدا برايس

أتلانتا

قد يموت ضفدع الطين من الضوء! حذّرتنا إيميلي عندما نظرت إلى الشارع من بين ستائرها المسدلة. الموت حقٌّ مشتركٌ للضفادع والإنسان. فلماذا التباهي إذاً؟!

اتهمني زملائي في كليّة الطب بالتهكّم لكنّهم لا يعرفون. فأنا فتاة بريئة في الغابة، هُجرت عند أسفل شجرة. وفي اليوم الذي كنت سأؤدي فيه قسم أبقراط، انتصبت الشعرات الصغيرة في قفا رقبتي، بينما رحت أنتظر أن يضرب البرق. من كنتُ وأنا أؤدي القسم بهدوء بين كلّ هؤلاء الشبان الذين يضعون ربطات عنق، وأتعهد بأن أسرق الحياة من بين فكّي الطبيعة، في كلّ مرة نحصل فيها على نصف فرصة ومبلغ ضئيل من المال؟ هذا القسم المتدلّي من رقبتي مع سماعة الطبيب لم يسمح لي أن أشعر بالأمان، ولا لدقيقة. لم أستطع قبول العقد: كل طفل يولد على هذه الأرض يجلب داخل قبضته الصغيرة ضمانَ أنه سيحصل على صحة مثالية وسيعيش حتى الشيخوخة.

فقدان الحياة: شيء غير مرحّب به. أهو لا أخلاقي؟ لا أعرف. ربما يتوقّف ذلك على مكان وجودك، وعلى نوع الموت. في هذه الأماكن، حيث نجلس بين أكوام بقايا البروتين التي نضغطها ونحوّلها إلى طعام للحيوانات الأليفة التي تحرس كراسينا الخاوية بشكلٍ مفيد، هنا حيث ندفع للعرّافين والبهلوانات ليساعدونا على أن نخسر وزننا، إذاً نعم، أن يموت طفل من الجوع شيء لا أخلاقي. لكن هذا مجرّد مكان واحد فقط. أخشى أنني رأيت العالم.

في العالم، القدرة الاستيعابية للبشر محدودة. التاريخ يحافظ على

توازن كل شيء، وبضمن ذلك الآمال الكبيرة والحيوات القصيرة. عندما جاء ألبرت شفايتزر(*) إلى الغابة -بارك الله قلبه- كان يحمل معه مضادّات جراثيم فعّالة، وقناعة راسخة جديدة بأنه لا ينبغي لأحد أن يموت صغيراً. كان يهدف إلى إنقاذ جميع الأطفال، معتقداً بأن إفريقيا ستتعلّم بعد ذلك كيف تنجب عدداً أقل من الأطفال. لكن بعد أن أمضت العائلات مليون سنة وهي تنجب تسعة أطفال بأمل أن يبقى لديها طفل واحد، لم تستطع أن تتوقّف عن إنجاب الأطفال التسعة. الثقافة مثل مقلاع تحرّكه قوة الماضي. فعندما سيُترك الشريط، فإن ما سيطير إلى الأمام لن يكون تحديد النسل، وإنما رأس الطفل الصغير القاسي. لقد أدى الاكتظاظ السكّاني إلى إزالة الأشجار من مساحة ثلاثة أرباع إفريقيا، فحدثت مجاعات وجفاف، وزاد احتمال انقراض جميع الحيوانات التي يحبّها الأطفال وحدائق الحيوانات. واشتدّت المنافسة على الموارد، وتلهّفت القبائل للتقاتل في ما بينها. ومقابل كلّ شخص يُنقذ بواسطة مساعدات الإغاثة الغذائية أو التطعيم، يموت شخص بسبب المجاعة أو الحرب. إفريقيا المسكينة. لم تتعرّض أيّ قارة أخرى لمثل هذا المزيج الغريب الذي يصعب وصفه من اللصوصية والنيّات الحسنة الأجنبية. ومن منطلق تعاطفي مع الشيطان وإفريقيا، هجرتُ مهنة الشفاء، وأصبحت طبيبة مشعوذة، وأصبحت كنيستي «الوادي المتصدّع الكبير»(**)، على طول الحدود الشرقية للكونغو. لا أذهب إلى هناك، أنا فقط أدرس المصلّين.

(*) Albert Schweitzer (1875–1965): لاهوتي، وموسيقيّ، وفيلسوف، وطبيب ألماني - فرنسي. حصل على جائزة نوبل للسلام في عام 1952 لفلسفته عن «تقديس الحياة»، لكن أعظم أعماله وأشهرها هو تأسيس مستشفى في إفريقيا. [م].

(**) أو الأخدود الإفريقي العظيم: صدع جيولوجي يمتد من غرب آسيا حتى شرقي إفريقيا، بطول يزيد عن 6000 كم. وهو يعتبر من أشهر الظواهر الطبيعية الأرضية، فهو السبب الجيولوجي لتشكّل عدة معالم طبيعية بارزة. [م].

هذه هي القصّة التي أؤمن بها: عندما كان الله طفلاً، كان الوادي المتصدّع يحتضن مرجلاً من الضروريات الخام فقط، ومنه خرج البشر الأوائل يمشون منتصبين على ساقين. وبأيديهم الطليقة، أخذوا أدوات وبدؤوا يستخرجون طعامهم من الغابة واتخذوها مأوىً لهم، ووضعوا قواعدهم حول الخير والشر، وخلقوا الفودو، الديانة الأقدم على وجه الأرض. وانخرطوا في تقارب قوي مع بيئتهم المحلّيّة وسلسلة طعامهم. وعبدوا كلّ شيء حيّ وكلّ شيء ميّت، لأن فودو تحتضن الموت بوصفه شريكاً، لا عدوّاً، وتكرّم التوازن بين الفقدان والخلاص. هذا ما حاول نِلسون أن يشرحه لي ذات يوم عندما كنّا نقشط الروث من قنّ الدجاج. لم أستطع أن أفهم كيف أن كلمة مونتو يمكن أن تعني شخصاً حيّاً أو ميّتاً بدقّة متساوية، لكن نِلسون هزَّ كتفيه، وقال: «إنه كلّ شيء هنا».

الله هو كلّ شيء إذاً. الله ڤيروس. صدّق ذلك عندما تصاب بنزلة برد. الله نملة. صدّق ذلك أيضاً، لأن النمل الزحّاف يمتلك بشكلٍ جماعي حجم الطاعون التوراتي وتأثيره. يعبر الغابة والوادي في أرتال لمسافة أميال طويلة وعرض مئة متر، يلتهم كلّ شيء في طريقه عبر إفريقيا. يلتهم الحيوانات والخضراوات، ويترك وراءه المعادن. هذا ما تعلّمناه في كيلانغا: ابتعد عن الطريق واشكر الله على نظافة البيت. ففي بضعة أيام، ستكون هذه الفرقة المظلمة قد ملأت كل مكان – هذا النمل لا يتوقّف عن الحركة. فعندما تعود إلى بيتك تجده ممشّطاً نظيفاً من الفتات الفاسدة، وفراشك خالٍ من القمل، وحطبك نظيفٌ من السماد، وأقنان الدجاج خالية من عثّ الدجاج. وإذا تُرك بالمصادفة طفلٌ رضيع في مهده، أو نمرٌ في قفص، فإنهما سيصبحان هياكل عظمية دون نخاع، نظيفةً كصافرة. أما أولئك المستعدّون للتنحّي جانباً لعبورٍ أوسع، فإنهم ينجون. الفقدان والخلاص.

لدى إفريقيا ألف طريقة لتطهير نفسها. النمل الزحّاف، ڤيروس إيبولا،

متلازمة نقص المناعة المكتسب (الإيدز): كلّ هذه مكانس ابتكرتها الطبيعة لتكنس المكان وتنظّفه جيّداً. لا شيء منها يمكنه عبور النهر بمفرده، وهي غير قادرة أن تبقى على قيد الحياة بعد موت مضيفها. الطفيليّ البشريّ الذي قضى علينا جميعاً -كما تلاحظ- سرعان ما سيُوارى الثرى في قبور بشرية. لذلك يظلّ السباق بين المفترس والفريسة سباقاً محموماً.

عندما كنت فتاةً مراهقة تقرأ في المكتبة الطبية كتباً عن الطفيليات المنتشرة في إفريقيا، دُهشت من هذا الكم الكبير من المخلوقات المجهّزة لتضرب جذورها في أجساد البشر. وما زلت في حيرة من أمري الآن، لكن مع تقديرٍ أدقّ للشراكة. في ذلك الحين كنت ما أزال مرعوبة من فكرة أن الله أنزل دمى ابنه وابنته الحافيين إلى جنّة عدن حيث، يُفترض، حرّر للتوّ داء الفيل والميكروبات التي تلتهم قرنية البشر. الآن فهمت أن الله ليس بجانب الإنسان فقط. لقد تطوّرنا نحن وآفاتنا معاً وخرجنا من التربة الرطبة نفسها في الوادي المتصدّع الكبير، وحتى الآن لا يفوز أحد فعلاً. خمسة ملايين سنة هي شراكة طويلة. إذا كان بإمكانك أن تخرج للحظة من جلدك المحبوب، وتقدّر أن النملة والإنسان والڤيروس هي كائنات ذات حيلة متساوية، فسوف يُدهشك أن كل ما يحدث في إفريقيا متناغمٌ للغاية.

بالعودة إلى جلدك، بالطبع فإنك ستصرخ كي تحصل على علاج. لكن تذكّر: السفر جواً، الطرق، المدن، الدعارة، تجمّع الناس من أجل تجارة فعّالة - هذه كلها هي هدايا الرحلة الموفقة للڤيروس. هدايا المجوس(*) الأجانب التي جُلبت من أماكن بعيدة. وبغية إنقاذ أطفال إفريقيا واستخراج روحها المعدنية، أقام الغرب درباً إلى بابها وفتحه على مصراعيه لتدخل الآفات.

(*) المجوس أو الملوك المجوس هم ثلاثة أشخاص ذُكروا في إنجيل متى، أتوا من المشرق إلى أورشليم لتقديم الهدايا للطفل يسوع بعد ولادته مباشرة. [م].

قد يموت ضفدع الطين من الضوء. الموت حقٌّ مشترك للضفادع والإنسان. فلماذا التباهي إذاً؟ يتّهمني زملائي بأنني متهكّمة، لكني ببساطة ضحيّة الشعر. لقد التزمت بالحق المشترك بين الضفادع والإنسان. لا أستطيع التباهي إذا حاولت. فلا توجد لديّ ساقان مناسبتان لأفعل ذلك.

يكمن عملي في اكتشاف تاريخ حياة الڤيروسات، ويبدو أنني أجيد ذلك. لا أفكّر في أن الڤيروسات هي عملي، في الواقع، وإنما أفكّر في أنها أقربائي. لا توجد عندي قطط أو أطفال، وإنما ڤيروسات. أزورها كل يوم في أطباقها الزجاجية الواسعة، ومثل أيّ أمّ صالحة، أتملّق، أحتفل عندما تتكاثر، وأسجّل ملاحظة خاصّة عندما تتصرّف بغرابة. أفكّر بها عندما لا أكون معها. لقد توصّلت إلى اكتشافات هامة تتعلّق بڤيروس إيبولا وڤيروس الإيدز. لذلك، توجّب عليّ أن أظهر أحياناً في مناسبات عامة حيث تجري الإشادة بي لأنني منقذة الصحة العامة. يفاجئني ذلك لأنني لست كذلك. من المؤكّد أنني لست مبيداً مجنوناً أريد أن أفني جراثيم الشيطان، بل على العكس: إني معجبة بها، وهذا سرّ نجاحي.

حياتي مُرضية وعادية. أعمل كثيراً، وأزور أمي في جزيرة ساندرلنيغ مرّةً في الشهر. أستمتع معها بوقتي الذي نمضي جلّه دون أن نتحدّث. تتركني أمي على سجيّتي. نسير لمسافات طويلة على الشاطئ حيث نراقب طيور الشاطئ التي تحمل الاسم نفسه: ساندرلنيغ(*)، ولا تترك حجراً دون أن تقلبه. في بعض الأحيان، في منتصف شهر كانون الثاني عندما تكون أمي مضطربة، نأخذ العبّارة ثم نقود على الطريق الساحلي السريع، نجتاز أميالاً من المناطق المسطّحة غير المأهولة، المزروعة بالباليميتو، ونصادف بين الحين والآخر أكواخاً مبنية من ألواح خشبية تجلس نسوة عجائز ذوات بشرة

(*) تسمى في العربية المدروان أو الدريجة البيضاء. تتغذى على الكائنات اللافقارية المدفونة في الرمال في مناطق الجزر والمد خصوصاً. [م].

داكنة أمامها وهنّ يحكن سلالاً جميلة من العشب العطريّ. وفي وقت متأخر من المساء، نقف في ساحة انتظار السيارات بجوار بيت التسبيح، المبني من ألواح خشبية، ونستمع إلى ترانيم الغالا(*) القديمة تنبعث من النوافذ. لا ندخل إلى البيت مطلقاً. إننا نعرف مكاننا. وطوال الوقت، توجّه أمي رأسها نحو إفريقيا، وعيناها على المحيط، كما لو أنها تأمل أن ينضب فجأة.

لكن في معظم زياراتي لا نذهب إلى أي مكان، وإنما نجلس على شرفة البيت، أو أراقبها وهي منهمكة في العمل في غابتها الصغيرة، تزيل الأوراق الميّتة، وتنثر السماد فوق أزهار الكاميليا، وتتحدّث بصوتٍ خفيض. شقّتها هي الطابق الأرضي لواحد من تلك الصناديق القديمة المبنية من الطوب التي يعود تاريخها إلى قرن من الزمن، والمزوّدة بمسامير ذات مزاليج للوقاية من الزلزال، وهي قطع رائعة من أجهزة عملاقة تمرّ عبر المبنى من الشرق إلى الغرب، سُدّت من الخارج بحلقات حديدية، بحجم طاولات صغيرة. يخيّل إليّ أنها تمرّ عبر أمي أيضاً، وهي بحاجة إليها كي لا تنهار.

إنها تسكن عالمها، منتظرةً المغفرة، في حين زُرعت بناتها في أربعة بلدان مختلفة. «قفل، ومخزون، وسبطانة»، تطلق علينا. أظن أن راشيل هي من لديها أقفال على أي طريق محتمل، فإذا ما وجدته غير جيّد لها ستتوقّف. وليا هي من تتقدّم للأمام مثل رصاصة خرجت من السبطانة، ووضعت كلّ شيء في نصابه، أما أنا فمن أقيّم المخزون وكل شيء بهدوء، على ما أعتقد. أؤمن بجميع الأشياء بقدر متساوٍ. أؤمن بحقّ كلّ نبتة أو فيروس في أن يحكم الأرض. تقول أمي إنه لا يوجد عندي قلب تجاه الناس من نوعي. إنها لا تعرف. لديّ قلبٌ كبير. لكنني أعرف ما فعلناه، وما نستحقّه.

لا تزال أمي تعاني من آثار أمراض عديدة كانت قد أُصيبت بها في

(*) Gullah: أميركيون من أصل إفريقي يعيشون بشكلٍ أساسي على سواحل جنوب كارولينا وجورجيا والجزر المجاورة. [م].

الكونغو، منها البلهارسيا وديدان غينيا وربما السلّ. فعندما تمدّ لسانها وتدعني أعالج أمراضها الصغيرة، يمكنني أن أرى أنّ كلّ عضو من أعضائها قد تضرر بشكلٍ أو بآخر. لكن مع مرور السنين، وازدياد الانحناء أكثر فأكثر، صارت تعيش في فضائها الضيّق. لم تتزوّج ثانيةً، وإذا سألها أحد عن السبب، تقول: «كان ناثان برايس كلّ الزواج الذي أحتاجه». أستطيع رؤية أن هذا صحيح. كان جسدها مقيّداً بشدة، لسنوات، بحدود حريّتها الباهظة.

وأنا لم أتزوّج أيضاً، لكن لأسباب مختلفة. فقد أراد طبيب الأعصاب المبتدئ المشهور أن يكون عشيقاً لي، وقد كسبني في سريره لفترة من الوقت. لكن تدريجياً أدركت جمجمتي المخمورة بالحب أنه لم يرحّب بي هناك إلا بعد أن طبّق برنامجه عليّ ليجعلني كاملة! أخشى أنه كان الأول من بين عدة رجال واجهوا عواصف إدا الثلجية.

هذا هو اختباري: أتخيّلهم هناك تحت ضوء القمر والأرض من حولنا تغلي بالنمل. أيّ واحدة منهما سيختار: التي تمشي منحنية، أم الكاملة المحبوبة؟ أعرف كيف سيختارون. أيّ رجلٍ يُعجب بجسدي الآن يخون إدا السابقة. حسناً، ها قد كشفتك!

ألعب أحياناً الشطرنج مع زميل لي، ناسك مثلي، يعاني من متلازمةٍ ما بعد شلل الأطفال. يمكننا أن نقضي أمسيات كاملة من دون أن نقول عبارة أطول من «كش ملك». وكنا نذهب أحياناً إلى مطعم في مترو أنفاق أتلانتا، أو نشاهد فيلماً في دار سينما يوجد فيها مكان لكرسيه المتحرّك، لكن الصخب كان يربكنا دائماً. اتضح أن إيروس ليس قذى العين كما يبدو، بقدر ما هو مجرّد ضوضاء كثيرة. ثم كنّا بعد ذلك نذهب خارج المدينة باتجاه ساندي سبرينغز أو تشاتاهوتشي، أي مكان منبسط لا يوجد فيه أحد، يمكننا أن نركن فيه السيارة على الطريق الترابي الأحمر بين حقول الفول السوداني، وأن نسمح لنور القمر والصمت بأن يجدّدانا. ثمّ أعود إلى البيت وحدي

وأكتب قصائد على الطاولة في مطبخي، كما كان يفعل ويليام كارلوس ويليامز. وأكتب عن الأخوات المفقودات، وعن الوادي المتصدّع الكبير، وعن أمي حافية القدمين وهي تحدّق في المحيط. كلّ هذا الضجيج الذي يملأ رأسي أثبّته بإحكامٍ على الورقة حتى يهدأ.

ما زلت أحبّ القراءة بالطبع. أقرأ على نحوٍ مختلف الآن بعد أن أصبح عقلي سليماً، لكنّي أعود إلى الأصدقاء القدامى. No snickidy lime: «هذه رسالتي للعالم الذي لم يكتب لي البتّة»، أي أسطر أكثر إرضاءً لمراهقة كئيبة من هذه؟ لكنّي في ذلك الوقت لم أرَ إلّا النصف، وتجاهلت النصف الآخر: «هذه الأنباء البسيطة صرّحت بها الطبيعة - بوقارٍ لطيف». وجدت مؤخراً في بيت أمي نسخةً يعلوها الغبار من ديوان الأشعار الكاملة لإيميلي ديكنسون، تمتلئ هوامشها بألفاظي القديمة التي تُقرأ طرداً وعكساً: العمل الشرير يعيش! نعقت ذلك إدا الأخرى، وأتساءل: أيّ شرٍّ كان بالتحديد؟

بدّدتُ طاقة الطفولة في الشعور بأني تعرّضت للخيانة من قبل العالم عموماً، ومن ليا خصوصاً. جعلتني تلك الخيانة أمشي مائلة إلى جانب، بينما جعلها الشعور بالذنب تنحني إلى الجانب الآخر. لقد بنينا حياتينا حول سوء فهم، وإذا حاولت أن أخرجه وأصلحه الآن فإني سأخفق. سوء الفهم هو حجر الزاوية بالنسبة لي. إنه حجر زاوية كلّ شخص، إذا فكّرت بالأمر. الأوهام الخاطئة عن الحقيقة هي الرصيف الذي يقبع تحت أقدامنا، وهذا ما نسميه: الحضارة.

بدأتُ مؤخراً أجمع الكتب القديمة المشهورة بأخطائها المطبعية. يوجد عالم من المفارقة الساخرة فيها. الأناجيل على نحوٍ خاص. لم أرَ أيّاً منها في الواقع في طبعاتها الأصلية، لكن في تلك الأيام عندما كانت الطباعة نادرة، كانت تنتشر طبعة واحدة من الكتاب المقدّس في فترةٍ ما، ويحفظها الناس عن ظهر قلب، وقد أصبحت أخطاؤها مشهورة. ففي عام 1823، ظهرت

في العهد القديم عبارة «فقامت رفقة وجمالها camels» -بدلاً من: فقامت رفقة وفتياتها damsels- وعُرف بإنجيل الجمل؛ وفي عام 1804، ورد في إنجيل الأسود أن «الأبناء أنجبتهم أسود lions» بدلاً من أن ينجبهم من صلبه loins؛ وفي إنجيل القتلة في عام 1801، لم يدمدم (murmur) المتذمّرون، في رسالة يهوذا وإنما قُتلوا murdered. وفي إنجيل الأسماك الواقفة، لا بدّ أن الصيّادين نظروا بدهشة للأسماك الواقفة على الشاطئ من عين جدي إلى عين عجلايم(*). توجد العشرات من هذه الأناجيل المليئة بالأخطاء: إنجيل الدبس، وإنجيل الدبّ، وإنجيل البقّ، وإنجيل الخلّ. وفي إنجيل الخطيئة، حضَّ يوحنا في الآية 14 من الإصحاح الخامس المؤمنين على «ارتكب خطايا أكثر Sin on more»، بدلاً من حضّهم على ألّا «يخطئوا بعد الآن Sin no more». كلب إيفول! كلب هو. !Evol's dog! Dog ho

لا أستطيع مقاومة هذه الأناجيل الثمينة. إنها تقودني إلى التساؤل ما هو الإنجيل الذي كتبه أبي في إفريقيا. لقد جئنا موسومين بمثل هذه الأخطاء ولا يمكن أن نعرف أبداً أيّ خطأ منها ترك انطباعاً دائماً. أتساءل ما إن كانوا ما يزالون يفكّرون به وهو يقف شامخاً أمام المجتمعين ويصرخ: «تاتا المسيح بانغالا».

أفكّر به تماماً هكذا. إننا ميزان ضررنا وتجاوزاتنا. إنه أبي الذي أمتلكُ نصف جيناته وكلّ تاريخه. إني أعتقد بأنّ الأخطاء هي جزء من القصّة. لقد ولدت لأب يعتقد اعتقاداً راسخاً بأنه لا يقول إلّا الصدق، بينما يلقي طوال الوقت إنجيل شجرة السم.

(*) في الآية أن الصيّادين fishers هم من كانوا واقفين، وليس السمك fish، كما ظهرت بسبب الخطأ المطبعي الذي تشير إليه إدا. [م].

الكتاب السابع

العيون في الأشجار

انزلاق البطن فوق الغصن. الفم فاغر، أزرق بلون السماء. أنا كلّ ما هو موجود هنا. العيون في الأشجار لا ترمش أبداً. تتوسّلين إليّ لأن أطلق ابنتك، أختك، أختك. لكني لست وحشاً صغيراً وليس لدي سببٌ للحكم. لا توجد لديّ أسنان ولا سبب. إذا أحسستِ بشيء ينهش عظامك، فهذا أنت وحسب. جائعة.

أنا مونتو إفريقيا، مونتو طفل واحد ومليون طفل فُقدوا كلّهم في اليوم نفسه. أنا طفلتك السيئة التي أصبحت جيّدة الآن، لأنه فقط عندما يموت الأطفال يصبحون جيّدين. هذا مكسبنا على المدى البعيد العظيم، وخسارتك. تبكي الأمّ على ما تتذكّره، لكنّها تتذكّر الطفلة الثمينة التي حصدها الزمن، ولا يلام الموت على ذلك. إنها ترى البراءة، المملكة البكر، الزعيم العظيم المقتول، الحفرة الفارغة الكبيرة التي اتخذت شكل الطفلة التي ستكبر وتصبح مهمة. لكن هذا ليس ما نحن عليه. قد ينشأ الطفل ويصبح شرّيراً أو يكون الطيبة نفسها، ولكن من المؤكّد تقريباً أنه سيكون عادياً. كان من الممكن أن يرتكب أخطاء تسبّب لك ألماً، ويأكل العالم بلقمة واحدة. لكنّك أرسلتنا إلى مملكة في مكان آخر، حيث نتحرّك في الغابة دون أن نمسّها، ولا تسقط الأشجار بالفأس، ويكون كلّ شيء كما لا يمكن أن يكون.

نعم، كلّكم متواطئون مع هذا السقوط، ونعم، لقد رحلنا إلى الأبد. ذهبنا إلى الخراب الغريب الذي يجب أن يُطلق عليه اسم آخر. سمِّها مونتو: كلّ ما هو موجود هنا.

أيتها الأمّ، توقّفي، اسمعي! أستطيع أن أراك تقودين أطفالك إلى الماء، وتطلقين عليها قصّة الخراب. هذا ما أراه: أولاً، الغابة. تنمو الأشجار مثل حيوانات عضلية متضخّمة على نحوٍ مفرط. النباتات المتعرّشة تخنق نباتات أخرى وهي تتصارع معها على ضوء الشمس. انزلاق بطن الأفعى فوق الغصن. جوقة من الشتلات تقوّس أعناقها خارج قرم شجرة متعفّنة، تمتصّ الحياة من الموت. أنا ضمير الغابة، لكن تذكّروا أن الغابة تأكل نفسها وتعيش إلى الأبد.

في الأسفل، في رتلٍ على الدرب تسير امرأة وأربع بنات، أزهارٌ شاحبة محكومٌ عليهن بالفناء. تقودهن الأمّ، بعينيها الزرقاوين، تلوّح بيدها أمامها لتُبعد ستارة شبكات العناكب. يبدو أنها تقود فرقة سمفونية. وراء ظهرها، تتوقّف أصغر بناتها لتكسر كلّ غصن تستطيع أن تصل إليه. تحبّ الرائحة الخضراء النفّاذة المنبعثة من أوراق الأشجار المتكسّرة. عندما تمدّ يدها لتقطع ورقة شجر، ترى عنكبوتاً سميناً برتقالي اللون سقط على الأرض. العنكبوت مستلقٍ على ظهره وضعيف، يكافح ليجد أقدامه المدبّبة ويعود إلى الهواء. تمدّ الطفلة إصبع قدمها برقّة وتسحق العنكبوت. ينبثق دمه الداكن على الجانبين، بشكلٍ مخيف. تركض الطفلة لتلحق بالأخريات.

عند ضفة النهر يتناولن طعام غداءهن، ثمّ يخُضن في النهر ليصرخن من الماء البارد. الجلبة التي يحدثنها تخيف حيوان أكاب صغيراً، فيهرب. كان قد بدأ مؤخراً يسكن هذه الأرض على أطراف القرية. لو لم يأت الأطفال اليوم، لاختار الأكاب هذا المكان ليستقر فيه. كان سيبقى حتى الشهر الثاني من الفصل الجاف، ثم سيأتي صيّاد ويقتله. لكن بدلاً من ذلك، أخافته الأمّ وبناتها، ودفعته غريزته الحذرة إلى الولوج إلى مكان أعمق في الغابة ليجد رفيقاً له يعيش معه بقية السنة. كل شيء له سبب. ولو أن الأمّ وبناتها لم يسرن في هذا الدرب اليوم، لازدادت أغصان الشجرة المكسورة سماكةً وامتدت

أكثر، ولعاش العنكبوت السمين. كلّ حياة صارت مختلفة لأنك مررت من هذا الدرب ولمست التاريخ. حتى الطفلة روث ماي لمست التاريخ. الجميع متواطئ. الأكاب أذعن للعيش، والعنكبوت للموت. كان سيعيش لو استطاع.

اسمعي: أن يكون ميّتاً ليس أسوأ من أن يكون حيّاً. إنه شيء مختلف. يمكن القول إن مجال الرؤية يتسع.

في يوم آخر، المرأة نفسها تسير أمام بناتها في السوق. هذه المرة شعرها أبيض ترافقها ثلاث بنات فقط. لا تعرج أيُّ فتاة منهن في سيرها. لا يسرن في رتل واحد، كما فعلن من قبل. تحيد إحدى الفتيات عن الطريق أحياناً لتتفحّص أثواب القماش وتتحدّث مع التجار بلغتهم. إحدى الفتيات لا تلمس شيئاً، تمسك محفظتها بإحكام على صدرها وحسب، وتضع الثالثة يدها على ذراع أمّها، تبعدها عن الحفر المتربة على الرصيف. الأمّ تنحني وتتحمّل الألم في أطرافها. جميعهن مندهشات لأنهن هنا، مندهشات من أنفسهن ومن بعضهن، لأن الفتيات الأربع لم يجتمعن معاً في مكان واحد منذ أن ماتت الأخت الرابعة. جئن ليقلن وداعاً لروث ماي، أو هكذا يدّعين. يتمنّين أن يجدن قبرها، لكنهن في الحقيقة يودّعن أمّهن. الفتيات يحببنها كثيراً.

السوق حولهن مزدحم بالباعة والمشترين. نسوة يأتين من القرى على أقدامهن إلى سوق المدينة هذا. يكدّسن البرتقال الذي يجلبنه في أهرامات دقيقة، ثمّ يقعين على سيقانهن الرفيعة، ويرخين أرسُغهن النحيلة بين ركبهن. أما نساء المدينة اللاتي يلففن تنانيرهن بطريقة مختلفة قليلاً، فقد جئن لشراء طعام لأسرهنّ. وبأمل أن يخفضن السعر ينثرن الإهانات على سلع أخواتهن مثل حفنات مزعجة من الحصى غير المؤذية. يا له من برتقال فظيع! لقد دفعت نصف هذا السعر من أجل برتقال أفضل الأسبوع الماضي. لكن بائعة

البرتقال تتجاهل هذا الهراء وتتثاءب. إنها تعرف أن كلّ شيء يجد في النهاية مشترياً.

تتحرّك الأمّ والبنات مثل الزيت عبر السائل الأسود الصافي لهذا الحشد، يمتزجن به ثم يَعُدْن لأنفسهن. الزائرات الأجنبيات نادرات جداً هنا، لكنهن لسن غريبات. العيون المُضيَّقة تتبعهن، وتلخّص الاحتمالات. ويلاحقهن الصبية الصغار بأيدٍ ممدودة. تفتح إحدى البنات حقيبتها وتبحث عن قطع نقدية، بينما تمسك ابنة أخرى حقيبتها بإحكام أشد.

أما الفتيان الأكبر سنّاً الذين يحملون أكداساً من القمصان القطنية الملوّنة فيتبعوهنّ سرباً كالذباب. يقفز أحدهم أمام الآخر ليجذب الانتباه إلى سلعته، لكن الزائرات يتجاهلنهم جميعاً، وينحنين ليتفحّصن منحوتات خشبية عادية ومجوهرات مصنوعة من الخرز. يضطرب الصبية ويدفع أحدهم الآخر بضوضاء أكبر.

لكن الموسيقا المنبعثة من دكاكين باعة أشرطة الكاسيت على الرصيف تغطي على كلّ الضوضاء الأخرى. هذه الموسيقا مألوفة لدرجة أنها لا تبدو أجنبية. يلتفت الصبية الصغار والزائرات ونساء القرية جميعاً نحو أصوات منتظمة تنبعث من ثلاثة مغنّين مختلفين، مغنّين شعبيين من أميركا كان أسلافهم المحطّمين أسرى، يبكون وهم مقيّدون في سلاسل حديدية في عنبر سفينة في ميناء قريب جداً. قامت موسيقاهم برحلةٍ دائرية مذهلة. ضاعت هذه الحقيقة عن الموجودين جميعاً. يجب أن يطلق على هذا الخراب اسم آخر. لكن، ما الذي يمكن أن يكون بدلاً من ذلك؟

تبحث المرأة وبناتها عن شيء لن يجدنه. كانت خطّتهن أن يجدن طريق العودة إلى كيلانغا، وأن يعثرن أخيراً على قبر الأخت. إنها رغبة الأمّ أن تضع شاهد قبر عليه، لكنّهن توقّفن. من المستحيل عبور الحدود. ففي الشهور الستّة منذ أن بدأن يخطّطن لرحلتهن، اجتاحت الحرب الكونغو.

حرب فظيعة كان الجميع يعتقدون أنها قريباً ستستحق الثمن الذي دُفع. غليان جيّد -كما يقولون هنا- غليان جيّد يطهّر اللحم الفاسد. فبعد خمس وثلاثين سنة هرب الرجل موبوتو في الليل. خمس وثلاثون سنة من النوم مثل الأموات، والآن تأخذ الأرض المقتولة نَفَساً، تحرّك أصابعها، وتشعّ الحياة عبر أنهارها وغاباتها. العيون في الأشجار تراقب. الحيوانات تفتح أفواهها وتنطق كلمات مدهشة ومبهجة. الببغاء المُستعبَد ميثوسالا الذي التهمت لحمَه أجيالٌ عديدة من المفترسين، يعلن استقلاله بقوة من خلال أفواه النمور وقطط الزباد.

في هذا اليوم نفسه، وفي هذه الساعة المبكّرة نفسها من الصباح، استلقى الرجل موبوتو على السرير في مخبئه. الستائر مسدلة. أنفاسه ضحلة لدرجة أن الغطاء فوق صدره لا يرتفع ولا يهبط: لا توجد إشارة على وجود حياة فيه. جعل السرطان عظامه ليّنة، وغاص لحم يديه بعمق حتى انكشفت عظام أصابعه تماماً. اتخذت شكل كلّ شيء سرقه. كلّ ما طُلب منه أن يفعله، وأكثر من ذلك، وفعله. يقبع الآن في غرفته المظلمة. يد موبوتو اليمنى تسقط، هذه اليد التي سرقت أكثر من أيّ يد أخرى في تاريخ العالم، تتدلّى مرخاة إلى جانب السرير. تنزلق خواتم الذهب الثقيلة إلى مفاصل أصابعه، تتردّد، ثمّ يسقط الواحد تلو الآخر. تسقط على الأرض وتحدث خمس نغمات متباينة: أغنية قصيرة عجائبية في سلم موسيقي قديم خماسي النغمات. امرأة متشحة بالبياض تهرع إلى الباب، معتقدة أنها سمعت الرئيس المريض يعزف أغنية على كاليمبا(*). عندما تراه، تغطّي فمها بيدها.

في الخارج، تتنهّد الحيوانات.

وسرعان ما ستصل الأخبار إلى كلّ مدينة وكوخ، وتستقر مثل نَفَس

(*) آلة موسيقية إفريقية تتكوّن من لوح خشبي مرتبط بأسنان معدنية متداخلة متصلة به، ويُعزف عليها بالنقر على هذه الأسنان بإبهام اليد. [م].

أو رصاصة في جميع الصدور المختلفة. جسد الجنرال آيزنهاور الذي استهلكته أجيال المفترسين سيتكلّم بصوتٍ عالٍ. جسد لومومبا، استُهلك أيضاً، وسيتكلّم بصوتٍ عالٍ. لفترة من الوقت سيُغرق العواء كلّ شيء. أما الآن فإن العالم عالق في تلك المساحة الفارغة الصغيرة التي لم يسمع فيها أحد الخبر بعد. تستمر الحياة للحظة واحدة أخيرة دون تغيير. في السوق يشترون ويبيعون ويرقصون.

تتوقّف الأمّ وبناتها قليلاً عندما يبصرن امرأة يبدو أنهن يعرفنها. إنها ليست المرأة نفسها التي يعرفنها، وإنما طريقتها في اللباس وشيء آخر: لطفها. يعبرن الشارع إلى الرصيف حيث تجلس موليةً ظهرها إلى حائط شمالي بارد. وتنتشر حولها فوق قطعة قماش لامعة مئاتُ الحيوانات الصغيرة المنحوتة من الخشب: فيلة، نمور، زرافات، أكاب. مجموعة كبيرة من الحيوانات الصغيرة في غابة من أشجار غير مرئية. تحدّق الأمّ وبناتها، مأخوذاتٍ بالجمال.

المرأة في عمر البنات تقريباً، لكنها أضخم حجماً منهن بمرّتين. الباني الأصفر ملفوفٌ مرّتين حولها، وصدريتها المزخرفة واطئة تكشف صدرها الكبير. رأسها ملفوف بقماش أزرق سماوي. تفتح فمها، تبتسم ابتسامة عريضة. *Achetez un cadeau pour votre fils* (اشتري هديةً لابنك!) تأمرهنّ بلطف. لا يوجد أيّ أثر للتوسّل في صوتها. تكوّر يدها كما لو كانت مليئة بالماء أو بالحبوب وتشير إلى الزرافات والفيلة الصغيرة. بعد أن استنفدت عبارتها الوحيدة بالفرنسية، بدأت تتكلّم بالكيكونغو بلا خجل، كما لو أنه لا توجد لغة أخرى على الأرض. هذه المدينة بعيدة عن المنطقة التي تنتشر فيها هذه اللغة، لكن عندما تجيبها إحدى البنات بالكيكونغو، لا يبدو عليها التفاجؤ. يتحدّثن عن أطفالهن. كبروا كلّهم على اللعب. آبو. إذاً الأحفاد، تصرّ المرأة، وبعد أن يتشاورن في ما بينهن يخترن ثلاثة فيلة

من الأبنوس لأطفال الابنة. تشتري الجدة الكبرى، أورليانا، الفيَلة. تدقّق النظر في حفنة من النقود المعدنية الغريبة، ثمّ تعطيها كلّها للبائعة. تُخرج المرأة بمهارة القليل الذي تريده، ثم تمرِّر إلى يد أورليانا هدية: أكاب خشبي صغير منحوت على نحوٍ مثالي، وتقول لها: *Pour vous, madame, un cadeau*. (هذا لك يا سيّدتي، هدية).

وضعت أورليانا معجزتها الصغيرة في جيبها، كما كانت تفعل طوال حياتها. تقف الأخريات بنصف استدارة، لكنهن غير راغبات في الذهاب. يتمنّين للمرأة حظّاً سعيداً ويسألنها ما إن كانت من الكونغو. طبعاً، تقول، آبو، ولكي تأتي إلى هذا المكان لتبيع هذه التماثيل المنحوتة كان عليها أن تقطع الطريق كله سيراً على الأقدام، مسافة تزيد على مئتي كيلومتر. وإذا حالفها الحظ أحياناً، يمكنها الدفع لشاحنة كي توصلها مسافةً ما. لكن مع اختفاء السوق السوداء مؤخراً، لم يعد الكثير من التجّار يعبرون الحدود، وسيكون صعباً العثور على شاحنة. وقد تستغرق شهراً حتى تعود إلى أسرتها في بولونغو.

بولونغو!

إي، مونو إيمويسي بولونغو.

على نهر كويلو؟

إي - طبعاً.

هل سمعت مؤخراً أخباراً من كيلانغا؟

عبست المرأة بلطف، غير قادرة على أن تتذكّر مكاناً كهذا.

يصررن: لكن... بالتأكيد.

كانت ليا هي التي تتكلّم الآن بالكيكونغو وشرحت لها مرة أخرى. لعلّ الاسم قد تغيّر خلال عملية التأصيل، مع أنه يصعب تخيّل لماذا. القرية

التالية أسفل النهر، مسيرة يومين فقط على الطريق الذي يمرّ من هناك. قرية كيلانغا! قبل سنوات، كان فيها بعثة تبشيرية أميركية.

لكن لا. تقول المرأة. لا توجد قرية بهذا الاسم. والطريق لا يمر عبر بولونغو. لا توجد إلّا غابة كثيفة، يذهب إليها الرجال لصنع الفحم. إنها متأكّدة من ذلك. لم تكن هناك أيّ قرية على الطريق بعد بولونغو.

بعد أن قالت كلّ ما يجب قوله، أغمضت المرأة عينيها لترتاح. فهمت الأخريات أن عليهن أن يذهبن. ابتعدن عن هذه المرأة وعن قوة إرادتها، لكن تذكّرنها عندما انتقلن إلى أماكن أخرى. سيتذكّرنها كيف مدّت يدها كما لو كانت ممتلئة بالفعل. جالسة على الأرض وقد فرشت قماشتها، هل كانت بائعةً وأماً وعاشقة وبرّيّة. إنها أكثر من بائعة بكثير إذاً، لكن ليس أقل.

أمامهن، فتى صغيرٌ محنيّ الظهر، يضع جهاز الراديو لصق أذنه ويرقص في الشارع. إنه بحجم روث ماي عندما شوهدت على قيد الحياة آخر مرة. تراقب أورليانا خلف ركبتيه اللتين تنثنيان بطريقة الأطفال الصغار، وتبدأ مرة أخرى -كم مرّة على الأمّ أن تفعل ذلك؟- تبدأ تحسب كم سيكون عمري الآن.

لكن هذه المرة ستكون الأخيرة. هذه المرة، قبل أن يتمكّن عقلك من حساب الجواب، سينجرف في الشارع مع الطفل الذي يرقص على أنغام موسيقا إفريقية خرجت وعادت إلى البيت بعد أن تغيّرت. سوف يهدّئ الحيوان الخشبي في جيبك أصابعك التي تبحث عن شيء تلمسه. أماه، يمكنك أن تظلّي هكذا، لكن اغفري! اغفري واسترخي بما أننا كلتانا سنعيش، وسأغفر لك يا أمّي! سأردّ قلوب الآباء على الأبناء، وقلوب الأبناء على آبائهم[*] الأسنان في عظامك هي أسنانك، والجوع جوعك، والمغفرة

(*) سِفر ملاخي 6:4. [م].

مغفرتك! ذنوب الآباء تخصّك، وتخصّ الغابة، وتخصّ حتى أولئك الذين في السلاسل الحديدية، وها أنت ذا تقفين، تتذكّرين أغانيهم. أَنصتي! أزيلي الثقل من على كاهلك وتقدّمي إلى الأمام. تخشين أن تنسي، لكنّك لن تنسي أبداً! ستغفرين وتتذكّرين. فكّري بالكرمة التي التفّت فوق الأرض المربّعة الصغيرة التي كانت ذات يوم قلبي. هذه هي العلامة الوحيدة التي تحتاجين إليها. تحرّكي. تقدّمي إلى النور!

Bibliography

- Achebe, Chinua, *Things Fall Apart.* Doubleday, New York, 1959.
- Boivin, Michael, *The Accidental Anthropologist.* Spring Arbor College Press, Spring Arbor, Michigan, 1995.
- Clark, Dora Jane Armstrong, *Congo Trails.* Vantage Press, New York, 1961.
- Conrad, Joseph, *Heart of Darkness.* London, 1899.
- Dugauquier, D. P., *Congo Cauldron.* Jarrolds, London, 1961.
- Forbath, Peter, *The River Congo.* Houghton Mifflin, Boston, 1977.
- *Guide du Voyageur au Congo Belge et au Ruanda-Urundi.* Édité par L'Office du Tourisme du Congo Belge et du Ruanda-Urundi, Bruxelles, 1954.
- Heinz, G., and H. Donnay, *Lumumba: The last Fifty Days.* Grove, New York, 1969.
- Jahn, Janheinz, trans. Marjorie Grene, *Muntu: African Culture and the Western World.* Grove Weidenfeld, New York, 1958.
- Joris, Lieve, trans. Stacey Knecht, *Back to the Congo,* Macmillan, New York, 1982.
- Kalb, Madeleine G., *The Congo Cables.* Macmillan, New York, 1982.
- Kingsley, Mary, *Travels in West Africa.* Orion, London, 1897.
- Kwitny, Jonathan, *Endless Enemies: The Making of an Unfriendly World.* Congdon & Weed, New York, 1984.
- Laman, K. E., *Dictionnaire Kikongo-Français.* Brussels, 1936.
- Livingstone, David, *Thirty Years' Adventures and Discoveries of*

Dr. David Livingstone and the Herald-Stanley Expedition. Hubbard Bros., philadelphia, 1872.

- Merriam, Alan P., *Congo: Background of Conflict.* Northwestern University, Evanston, 1961.
- Meyers, Margaret, *Swimming in the Congo.* Milkweed, Minneapolis, 1995.
- Schweitzer, Albert, *On the Edge of the Primeval Forest.* A. And C. Black, London, 1921.
- Smith, Alexander McCall, *Children of Wax: African Folk Tales.* Interlink Books, New York, 1991.
- Somé, Malidoma Patrice, *Of Water and the Spirit: Ritual, Magic, and Initiation in the Life of an African Shaman.* G. P. Putnam, New York, 1994.
- Stanley, H. M., *A Travers le Continent Mystérieux, Le Tour du Monde: Nouveau Journal des Voyages.* Vol. XXXVI, no. 913, 1874 -1877, texte et dessins inédits.
- U.S. Congress, *Senate Select Committee to Study Governmental Operations with Respect to Intelligence Activities,* Frank Church, chair, final report of Select Committee, United States Senate. Congressional Record, 1976.
- Visser, John, and David S. Chapman, *Snakes & Snakebite: Venemous Snakes and Management of Snakebite in Southern Africa.* Purnell, Capetown, 1978.
- Wagner, Michael R., *Forest Entomology in West Tropical Africa: Forest Insects of Ghana.* Dordrecht, Kluwer Academic Publishers, Boston, 1991.
- Weissman, Stephen R., «The CIA Covert Action in Zaire and Angola», *Political Science Quarterly,* Summer 1979.
- Williams, John G., *A Field Guide to theBirds of East and Central Africa.* Houghton Mifflin, Boston, 1964.
- Williams, John G., *A Field Guide to the Butterflies of Africa.* Houghton Mifflin, Boston, 1969.
- Winternitz, Helen, *East Along* the Equator. *A Journey Up the Congo and into Zaire.* Atlantic Monthly Press, New York, 1987.

باربرا كينغسولڤِر:

ولدت باربرا كينغسولڤِر عام 1955، ونشأت في ريف كنتاكي. درست علم الأحياء، ثم تفرّغت للكتابة منذ عام 1985. وهي عضوة في الأكاديمية الأميركية للفنون والآداب. تُرجمت كتبها إلى أكثر من ثلاثين لغة، وبعض هذه الكتب يُدرّس في مناهج الأدب في المدارس الثانوية والكليات في الولايات المتحدة الأميركية.

حازت كينغسولڤِر في عام 2000 على وسام العلوم الإنسانية الوطنية، كما حازت على جائزة دايتون الأدبية للسلام عن مجمل أعمالها في عام 2011.

نشرت العديد من الكتب والروايات، من أبرزها: «أحلام الحيوان»، «خنازير في الجنة»، «عجائب صغيرة»، «حيوان، نبات، معجزة: عام من الحياة الغذائية»، «لاكونا»، «بلا مأوى».

رُشّحت روايتها «إنجيل شجرة السم» لجائزة بوليتزر، وجائزة أورنج، وفازت بجائزة الكتاب الوطنية لجنوب إفريقيا.

خالد الجبيلي:

مترجم سوري مقيم في الولايات المتحدة الأميركية، عمل لمدة ثمانية عشر عاماً في دائرة الترجمة العربية في هيئة الأمم المتحدة.

ترجم أكثر من خمسين كتاباً من اللغة الإنكليزية إلى اللغة العربية، من

أبرزها: ثلاثية الصلب الوردي لهنري ميلر، «سنتان وثمانية شهور وثمان وعشرون ليلة» و«البيت الذهبي» لسلمان رشدي، «الجانب المظلم للحب» لرفيق شامي، «قواعد العشق الأربعون» و«لقيطة إستانبول» لإليف شافاق، «سخط» لفيليب روث، «عندما بكى نيتشه» و«علاج شوبنهاور» و«مشكلة سبينوزا» لإرفين د. يالوم، وغيرها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

يغادر "ناثان برايس" القسّ المعمدانيّ أميركا المتحضّرة، ذاهباً في مهمّةٍ تبشيرية إلى الكونغو البلجيكية، مصطحباً أسرته، التي تحمل معها كلّ ما يعتقدون أنهم سيحتاجونه، لكن الأرض الإفريقية تفاجئهم، محوّلةً كلّ ما جلبوه إلى شيء عديم القيمة، حتى وجودهم ذاته سيكون مليئاً بالتحدّيات، خصوصاً مع الأحداث السياسية التي تعصف بالبلد الذي يكافح للحصول على استقلاله، وتتدخّل فيه القوى الكبرى، مغتالةً "باتريس لومومبا" أول رئيس وزراء منتخب للبلاد.

تتناوب على سرد الرواية الأمُّ التي تخسر هناك ما لا يمكن تعويضه، وبناتُها الأربع اللواتي تروي كلّ واحدة منهنّ ما يحدث بطريقتها، محاولةً شقّ طريقها المنفصل إلى الخلاص.

"إنجيل شجرة السمّ" رحلةٌ مكثّفة في الأرض الإفريقية النابضة، واستشكافٌ عميق للآخر، مكتوبٌ بسردٍ سلسٍ عملت فيه "باربرا كينغسولفر" على تحويل الخيوط الشائكة للدِّين والسياسة والعِرق إلى قطعةٍ أدبية ذات جمالٍ أخّاذ.

رُشّحت هذه الرواية لجوائز أدبية عدّة، وتُرجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة، وبيع منها أكثر من أربعة ملايين نسخة حول العالم.

470 يوم
غزة

مكتبة
t.me/soramnqraa

تصميم الغلاف نجاح طاهر

ISBN 978-9933-641-49-8

9 789933 641498

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع